

تفسير القرآن الحكيم

تَفْهِيْمُ سُلْطَانِي اَشْرَفِي مَرْيَمِي عَصْرِي لَيْلِي شَامِي اَوَّلِي اَحْمَدِي يَوْمِي اَسْمَاءِي

هذا هو التفسير الوحيد الجامع بين صحيح المأثور ، وصريح العقول ، وتحقيق الفروع والاصول ، وحل المشكلات ، ودحض الشبهات ، واقامة حجج الاسلام ، وبيان سياسته في اصلاح الانام مع حكم التشريع وسنن الله في الاجتماع ، وكون القرآن هداية عامة للبشر في كل زمان ومكان ، وحجة الله وآيته المعجزة للاناس والجان ، وبوازن بين هدايته وما عليه المسلمون في هذا العصر من الضعف والعجز وقد أعرض أكثرهم عنها ، وما كان عليه سلفهم من السيادة والعزة اذ كانوا معتمدين بحملها ، بما يثبت انها هي السبيل لسعادة الدنيا والدين ، مراعي فيه السهولة في التعبير ، محتثا بكثرة مزج الكلام باصطلاحات العلوم والفنون ، بحيث تهدي به العامة ، وهو منتهى طلبه الخاصة . وهذه هي الغاية التي توخاها في دروسه في الازهر حكم الاسلام الاستاذ الامام

الشيخ محمد عبده فدى الله روحه

الجزء الثاني

وفيه خلاصة ما قاله الاستاذ الامام في دروسه بالجامع الازهر وقد قرأ
أكثر من نصفه قبل طبعه وبعده

« تَأْلِيف »

السید محمد رشید رضا

ما شئى بحسب الله المتكبر

﴿ حقوق الطبع والترجمة محفوظة للمؤلف ﴾

الطبعة الثانية في مطبعة المنار بمصر سنة ١٣٥٠ هـ وفيها زيادات وتحقيقات مهمة

الجزء الثاني

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٤٢) سَيَقُولُ الْكَافِرُ هَذَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ قَدْ يُفْتَنُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٤٣) وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ ، وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ، وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ عِبَادَهُ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ

كان أنبياء بني إسرائيل يصلون إلى بيت المقدس وكانت صخرة المسجد الأقصى المعروفة هي قبلتهم ، وقد صلى النبي والمسلمون إليها زمناً ، وكان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يتشوف لاستقبال الكعبة ، ويتعنى لو حول الله القبلة إليها ، بل كان يجمع بين استقبالها واستقبال الصخرة في مكة فيصل في جهة الجنوب مستقبلاً للشمال فلما هاجر منها إلى المدينة تعذر هذا الجمع فتوجه إلى الله تعالى بجعل الكعبة هي القبلة فأمره الله بذلك كما يأتي تفصيله في الآيات الآتية ، وقد ابتدأ

الكلام في هذه المسألة ببيان ما يقع من اعتراض اليهود وغيرهم على التحويل ، وإخبار الله نبيه والمؤمنين به قبل وقوعه ، وتلقينهم الحجة البالغة عليه ، والحكمة السديدة فيه ، ويتضمن هذا بيان سر من أسرار الدين وقاعدة عظيمة من قواعد الإيمان كان أهل الكتاب في غفلة عنها وجهل بها ، فهذه الآيات متصلة بما قبلها في كونها بحاجة لأهل الكتاب في أمر الدين لا مالتهم عن التقليد الاعمى فيه ، والجود على ظواهره من غير تفقه فيه ولا نفوذ الى أسرارهِ وحكمه التي لم تشرع الاحكام إلا لأجلها . قال عز وجل

﴿ سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها ﴾ السفة والسفاهة الاضطراب في الرأي والفكر أو الاخلاق يقال : سفه حمله ورأيه ونفسه ، ومنه : زمام سفية ، أي مضطرب لمرح الناقة ومنازعتها إياه . واضطراب الحلم — العقل — والرأي جهل وطيش ، واضطراب الاخلاق فساد فيها لعدم رسوخ ملكة الفضيلة . قال البيضاوي في تفسير السفهاء وأحسن ما شاء : هم الذين خفت أحلامهم واستمهنوها بالتقليد والاعراض عن النظر ، يريد المنكرين لتغيير القبلة من المنافقين واليهود والمشركيين . وفائدة تقديم الاخبار توطين النفس وإعداد الجواب اهـ وولاه عن الشيء صرفه عنه والاستفهام للانكار والتعجب . والمعنى : سيقول سفهاء الاحلام السفهاء : أي شيء جرى لهؤلاء المسلمين فحولهم وصرفهم عن قبلتهم التي كانوا عليها وهي قبلة النبيين من قبلهم ؟ وهاك تفصيل الجواب : ليست صخرة بيت المقدس بأفضل من سائر الصخور في مادتها وجوهرها ، وليس لها منافع وخواص لا توجد في غيرها ، ولا هيكل سليمان في نفسه من حيث هو حجر وطن أفضل من سائر الابنية ، وكذلك يقال في الكعبة والبيت الحرام كما تقدم في تفسير (١٢٧) وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت (وإنما يجعل الله للناس قبلة لتكون جامعة لهم في عبادتهم الى آخر ما تقدم شرحه في تفسير (١١٥) والله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله) وفي الكلام على الكعبة والحج . ولكن سفهاء الاحلام من أهل الجود والمقلدين لهم يظنون أن القبلة أصل في الدين من حيث هي الصخرة المعبودة أو البناء المعين ، ولذلك كانت الحجة التي لقنها الله لنبيه في الرد على السفهاء الجاهلين

لهذه الحكمة ﴿ قل لله المشرق والمغرب ﴾ أي إن الجهات كلها لله تعالى لا فضل لجهة منها بذاتها على جهة ، وإن لله أن يخصص منها ما شاء فيجعله قبلة لمن يشاء ، وهو الذي ﴿ يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾ وهو صراط الاعتدال في الأفكار والأخلاق والأعمال كما يبين في الآية الآتية . فعلم أن نسبة الجهات كلها إلى الله تعالى واحدة وإن العبرة في التوجه إليه سبحانه بالقلوب ، واتباع وحيه في توجه الوجوه .

قال تعالى ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطا ﴾ وهو تصريح بما فهم من قوله (والله يهدي من يشاء) الخ أي على هذا النحو من الهداية جعلناكم أمة وسطا . قالوا إن الوسط هو العدل والخيار وذلك أن الزيادة على المطلوب في الأمر إفراط ، والنقص عنه تفريط وتقصير ، وكل من الإفراط والتفريط ميل عن الجادة القويمة فهو شر ومذموم ، فالخيار هو الوسط بين طرفي الأمر أي المتوسط بينهما . قال الأستاذ الامام بمد إيراد هذا : ولكن يقال لم اختيار لفظ الوسط على لفظ الخيار مع أن هذا هو المقصود والاول أنما يدل عليه بالالتزام ؟ والجواب من وجهين (أحدهما) أن وجه الاختيار هو التمهيد للتعليل الآتي فإن الشاهد على الشيء لا بد أن يكون عارفا به ، ومن كان متوسطا بين شيئين فإنه يرى أحدهما من جانب وثنائيهما من الجانب الآخر ، وأما من كان في أحد الطرفين فلا يعرف حقيقة حال الطرف الآخر ولا حال الوسط أيضا (وثنائيهما) أن في لفظ الوسط إشعارا بالسببية فكأنه دليل على نفسه ، أي أن المسلمين خيار وعدول لأنهم وسط ، ليسوا من أرباب الغلو في الدين المفرطين ، ولا من أرباب التعطيل المفرطين ، فهم كذلك في العقائد والأخلاق والأعمال

ذلك أن الناس كانوا قبل ظهور الإسلام على قسمين — قسم تقضي عليه تقاليده بالمادية المحضة فلا هم له إلا الحظوظ الجسدية كاليهود والمشركين ، وقسم تحكم عليه تقاليده بالروحانية الخالصة ، وترك الدنيا وما فيها من اللذات الجسمانية ، كالنصارى والصابئين وطوائف من وثني الهند أصحاب الرياضات

وأما الأمة الإسلامية فقد جمع الله لها في دينها بين الحقين حق الروح وحق

(البقرة : ص ٢) كون المسلمين شهداء على الناس والرسول شهيداً عليهم ٥

الجسد، فهي روحانية جثمانية، وان شئت قلت انه أعطاها جميع حقوق الانسانية ، فان الانسان جسم وروح ، حيوان وملاك . فكأنه قال : جعلناكم أمة وسطا

تعرفون الحقين ، وتبلغون السكالين ﴿ لتكونوا شهداء ﴾ بالحق ﴿ على الناس ﴾ الجسمانيين بما فرطوا في جنب الدين ، والروحانيين اذ أفرطوا وكانوا من الغالين ، تشهدون على المفرطين بالتعطيل القائلين : (إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر) بأنهم أخذوا الى البهيمية ، وقضوا على استعدادهم بالحرمات من المزايا الروحانية ، وتشهدون على المفرطين بالغلو في الدين القائلين : ان هذا الوجود حبس للارواح وعقوبة لها ، فعلينا أن نتخلص منه بالتخلي عن جميع اللذات الجسمانية وتعذيب الجسد وهضم حقوق النفس ، وحرمانها من جميع ما أعده الله لها في هذه الحياة . تشهدون عليهم بأنهم خرجوا عن جادة الاعتدال ، وجنوا على أرواحهم بجنايتهم على أجسادهم وقواها الحيوية ، تشهدون على هؤلاء وهؤلاء ، وتسبقون الامم كلها باعتدالكم وتوسطكم في الامور كلها ، ذلك بأن ما هديتم اليه هو السكال الانساني الذي ليس بعده كمال ، لان صاحبه يعطي كل ذي حق حقه - يؤدي حقوق ربه ، وحقوق نفسه ، وحقوق جسمه ، وحقوق ذوي القربى ، وحقوق سائر الناس ، ﴿ ويكون الرسول عليكم شهيدا ﴾ أي إن الرسول عليه الصلاة والسلام هو المثال الاكمل لمرتبة الوسط ، وإنما تكون هذه الامة وسطا باتباعها له في سيرته وشريعته ، وهو القاضي بين الناس فيمن اتبع سنته ومن ابتدع لنفسه تقاليد أخرى أو حدا حدو المبتدعين ، فكما تشهد هذه الامة على الناس بسيرتها وارتقاها الجسدي والروحي بأنهم قد ضلوا عن القصد ، يشهد لها الرسول بما وافقت فيه سنته وما كان لها من الاسوة الحسنة فيه ، بأنها استقامت على صراط الهداية للمستقيم ، فكأنه قال : إنما يتحقق لكم وصف الوسط إذا حافظتم على العمل بهدي الرسول واستقمتم على سنته ، وأما إذا انحرفتم عن هذه الجادة فالرسول بنفسه ودينه وسيرته حجة عليكم بأنكم لستم من أمته التي وصفها الله في كتابه بهذه الآية وبقوله (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر) الخ بل

تخرجون بلا بداع من الوسط وتكونون في أحد الطرفين كما قال الشاعر وقد استشهد به الزمخشري في تفسير الآية :

كانت هي الوسط المحمي فاكتنفت بها الحوادث حتى أصبحت طرفا
(الاستاذ الامام) يقال ان هذا خير عظيم بمنحة جليلة ، ومنة بنعمة كبيرة ،
فلم يجيء به معترضا في أطواء الكلام عن القبلة ، ولم يجيء . ابتداءً أو في سياق
تعداد الآلاء والنعم ؟ والجواب ان الله تعالى علم أن الفتنة بمسألة القبلة ستكون
عظيمة ، وأن سيقول أهل الكتاب ان محمداً ليس على بيعة من ربه لانه غير قبلته ،
ولو كان الله هو الذي أمره بالصلاة إلى بيت المقدس لما نهاه عنه ثانياً وصرفه عن
قبلة الانبياء . ويقول المنافقون انه صلى أولاً الى بيت المقدس اسمالة لأهل الكتاب
ودهاناً لهم ، ثم غلب عليه حب وطنه وتعظيمه فعاد الى استقبال الكعبة ، فهم مضطرب
في دينه . وأمثال هذه الشبهات على كونها تدل على عدم الاعتدال في أفكار قائلها
تؤثر في نفوس المسلمين ، فالمطمئن الراسخ في الايمان يحزن لشكوك الناس وتشكيكهم
في الدين ، والضعيف غير المتمكن ربما يضطرب ويتزلزل ، لذلك بدأ الله باخبار
المسلمين بما سيكون بعد تحويل القبلة من إثارة رباح الشبه والتشكيك ، ولقنهم
الحجة ، وبين لهم ما فيها من الحكمة ، وبين لهم منزلتهم من سائر الامم وهي أنهم
أمة وسط لاتقلو في شيء ، ولا تقف عند الظواهر ، وأنهم شهداء على الناس وحجة
عليهم باعتدالهم في الامور كلها ، وفهمهم لحقائق الدين وأسراره ، ومن أهمها ان القبلة
التي يتوجه اليها لا شأن لها في ذاتها ، وإنما العبرة فيها باجتماع أهل الملة على جهة
واحدة وصفة واحدة عند التوجه إلى الله تعالى

ولما كانت نسبة الجهات اليه سبحانه وتعالى واحدة إذ لا تحصره ولا تحدده
جهة كان التزام الجهة العينية منها لغير مجرد الانبعاث لأمر الرسول عن الله تعالى
ميلا مع الهوى او تخصيصا بغير مخصص ، وكلاهما مما لا يرضاه لنفسه العاقل المعتدل
في أمره ، نعم ان له أن يسأل عن حكمة التحول والانتقال لاسيا بعد ما ثبت بالواقع
ان الرسول الذي أمر به لم يأمر إلا بما ظهرت فائده ومنفعته للمعتقلين له من إصلاح
النفوس وحملها على الخير وتوجيهها إلى البر مما دل عليه انه . يؤيد من الله تعالى

وجملة القول أن إعلام الله رسوله والمؤمنين بما سيكون من الكافرين والمنافقين ، وتلقيه إياهم الحجة ، وإنزالهم منزلة الشهداء والمحكمين ، ثم تبينه لهم حكمة التأويل ، — كان مؤيداً ومسدداً لهم ونوراً يسمى بين أيديهم في ظلمة تلك الفتنة المظلمة ، ولعمري أن هذه هي البلاغة التي لا غاية وراءها — إعلام بما سيكون من اضطراب السفهاء في أقوالهم أشير إليه بالاستفهام مجملاً ، ولم يذكر معه وجه الشبهة حتى لا تسبق إلى النفوس ، والغرض إقامة الموانع من تأثيرها عند ورودها من أربابها — واختصار للبرهان ببيان أن المشرق والغرب كسائر الجهات لله تعالى ، أي يخصص منها ما يشاء فيجعله قبلة لمن يشاء — وبيان لمكانة الأمة الحميدة التي أعطيت كل أصل ديني بدليله وحكمته ، وكلفت العدل والاعتدال في الأمر كله ، أي فلا يليق بها أن تنال بانتقاد السفهاء المذبذبين بين الإفراط والتفريط

﴿ وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول من ينقلب على عقبيه ﴾ اي وما جعلنا القبلة فيما مضى هي الجهة التي كنت عليها الى اليوم ثم أمرناك بالتحويل عنها الى الكعبة الا ليقين لك وللمؤمنين الثابت على ايمانه ممن لا ثبات له ، فتعلموا المتبع للرسول من المنقلب على عقبيه ، برجوعه إلى الكفر الذي كان عليه ، أو الا ليكون علماً الفبي بحقيقة أمرهما ومآلها علم شهادة بوقوع متعلقه وهو الذي يترتب عليه الجزاء . أي ان الله تعالى يختبر المؤمنين بما يظهر به صدق الصادقين ، وريب المرتابين ، وعاقبة المنافقين ، ليرتب عليه الجزاء . وانما يثبت من فقه في الشيء فعرف سره وحكمته ، وأما المقلد الآخذ بالظواهر من غير فقه ولا عرفان والمذاق غير المطمئن بالإيمان ، فلا يثبتان في مهاب عواصف الشكوك والشبهات وقال مفسرنا الجلال : وما صيرنا القبلة لك الآن الجهة التي كنت عليها أولاً وهي الكعبة الخ — وهو مبني على قول الاقلين ان النبي ﷺ كان يصلي أولاً الى الكعبة ثم أمر بالصلاة إلى بيت المقدس ، فيكون النسخ قد حصل مرتين ، والا كثرون على أن المراد بالقبلة التي كان عليها بيت المقدس

قال بعض المحققين ان هذه الجملة من قبيل (وما جعلنا الرؤيا التي أريناك الا فتنة للناس) فالرؤيا لم تكن بنفسها فتنة وانما افتتن الناس اذ أخبروا بها ولم يفقهوا

المراد منها . كذلك القبلة ليس في جعل جهة كذا قبلة فتنة واختبار للناس ، وإنما الفتنة فيما ترتب على ذلك من حيث كونه صرفاً عن قبلة الى غيرها ، فالسفهاء والجهال الذين لا يفقهون ينكرون هذا التحويل ويرونه امراً إدارياً ، والذين هداهم الله الى فقه ذلك يرونه أمراً حكماً جدياً ، ولذلك قال تعالى (وان كانت لكبيرة الا على الذين هدى الله) فمنحهم الاعتدال في الفكر والادراك وفي الميل والرغبة قاله الاستاذ الامام ثم قال ماثله موضعاً : قوله تعالى (لنعلم) معهود في القرآن كثيراً ، ومثله (ليعلم) أن قد أبلغوا رسالات ربهم) وقوله (ليعلم الله من يخافه) والعقل والنقل متفقان على أن علمه تعالى قديم لا يتجدد ، وللمفسرين في هذه الالفاظ أقوال ذكر الاستاذ الامام أظهرها فقال ماثله : جرت عادة العرب في لغتها أن تنسب الى الرئيس والكبير ما يحدث بأمره وتدبيره ، يقولون فتح الامير البلد وقاتل الجيش . وكثيراً ما يقولون هذا والامير ليس واحداً من العاملين ، فهو أسلوب معهود إذا أريد إسناد الفعل الى الجمهور أستدوه الى المقدم فيهم . ولما كان الله تعالى ولي الذين آمنوا وخاطبهم خطاب السيد صرح بحسب هذا الأسلوب العربي أن يذكر الفعل بصيغة الجمع التي تشمل التكلم وغيره وان كان غيره هو المقصود بالفعل ، فعنى (الا لنعلم) الا ليعلم عبادي المؤمنون بأعلامي ايامهم . وقد علم المؤمنون في هذه الفتنة من هو الثابت على اتباع الرسول ﷺ ومن هو المنافق الذي قلبته ريح الشبهة على عقبيه ، وكان المنافقون مع المؤمنين بحيث لا يماز أحدهم من الاخر لقيامهم جميعاً بأداء الاعمال الظاهرة المطلوبة . وهكذا كان سبحانه وتعالى يمحس ما في القلوب بما يبتي به الناس من الفتن (أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمناً وهم لا يفتنون ؟ ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين) وعلى هذا الأسلوب جاء ما روي في الحديث القدسي « يا عبادي مرضت فلم تعدني ، وجعت فلم تطعمني ، وعطشت فلم تسقني » خرجوه على أن المراد مرض عبادي الفقراء الذين هم عيال الله ، فلم تعدهم الخ نعم ان الرواية غير صحيحة ولكن لم يفهم أحد منها أنها على ظاهرها قطع العقل

بأن هذا محال ولقوله تعالى (ما يريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون) وقالت العرب : أي جائع في بطن غيري وعر يان في ظهر غيري : ويدخل في هذا الأسلوب أيضا مثل قوله تعالى (من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا) أي يعطي عباده المحتاجين ، والله يكافئه عنهم اذ كانوا عاجزين

ونموجه آخر في تفسير (لنعلم) وهو أن المراد بالعلم في مثل هذا علم الظهور والوقوع . ذلك أن الله تعالى يعلم الأشياء قبل وقوعها أنها ستقع لأنها واقعة ويعلمها بعد وقوعها أنها وقعت ، والجزء يترتب على ما وقع بالفعل ، فقوله هنا « لنعلم » يزداد به الثاني أي لنعلم علم وقوع وجود يترتب عليه الثواب والعقاب ، وليس معناه أنه تجدد له علم لم يكن وإنما التجدد في المعلوم لا في نفس العلم ، أي أن المعلوم لم يكن موجوداً ثم وجد وظهر كانه قال : وما جعلنا القبلة جهة بيت المقدس إلا لنحولها ونمتحن المؤمنين بالتحويل ليظهر ما ثبت في العلم القديم من اتباع بعض الناس للرسول واستقامتهم على هدايته ، وانقلاب بعضهم على عقبيه وإظهاره ما أكنه في نفسه من الريب ، وبذلك يمتاز المهتدون من الضالين ، وتقوم الحجة للمؤمنين على الكافرين . ومعنى الانقلاب على العقبين هو الانصراف عن الشيء بالرجوع إلى الوراء وهو طريق العقبين ، فالمنقلبون قد خرجوا من عداد المؤمنين وعادوا إلى ما كانوا عليه من الكفر . ويقال رجع على عقبيه ونكص على عقبيه وأبلغها انقلاب على عقبيه لما فيها من الأشعار بأنه رجع عن خير إلى شر أو من سوء إلى أسوأ قال الأستاذ الامام : ومن قبيل استعمال العلم في متعلقه وما يصدق عليه قوله تعالى (قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي) الآية وقوله (ولو أن مافي الارض من شجرة اقلام والبحر مدد من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله) فالمراد من الكلمات هنا الموجودات كلها عبر عنها بذلك لان كل موجود منها وجد بكلمة الله (كن) اه أقول : والاختار عندي التعبير عن علمه تعالى بالشيء قبل وجوده بعلم الغيب وبعد وجوده بعلم الشهادة كما قلت آنفاً . وان كلمات الله في الآيتين الاخيرتين كانت التكوين أنفسها لا متعلقاتها التي هي الموجودات ، فعلم الله قسماً : غيب وشهادة . وكلماته قسماً : تشريع وتكوين

ثم قال جل شأنه ﴿ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً ﴾ أي وإن القبلة أوقصتها في نسخها والتحول عنها لكبيرة الشأن شديدة الوقع فيما كان من أمر الناس — أو ما كانت

الإكبرة يشق التحول عنها ﴿ إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ﴾ أي هداهم إلى المعرفة به والعلم بحكم شرعه، فمقلوا أن التعبد بها إنما يكون بطاعة الله بها لا بسر في ذاتها أو مكانها، وإن حكمتها اجتماع الأمة عليها الذي هو من أسباب اتحادهم وجمع كلمتهم

﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ ﴾ أقول: أي وما كان من شأن الله في حكمته ورحمته أن يضيع إيمانكم الباعث لكم على اتباع الرسول في الصلاة والقبلة، فلو كان نسخ القبلة مما يضيع الايمان بنقضه أو نقصه أو فوت ثواب ما كان قبله لما نسخها، أكثر المفسرين ومنهم الجلال على أن المراد بالايان هنا الصلاة إذ ورد أن بعض المؤمنين أحبوا أن يعرفوا حال صلاتهم قبل التحويل أو صلاة من مات ولم يصل إلى الكعبة، فأراد الله أن يبين لهم أنه يتقبل من الصلاة ما كان أثر الايمان الخالص، أي متى كنتم تصلون إيماناً واحتساباً لا رياء ولا سمعة، فصلاتكم مقبولة لأنها أثر الايمان الراسخ في القلب، المصالح للنفس، فتسمية الصلاة على هذا إيماناً ليس لأنها أعظم أركان الدين بل الإشارة إلى أن مزيته في منشئها الباعث عليها من الايمان والاخلاص، ولذلك يقرن الايمان دائماً بذكر الصلاة والزكاة: فالصلاة آية الايمان القلبية الخفية لأنها لا تكون آية الا باخلاص القلب، والزكاة هي الدليل الحسي الظاهر عليه. وقد يغش الجاهل نفسه بالصلاة فيتوهم أنه أقامها كما أمر الله إذا أدى هذه الاعمال الظاهرة التي هي صورتها، وإن كانت هذه الصورة خالية من روح الاخلاص والتوجه القلبي إلى الله تعالى، ولكن الزكاة آية خسية على الايمان، لا يقدر أن يغش نفسه بها إنسان، فليحاسب مؤمن بالله وكتابه نفسه

وقال الاستاذ الامام: إن سياق الآية بل الآيات يدل على أن الايمان هنا مستعمل في معناه فإنه لما بين أمر الغتة في تحويل القبلة وبين أن من الناس من ينقلب إلى الكفر ويترك الايمان، ومنهم من ثبت على ايمانه عالماً أن الاعمال في مثل مسألة القبلة على اتباع الرسول، لأن الجهات في نفسها متساوية لا فضل لجهة منها على جهة،

(البقرة : ص ٢) بلاغة القرآن في سياقه وعزيق رواة أسباب النزول لها ١١

حشر هؤلاء المؤمنين المتبعين بأنهم يحزون على إيمانهم الجزاء الاوفى فلا يضع الله أجراً لهم ، ولا يليتهم من ثباتهم على اتباع الرسول شيئاً .
وهذا الذي قاله الامام ظاهر لكل من يفهم هذا السياق العجيب ومن عجيب شأن رواة أسباب النزول انهم يحزون الطائفة الملتزمة من الكلام الالهي ويجمعون القرآن عشرين متفرقة ، بما يفككون الآيات ويفصلون بعضها من بعض ، وبما يفصلون بين الجمل الموثقة في الآية الواحدة فيجمعون لكل جملة سبباً مستقلاً كما يجمعون لكل آية من الآيات الواردة في مسألة واحدة سبباً مستقلاً . انظر هذه الآيات تجد إعجازها في بلاغة الاسلوب أن مهتد للأمر بتحويل القبلة ما يشعر به في ضمن حكاية شبهة المعارضين التي ستقع منهم ، وبتهوين هذه الشبهة بإسنادها الى السفهاء من الناس وإيرادها مجملة ، وبوصلها بالدليل على فسادها ، وبذكر هداية الصراط المستقيم الذي لا التواء فيه ولا اعوجاج ، ولا تفريط عند سالكيه ولا إفراط ، وبذكر مكانة هذه الامة بدينها ، واعتدالها في جميع أمرها ، وبيان الحكمة في جعل القبلة الاولى قبله ثم التحويل عنها ، وبالتلطف في الاخبار عما سيكون من ارتداد بعض من يدعون الايمان عن دينهم افتناناً بالتحويل ، وجهلاً بالامر ، إذ أورد الخبر في سياق بيان الحكمة حتى لا يعظم وقعه على النبي والمؤمنين ، وبيان أن المسألة كبيرة على غير النعم عليهم بالهداية الالهية التي سبق ذكرها ، وهي الايمان الكامل بمعرفة دلائل المسائل وحكم الاحكام ، ثم بتبشير المؤمنين المهتدين الثابتين على اتباع الرسول ﷺ بآية الله إليهم برأفته ورحمته ، وفضله وإحسانه . وبعد هذا كله أمره بالتحويل أمر أصريحاً كما سيأتي في تفسير بقية الآيات . أفصح في مثل هذا السياق الموثق بعض جملة وآياته ببعض ان تفكك وثقه ويجعل نتفانتها ، ويقال ان كل جملة منه نزلت لحادثة حدثت ، أو كلمة قيلت ، وان أدى ذلك الى قلب الوضع ، وجعل الاول آخرأً والآخر أولاً ، وجعل آيات التمهيد متأخرة في النزول عن آيات المقصد ؟ أنسمح لنا اللغة والدين ، بأن نجعل القرآن عشرين ، لاجل روايات رويت وان قيل ان اسناد بعضها قوي بحسب ما عرف من تاريخ الراوين ؟

وان الله بالناس لرؤف رحيم ﴿ هذه الجملة استئناف لبيان علة النفي في التي

قبلها ، وان توفية المؤمن الخالص أجره هي من آثار رأفته ورحمته سبحانه فلا يخشى ان تتخلف وان يضع أجر المؤمنين الصادقين . قل الجلال : والرأفة شدة الرحمة وقدم الابلغ للفاصلة ، وأنكر الاستاذ الامام هذا القول أشد الانكار وينكر مثله في كل موضع فيقول ان كل كلمة في القرآن موضوعة في موضعها اللائق بها فليس فيه كلمة تقدمت ولا كلمة تأخرت لاجل الفاصلة . لان القول برعاية الفواصل اثبات للضرورة كما قالوا في كثير من السجع والشعر انه قدم كذا وأخر كذا لاجل السجع ولاجل القافية . والقرآن ليس بشعر ، ولا التزام فيه للسجع ، وهو من الله الذي لا تعرض له الضرورة بل هو على كل شيء قدير ، وهو العليم الحكيم الذي يضع كل شيء في موضعه . وما قال بعض المفسرين مثل هذا القول الا لتأثرهم بقوانين فنون البلاغة وغلبتها عليهم في توجيه الكلام ، مع الغفلة في هذه النقطة عن مكانة القرآن في ذاته ، وعدم الالتفات الى ما لكل كلمة في مكانها من التأثير الخاص عند أهل الذوق العربي اهـ (وأقول) ان المسألة خلافية ، والتحقيق ان الفواصل ملتزمة في القرآن لكن بغير أدنى ضرورة ولا ما يمكن أن يوصف بأنه تكلف بترجيح اللفظ على بلاغة المعنى ، وإنما هو كقوله (والعاقبة للمتقين) وقوله (والعاقبة للمتقوى) . (نعم قل) وعندى ان الرأفة أثر من آثار الرحمة والرحمة أعم ، فان الرأفة لا تستعمل إلا في حق من وقع في بلاء^(١) والرحمة تشمل دفع الألم والضرر وتشمل الاحسان وزيادة الاحسان ، فذكر الرحمة هنا فيه معنى التعاليل والسببية وهو من قبيل الدليل بعد الدعوى ، فهو واقع في موقعه كما تحب البلاغة وترضى ، كأنه قال ان الله رؤوف بالناس لانه ذو الرحمة الواسعة فلا يضيع عمل عامل منهم ، ولا يبتليهم بما يظهر صدق ايمانهم وإخلاصهم في اتباع رسوله ليضيع عليهم هذا الايمان والاخلاص ، بل ليجزئهم عليه أحسن الجزاء

واذا كان أثر الرأفة دفع البلاء كما قال الاستاذ الامام فيجوز أن يكون ذكر الرحمة بعدها إيماء الى أنه لا يكتفي تعالى بدفع البلاء عن المؤمنين برأفته ، بل

(١) وكذا الضعيف كالطفل واليتيم كما حققته في تفسير قوله (٩ : ١١٧) انه بهم رؤوف رحيم) من سورة التوبة (ص ٦٦ ج ١١)

يعاملهم بعد ذلك بالرحمة الواسعة والاحسان الشامل ويزيدهم من فضله .
ثم إن المفسرين قد بينوا أن كلا من الرأفة والرحمة في الانسان انفعال في
النفس أثره ما ذكر آتفا من الاحسان ودفع الضرر ، والانفعال محال على الله تعالى
فتفسر هذه الالفاظ اذا وصف بها سبحانه وتعالى بآثارها وغاياتها التي هي أفعال ،
وهذا من تأويل المتكلمين المخالف لمذهب السلف ، وتقدم شرح هذا المقام في
تفسير سورة الفاتحة (ص ٧٦ ج ١) وفي مواضع أخرى . قرأ الحرمين وابن عامر
وحفص (لرؤف) بالمد والباقون بالقصر

(١٤٤) قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً
تَرْضَاهَا ، فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ
فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ، وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ
أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ، وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا يَتَمَكَّمُونَ (١٤٥) وَلَئِنْ
أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَتَّبِعُوا قِبْلَتَكَ ، وَمَا
أَنْتَ بِتَائِبٍ عَنِهَا ، وَمَا يَعْبُودُونَ بِتَائِبٍ قِبْلَةً بَعْضُ ، وَلَئِنْ
أَتَيْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ
الظَّالِمِينَ (١٤٦) الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ
أَبْنَاءَهُمْ ، وَإِنْ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيْسَ كَتَمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ
(١٤٧) الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ

قلوا كان النبي ﷺ يتشوف لتحويل القبلة من بيت المقدس ويرجوه
بل قال (الجلال) إنه كان ينتظره ، لأن الكعبة قبله أبيه ابراهيم والتوجه اليها
أدعى الى ايمان العرب أي وعلى العرب الموعول في ظهور هذا الدين العام ، لانهم كانوا

أكل استعداداً له من جميع الانام ، قال (الاستاذ الامام) ولا بعد في تشوفه الى قبلة إبراهيم ، وقد جاء باحياء ملته ، وتحديد دعوته ، ولا يعد هذا من الرغبة عن أمر الله تعالى الى هوى نفسه ، كلا ان هوى الانبياء لا يمدو أمر الله تعالى وموافقة رضوانه . ولو كان لأحد منهم هوى ورغبة في أمر مباح مثلاً وأمره الله تعالى بخلافه لا نقلبت رغبته فيه الى الرغبة عنه الى ما أمر الله تعالى به ورضيه ، بل المقام أدق ، والسر أخفى ، إن روح النبي منطوية على الدين في جملته من قبل أن ينزل عليه الوحي بتفصيل مسائله ، فهي تشعر بصفتها وإشراقها بحاجة الامة التي بعث فيها شعوراً إجمالياً كلياً لا يكاد يتجلى في جزئيات المسائل وآحاد الاحكام الا عند شدة الحاجة اليها ، والاستعداد لتشريعها ، عند ذلك يتوجه قلب النبي الى ربه طالباً بلسان استعداده بيان ما يشعر به مجملًا ، وإيضاح ما يلوح له مبهمًا ، فينزل الروح الأمين على قلبه ، ويخاطبه بلسان قومه عن ربه ، وهكذا الوحي إمداد ، في موطن استعداد ، لا كسب فيه للعباد ، واذا كان حكم شرع لسبب مؤقت ، وزمن في علم الله معين ، فان روح النبي تشعر بذلك في الجملة ، فاذا تم الميقات ، وأزف وقت الرقي الى ما هو آت ، وجدت من الشعور بالحاجة الى النسخ ما يوجهها الى الشارع العليم ، والديان الحكيم ، كما كان يتقلب وجه نبينا في السماء تشوقاً الى

تحويل القبلة فذلك قوله تعالى ﴿ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ﴾ أي اننا نرى تقلب وجهك أيها الرسول وتردده المرة بعد المرة في السماء ، مصدر الوحي وقبلة للدعاء ، انتظاراً لما ترجوه من نزول الامر بتحويل القبلة

فسر بعضهم تقلب الوجه بالدعاء ، وحقيقة الدعاء هي شعور القلب بالحاجة الى عناية الله تعالى فيما يطلب ، وصدق التوجه اليه فيما يرغب ، ولا يتوقف على تحريك اللسان بالالفاظ ، فان الله ينظر الى القلوب وما أسرت فان وافقتها الالسنه فهي تبع لها ، والا كان الدعاء لغواً يفضيه الله تعالى ، فالدعاء الديني لا يتحقق الا باحساس الداعي بالحاجة الى عناية الله تعالى ، وعن هذا الاحساس يمر اللسان بالضراعة والابتهاال ، فهذا التفسير ليس بأجنبي من سابقه . فتقلب الوجه في السماء عبارة عن التوجه الى الله تعالى انتظاراً لما كانت تشعر به روح النبي ﷺ وترجوه من

نزول الوحي بتحويل القبلة . ولاتدل الآية على انه كان يدعو بلسانه طالباً لهذا التحويل ولا تنفي ذلك . وقال بعض المحققين : من كمال أدبه ﷺ انه انتظر ولم يسأل . وهذا التوجه هو الذي يحبه الله تعالى ويهدي قلب صاحبه الى ما يرجوه .

ويطلبه لذلك قل عز وجل ﴿ فلنولينك قبلة ترضاها ﴾ أي فلنجعلنك متولياً قبلة تحبها وترضاها ، وقرن الوعد بالامر فقال ﴿ فول وجهك شطر المسجد الحرام ﴾ تولية الوجه الممكن أو الشيء هي جعله قبالة وأمامه ، والتولي عنه جعله وراءه . والشطر في الاصل القسم المنفصل من الشيء . تقول جعله شطرين ومنه شطر البيت من الشعر وهو المصراع منه ، وكذا المتصل كشطري الناقة وأشطرها وهي أخلافها : شطران أماميان وشطران خلفيان . ويطلق على النحو والجهة وهو المراد هنا ، فالواجب استقبال جهة الكعبة في حال البعد عنها وعدم رؤيتها ، ولا يجب استقبال عينها إلا على من يراها بعينه ، أو يلمسها بيده أو بدنه . فان صح اطلاق الشطر على عين الشيء في اللغة فلا يصح ان يراد هنا لما فيه من الحرج الشديد لا سيما على الأمة الامية . ثم أمر بذلك المؤمنين عامة فقال ﴿ وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره ﴾ أي وفي أي مكان كنتم فاستقبلوا جهته بوجوهكم في صلاتكم ، وهذا يقتضي أن يصلي المسلمون في بقاع الارض الى جميع الجهات لا كالتصاري الذين يلتزمون جهة المشرق ، ويقتضي أن يعرفوا موقع البيت الحرام وجهته حينما كانوا ولذلك وضعوا علم سمت القبلة وتقويم البلدان (الجغرافية الفلسكية والارضية) . وقد عهد من أسلوب القرآن ان يكون الامر يؤمر به النبي ولا يذكر انه خاص به أمراً له وللمؤمنين به فاذا أريد التخصيص جيء بما يدل عليه كقوله تعالى (ومن الليل فتهجد به نافلة لك) وقوله (خالصة لك من دون المؤمنين) وانما أمر الله المؤمنين في هذه الآية بما أمر به النبي فيها نصاً صريحاً للتأكيد الذي اقتضته الحال في حادثة القبلة ، فانها كانت حادثة كبيرة استتبع فتنة عظيمة ، فاراد الله أن يعلم المؤمنين بعنايته بها ويقررها في أنفسهم ، فاكد الامر بها وشرفهم بالخطاب مع خطاب الرسول عليه الصلاة والسلام لتشدد قلوبهم وتطمئن نفوسهم ، ويتناقوا تلك الفتنة التي أثارها المناقون والكافرون .

بالحزم والثبات على الاتباع والتأليه وهم من سابق الكلام انه خاص به عليه الصلاة والسلام بعد هذا عاد الى بيان حال السفهاء مشيري الفتنة في مسألة تحويل القبلة فقال

﴿ وان الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم ﴾ أي أن تولى المسجد الحرام هو الحق المنزل من الله على نبيه . وجمهور المفسرين على أن أكثر أولئك الغافلين كانوا من أهل الكتاب المقيمين في الحجاز ، ولولا ذلك لم تكن الفتنة عظيمة لان كلام المشركين في مسائل الوحي والتشريع قلما يلتفت اليه وأما أهل الكتاب فقد كانوا معروفين بين العرب بالعلم ، ومن كان كذلك فإن عامة الناس تتقبل كلامه ولو نطق بالحل ، لان الثقة بمظهره ، تصد عن تمحيص خبره ، فهو في حالة الظاهرة شبهة اذا أنكر ، وحجة اذا اعترف ، ولان الجماهير من الناس قد اعتادوا تقليد مثله من غير بحث ولا دليل .

وقد جرى أصحاب المظاهر العلمية والدينية على الانتفاع بفرور الناس بهم ، فصار الغرض لهم من أقوالهم التأثير في نفوس الناس ، فهم يقولون مالا يعتقدون لاجل ذلك ، ويسندون ما يقولون الى كتبهم كذبا صريحا أو تأويلا بعيدا ، كما كان أحرار اليهود يطعنون في النبي ﷺ وما جاء به ويذكرون للناس أقوالا على أنها من كتبهم وما هي من كتبهم ، ان يريدون لا خداعا ، وقد كذب الله هؤلاء الخادعين ، وبين أنهم يقولون غير ما يعتقدون ، كأنه يقول إن هؤلاء قد قام عندهم الدليل على ما سبقت به بشارة أنبيائهم من صحة نبوة الرسول ويعلمون أن أمر القبلة كغيرها من أمور الدين ما جاء به الوحي عن الله تعالى وأنه الحق لا يحصى عنه ، لا مكان معين بذاته لذاته ، ﴿ وما الله بغافل عما يعملون ﴾ فهو المطلع على الظواهر والضرائر ، الحسيب على مافي السرائر ، الرقيب على الاعمال ، فيخبر نبيه بما شاء ان يخبره وإليه المرجع والمصير وعليه الحساب والجزاء ، وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي (قالهون) بالتاء للخطاب سبق القول بان النبي ﷺ كان حريصا على هداية أهل الكتاب راجيا بإيمانهم ما لا يرجوه من ايمان المشركين ، فبمقدار حرصه ورجائه كان يحزنه عروض الشبه لهم في الدين ، ويتمنى لو أعطي من الآيات والدلائل ما يحو كل شبهة لهم ، فلما كانت فتنة تحويل القبلة بمخادعتهم الناس أخبره الله تعالى بأنهم غير

(البقرة : ٢) اعزاد أهل الكتاب وتقليد هم للامعان من اتباعهم الآيات ١٧

مشتبهين في الحق فتزال شبهتهم ، وانما هم قوم معاندون جاحدون على علم ، ثم أعلمه بان الآيات لا تؤثر في المعانيد ولا ترجع الجاحد عن غيه . وقد أجمع المسلمون على فرضية استقبال القبلة في الصلاة ولكن اختلفوا هل هي شرط لصحتها ام لا . وفي بعض الاحاديث ان النبي ﷺ صلى بأصحابه إلى غير القبلة بالاجتهاد ثم ظهر لهم خطأهم ولم يعيدوا . وانما يدل هذا ان صحح على أن خطأ الاجتهاد فيها مغفور . والصحيح ان النبي ﷺ صلى إلى بيت المقدس بعد الهجرة ستة عشر شهراً وان النسخ ينزل هذه الآيات كان في رجب من السنة الثانية . وحديث البراء في صحيح البخاري وغيره انه صلى إلى بيت المقدس ستة عشر او سبعة عشر شهراً بالشك . ورواية ١٦ عند مسلم وغيره بدون شك فهي الصواب

ولئن أنيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك ﴿ أي وتالله لئن جئتكم بكل آية على نبوتك وكل حجة على صدقك ، ما تبعوا قبلتك فضاغن ملتك فلا يحزنك قولهم ولا إعراضهم ، ولا تحسبن الآيات والدلائل مقنعة أو صارفة لهم عن عنادهم ، فهم قوم مقلدون لا نظر لهم ولا استدلال . وكما أباؤهم من اتباعهم قبلته أباؤهم من اتباعه قبلتهم فقال ﴿ وما أنت بتابع قبلتهم ﴾ فانك الآن على قبلة ابراهيم الذي يحلونه جميعاً ، ولا يختلف في حقيقة ملته أحد منهم ، فهي الاجدر بالاجتماع عليهم ، وترك الخلاف اليها ، فاذا كان اتباع ابراهيم لا يرحزهم عن تعصبهم لما ألفوا وعنادهم فيما اختلفوا ، وإذا كان التقليد يحول بينهم وبين النظر في حقيقة معنى القبلة ، وكون الجهات كلها لله تعالى ، وان الفائدة فيها الاجتماع دون الافتراق ، فأبي دليل أم آية آية ترجعهم عن قبلتهم ؟ وأي فائدة ترجى من موافقتك إياهم عليها ؟ ألم تر كيف اختلفوا هم في القبلة فجعل النصارى لهم قبلة غير قبلة اليهود التي كان عليها عيسى بعد موسى ﴿ وما بعضهم بتابع قبلة بعض ﴾ لان كلا منهم قد جحد بالتقليد على ما هو عليه ، والمقلد لا ينظر في آية ولا دليل ، ولا في فائدة ما هو فيه والمقارنة بينه وبين غيره ، فهو أعمى لا يبصر ، أصم لا يسمع ، أغلف القلب لا يعقل (تفسير المنار) (٣) (الجزء الثاني)

ولئن اتبعت أهواءهم بعد ما جاءك من العلم إنك إذا لمن الظالمين ﴿٢﴾ أي ولن
فرض أن تتبع ما يهوونه من الصلاة إلى قبلتهم أو غير ذلك اجتهاداً منك قصد
به استمالهم إلى دينك ، من بعد ما جاءك الحق اليقين بالنص المانع من الاجتهاد ،
والعلم الذي لا مجال معه للظن - انك إذ تفعل هذا فرضاً (وما أنت بفاعله) تكون
من جماعة الظالمين (وحاشاك) والكلام من باب «إياك أعني واسمعي بإجارة» ويانه
اننا قد أقمنا لك مسألة القبلة على قاعدة العلم الذي عرفت به أن نسبة الجهات إلى الله
تعالى واحدة ، وأن جمود أهل الكتاب على ما هم فيه إنما جاءهم من التقليد وحرمان أنفسهم
من النظر ، وأن طعنهم فيك وفيما جئت به من أمر القبلة وغيره ليس إلا جحوداً
ومعاندة لك مع علمهم بانك النبي الموعود به في كتبهم يأتي من ولد إسماعيل -
فبعد هذا العلم كله لا ينبغي لأحد من أتباعك المؤمنين أن يفكر في أهواء القوم
استمالة لهم ، إذ لا محل لهذه الاستمالة ، والحق قوي بذاته ، وغني عن تثبيت عليه ، ومن
عدل عنه مجازاة لأهل الأهواء لما يرجو من فائدتهم أو اتقاء مضرهم فهو ظالم
لنفسه ، وظالم لمن يسلك بهم هذه السبيل الجائر

(الاستاذ الامام) هذا الخطاب بهذا الوعيد لأعلى الناس مقاماً عند الله تعالى
هو أشد وعيد لغيره ممن يتبع الهوى ويحاول استرضاء الناس بمجاراتهم على
ما هم عليه من الباطل ، فانه أفرد بالخطاب مع أن المراد به أمته ، إذ يستحيل
أن يتبع هو أهواءهم أو أن يجاريهم على شيء نهاه الله تعالى عنه ، ليتنبه القافل
ويعلم المؤمنون أن اتباع أهواء الناس ولو لغرض صحيح هو من الظلم العظيم الذي
يقطع طريق الحق ، ويردي الناس في مهاوي الباطل ، كأنه يقول ان هذا ذنب
عظيم لا يتسامح فيه مع أحد حتى لو فرض وقوعه من أكرم الناس على الله تعالى
لسجل عليه الظلم ، وجعله من أهله الذين صار وصفاً لازماً لهم (وما للظالمين من أنصار)
فكيف حال من ليس له ما يقارب مكانته عند ربه عز وجل ؟

نقرأ هذا التشديد والوعيد ، ونسمعه من القارئ ، ولا نزدجر عن اتباع
أهواء الناس ومجاراتهم على بدعهم وضلالاتهم ، حتى انك ترى الذين يشكون
من هذه البدع والأهواء ويمترفون ببعدها عن الدين يجارون أهلها عليها ، ويمارجونهم

فيها، وإذا قيل لهم في ذلك قالوا ماذا نعمل؟ ما في اليد حيلة. العامة عى. آخر زمان. وأمثال هذه الكلمات هي جيوش الباطل تؤيده وتمكنه في الارض، حتى يحل بأهله البلاء ويكونوا من الهالكين

وأعجب من هذا الذي ذكره الامام انك ترى هؤلاء المعترفين بهذه البدع والاهواء ينكرون على منكرها، ويسفهنون رأيه ويمدون عابثا أو مجنوناً، إذ يحاول ما لا فائدة فيه عندهم، فهم يعرفون النكر وينكرون المعروف، ويدعون مع ذلك أنهم على شيء من العلم والدين. وأعجب من هذا الاعجاب ان منهم من يرى أن إزالة هذه المنكرات والبدع، ومقاومة هذه الاهواء والفن، جناية على الدين، ويحتج على هذا بأن العامة يحسبها من الدين، فإذا انكرها العلماء عليهم نزول ثقتهم بالدين كله لا بها خاصة!! وبأنها لا تخلو من خير يقارنها كالذكر الذي يكون في المواسم والاحتفالات التي تسمى بالموالد وكلها بدع ومنكرات، حتى ان الذكر الذي يكون فيها ليس من المعروف في الشرع!! والسبب الصحيح في هذا كله هو محاولة إرضاء الناس بمجاراتهم على أهوائهم وتأويلها لهم، ولولا ذلك لما سكنت العالمون بكونها بدعا ومنكرات عليها، انهم انما سكتوا بالنزول (اشترؤا بآيات الله ثمنا قليلا) وهم مع ذلك يظهرون التعجب من جحود أهل الكتاب للنبي والقرآن، وما كانوا أشد منهم جحودا، ولا أقوى جهودا

هذا إيماء إلى اتباع العلماء أهواء العامة بعد ما جاءهم من العلم وما نزل عليهم في الكتاب من الوعيد عليه. ولو شرح شارح اتباعهم لاهواء السلاطين والامراء والوجهاء والاعنياء، وكيف يفتونهم ويؤلفون الكتب لهم، ويخترعون الاحكام والحيل الشرعية لاجلهم، وكيف حرموا على الامة العمل بالكتاب والسنة وأزروها كتبهم. — لظهر لقاريء الشرح كيف أضاع هؤلاء الناس دينهم، فسلط الله عليهم من لم يكن له عليهم سبيل، ولبان له وجه التشديد في الآية بتوجيه الوعيد فيها الى النبي المعصوم المشهود له باخلق العظيم، فلا يكبرن عليك أن تحكم على من يسمون أنفسهم أو يسميهم الحكماء كبار العلماء بانهم من الظالمين، إذا اتبعوا أهواء العامة أو شهوات الأمراء والسلاطين

﴿الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم﴾ ذكر في الآية السابقة ان الذين أوتوا الكتاب يعلمون ان ما جاء به النبي في أمر القبلة هو الحق من ربهم ولكنهم ينكرون ويمكرون، وذكر في هذه ما هو الاصل والعلة في ذلك العلم وذلك الانكار وهو أنهم يعرفون النبي ﷺ بما في كتبهم من البشارة به^(١) ومن نعمته وصفاته التي لا تنطبق على غيره، وبما ظهر من آياته وآثار هدايته، كما يعرفون أبناءهم الذين يتولون تربيتهم وحياطتهم حتى لا يفوتهم من أمرهم شيء. قال عبد الله بن سلام رضي الله عنه - وكان من علماء اليهود وأخبارهم: أنا أعلم به مني بابني: فقال له عمر رضي الله عنه: لم؟ قال: لاني لست أشك في محمد انه نبي فأما ولدي فاعمل والدته خانت - فقد اعترف من هداه الله من أخبارهم كهذا العالم الجليل وتيمم الداري من علماء النصارى أنهم عرفوه ﷺ معرفة لا يتطرق اليها الشك ﴿وان فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون﴾ انه الحق الذي لا مرية فيه، فماذا يرجى منهم بمدهذا؟ وذهب بعض المفسرين إلى أن الضمير في (يعرفونه) لما ذكر من أمر القبلة، واستبعدوا عوده إلى الرسول مع تقدم ذكره في الآيات، ومع ما يبعد من الاكتفاء بالقرائن في مثل هذا التعبير. وقد أسند هذا الكتمان إلى فريق منهم إذ لم يكونوا كلهم كذلك، فان منهم من اعترف بالحق وآمن واهتدى به، ومنهم من كان يمجده عن جهل ولو علم به لجاز أن يقبله، وهذا من دقة حكم القرآن على الامم بالعدل. ثم قال عز شانه:

﴿الحق من ربك فلا تكونن من الممترين﴾ الامتراء الشك والتردد وإنما يعرض لمن لا يعرفون الحق. والمعنى ان هذا الذي انت عليه ايها الرسول هو الحق - لو ان جنس الحق في الدين هو الوحي - من عند ربك المعتي بشأئك، فلا تلتفت الى اوهام هؤلاء الجاحدين فانها لا تصلح شبهة على الحق الصريح الذي علمك الله فتمت - تري به - والنهي في هذه الآية كالوعيد في الآية السابقة وجه الخطاب به الى

(١) يراجع تفصيل ذلك في تفسير (٧: ١٥٦) الذين يتبعون الرسول النبي الامي الذي يحدونه مكتوبا هدهم في التوراة والانجيل) (ص ٢٢٤ - ٣٠٠ ج ٩ تفسير)

الذي ﷺ والمراد أمته من كان منهم غير راسخ في الايمان ، وخشي عليه الاغترار بمظاهر اولئك المخادعين الذين يفتربا مثلهم الاغرار في كل زمان ومكان ، ولذلك ارتد بفتنة القبلة بعض ضعفاء الايمان

(١٤٨) وَلِكُلِّ وِجْهَةٍ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبَقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا ؛ إِنَّ اللَّهَ دَلِيٌّ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ
(١٤٩) وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَفُلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٥٠) وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ إِلَّا لِمَا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَىكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ، فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي ، وَلَا تَمِمْ نِعْمَتِي طَلَبِكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥١) كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (١٥٢) فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ

احتج تعالى على اهل الكتاب بقوله (وان الذين اتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق) وقوله (الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم) أي وإذا كان الامر كذلك فكل ما يأتي به عن الله فهو حق فما بالهم يشاغبون في مسألة القبلة من الاحكام الفرعية خاصة ؟ فالكلام من قبيل إقامة الدليل بعسد إيراد الدعوى وليس اعتراضا كما توهم بعضهم ، ثم جاء بحجة أخرى على أهل الكتاب وغيرهم ترغم أنوف المعارضين ، وختم بعدها الامر بتولية الوجوه نحو المسجد

الحرام وتأكيده فقال ﴿ولكل وجهة هو موليها﴾ وقرأ ابن عامر (مولاهما) أي لكل أمة من الأمم وجهة توليها في صلاحها فلم تكن جهة من الجهات قبلة في كل ملة بحيث تعد ركناً ثابتاً في الدين المطلق كتوحيد الله تعالى والايان بالبعث والجزاء . فابراهيم واسماعيل كان يوليان الكعبة ، وكان بنو اسرائيل يستقبلون صخرة بيت المقدس ، وترك النصارى ذلك الى استقبال المشرق ، وكان الانبياء المتقدمون يستقبلون جهات أخرى ، فاذا كان الامر كذلك ولم تكن جهة معينة ركناً ثابتاً في الاديان ، فأى شبهة من العقل او من تقاليد الملل على فئمة المشاغبين في أمر القبلة ؟ وأي وجه لما أظهره من الشبهة والخيرة ، وزجوا أنفسهم فيه من الغمة ، حتى جعلوه مسوغاً للطعن في النبوة والتشريع ؟ وسيأتي إيضاح لهذه الحجة في تفسير قوله تعالى (ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب) الخ

وإذا لم تكن مسألة القبلة المعينة من أصول الدين ولا من مخدجوهه الذي لا يتغير ، بل كانت ولا تزال من الفروع التي تختلف باختلاف حال الأمم فالواجب فيها الاتباع المحض ، والتسليم لأمر الوحي ، وإن لم تظهر حكمة التخصيص للناس كما هو الشأن في أمثالها من الفروع المأخوذة بالتسليم كعدد الركعات وكون الركوع مرة والسجود مرتين في كل ركعة فكيف وقد ظهرت ؟ ﴿فاستبقوا الخيرات﴾ أي ابتدروا كل نوع من أنواع الخير بالعمل وليحرص كل منكم على سبق غيره اليه باتباع الامام المرشد لا باتباع الهوى . وهذا الامر عام موجه الى أمة الدعوة لا خاص بالمؤمنين المستجيبين لله

ولرسول ﴿أينما تكونوا يأت بكم الله جميعاً﴾ ذكر الجزاء يوم البعث بعد الامر باستباق الخيرات ليفيد ان الجزاء إنما يكون على فعل الخيرات أو تركها ، لا على الدكون في بلد كذا أو جهة كذا ، أي في أي جهة وأي مكان تقيمون فله تعالى يأتي بكم ويجمعكم ليوم الحساب ، اذ البلاد والجهات لاشان لها في أمر الدين لذاتها

وإنما الشأن لعمل البر واستباق الخيرات ﴿ان الله على كل شيء قدير﴾ فلا يميزه الا تيان بالناس مهما بعدت بينهم المسافات ، وتناءت بهم الدبار والجهات ، فالتصریح بقدرة بذكير بالدليل على الدعوى ، والامر بالخيرات هنا بعد بيان اختلاف الملل في القبلة

(البقرة: س ٢) تأكيد إحكام جعل القبلة إلى الكعبة وكونه الحق الذي لا ينسخ ٢٢

إجمال يفصله ذكر أنواع البر في آية (ليس البر أن تولوا وجوهكم) المشار إليها آنفا وستأتي ، كأنه يقول للمعتننين والمفتونين في مسألة القبلة أن منح الدين وجوههم هو في المسارعة إلى الخيرات فهل رأيتم محمداً واتباعه قصرُوا عن غيرهم في ذلك أم هم السابِقون إلى كل مكرمة، المسارعون إلى كل مبرة، المتصفون بكل فضيلة ؟ ففي الكلام مع بيان روح الدين ومقصده تعريض بأهل الكتاب الذين تركوا فضائل الدين وقصروا في عمل الخير والبر ، واكتفوا من علم الدين بالجُلْد والمراء ، واستنباط الشبه للظن في العاملين ، إذ لم يكونوا من المجادلين المشاغبيين ، ثم ترك السالكون فضائل سلفهم ، واتبعوا سننهم في بدعهم وجدلهم ، حتى صاروا حجة على دينهم .

﴿ ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام ﴾ أي ومن أي مكان خرجت وفي أي بقعة حلت قول وجهك في صلاتك شطر المسجد الحرام ، فهو حكم عام ، قال الاستاذ الامام أعاد الامر في صورة أخرى ليعين أنه شريعة عامة في كل زمان ومكان لا يختص ببلاد دون أخرى ولا بحضور دون سفر . وقد كان الامر بالتحويل نزل على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وهو في الصلاة فأعلمه بصيغة الامر أنه ليس خاصاً بتلك الصلاة ولا بذلك المكان بل عليه أن يفعل ذلك من حيث خرج وأين توجه . ومن مزايا هذه القبلة ان أصحابها يصلون إلى جميع الجهات بتوليهم إياها من أقطار الارض المختلفة وقد وثق الامر وأكد بقوله ﴿ وإنه للحق من ربك ﴾ أي وان توليك إياه هو الحق المحكم بوحى ربك فلا يبدل ولا ينسخ ﴿ وما لله بما قل وما تعملون ﴾ أي إنكم أنتم مخاطبون باتباع النبي في كل ما يحجي به من أمر الدين تحت نظر الحق دائماً فهو لا يقفل عن أعمالكم (فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم) وفي الكلام التفات عن خطاب النبي ﷺ إلى خطاب جميع المكلفين ، بما فيه من التعريض والتهديد للمنافقين . وقرأ أبو عمرو (يعملون) بالياء وهو يعود إلى أولئك المجادلين في القبلة . يقول لنبينه لا يحزنك أمرهم ، فان لله تعالى هو الذي يتولى جزاءهم ، وما هو بقافل عن فسادهم وفتنتهم .

﴿ ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم ﴾

فولوا وجوهكم شطره ﴿ ابتداء هذه الآية بصيغة الامر الواردة في الآية قبلها وقرن بها صيغة الامر السابقة وجمع فيها بين خطاب النبي وخطاب الأمة ليرتب على ذلك التعليل وبيان الحكم له وهي ثلاث: الاولى قوله ﴿ لئلا يكون للناس عليكم حجة ﴾ ليس هذا الجمع والاعادة لجرد التأكيد كما قال مفسرنا (الجلال) وغيره وإنما هو تمهيد للعللة وتوطئة لبيان الحكم الموصولة به . وهو أسلوب معهود عند البلغاء — والمتأخرون الذين لا يدققون طعم الاساليب البليغة يكتبون في مثل هذا المقام يقولهم : كل ذلك لئلا يكون للناس عليكم حجة : وهو نظم غير معهود في الكلام البليغ ولا سيما مقام الاطناب والتأكيد والاحتجاج وإزالة الشبهة . والمؤيد للناس المحاجون في القبلية المعروفون وهم أهل الكتاب والمشركون، وتبهما المناقون

ووجه انتفاء حجبتهم على الطعن في النبوة بتحويل القبلية عن بيت المقدس الى الكعبة هو ان أهل الكتاب كانوا يعرفون من كتبهم ان النبي الذي يبعث من ولد اسماعيل يكون على قبلته وهي الكعبة، فجعل بيت المقدس قبلته دائماً له حجة على أنه ليس هو النبي المبشر به، فلما كان التحويل عرفوا أنه الحق من ربهم، وأن المشركين كانوا يرون ان نبياً من ولد ابراهيم جاء لاحياء ملته لا ينبغي له أن يستقبل غير بيت ربه الذي بناه وكان يصلي هو واسماعيل اليه، فحضت حجة الفريقين وكبت المناقون من ورائهم

﴿ الا الذين ظلموا منهم ﴾ أي لكن الذين ظلموا منهم يظنون يلقطون بالاحتجاج جلا أو عناداً للاضلال كقول اليهود رجع إلى قبلته قومه لارضائهم وسيرجع إلى دينهم . وقول المشركين رجع إلى قبلتنا وسيرجع إلى ديننا وقول المناقين انه مضطرب متردد لا يثبت على قبله . وأمثال هذه الآراء التي يزنها الهوى للاعداء ، فهم لا يهتمون بكتاب ولا يعتبرون ببرهان ، ولا ينظرون الى حكم الامور وأسرارها ، بل يجادلون في الله وشرعه بلا هدى ولا كتاب منير ، وهم الذين أثاروا الفتنة وحرکوا رياح الشبهة في مسألة القبلية . ولا قيمة لما يقول هؤلاء الظالمون

فأنهم هم السفهاء كما وصفوا في الآية الاولى ﴿ فلا تخشوم ﴾ اذ لا مرجع لكلامهم من الحق ، ولا تمكن له في النفس ، لانه لا يستند الى برهان عقلي ولا الى هدي سماوي

﴿واخشوني﴾ أنا فلا تعصوني بمخالفة ما جاءكم به رسولي عني فإني القدير على جزائكم بما وعدتكم وأوعدتكم وقد وعدت الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات بأن أمكن لهم دينهم الذي ارتضيت لهم، وأبدلهم من بعد خوفهم أمناً، وإني لا أخلف الميعاد. والآية ترشدنا إلى أن صاحب الحق هو الذي يخشى جانبه وأن المبطل لا ينبغي أن يخشى، فإن الحق يعلم ولا يعلم، وما آفة الحق إلا ترك أهله له، وخوفهم من أهل الباطل فيه، وذكر الاستاذ الامام هنا من له شبهة حق كصاحب النية السليمة يشبهه عليه الامر فيترك الحق لانه عمي عليه، ولو ظهر له لأخذ به، وهو أيضاً لا يخشى جانبه خلافا لما فهم بعض الطلاب من كلام الاستاذ، وإنما استثناه من مشاركة الظالمين في عدم المبالاة به، فاولئك لا يخشون ولا يبالي بهم، وهذا لا يخشى على الحق ولكنه يبالي به، ويعتني بامر به، بتوضيح السبيل، وتفصيل الدليل، لما يرجى من قرب رجوعه اليه إذا عرفه. وقوله (الا الذين ظلموا) يعم اليهود ومشركي العرب والمنافقين خلافاً لمن قالوا إنهم المشركون خاصة، مع أنهم فسروا السفهاء بما يعم الفريقين أو الثلاثة، وما هؤلاء الذين ظلموا الا أولئك السفهاء الذين اعترضوا

ثم ذكر العلة أو الحكمة الثانية فقال ﴿ولأنتم نعمتي عليكم﴾ باستقلال قبلتكم في بيت ربكم الذي بناه جدكم، وجعل الامم فيها تبعاً لكم. ويأنه ان هذا النبي عربي من ولد ابراهيم ولسان العرب نزل عليه الكتاب وهم قومه الذين بعث فيهم أولاً وظهرت دعوته فيهم وامتدت منهم وبهم الى سائر الامم، وكانوا إذا آمنوا يحبون أن تكون وجهتهم في عبادتهم ببيتهم الحرام، وان يحجوا سنة ابراهيم بتطهيره من عبادة الاصنام، لانه معبد، وأشرف أثر عندهم، ينسب الى أبيهم ابراهيم الذي بناه ورفع قواعده لعبادة الله تعالى، وهو شرفهم ومجدهم، وموطن عزهم وفخرهم، فأنتم الله عليهم النعمة باعطائهم ما يحبون، وتوجيه جميع شعوب الاسلام إلى بلادهم إلى أن يرث الله الارض ومن عليها، وفي ذلك من الفوائد المادية والمعنوية ما لا يحصى من النعم. نعم إن كل أمر من الله تعالى فامثاله نعمة ولكنه اذا كان فيه حكمة ظاهرة وشرف للامة يتعلق بتاريخها الماضي، وبمجدها.

٢٦٠ حكمة جعل بيت المقدس قبلة وكون نسخها سبباً للاهتداء (التفسير : ج ٢)

الآتي، وكان أثره حميداً نافعا فيها، تكون النعمة به أتم والمنة أكل، ولذلك عبر بالانتماء وذكر الاستاذ الامام من الحكمة في جعل القبلة في أول الامر بيت المقدس أن الكعبة كانت في أول الاسلام مشغولة بالأصنام والوثان، وكان سلطان أهل الشرك متمكناً فيها والامل في انكشافه عنها بعيداً فصرفه الله أولاً عن استقبال بيت مدنس بعبادة الشرك - وقد كان الله أمر ابراهيم بتطهيره للطائفتين والعالمين والركع السجود - الى بيت المقدس قبلة اليهود الذين هم أقرب من المشركين الى ما جاء به من التوحيد والتنزيه. ولما قرب زمن تطهير البيت الحرام من الأصنام والوثان وعبادتها وإزالة سلطة الوثنيين عنه، جعله الله تعالى قبلة للموحدين ليوجه النفوس اليه فيكون ذلك مقدمة لتطهيره وانتماء النعمة بالاستيلاء عليه، والسير فيه على ملة ابراهيم من التوحيد والعبادة الصحيحة لله تعالى وحده

أقول: ويؤيد ما قرره الاستاذ الامام في تفسير الانعام وكون تحويل القبلة مقدمة له قوله تعالى بعد ذكر فتح مكة في سورة الفتح 'وليتم نعمته عليكم ويهديكم صراطاً مستقيماً' فكان في الآية بشارة بفتح مكة ونصر الله التوحيد على الشرك وما يتلو ذلك من نشر الاسلام، وانتشار نوره في الأنعام، ولذلك قال في سورة الفتح بعد ما ذكر (وينصرك الله نصراً عزيزاً)

ثم ذكر سبحانه وتعالى الحكمة ثالثة لتحويل القبلة فقال ﴿ولعلكم تهتدون﴾ أي وليعلمكم بذلك الى الاهتداء بالثبات على الحق والرسوخ فيه، فان المعارضات والمخاجات تظهر ضعف الباطل وزهوقه، وتبين قوة الحق وثبوته، فالحجة تبختر انتصاحاً، والشبهة تتضاءل افتضاحاً، وقد خلت سنة الكون بأن الفتن تنير الطريق لاهل الحق، وترخي سدول ظلمته على أهل الباطل، وتمحص المؤمنين، وتمحق الكافرين كل انسان يرى نفسه على الحق في الجملة ولكن التمكن في المعرفة والثبات على الحق لا يعرف في الغالب الا اذا وجد للاحق خصم ينازعه ويعارضه في الحق، هنالك تتوجه قواه الى تأييد حقه وتمكينه، ويحس بمحاجته الى المناضلة دونه والثبات عليه، وكثيراً ما يظهر الباطل الحق بعد خفاؤه، فان المعارضة في الحق تحمل صاحبه على تنقيحه وتحريره وتنقيته مما عساه يلتصق به أو يجاوره من غواشي الباطل، وتجمل

علمه به منفصلاً بعد أن كان مجعلاً ، ومبرهنًا عليه بعد أن كان مسلماً ، فهي مدرجة
 الكمال لاهل اليقين ، ومزلة الريب للمقلدين ، قال بعض الصوفية : جرى الله أعداءنا
 عنا خيراً اذ لولاهم ماوصلنا الى شيء من مقامات القرب : وقال الشاعر :
 عداي لهم فضل علي ومنة فلا اذهب الرحمن عني الأعدا
 هم بمحشوا عن زلتي فاجتنبتها وهم نافسوني فاكتسبت المعاليا
 ذلك بأن العدو ينقب عن الزلات ، ويبحث في الهفوات ، وطالب الحق
 يتوجه دائماً إلى الاستفادة من كل شيء ، والنظر من كل أمر إلى موضع العبرة ،
 وطريق الحقيقة ، فاذا وجد في كلام العدو مقمراً صحيحاً تواقه ، او عذراً في
 طريقه نحاه ، وان ظهر له أنه باطل ثبت على حقه ، وعرف منافذ الطعن فيه
 فسدها ، فكان بذلك من الكلمة الراسخين — لهذا كله كانت الفتنة التي أثارها
 السفهاء على المؤمنين في مسألة القبلة معدة للاهتداء ووسيلة إلى الثبات على الحق بعد نزول
 هذه الآيات البينات والحجج الناهضات في بيانها وحكمة الله تعالى فيه

ثم قال تعالى ﴿ كما أرسنا فيكم رسولا منكم ﴾ أي يتم نعمته عليكم باستيلائكم
 على بيته الذي جعله قبلة لكم ، وتطهيركم إياه من عبادة الاصنام والوثان ، وهو
 البيت الذي في قلب بلادكم ، وموضع شرفكم وفخركم ، كما آتمها عليكم بارساله رسولا
 منكم ، فالقبلة في بلادكم ، والرسول من امتكم . والخطاب للعرب كما هو ظاهر . ثم وصف

هذا الرسول بالوصاف التي كان بها نعمة تامة ، ورحمة شاملة ، فقال ﴿ يتلو عليكم آياتنا ﴾
 الدالة على أن ما جاء به من التوحيد والهداية هو الحق من عند الله وهذه الآيات
 أهم من أن تكون آيات القرآن او غيرها من الدلائل والبراهين على اصول الدين ،
 وقد تقدم في تفسير الآيات في دعوة ابراهيم بأن الآيات يصح أن يراد بها
 الآيات الكونية والعقلية وأن يراد بها آيات الوحي ، والتعميم أولى ، وإنما خصها
 بعض المفسرين بآيات القرآن بقرينة (يتلو) على أن التلاوة أهم ، فكل برهان
 يقيمه فقد تلا عليهم عبارته ، وذكر لهم فيه آيات الله في الآفاق وفي أنفسهم ، ووجه
 المنة انه يقودهم إلى الحق بالدليل والبرهان ، دون التقاليد والتسليم بغير فهم ولا إذعان ،

والطريقة الاولى يكون بها العقل مستقلاً، والدين مؤيداً له وهادياً، لا مرغوا ولا معضلة. هذا ملخص ما قرره شيخنا والمختار عندنا ان المراد بالآيات آيات القرآن باعتبار ما اشتملت عليه من الآيات العقلية والعلمية على اصول العقائد والقواعد، فهي في نفسها آية على النبوة والرسالة بأنواع إعجازها التي تقدم بيانها (ص ١٩٠ - ٢٢٨ ج ١) وتشتمل على آيات كثيرة على التوحيد والبعث وأصول الاسلام كلها الآيات تتعلق باثبات العقائد وأصول الدين وهي المقصد الاول، ويليهما تهذيب الاخلاق ولذلك قال **(وزيركم)** أي يظهر نفوسكم من الاخلاق السافلة، والذائل المعقوتة، ويخلفها بالاخلاق الحميدة بما لكم فيه من حسن الاسوة، لا بالقهر والسطوة، وخص المفسر (الجلال) التزكية بالتطهير من الشرك. قال الاستاذ الامام: وهذا لا يصح فان الاسلام كاجاء بالتوحيد الماحي للشرك، جاء بالتهذيب المطهر من سفاسف الاخلاق وقبائح العادات والمعاصي التي كانت فاشية في العرب، فقد كانوا يثدون بناتهم — يدفنونهن حيات — ويقتلون أولادهم للتخلص من النفقة عليهم. وذلك نهاية القسوة والشح، وكانوا يسفكون الدماء فيما بينهم لأنهم سبب يثير حميتهم الجاهلية، لما اعتادوه من ابقي في الثارات ومن شن الغارات ونهب بعضهم بعضاً، وكان عندهم من التسفل ان أحدهم ينزوح زوج أبيه أو بعضها حتى تقتدي منه، إلى غير ذلك. وقد زكاهم النبي ﷺ من ذلك كله باقتدائهم بأخلاقه العظيمة في عباداته الكاملة وآدابه العالية، وجمعهم بعد تلك الفرقة، وألف الله بينهم على يديه حتى صاروا كرجل واحد، وجعلت شريعته ذمتهم واحدة يسعى بها أديانهم، فاذا أعطى مولى أو رقيق لهم أماناً لأي انسان محارب كان ذلك كتمانين أمير المؤمنين له، فأى تزكية أعلى من هذه التزكية ؟

وأقول انهم بزكاة انفسهم هذه فتحو العالم وكانوا أئمة أمة المدينة التي كانت تحقر جنسهم كله فان الاعاجم انما عرفوا فضل الاسلام بعد لهم وفضلهم في فتوحهم وما فهموا القرآن إلا بعد اسلامهم وتعلمهم العربية. والرسول الذي زكى هذه الامة التي زكت أئمة كثيرة حقيق بأن تكون نفسه أزكى الانفس وأكملها. ولكننا علمنا أن بعض دعاة النصرانية يستدل بآية (لا هب لك غلاماً زكياً) على تفضيل عيسى

على محمد (عليها السلام) ووصف الغلام بالزكي لا يدل على انه أفضل من سائر الغلمان، فضلاً عن زكي الانام . وقد قال تعالى في قصة موسى (عم) مع العبد الذي عنده من لدنه علماً (أقمت نفساً زكية بغير نفس) الآية فهل يزعمون ان هذا الغلام افضل من موسى و ابراهيم عليهما السلام لانها لم يوصفا بوصفه ؟

وبعد ذكر التربية العملية بالاسوة الحسنة ذكر أمر التعليم فقال

﴿ ويعلمكم الكتاب والحكمة ﴾ اي الكتاب الالهي او الكتابة التي تخرجون بها من ظلمة الامية والجهل الى نور العلم والحضارة . ويجوز الجمع بين المعنيين على القول الصحيح باستعمال المشترك في معنييه او فيما يقتضيه المقام من معانيه . وأما الحكمة فهي العلم المقترب باستمرار الاحكام ومنافعها الباعث على العمل . وفسرها بعضهم بالسنة . (أقول) وهو غلط فانها أطلقت على بعض نصوص الكتاب كالعقائد والفضائل والاحكام الايجابية والسلبية بدليل قوله تعالى بعد الوصايا المقرنة بعلم الامر والنهي من سورة الاسراء (١٧: ٣٩) ذلك مما أوحى اليك ربك من الحكمة) وفي سورة لقمان ان الله آتاه الحكمة وذكر منها وصاياه لابنه المعلة بأسباب النهي (راجع ٣١: ١٢ - ١٩) فحكمة القرآن أعلى الحكم ، وتليها حكمة الرسول ﷺ وقال ﷺ « لا حسد إلا في اثنتين : رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته في الحق ، ورجل آتاه الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها » رواه الشيخان من حديث ابن مسعود ، وفي بعض رواياته «فهو يعمل بها ويعلمها الناس » وفي لفظ من حديث ابن عمر « القرآن » بدل الحكمة

وقد تقدم ما قاله الاستاذ الامام في هذه الكلمات في دعاء ابراهيم ﷺ وجاء هنا بتفصيل في معنى الحكمة لم يذكر هناك فقال ما مثاله : دعا القرآن إلى التوحيد وأمهات الفضائل وبين أصول الاحكام ، ولكنه لم يفصل سيرة الملوك والرؤساء مع السوقه والرؤسين ، ولم يفصل سيرة الرجل مع أهل بيته في الجزئيات وهو ما يسمونه نظام البيوت - العائلات - ولم يفصل طرق الاحكام القضائية والمدنية والحربية ، وذلك ان هذه الامور ينبغي أن تؤخذ بالاسوة والعمل بعد معرفة القواعد العامة التي جاءت في الكتاب ، ولذلك كانت

٣٠ حكمة الشارع في الاحكام المؤثرة في العمل وبلاغة القرآن (التفسير: ج ٢)

السنة هي المينة لذلك بالتفصيل بسيرة النبي ﷺ في بيوته ومع أصحابه في السلم والحرب والسفر والاقامة ، وفي حال الضعف والقوة والقلة والكثرة ، فالسنة العملية المتواترة هي المينة للقرآن بتفصيل مجمله وبيان مبهمه ، وإظهار ما في أحكامه من الاسرار والمنافع ، ولهذا أطلق عليها لفظ الحكمة فانها كانت كالحكمة (بالتحريك) لتأديب الفرس ، ولولا هذه التربية بالعمل لما كان الارشاد القولي كافياً في انتقال الامة العربية من طور الشتات والفرقة والعداء والجهل والامية الى الائتلاف والاتحاد والتآخي والعلم وسياسة الامم . فالسنة هي التي علمتهم كيف يهتدون بالقرآن ، ومرونتهم على العدل والاعتدال في جميع الاحوال

كلنا يعرف الحلال والحرام والفضيلة والرذيلة ، وكلما ترى أحداً عاملاً بملمه ، وإنما السبب في ذلك أن الاكثرين يعرفون الحكم دون حكمته ، ودون الاسوة الحسنة في العمل به ، فهم لا يفقهون لم كان هذا حراماً ، ولا تنفذ أفهامهم في أعماق الحكم فتصل الى فقهه وسره ، فتعلم علماً تفصيلياً ما وراء المحرم من الضرر لمركبه وللناس ، وما وراء الواجبات والمندوبات من المنافع العامة والخاصة . ولو علموا ذلك وقهوه بالتربية عليه وملاحظة آثاره والافتداء بالمعلمين والمربين في العمل به - كما أخذ الصحابة عن الرسول ﷺ - خرجوا من ظلمة الاجمال والايهام في المعرفة الى نور التجلي والتفصيل ، حتى تكون الجزئيات مشرقة واضحة ، ولسكان هذا العلم معينا لهم على إحلال الحلال بالعدل ، وتحريم الحرام بالترك ، فقد وقف النبي ﷺ أصحابه «رض» على فقه الدين ونفذ بهم الى سره ، فكانوا احكاماء علماء ، عدواً لانبجاء ، حتى إن كان أحدهم ليحكم المملكة العظيمة فيقيم فيها العدل ويحسن السياسة وهو لم يحفظ من القرآن الا بعضه ، ولكنه فقهه حق فقهه . وهذا المعنى - فقه الدين ومعرفة أسرار الاحكام - غير التزكية ، بيد أنه يتصل بها ويمين عليها ، حتى يطابق العلم العمل ، فهذه الآية نبأ عن استجابة دعوة ابراهيم عليه السلام (ربنا وابعث فيهم رسولا منهم) الآية وقد تقدم هناك ذكر تعليم الكتاب والحكمة على التزكية ، وقدم هنا ذكر التزكية على تعليم الكتاب والحكمة . والنسكنة في ذلك أن ابراهيم عليه السلام لاحظ في دعوته الطريق الطبيعي وهي ان التعليم يكون أولاً ثم تكون التزكية ثمرة له

(البقرة : ص ٢) التعليم النبوي الخاص. ذكر العباد لله سبب لذكره لهم ٣١

ونتيجة ، وهما ذكر الترتيب بحسب الوجود والوقوع ، وذلك ان أول شيء فعله النبي ﷺ هو أن دعا الناس الى الايمان بما تلا عليهم من آيات الله تعالى ودلائل توحيده ، والى الاعتقاد باعادة الناس ليوم لاريب فيه يحاسب فيه كل نفس ويجزيها بعملها وصفاتها ، فأجاب الناس دعوته بالتدرج ، وكل من آمن له كان يقتدي به في أخلاقه وأعماله ، ولم تكن هنالك أحكام ولا شرائع ، ثم شرعت الاحكام بالتدرج ، فالتركية بالتأسي به عليه الصلاة والسلام كانت متأخرة عن إقامة الآيات والدلائل على أصول الايمان ، ومقدمة على تلقي الشرائع والتفقه في الاحكام

ثم قال تعالى ﴿ ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون ﴾ أي ويعلمكم مع الكتاب والحكمة ما لم يسبق لكم به علم من شؤون العالم ونظام البيوت والمعاشرة الزوجية وسياسة الحروب والامم ، .وقل البيضاوي وغيره : ما لم تكونوا تعلمونه بالنظر والفكر ، إذ لا سبيل لمعرفة سوى الوحي ، وكرر الفعل ليدل على انه جنس آخر اه يعني كاخبار عالم الغيب وسيرة الانبياء ، وأحوال الامم التي كانت مجهولة عندكم ، وكثير منها كان مجهولا عند اهل الكتاب أيضا . فانه ﷺ صحح أغلاطهم ، وبين سقاطهم . وخص هذا بالذكر وان كان مما اشتمل عليه الكتاب اهتماما به ، وتنويرا بشأنه ، ولكن تكرار الفعل وعطفه يقتضي أن يكون هذا غير ما قبله

قال الاستاذ الامام : ويصح أن يراد ما لم تكونوا تعلمون من شؤون أنفسكم ، والسنن الالهية الخائكة فيكم ، وقد بلغوا بتعليمه وارشاده ﷺ مبلغا فاقوا فيه سائر الامم ، أي فالتعليم ليس محصورا في الكتاب بل هناك زيادة أعده الله تعالى نبيه لتبيينها . والمقابلة بين هذا التعليم وتعليم الكتاب مبنية على أن المراد بالكتاب القرآن والآيات الدلائل . وقد تقدم فيه وجه آخر وهو أنه مصدر كتب أي ويعلمكم الكتابة بعد أن كتتم أميين

﴿ فاذكروني ﴾ في قلوبكم بما شرعت من أمر القبلة للفوائد الثلاث التي تقدم شرحها ، وبما أتممت عليكم من النعمة بارسال رسول منكم يعلمكم ويرزقكم ، وبكل ما أنعمت عليكم من نعمات ذلك ، ولا تدسوا أنني أنا المتفضل بأفاسة هذه النعم عليكم

﴿أذكركم﴾ بادامتها وتمكينها وزيادة عليها من النضر والسلطان وغير ذلك من أسباب السعادة — واذكروني بالسنتكم باسمائي الحسنى ، والتحدث بفعلي التي لا تحصى ، والثناء علي بها سرّاً وجهراً ، أذكركم في الملأ الاعلى برضائي غنكم ووقربي منكم . ففي الصحيحين عن أبي هريرة قال رسول الله ﷺ « يقول الله عز وجل : أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي وإذا ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه وإن تقرب إلي شبراً تقربت إليه ذراعاً » الخ الحديث . وقال الاستاذ الامام : هذه الكلمة من الله تعالى كبيرة جداً كأنه يقول انني أعاملكم بما تعاملوني به ، وهو الرب ونحن العبيد ، وهو الغني عنا ونحن الفقراء اليه . أي وهذه أفضل تربية من الله تعالى لعباده : اذا ذكروه ذكرهم بادامة النعمة والفضل ، وإذا نسوه نسيتهم وعاقبتهم بمقتضى العدل

ثم بعد أن علمهم ما يحفظ النعم أرشدهم إلى ما يوجب المزيد بمقتضى الجود والكرم فقال :

﴿واشكروا لي﴾ هذه النعم بالعمل بها وتوجيهها إلى ما وجدت لاجله ﴿ولا تكفروا﴾ أي لا تكفروا نعمي بإهمالها أو صرفها إلى غير ما وجدت لاجله بحسب الشرع والسنن الالهية . وهذا تحذير لهذه الامة مما وقعت فيه الامم السالفة اذ كفرت بنعم الله تعالى فحوت الدين عن قطبه الذي يدور عليه وهو الاخلاص وإسلام الوجه لله وحده والعمل الصالح المصلح للأفراد والاجتماع ، وعطت ما أعطاها الله من مواهب للشاعر والمقل والملك فلم تستعملها فيما خلقت له ، وهكذا انحرفوا بكل شيء عن أصله ، فسلبهم الله ما كان وهبهم تأديباً لهم ولغيرهم ، ثم رحمتهم بأن أرسل اليهم خاتم النبيين بهداية عامة تعرفهم وجه تلك العقوبات الالهية وتحذرهم العود إلى أسبابها ، وقد امتثل المسلمون هذه الاوامر زمناً قصيراً فسمدوا ، ثم تركوها بالتدريج فخل بهم ما نرى كما قال (واذا تأذّن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم ان عذابي لشديد) فاذا جادوا عاد الله عليهم بما كان أعطى سلفهم . والا كانوا من الهالكين

(البقرة: س ٢) تفكيك ملئ من أسباب النزول للآتي الاستعانة بالصبر والصلاة ٢٣

(١٥٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ
اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (١٥٤) وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ
أَمْوَاتٌ، بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنَّ لَا تَشْعُرُونَ (١٥٥) وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ
بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ
وَالْعُرْشَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٦) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ
قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٧) أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ
مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ، وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ

ذهب الذين ينظرون من القرآن في جملة وآياته مفككة منفصلاً بعضها عن
بعض التماساً لسبب النزول في كل آية أو جملة أو كلمة ولا ينظرون اليه في سياق جملة
وكمال نظامه - إلى أن الأمر بالاستعانة في قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا
بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ هو للاستعانة على أمر الآخرة والاستعداد لها، وإن المراد بالصبر
فيه الصبر عن المعاصي وحفظ النفس، واعتمده البيضاء وغيره أو على الطاعات
وبهذا صرح الجلال، وقد أورد قوله الاستاذ الامام وسأل الله تعالى الصبر على
احتمال مثل هذا الكلام. والتحقيق انه عام في كل عمل نفسي أو بدني أو ترك يشق
على النفس، كما يدل عليه حذف متعلقه، والمعنى استعينوا على إقامة دينكم والدفاع عنه
وعلى سائر ما يشق عليكم من مصائب الحياة بالصبر وتوطين النفس على احتمال المكاره
وبالصلاة التي تكبر بها الثقة بالله عز وجل وتصغر بمناجاته فيها كل المشاق وأعما
المصائب المذكورة في الآيات بعده ولا سيما الاعمال العامة النعم كالجهاد المشار اليه في
الآية التالية. وقد بين شيخنا أهم مواضعه التي يدل عليها السياق مع بيان التناسب بين
الآيات ووجه الاتصال بما مثاله موضعاً:

ذكر الله تعالى افتتان الناس بتحويل القبة ، وتقديم شرح ما دلت عليه الآيات من عظم أمر تلك الفتنة ، وإزالة شبه الغافلين والمفتونين ، وإقامة الحجج على المشاغبين ، وحكم التحويل وفوائده للمؤمنين ، ومنها إتمام النعمة ، والبشارة بالاستيلاء على مكة ، وكون ذلك طريقاً للهداية لما في الفتنة من التمهيد الذي يتميز به المؤمن الصادق ، من المسلم المنافق ، فهي تظهر الثابت على الحق المطمئن به وتفضح المنافق المرائي فيه ، بما تظهر من زلزاله واضطرابه فيما لديه ، أو انقلابه ناكصاً على عقبيه ، ثم شبه هذه النعمة التامة بالنعمة الكبرى وهي إرسال الرسول فيهم ، يعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم ، وفي ذلك من التثبيت في مقاومة الفتنة ، وتأكد أمر القبة ، ما يليق بتلك الحالة . وقفي ذلك بالامر بذكره وشكره على هذه النعم للايذان بان تحويل القبة الذي صورده السفهاء من الناس بصورة التهمة ، هو في نفسه أجل منة وأكبر نعمة لا جرم ان تلك النعم التي يجب ذكرها وشكرها للمنع جل شأنه كانت تقرر بضروب من البلاء وأنواع من المصائب ، أكبرها ما يلاقيه أهل الحق من مقاومة الباطل وأحزابه ، وإصغرها ما لا يسلم منه أحد في ماله وأهله وأحبابه ، أليس من النسب القريب بين الكلام ، ومن كمال الارشاد في هذا المقام ، أن يرد بعد الأمر بالشكر ، أمر آخر بالصبر ، وأن يعد الله المؤمنين بالجزاء على هذا كما وعدهم بالجزاء على ذلك ، يلي ان هذه الآيات متصلة بما قبلها ، متممة للارشاد فيها ، وقد هدى سبحانه بلطفه الى علاج الداء قبل بيبائه ، فأمر بالاستعانة على ما يلاقيه المؤمنون بالصبر والصلاة ، ووعد على ذلك بمعونته الالهية ، ثم أشعرهم بما يلاقونه في سبيل الحق والدعوة الى الدين والمدافعة عنه وعن أنفسهم . فهو سبحانه وتعالى يأمرهم بالصبر على ذلك كله ، لا ان الاية في الانقطاع الى العبادة والصبر على الطاعة مطلقاً بحيث يكون القاعد عن الجهاد بنفسه وماله ، أو السعي لعياله . اعتكافاً في مسجد أو انزواً في خلوة . عاملاً بها

كل المؤمنين في قلة من العدد والعدد ، وكانت الامم كلها مناة لهم ، فالمرشكون اخرجوهم من ديارهم واموالهم وما فتئوا يغيرون عليهم ، ويصدون الناس عنهم ، ثم كانوا يلاقون في مهاجرهم ما يلاقون من عداوة أهل الكتاب ومكرهم ، ومن مراوغة المنافقين وكيدهم ، فأمرهم الله تعالى أن يستعينوا في مقاومة ذلك كله وفي

سائر ما يعرض لهم من المصائب بالصبر والصلاة . اما الصبر فقد ذكر في القرآن سبعين مرة ولم تذكر فضيلة أخرى فيه بهذا المقدار ، وهذا يدل على عظم امره ، وقد جعل التواصي به في سورة العصر مقرونا بالتواصي بالحق ، اذ لا بد للداعي الى الحق منه . والمراد بالصبر في هذه الآيات كلها ملكة الثبات والاحتمال التي تهون على صاحبها كل ما يلاقيه في سبيل تأييد الحق ونصر الفضيلة . فضيلة هي أم الفضائل التي تربي ملكات الخير في النفس ، فاما من فضيلة الاوهي محتاجة اليها . وانما يظهر الصبر في ثبات الانسان على عمل اختياري يقصد به إثبات حق أو إزالة باطل أو الدعوة الى عقيدة ، أو تأييد فضيلة ، أو إيجاد وسيلة الى عمل عظيم ، لأن أمثال هذه السكليات التي تتعلق بالمصالح العامة هي التي تقابل من الناس بالمقاومة والمحادثة التي يعوز فيها الصبر ، ويعز معها الثبات على احتمال المكروه ، ومضارعة الشدائد ، فالثبات على العمل في مثل هذه الحال هو الصابر وإن كان في أول الامر متكلفا ، وممي رسخت الملكة يسمى صاحبها صبور او صبارا . وليس كل متحمل للمكروه من الصابرين الذين أخبر الله في هذه الآية انه معهم وبشرم في الآية الآتية ، وأثنى عليهم في آيات كثيرة ، بل لابد من العمل للحق والثبات فيه كإقدامنا لأن الفضائل لا تتحقق الا بما يصدر عنها من الاعمال الاختيارية التي هي مناط الجزاء ، بل الصبر نفسه ملكة اكتسابية ولذلك امر الله تعالى به ، وانما يكون الامتثال بتعويد النفس احتمال المكروه والشدائد في سبيل الحق . وعلى ذلك جرى النبي عليه الصلاة والسلام وأصحابه عليهم الرضوان ، حتى فازوا بمقاومة الصبر المحموده ونصرهم الله تعالى مع قتلهم وضيقهم على جميع الامم مع قوتها وكثرتها ، وانما كان ذلك بالصبر ، لان الله تعالى جعله سببا للنجاة من الخسر ، كما جاء في سورة العصر ،

المتحمل للمكروه مع السآمة والضجر لا يمد صابرا ، وهذا هو شأن منتحلي العلم ومدعي الصلاح في هذا الزمان ، تراهم أضف الناس قلوبا وأشد هم اضطرابا إذا عرض لهم شيء على غير ما يهوون ، على أن عنوان صلاحهم واستمسكهم بعروة الدين هو جرم الذكر وحركات الاعضاء في الصلاة ، وما كان للمصلي ولا لذاكر أن يكون ضعيف القلب عادم الثقة بالله تعالى وهو جل ثناؤه يبرئ المصلين

من الجزع الذي هو ضد الصبر بقوله (ان الانسان خلق هلوعا * إذا مسه الشر جزوعا * وإذا مسه الخير منوعا * إلا المصلين) الخ وقد جعل ذكره مع الثبات في البأساء في قرآن إذ قال (يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلمكم تفلحون) وقد قرن في الآية التي نفسرها الصلاة بالصبر وجعل الامرين معاً ذريعة الاستعانة على ما يلاقي المؤمنون في طريق الحق من الشدائد .

ولو كان هؤلاء الادعياء مصلين لكانوا من الصابرين ، وإنما تلك حركات تعودوها فهم يكررونها ساهين عنها ، أو يقصدون بها قلوب الناس ليتقون عندها المسكنة الرفيعة بالدين ، لما يترتب على ذلك من المنافع والفوائد الدنيوية التي لا يعقلون سواها ، فيجب على كل مؤمن أن يعود نفسه احتمال المكاره ، وبمحاول تحصيل ملكة الصبر عند ما تعرض له اسبابه ، فمن لم يستعن على عمله بالصبر ، لا يتم له أمر ، ولا يثبت على عمل ، ولا سيما الاعمال العظيمة كتربية الامم والانتقال بها من حال الى حال ، لذلك ترى كثيرين يشربون في الاعمال العظيمة فيعوزهم الصبر فيقفون عند الخطوة الثانية . ومن يزعم أنه عاجز عن تحصيل هذه الملكة فهو خائن لنفسه جاهل بما أودع الله فيه من الاستعداد ، فهو باحتقاره لنفسه محتقر نعمه الله تعالى عليه ، وهو بهذا الاحساس بالعجز قد سجل على نفسه الحرمان من جميع الفضائل .

وجه الحاجة إلى الاستعانة بالصبر على تأييد الحق والقيام بأعبائه ظاهر جلي . وأما الحاجة الى الاستعانة بالصلاة فوجهها محجوب لا يكاد ينكشف إلا للمصلين الذين هم في صلاتهم خاشعون . تلك الصلاة التي أكثر من ذكرها الكتاب العزيز ووصف ذوبها بفضلى الصفات وهي التوجه إلى الله تعالى ومناجاته وحضور القلب معه سبحانه واستغراقه في الشعور بهيئته وجلاله وكال سلطانه . تلك الصلاة التي قال فيها جل ذكره (وانها لكبيرة إلا على الخاشعين) وقال فيها (ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر) وليست هي الصورة المعهودة من القيام والركوع والسجود والتلاوة باللسان خاصة ، التي يسهل على كل صبي ميمز أن يتعودها ، والتي نشاهد من المعتادين لها الاصرار على الفواحش والمنكرات ، واجترار الآثام والسيئات ، وأي قيمة لتلك الحركات الخفيفة في نفسها حتى يصفها رب العزة والجلال بالكبر إلا على

انطاشمين ؟ إنما جعلت تلك الحركات والاقوال صورة للصلاة لتكون وسيلة تذكير الغافلين ، وتنبيه الداهلين ، ودافعاً يدفع المصلي إلى ذلك التوجه المقصود الذي يملأ القلب بعظمة الله وسلطانه حتى يستسهل في سبيله كل صعب ، ويستخف بكل كرب ، ويسهل عليه عند ذلك احتمال كل بلاء ، ومقاومة كل غناء ، فإنه لا يتصور شيئاً يعترض في سبيله إلا ويرى سيده ومولاه أكبر منه ، فهو لا يزال يقول : الله أكبر. حتى لا يبقى في نفسه شيء كبير ، إلا ما كان مرضياً لله العلي الكبير ، الذي يلجأ إليه في الخواثر ، ويفزع إليه عند الكوارث

ثم قال ﴿ ان الله مع الصابرين ﴾ ولم يقل معكم ليفيد أن معونته إنما تمدهم إذا صار الصبر وصفاً لازماً لهم ، وقالوا ان المعية هنا معية المعونة . فالصابرون موعودون من الله تعالى بالمعونة والظفر ، ومن كان الله معينه وناصره فلا يقبله شيء . وقال الاستاذ الامام : ان من سنة الله تعالى ان الاعمال العظيمة لا تتم ولا ينجح صاحبها إلا بالثبات والاستمرار ، وهذا إنما يكون بالصبر ، فمن صبر فهو على سنة الله والله معه بما جعل هذا الصبر سبباً للظفر ، لانه يولد الثبات والاستمرار الذي هو شرط النجاح ، ومن لم يصبر فليس الله معه ، لانه تنكب سنته ، ولن يثبت فيبلغ غايته

علم الله تعالى ماسيلاقيه المؤمنون في الدعوة إلى دينه وتقديره وإقامته من المقاومات وتسييط الهمم ، وما يقوله لهم الناس في ذلك وما يقول الضعفاء في أنفسهم : كيف تبذل هذه النفوس وتسبب للقتل بمخالفة الامم كلها ؟ وما الغاية من قتل الانسان نفسه لاجل تعزيز رجل في دعوته ؟ وغير ذلك مما كانوا يسمعون من المنافقين والكافرين ، وربما أثر في نفوس بعض الضعفاء فاستبطؤوا النصر ، فلههم الله سبحانه وتعالى ما يستعينون به على مجاهدة الخواطر والهواجس ، ومقاومة الشبهات والوساوس ، فأمر أولاً بالاستعانة بالصبر والصلاة

ثم ذكر أعظم شيء يستعان عليه بذلك وهو القتل في سبيل دعوة الحق وحمايته —

ذكره مدرجا في سياق تقرير حقيقة ودفع شبهة فقال ﴿ ولا تقولوا ان يقتل في سبيل الله اموات ﴾ أي لا تقولوا في شأنهم : هم أموات. وقالوا ان الامم في «ان»

للتعليل لا للتبليغ والمعنى ظاهر والتركيب مألوف ﴿ بل ﴾ ﴿ م ﴾ ﴿ أحياء ﴾ في عالم غير عالمكم ﴿ ولكن لا تشعرون ﴾ بحياتهم إذ ليست في عالم الحس الذي يدرك بالمشاعر البشري ثم لا بد أن تكون هذه الحياة حياة خاصة غير التي يعتقدها جميع الملمين في جميع الملوك من بقاء أرواحهم بعد مفارقة أشباحهم ، ولذلك ذهب بعض الناس إلى أن حياة الشهداء تتعلق بهذه الاجساد وإن فنيت أو احترقت أو أكلتها السباع أو الحيتان وقالوا انها حياة لا نعرفها ، ونحن نقول مثلهم اننا لا نعرفها ونزيد اننا لا نثبت ما لا نعرف . وقال بعضهم انها حياة يجعل الله بها الروح في جسم آخر يشتمع به ويرزق . ورووا في هذا روايات منها الحديث الذي أشار اليه المفسر (الجلال) وهو « ان أرواح الشهداء عند الله في حواصل طيور خضر تسرح في الجنة » * وقيل انها حياة الذكر الحسن والثناء بعد الموت . وقيل ان المراد بالموت والحياة الضلال والهدى . روي هذا عن الاصم أي لا تقولوا ان باذل روحه في سبيل الله ضال بل هو مهتد . وقيل انها حياة روحانية محضة . وقيل ان المراد أنهم سيحيون في الآخرة وان الموت ليس عدما محضا كما يزعم بعض المشركين . فلا ية عند هؤلاء على حد (ان الابرار لنفي نعيم* وان الفجار لنفي جحيم) أي ان مصيرهم الى ذلك قال الاستاذ الامام بعد ذكر الخلاف : وقال بعض العلماء الباحثين في الروح ان الروح إنما تقوم بجسم لطيف « أثري » في صورة هذا الجسم المركب الذي يكون عليه الانسان في الدنيا وبواسطة ذلك الجسم الأثري تجول الروح في هذا الجسم

(* في الحديث شيء من الاضطراب ففي رواية مسلم والترمذي من حديث ابن مسعود انها « في حواصل طيور خضر تسرح من أنهار الجنة حيث شاءت ثم تأوي الى قناديل تحت العرش » الخ . وفي رواية عبد الرزاق من حديث عبد الله بن كعب بن مالك « ان أرواح الشهداء في صور طيور خضر معلقة في قناديل الجنة حتى يرجعها الله يوم القيامة » فهذا يدل على أنها محبوسة في مكان خاص والاول يفيد انها مطلقة تسرح حيث تشاء ثم ان لها ماوى تأوي اليه حين تشاء . وفي رواية مالك وأصحاب السنن ماعدا أبا داود انها في أجواف طيور خضر تغلف من ثمر الجنة أو شجر الجنة . كذا في بعض التفاسير وهناك روايات أخرى

(البقرة : ص ٢) قيام الارواح بعد الموت باجسام لطيفة كالسمى بالاثير ٢٩

المادي ، فاذا مات المرء وخرجت روحه فانما تخرج بالجسم الاثيري وتبقى معه وهو جسم لا يتغير ولا يتبدل ولا يتحلل . وأما هذا الجسم المحسوس فانه يتحلل ويتبدل في كل بضع سنين . قال ويقرب هذا القول من مذهب المالكية فقد روي عن مالك رحمه الله تعالى انه قال : ان الروح صورة كالجسد . أي لها صورة وما الصورة إلا عرض ، وجوهر هذا العرض هو الذي سماه العلماء بالاثير

وإذا كان من خواص الاثير النفوذ في الاجسام اللطيفة والكشفة كما يقولون حتى انه هو الذي ينقل النور من الشمس إلى طبقة الهواء فلا مانع أن تتعلق به الروح المطلقة في الآخرة ثم هو يحل بها جسماً آخر تنعم به وترزق سواء كان جسم طير أو غيره . وقد قال تعالى في آية أخرى (أحياء عند ربهم يرزقون) وهذا القول يقرب معنى الآية من العلم . والمعتمد عند الاستاذ الامام في هذه الحياة هو انها حياة غيبية تمتاز بها ارواح الشهداء على سائر ارواح الناس ، بها يرزقون وينعمون ، ولكننا لانعرف حقيقتها ولا حقيقة الرزق الذي يكون بها ، ولا نبحت عن ذلك لانه من عالم الغيب الذي نؤمن به ونفوض الامر فيه إلى الله تعالى

ذكر الله تعالى فضل الشهادة التي استهدف لها المؤمنون في سبيل الدعوة إلى الحق والدفاع عنه ، ثم ذكر مجموع المصائب التي يبلوهم ويمتحنهم

بها . لأننا في ما وعدهم به من نعم الدنيا فقال ﴿ ولنبليكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الاموال والانفس والثمرات ﴾ أي ولنمتحنكم ببعض ضروب الخوف من الاعداء وغيره من المصائب البشرية المعتادة في المعاش ، وأكد هذا بصيغة القسم لتوطين النفس عليه فعلمهم به أن مجرد الانتساب إلى الايمان ، لا يقتضي سعة الرزق وقوة السلطان ، وانتفاء المخاوف والاحزان ، بل يجري ذلك بسنن الله تعالى في الخلق كما أن من سنن الخلق وقوع المصائب بأسبابها . وإنما المؤمن الموفق من يستفيد من مجاري الاقدار ، إذ يترى ويتأدب بمقاومة الشدائد والاعطاش ، ومن لم تعلمه الحوادث ، وتهذبه الكوارث ، فهو جاهل بهدي الدين ، متبع غير سبيل المؤمنين ، غير معتبر بقوله تعالى بما ذكر هذا البلاء المبين

﴿ وبشر الصابرين ﴾ فإنه تعالى أراد أن ينبهنا بهذا إلى أن هذه العقيدة هي التي تكتسب بها ملكة الصبر التي يقرن بها الظفر ويكون صاحبها أهلاً لأن يبشر بأحتمال البلاء والاستفادة بحسن العاقبة في الأمور كلها. فلبشارة في الآية عامة ولم يذكر المبشر به إيماناً بذلك وهو إيجاز لا يمهّد مثله في غير القرآن الحكيم، فانت ترى أنه لو أريد ذكر ما يبشرون به لخروج الكلام إلى تطويل لاجتماع اليه كبيان عاقبة من يقع في كل نوع من أنواع المخاوف فيصابرها وينجح في أعقابها وهي كثيرة، وهكذا الخوف المشار إليه في الآية — وأعداء الاسلام على ما كانوا عليه من الكثرة والقوة — ظاهر لا يخفى، على أن بعضهم فسره بالخوف من الله تعالى وهو باطل لأن هذا من أعظم ثمرات الايمان، لأن مصائب الامتحان، فهو نعمة تعين على الصبر لا مصيبة يطلب الصبر عليها أوفيهما لاجل تهوين خطبها. وأما الجوع فقد قالوا أنه ما يكون من الجذب والقحط. قال الاستاذ الامام: وليس هذا هو المراد في الآية المسوقة لبيان ما يلاقي المؤمنون في سبيل الايمان ولا وقع الصحابة في ذلك العهد — وإنما هو أحدهم يؤمن فيفصل من أهله وعشيرته ويخرج في الغالب صفر اليدين، ولذلك كان الفقير عاماً في المسلمين من أول عهدهم إلى ما بعد فتح مكة، ومن هذا التفسير يفهم المراد من نقص الاموال وهي الانعام التي كانت معظم ما يتموله العرب. وأما الثمرات فهي على أصلها، وكان معظمها ثمرات النخيل. وقيل هي الولد ثمر القلب كما يقولون في المجاز المشهور. وقد بلغ من جوع المسلمين أن كانوا يتبلغون بثمرات يسيرة ولا سيما في غزوتي الاحزاب وتبوك. وأما نقص الأنفس فهو ما كان من القتل والموتان من اجتواء المدينة، فقد كانت عند هجرتهم إليها بلدوباء وحى ثم حسن مناخها

ثم وصف الصابرين المستحقين للبشارة بقوله ﴿ الذين إذا أصابهم مصيبة

قالوا إنا لله وإنا اليه راجعون ﴾ أي قالوا هذا القول معبرين به عن حالهم ومقتضى ايمانهم، وليس المراد بالقول مجرد التعلق بهذه الكلمة على أن يحفظوها حفظاً، ويلفظوها لفظاً، وإن كانوا لا يعقلون لها معنى، وإنما المراد التلبس بمعناها والتحقق

(البقرة : ص ٢) . الصبر وجزاء الصابر من المحسنين صلوات الله ورحمته ٤١

في الايمان بأنهم من خلق الله وملك الله وإلى الله يرجعون ، فهو الذي بيده ملكوت كل شيء ، ولا يفعل إلا ما سبق به الحكمة ، وأرضاه النظام الالهي المبرر عنه بالسنة . بحيث ينطق اللسان بالكلمة بدافع الشعور بهذا المعنى وتمكنه من النفس ، فأصحاب هذا الاعتقاد والشعور هم الجديرون بالصبر إيماناً وتسليماً بحيث لا يملك الجزع نفوسهم ولا تقعد المصائب همهم ، بل تزيدهم ثباتاً ومثابة فيكونون هم الفائزين ولا ينافي الصبر والتثبت ما يكون من حزن الانسان عند نزول المصيبة بل ذلك من الرحمة ورقة القلب ، ولو فقد الانسان هذه الرحمة لكان قاسياً لا يرجى خيره ولا يؤمن شره ، وإنما الجزع المذموم هو الذي يحمل صاحبه على ترك الاعمال المشروعة لاجل المصيبة ، والأخذ بمادات وأعمال مذمومة ضارة ينهى عنها الشرع ، ويستتبعها العقل ، كما نشاهد من جاهل الناس في المصائب والنوائب وقد ورد في الصحيحين ان النبي ﷺ بكى عند ما حضر ولده ابراهيم عليه السلام الموت وقيل له : أليس قد نهيتنا عن ذلك ؟ فاجاب أنها الرحمة وقال « ان العين تدمع ، والقلب يحزن ، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا ، وإنا بفراقك يا ابراهيم لحزون » . رواه الشيخان من حديث أنس وفائدة الاخبار بالبلاء قبل وقوعه بوطئ النفس عليه واستعدادها لتحمله والاستفادة منه « ما من دهي بالامر كالمعتد » هذا إن لم يقترب بالخبر إرشاد وتعليم ، فكيف إذا اقترنت به هداية العزيز العليم ؟ ذكر البلاء وبشر الصابرين عليه وذكر الوصف الذي يستحقون به البشارة وختم

القول ببيان الجزاء المبشر به بالأجمال فقال ﷺ أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة . أي أولئك الصابرون المحسنون عليهم من ربهم ، ووف الرحيم ما يحول دون تبريح المصائب بهم من أنواع صلواته العامة ورحمته الخاصة ، فأما الصلوات فالمراد بها انواع التكريم والنجاح ، وإعلاء المنزلة عند الله والناس ، وعن ابن عباس أنها المغفرة لذنوبهم . وأما الرحمة فهي ما يكون لهم في نفس المصيبة من حسن العزاء ، وبرد الرضى والتسليم للقضاء . فهي رحمة خاصة يحسد الملحدون عليها المؤمنين ، فان الكافر المحروم من هذه الرحمة في المصيبة تضيق عليه الدنيا بما رحبت ، حتى انه ليختم نفسه إذا لم يعد له رجاء في الاسباب التي يعرفها ويفتخر بيده ويكون من الهالكين

﴿وأولئك هم المتهدون﴾ أي إلى ما ينبغي عمله في أوقات المصائب والشدائد إذ لا يستخوذ الجزع على نفوسهم ، ولا يذهب البلاء بالامل من قلوبهم ، فيكونون هم الفائزين بخير الدنيا والراحة فيها ، المستعدين لسعادة الآخرة بعلو النفس وتزكيتها بمكام الاخلاق وصالح الاعمال ، دون أهل الجزع وضعف الايمان ، كما دل عليه الجملة الاسمية المعرفة الطرفين المؤكدة بضمير الفصل

(١٥٨) إِنَّ الصَّافِيَ وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ ، فَعَنْ حَبِجٍ
الْبَيْتِ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ
خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ

علم مما تقدم ان مسألة تحويل القبلة جاءت في معرض الكلام عن معاندة المشركين وأهل الكتاب للنبي ﷺ فكان التحويل شبهة من شبهاتهم وتقدم أن من لوازم حكم تحويل القبلة إلى البيت الحرام ، توجيه قلوب المؤمنين إلى الاستيلاء عليه - كما يوجهون اليه وجوههم - لاجل تطهيره من الشرك والاثام ، كما عهد الله إلى أبيهم ابراهيم واسماعيل عليهما السلام ، والا كانوا راضين باستقبال الاصنام ، وأن في طي (ولاتم نعمتي عليكم) بشارة بهذا الاستيلاء ، مفيدة للامل والرجاء وقد علم الله المؤمنين بعد هذه البشارة ما يستعينون به على الوصول اليها هي وسائر مقاصد الدين من الصبر والصلاة وأشعرهم بما لا يلاقون في سبيل الحق من المصائب والشدائد ، فكان من المناسب بعد هذا أن يذكر شيئاً يؤكد تلك البشارة ويقوي ذلك الامل فذكر شعيرة من شعائر الحج هي السعي بين الصفا والمروة ، فكان ذكرها تصريحاً ضمناً بأن سياخذون مكة وقيمون مناسك ابراهيم فيها ، وتتم بذلك لهم النعمة والهداية ، وهو قوله عز وجل

﴿من الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما﴾
فهذه الآية ليست مقطوعة عن السياق السابق لا فائدة حكم جديد لا علاقة له بما قبله كما توهم بل هي من تنمة الموضوع ومرتبطة به أشد الارتباط ، من حيث هي

تأكيد للبشارة ، ومن حيث ان الحكم الذي فيها من مناسك الحج التي كان عليها ابراهيم الذي احيا النبي ﷺ ماته وجعلت الصلاة إلى قبلته . كأنه قال : لا تلوينكم قوة المشركين في مكة ، وكثرة الاصنام على الكعبة ، والصفا والمروة ، عن القصد إلى تطهير البيت الحرام ، وإحياء تلك الشعائر العظام ، كما لا يلوينكم عن استقبال البيت تقول أهل الكتاب والمشركون ، ولا زلزال مرضى القلوب من المنافقين ، بل ثقوا بوعد الله ، واستعينوا بالصبر والصلاة

الصفا والمروة جبلان اوعلما جبلين بمكة والمسافة بينهما ٧٦٠ ذراعاً ونصف ، والصفا تجاه البيت الحرام . وقد علمنا المباني وصار ما بينهما سوقا . والشعيرة والشعار والشعارة تطلق على المكان او الشيء الذي يشعر بأمر له شأن . وأطلق على معالم الحج ومواقع النسك وتسمى مشاعر « جمع مشعر » وعلى العمل الاجتماعي الخصوص الذي هو عبادة ونسك ، ففي آية أخرى (لا تحلوا شعائر الله) وهي مناسك الحج ومعامله . ومنه إشعار الهدى وهو جرح ما يهدي إلى الحرم من الابل في صفحة سنامه ليعلم انه نسك . ويشعر البقر ايضا دون الغنم . ومن شواهد في اللغة شعار الحرب وهو ما يتعارف به الجيش . قال شيخنا ورمى رجل جمره فأصابت جبهة عمر رضي الله عنه فقال رجل : شعرت جبهة أمير المؤمنين يريد جرحته . سمي الجرح بذلك لانه علامة . وقال عند ذلك رجل لهي : « سيقتل أمير المؤمنين . وكان ما قال فأما كون المواضع كالصفا والمروة من علامات دين الله أو أعلام دينه فظاهر وأما كون المناسك والاعمال شعائر وعلامات فوجه أن القيام بها علامة على الخضوع لله تعالى وعبادته إيمانا وتسليما . فلشعائر إذن لا تطلق إلا على الاعمال المشروعة التي فيها تعبد لله تعالى ، ولذلك غلب استعمال الشعائر في أعمال الحج لانها تعبدية ، قال في الصحاح : الشعائر أعمال الحج وكل ما جعل علماً لطاعة الله عز وجل . وقال الزجاج في قوله تعالى (لا تحلوا شعائر الله) أي جميع متعبداته التي أشعرها الله أي

(١) أي من بني لهب بكسر اللام وقد اشتهروا في الجاهلية بالعيافة وزجر الطير للتيمن او التشاؤم . قال الشاعر :

خير بنو لهب فلا تك ملغيا . مقالة لهي اذا الطير مرت

٤٤ تحديد شعائر الدين وكونها تعلم بالقطع لا بالاجتهاد والرأي (التفسير: ج ٢)

جعلها إعلاما لنا: الخ فمؤيد أن الشعائر من أشعره بالشيء أعلمه به. وقد صرح بذلك ولكنه لا يدل بهذا على معنى التعبد إذ قد أعلمنا الله تعالى بالأحكام التي لا تعبد فيها أيضا والشعائر لم تطلق في القرآن إلا على مناسك الحج الاجتماعية، وألحق بها بعضهم ما في معناها من عبادات الإسلام الاجتماعية كالإذان وصلاة الجمعة والعيدين

(الاستاذ الامام) في الأحكام التي شرعها الله تعالى نوع يسمى بالشعائر ومنها ما لا يسمى بذلك كأحكام المعاملات كافة لأنها شرعت لمصالح البشر فلها علل وأسباب يسهل على كل إنسان أن يفهمها ، فهذا أحد أقسام الشرائع. والقسم الثاني هو ما تعبدنا الله تعالى به كالصلاة على وجه مخصوص ، وكالتوجه فيها إلى مكان مخصوص ساء الله يتيته مع أنه من خلقه كسائر العالم . فهذا شيء شرعه الله وتعبدنا به لعلنا بان فيه مصلحة لنا ولكننا نحن لا نفهم سر ذلك تمام الفهم من كل وجه

أقول: وهذا النوع يوقف فيه عند نص ما شرعه الله تعالى، لا يضاف فيه ولا ينقص منه ولا يقاس عليه ، ولا يؤخذ فيه برأي أحد ولا باجتهاده، إذ لو أتيح للناس الزيادة في شعائر الدين باجتهادهم في عموم لفظ أو قياس لأمكن أن تصير شعائر الإسلام أضعاف ما كانت عليه في عهد الرسول ﷺ حتى لا يفرق أكثر الناس بين الأصل المشتع ، والدخيل المبتدع ، فيكون المسلمون كالتصارى . فكل من ابتدع شعيرة أو عبادة في الإسلام فهو ممن يصدق عليهم قوله تعالى (أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله) وإما الاجتهاد في مثل تحري القبلة من العمل التعبدية وفي القضاء . وليراجع القاري تفسير قوله تعالى (١٠٤: ٥) يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم) وقوله (٣١: ٩) اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله) ومن العيب أن يعمل الإنسان ما لا يعرف له فائدة لقول من هو مثله وهو مستمد لأن يفهم كل ما يفهمه ؟ ولا يأتي هذا العيب في امتثال أمر الله تعالى لأننا نعتقد أنه برحمته وحكمته لا يشرع لنا إلا ما فيه خيرنا ومصلحتنا ، وأنه يعلمه المحيط بكل شيء . يعلم من ذلك ما لا نعلم . والتجربة تؤيد هذا الاعتقاد فإن الطائعين القائمين بحقوق الدين تصلح أحوالهم في الدنيا ، ويرجى لهم في الآخرة ما يرجى ، وإن لم يفهموا فيها كاملاً فائدة كل جزئية من جزئيات العمل ، فمثلهم كإل الغزالي مثل من وثق بالطبيب وجرب دواء

من ذكرى نشأة الدين الأولى بمكة في عهد ابراهيم واسماعيل كغيره من شعائر الله، وخلصه انه لما كان بين ابراهيم عليه السلام وامراته (سارة) ما كان (من حملها إياه على طرد سريته هاجر مع طفلها اسماعيل وهو مذكور في الفصل ٢١ من سفر التكوين) خرج بها إلى بركة فاران (أي مكة) فوضعهما في مكان زمزم تحت دوحه ولم يكن هنالك سكان ولا ماء ووضع عندها جراباً فيه تمر - وفي سفر التكوين انه زودها بخبز - وسقاء فيه ماء ثم رجع فقالت له: إلى من تتركنا؟ قل «إلى الله» قالت رضيت بالله. وهنالك دعا ابراهيم بما حكاه الله عنه في سورته (ربنا اني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع - إلى قوله - يشكرون) فلما نفذ الماء عطشت وجف لبنها وعطش ولدها فجعل يتلوى وينشغ (يشق) للدوت فكأنت تذهب فتصعد الصفا تنظر هل ترى أحداً فلم تحس أحداً، ثم تذهب فتصعد المروة فلم تر أحداً، ثم ترجع إلى ولدها فتراه ينشغ - فملت ذلك سبعة اشواط، وبعد الأخيرة وجدت عنده صوتاً فقالت أغث إن كان عندك غواث، فإذا هي بالملك جبريل عند زمزم فهمز بعقبه الأرض فانبثق الماء فجعلت تشرب ويدر لبنها على صبيها. وصر ناس من جرهم بالوادي فإذا هم بطير عاتقة أي تحوم على الماء فاهتدوا إليه وأقاموا عنده ونشأ اسماعيل معهم. قال ابن عباس لما ذكر سمعياً بين الصفا والمروة: قول النبي ﷺ «فذلك سعي الناس بينهما» (الاستاذ الامام) وصف الباري تعالى بالشاكر لا يظهر على حقيقة فلا بد من حمله على المجاز. فالشكر في اللغة مقابلة النعمة والاحسان، بالشناء والعرفان، وشكر الناس لله في اصطلاح الشرع عبارة عن صرف نعمه فيما خلقت لاجله، وكلاهما لا يظهر بالنسبة إلى الله تعالى إذ لا يمكن أن يكون لأحد عنده يد أو يناله من أحد نعمة يشكرها له بهذا المعنى. فالعنى إذاً أن الله تعالى قادر على إثابة المحسنين، وأنه لا يضيع أجر العاملين، فهذا المعنى سميت مقابلة العامل بالجزاء الذي يستحقه شكراً، وسمى الله تعالى نفسه شاكراً. وأزيد على قول الاستاذ ان الله تعالى وعد الشاكرين لنعمه بالمزيد منها، فسمي هذا شكراً من باب المشاكلة

والنكته في اختيار هذا التعبير تعليمنا الادب فقد علمنا سبحانه وتعالى بهذا دبا من اكل الآداب بما سمي إحسانه وإنعامه على العاملين شكراً لهم مع أن علمهم

لا ينفعه ولا يدفع عنه ضرراً فيكون إنعاماً عليه وبدأ عنده ، وإنما منفعته لهم فهو في الحقيقة من نعمه عليهم إذ هداهم إليه ، وأقدرهم عليه ، فهل يليق بمن يفهم هذا الخطاب الأعلى ، أن يرى نعم الله عليه لا تعد ولا تحصى ، وهو لا يشكره ولا يستعمل نعمه فيما سيقب لاجله ؟ ثم هل يليق به أن يرى بعض الناس يسدي إليه معروفاتهم لا يشكره له ولا يكافئه عليه ، وإن كان هو فوق صاحب المعروف رتبة وأعلى منه طبقة ؟ كيف وقد سعى الله تعالى جده وجل ثناؤه إنعامه على من يحسنون إلى أنفسهم وإلى الناس شكراً ، والله الخالق وهم المخلوقون ، وهو القوي الحميد وهم الفقراء المعوزون ؟ شكر النعمة والمكافأة على المعروف من أركان العمران وترك الشكر والمكافأة مفسدة لا تضاهيها مفسدة ، إذ هي مدعاة ترك المعروف كما أن الشكر مدعاة المزيد ، ولذلك أوجب الله تعالى علينا شكره ، وجعل في ذلك مصلحتنا ومنفعتنا ، لأن كفران نعمه باهاؤها أو بعدم استعمالها فيما خلقت لاجله أو بعدم ملاحظة أنها من فضله وكرمه تعالى - كل ذلك من أسباب الشقاء والبلاء

وأما تركنا شكر الناس وتقدير أعمالهم قدرها سواء كان عملهم النافع موجهاً ، إلينا أو إلى غيرنا من الخلق ، فهو جناية منا على الناس وعلى أنفسنا ، لأن صانع المعروف إذا لم يلق إلا الكفران فإن الناس يتركون عمل المعروف في الغالب ، فتحرم منه ونقع مع الأكثرين في ضده فنكون من الخاسرين . وإنما قلنا « في الغالب » لأن في الناس من يصنع المعروف ويسعى في الخير رغبة في الخير والمعروف وطلباً للكمال ، ولكن أصحاب هذه النفوس الكبيرة والأخلاق العالية التي لا ينظر ذووها إلى مقابلة الناس لأعمالهم بالشكر ، ولا يصدم عن الصنعة جهل الناس بقيمة صنيعتهم ، قلما تلد القرون واحداً منهم ، ثم إن كفران النعم لا بد أن يؤثر في نفس من عساه يوجد منهم فأن لم يكن أثره ترك السعي والعمل ، كان الفتور والوني فيه ، وإذا لم يدفع المعروف فاعله لكفران الناس لسميه تركه للأيأس من فائدته ، أو للحذر من سوء مغبته ، إذ الخاسدون من الاشرار ، يسمعون دائماً في إيذاء الاخيار ، كذلك الشكر يؤثر في إنباض همه أهلئاء الهمة من التخلصين في أعمالهم الذين لا يريدون عليهم اجزاء ولا شكوراً ذلك أنهم يرون عملهم الخير نافعاً فيزيدون منه كما أنهم إذا رأوه ضائعاً يكتفون عنه

٤٨ كتمان أهل الكتاب لبشارة كتبهم بالنبي (ص) وجزاؤه (التفسير: ج ٢)

(قال الاستاذ الامام) بعد بيان حسن أثر الشكر في المحلّصين: ويروون في هذا حديثا ارتقى به بعضهم إلى درجة الحسن وهو «عجبت لمحمد كيف يسمن من أذنيه» أي كان إذا ذكرت أعماله الشريفة وسعيه في الخير المطلق يسر ويسمن - هذا وهو ﷺ أخلص المحلّصين الغاني في الله تعالى لا يبتغي بعمله غير مرضاته فكيف لا يكون غيره أجدر بذلك ممن إذا سلم من الانبعاث إلى الخير يباعث الشكر والثناء فلا يكاد يسلم من حب الثناء لذاته فضلا عن مقت الكفران والكنود؟

(١٥٩) إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ
وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ
اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعِينُونَ (١٦٠) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا
وَبَيَّنُّوا ، فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ
(١٦١) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارًا أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ
لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١٦٢) خَالِدِينَ فِيهَا لَا
يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ

كان علماء أهل الكتاب يكتُمون بعض ما في كتبهم بعدم ذكر نصوصه للناس عند الحاجة إليه أو السؤال عنه كالإشارات بالنبي ﷺ وصفاته (و كحكم رجم الزاني الذي ورد ذكره في سورة المائدة، ويكتُمون بعضه بتحريف الكلم عن مواضعه بالترجمة والنطق أو حمله على غير معانيه بالتأويل اتباعا لاهوائهم) كما فعلوا بلفظ الفارق ليط (ففضحهم الله تعالى بهذه الآيات التي سجلت عليهم وعلى أمثالهم اللعنة العامة الدائمة، قال

(١) قد ذكرنا شواهدا مفضلة في تفسير الآية (٧ : ١٥٦) سورة الاعراف ج ٩ في فصل طويل من ص ٣٣٠ - ٣٠٠ وأول هذه الإشارات قول الرب لموسى في الباب ٥٨ من سفر التثنية (١٨ : ١٨) وسوف أقوم لهم نبيا مثلك من بين اخوتهم وأجعل كإلأى في فمه ويكلمهم بكل شيء أمره به) الخ وانما بنو اخوتهم العرب ابتداء اسماعيل

«ان الذين يكتُمون ما أنزلنا من المينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب ﴿١﴾ (قول شيخنا) هذه الآية عود إلى أصل السياق وهو معاداة النبي ومعادته من الكفار عامة ومن اليهود خاصة، والكلام في القبة إنما كان في معرض جحودهم وعدائهم أيضاً، وجاء فيه أنهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وان فريقاً منهم يكتُمون الحق وهم يعلمون، ولم يذكر هناك وعيد هؤلاء الكاتمين لان ذكر الكتمان ورد مورد الاحتجاج عليهم، وتسليية للنبي والمؤمنين على إبتائهم، ثم عاد هنا فذكره، وهو عبارة عن إنكارهم أخبار أنبيائهم عنه وإشارتهم به صلى الله عليه وسلم، وجملهم ذلك حجة سلبية على إنكار نبوته، إذ كانوا يقولون: ان الانبياء يبشر بعضهم ببعض ولم يبشروا بأن سيمت نبي من العرب أبناء اسماعيل، ولم يجيء بيان في كتبهم عن دينه وكتابه. فالله تعالى يقول: أنهم يكتُمون ما أنزل الله في شأن محمد ﷺ من بعد ما بينه لهم في الكتاب، وهو اسم جنس يشمل جميع كتب الانبياء عندهم. وقد اختلف الناس في صفة هذا الكتمان فقال بعضهم أنهم كانوا يحذفون أوصافه والبشارات فيه من كتبهم، وهو غير معقول إذ لا يمكن أن يتواطأ أهل الكتاب على ذلك في جميع الاقطار، ولو فعله الذين كانوا في بلاد العرب لظهر اختلاف كتبهم مع كتب اخوانهم في الشام وأوربة مثلاً^(١) ويذهب آخرون إلى أن الانكار كان بالتحريف والتأويل وحمل الاوصاف التي وردت فيه والدلائل التي تثبت نبوته على غيره حتى إذا سئلوا: هل لهذا النبي ذكر في كتبكم؟ قالوا: لا. على أن في كتبهم أوصافاً لا تنطبق إلا على نبي في بلاد العرب وأظهرها مافي التوراة وكتاب أشعيا

(١) هذا ما استدلل به بعض مفسرينا وفيه نظر أعجب كيف غاب عن استاذنا وهو مطلع على ما لم يطلعوا عليه من تاريخ كتب القوم وما فيها من الاختلافات بين النسخ القديمة والجديدة في اللغات المختلفة وأقدم نسخ العهد القديم العبرانية مأخوذ عن النسخة المسورية (بضم السين) التي جمعتها لجنة من اليهود في طبرية وفي سورة أوسورا في وادي القرات من القرن السادس الى الثاني عشر للمسيح وقد أضافوا فيها الى النصوص تفسيراً يسمى المسورة اي التقليد وحواشي تفسيرية أدخل بعضها في الاصل - وكذا ما بين النسخة السبعينية من التوراة وغيرها - وراجع هذا البحث في تفسير سورة الاعراف وبيننا موضعه قريباً في الصفحة ٤٨

٥٥ لمن كآمني ما أنزل الله والبلاغة في توبة الله على التائبين (التفسير : ج ٢)

فانه لا يقبل التأويل إلا بقاية المحل والتصف. وكذلك فعلوا بالدلائل على نبوة المسيح فانهم أنكروا انطباقها عليه وزعموا انها لغيره ، ولا يزالون ينتظرون ذلك الغير وقد بين الله تعالى في هذه الآية أنهم لم يقتصروا على كتمان الشهادة للنبي ﷺ بالتأويل بل كتموا ما في الكتاب من الهدى والارشاد بقروب التأويل أيضا

حتى أفسدوا الدين وانحرفوا بالناس عن صراطه، وذكر جزاءهم فقال ﴿ أولئك ﴾ أي الذين كتموا البينات والهدى فخرموا النور السابق والنور اللاحق. أو الذين

شأنهم هذا السكتان في الحل والاستقبال ﴿ يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون ﴾ أما لمن الله لهم فهو حرمانهم من رحمته الخاصة بالمؤمنين في الدنيا والآخرة. وأما لعن اللاعنين فهم فليس معناه أنه ينبغي أو يطلب لعنهم، وإنما معناه أنهم بفعلهم هذه موضع لعنة اللاعنين التي ذكرهم في الآية الآتية ﴿ إلا الذين تابوا ﴾ عن الكتمان

﴿ وأصلحوا ﴾ علمهم بالاخذ بتلك البينات عن النبي ودينه والهدى الذي جاء به

﴿ وبينوا ﴾ ما كانوا يكتُمونه أو بينوا إصلاحهم، وجأهروا بعملهم الصالح وأظهروه للناس ، فان بعض الناس يعرف الحق ويعمل به ولكنه يكتم عمله ويسره موافقة للناس فيما هم فيه لئلا يسيئوه، وهذا ضرب من الشرك الخفي وإيثار الخلق على الحق، لذلك اشترط في توبتهم اظهار إصلاحهم والمجاهرة بأعمالهم ليكونوا حجة على المنكرين، وقدوة صالحة لضعفاء التائبين

﴿ فأولئك أتوب عليهم ﴾ أي أرجع وأعود عليهم بالرحمة والرفقة، بعد الحرمان المعبر عنه باللعة. قال الاستاذ : وهذا من ألطف أنواع التأديب الالهي فانه لم يذكر أنه يقبل توبتهم كما هو الواقع بل أسند الى ذاته العلية فعل التوبة الذي

أسنده اليهم، وزاد على ذلك من تأنيسهم وترغيبهم أن قال ﴿ وأنا التواب الرحيم ﴾ يصف نفسه سبحانه بكثرة الرجوع والتوبة، للايدان بالتكرار، كما اذنب العبد وتاب، حتى لا ييأس من رحمة ربه، إذا هو عاد إلى ذنبه. فاي ترغيب في ذلك أبلغ من هذا وأشد تأثيراً منه لمن يشمر ويعقل ؟

(البقرة:س٢) موعظة في تأويل علماء السوء للقرآن في تركهم لهدايته وتبليغها. ٥١

ثم ان المبرة في الآية هي أن حكمها عام وان كان سببها خاصاً ، فكل من يكتم آيات الله وهدايته عن الناس فهو مستحق لهذه اللعنة . ولما كان هذا الوعيد وأشباهه حجة على الذين لبسوا لباس الدين من المسلمين وانتحلوا الرئاسة لانفسهم بعله ، حاولوا التفصي منه ، فقال بعضهم : ان الكتمان لا يتحقق الا اذا سئل العالم عن حكم الله تعالى فكتمه ، وأخذوا من هذا التأويل قاعدة هي أن العلماء لا يجب عليهم نشر ما أنزل الله تعالى ودعوة الناس اليه وبيانه لهم ، وإنما يجب على العالم أن يجب إذا سئل عما يعله ، وزاد بعضهم إذا لم يكن هناك عالم غيره وإلا كان له أن يحبل على غيره . وهذه القاعدة مسلمة عند أكثر المتتبعين الى العلم اليوم وقبل اليوم بقرون ، وقد ردها أهل العلم الصحيح فقالوا : ان القرآن الكريم لم يكتف بالوعيد على الكتمان ، بل أمر ببيانه هدا للناس ، وبالدعوة إلى الخير والامر بالمعروف والنهي عن المنكر وأوعد من يترك هذه الفريضة وذكر لهم المبر فيما حكام عن الذين قصروا فيها من قبل كقوله تعالى (وإذا أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه) الخ وقوله (ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير — إلى قوله في المنفرقين عن الحق — وأولئك لهم عذاب عظيم) وقوله (لعن الذين كفروا من بني اسرائيل على اسان داود وعيسى ابن مريم — إلى قوله في عصيانهم الذي هو سبب لعنتهم — كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه) الخ فأخبر تعالى انه لمن الامة كلها تركهم التناهي عن المنكر . نعم ان هذا فرض كفاية إذا قام به البعض سقط عن الباقي ، ولكن لا يكفي في كل قطر واحد كما قال بعض الفقهاء ، بل لابد أن تقوم به أمة من الناس كما قال الله تعالى لتكون لهم قوة وانهميم وأمرهم تأثير . وسيأتي تفصيل هذا في تفسير ١٠٤:٣ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف) الخ . (أقول) وما ورد من تدافع علماء السلف في الفتوى فانما هو في الوقائع العملية الاجتهادية التي تعرض للناس ، لا في الدعوة إلى مقاصد الدين الثابتة بالنصوص وسياجها من الامر بالمعروف والنهي عن المنكر

وذهب بعض المؤولين مذهبا آخر هو ان هذا الوعيد مخصوص بالكافرين فترك المؤمن فريضة من الفرائض كالامر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يستحق

بهوعيد الكافرين فيلحقه بالكفار . وهذا كلام قد ألفتة الاسماع ، وأخذ بالتسليم واستعمل في الاغلام والاقناع ، فإن الذي يسمعه على علته يرى نفسه ملزماً برمي تاركه في الأمر بالمعروف والدعوة الى الخير والنهي عن المنكر والكفر ، وذلك مخالف لما قواعد التي وضعوها للعقائد فلا يستطيع أن يقول ذلك . ولكنه اذا عرض على الله في الآخرة وعلى كتابه في الدنيا يظهر أنه لا قيمة له ، واذا بحث فيه يظهر لك أن الذي يرى حرمان الله تنتهك أمام عينيه ، ودين الله يداس جواربين يديه ، ويرى البدع تنحو السنن ، والضلال يغشي الهدى ، ولا ينبض له عرق ولا ينفع له وجدان ، ولا يندفع لنصرته بيد ولا بلسان ، هو هذا الذي اذا قيل له ان فلاناً يريد أن يصادرك في شيء من رزقك (كالجراية مثلاً) أو يحاول أن يتقدم عليك عند الأمراء والحكام ، تجيش في صدره المراجل ، ويضطرب باله ، ويتألم قلبه ، وربما تجافى جنبه عن مضجعه ، وهجر الرقاد عينيه ، ثم إنه يجد ويجتهد ويعمل الفكر في استنباط الحيل وإحكام التدبير لمداغة ذلك الخصم أو الإيقاع به ، فهل يكون لدين الله تعالى في نفس مثل هذا قيمته ؟ وهل يصدق أن الإيمان قد تمكن من قلبه ، والبرهان عليه قد حكم عقله ، ولا ذعان إليه قد تلج صدره ؟

يسهل على من نظر في بعض كتب العقائد التي بنيت على أساس الجدال أن يجادل نفسه ويفشا بما يسليها به من الاماني التي يسميها ايماناً ، ولكنه لو حاسبها فناقشها الحساب ورجع الى عقله ووجدانه لعلم أنه اتخذ إلهه هواه ، وأنه يعبد شهوته من دون الله ، وأن صفات المؤمنين التي سردها الكتاب سرداً ، وأحصاها عدداً ، وأظهرها بذل المال والنفس في سبيل الله ونشر الدعوة وتأييد الحق - كلها يريثة منه ، وأن صفات المنافقين الذين يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم كلها راسخة فيه ، فليحاسب امرؤ نفسه قبل أن يحاسب ، وليتب الى الله قبل حلول الاجل ، لعله يتوب عليه وهو التواب الرحيم

﴿ان الذين كفروا وماتوا وهم كفار أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين﴾
تقدم في الآية السابقة استحقاق اللعن للكافرين بكتمان الحق ، واستثنى منهم الذين يتوبون ثم ذكر في هذه الآية وما بعدها بيان أولئك اللاعنين

وشرط استحقاق اللعن الابدي الذي يلزمه الخلود في دار الهوان، وهو ان يتوبوا على كفرهم فاوالتك تسجل عليهم اللعنة ويخلدون فيها لا تنفعهم معها شفاعاة ولا وسيلة . قال بعض المفسرين : ان المراد بالناس هنا المؤمنون كأن غيرهم ليسوا من الناس، وحجتهم ان حمله على ظاهره وهو العموم لا يصدق على أهل دين أولئك الكفار ومذاهبهم فانهم لا يلعنونهم

قال الأستاذ الامام : وهو احتجاج ضعيف ، فان أهل مذاهبهم اذا كانوا لا يلعنون الاشخاص الذين يعرفونهم منهم ، فهم اذا شرحت لهم أحوالهم في كفرهم وإصرارهم على غيهم ، وإعراضهم عن سعادتهم ، وحال الداعي الى الحق معهم ، وذكر لهم كيف يشاققونه ويعاندونه ، فهم يلعنونهم أو يروّسهم محلاً للعة ومستحقين لاشد العقوبة ، فان المراد ان هؤلاء الكافرين المصيرين على كفرهم الى الموت هم أهل للعة وموضوع لها من الله ومن عالم الملائكة الروحانيين ، ومن الناس أجمعين ، فان الكافر من الناس اذا ذكر له الكفر وأهله وعنادهم واستكبارهم عن الحق لعنهم ، ولكنه قد يخطيء في حمل صفات الكفر على أصحابها .

والنكتة في ذكر لعنة الملائكة والناس مع ان لعنة الله وحده كافية في خزيهم ونكالمهم ، هي بيان أن جميع من يعلم حالهم من العوالم العلية والسفلية يراهم محلاً لعنة الله ومقته ، فلا يرجي أن يرف بهم رائف ، ولا أن يشفع لهم شافع ، لأن اللعنة صبت عليهم باستحقاق عند جميع من يعقل ويعلم . ومن حرمه سوء سمعه من رحمة الرؤف الرحيم فاذا يرجو من سواه ؟

﴿ خالد بن قيس لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون ﴾ أي ما كثر في هذه اللعنة وما تقتضيه من شدة العذاب ، لا يخرجون منها ولا يخفف عنهم من عذابها ، ولا هم ينظرون أي يمهلون من (الانظار) ليتوبوا ويصلحوا ، أولا ينظر اليهم نظر مغفرة ورحمة ، قالوا ان الخلود في اللعنة عبارة عن الخلود في أثرها وهو النار بقربة (لا يخفف عنهم العذاب) ولا أذكر عن الأستاذ الامام في هذا شيئاً ، ولكن الكلام يصح على ظاهره وهو أن اللعن بمعنى الطرد فيصح أن يكون الخلود فيه عبارة عن دوامه هو ، أي هم مطرودون من رحمة الله تعالى طرداً دائماً

لا يرجى لهم أن يسلموا منه لأن الكفر الذي استحقوه به هو غاية ما يكتسبه المرء من ظلمات الروح والجناية على الحق ، وتدنسية النفس ، فتى مات انقطع عمله وبطل كسبه ، فتمذر عليه أن يحل تلك الغمة ، وينبرها تيك الظلمة ، وحرّم من الرجوع الى الحق ، ومن تزكية النفس ، فكان خلوده في هذه اللعنة قد نشأ عن وصف لازم له ، فهو دائم بدوام ذاته التي هي عاتيه ، وامتنع أيضا أن ينظر وبمهل فيه ، أو ينظر الله اليه ويزكّيه ، لانه لم يكن من شيء خارج عنه ، فهو الجاني والمعذب لنفسه ، فأني شيء يرجو من غيره ؟

(١٦٣) وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (١٦٤) إِذْ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفَلَاحِ وَالْغَرَجِ فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَخْبَتَ بِهِ الْأَرْضُ بِمَدْمُونَتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ ، وَاصْرَفَ الرِّيحَ وَالسَّحَابَ الْمُسَخَّرَ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا يَبْتَائِقُ قَوْمٌ يَعْقِلُونَ

نطقت الآيات السابقة بأن الذين يكتُمون ما أنزله الله من الدينات والهدى ملعونون لا ترجى لهم رحمة الله تعالى إلا أن يتوبوا فإن هم ماتوا على كفرهم وما يستلزمه كفرهم من الاعمال كانوا خالدين في اللعنة لا يخفف عنهم من عذابها شيء ، إذ لا يقبل منهم افتداء ، ولا تنفعهم شفاعة الشفعاء ، (ما للاظالمين من حميم ولا شفيع يطاع) لان اللعنة تعمهم في الآخرة من جميع الملائكة والناس بحيث يظهر للعالم أنهم لا يستحقون الرحمة حتى أن المرءوسين يتبرءون من الرؤساء الذين كانوا يتبعونهم في الضلال ويتخذون كلامهم ديناً من دون كتاب الله كما سيأتي ، فناسب بعد هذا أن يبين الله تعالى أن شارع الدين ومحقق الحق هو واحد لا يعبد غيره ، ولا تكتم هدايته ، ولا يجعل كلام البشر معياراً على كلامه ، وهو مفيض

الرحمة والاحسان ، إذ الرحمة من صفاته الكاملة اللازمة ، ليتذكر أولئك الضالون الكافرون ليعتدوا بالله ، المؤثرون عليها آراء رؤسائهم وأئمتهم ثقة بهم ، واعتماداً على شفاعتهم ، أنهم لن يغفوا عنهم من الله شيئاً ، ويعلموا وجه خطأهم في كتمان الحق ومعاداة أهله عناداً من الرؤساء ، وتقليداً من المعوسين . فقال

﴿ وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو ﴾ أي وإلهكم الحق الحقيق بالمعبادة إله واحد لا إله مستحق لها إلا هو ، فلا تشركوا به أحداً . والشرك به نوعان (أحدهما) يتعلق بالألوهية والمعبادة وهو أن يعتقد المرء أن في الخلق من يشاركه تعالى أو يعميه في أفعاله ، أو يحمله على بعضها ويصد عنه بعض بشفاعته عنده ، لاجل قربه منه ، كما يكون من بطانة الملوك المستبدين ، وحواشيهم وحجابهم وأعوانهم ، فهو يتوجه إلى هذا المؤثر عند الله بزعمه عندما توجه إليه تعالى في الدعاء فيدعوه معه ، وقد يدعوه من دونه عند شدة الحاجة لكشف ضرر أو جلب نفع أعيته أسبابها ، وهذا من العبادة (وثانيها) يتعلق بالربوبية وهو إسناد الخلق والتدبير إلى غيره معه ، أو أن تؤخذ أحكام الدين في عبادة الله تعالى والتحليل والتجريم عن غيره أي غير كتابه ووحيه الذي بلغه عنه رسوله بحجة أن من يؤخذ عنهم الدين من غير بيان الوحي أعلم بمراد الله فيترك الأخذ من الكتاب لرأيهم وقولهم ، وهو المراد بقوله تعالى (اتخذوا أخصيائهم ورهبانهم أرباباً من دون الله) كما سيأتي في موضعه ان شاء الله تعالى ، وظاهر أن الواجب على العلماء بالدين أن يبينوا للناس ما نزل الله ولا يكتُمونه لا أن يزدوا فيه أو ينقصوا منه كما زاد أهل الكتب المنزلة كلهم عبادات وأحكاماً كثيرة زائدة على الوحي أو مخالفة له يتأولونه لاجلها دون العكس ، وإذا كان الله تعالى واحداً لا إله إلا هو فلا ينبغي أن يشرك معه غيره فهو كذلك

﴿ الرحمن الرحيم ﴾ أي الكامل الرحمة فلا ينبغي أن يعرض العبد عن أسباب رحمته اعتماداً على رحمة سواه ممن يظن أنهم مقربون عنده ، فحسب المؤمن من رحمة الله التي وسعت كل شيء أن يستغني بالتصدي لها عن رجاء سواها وإلا كان من الخائبيين قال الاستاذ الامام : نهبهم سبحانه وتعالى إلى أن المنافع التي يرقبونها من شكرهم إنما هي بيده الكريمة وحده ، كأنه يقول إذا أنتم تركتم ما أنتم فيه لاجله

٥٦ تنقطع الرواية في أسباب النزول بما نافي بلاغة القرآن والعقل (التفسير ج ٢)

تعالى فهو بتفرد بالالهوية يكفيكم كل ضرر تخافونه ، ويعطيكم برحمته الواسعة كل ما ترجونه ، فان بيده ملكوت كل شيء ، وكل ما تعتمدون عليه من دونه فليس محلا للاعتقاد بل اعتمادكم عليه من قبيل الشرك فيجب أن تطرحوه جانبا ، وتمعنوا أن الاله الذي بيده أزمنة المنافع والقادر على دفع المضار وإيقاعها هو واحد لا سلطان لأحد على إرادته ، ولا مبدل لكلمته ، ولا أوسع من رحمته ، وإنما أكد امر الوحدة هذا التأكيد تحذيرا من طرق الشرك الخفية على أنها أساس الدين وأصله . وقد فصلنا معاني التوحيد والشرك واسمي الرحمن والرحيم في تفسير الفاتحة

أرأيت هذا الاتصال المحكم بين الآية وما قبلها ؟ ان بعض المفسرين قد قطع عراه وقصمها ، وجعل الآية جوابا لقوم قالوا للنبي ﷺ انسب لنا ربك ، قاله الجلال ، ويقول الاستاذ الامام ان سبب النزول إنما يحتاج اليه في آيات الاحكام لان معرفة الوقائع والحوادث التي نزل فيها الحكم تعين على فهمه وفقه حكمته وسره ، ومثلها ما فيه إشارة الى بعض الوقائع كغزوة بدر والنصر فيها ومصيبة المؤمنين في أحد . وأما الايات المقررة للتوحيد وهو المقصود الاول من الذين فلا حاجة الى التماس أسباب لنزولها بل هي لا تتوقف على انتظار السؤال ، وإنما كان يبين عند كل مناسبة . وما عساه يكون قد قارن نزولها من حادثة أو سؤال مثل هذا الذي ذكر آنفا فهو إن صح رواية لا يزيدنا بيانا في فهم الآية ، ولا يصح أن يجعل سببا لنزولها لاسيما بعد الذي علم من اتصالها بما قبلها كما يليق ببلاغة القرآن

ومثل هذا السبب يجعل القرآن مبددا متفرقا لا ترتبط اجزأؤه ، ولا تتصل أنحاءؤه . ومثله ما قالوه في سبب الآية التي بعد هذه الآية ، فانها جاءت على سنة القرآن من وصل الدليل بالدعوى ، ولكنهم رووا في سببها روايات منها ان آية (وإلهكم إله واحد) نزلت بالمدينة ثم سمع بها مشركو مكة فقالوا ما قالوا وعجبوا كيف يسمع الخلق إله واحد وطلبوا الدليل على ذلك ، كأنهم لم يكونوا قد سمعوا عليه دليلا ، وكان هذه الدعوى لم تكن طرأت على اذهانهم ولا طرقت ابواب مسامعهم — على ان النبي ﷺ كان قد اقام فيهم يدعوهم إلى هذا التوحيد عشر سنين ونيفا ، وسبق لهم التعجب منه (أجمل الآلهة إلهها واحدا ؟ إن هذا شيء عجاب)

ومعظم ما نزل بمكة آيات وبراهين عليه ، فكيف نسلم أن ما نراه في التنزيل المدني من آيتين متصلتين إحداهما في التوحيد والاخرى في دليله قد كان من الفصل بينهما أن نزل الدليل بعد المدلول بزمن طويل وسبب متأخر ؟

قال الاستاذ الامام بعد بيان اتصال الآية بما قبلها وتقرير معناها : ومن هنا يظلم أنها لا يصح أن تكون جوابا للذين قالوا : انسب لنا ربك ، أو : صف لنا ربك . لان هذا السؤال انما يصدر عن لا يعرف شيئا من صفات هذا الرب العظيم - أو من ينبغي أن يعرف مقدار علم المسؤول بهذه الصفات - ويجب أن يكون جوابه بذكر جميع ما يجب اعتقاده من التنزيه والصفات اشبوتية ، ولم يذكر في الآية الا الوحدة والرحمة ، وترك ذكر العلم والحكمة والارادة والقدرة ، وهي صفات لا تعقل الألوهية إلا بها ، وسببه أن أولئك الكفار لم يكونوا يكتفون بها ولا يشركون مع الله أحدا فيها وإنما أشركوا في الألوهية بعبادة غير الله تعالى بالدعاء والندور والقرايين ويستلزم هذا عدم اكتفائهم برحمته . وقال شيخنا في تعليقه : ان الاكتفاء بذكر الوحدة والرحمة على الوجه الذي قررناه في تفسير الآية ظاهر لا يتطلب البلاغة غيره ، لان الوحدة تذكر أولئك الكافرين الكافرين للحق بأنهم لا يجدون ملجأ غير الله يقيمهم عقوبته وامنته . وذكر الرحمة بمدحها برغبتهم في التوبة ويحول دون يأسهم من فضل الله بعد إيتائهم ممن اتخذوهم شفعا ووسطاء عنده ، فيطابق ذلك قوله تعالى في الآية التي ذكر فيها الكتمان (الا الذين تابوا) الخ

﴿ان في خلق السموات والارض﴾ الخ هذه آية قرآنية تشرح لنا بعض الآيات الكونية الدالة على وحدانية الله تعالى ورحمته الواسعة إثباتا لما ورد في الآية قبلها من هذين الوصفين له تعالى على طريقة القرآن في قرن المسائل الاعتقادية بدلائلها وبراهينها كما ألمعنا . وهذه الآيات أجناس (الاول والثاني) منها خلق السموات والارض ففيه آيات بينات كثيرة الانواع بدهش التأملين بعض ظواهرها فكيف حل من اطالع على ما اكتشف العلماء من عجائباها ، الدال على أن ما لم يعرفوه أعظم مما عرفوه منها

تتألف هذه الاجرام السماوية من طوائف يبعد بعضها عن بعض بما يقدر

بالملايين وألوف الملايين من سنين سرعة النور، ولكل طائفة منها نظام كافل محكم
 حولا يبطل نظام بعضها نظام الآخر، لأن للمجموع نظاما عاما واحدا يدل على أنه
 صادر عن إله واحد لا شريك له في خلقه وتقديره، وحكمته وتديبره، وأقرب
 تلك الطوائف البناء ما يسمونه النظام الشمسي نسبة الى شمسنا هذه التي تفيض
 أنوارها على أرضنا فتكون سببا للحياة النباتية والحيوانية فيها. والكواكب التابعة لهذه
 الشمس مختلفة في المقادير والابعاد وقد استقر كل منها في مداره وحفظت النسبة
 بينه وبين الآخر بسنة إلهية منتظمة حكيمة يهبون عنها بالجاذبية العامة. ولولا هذا
 النظام لانفلتت هذه الكواكب السابحة في أفلاكها فصدت بعضها بعضا وهلك
 العوالم بذلك، فهذا النظام آية على الرحمة الإلهية، كما انه آية على الوحدةانية

هذه هي السموات تشير الى آياتها عن بعد (وفي الأرض آيات للموقنين)
 في جرمها ومادتها وشكلها وعوالمها المختلفة من جماد ونبات وحيوان، فلكل منها
 نظام عجيب وسنن إلهية مطردة في تكوينها، وتوالد ما يتولد من أحيائها، وغير ذلك
 حتى لو دقت النظر في أنواع الجمادات من الصخور المختلفة الانواع، والجواهر
 المتعددة الخواص والالوان، اشاهدت من النظام فيها ومن أنواع النافع في اختلافها
 وتنوعها ما تعلم به علم اليقين، انها ترجع في ذلك الى إبداع إله حكيم، رؤوف رحيم،
 لا شريك له في الخلق والتدبير. وأقول هما ان الاستاذ الامام (كان) يرى أن في الجماد
 حياة خاصة به دون الحياة النباتية. ولا أدري أقاله في تفسير هذه الآية أم لا ولكنني سمعته
 منه غير مرة، فهذا جنسان من آياته تعالى يشملان أنواعا وأفرادا منها يتعذر احصاؤها

الجنس الثالث قوله (واختلاف الليل والنهار) وهو أن يجيء أحدهما فيذهب
 الآخر، ويطول هذا فيقصر ذاك، وكل ذلك بحسبان، مطرد في جميع الاقطار والبلدان
 ومثله اختلاف الفصول، باختلاف مواقع العرض والطول، وقد ذكر هذه الآية
 بعد خلق السموات والأرض لأن هذا الاختلاف هو أثر مقابلة الأرض للشمس
 وحركتها بازائها، وتفصيل ذلك مشروح في محله من العلم الخاص بهذه المسائل.
 وفي المشاهد من اختلاف الليل والنهار والفصول وما للناس في ذاك من المنافع
 والمصالح آيات بينات على وحدة مبدع هذا النظام المطرد ورحمته بعباده يسهل على

كل أحد أن يفهمها وإن لم يعرف أسباب ذلك الاختلاف وتقديره . وفي القرآن بيان لذلك في مواضع كثيرة كقوله تعالى (وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شيء فصلناه تفصيلا) فهذه الآية تهدي الى ما في اختلاف الليل والنهار من المنافع العامة وفي معناها آيات أخرى . وقال تعالى (وهو الذي جعل الليل والنهار خلفه لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا) وهذه هداية الى المنافع الدينية . وهناك آيات تشير الى أسباب هذا الاختلاف كقوله تعالى (يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل) وقوله (يفسح الليل النهار يطلبه حثيثا) وهاتان الايتان تدلان على استدارة الارض ودورانها حول الشمس كما بيناه في مواضع من المنار بالتفصيل وفي التفسير بالاجمال .

وصفة القول في هذا المقام ان اختلاف الليل والنهار اثر من آثار النظام الشمسي . قلنا ان ذلك النظام يدل على وحدة واهبه ومقدره ونقول ان آثاره تدل على ذلك أيضا ، وأما دلالتها على رحمته تعالى فظاهرة مما تقدم الاستشهاد به من الآيات أنما

الجنس الرابع قوله ﴿ والفلك التي تجري في البحر ﴾ (بالضم) اسم للسفينة ولجمعها كان الظاهر أن تأتي هذه الآية في آخر الآيات ليكون ما للانسان فيه صنع على حدة وما ليس له فيه صنع على حدة . والمنكته في ذكرها عقيب آية الليل والنهار هي ان المسافرين في البر والبحر هم أشد الناس حاجة الى تحديد اختلاف الليل والنهار ومراقبته على الوجه الذي ينتفع به ، والمسافرون في البحر أحوج الى معرفة الأوقات ، وتحديد الجهات ، لأن خطر الجهل عليهم أشد ، وفائدة المعرفة لهم أعظم ، ولذلك كان من ضروريات رباني السفن معرفة علم النجوم (الهيئة الفلكية) وعلم الليل والنهار من فروع هذا العلم قال تعالى (وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر) فهذا وجه الترتيب بين ذكر الفلك ومقبله . وأما كون الفلك آية فلا يظهر بادي الرأي كما يظهر كونها رحمة من قوله ﴿ بما ينفع الناس ﴾ أي في أسفارهم وتجاراتهم وما يعرف في هذا العصر بالمشاهدة والاختبار أكثر مما كان يعرف في العصور السابقة إذ كانت الفلك كلها شراعية فلم يكن

٦٠ آياته تعالى في إنزال الماء وإحيائه للأرض بالنبات والحewan (التفسير: ج ٢).

البخار يسير أمثال هذه البواخر والبوارج العظيمة التي تحكي مدنا كبيرة فيها جميع المرافق التي يتمتع بها المترفون والملوك في البر من الأرائك والسرر والحمامات وغير ذلك^(١) أو قلاع وحصون فيها أقتل آلات الحرب. وكل ذلك من رحمة الاله الذي خلق هذه الاشياء وهدى اليها الانسان، فلا بد لفهم كونها آية على وحدانيته من فهم طبيعة الماء وطبيعة قانون الثقل في الاجسام وطبيعة الهواء والريح وزد على ذلك معرفة طبيعة البخار والكهرباء التي هي العمدة في سير الفلك الكبرى في زماننا فكل ذلك يجري على سنن إلهية مطردة منتظمة تدل على أنها صادرة عن قوة واحدة هي مصدر الابداع والنظام وهي قوة الاله الواحد الحكيم، الرحمن الرحيم

الجنس الخامس قوله **وما أنزل الله من السماء من ماء** المراد بالسما هنا جنة العلو والسحاب لا ما قاله الخذولون الذين تجرءوا على الكذب على الله ورسوله فزعموا ان بين السماء والأرض بحراً قالوا أنه موج مكثوف وان للمطر ينزل منه على قدر الحاجة. في تفصيل اختبروه ما أنزل الله به من سلطان، وتبعمهم فيه أسرى الفقل ولو خالف الحس والبرهان، ونزول المطر من الامور المحسوسة التي لا تحتاج الى نقل، ولا نظر عقل، وقد شرح كيفية تكوينه ونزوله العلماء الذين تكلموا في الكائنات، ووصفوا بالتدقيق الآيات المشاهدات، ولم يخرج شرحهم الطويل عن السكامة. الوجيزة في بعض الايات التي ذكر فيها المطر وهي قوله تعالى (الله الذي يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه في السماء كيف يشاء ويجعله كسفاً فترى الودق يخرج من خلاله) غرارة الهواء هي التي تبخر المياه والرطوبات وتثيرها الرياح في الجو حتى تتكاثف بهرودتها وتكون كسفاً من السحاب يتحلل منه الماء ويخرج من خلاله وينزل بثقله الى الأرض وكثيرا ما شاهدنا في جبال سورية كما يشاهد الناس في غيرها أن ينعقد السحاب في أثناء الجبل وينزل منه المطر والشمس طالعة فوقه حيث لا مطر، وقد يخترق الناس منطقة المطر الى ما فوقها

(١) كتبنا هذا من زهاء ثلاث قرن وقد حدث بعده من تكبير هذه الفلك البخارية وكثرة مراقبتها ان في بعضها احداث وملاعب ومطابع تطبع صحفها يومية في أخبار العالم يعرفونها بالبرقيات اللاسلكية كتابة ونطقا وحدث ايضا فلك تجري في الهواء تسمى المنطادات والطائرات بعضها لنقل الناس ومناعمهم وبعضها للحرب وتخريب العمران

(البقرة : س ٢) صفة خلق الارض والمطر وخلق الاحياء فيها من الماء ٦٦

وقد وصف الله تعالى هذا الجنس من آياته بأعظم آثاره فقال ﴿فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ

بعد موتها وبث فيها من كل دابة﴾ أي أوجد بسببه الحياة في الأرض الميتة بخلوها من صفات الأحياء كالنمو والتغذي والنتاج، وبث أي نشر وفرق في أرجائها من جميع أنواع الأحياء التي تدب عليها وهي لا تعتمد ولا تخلص، فبالماء حدثت حياة الأرض بالنبات وربة استعدت لظهور أنواع الحيوان فيها. وهل المراد بالأحياء الأول وماتلاه من تولد الحيوانات المعبر عنها بكل دابة أو هو ما يشاهد من آحاد الأحياء التي تتولد دائماً في جميع بقاع الأرض ؟ الظاهر أن المراد أولاً وبالذات الأحياء الأول المشار إليه بقوله تعالى في آية أخرى (أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي) فهو يذكر جعل كل شيء حياً بالماء، في إثارة ذكر انفصال الأرض من السماء، وذلك أن مجموع السموات والأرض كان رتقا أي مادة واحدة متصلاً ببعض أجزائها ببعض على كونه ذرات غازية كالدخان كما قال في آية التكوين (ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرها) ولما كان ذلك الفتق في الأجرام انفصل جرم الأرض عن جرم الشمس وصارت الأرض قطعة مستقلة مارة ملتبة وكانت مادة الماء - وهي ما يسميه علماء التحليل والتركيب (علم الكيمياء) بالكسجين والهيدروجين - تتبخر من الأرض بما فيها من الحرارة فتلاقي في الجو برودة تجعلها ماء فينزل على الأرض كما وصفنا آنفاً فيبرد من حرارتها، وما زال كذلك حتى صارت الأرض كلها ماء وتكونت بعد ذلك اليابسة فيه وخرج النبات والحيوان وكل شيء حي من الماء، فهذا هو الأحياء الأول وأما الأحياء المستمر المشاهد في كل بقاع الأرض دائماً فهو المشار إليه بمثل قوله تعالى (وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج) وذلك أننا نرى كل أرض لا ينزل فيها المطر ولا تجري فيها المياه من الأراضي المغطاة لافي ظاهرها ولا في باطنها خالية من النبات والحيوان إلا أن يدخلها من أرض مجاورة لها ثم يعود منها. فحياة الأحياء في الأرض إنما هي بالماء سواء في ذلك للأحياء الأول عند تكوين العوالم الحية وإيجاد أصول الأنواع، والأحياء المتجدد في أشخاص هذه الأنواع وجزئياتها التي تتولد وتعمي كل يوم

وهذه المياه التي يتمدّد بها النبات والحيوان على سطح هذه اليابسة كلها من المطر، ولا يستثنى من ذلك أرض مصر فيقل أن حياتها بماء النيل دون المطر فإن مياه الانهار والعيون التي تنبع من الأرض كلها من المطر فهو يتخلل الأرض فيجتمع فيندفع. وقد امتن الله تعالى بذلك علينا وأرشدنا إلى آيته فيه بقوله (أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع في الأرض، ثم يخرج به زرعا مختلفا ألوانه) الآية. فالبحيرات التي هي ينابيع النيل من ماء المطر والزيادة التي تكون فيه أيام الفيضان هي من المطر الذي يمد هذه الينابيع ويمد النهر نفسه في مجراه من بلاد السودان، وكثرة الفيضان وقلته تابعة لكثرة المطر السنوي وقلته هناك

هذا هو الماء في كونه مطراً وفي كونه سبباً للحياة وهو آية في كيفية وجوده وتكونه فإنه يجري في ذلك على سنة إلهية حكيمة تدل على الوحدة والرحمة، ثم انه آية في تأثيره في العوالم الحية أيضاً، فإن هذا النبات يسقي بماء واحد هو مصدر حياته، ثم هو مختلف في ألوانه وطعمه وروائحهم، فتجد في الأرض الواحدة نبتة الحنظل مع نبتة البطيخ، متشابهتين في الصورة متضادتين في الطعم، وتجد النخلة وتمرها ما تذوق حلاوة ولذة، وتجد في جانبها شجرة اللبمون الحامض والنارنج وتمرها ما تعرف حموضة وملوحة، وتجد بالقرب منهما شجرة الورد لها من الرائحة ما ليس للنخلة وما يخالف في أريجها زهر النارنج، بل يوجد في الشجر ماله زهر ذكي الرائحة، فإذا قطعت الفصن الذي فيه هذا الزهر تنبت منه رائحة خبيثة — فتلك السنن التي يتكون بها المطر وينزل جارية بنظام واحد دقيق، وكذلك طرق تغذي النبات بالماء هي جارية بنظام واحد، فوحدة النظام وعدم الخلط فيه تدل على أن مصدره واحد، فهو من هذه الجهة يدل على الوحدة الكلية، ومن جهة ما للخلق فيه من المنافع والرافق يدل على الرحمة الإلهية الشاملة. وقل مثل هذا فيما ثبت الله تعالى في الأرض من كل دابة، فإنها آيات على الوحدة، ودلائل وجودية على عموم الرحمة،

الجنس السادس قوله تعالى ﴿ وتصريف الرياح ﴾ ذكر آية الرياح بعد آية المطر للتأاسب بينهما وتذكيراً بالسبب، فإن الرياح هي التي تثير السحاب

(البقرة : ص ٢) آياته ورحمته تعالى في السحاب . وكون الايات كلها للمعلاء ٦٣

وتسوقه في الجو الى حيث يتحلل بخاره فيكون مطراً كما تقدم آنفاً في آية (الله الذي يرسل الرياح) وتصريف الرياح تديرها وتوجهها على حسب الارادة ووفق الحكمة والنظام ، فهي تهب في الاغلب من احدى الجهات الاربع وتارة تأتي نكباء بين بين ، وقد تكون متناوذة ، أي تهب من كل ناحية ، ومنها العقيم ، ومنها الملقحة للنبات وللشباب واذا هبت حارة في بعض الاماكن والاوقات فهي تهب عقب ذلك لطيفة الحرارة أو باردة ، وكل ذلك يجري على سنة حكيمة تدل على وحدة مصدرها ، ورحمة مديرها (١)

الجنس السابع قوله تعالى ﴿ والسحاب المسخر بين السماء والارض ﴾ أي اقيم المذال المسحوب في الجواء لانزال المطر في البلاد المختلفة . ذكر السحاب هـ ا بعد ذكر تصريف الرياح لانها هي التي تثيره وتجمعه وهي التي تسوقه الى حيث يحطر وتفرق شمله أحياناً فيمتنع المطر ، ولم يذكره عند ذكر الماء مع انه سببه المباشر ليرشدنا الى أنه في نفسه آية ، فانه يتكون بنظام ويعترض بين السماء والارض بنظام ، فهو في ظاهره آية تدهش الناظر الجاهل بالسبب لولم يألف ذلك ويأنس به ، وانما يعرفها حق معرفتها من وقف على السنن الالهية في اجتماع الاجسام اللطيفة وافتراقها ، وعلوها وهبوطها ، وهو ما يعبر عنه علماء هذا الشأن بالجاذبية ، وهي أنواع منها جاذبية الثقل والجاذبية العامة وجاذبية الملاصقة وغيرها ، ومن لا يعرف أسرار هذه الكائنات ، وانما ينظر الى ظواهرها فيراها كما تراها العجاوات ، فهو لا يفهم معنى كونها آيات ، لانه أهمل آلة الفهم التي امتاز بها وهي العقل ، ولذلك اخبر الله تعالى عن هذه الاجناس كلها ان فيها ﴿ آيات لقوم يعقلون ﴾ فانهم هم الذين ينظرون في أسبابها ، ويدركون حكمها وأسرارها ، ويميزون بين منافعها ومضارها ، ويستدلون بما فيها من الاتقان والاحكام ، والسنن التي قام بها النظام ، على قدرة مبدعها وحكمته ، وفضله ورحمته ، وعلى استحقاقه للعبادة دون غيره من بريته ، وبقدر ارتقاء العقل في العلم والعرفان ، يكمل التوحيد في الايمان ، وانما يشرك بالله أقل الناس عقلاً ، وأكثرهم جهلاً (١)

أليس أكبر خذلان للدين وجناية عليه أن لا ينظر المنتسبون اليه في آياته

(١) قد فصلنا الكلام في الهواء والرياح والماء والمطر في (ص ٨٢٤ ج ٨) فراجع

٦٤. خذلان الدين باهمال النظر العقلي في استمرار الوجود وحكم الكون (التفسير: ج ٢)

التي يوجههم كتابه الى النظر فيها ، ويرشدهم الى استخراج العبر منها ؟ أليس من أشد المصائب على الأمة أن يهجر رؤساء دين كهذا الدين العلوم التي تشرح حكم الله وآياته في خلقه ويعدوها مضرة للدين أو ماحية له ، خلافاً للكتاب الله الذي يستدل لهم بها ويعظم شأن النظر فيها ؟ بلى وإلهم ليصرون على تقاليدهم هذه وليس عليها حجة وإنما اتبعوا فيها سنن قوم من قبلهم . وكان بعض الحكماء المتأخرين يقول كلمة في أهل دينه الذين خذلوه : هكذا شأن أهل الأديان كافة كأنهم تماهدوا جميعاً على أن يكون سيرهم واحداً . وهذا المعنى مأخوذ من قول الله تعالى في الكافرين يَتَقَفَّوْنَ فِي كُلِّ أُمَّةٍ عَلَى الطَّعْنِ فِي نَبِيِّهَا (أنصأوا به ؟ بل هم قوم طاغون) وقد يزعم بعض هؤلاء الذين يعادون علم الكون باسم الدين أن النظر في ظواهر هذه الأشياء كاف للاستدلال بها ومعرفة آيات صانعها وحكمته ورحمته . فمثلهم كمثل من يكتفي من الكتاب برؤية جلده الظاهر وشكله من غير معرفة ما أودعه من العلم والحكمة . نعم أن هذا الكون هو كتاب الإبداع الإلهي المفصّل عن وجود الله وكلامه ، وجلاله وجماله ، وإلى هذا الكتاب الإشارة بقوله تعالى (قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً) وبقوله (ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله) فكلمات الله في التكوين باعتبار آثارها ومصادقها هي أحاد الخلق والمبدعات الإلهية ، فأنها تنطق بلسان أفصح من لسان المقال ، لكن لا يفهمه الذين هم عن السمع معزولون ، وللعلم معادون ، الواهمون أن معرفة الله تقتبس من الجدليات النظرية ، أو الأقيسة المنطقية ، دون الدلائل الوجودية الحقيقية ، ولو كان زعمهم حقيقة لا وهماً ، لكان الله سبحانه استدلل في كتابه بالدلة النظرية الفكرية ، وذكر الدور والتسلسل وغير ذلك من الاصطلاحات الكلامية ، ولم يستدل بالسماء والأرض والليل والنهار والفلك والمطر وتأثيره في الحياة ، وغير ذلك من الخلق التي أرشدنا القرآن إلى النظر فيها ، واستخراج الدلائل والعبر منها

ألا إن الله كتمانين : كتاباً مخلوقاً وهو الكون ، وكتاباً منزلاً وهو القرآن ، وإنما يرشدنا هذا إلى طرق العلم بذلك ، بما أوتينا من العقل ، فمن أطاع فهو من الفائزين ، ومن أعرض فأولئك هم الخاسرون .

(١٦٥) وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ
كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ، وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا
إِذْ يَرْوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ
(١٦٦) إِذْ تَبَرَأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ
وَتَفَقَّطَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ (١٦٧) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا
كُنَّا نَعْلَمُ سِرَّهُمْ كَمَا نَعْلَمُ مَا نَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ
حَسْرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ

هذه الآيات مبينة لحال الذين لا يعقلون تلك الآيات التي أقامتها الآية
السابقة على توحيد الله تعالى ورحمته ، ولذلك جعلوا له أنداداً يلتمسون منهم الخير
والرحمة ، ويدفعون ببركتهم البلاء والنقمة ، يأخذون عنهم الدين والشرعة .
قال المفسرون : إن الند هو المائل ، وزاد بعض اللغويين فيه قيداً فقال : إنه المائل
الذي يعارض مثله ويقاومه . ويفهم من هذا أن متخذي الانداد يزعمون أنهم مماثلون
لله تعالى في قدرته وعلمه وسلطانه يعارضونه في الخلق ويقاومون في التدبير ، وهذا
غير صحيح لأن القرآن قص علينا خبر متخذي الانداد في آيات كثيرة صريحة
في أنهم لا يعتقدون شيئاً من هذا الذي يفهم أو يتوهم من عبارة المفسرين ، بل
يعتقدون غالباً أن الله تعالى هو المنفرد بالخلق والتدبير ، وأن الانداد وسطاء بينهم وبين
عباده يقرّبونهم إليه ويشفعون لهم عنده ، ويقضون حاجاتهم بخوارق العادات أو
يقضيها هو لأجلهم . ويحتجون لهذه العقيدة بأن المذنبين المقصرين لا يستطيعون
الوصول إلى الله تعالى بأنفسهم ، فلا بد لهم من وسطة بينهم وبينه تعالى ، كما هو
المعمود من الرعايا الضعفاء ، مع الملوك والأمراء ، والوثنيون يقيسون الله تعالى على
من يعظمونه من الرؤساء وعظماء الخلق ، ولا سيما المستبدين منهم ، الذين استعبدوا
الناس استعباداً بل تعبدوهم فعبدوهم . فالآيات الناطقة بأنهم إذا سئلوا : من خلق

كذبا وكذا ؟ يقولون : الله — كثيرة وقال فيهم مع ذلك (ويبعدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله) وقال أيضاً (والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا الى الله زلفى) أي يقولون ما نعبدهم الخ والانداد عند جمهور المفسرين أعم من الاصنام والاوثان ، فيشمل الرؤساء الذين خضع لهم بعض الناس خضوعاً دينياً ، ويدل عليه الآيات الآتية (إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا) الخ فالمراد إذاً من الند من يطلب منه ما لا يطلب إلا من الله عز وجل ، أو يؤخذ عنه ما لا يؤخذ إلا عن الله تعالى ، ويبان الاول على ما قررناه مراراً أن للاسباب مسببات لا تعدوها بحكمة الله في نظام الخلق ، وأن لله تعالى أفعالا خاصة به ، فطلب المسببات من أسبابها ليس من اتخاذ الانداد في شيء ، وإن هناك أموراً تخفى علينا أسبابها ، ويعنى علينا طريق طلابها ، فيجب علينا بإرشاد الدين والفطرة أن نلجأ فيها إلى ذي القوة الغيبية ونطلبها من مسبب الاسباب لعله بعبادته ورحمته يهدينا الى طريقها أو يبدلنا خيراً منها ، ويجب مع هذا بذل الجهد والطاقة في العمل بما نستطيع من الاسباب حتى لا يبقى في الامكان شيء مع اعتقادنا بأن الاسباب كلها من فضل الله تعالى علينا ورحمته بنا ، إذ هو الذي جعلها طرقاً للمقاصد ، وهدانا اليها بما وهبنا من العقل والشاعر

لا يسمح الدين للناس بأن يتركوا الحرث والزرع ويدعوا الله تعالى أن يخرج لهم الحب من الارض بغير عمل منهم أخذاً بظاهر قوله (أنتم تزرعونه أم نحن الزارعون) وإنما يهديهم إلى القيام بجميع الاعمال الممكنة لإنجاح الزراعة من الحرث والتسميد والبذر والسقي وغير ذلك ، وأن يتكلموا على الله تعالى بعد ذلك فيما ليس بأيديهم ولم يهدم لسببه بكسبهم كإزالة الامطار ، وإفاضة الانهار ، ودفع الجوامح ، فان استطاعوا شيئاً من ذلك فعليهم أن يطلبوه بعملهم لا بأستنتهم وقلوبهم ، مع شكر الله تعالى على هدايتهم اليه ، وإقدارهم عليه

كذلك يحظر الدين عليهم أن ينفروا إلى الحرب والمدافعة عن الملة والبلاد عزلاً ، أو حاملي سلاح دون سلاح العدو المعتدي عليهم اتسكالا على الله تعالى واعتماداً على أن النصر بيده ، بل يأمرهم بأن يعدبوا للاعداء ما استطاعوا من قوة

ويتكلموا بعد ذلك في الهجوم والاقدام، على عناية الله تعالى بثبوت القلوب والاقدام، وغير ذلك من ضروب التوفيق والالهام، فمن قصر في اتخاذ الاسباب اعتماداً على الله فهو جاهل بالله، ومن التجأ إلى ما ليس بسبب من دون الله فهو مشرك بالله وهذا الذي يلجأ اليه من انسان مكرم - كالانبياء والصالحين، أو ملك من الملائكة المقربين، أو مادون ذلك من مظاهر الخليفة، أو ضم أو تمثال جعل تذكراً لشيء من هذه - يسمى نداً لله وشريكاً له وولياً من دونه، وقد نطق القرآن بجميع هذه الاسماء التي سماها المشركون ولم ينزل الله بها من سلطان

قال الاستاذ الامام : قسم المفسرون الانداد إلى قسمين : قسم يعمل بالاستقلال أي يقضي حاجة من يلجأ اليه بنفسه، وقسم يشفع عند الله تعالى ويتوسط لصاحب الحاجة فتقضى، وإنما كان الشفع نداً لأنه يستنزل من يشفع عنده عن رأيه ويحول من إرادته، وتحويل الارادة لا بد أن يكون مسبوقاً بتغيير العلم بالمصلحة والحكمة إذ الارادة تابعة للعلم دائماً، وهذا هو المعروف من معنى الشفاعة عند السلاطين والحكام وهو محال على الله تعالى . وأقل تغيير في علم المشفوع عنده هو أن يعلم أن الشفع يهيمه أمر من يشفع له ويتمنى لو تقضى حاجته (وسترى بيان هذا ودليله في تفسير آية الكرسي)

ولا يرغب عن الاسباب إلى التعلق بالانداد والشفعاء إلا من كان قليل الثقة بالسبب أو طالباً ما هو أعجل منه، كالمريض يعالجه الاطباء فيترأى له أو لا أحد أقاربه ان يلجأ إلى من يعتقد تأثيرهم في السلطة القبيية الخارجة عن الاسباب طلباً للتعجيل بالشفاء، ومثله سائر أصحاب الحاجات الذين يلجئون إلى من اتخفوه أولياء ليكفوهم عناء اتخاذ الاسباب (وذكر منهم طلاب خدمة الحكومة)

وأما القسم الآخر من الانداد فهو من يتبع في الدين من غير أن يكون مميّناً للناس ما جاء عن الله تعالى ورسوله، فيعمل بقوله وإن لم يعرف دليله ويتخذ رأيه ديناً واجب الاتباع وإن ظهر أنه مخالف لما جاء عن الله ورسوله، اعتماداً على أنه أعلم بالوحي من قلدوه دينهم وأوسع منهم فيها نزل الله، وفي هؤلاء نزل قوله

تعالى (اتخذوا أحبارهم ورجالهم أرباباً من دون الله) كما ورد في التفسير
للسائور عن رسول الله ﷺ

قد عظمت فتنة متخذي الانحداد بهم حتى كان حبهم إياهم من نوع حبهم لله

عز وجل ولذلك قال ﷺ ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله
أي يعملون من بعض خلق الله نظراً له فيما هو خاص به يحبونهم كحبه . ذلك
ان الحب ضروب شتى تختلف باختلاف أسبابها وعللها ، وكلها ترجع إلى الأنا
بالمحبوب أو الوجود والالتجاء اليه عند الحاجة ، فقد يحب الإنسان شخصاً لانه
يأنس به ويرتاح إلى لقائه لمشاكلة بينهما ، ولا مشاكلة بين الله تعالى وبين
الناس فيظهر فيهم هذا النوع من الحب . ومن أسباب الحب اعتقاد المحب أن في
المحبوب قدرة فوق قدرته ، ونفوذاً يعلو نفوذه ، مع ثقته بانه يهتم لامره ويعطف
عليه ، بحيث يمكنه اللجأ اليه عند الحاجة فيستعين به على ما لاصيل له اليه بدونه .
فهذا الاعتقاد يحدث انجذاباً من المعتقد يصحبه شعور خفي بان له قوة عالية
مستمدة ممن يحب ، ويعظم هذا النوع من الحب بمقدار ما يعتقد في المحبوب من
الصفات والمزايا التي بها كان مصدر المنافع وركن اللجوء ، وكل ما للمخلوق من
ذلك فهو داخل في دائرة الاسباب والمسببات والاعمال الكسبية

وأما قوة الخالق وقدرته وما يعتقده المؤمنون فيه من الرحمة الشاملة ، والصفات
الكاملة ، والمشيئة النافذة ، والتصرف المطلق في تسخير الاسباب والمسببات ،
والسلطان المطاع في الارض والسموات ، فذلك مما يجعل حبه تعالى أعلى من كل
ما يحب للرجاء فيه وانتظار الاستفادة منه ولا غير ذلك . وهذا الحب لا ينبغي أن يكون
لغير الله تعالى إذ لا يُعاجل إلى غيره في كل شيء كما يلجأ اليه . ولكن متخذي الانحداد
قد أشركوا أندادهم معه في هذا الحب ، فحبهم إياهم من نوع حبهم إياه جل ثناؤه ،
لا يخصونه بنوع من الحب إذ لا يرجون منه شيئاً إلا وقد جعلوا الانحدادهم مثله أو ضرباً
من التوسط الغيبي فيه ، فهم كفار مشركون بهذا الحب الذي لا يصدر من مؤمن

موحد ، ولذلك قال تعالى بعد بيان شرّكهم هذا ﷻ والذين آمنوا أشدّ حبا لله
من كل ماسواه ، لان حبهم له خاص به سبحانه لا يشركون فيه غيره ، فحبهم ثابت

كامل لأن متعلقہ هو الكمال المطلق الذي يستمد منه كل كمال . وأما متخذو الانداد فان حبهم متوزع متزعزع لا ثبات له ولا استقرار

للمؤمن محبوب واحد يعتقد أن منه كل شيء ، ويبدہ ملكوت كل شيء ، وله القدرة والسلطان ، على جميع الاكوان ، فما ناله من خير كسبي فهو بتوفيقه وهدايته وما جاءه بغير حساب فهو بتسخيره وعنايته ، وما توجه اليه من أمر فتعذر عليه ، فهو يكله اليه ، ويعول فيه عليه . وللمشرك أنداد متعددون ، وأرباب متفرقون ، فاذا حز به أمر ، أو نزل به ضرر ، لجأ إلى بشر أو صخر ، أو توسل بحيوان أو قبر ، أو استشفع بزيد وعمر ، لا يدري أيهم يسمع ويُسْمَع ، ويشفع فيشفع ، فهو دائماً مبجل البال ، لا يستقر من القلق على حال

هذا هو حب المشركين للقسم الاول من الانداد ، ومن الحب نوع سببہ الاحسان السابق ، كما أن صلب الاول الرجا بالاحسان اللاحق ، ومن الاحسان ما تتمتع به ساعة أو يوما أو أياما متاعا قليلا أو كثيرا ، ومنه ما تكون به سعيداً في حياتك كلها كالتربية الصحيحة والتعليم النافع ، والارشاد إلى ما خفي من المنافع ، وكل هذا مما يكون من الناس بكسبهم . وليس في طاقة البشر أن يحسن بعضهم إلى بعض باحسان إذا قبله المحسن اليه وعمل به يكون سعيداً في الدنيا والآخرة بحيث تكون سعادته به غير متناهية ، وهذا الاحسان الذي يعجز عنه البشر هو هداية الدين التي تعلم الناس العقائد الصحيحة التي ترتقي بها العقول وتخرج بها من ظلمات الوثنية ، والتعاليم التي تنهذب بها النفوس وتترزق من الصفات البهيمية وقوانين العبادة التي تغذي العقائد والاخلاق ، حتى لا يعثر بها كسوف ولا يحاق

فالدين وضع إلهي يحسن الله تعالى به إلى البشر على لسان واحد منهم لا كسب له فيه ولا صنع ، ولا يصل اليه بخلق ولا تعلم (إن هو إلا وحي يوحى) فيجب أن يحب صاحب هذا الاحسان سبحانه وتعالى حباً لا يشرك به معه أحد ، ولكن متخذي الانداد بالمعنى الثاني في كلامنا قد أشركوا أندادهم مع الله تعالى في هذا الحب إذ جعلوا لهم شركة في هذا الاحسان بسوء التأويل كما تقدم ، فكما يأخذون بأرائهم على أنهادين من غير أن يعلموا من أين أخذوها وإن لم يأمرهم بذلك بل

وإن نهوم عنه يتمسكون كذلك بتأويلهم لما أنزل الله كأن التأويل أنزل معه بدون استعمال العقل ودلالة اللغة وبقية نصوص الدين لأعلم بصحته وانطباقه على الحق وأما المؤمنون حقاً فإنهم يوحدون الله تعالى ويخصونه بهذا الحب كما يوحدونه بالتشريع بمعنى أنهم لا يأخذون الدين إلا عن الوحي ، ولا يفهمونه إلا بقرائن جاءت به الوحي ، وإنما الائمة والعلماء ناقلون للنصوص ومبينون لها ، بل قال الله تعالى للنبي نفسه (وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم) فهؤلاء المؤمنون يسترشدون بنقلهم وبيانهم ، ولكنهم لا يقلدونهم في عقائدهم ولا عبادتهم ، ولا يأخذون بأرائهم في الدين الذي هو عبارة عن سير الارواح من عالم إلى عالم ، بل يجوزون كل عقبة ويدوسون كل رئاسة في سبيل الله تعالى ومحبيه وابتغاء رضوانه ، فهم متملقون بالله ومخلصون له (ألا الله الدين الخالص) والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا الى الله زلفى إن الله يحكم بينهم يوم القيامة فيما هم فيه مختلفون) (وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين) (إن الحكم إلا لله أمر أن لا تعبدوا إلا إياه) فالؤمنون هم المخلصون لله في دينهم الذين لا يأخذون أحكامه إلا عن وحيه ، وأما متخذو الانداد ومحبوهم بهذا المعنى فهم الذين ورد في بعضهم (وإذا دعوا الى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون) فهم لا يقبلون حكم الله في كتابه ولكن إذا دعوا ليحكم بينهم بأراء رؤسائهم أقبلوا مذعنين

بعد هذا ذكر الله وعيد متخذي الانداد على سنة القرآن فقال ﴿ ولو يرى

الذين ظلموا اذ يرون العذاب أن القوة لله جميعاً وأن الله شديد العذاب ﴾ قرأ ابن عامر ونافع ويعقوب (ولو ترى) بالياء على أن الخطاب للنبي ﷺ وخبره لرأيت أمراً عظيماً وخطباً فظيماً وقرأها الباقرين بالياء . وقرأ يعقوب « إن » في الموضعين بالكسر على الاستئناف أو على اضمار القول . أي لو يشاهد الذين ظلموا أنفسهم بتدليسها بالشرك ، وظلموا الناس بما غشوه به من أقوالهم وأفعالهم فخلوهم على أن يتلوا تلويحهم ، ويتخذوا الانداد مثلهم ، حين يرون العذاب في الآخرة فتقطع بهم الأسباب ، ولا تنفي عنهم الانداد والارباب ، أن القوة لله جميعاً يظهر تصرفها

المطلق في كل موجود ، ويتمثل لم سلطانها تمثل المشهود ، فلا تحجبهم عنها أسباب ظاهرة ، ولا تخدعهم عنها قوى متوهم كاملة ، لعلوا أن هذه القوة التي تدبر عالم الآخرة هي عين القوة التي كانت تدبر عالم الدنيا ، وأنها قوة واحدة لا تأثير لغيرها فيها ولا في شيء من العالم بدونها ، وأنهم كانوا ضالين في اللجأ إلى سواها ، وإشراك غيرها معها ، وأن هذا الضلال هبط بمقولهم وأرواحهم ، وكان منشأ عقابهم وعذابهم ، ولو رأوا مع هذا أن الله شديد العذاب — لرأوا أمراً هائلاً عظيماً يندمون معه حيث لا ينفع الندم

وأمثال هذا الوعيد على من يشوب إيمانه بأدنى شائبة من الشرك كثيرة في القرآن ثم هي تترك كلها ويترك معها ما يؤيده من السنة الصحيحة وسيرة السلف الصالحين ، والائمة المجتهدين ، ويؤخذ بالشرك الصريح عملاً بأقوال أناس من الميتة منهم من لا يعرف مطلقاً ، وإنما سمعي ولياً عملاً ببعض الرؤى والاحلام أو لاختراع بعض الطغام ، ومنهم من يعرف في الجملة ولكن لا يعرف له تاريخ يؤثق به ، ولا رواية يصح الاعتماد عليها . وإنما قدم الخلف الطالح كلام هؤلاء على كلام الله ورسوله وكلام أئمة السلف لأن العامة اعتقدت صلاحهم وولايتهم ، والعامة قوة تخضع لها الخاصة في أكثر الأزمان

ومن مباحث اللفظ في الآية أن الرؤية فيها عملية على قول الجلال . وقال الاستاذ الامام : انها بصرية وإنما سلطت على العقول لانزاله منزلة المحسوس ، كأنه قال : لو يتمثل لهم الامر ويشخص لرأوا أمراً هائلاً عظيماً لا يتصور نظيره وهو مجاز لا لطف منه ولا أبداع ، ويجوز أن يراد بالعذاب مظاهره فتكون مسطرة على محسوس . وقرأة «لو ترى» أي لو رأيت حال هؤلاء الظالمين يومئذ لرأيت كذا وكذا . وحذف جواب «لو» معبود في كلام العرب وفي كلام الناس اليوم وذلك عند قيام القرينة على مراد المتكلم ولو إجمالاً . يقولون في شخص تغير حاله وانتقل إلى طور أعلى أو أدنى : لو رأيت فلانا اليوم — ويسكتون — والمراد معلوم والاحمال فيه مقصود ، لنذهب النفس في تصويره كل مذهب ، ويخترع له الخيال ما يمكن من الصور ، و (لو) على كل حال هي التي لمجرد الشرط لا يراعى فيها امتناع لا امتناع

قل الأستاذ الامام بعد تفسير اتخاذ الانداد ومحبتهم على نحو ماتقدم وبيان أن المزارد بالحجة ما يجده الحب في نفسه من الأئس بالمحسوب والثقة به والاعتماد عليه والرجاء اليه على اختلاف أطوار الانسان في وجدانه واعتقاده : اننا قد اشترطنا في ابتداء قراءة التفسير أن نتكلم عن معنى القرآن من حيث هو دين جاء مكملاً للارواح وسائقاً لها إلى سعادتها في طورها الدنيوي وطورها الاخروي . ولا يتم لنا هذا إلا بالاعتبار وهو أن ننظر في الحسن الذي يمدحه الله تعالى ويأمر به ونرجع إلى أنفسنا انرى هل نحن متصفون به ؟ وننظر في القبيح الذي يذمه وينهى عنه كذلك ، ثم نجتهد في تزكية أنفسنا من القبيح وتحليتها بالحسن . وههنا يجب علينا أن نبحث وننظر هل اتخذ المسلمون انداداً كما اتخذ الذين من قبلهم انداداً أم لا ؟ فان هذا أهم ما يبحث فيه قارئ القرآن . ثم قال مأمثاله

اشتبه على بعض الباحثين السبب في سقوط المسلمين في الجهل العميم - إلا أفراداً في بعض شعوبهم لا يكاد يظهر لهم أثر - وبحنوا في تاريخ الاسلام وما حدث فيه فكان له الاثر العظيم في الانقلاب ، وكان من أهم المسائل التي عرضت لهم في ذلك مسألة التصوف ، وظنوا أن التصوف من أعظم الاسباب لسقوط المسلمين في الجهل بدنيهم وبعدمهم عن التوحيد الذي هو أساس عقائدهم . وليس الامر عندنا كما ظنوا ، وليس من غرضنا هنا ذكر تاريخه وبيان أحكامه وطرقه ، وإنما نذكر الغرض منه بالاجمال ، وما كان له بعد ذلك من الآثار

ظهر التصوف في القرون الأولى للإسلام فكان له شأن كبير وكان الغرض منه في أول الأمر تهذيب الأخلاق وترويض النفس بأعمال الدين ، وجذبها اليه وجعله وجداناً لها ، وتعرفها بأمراره وحكمه بالتدرج . ابتلي الصوفية في أول أمرهم بالفقهاء الذين جمدوا على ظواهر الاحكام المتعلقة بالجوارح والتعامل ، فكان هؤلاء ينكرون عليهم معرفة أسرار الدين ويرمونهم بالكفر ، وكانت الدولة والسلطة للفقهاء لحاجة الامراء والسلاطين اليهم ، فاضطر الصوفية الى إخفاء أمرهم ، ووضع الرموز والاصطلاحات الخاصة بهم ، وعدم قبول أحد معهم إلا بشروط واختبار طويل ، فقالوا لا بد فيمن يكون منا أن يكون أولاً طالباً فريداً فسالسكاً ،

وبعد السلوك إما أن يصل وإما أن ينقطع، فكانوا يختبرون أخلاق الطالب وأطواره
 زمنا طويلا ليعلموا أنه صحيح الإرادة صادق العزيمة لا يقصد مجرد الاطلاع على
 حالهم ، والوقوف على أسرارهم ، وبعد ائمة يأخذونه بالتدريج رويداً رويداً ،
 ثم إنهم جعلوا للشيخ (المسلک) سلطة خاصة على مريديه حتى قالوا يجب أن
 يكون المرید مع الشيخ كالميت بين يدي الغاسل ، لان الشيخ يعرف أمراضه الروحية
 وعلاجها ، فإذا أبيع له مناقشته ومطالبته بالدليل تنعسر معالجته أو تتمذر فلا بد
 من التسليم له في كل شيء من غير منازعة، حتى لو أمره بمعصية لكان عليه أن
 يعتقد أنها لخيره ، وأن فعلها نافع له ومتعين عليه ، فكان من قواعدهم التسليم المحض
 والطاعة العمياء ، وقالوا إن الوصول الى العرفان المطلق لا يكون إلا بهذا . ثم
 أحدثوا إظهار قبور من يموت من شيوخهم والعناية بزياراتها لأجل تذكري سلوكهم
 ومجاهدتهم ، وأحوالهم ومشاهدتهم ، لان التذكير من أسباب القدوة والتأسي ،
 والتأسي هو طريق التربية القويم عندهم وعند غيرهم

فظهر من هذا الاجمال أن قصدهم في هذه الامور كان صحيحا، وأنهم ما كانوا
 يريدون إلا الخير المحض لان صحة القصد وحسن النية أساس طريقهم ، ولكن
 ماذا كان أثر ذلك في المسلمين ؟ كان منه أن مقاصد الصوفية الحسنة قد انقلبت
 ولم يبق من رسومهم الظاهرة إلا أصوات وحركات يسمونها ذكراً يتبرأ منها
 كل صوفي ، وإلا تعظيم قبور المشايخ تعظيماً دينياً مع الاعتقاد بأن لهم سلطة
 غيبية تعلو الاسباب التي ارتبطت بها المسببات بحكمة الله تعالى بها يديرون الكون
 ويتصرفون فيه كما يشاءون ، وأنهم قد تكفلوا بقضاء حاج مريديهم والمستغِيثين
 بهم أينما كانوا ، وهذا الاعتقاد ، هو عين اتخاذ الانداد ، وهو مخالف لكتاب
 الله وسنة رسوله وسيرة السلف من الصحابة وأئمة التابعين والمجتهدين

وزادوا على هذا شيئاً آخر هو أظهر منه قبجاً وهدماً للدين وهو زعمهم أن
 الشريعة شيء والحقيقة شيء آخر ، فإذا افتقر أحدكم ذنباً فانكر عليه منكر قالوا
 في المجرم انه من أهل الحقيقة فلا اعتراض عليه ، وفي المنكر انه من أهل الشريعة
 فلا التفات اليه . كأنهم يرون أن الله تعالى أنزل للناس دينين ، وانه يحاسبهم

٧٤ غرض الصوفية الاولين وضلاله لمقلديهم ومفاسد موالدهم (التفسير: ج ٢)

(بوجهين ، ويعاملهم معاملتين — حاش لله — نعم جاء في كلام بعض الصوفية ذكر الحقيقة والشرعية مع الشريعة ، ومرادهم به أن في كلام الله ورسوله ما يعلو أفهام العامة بما يشير اليه من دقائق الحكم والمعارف التي لا يعرفها إلا الراسخون في العلم ، بحسب العامة من هذا الوقوف عند ظاهره ، ومن آتاه الله بسطة في العلم ففهم منه شيئا أعلى مما تفصل اليه أفهام العامة فذلك فضل الله يؤتيه من يشاء من يجد ويجتهد للترديد من العلم بالله وسننه في خلقه . فهذا ما يسهو عنه علم الحقيقة لا سواه ، وليس فيه شيء يخاف الشريعة أو ينافيها ، ومن آتاه الله نصيبا من هذا العلم كان أنقى لله من سواه) إنما يخشى الله من عباده العلماء (

هكذا كان القوم — الصوفية الحقيقيون في طرف ، والفقهاء في طرف آخر ، وبعد مافسد التصوف وانقلب من حال إلى حال مناقضة لها ، وضعف الفقه فصار مناقشة لفظية في عبارات كتب المتأخرين ، اتفق المتفقه الجامدون ، والمتصوفة الجاهلون ، وأذن أولئك إلى هؤلاء واعترفوا لهم بالسر والكرامة ، وسلموا لهم ما يخالف الشرع والعقل على أنه من علم الحقيقة ، فصرت ترى العالم الذي قرأ الكتاب والسنة والفقه يأخذ العهد من رجل جاهل أي ويرى أنه يوصله إلى الله تعالى . فان كان كتاب الله وسنة رسوله وما فهم الأئمة واستنبط الفقهاء منها — كل ذلك لا يفيد معرفة الله تعالى المبرع عنها بالوصول اليه ، فلماذا شرع الله هذا الدين ، والناس أغنيا عنه بأمثل هؤلاء الاميين وأشباه الاميين ، وهل القصور إذاً فيما نزل الله تعالى أم في بيان الرسول له وبيان الأئمة لما جاء عن الله تعالى والرسول؟ حاش لله وكتابه ورسوله ، فلا طريق لمعرفته عز وجل والوصول إلى رضوانه غير ما نزل من المينات والهدى ، وإنما كان غرض الصوفية الصادقين فهم الكتاب والسنة مع التحقق بمعارفها ، والتخلق والتأدب بآدابها ، وأخذ النفوس بالعمل بهما ، من غير تقليد لاهل الظاهر ، ولا جود على الظواهر

واقعد تشوّهت سيرة مدعي التصوف في هذا الزمان وصارت رسومهم أشبه بالمعاصي والاهواء من رسوم الذين أفسدوا التصوف من قبلهم ، وأظهرها في هذه البلاد الاحتفالات التي يسمونها « الموالد » ومن المجيب أن تبع الفقهاء في

استحسانها الاغنياء فصاروا يبذلون فيها الاموال العظيمة زاعمين أنهم يتقربون بها إلى الله تعالى ، ولو طلب منهم بعض هذا المال لنشر علم أو إزالة منكر أو إغاثة منكوب لفضوا به وبخلوا — ولا يرون ما يكون فيها من المنكرات مفاقماً للتقرب إلى الله تعالى ، كأن كرامة الشيخ الذي يحتفلون بمولده تبجح المحظورات ، وتحل للناس التعاون على المنكرات

فالموالد أسواق الفسوق ، فيها خيام للعواهر ، وحانات للخمور ، ومراقص يجتمع فيها الرجال لمشاهدة الرافصات المتهتكات ، الكاسيات العاريات ، ومواضع أخرى لضروب من الفحش في القول والفعل يقصد بها إضحاك الناس . وبعض هذه الموالد يكون في المقابر ، ويرى كبار مشايخ الازهر يتخطون هذا كله لحضور موائد الاغنياء في السرادقات والقباب العظيمة التي يضربونها وينصبون فيها الموائد المرفوعة ، ويوقدون الشموع الكثيرة ، احتفالاً باسم صاحب المولد ، ويهني بعضهم بعضاً بهذا العمل الشريف في عرفهم

وذكر الاستاذ الامام عند شرح مفاسد الموالد هنا أن بعض كبار الشيوخ في الازهر دعوه مرة للعشاء عند أحد المختلفين فأبى فقليل له في ذلك فقال: انني لا احب ان اكثر سواد الفاسقين ، فان هذه الموالد كلها منكرات — ووصف ماير به المدعو قبل أن يصل إلى موضع الطعام . ثم قال لشيخ صديق لصاحب الدعوة : كم ينفق صاحبك في احتفاله بالمولد ؟ قال : اربعمائة جنيه . قال الاستاذ : لا شك أن هذا في سبيل الشيطان فلو كلت صاحبك في ان يجعل ذلك لجامعة من المجاورين في الازهر يستعينون به على طاب العلم فيكون بذلك شرعياً ، وهؤلاء المجاورون يذكرونه بخير ويدعون له . فأجاب ذلك الشيخ قائلاً : ان الكون يلزم ان يكون فيه من هذا وهذا . فقال الاستاذ : هذا الذي اريد فان كوننا ليس فيه إلا هذه النفقات في الطرق المذمومة ، فأحب ان ينفق صاحبك على نشر علم الدين ليكون بعض الانفاق عندنا في الخير ويبقى للموالد اغنياء كثيرون . فقال الشيخ حينئذ : أما قرأت حكاية الشعراني مع الزمار إذ رأى شيخاً كبيراً ينفخ في صرناز والناس يتفرجون عليه فاعترض عليه في سره فما كان من الشيخ إلا أن قال :

يا عبد الوهاب أتريدان ينقص ملك ربك مزمراً؟ فعلم الشعرا في انه من اولياء الله تعالى قال الاستاذ: ثم تركني المشايخ بعد سرد الحكاية وذهبوا إلى المولد، فليتنظر الناظرون إلى ابن وصل المسلمون ببركة التصوف واعتقاد اهله بغير فهم ولا مراعاة شرع — اتخذوا الشيوخ انداداً، وصار يقصد بزيارة القبور والاضرحة قضاء الحوائج وشفاء المرضى وسعة الرزق، بعد ان كانت للعبرة وتذكر القدوة، وصارت الحكايات الملققة ناسخة فعلاً لما ورد من الامر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتعاون على الخير، ونتيجة ذلك كله أن المسلمين رغبوا عما شرع الله إلى ما توهموا انه يرضي غيرهم ممن اتخذوهم انداداً له وصاروا كالاباحيين في الغالب، فلا عجب إذا عم فيهم الجهل، واستحوذ عليهم الضعف، وحرموا ما وعد الله المؤمنين من النصر، لانهم انسلخوا من مجموع ما وصف الله به المؤمنين

ولم يكن في القرن الاول شيء من هذه التقاليد والاعمال التي نحن عليها بل ولا في الثاني، ولا يشهد لهذه البدع كتاب ولا سنة، وانما سرت الينا بالتقليد أو العدوى من الامم الاخرى، إذ رأى قومنا عندهم أمثال هذه الاحتفالات فظنوا انهم إذا عملوا مثلاً يكون لدينهم عظمة وشأن في نفوس تلك الامم. فهذا النوع من اتخاذ الانداد كان من أهم أسباب تأخر المسلمين وسقوطهم فياسقطوا فيه

وهناك نوع آخر لم يكن أثره في الفتك بهم بأضعف من اثر الاول، وهو ترك الاهتداء بالكتاب والسنة واستبدال أقوال الناس بهما. فلو دخل في الاسلام رجل عاقل أو شعب مرتق لحار لا يدري بم يأخذ؟ ولا على أي المذاهب والكتب في الاصول والفروع يعتمد، ولصعب علينا إقناعه بان هذا هو الدين القيم دون سواه، أو بان هذه المذاهب كلها على اختلافها شيء واحد. ولو وقفنا عند حدود القرآن وما بينه من الهدى النبوي لسهل علينا أن نفهم ما الحنيفية السمحة التي لا حرج فيها ولا عسر؟ وما الدين الخالص الذي لا عوج فيه ولا خلف؟ ولكننا إذا نظرنا في أقوال الفقهاء وتشعبها، وخلافاتهم وعللها، فتننا نحار في ترجيح بعضها على بعض إذ نجد بعضها يحتج عليه بحديث صحيح وهو ظاهر الحكمة معقول المعنى ولكنه غير معتمد عندهم، بل يقولون فيه: المدرك قوي ولكنه لا يفكر

به . ولماذا ؟ لان فلانا قال — فقول رجل من رجال كثيرين جداً تجهل تاريخ اكثرهم يكفي لترك السنة الصحيحة وإن ظهر أن المصلحة فيما جاءت به السنة ، وبهذا قطعت الصلة بين ما نحن فيه وبين أصل الدين وينبوعه

ونحن لانظمن في أولئك القائلين أو المرجحين ، سواء منهم من كان تاريخه معروفاً لنا ومن كان غير معروف ، بل نحسن الظن فيهم الظن ونقول : أنهم قالوا بما وصل اليه علمهم ، ولم يجعلوا أنفسهم شارعين بل باحثين ، وإنا نسترشد بكلامهم على أنهم دالون ومبينون ، لا على أنهم شارعون ، بل نقول أنه يجب على ذي الدين أن ينظر دائماً إلى كتابه حتى لا يختلط ولا يشتبه عليه شيء من أحكامه ، ولا يجوز لاحد أن يرجع في شيء من عقائده وعبادته إلا إلى الله تعالى ، فان كانت هناك واسطة فهي واسطة الدلالة والتبليغ والتبيين لما نزل الله ، وتطبيقه على ما نزل لاجله من حياة الروح والكمال الانساني

فيجب علينا أن نعتقد بان الحكم لله تعالى وحده لا يؤخذ الدين عن غيره ، كما يجب علينا أن نعتقد بان لا فعل لغيره تعالى ، فلا نطلب شيئاً إلا منه ، وطلبنا منه يكون بالأخذ بالاسباب التي وضعها وهدانا إليها ، فان جهلنا أو عجزنا فانتنا نلجأ إلى قدرته ، ونستمد عنايته وحده ، وبهذا نكون موحدين مخلصين له الدين كما أمرنا في كتابه المبين ، ومن خرج عن هذا كان من متخذي الانداد (ومن يضلل الله فما له من هاد)

وبقي صنف آخر يشبه أن يكون من الانداد وهم العامة ، والذين اتخذوهم أنداداً هم علماء الدنيا فانهم يحلون لرضائهم ويحرمون وبخالفون النصوص الصريحة بضروب شديدة من التأويل لموافقة أهوائهم ، فان لم يفتوهم بخلاف النص التماساً لخيرهم أو هرباً من سخطهم كتبوا حكم الله من أجل ذلك ، فترى أحدهم إذا سئل : أهذا حق أم باطل وحلال أم حرام ؟ يعض من صوته بالجواب ، ولا يجهر بالقول مداراة للعوام ، إذا كان الجواب على غير ما هم عليه ، ولا سيما إذا كان هؤلاء العامة من الاغنياء وأصحاب السلطة . ونقول : مداراة للعوام . حكاية لقولهم اذ يسمون النفاق والمحاباة في الدين مداراة لما كانت المداراة محمودة ، وكذلك

كل الذين يكتفون ما أنزل الله من اليبقات والهدى من قبلهم يسمون كتمانهم باسماء محدودة، ولكن الله تعالى لعنهم على ذلك وسجل لهم الكفر والفسوق والعصيان. فهل يختلف حكمه فيرضى هؤلاء بأن يؤثروا العامة على ربههم ويجعلونهم أنذاداً له يحبونهم كحبه أو أشد؟

نرى العالم من هؤلاء ينتسب إلى الشرع ويحترّم لاجله وهو مع ذلك يتبع هوى من لا يعرف الشرع، فهو من الذين إذا أوذوا في الله جعلوا فتنة الناس كعذاب الله، فلا يتخذون الله ولياً ولا نصيراً. فهل يكون المرء مؤمناً إذا كان يترك دينه لاجل الناس؟ أم شرط الإيمان أن يصبر في سبيله على إيذاء الناس؟ (أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون؟) الخ كلا إن هؤلاء المتبوعين والتابعين بعضهم فتنة لبعض وسيتركوا بعضهم من بعض كما أخبرنا تعالى في قوله:

﴿إذ تبوأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا﴾ التبرؤ المبالغة في البراءة وهي التفصي ممن يكره قربه وجوارحه تنزهاً عنه. و «إذ» ظرف متعلق بـ (يروون العذاب) في الآية السابقة، والكلام متصل لاحقه بسابقه في موضوع اتخاذ الانذاد. وقد نطقت الآية السابقة أن عذاب الله تعالى سيحل بمتخذي الانذاد من دونه، وهو عام في التابع في اتخاذ المتبوع فيه، وفي أنواع الاتباع المذموم من التشريع بالرأي والهوى والتقليد فيه وغير ذلك من الضلال. وبين في هاتين الآيتين تفصيل حال التابعين والمتبوعين في ذلك، وأورده بصيغة الماضي تمثيلاً للحال الفريقيين في ذلك اليوم الذي ينكشف فيه الغطاء ويرى الناس فيه العذاب بأعينهم، ويعرفون أسبابه من تأثير العقائد الباطلة والأعمال السيئة في أنفسهم، كأن الأمر قد وقع، والبلاء قد نزل، ورأى الرؤساء المضلون الذين اتبعوا أن يغاؤهم للناس الذين اتبعوا رأيهم، وقلدوهم دينهم، قد ضاعف عذابهم، وحملهم مثل أوزار

الذين أضلّهم فوق أوزارهم، فتركوا منهم، وتنصلوا من ضلالتهم ﴿ورأوا العذاب﴾ أي والحال أنهم قد رأوا العذاب الذي هو جزاؤهم ماثلاً لهم يوم الحساب فأتى

ينفهم التبرؤ • وتقطعت بهم الأسباب • أي الروابط التي كانت بينهم وبين التابعين وأما كان ينضمهم في الدنيا لو أنهم آثروا به الحق على الرياسة والجاه والمنافع التي يستفيدونها الرئيس باستهواء المرءوس وإخضاعه له وسجده على اتبعائه ، أما وقد صدر عن نفوس ترتعد من رؤية العذاب الذي أشرفت عليه بما جنت واقتربت ، بعد ما تقطعت الروابط والصلات بينها وبين المتبوعين واصطلحت ، فلا منفعة للمتبريء تركت فيحمد تركها ، ولا هداية لامتبرأ منه ترجى فيحمد أثرها ، والأسباب جمع سبب وهو في أصل اللغة الحبل الذي يصعد به النخل وأمثاله من الشجر ثم غلب في كل ما يتوصل به الى مقصد من المقاصد المعنوية

لولا ان حيل بين المقلدين وهداية القرآن لكان لهم في هذه الآية اشد زلزال لجودهم على اقوال الناس وآرائهم في الدين ، سواء كانوا من الاحياء أم الميتين ، وسواء كان التقليد في العقائد والعبادات أم في احكام الحلال والحرام ، إذ كل هذا مما يؤخذ عن الله ورسوله ليس لأحد فيه رأي ولا قول ، إلا ما كان من الاحكام متعلقاً بالقضاء وما يتنازع فيه الناس فلا ولي الامر فيه الاجتهاد بشرطه اقامة للمدل ، وحفظاً للمصالح العامة والخاصة . وأما العلماء نقلة وأدلاء لا أنداد ولا انبياء ، فلا عصمة تجوِّط احدهم فيعتمد على فهمه ، وقصارى العدالة ان يوثق بنقله ويستعان بعلمه ، وما تنازعوا فيه يرد الى كتاب الله وسنة رسوله ، فهناك القول الفصل والحكم العدل والله يحكم لامعقب لحكمه ، ولا مرد لاهمه

في مثل هؤلاء المتبوعين والتابعين نزل قوله تعالى في سورة الاعراف (كلما دخلت أمة لعنت اختها حتى اذا اداركوا فيها جميعاً قالت أحرأهم لاولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتتهم عذاباً ضعفاً من النار ، قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون *) وقالت أولاهم لأحرأهم فما كان لكم عايناً من فضل فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون) فكل يؤاخذ بمعملة ، فاذا حمل الاول الاخر على رأيه ودعاه الى اتبعائه فيه أو في رأي غيره الذي يملأه هو فيه فهو من الاثمة المضايين ، وعليه ائمه ومثلهم من أضلهم من غير أن ينقص من انهم شيء ، اذ حرم الله عليهم اتخاذ الانداد من دون الله فاتخذوهم

وأما من يبدي في الدين فهما، ويقرر بحسب ما ظهر له من الدليل حكماً، يريد أن يفتح به للناس أبواب الفقه، ويسهل لهم طريق العلم، ثم هو يأمر الناس بأن يعرضوا قوله على كتاب الله وسنة رسوله، وينهاهم أن يأخذوا به إلا أن يقتنعوا بدليله، فهو من أئمة الهدى، وأعلام التقى، وليس يضره أن يقلد فيه بغير علمه، ويُجعل ندّاً لله من بعد موته، فانه إذا كان مخطئاً وجاء ذلك المقد له على غير بصيرة يوم القيامة ينسب ضلاله إليه، فانه يتبرأ منه بحق ويقول ما أمرت أن تأخذ بقولي على علته ولا أعرفك. فالذين يتخذون أنداداً يتبرؤن كلهم يوم القيامة من اتخذوهم، ولكنهم يكونون على قسمين: قسم عبد لهم الناس كال مسيحي وبعض أولي العلم والتقوى من هذه الامة ومن الائم قبلها أو قلدوهم وأخذوا بأقوالهم في الدين من غير دليل شرعي كـ بعض الائمة للمعتدين من غير أن يأمرهم هؤلاء بعبادتهم أو تقليدهم، بل مع نهيمهم إياهم عن عبادة غير الله تعالى وعن الاعتماد على غير وحيه في الدين - فهذا القسم غير مراد هنا لأن الذين عبدوا أولئك الاختيار أو قلدوهم دينهم لم يتبعوهم في الحقيقة إذ اتباعهم هو اتباع طريقهم في الدين وما كانوا يشركون بالله أحداً ولا شيئاً، ولا يقلدون في دينه أحداً وإنما كانوا يأخذون دينه عن وحيه فقط - وقسم أضلوا الناس بأقوالهم وأقوالهم فاتبعوهم على غير بصيرة ولا هدى فهؤلاء هم الذين يتبرأ بعضهم من بعض، ويلمع بعضهم بعضاً، إذ تنقطع بهم أسباب الاهواء والمنافع الدنيوية التي تربط هنا بعضهم ببعض

قال تعالى ﴿ وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبتراء منا ﴾ أي تمنى لو أن لنا رجعة إلى الدنيا لتبرأ من اتباع هؤلاء المضلين ونقتصل من رياستهم، أو لنمتنع سبيل الحق ونأخذ بالتوحيد الخالص ونهتدي بكتاب الله وسنة رسوله، ثم نعود إلى هنا «الآخرة» فنتبرأ من هؤلاء الضالين كما تبتروا منا

إذ نسمع بـعملنا من حيث هم أشقياء بأعمالهم ﴿ كذلك يريد الله أعمالهم حسرات عليهم ﴾ أي ان الله تعالى يظهر لهم كيف أن أعمالهم قد كان لها أسوأ الأثر في نفوسهم إذ جعلتها مستمدة مستعبدة لغير الله تعالى فأورثها ذلك من الظلمة والصغار ما كان

(البقرة:س٢) صرف المسلمين عن الاعتبار بما وصف الله به الكافرين ٨١

حسرة وشقاء عليها، فالاعمال هي التي كونت هذه الحسرات في النفس، ولكن لا يظهر ذلك إلا في الدار الآخرة التي تسعد فيها كل نفس بتركها، وتشقى بتدبيرها ﴿وما هم بخارجين من النار﴾ إلى الدنيا صححي العقيدة ليصلحوا أعمالهم، فيشفوا غيظهم من رؤسائهم وأندادهم، ولا إلى الجنة لأن علة دخولهم في النار هي ذواتهم بما طبعها عليه خرافات الشرك وحب الانداد

(الاستاذ الامام) يقول المفسرون في مثل هذه الآيات ان هذا الكلام خاص بالكفار، نعم انه خاص بالكفار كما قالوا، ولكن من الخطأ أن يفهم من هذا الكلام ما يفصل بين المسلمين والقرآن إذ يصرفون كل وعيد فيه إلى المشركين واليهود والنصارى فينصرفون عن الاعتبار المقصود. لهذا ترى المسلمين لا يتعطلون بالقرآن، ويحسبون ان كلمة «لا إله إلا الله» يتحرك بها اللسان من غير قيام بحقوقها كافية للنجاة في الآخرة، على أن كثيراً من الكافرين يقولها، ومنهم من يهز جسده عند ذكر الله كما يهزه جماهيرهم، فهل هذا كل ما أراده الله من إنزال القرآن، وبعثة محمد عليه الصلاة والسلام؟

ليس هذا الذي يتوهمه الجاهلون من مراد المفسرين، فما بين الله تعالى ضروب الشرك وصفات الكافرين وأحوالهم إلا عبرة لمن يؤمن بكتابنا حتى لا يقع فيما وقعوا فيه فيكون من المالكين، ولكن رؤساء التقليد حالوا بين المسلمين وبين كتاب ربهم، بزعمهم أن المستعدين للاهتداء به قد انقضوا ولا يمكن أن يخلفهم الزمان لما يشترط فيهم من الصفات والنعوت التي لا تيسر لغيرهم، كمرقة كذا وكذا من القنون الصناعية والاحاطة بخلاف العلماء في الاحكام. والذي يعرفه كل واقف على تاريخ الصدر الاول من المسلمين هو أن أهل القرنين الاول والثاني لم يكونوا يقلدون أحداً، أي لم يكونوا يأخذون بأراء الناس وأقوال العلماء، بل كان العامي منهم على بينة من دينه يعرف من أين جاءت كل مسألة يعمل بها من مسائله، إذ كان علماء الصدر الاول رضي الله تعالى عنهم يلقنون الناس الدين ببيان كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ. وكان الجاهل بالشيء يسأل عن حكم الله فيه فيجيب.

«تفسير المنار» «١١» «الجزء الثاني»

٨٢ سيرة علماء السلف في بث الدين ونهي الأئمة عن التقليد (التفسير : ج ٢)

بأن الله تعالى قال كذا أو جرت سنة نبيه على كذا ، فإن لم يكن عند المسئول فيه هدي من كتاب أو سنة ذكر ماجرى عليه الصالحون وما يراه أشبه بما جاء في هذا الهدي أو أحال على غيره

ولما تصدى بعض العلماء في القرن الثاني والثالث لاستنباط الاحكام واستخراج الفروع من أصولها — ومنهم الأئمة الاربعة — كانوا يذكرون الحكم بدليله على هذا النمط ، فهم متفقون مع الصحابة والتابعين (عليهم الرضوان) على أنه لا يجوز لأحد أن يأخذ بقول أحد في الدين ما لم يعرف دايله ويقتنع به . ثم جاء من العلماء المقلدين في القرون الوسطى من جعل قول المفتي للعامة بمنزلة الدليل مع قولهم بأنه لو بلغه الحديث فعمل به كان كذلك أو أولى . ثم خاف خلف اعرق منهم في التقليد فتمسكوا كل الناس أخذ أي حكم من الكتاب أو السنة ، وعدوا من يحاول فهمها والعمل بها زائفاً . وهذا غاية الخذلان وعداوة الدين ، وقد تبعهم الناس في ذلك فكانوا لهم أنداداً من دون الله ، وسيتبرأ بعضهم من بعض كما أخبر الله

قل الاستاذ الامام في الدرس : انه نقل عن الأئمة الاربعة رضي الله عنهم النهي عن الاخذ بقولهم من غير معرفة دليلهم ، والامر بترك أقوالهم لكتاب الله أو سنة رسوله إذا ظهرت مخالفتها أو لاحدهما هو قد سبق لنا في المنار إيراد كثير من هذه النصوص عنهم معزوة إلى كتبها ورواتها . ومن ذلك قول الفقيه الحنفي أبي الليث السمرقندي : حدثنا ابراهيم بن يوسف عن أبي حنيفة انه قال : لا يحل لأحد أن يأخذ بقولنا ما لم يعلم من أين قلناه . وروي عن عصام بن يوسف انه قيل له : انك تكسر الخلاف لأبي حنيفة . فقال إن أبا حنيفة قد أوتي ما لم نؤت فأدرك فهمه ما لم ندركه ، ونحن لم نؤت من الفهم إلا ما أوتينا ، ولا يسعنا أن نفتي بقوله ما لم نفهم من أين قال . وروي عن عصام بن يوسف انه قال : كنت في مأتم فاجتمع فيه اربعة من اصحاب أبي حنيفة : زفر بن الهزبل وأبو يوسف وعافية بن يزيد وآخر فكلهم أجمعوا على انه : لا يحل لأحد أن يأخذ بقولنا ما لم يعلم من أين قلناه . وفي روضة العلماء : قيل لأبي حنيفة إذا قلت قولاً وكتاب الله يخالفه ؟ قال : أتركوا قولي لكتاب الله . فقيل إذا كان خبر الرسول ﷺ يخالفه ؟ فقال : أتركوا

(البقرة : ص ٢) نهي الأئمة الاربعة عن تقليدكم ومخالفة مدوني مذاهبهم لهم ٨٢

قولي لقول الرسول ﷺ ، فقل اذا كان قول الصحابة يخالفه ؟ قال أركوا قولي لقول الصحابة ^(١) وبعد هذا كله جاء الكرخي يقول : ان الاصل قول أصحابهم فان وافقته نصوص الكتاب والسنة فذاك وإلا وجب تأويلها ، وجرى العمل على هذا ، فهل العامل به مقلد لابي حنيفة رضي الله عنه أم للكرخي ؟

وروى حافظ المغرب ابن عبد البر عن عبد الله بن محمد عبد المؤمن قال حدثني أبو عبد الله محمد بن أحمد القاضي المالكي حدثنا موسى بن اسحاق قال حدثنا ابراهيم بن المنذر قال أخبرنا ابن عيسى قال سمعت مالك بن أنس يقول : انما أنا بشر اخطيء وأصيب فانظروا في رأيي فكل ماوافق الكتاب والسنة فخذوه ، وكل ما لم يوافق الكتاب والسنة فاتركوه ^(٢) ثم هذا المنتسبون الى هذا الامام الجليل خذو المنتسبين الى ابي حنيفة فهل هم على مذهبه وطريقته القويمة ؟

وأما الامام الشافعي والامام أحمد فالنصوص عنهما في هذا المعنى أكثر ، وأتباعهما أشد عناية بالكتاب والسنة من غيرهم ولا سيما الخبابة ، وقد أوردنا طائفة من ذلك عن الشافعي وأصحابه في المحاوراة الثانية عشرة ^(٣) من (المحاورات بين المصالح والمقلد) وطائفة أخرى عن الامام أحمد وأتباعه (في المحاوراة الثالثة عشرة ^(٤)) والغرض من هذا الاستشهاد على ما قاله الاستاذ الامام من نهي لأئمة الاربعة عن التقليد (قال الاستاذ) وهناك قول آخر للمتأخرين مبني على أن الامة جاهلة لا تعرف من الدين شيئا لا من أصوله ولا من فروعها ، ولا سبيل الى تكفير هؤلاء المنتسبين الى الاسلام ولا إلى إلزامهم معرفة العقائد الدينية من دلالتها والاجكام الشرعية بأدلتها وعللها ، فلا مندوحة إذن عن القول بجواز التقليد في الاصول - وهي ما يجب اعتقاده في الله وصفاته وفي الرسالة والرسول وفي الايمان بالغيب وهو ما فصله النص القطعي منه - والتقليد في الفروع العملية بالاولى . وهذا القول مخالف لاجماع سلف الامة ، وما قاله الا الذين يحبون إرضاء الناس باقرارهم على ما هم عليه من الجهل ،

(١) راجع ص ٥٢٦ و ٥٢٧ من مجلد المنار الرابع (٢) راجع بقية النصوص عنه في ص

٥٧٢ وما بعدها من المجلد الرابع (٣) راجع ص ٦٩٢ منه (٤) ص ٨٥٢ منه أيضا .

وقد طبعت هذه المحاورات في كتاب مستقل

٨٤ المنهاج الوسط الواجب في تعليم الامة العقائد والعبادات (التفسير: ج ٢)

واهمال ما وهبهم الله من العقل لينطبق عليهم قوله تعالى (ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والانس لهم قلوب لا يفقهون بها، ولهم أعين لا يبصرون بها، ولهم آذان لا يسمعون بها، أولئك كالانعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون) والمراد أن قلوبهم أي عقولهم لا تفقه الدلائل على الحق، وأعينهم لا تنظر الآيات نظر مستدلال، وأسماعهم لا تفهم النصوص فهم تدبر واعتبار، فهذه صفات المقلدين والقول الوسط بين القولين هو أنه يجب النظر في اثبات العقائد بقدر الامكان ولا يشترط فيه تأليف الأدلة على قوانين المنطق ولا التزام طريق المتكلمين في مثل بناء الدليل على فرض انتفاء المطلوب، ولا إيراد الشكوك والاجوبة عنها، بل أفضل الطرق فيه وأمثلها طريق القرآن الحكيم في عرض الكائنات على الانظار وإرشادها الى وجه الدلالة فيها على وحدانية مبدعها وقدرته وحكمته. هذا هو حكم الله الصريح في المسألة فانه أمر بالعلم بالوحد فقل (فاعلم أنه لا إله الا الله) وقال (وان الظن لا يغني من الحق شيئا) وطالب بالبرهان وجعله آية الصدق (قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين) وجعل سبيله الذي أمر بالتباعه ونهى عن سواء الدعوة الى الدين على بصيرة (قل هذه سبيلي أدعو الى الله على بصيرة أنا ومن تبعني) — (وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله) وأما فرض الامة جاهلة وإقرارها على ذلك اكتفاء باسم الاسلام، وما يقلده الجاهلون أمثالهم من الاحكام، فهو من القول على الله بغير علم ولا سلطان، وقد قرنه تعالى مع الشرك في التحريم بقوله (قل انما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والانهم والبنى بغير الحق وأن تشرکوا بالله ما لم ينزل به سلطانا وان تقولوا على الله ما لا تعلمون) وأما الاحكام ومسائل الحلال والحرام فمنها ما لا يسع أحداً التقليد فيه وهي ما علم من الدين بالضرورة كوجوب الصلاة والزكاة والصيام والحج وما أجمع عليه من كيفياتها وفروضها فان أدلتها وأعمالها متواترة. وتلقينها مع ما ورد في فوائدها من الآيات والهدي النبوي يجعل المسلم على بصيرة فيها وفقه يبعث على العمل ولا أسهل منه. ومنها فروع دقيقة مستنبطة من أحاديث غير متواترة لم يطاع عليها جميع المسلمين، وقد مضت سنة السلف الصالح في مثلها بأن من بلغه حديث منها

(البقرة.س ٢) ما يجب من العلم بأخبار الآحاد والعمل به، النحو والبلاغة في القرآن ٨٥

بطريق يمتد به ثبوته عمل به، ولم يوجبوا على أحد ولو منقطعاً لتحصيل العلم أن يبحث عن جميع ما روي من هذه الآحاد ويعمل بها، كيف والصحابة عليهم
الرضوان لم يكتبوا الحديث ولم يتصدوا لجمعه وتلقيه للناس، بل منهم من نهي
عن كتابته، ومن حدث فأنما كان يقول ما يعلم إذا عرض له سبب مع المخاطبين. فمثل
هذه الفروع يعذر العاصي بمجهلها بالاولى، ويجب عليه التحري في قبول ما يبلغه منها، فلا
يقبل رواية كل أحد ولا يسلم كل ما في الكتب لكثرة الموضوعات والضعاف
فيها. ولا مشقة ولا حرج على المسلمين في التزام هذه الطريقة الا اذا كانوا يريدون
ترك دينهم برمته ا كفاء ببعض العادات والاعمال التي لا يكاد يسهل عليهم تمييز
السنة فيها من البدعة نقلياً لا بأثرهم ومعاشرهم

فتبين مما شرعناه أن لا عذر لأحد في التقليد المحض وأن حكم الآية يستغرق
جميع المقلدين فهم اتخذوا مقلديهم أنقاداً وسيئراً التابع من المتبوع اذ يرون
العذاب، وتمقطع بهم الاسباب.

ومن مباحث اللفظ في الآيتين أن التشبيه في قوله تعالى (كذلك يريهم الله
أعمالهم) هو تشبيه حالة بحالة ذكرت في الكلام السابق أي كذلك النحو الذي
ذكر من إراءتهم العذاب سيرهم الله أعمالهم حسرات عليهم، والذين تنطوا
في إعرابها من المفسرين صرفتهم قواعد النحو عن ملاحظة الاسلوب العربي في
مثل هذا، على أن له نظائر في كلام العامة في كل زمان هي مما بقي لهم من الاسباب
العربية الفصيحة لم تفسدها العجمة إذ لا تمجها أذواق الأعجميين

ومنها قوله تعالى (وتمقطع بهم الاسباب) قال الاستاذ الامام: جاءت
فيه الباء بمعنى خاص لا يظاهر فيما ذكره هنا من معانيها، وأما يفهمه العربي من
الاسلوب، فانك اذا قلت هنا كما قال الجلال تقطعت عنهم الاسباب لا ترى في
نفسك الاثر الذي تراه عند تلاوة العبارة الاولى التي تمثلك التابعين والمتبوعين
كعقد انقراط بانقطاع سلكه فذهبت كل حبة منه في ناحية

أقول وتوضيحه أن هؤلاء المقلدين قد كانوا مرتبططين في الدنيا ومتصلاً
بعضهم ببعض بأنواع من المنافع والمصالح يستمدّها كل من التابع والمتبوع من

الآخر ، فشبهت هذه المنافع التي حملت الرؤساء على قود المرؤسين ، والتابعين على تقليد المتبوعين ، بالاسباب وهي في أصل اللغة الحبال كأنه يقول ان كل واحد منهم كان مربوطا مع الآخرين بحبال كثيرة فلم يشعروا الا وقد تقطعت هذه الحبال كلها فاصبح كل واحد منبوذا في ناحية لا يوصله بالآخر شي ، وعلى هذا تكون الباء متعلقة بمحذوف حال من الفاعل . قال الاستاذ الامام : ومن هذه الاساليب الخاصة قوله تعالى (وكفى بالله شهيدا) و (سبحانه الله) فاذا فسرت ذلك بالتحليل والارجاع الى القواعد العامة فقلت في الاول كفى الله شهيدا أو كفت شهادته ، وفي الثاني تسبيحا لله : لم يكن له تأثير الاول وموقعه من النفس . ومثل هذه الاساليب الخاصة توجد في كل لغة

(١٦٨) يَأْتِيهَا النَّاسُ كُلُّهُمْ فِي الْأَرْضِ حَمَلًا طَيِّبًا وَلَا تَذِمُّوا خُطُوبَ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (١٦٩) إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (١٧٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَفْقَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ

ذكر الجلال أن الآية الأولى نزلت فيمن حرم السوانب ونحوها ولكنه لم يذكر ذلك في اسباب النزول وقد كان هذا في طوائف من العرب كمدلج وبني صمصمة وقال الأستاذ الامام : لو صح أن الآية نزلت في ذلك لما كان مقتضيا فصل الآية بمقابلها وجعلها كلاما مستأنفا لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب على أن الظاهر من السياق أن الكلام متصل بما قبله أتم الاتصال فان الآيات الأولى بينت حال متخذي الانداد وما يلاقون من عذاب الله تعالى ، وقد قلنا في تفسيرها إن الانداد قسمان قسم يتخذ شارعا يؤخذ برأيه في التحليل والتحريم من غير أن يكون بلاغا عن الله ورسوله ، بل يحمل قوله وفعله حجة بذاته لا يستل من ابن أخذه

(البقرة: ص ٢) حلال الطعام ما عدا المحرم بالقرآن والطيب المملوك بوجه شرعي ٨٧

وهل هو فيه على هدي من ربه أم لا ، وقسم يعتمد عليه ويدعى في دفع المضار وجاب المنافع من طريق السلطة الغيبية لا من طريق الأسباب ، حتى أنهم ليعتمدون على إغاثة هؤلاء الأنداد للناس بعد موتهم وخروجهم من عالم الأسباب ، ثم بينت أن الباطن يتبع بعضهم بعضا في ذلك ، وأن سيئرا الذين اتبعوا من الذين اتبعوا عند رؤية العذاب وتقطع الأسباب بينهم ، وقلنا في تفسيرها إن الأسباب هي المنافع التي يجنيها الرؤساء من المرءوسين والمصالح الدنيوية التي تصل بعضهم ببعض . وفي هذه الآيات يبين تعالى أن تلك الأسباب محرمة لأنها ترجع إلى أكل الخبائث واتباع خطوات الشيطان ونهى عنها ، وبين سبب جودهم على الباطل والضلال وهو الشبهة بما كان عليه الآباء من غير عقل ولا هدى ، فالكلام متمم لما قبله قطعا

قال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا ﴾ الحلال هو غير الحرام الذي نص عليه في قوله تعالى (قل لا أجد فيما أوحى إلي محرما على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دما مسفوحا أو لحم خنزير فإنه رجس أو فسقا أهل لغير الله به) فما عدا هذا فكله مباح بشرط أن يكون طيبا أي غير خبيث . وفسر الجلال الطيب بالحلال على أنه تأكيد أو بالمستلذذ ، والاول لا محل له والتأسيس مقدم على التأكيد ، والثاني لا يظهر تقييد الإباحة العامة لما في الأرض به ، ورجح الأستاذ الامام أن الطيب مالا يتعلق به حق الغير وهو الظاهر ، لأن المراد بمحصر المحرم فيما ذكر المحرم لذاته الذي لا يحل إلا للمضطر ، وبقي المحرم لعارض فتعين بيبانه وهو ما يتعلق به حق الغير ويؤخذ بغير وجه صحيح ، كما يكون في أكل الرؤساء من المرؤسين بلا مقابل إلا أنهم رؤساؤهم المسيطرون عليهم ، وكذلك أكل المرءوسين بجاه الرؤساء ، فإن كلا منهما يمد الآخر ليستمد منه في غير الوجوه المشروعة التي يتساوى فيها جميع الناس ، وبخرج بذلك الربا والرشوة والسحت والغصب والغش والسرقة فكل ذلك خبيث ، وكذا ما عرض له الخبيث بتغيره كاطعام المنقن ، وبهذا التفسير يتحرر ما أباحه الدين وتلتزم الآية مع ما قبلها وأتبع الأمر النهي فقال ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ قرأ الأئمة .

خطوات بضميتين جمع خطوة بالضم وهي ما بين القدمين — وبفتحتين جمع خطوة وهي المرة من خطا يخطو في مشيه ، والمعنى لا تتبعوا سيرته في الاغواء ، وسوسته في الامر بالسوء والفحشاء ، وهو ما يبينه في الآية التالية. وعلى النهي بكونه عدوا للناس بين العداوة . والعلم بعداوته لنا لا يتوقف على معرفة ذاته ، وانما يعرف الشيطان بهذا الاثر الذي ينسب إليه وهو وحي الشر ، وخواطر الباطل والسوء في النفس ، فهو منشأ هذا الوحي والخواطر الرديئة ، قال تعالى (شياطين الجن والانس يوحي بعضهم الى بعض زخرف القول غرورا) ولا أبين وأظهر من عداوة داعية الشر والضلال ، فعلى الانسان ان يلتفت الى خواطره ويضع لها ميرانا ، فاذا مالت نفسه الى بذل المال لمصلحة عامة ، أو عرض له سبب معاونته عامل على خير ، أو صدقة على بائس فقير ، فعارضه خاطر التوفير والاقتصاد ، فليعلم أنه من وحي الشيطان ، ولا يندفع لما يسوله له من إرجاء هذا العطاء لأجل وضعه في موضع أنفع ، أو يذله لفقر أحوج ، وإذا هم بدفاع عن حق أو أمر بمعروف أو نهى عن منكر فخطر له ما يثبط عزمه أو يمسك لسانه ، فليعلم أنه من وسواس الشيطان . وأظهر وحي الشياطين ما يجري على التحريم والتحليل لأجل المنافع التي تلبس على المتجرى عليها بالمصلحة وسياسة الناس ، كأنه قال لا تتبعوا وحي الباطل والشر وخواطرهما تلم بكم وتطوف بنفوسكم ، فانها من اغواء الشيطان عدوكم . ثم بين ذلك بما يفيد اثبات العداوة من تعليل النهي فقال

﴿ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ ﴾ دون غيرها من الحق والخير ، فاما السوء فهو كل ما يسوءك وقوعه أو عاقبته ، فن الشرور ما يقدم عليه المرء مندفعاً بتزيين الشيطان له ، حتى اذا فعل الشر فاجأه السوء وعاجله الضرر ، ومن الاعمال ما لا يظهر السوء في بدايته ، ولكنه يتصل بنهايته ، كمن يصده عن طلب العلم أن بعض المتعلمين أضاع وقته وبذل كثيرا من ماله ثم لم يستفد من التعلم شيئا ، فهذا قياس شيطاني يصرف بعض الناس عن طلب العلم بأنفسهم ، وبعض الآباء عن تعليم أولادهم ، فتكون عاقبتهم السوء ذات ناحيتين : سلبية وهي الحرمان من فوائد العلم ، وإيجابية وهي مصائب الجهل ، وكل منهما ديني ودنيوي . فلا بد من البصيرة

(البقرة ص ٢) القول على الله بغير علم في الدين والتوسل اليه بالشرك به ٨٩

والتأمل في تمييز بعض الخواطر من بعض ، فإن الشيطانية منها ربما لا تظهر بادي الرأي
وأما الفحشاء فكل ما يفحش قبحه في أعين الناس من المعاصي والآثام ،
ولا يختص بنحو الزنا كما قال بعضهم والفحشاء في الغالب أقبح وأشد من السوء . وأسوء
السوء مبدأ وعاقبة ترك الاسباب الطبيعية التي قضت حكمة الباري بربط المسببات
بها اعتماداً على أشخاص من الموتى أو الأحياء . يظن بل يقوم أن لهم نصيباً من السلطة
الغيبية والتصرف في الأكوان بدون اتخاذ اسباب ، ومثله اتخاذ رؤساء في الدين
يؤخذ بقولهم ويعتمد على فعلهم ، من غير أن يكون بياناً وتبليغاً لما جاء عن الله ورسوله
فإن في هذين النوعين من السوء إهمالاً لنعمة العقل وكفرًا بالمنعم بها ، وأعراضاً عن سنن
الله تعالى وجهلاً بطرادها ، وصاحبه كمن يطلب من السراب الماء ، أو ينق بما لا يسمع
غير الدعاء والنداء ، وهذا شأن متخذي الانداد (ومن يضلل الله فإنه من هاد) وأما
الرؤساء الذين يحملون العامة على هذا التقايد في الأمرين فقد بين تعالى اتباعهم لوجي

الشيطان بقوله ﴿ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ أي ويأمركم أن تقولوا على
الله في دينه الذي دان به عباده ما لا تعلمون علم اليقين أن الله شرعه لهم من عقائد
وأوراد وأعمال تعبدية ، وشعائر دينية ، أو تحليل ما الأصل فيه التحريم ، وتحريم ما
الأصل فيه الإباحة ، ولا يثبت شيء من ذلك بالرأي والاجتهاد من قياس واستحسان ،
لأنهم ما ظنوا علم ، فالقول على الله بغير علم اعتداء على حق الربوبية بالتشريع ، وهو شرك
صریح ، وهذا أقبح ما يامر به الشيطان فإنه الأصل في إفساد العقائد ، وتحريف
الشرائع ، واستبدال الذي هو أدنى بالذي هو خير

أليس من القول على الله بغير علم زعم هؤلاء الرؤساء أن الله وسطاء بينه وبين
خلقه لا يفعل سبحانه شيئاً بدون وساطتهم ، فحولوا بذلك قلوب عباده عنه وعن
سننائه في خلقه ووجهوها إلى قبور لا تعد ولا تحصى ، وإلى عميد ضعفاء لا يملكون
لا أنفسهم ضراً ولا نفعاً ، ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشوراً ؟ وقد يسمون هذا
توسلاً إليه أي يتقربون إليه بالشرك به ، ودعاء غيره من دونه أو معه ، وهو
يقول (فلا تدعوا مع الله أحداً) ويقول (بل إياه تدعون) أي دون غيره

أليس من القول على الله بغير علم ما اختلفت وود من الحيل لهدم ركن الزكاة وهو من أعظم أركان الاسلام

أليس من القول على الله بغير علم ما زادوه في العبادة وأحكام الحلال والحرام ، عما ورد في الكتاب والسنة المبينة له ولنبي ﷺ يقول عن الله تعالى « وسكت عن أشياء رحمة بكم غير نسيان فلا تبتحشوا عنها » ؟ .

قال الاستاذ الامام هنا: كل من يزيد في الدين عقيدة أو حكماً من غير استناد الى كتاب الله أو كلام المعصوم فهو من الذين يقولون على الله ما لا يملكون : ومثل ذلك بالزائرات للقبور وما يأتيه هناك من البدع والمنكرات باسم الدين ، وبتشجيع الجنائز بقراءة البردة ونحوها بالنسبة المعروفة ، وبحمل المباخر الفضية والاعلام أمامها ، وبالاجتماع لقراءة الدلائل ونحوها من الاوراد بالصياح الخاص ، وقال إن كل هذا جاء من استحسان ما عند الطوائف الاخر ، وليس في الاسلام صيغة غير صحيحة الاذان ، وقد قال تعالى في الصلاة (ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها) وأما التلبية فلم يشرع فيها رفع الصوت والصياح الشديد وإنما يكون العجيج من كثرة الناس واختلاف أصواتهم ، وإن لم يرفعوا عقيرتهم جهد المستطاع كما يفعل مقلدة التصوف . قال وإن كثيراً من البدع في العقائد والاحكام قد دخلت على المسلمين بتساهل رؤساء الدين وتوهمهم أنها تقوى أصل العقيدة وتخضع العامة لسلطان الدين - ولسلطانهم المستند الى الدين - ولقد دخلت كنيسة (بيت لحم) فسمعت هناك أصواتاً خيل لي أنها أصوات طائفة من أهل الطريق يقرؤون حزب البر مثلاً ثم علمت أنهم قسيسون . فهذه البدع قد سرت اليها منهم كما سرت اليهم من الوثنيين ، استحسنا منهم ما استحسنوه من أولئك ، توهمنا أنه يفيد الدين أهبة وخامة ، ويزيد الناس به استمساكاً ، فكان ان ترك الناس مهمات الدين اكتفاء بهذه البدع ، فان أكثر الصائحين في الاضرحة وقباب الاولياء وفي الطرق والاسواق بالاوراد والاحزاب لا يقيمون الصلاة ، ومن عساه يصلي منهم فانه لا يحرص على الجماعة بعض حرصه على الاجتماع للصياح بقراءة الحزب في ايلة الولي فلان . ولقد أنس الناس بهذه البدع ، واستوحشوا من شعائر الدين والسنن ، حتى ظهر فيهم تأويل قوله عز وجل

﴿ وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ﴾ أي
 وإذا قيل لمتبعي خطوات الشيطان ، الذين يقولون على الله بغير علم ولا برهان ،
 (اتبعوا ما أنزل إليكم ولا تتبعوا من دونه أولياء) قالوا : لا ، نحن لا نعرف
 ما أنزل الله ، بل نتبع ما ألفينا أي وجدنا عليه آباءنا ، وهو ما تقلدوه من ساداتنا
 وكبرائنا ، وشيوخ علمائنا . لم يخاطب هؤلاء ببطلان ما هم عليه وتشجيعه خطابا لهم
 بل حكى عنهم حكاية بين فساد مذهبهم فيها ، كأنه أنزلهم منزلة من لا يفهم الخطاب ،
 ولا يعقل الحجج والدلائل كما بين ذلك بالتمثيل الآتي . ولو كان للمقلدين قلوب
 يفقهون بها لكانت هذه الحكاية كافية بأسلوبها للتفجيرهم من التقليد ، فإنهم في كل
 ملة وجيل يرغبون عن اتباع ما أنزل الله استئناسا بما ألفوه مما ألفوا آباءهم عليه ،
 وحسبك بهذا شناعة ، إذ العاقل لا يؤثر على ما أنزل الله تقليد أحد من الناس وإن
 كبر عقله وحسن سيره ، إذ ما من عاقل الا وهو عرضة للخطأ في فكره ، وما من
 مهتد الا ويحتمل أن يضل في بعض سيره ، فلائحة في الدين الاباء أنزل الله ، ولا معصوم
 الا من عصم الله ، فكيف يرغب العاقل عما أنزل الله إلى اتباع الاباء مع دعواه الايمان
 بالنزول ، على انه لو لم يكن مؤمنا بالوحي لوجب أن ينفره عن التقليد قوله تعالى
 ﴿ أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون ﴾ فإن هذا حجة عقلية لا تنقض
 أقول الهمزة للانكار والتعجب وهي داخلة على فعل حذف العلم به من
 القرينة ولو للغاية لا تحتاج الى جواب وجزاء . والتقدير أي تبعون ما ألفوا عليه آباءهم
 في كل حال وفي كل شيء ولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا من عقائد الدين إذ
 يسلكون طريق العقل بالاستدلال على أن ما هم عليه من العقائد والعبادات حق ،
 ولا يهتدون في أحكامه وأعماله بوحي من الله جاءهم به رسول من عند الله ؟ أي
 حتى في تجردهم من دليلي العقل والنقل . هذا ما أفهمه وقال البيضاوي أي لو كان
 آباؤهم جهلة لا يفكرون في أمر الدين ولا يهتدون إلى الحق لا تبعوهم . وهو دليل
 على المنع من التقليد لمن قدر على النظر أو الاجتهاد وأما اتباع الغير في الدين اذا علم
 بدليل ما انه محق كالانبياء والمجاهدين في الاحكام فهو في الحقيقة ليس بتقليد بل اتباع
 لما أنزل الله اهونقله عنه الالوسي بغير عزو ووصله بآية (فاسألوا أهل الذكر ان كنتم

لا تعلمون) وفيه انه لم يفرق في التقليد بين القطعي المعلوم من الدين بالضرورة وهو لا يجوز التقليد فيه البتة بل لا محل له وبين الامور الاجتهادية كاحكام القضاء وسياسة الامة وهذا هو الذي يشترط فيه القدرة على النظر والاستدلال ، ولم يفرق بين اتباع النبي المعصوم فيما يبلغه عن الله تعالى لمن قامت عنده الحجة على نبوته فهو لا يكون الا محققا — وبين المجتهد الذي لا يمكن العلم بأنه محق الا بالوقوف على دليله وفهمه ، وقوله تعالى (فاسألوا أهل الذكر) في طلب السؤال عن أمر قطعي معلوم بالضرورة وهو كون الرسل رجالا يوحى اليهم — لا عن رأي اجتهادي وقال الجلال وغيره : لا يعلمون شيئا من أمر الدين . وتعبه الاستاذ الامام بقوله : عقل الشيء معرفته بدلائله ، وفهمه بأسبابه ونتائجه ، وأقرب الناس الى معرفة الحق الباحثون الذين ينظرون في الدلائل بقصد صحيح ولو في غير الحق ، لان الباحث المستدل اذا أخطأ يوما في طريق الاستدلال أو في موضوع البحث فقد يصيب في يوم آخر ، لأن عقله يتعود الفكر الصحيح ، واستفادة الطالب من الدلائل ، وأبعد الناس عن معرفة الحق المقلدون ، الذين لا يبحثون ولا يستدلون ، لانهم قطعوا على أنفسهم طريق العلم ، وسجلوا على عقولهم الحرمان من الفهم ، فهم لا يوصفون باصابة لان المصيب هو من يعرف أن هذا هو الحق ، والمقلد إنما يعرف أن فلانا يقول ان هذا هو الحق ، فهو عارف بالقول فقط ، ولذلك ضرب لهم المثل في الآية الآتية بمد ما سجل عاينهم الضلالة بعدم استعمال عقولهم (فان قيل) ان الآية إنما تمنع اتباع غير من يعقل الحق ، ويهتدي إلى حسن العمل والصواب في الحكم ، ولكنها لا تمنع من تقليد العاقل المهتدي (نقول) ومن أين يعرف المقلد ان متبوعه يعقل ويهتدي إذا هو لم يقف على دليله ؟ فان هو اتبعه في طريقة الاستدلال حتى وصل الى ما وصل على بصيرة فان الآية لا تنفي عليه هذا إذ هو استفادة للعلم المعمود لا تقليد في المعلوم أو المظنون لغيره . قال الاستاذ الامام : رأيت لبعض السلف انه قال : لو ان شخصا رأى النبي ﷺ في حياته وسمع قوله واقتدى به من غير نظر في نبوته يؤدي الى الوصول الى اعتقاد صحتها بالدليل لعدم مقلداً ، ولم يكن علي بصيرة كما أمر الله المؤمن ان يكون (وأقول) ان هذا مأخوذ

(البقرة: ٢) مثل الكفار في تقليدهم كمثل السوائم ينق بهاراعيا ٩٣

من قوله تعالى (قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني) وقد فسروا البصيرة بالحجة الواضحة ولا يشترط في صحة الايمان بنبوته ﷺ النظر الاستدلالي المعروف عند المتكلمين بل يكفي فيها اطمئنان النفس لصدقه بمعرفة حاله وحسن ما دعا اليه. ولكن مرتبة الدعوة إلى الله وإثبات دينه بالحجة لا يرتقي اليها كل مؤمن به ﷺ هذا وان في قوله تعالى (لا يعقلون شيئاً) بحثاً فقد يشكل هذا العموم فيه على

بعض الافهام ، وقد بين له الاستاذ الامام ثلاثة اوجه (احدها) ان معناه لا يستعملون عقولهم في شيء مما يجب العلم به بل يكتفون فيه كله بالتسليم من غير نظر ولا بحث وهو مامر (وثانيها) أنه جار على طريقة البلاغة في المبالغة بجعل الغالب أمراً كلياً عاماً . يقولون في الضال في عامة شؤونهم : انه لا يعقل شيئاً ولا يهتم بهي إلى الصواب . ويقولون في البليد : انه لا يفهم شيئاً ، وهذا لا ينافي أن يعقل الاول بعض الاشياء ويفهم الثاني بعض المسائل (وثالثها) انه ليس الغرض من العبارة نفى العقل عن آباءهم بالفعل ، وإنما المراد منها : أيتبعون آباءهم لذواتهم كيفما كان حالهم حتى لو كانوا لا يعقلون ولا يهتمون ؟ كانه يقول ان اتباع الشخص لذاته منكر لا ينبغي ، وهذا قول مألوف ، فمن يقول أنا أتبع فلان في كل ما يعمل ، يقال انه أتبعه ولو كان لا يعمل خيراً ؟ أي ان من شأن من يتبع آخر لذاته لالكونه محسناً . ومصيباً أن يتبعه في كل شيء . وإن كان كل عمله باطلاً ، لانه لا يفرق بين الحق والباطل . والخير والشر إلا من ينظر ويميز ، وهذا لا يتبع أحداً لذاته كيفما كان حاله .

(١٧١) وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ

إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً ، صُمُّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ

بعد ما بين تعالى فساد ما عليه المقلدون من اتباع ما وجدوا عليه آباءهم من غير نظر ولا استدلال ، ضرب لهم مثلاً زيادة في تقييد شأنهم ، والزرارية عليهم ، بقوله ﴿ ومثل الذين كفروا ﴾ أي صفتهم في تقليدهم لا بأبائهم ورؤسائهم ﴿ كمثل الذي ينق بما لا يسمع إلا دعاءاً ونداءاً ﴾ أي كصفة الراعي للبهائم

السائمة ينفق ويصيح بها في سوقها إلى المرعى ودعوتها إلى الماء وزجرها عن الحى . فتجيب دعوته وتنزجر بزجره بما ألفت من نفاقه بالسكرار . شبه حالهم بحال الغنم مع الراعي يدعوها فتقبل ، وبزجرها فتزجر ، وهي لا تعقل مما يقول شيئاً ، ولا تفهم له معنى ، وإنما تسمع أصواتا تقبل لبعضها وتدبر للآخر بالتعويد ، ولا تعقل سبباً للاقبال ولا للدابر . ومعنى المثل هنا كما قال سيديويه أن صفة الكفار وشأنهم كشأن الناعق بالغنم ولا يقتضي هذا أن يكون كل جزء من المشبه كقابلة من المشبه به ، وهو ما سماه علماء البيان بعد سيديويه بالتمثيل ، وفرقوا بينه وبين تشبيه متعدد بمتعدد . والكفر جحود الحق والاعراض عن النظر في الدلائل عليه عند الدعوة اليه ، وفرق بينه وبين الضلال ، فإن الضال من أخطأ طريق الحق مع طلبه ، أو جهله فلم يعرفه بنفسه ولا بدلالة غيره . وأما الكافر فهو يرى الحق ويعرض عنه ، وبصرف نفسه عن دلائله وآياته فلا ينظر فيها ، فهو كالحيوان يرضى بأن لا يكون له فهم ولا علم ، بل يقوده غيره ويصرفه كيف شاء ، فهو مع من قلد من الرؤساء كالغنم مع الراعي تقبل بدعائه وتنزجر بندائه ، مسخرة لأرادته وقضائه ، ولا تفهم لماذا دعا ولماذا زجر ، فدعوتها إلى الرعى وإلى الذبح سواء ، وكذلك شأن كل من يسلم اعتقاداً بلا دليل ، ويقبل تمكليفاً بغير فقه ولا تعاليل

والآية صريحة في أن التقليد بغير عقل ولا هداية هو شأن الكافرين ، وأن المرء لا يكون مؤمناً إلا إذا عقل دينه وعرفه بنفسه حتى اقتنع به . فمن ربي على التسليم بغير عقل ، والعمل - ولو صالحاً - بغير فقه ، فهو غير مؤمن ، لأنه ليس القصد من الإيمان أن يذلل الإنسان للخير كما يذلل الحيوان ، بل القصد منه أن يرتقي عقله وتزكى نفسه بالعلم بالله والعرفان في دينه ، فيعمل الخير لأنه يفقه أنه خير النافع المرضي لله ، ويتروك الشر لأنه يفهم سوء عاقبته ودرجة مضرته في دينه ودنياه ، ويكون فوق هذا على بصيرة وعقل في اعتقاده ، فلا يأخذه بالتسليم لأجل آباءه وأجداده ولذلك

وصف الله الكافرين بعد تقرير المثل بانهم ﴿ صم ﴾ لا يسمعون الحق سماع تدبر وفهم

﴿ بكم ﴾ لا ينطقون به عن اعتقاد وعلم ﴿ عمي ﴾ لا ينظرون في آيات الله في أنفسهم

وفي الآفاق حتى يقين لهم انه الحق ﴿ فهم لا يعقلون ﴾ مبدأ ما هم فيه ولا غايته كما يطلب من الانسان ، وانما ينفقون لغيرهم كما هو شأن الحيوان ولذلك اتبعوا من لا يعقلون ولا يهتدون ، فلما قل لا يقلد عاقلاً مثله ، فاجدر به أن لا يقلد جاهلاً ضالاً هو ودونه .

(١٧٢) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ
وَأَشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (١٧٣) إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ
الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخَازِيرِ وَمَا أَهْلَ بِهِ لغيرِ اللَّهِ ، فَمَن اضْطُرَّ
غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ

بين الله تعالى حال الذين يتخذون الانداد من دونه وأشار إلى أن سبب ذلك حب الخطام ، وارتباط مصالح المرءوسين بمصالح الرؤساء في الرزق والجاه ، وخاطب الناس كلهم بأن يأكلوا مما في الارض إذ أباح لهم جميع خيراتها وبركاتها بشرط أن تكون حلالاً طيباً . وبين سوء حال الكافرين المقلدين الذين يقودهم الرؤساء كما يقود الراعي الغنم لانهم لا استقلال لهم في عقل ولا فهم - ثم وجه الخطاب إلى المؤمنين خاصة لانهم أحق بالفهم ، وأجدر بالعلم ، وأحرى بالاهتمام ، فقال

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ الامر هنا للوجوب لا للإباحة والطيبات ما طاب كسبه من الحلال ، ويستلزم عدم تحريم شيء منها والامتناع عنها تديناً لتعذيب النفس ، وهذا تنبيه بعد ما تقدم إلى عدم الالتفات إلى أولئك الحمقى الذين أبيحت لهم خيرات الارض فطفقوا يحلون بعضها ويحرمون بعضاً بوصاوس شياطينهم وتقاليد رؤسائهم ، وأعطوا مبراراً يميزون به الخواطر الشيطانية الضارة من غيرها ، فما أقاموا به ولا له وزناً ، وبين لهم الحرام من الحلال ، ولكنهم نفضوا أيديهم من عز الاستقلال بالاستدلال ، وهون عليهم التقليد ذل القيود والاعلال ، فهو يقول كلوا من هذه الطيبات ولا تضيقوا على أنفسكم مثلهم ﴿ واشكروا لله ﴾ الذي خلقها لكم وسهل عليكم أسبابها ، بأن

تتبعوا سنته الحكيمة في طلب هذه الطيبات واستخراجها ، وفي استعمالها فيما خلقت لاجله ، وبإثناء عليه جل جلاله وعم نواله ، واعتقاد أن هذه الطيبات من فضله وإحسانه ، ليس لمن اتخذوا أنداداً له تأثير فيها ، ولذلك قال ﴿ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ أي إن كنتم تخلصونه بالعبادة ، وتؤمنون بانفراده بالسلطة والتدبير ، فاشكروا له خلق هذه النعم وإباحتها لكم ، ولا تجعلوا له أنداداً تطلبون منهم الرزق أو ترجعون اليهم بالتحليل والتحريم ، فإن ذلك له وحده ، وإلا كنتم مشركين به ، كافرين بنعمه ، كالذين من قبلكم جهلوا معنى عبادة الله تعالى فاتخذوا بينهم وبينه وسطاء في طلب الرزق ، ورؤساء يشرعون لهم من الدين ما لم يشرعه ، ويحولون لهم ويحرمون عليهم ما لم يشرعه لهم . ومن الشكر له تعالى استعمال القوى التي غذيت بتلك الطيبات في نفع أنفسكم وأمتكم وجنسكم . وليس من الطيبات ما يأخذ شيوخ الطريق من مريدتهم بل هو من الخبائث والسحت

الاستاذ الامام : لا يفهم هذه الآية حق فهمها الا من كان عارفا بتاريخ المل عند ظهور الاسلام وقبله ، فان المشركين وأهل الكتاب كانوا فرقا وأصنافا ، منهم من حرم على نفسه أشياء معينة بأجناسها أو أصنافها كالبحيرة والسائبة عند العرب ، وبعض الحيوانات عند غيرهم ، وكان المذهب الشائع في النصراني أن أقرب ما يتقرب به الى الله تعالى تعذيب النفس واحتقارها وحرمانها من جميع الطيبات المستلذة ، واحتقار الجسد ولوازمه ، واعتقاد أن لاهية الروح الا بذلك ، وأن الله تعالى لا يرضى منا الا احياء الروح . وكان الحرمان من الطيبات على أنواع منها ما هو خاص بالقديسين ، أو بالرهبان والقديسين ، ومنها ما هو عام كأنواع الصوم الكثيرة كصوم العذراء وصوم القديسين ، وفي بعضها يحرمون اللحم والسمن دون السمك ، وفي بعضها يحرمون السمك واللبن والبيض أيضا . وكل هذه الاحكام والشرائع قد وضعها الرؤساء وليس لها أثر ينقل عن التوراة أو عن المسيح عليه السلام ، وبذلك كانوا أنداداً ، ونزل في شأنهم (٩ : ٣١) اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله) وتقدم بيان ذلك (١) وقد سرت (١) وسيأتي تفصيل له في تفسير هذه الآية من سورة براءة (التوبة)

اليهم هذه الاحكام بالوراثة عن آباؤهم الوثنيين الذين كانوا يحرمون كثيرا من الطيبات ويرون أن التقرب الى الله محصور في تعذيب النفس وترك حظوظ الجسد ، اذ رأوا في دينهم وفي سيرة المسيح وحواريه من طلب المبالغة في الزهد ما يؤيدها وقد تفضل الله تعالى على هذه الامة بجعلها أمة وسطا تعطي الجسد حقه والروح حقا كما تقدم في تفسير (وكذلك جعلناكم أمة وسطا) فأحل لنا الطيبات لتتسع دائرة نعمه الجسدية علينا ، وأمرنا بالشكر عليها ليكون لنا منها فوائد روحانية عقلية ، فلم نكن جثمانين محضا كالانعام ، ولا روحانيين خلصا كالملائكة ، وإنما جعلنا أناسا كماله ، بهذه الشريعة المعتدلة ، فله الحمد والشكر والثناء الحسن ظهر بهذا التقرير أن الآية متصلة بما قبلها ومتمة له . وقال بعض المفسرين بوله وجه فيما قال : ان ما تقدم من أول السورة الى ما قبل هذه الآية كله في القرآن والرسالة وأحوال المنكرين للداعي ، وما جاء فيها من الاحكام فانما جاء بطريق العرض والاستطراد ، وهذه الآية ابتداء قسم جديد من الكلام ، وهو سرد الاحكام ، فانه يذكر بعدها أحكام محرمات الطعام وأحكام الصوم والحج والقصاص والوصية والنكاح والطلاق والرجعة والعدة والايلاء والرضاع وغير ذلك ، وبتمهي هذا القسم بما قبل قوله تعالى (ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم) الآية ولا غرو فان بين كل قسم وآخر في القرآن من التناسب مثل ما بين كل آية وأخرى في القسم الواحد (كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير)

بعد ذكر إباحة الطيبات ذكر المحرمات فقال تبارك اسمه ﴿ إنما حرم عليكم الميتة ﴾ هذا حصر لمحرمات الطعام من الحيوان بصيغة « إنما » الدالة على ماسبق الاعلام به وهو آية سورة الانعام التي ورد فيها حصر التحريم في هذه الاربعة بصيغة الاثبات بعد النفي . وإنما حرم الميتة لما في الطبايع السليمة من استقذارها ، ولما يتوقع من ضررها ، فانها إما ان تترك ماتت بمرض سابق أو بعلة عارضة ، وكلاهما لا يؤمن ضرره ، لان المرض قد يكون معديا ، والموت الفجائي يقتضي بقاء بعض الاشياء الضارة في الجسم كالكربون الذي يكون سبب الاختناق هذا ما قاله الاستاذ الامام ويزاد

عليه عدم القصد الى إمامتها بعمل الانسان وهو سبب الفرق بين الخنوقة والمنخقة التي هي في معنى الميتة ختف انفاً ، ولذلك كان في معنى الميتة كل ما زالت حياته بغير قصد الذكاة كالمنخقة والموقوذة الى آخره* ما ذكر في آية المائدة ﴿والدم﴾

أي المسفوح كافي آية الانعام ، فانه قدر لا طيب وضار كالميتة ﴿ولحم الخنزير﴾ فانه قدر ، لان أشهى غذاء الخنزير اليه القاذورات والنجاسات ، وهو ضار في جميع الاقاليم ولا سيما الحارة كما ثبت بالتجربة ، وأكل لحمه من أسباب الدودة الوحيدة

القتالة ويقال إن له تأثيراً سيئاً في العفة والغيرة ﴿وما أهل لغير الله به﴾ وهو ما يذبح ويقدم للاصنام أو غيرها مما يعبد . والمنع من هذا ديني محض لحماية التوحيد ، لانه من اعمال الوثنية ، فكل من أهل لغير الله على ذبيحة فانه يتقرب الى من أهل باسمه تقرب عبادة ، وذلك من الاشراك والاعتماد على غير الله تعالى

وقد ذكر الفقهاء ان كل ما ذكر عليه اسم غير الله ولو مع اسم الله فهو محرم ، وعد منه الاستاذ الامام مايجري في الارياض كثيراً من قولهم عند الذبح — لا سيما ذبح المنذور — بسم الله ، الله أكبر ، يا سيد . يدعون السيد البدوي

أن يلتفت اليهم ويتقبل النذر ويقضي حاجة صاحبه (قال) وكيفما أولته فهو محرم . ومثل ذكر السيد ذكر الرسول أو المسيح إذ لا يجوز أن يذكر عند الذبح غير اسم النعم بالهيمه المبيع لها ، فهي تذبح وتؤكل باسمه لا يشاركه في ذلك سواء ، ولا يتقرب بها إلى من عداه ، ممن لم يخلق ولم ينعم ولم يبيع ذلك لانه غير واضع للدين

﴿فن اضطر﴾ الى الاكل مما ذكر بأن لم يجد مايسد به ريقه سواء ﴿غير باغ﴾

له أي غير طالب له ، راغب فيه لذاته ﴿ولا عاد﴾ متجاوز قدر الضرورة ﴿فلا اثم عليه﴾ لان الإلقاء بنفسه إلى التهلكة بالموت جوعاً أشد ضرراً من أكل الميتة أو الدم أو لحم الخنزير ، بل الضرر في ترك الاكل محقق ، وهو في فعله مظنون ، وربما كانت شدة الحاجة إلى الاكل مع الاكتفاء بسد الريق مانعة من الضرر . وأما ما أهل

*) بينا شرح هذا بدليله وحكمته في المجلد السادس من المنار ثم فصلنا الموضوع كله أتم التفصيل في تفسير آية المائدة (٥ : ٣) حرمت عليكم الميتة من الجزء السادس

به لغير الله فمن أكل منه مضطراً فهو لا يقصد إجازة عمل الوثنية ولا استحسانه
﴿إن الله غفور رحيم﴾ إذ حرم على عباده الضرر، وجعل الضرورات بقدرها، لينتفي
الحرج والعسر عنهم، ووكل تحديدها إلى اجتهادهم، فهو يغفر لهم خطأهم فيه لتعذر ضبطه
وفسر الجلال كلمة (باغ) بالخارج على المسلمين، و (عاد) بالمعتدي عليهم بقطع
الطريق (قال) ويأحق بهم كل عاص بسفوره كالأبق والمكاس وعليه الشافعي .
قال الاستاذ الامام : ولا خلاف بين المسلمين في أن العاصي كغيره يحرم عليه إلقاء
نفسه في التهلكة ، ويجب عليه توقي الضرر ، ويجب علينا دفعه عنه إن استطعنا ،
فكيف لا تتناولوا إباحة الرخص . ثم إن المناسب للسياق ان تحدد الضرورة التي
تجيز أكل المحرم وتفسير الباغي والعادي بما ذكرنا هو المحدد لها ، وهو موافق
للغة كقوله تعالى حكاية عن أخوة يوسف (ما نبغي) وفي الحديث الصحيح
« يا باغي الخير هلم » وفي التنزيل (ولا تعد عيناك عنهم) أي لا تتجاوزهم إلى
غيرهم . فالكلام في تحديد الضرورة وتام بيان حكم ما يحل ويحرم من الأكل ،
لا في السياسة وعقوبة الخارجين على الدولة والمؤذين للامة ، وإنما كان هذا التحديد
لازماً لئلا يتبع الناس أهواءهم في تفسير الاضطراب اذا هو وكل اليهم بلا حد
ولا قيد ، فيزعم هذا أنه مضطر وليس بمضطر ، ويذهب ذلك بشهوته الى ما وراء
حد الضرورة ، فعلم من قوله (غير باغ ولا عاد) كيف تقدر الضرورة بقدرها ،
والاحكام عامة يخاطب بها كل مكلف لا يصح استثناء أحد الا بنص صريح
من الشارع . ويذكر بعض المفسرين في هذا المقام مسائل خلافية في الميتة كحل
الانتفاع بجلدها وغير ذلك مما ليس بأكل ، وقد قلنا اننا لا نتعرض في بيان القرآن
الى المسائل الخلافية التي لا تدل عليها عبارته إذ يجب أن يبقى دائماً فوق كل خلاف
هذا ملخص ما قاله الاستاذ الامام في الدرس ، واقتصرت عليه في الطبعة
الاولى وقرأه ووفيا . وأقول الآن انه رحمه الله كانت خطته الغالبة فيه ترك ذكر
المسائل الخلافية التي لا يدل عليها القرآن ، وهذا غير الخلاف في مدلول عباراته كما
هنا ، وربما يكون ذكر الخلاف وسيلة الى بيان كونه فوق كل خلاف
وقد زاد المفسرون على هذه المحرمات تبعاً لفقهاءهم محرمات اخرى استدلو

عليها بأحاديث آحادية في دلالتها نظر وبعموم تحريم الخبائث وهي معارضة بما في هذه الآية وغيرها من الحصر . وقد حقت هذه المسألة في تفسير (٦: ١٤٥) قل لا أجد فيما أوحى إلي محرماً على طاعم) إلخ وفندت ما قيل في تأويلها بما ظهر به أن القرآن فوق كل خلاف^(١)

ومن مباحث البلاغة في الآية أن ذكر (غفور) له فيها نكتة دقيقة لا تظهر إلا لصاحب الذوق الصحيح في اللغة ، فقد يقال إن ذكر وصف الرحيم ينبغي بأن هذا التمشيع والتخفيف بالرخصة من آثار الرحمة لاهية . وأما الغفور فأنما يناسب أن يذكر في مقام الغفو عن الزلات والتوبة عن السيئات . والجواب عن هذا أن ما ذكر في تحديد الاضطراب دقيق جداً ومرجعه إلى اجتهد المضطر ويصعب على من خارت قواه من الجوع أن يعرف القدر الذي يمك الرمح ويقي من الهلاك بالتدقيق وأن يقف عنده ، والصادق الايمان يخشى أن يقع في وصف الباغي والعادي بغير اختياره ، فالله تعالى يبشره بأن الخطأ المتوقع في الاجتهاد في ذلك مغفور له مالم يعتمد تجاوز الحدود . والله أعلم

(١٧٤) إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابِ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ (١٧٦) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ

(١) ومن عجائب الجهل أن أحد كبار علماء الأزهر استدل في هذه الايام بمفهوم المخالفة في الآية على جواز دعاء غير الله والاستغاثة بالموتى لجلب النفع ودفع الضرر أي زعم أنها تدل على جواز الشرك بالله سبحانه ، وتزيتها لكتابته عن ذلك !!

هذه الآيات متصلة بما قبلها على كلا الوجهين السابقين: فإذا كان الكلام لا يزال في محاجة اليهود ومثالمهم فالامر ظاهر، وإذا قلنا ان الكلام قد دخل في سرد الاحكام، تكون مقررة لحكم منها وهو ظاهر أيضا، فقد تقدم ان قوله تعالى (يا أيها الناس كلوا مما في الارض) تقرير لحكم في الاكل على خلاف ما عليه أهل الملل، وبيننا ما كان عليه أهل الكتاب والمشركون في الاكل، ونقض القرآن لما وضعوه لانفسهم من أوهاق الاحكام وإباحته الطيبات للناس بشرط أن يشكروه عليها، وعلى هذا تكون هذه الآيات جارية على الرؤساء الذين يحرمون على الناس ما لم يحرم الله ويشرعون لهم ما لم يشرعه، من حيث يكتمون ما شرعه بالتأويل أو الترك، فيدخل فيه اليهود والنصارى ومن هذا حذوهم في شرع ما لم يأذن به الله وإظهار خلافه، سواء كان ذلك في أمر العقائد ككتمان اليهود أو صاف النبي ﷺ أو الاكل والتعشف وغير ذلك من الاحكام التي كانوا يكتُمونها إذا كان لهم منفعة في ذلك كما قال تعالى (تجملونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا) وفي حكمهم كل من يبدي بعض العلم ويكتُم بعضه لمنفعته، لا لإظهار الحق وتأييده، وهذا هو ما عبر عنه بقوله ﴿ان الذين يكتُمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمنا قليلا﴾ أي الذين يخفون شيئا مما أنزل الله من كتابه فلا يبلغونه للناس مهما يكن موضوعه، أو يخفون معناه عنهم بتأويله أو تحريفه أو وضع غيره في موضعه برأيهم واجتهادهم، ويستبدلون بما يكتُمونه ثمنا قليلا من متاع الدنيا الغاني كالرشوة والجدل على الفتاوى الباطلة أو قضاء الحاجات عند الله تعالى وغير ذلك من المنافع الموقته إذ اتخذوا الدين تجارة. والتمن القليل منه ما قاله المفسر من استفادة الرؤساء من المرءوسين ومنه عكسه كما تقدم غير مرة.

(قال شيخنا) هذا النوع من البيع والشراء في الدين عام في الرؤساء الضالين من جميع الامم. ومنه ما كان رؤساء اليهود يلاحظونه زمن التنزيل وهو حفظ ما يبدعهم الذي يتوهمون أنه يفوتهم بترك ما هم عليه من التقاليد واتباع ما أنزل الله بدلا منها، وهذا هو شأن الناس في كل دعوة إلى إصلاح جديد غير ما هم فيه، وإن كان يعدهم بخير منه في الدنيا والآخرة، وكان ما هم فيه هو الفقر والذل والخذلان حاضرة أو منتظرة

ماذا كان شأن اليهود في زمن البعثة ؟ ذل واضطهاد من جميع الأمم ولا سيما النصارى، فقد كانوا يسومونهم سوء العذاب، ومنعواهم من دخول مدينتهم المقدسة وأكروهم في بعض البلاد على التنصر

ماذا كان شأن النصارى في زمن البعثة ؟ فقر حاضر ، وذل غالب ، وحجر على العقول، ومنع للحرية في الرأي والعلم ، وتحكم في الارادة ، وسيطرة على خطرات القلوب وأهواء النفوس كان هذا عاماً في كل قطر وكل مملكة ، وكان بين الطوائف بعضها مع بعض هروب تشب، وغارات تشن، ودماء تسفك، وحقوق تنتهك ، وكانوا على هذا كله يتوهمون أن الاسلام سيخرجهم من سعادة إلى شقاء ، ومن نعمة إلى بلاء، هب أن بعضهم كان له شيء من المال ، وبقية من الجاه ، أليس هو من خفخة الدنيا الزائلة ، ألم يكن منفصلاً بالخوف عليه والمنازعة فيه ؟ هب انه كان لبعض شعوبهم طائفة من القوة ، ألم تكن تشبه الزبعة تصف ولا تلبث أن تزول ؟ نعم ان ما كان يفر هؤلاء وهؤلاء لم يكن موضعاً للفرور ، لانه متاع حقير ، وثمر قليل ، وهو غير قائم على أساس ثابت ، ولذلك زال بظهور الاسلام وانتشاره ، وتقوضت تلك السطة ، واندكت صروح تلك العظمة ، وأجلي اليهود من جزيرة العرب ، وزال ملك غيرهم من كل بلاد رفضوا فيها دعوة الاسلام . وهذا شأن الباطل لا يثبت أمام الحق ، فان أحكام الباطل مؤقتة لا ثبات لها في ذاتها ، وإنما يتأوها في نوم الحق عنها ، وحكم الحق هو الثابت بذاته ، فلا يغلب أنصاره ماداموا معتصمين به ، مجتمعين عليه

وقال المفسرون ان هذا الحكم يصدق على المسلمين كما يصدق على أهل الحساب لان الغرض تقرير الحكم وهو عام كما يدل لفظه، وكما يليق بعبد الله تعالى رب العالمين ، وكما هو ظاهر معقول من اطراد سنة الله تعالى في تأييد أنصار الحق وخذل أهل الباطل فانها واضحة جلية للمتأملين

كل ثمن يؤخذ عوضاً عن الحق فهو قليل : إن لم يكن قليلاً في ذاته فهو قليل في جنب ما يفوت آخذه من سعادة الحق الثابتة بذاتها، والدائمة بدوام المحافظة على الحق . ولو دام للمبطل ما يشتمع به من ثمن الباطل الى نهاية الاجل - وما هو إلا

(البقرة: من ٢) ظهور المسلمين على مناوئي دعوة الاسلام لا على كل مقاتليهم ١٠٢

قصير - فاذا يفعل وقد فاتته بذلك سعادة الروح ونعيم الآخرة باختياره الباطل على الحق (وما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل)

قد يعترض الناظر في التاريخ ما قرره الاستاذ الامام في هذا المقام من ذهاب عز الذين قاوموا دعوة الاسلام وكتبوا الحق من اليهود والنصارى بان عيشة اليهود كانت بعد الاسلام خيراً منها قبله ، لانهم كانوا مضطهدين مقهورين بحكم النصارى الشديد وتعصبهم الفاحش ، فساوى الاسلام بينهم وبين النصارى والمسلمين ، وعطاهم كمال الحرية في دينهم ودنياهم فحسنت حالهم في الشرق والغرب وكثر ما بأيديهم ولم يقل . وان المسلمين لم يقووا على جميع نصارى أوروبا فبقي لكثير من الممالك سلطانها وما تمتع به . وكذلك بعض الممالك الوثنية وهم أعرق في الباطل من النصارى والجواب عن ذلك ان يهود الحجاز هم الذين كانوا يؤذون النبي ﷺ ويكتمون ما عرفوا من نفعه ويظاهرون المشركين عليه ، فهم الذين قاوموا الحق بالباطل ، فلقوا جزاءهم الذي تم بجلائهم من جزيرة العرب أو الحجاز . وأما يهود سورية وغيرها (كالاندلس) فقد كانوا يساعدون الدعوة الاسلامية ودعاتها حتى لم يؤمن منهم ليخلصوا من ظلم النصارى واستبدادهم فيهم ، فنالوا من حسن الجزاء بمقدار قربهم من الحق ، ولو آمنوا وقبلوا الحق كله وايدوه لذاته ظاهراً وباطناً لأوتوا أجرهم مرتين ، وجزاءهم ضعفين ، وكانوا أئمة وارثين ، وسادة عالين وأما الذين سلم لهم ملكهم ومتاعهم فلم يكن لهم ذلك بضعف حق الاسلام عن باطلهم ، فان الذين حاولوا فتح ما وراء الاندلس من أوروبا لم يكن غرضهم كلهم نشر دعوة الحق وإنما كان غرضهم عظمة الملك والغنائم - وليس من الحق ان يعتدي قوم على قوم لاجل سلب مافي أيديهم ، فان المعتدي مبطل ، والمدافع محق في الدفاع عن نفسه وبلاده ، وإن كان مبطلا في عمله واعتقاده ، فهو جدير بأن يكون له الظفر إذا أخذ له اهبتة ، وأعد له عدته . وقس على هذا سائر الممالك التي لم يقو المسلمون عليها بعد ترك الدعوة لاجل الهداية . والاسلام لا يبيح الحرب لذاتها وقد حرم الاعتداء ، وإنما يوجب تعميم الدعوة الى الحق والخير فمن عارضها وجب جهاده عند القدرة ، حتى يقبلها أو يكون لاهلها السلطان الذي يتمكنون به من نشرها بدون معارض -

أي انه يوجب الجهاد ما دام الناس يفتنون في الدين - أي لا تسكون لهم حرية فيه ولا في الدعوة اليه - أو يعتدى عليهم وعلى بلادهم (وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تمدوا إنا لله لا يحب المعتدين - وقاتلوهم حتى لا تسكون فتنة) وسيأتي تفسيرها قريباً

﴿ أولئك ما يأكلون في بطونهم إلا النار ﴾ أي أولئك السكّامون لكتاب الله والمتجرون به ما يأكلون في بطونهم من ثمنه الا ما يكون سبباً لدخول النار وانتهاك مطامعهم بعذابها ، وهذا أظهر من القول بانهم لا يأكلون في دار الجزاء إلا النار أو طعام النار من الضريع والزقوم ، وعبر عن المنافع بالاكل لانه اعم ، والمعنى لا تملأ بطونهم إلا النار ، فان الاكل لما كان لا يكون إلا في البطن كان لا بد من نكتة لذكر البطن إذا قيل أكل في بطنه ، ورأيانهم يعبرون بذلك عن الامتلاء ، يقولون أكل في بطنه يريدون ملاً بطنه ، والأصل ان يأكل الانسان دون امتلاء بطنه . والمراد انه لا يشبع جشعهم ، ولا يذهب بطمعه ، إلا النار التي يصيرون اليها ، على حد ما ورد في الحديث « ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب » واستشهدوا للتعبير باكل النار عن سبب عذابها بقول القائل في زوجه :

دمشقُ خذنيها لا تفتك فليلاً تمر بنودي ندمها ليلة القدر
أكلتُ دماً إن لم أرعك بضرة بعيدة مهوى القرط طيبة النشر

فانه يريد بالدم الدية التي هو سببها - وأكلها عار عندهم - فهو يدعو على نفسه بان يبتلى بأكل الدية إن لم يرع زوجه ويزعجها بضرة هي من الجمل بالصفة التي ذكرها ، وأكل الدية يتوقف على أن يُقتل بعض أهله الذين له الولاية عليهم . قال تعالى ﴿ ولا يكلمهم الله يوم القيامة ﴾ قالوا ان الكلام كناية عن الاعراض عنهم والغضب عليهم وهي كناية مشهورة شائعة الى اليوم . وجعوا بهذا بين الآيتين قوله تعالى (فوربك لنسألنهم أجبين) وقوله (فلنسألن الذين أرسل اليهم) - وقيل لا يكلمهم بما يحبونه ﴿ ولا يزكهم ﴾ أي لا يطهرهم من ذنوبهم بالمغفرة والعفو وقد ماتوا وهم مصررون على كفرهم ﴿ ولهم عذاب أليم ﴾ أي شديد الالم

ثم قال فيهم ﴿أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى﴾ أي أولئك الذين يكتمون ما أنزل الله الخ أو المجزيون عليه بما ذكرهم الذين اشتروا الضلالة بالهدى في الدنيا ، فاما الهدى فهو كتاب الله وشرعه (ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين) وأما الضلالة فهي العماية التي لا يهتدي بها الانسان لمقصده ، وتكون باتباع الهوى وآراء الناس في الدين ، وليس لأحد أن يقول في الدين برأيه . وهذه الآراء لا ضابط لها ولا حد ، فأهلها في خلاف وشقاق دائم كاسيا أي فمن أجاز لنفسه اتباع أقوال الناس في الاعتقاد والعبادة وأحكام الحلال والحرام فقد ترك الهدى الواضح المبين الذي لا خلاف فيه ، وصار إلى تيه من الآراء مشبهة بالإعلام ، يضل به الفهم ، ولا يهتدي فيه الوهم ، وذلك عين اتباع الهوى ، وشرء الضلالة بالهدى ، فإن الله وحده هو الذي يبين حدود العبودية ، وحقوق الربوبية ، فلا هداية إلا بفهم ما جاء به رسله عنه ﴿والعذاب بالمغفرة﴾ أي واشتروا العذاب بالمغفرة في الآخرة ، وهذا أثر ما قبله فإن متبع الهدى هو الذي يستحق المغفرة لما يفرط منه وما يلم هو به من السوء ، ومتبع الضلال هو المستحق للعذاب ، ومن دعي إلى الحق يعرف هذا ، فإذا هو اختار الضلالة بعد صحة الدعوة وقيام الحجة فقد اشترى العذاب بالمغفرة ، وكان هو الجاني على نفسه ، إذ استبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير ، غرورا بالعاجل ، واستهانة بالآجل ﴿فما أصبرهم على النار﴾ أي أن صبرهم على عذاب النار الذي تعرضوا له مثار العجب ، ذلك بأن عماهم الموصوف في الآيتين هو العمل الذي يسوقهم إلى عذاب النار ، فتعوكهم فيه إنما هو تهوك من لا يبالي به ، كأنه مما يطيقه ويمكنه الصبر عليه ، فلا يترك ضلالته . نقاء له . وصيغة التعجب قالوا يراد بها تعجب الناس من شأنهم اذ لا تتصور حقيقة التعجب من الله تعالى اذ لا شيء غريب عنده عز وجل ولا مجهول سببه ، وهو العالم بظواهر الاشياء وخوافها ، وحاضرها عنده كاضئها وآتيها (لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الارض) والصبر على النار غير واقع منهم فيتعجب منه حالا ، ولا متوقع فيتعجب منه مآلا ، فلا صبر هنالك يتعجب منه ، وإنما حالهم في تهوكهم وانما هم في العيش بدين الله هو الذي جعل موضع التعجب للتنفير والتشنيع عليهم .

ولكن صح في الحديث اسناد العجب الى الله تعالى وطريقة السلف في مثله ان يقال عجب يليق به ليس كمعجب البشر مما يكبرون أمره ويجهلون سببه، ويتأوله إلا كثرون بالرضى من المتعجب منه

وقال الاستاذ الامام في العبارة ما معناه . بـسوطا : ان الكلام في أكلهم النار . والمعجب من صبرهم على النار هو تصوير الحالم وتمثيل لما لهم . أما الثاني فظاهر . وأما الاول فيتمثل لك اذا تمثلت حال قوم عندهم كتاب يؤمنون أنه من الله ، ويؤمنون بلفاء الله ، وقد كتبوا ما أنزل الله فيه بالتحريف والتأويل كما فعل اليهود بكتبان وصف الرسول ، وهم يقارعون بالدلائل العقائية ، ويذكرون بآيات الله وأيامه ، فيشعرون بمجاذيب متعاكسين : جاذب الحق الذي عرفه ، وجاذب الباطل الذي ألفوه ، ذلك يحدث لهم هزة وتأثيراً ، وهذا يحدث لهم استكباراً ونفوراً ، وقد غلب عقولهم ما عرفوا ، وغلب قلوبهم ما ألفوا ، فثبتوا على ما عرفوا وانحرفوا ، وصاروا إلى حرب عوان ، بين العقل والوجدان ، يتصورون الخطر الآجل ، فيتنفص عليهم التلذذ بالعاجل ، ويتذوقون حلاوة ما هم فيه ، فيؤثرونه على ما سيصبرون اليه . أليس هذا الشعور بخذل الحق ونصر الباطل ، واختيار ما ينقى على ما يبقى ، ناراً تشب في الضلوع ؟ أليس ما يأكلونه من نعم الحق ضريعاً لا يسمن ولا يغني من جوع ؟ بلى فإن عذاب الباطن أشد من عذاب الظاهر ، كما يومئ اليه قول الشاعر :

دخول النار لهم جور خير من الهجر الذي هو يتيمة

لان دخوله في النار أدنى عذاباً - من دخول النار فيه

فهذا تاويل وجيه لأكلهم النار وللمعجب من صبرهم على النار ، نزل به الوحي الالهي وظهر على لسان الرسول ﷺ وان أرباب الارواح العالمة ، والمرائي الصافية ، تتمثل لهم المعاني بأنهم ما تتمثل به لسائر الارواح المحجوبة بالظواهر ، المخدوعة بالمظاهر ، التي يصر فيها الاشتغال بالحس ، من معرفة مراتب النفس . فلا غرو إذا

(١) جمع مرآة بالسكسر وأصلها مرآة وجمعها مرآة كجوار قال في المصباح وجمعت على مرايا قال الازهري . وهو خطأ

تمثلت للنبي ﷺ حال أولئك الجاحدين للمعاندين الذين اشتروا الضلالة بالهدى،
وأتخذوا إلههم الهوى، ووثبوا الحق يقارعهم ويقارعونه، وناصبوا الدليل ينازعهم
وينازعونه، بحال الذي يتقحم في النار، ويكره نفسه على الاصطبار، كما يتمثل ذلك
التمن القليل الذي باعوا به الحق نارا يزدردونها، إذ كان آلاما يتحملونها، فكابرة
البرهان اشد العذاب عند العقلاء، ومحاربة القلب (الضمير والوجدان) أوجع
الآلام عند الفضلاء، فالعاقل يستطيع أن يمنع نفسه من أكثر اللذات الحسية، ولكنه
لا يستطيع أن يمنع عقله العلم وذهنه الفهم، فقد قيل (لديوجين) لا تسمع، فسد أذنيه،
فقبل له: لا تبصر، فأغض عينيه، فقبل له لا تذوق فقبل، فقبل له لا تفهم فقبل
لا أقدر. فلا غرو إذا مثلت للنبي حال أولئك المكابرين للحق بما ذكر وأظهرته
البلاغة بصيغة التعجب تارة وبصورة أكل النار تارة

قال تعالى في تمثيل ما ذكر ﴿ذلك﴾ بأن الله نزل الكتاب بالحق ﴿أي ذلك﴾
الحكم الذي تقرر في شأنهم هو بسبب أن الكتاب جاء بالحق والحق لا يغالب ولا
يقاوى، فمن غلبه غلب، ومن خذله خذل. ثم قال ﴿وان الذين اختلفوا في الكتاب﴾
لني شقاق بعيد ﴿أي﴾ وان الذين اختلفوا في الكتاب الذي نزل الله للحكم في
الخلاف وجمع الكلمة على اتباع الحق، لني شقاق وعداء بعيد عن سبيل الحق،
فأني يهتدون اليه، وكل منهم يخالف الآخر بما ابتدعه من مذهب أو رأي فيه.
حتى صار (أي الكتاب) وهو مزيل الاختلاف أعظم أسبابه، يطرق لأجل إزالته
والحكم فيه كل باب غير بابه؟ والشقاق الخلاف والتعادي وحقيقته أن يكون كل
واحد من الخصمين في شق أي في جانب غير الذي فيه الآخر، والمختلفون في الدين
ينأى كل بجانبه عن الآخر فيكون الشقاق بينها بعيداً كما ترى

هذا حكم آخر في الكتاب غير حكم كتمانها، فهو يفهمنا ان الاختلاف فيه بُعد
عن الحق ككتمانها، لان الحق واحد وهو ما يدعو اليه الكتاب، والمختلفون
لا يدعون إلى شيء واحد ولا يسلكون سبيلاً واحداً (أو أن صراطي مستقيماً فاتبعوه
ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله) وهذا دليل على انه لا يجوز لأهل الكتاب

الاهلي أن يقيموا على خلاف في الدين، ولا أن يكونوا شيعاً كل يذهب إلى مذهب (ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء) ولما كان اختلاف الفهم ضرورياً لانه من طبع البشر وجب عليهم أن يتحاكوا فيه الى الكتاب والسنة حتى يزول ولا يجوز ان يقيموا عليه (فان تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول) فلا عذر للمسلمين في الاختلاف في دينهم بعد هذا البيان الذي جعل كل مشكل مخرجة الشقاق أثر طبيعي للاختلاف، والاختلاف في الامة أثر طبيعي للتقليد والانتصار للرؤساء الذين اتخذوا أنداداً - ولو بدون رضاهم ولا إذنههم - إذ لولا التقليد لسهل على الامة أن ترجع في كل عصر أقوال المجتهدين والمستنبطين إلى قول واحد بعرضه على كتاب الله وسنة رسوله . مثال ذلك ان الكتاب والسنة صريحان في أن النكاح لا يصح إلا إذا تولى العقد ولي المرأة برضاها أو غيره باذنه وقد أجمع الصحابة على هذا عملاً، ونقل عن أعلمهم قولاً، ولم ينقل أحد فيه خلافاً صحيحاً، فإذا وجد للحنفية في المسألة قولان (أحدهما) مخالف للنصوص وهو أن للبالغة الراشدة ان تزوج نفسها (وثانيهما) انه ليس لها ذلك وهو الموافق للنصوص أفلم يكن من الواجب على المسلمين - وقد اختلف علماءهم في هذه المسألة - ان يعرضوها على الكتاب والسنة وإجماع الصحابة وسائر المجتهدين ، ويردوا الرواية المخالفة ويعملوا بالموافقة ؟ بلى ولكن التقليد ، هو الذي أوقعهم في الشقاق البعيد ويتوهم بعضهم أن ترك أقوال بعض الأئمة إهانة لهم ، وهذا غير صحيح بل هو عين التعظيم لهم، والاتباع لسيرتهم الحسنة . ولو فرضنا أنه إهانة - وكان يتوقف عليها اتباع هدى كتاب الله وسنة رسوله - أفلا تكون واجبة ويكون تعظيم الكتاب والسنة مقدماً عليه لان إهانتها كفر وترك الدين ؟ على أن ترك أقوال الأئمة واقع ماله من دافع، فان أتباع كل إمام تاركون لأقوال غيره المخالفة لمذهبهم ، بل مامن مذهب إلا وقد رجح بعض علمائه أقوال المخالفة لنص الامام ولا سيما الحنفية . هذا - وان الكتاب لا مثار فيه للخلاف والنزاع إذا صحت النية ، فكل من يتعلم العربية تعليماً صحيحاً وينظر في سنة النبي وسيرته وما جرى عليه السلف من أصحابه والتابعين لهم يسهل عليه أن يفهمه ، وما يختلف فيه الافهام لا يقتضي الشقاق

بل يسهل على جماعة المسلمين من أهل العلم والفهم أن ينظروا في الفهمين المختلفين وطرق الترجيح بينهما ، وما ظهر لكلهم أو أكثرهم انه الراجح يعتمدونه إذا كان يتعلق بمصاحبة الأمة والاحكام المشتركة بينها ، وما عساه ينفرد به بعض الافراد من فهم خاص بمعارفه يكون حجة عليه دون غيره ، فهو لا يقتضي شقاقا لان الشقاق فيه معنى المشاركة . والله أعلم وأحكم

وأزيد هذا إيضاح بما حققته في هذه المسألة بعد الطبعة الاولى لهذا الجزء . وهو أن ما كان قطعي الدلالة من النصوص فهو الشرع العام الذي يجب على جميع المسلمين اتباعه عملا وقضاء ، وإن ما كان ظني الدلالة فهو موكول إلى اجتهاد الافراد في التعبدات والمحرمات ، وإلى أولى الامر في الاحكام القضائية . وسنعود إلى بيان هذا في تفسير (يسألونك عن الخمر والميسر) من هذا الجزء

(١٧٧) لَيْسَ آبِرٌ أَنْ تُوتُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ
وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ
وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ
وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى
الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ
وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ

ادعى الجلال أن هذه آية نزلت الرد على النصارى الذين يولون وجوههم في صلاتهم قبل المشرق واليهود الذين يولونها قبل بيت المقدس . وهذا ادعاء لم يثبت والصحيح قريب منه وهو أن أهل الكتاب أكبروا أمر تحويل القبلة عن بيت المقدس إلى الكعبة كما تقدم في آيات التحويل وحكمه وطال خوضهم فيها حتى شغلوا المسلمين بها ، وغلا كل فريق في التمسك بما هو عليه وتنقيص مقابله كما هو شأن البشر في كل خلاف يثير الجدل والنزاع ، فكان أهل الكتاب يرون أن

الصلاة إلى غير قبلتهم لا تقبل عند الله تعالى ، ولا يكون صاحبها على دين الانبياء .
والمسلمون يرون ان الصلاة إلى المسجد الحرام هو كل شيء لأنه قبله ابراهيم وأول
بيت وضع لعبادة الله تعالى وحده — فأراد الله تعالى أن يبين للناس كافة أن مجرد
تولية الوجه قبله مخصوصة ليس هو البر المقصود من الدين ، ذلك ان استقبال الجهة
المعينة إنما شرع لاجل تذكير المصلي بالاعراض عن كل ما سوى الله تعالى في
صلاته والاقبال على مناجاته ودعائه وحده . وليكون شعارا لاجتماع الامة فتولية
الوجه وسيلة للتذكير بتولية القلب ، وليس ركناً من العبادة بنفسه ، وأن يبين لهم
اصول البر ومقاصد الدين فقل

ليس البر ان تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ﴿ قرأ حمزة وحفص
بنصب البر والباقون برفعه وكلاهما ظاهر — والبر بكسر الباء لغة التوسع في الخير
مشتق من البر بالفتح وهو مقابل البحر في تصور سعة كما قل الراغب — وشرعاً
ما يتقرب به إلى الله تعالى من الايمان والاخلاق والاعمال الصالحة . وتوجيه الوجوه
إلى المشرق او المغرب ليس هو البر ولا منه بل ليس في نفسه عملاً صالحاً كما تقدم
شرحه في آيات تحويل القبلة وأحلنا فيه على هذه الآية التي بين الله فيها محاسن البر

﴿ ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ﴾ قرأ الجمهور
لكن بالتشديد ونافع وابن عامر بالتخفيف أي ولكن جملة البر هو من آمن
بالله الخ وفيه الاخبار عن المعنى بالذات وهو معهود في الكلام العربي الفصيح ،
والقرآن جار على الاساليب العربية الفصحى ، لا على فلسفة النحاة وقوانينهم الصناعية ،
وبلاغة هذه الاساليب إنما هي في إيصال المعاني المقصودة إلى الذهن على أجلي وجهه يريد
التكلم وأحسن تأثير يقصده ، ومثل هذا التعبير لا يزال مألوفاً عند أهل العربية على
فساد ألسنتهم في اللغة ، يقولون : ليس الكرم أن تدعو الاغنياء والاصدقاء إلى
طعامك ولكن الكرم من يعطي الفقراء العاجزين عن الكسب . فالكلام مفهوم
بدون أن نقول ان معناه : ولكن ذا الكرم من يعطي أو لكن الكرم عطاء من
يعطي . وإنما نحن في حاجة إلى بيان النكتة في اختيار ذلك على قول : ولكن
البر هو الايمان بالله الخ وهذه النكتة مفهومة من العبارة فانها تمثل لك المعنى في

نفس الموصوف به فتفيدك أن البر هو الايمان وما يتبعه من الاعمال باعتبار اتحادها وتلبس المؤمن بالبرّيهما معا من حيث إن الايمان باعث على الاعمال وهي منبعثة عنه واثرة له تستمد منه وتمده وتنزيه ، أي أنها تمثل لك المعنى في الشخص ، او الشخص عاملا بالبر ، وهذا أبلغ في النفس هنا من إسناد المعنى الى المعنى ومن اسناد الذات الى الذات كما هو مذوق ومفهوم

ابتدأ بذكر الايمان بالله واليوم الآخر لانه اساس كل بر ، ومبدأ كل خير ، ولا يكون الايمان اصلا للبر الا اذا كان متمكنا من النفس بالبرهان ، مصحوبا بالخضوع والاذعان ، فمن نشأ بين قوم وسمع منهم اسم الله في حلقهم واسم الآخرة في حوارهم وقبل منهم بالتسليم أن له إلهاً وأن هناك يوماً آخر يسمى يوم القيامة وإن أهل دينه هم خير من أهل سائر الأديان ، فإن ذلك لا يكون باعثاً له على البر وإن زادت معارفه بهذه الالفاظ المسلمة ، فحفظ الصفات العشرين التي حدد بعض المتكلمين بها ما يجب اثباته لله تعالى عقلاً ، وأضدادها التي تستحيل عليه عقلاً ، وإن حفظ العقيدة السنوسية المسماة بأم البراهين أيضاً . ولقد كان أهل الكتاب الذين تبين لهم الآية خطأهم في فهم مقاصد الدين يؤمنون بالله واليوم الآخر ، ولكنهم كانوا بمعزل عن الاذعان والقيام بحقوق هذا الايمان من الاعمال والاولاف المذكورة في الآية

الايمان المطلوب معرفة حقيقة تملك العقل بالبرهان ، والنفس بالاذعان ، حتى يكون الله ورسوله احب إلى المؤمن من كل شيء ، ويؤثر أمرها على كل شيء . (٢٤: ٩) قل إن كان آباؤكم وأبناءكم وأخوتكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون سداها ومساكن ترضونها أحب اليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين) وايمان التقليد قد يفضل صاحبه حب كل واحد من هذه الامور على حب الله ورسوله

الايمان المطلوب معرفة تطمئن بها القلوب ، وتحمي بها النفوس ، وتخلص معها الوسواس ، وتبعد بها عن النفس الهواجس ، فلا تبطر صاحبها النعمة ، ولا تؤيسه النعمة (الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب)

١١٢ إيمان القرآن وصفات أهله والإيمان الذي يسمونه الناقص (التفسير: ج ٢)

(٥٧: ٢٣) لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم (وإيمان التقليد لا يفتأ صاحبه مضطرب القلب ، ميت النفس ، اذا مسه الخير فهو فرح فخور ، واذا مسه الشر فهو يؤوس كغور

الإيمان المطلوب معرفة تتمثل للمؤمن اذا عرضت له دواعي الشر وأسباب المعاصي فتحول دونها ، فاذا نسي فاصاب الذنب بادر الى التوبة والانتابة .
المؤمنون هم الذين وصفوا بقوله تعالى (١٥٣: ٣) والذين اذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب الا الله ؟ ولم يصبروا على ما فعلوا وهم يعلمون) وهم (٢: ٨) الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم) وإيمان التقليد يصبر صاحبه على العصيان ، ويقترف الفواحش عامداً علماً ، لا يستحي من الله ، ولا يوجل قلبه اذا ذكره ، ولا يخافه اذا عصاه

الإيمان المطلوب هو الذي اذا علم صاحبه بان الإيمان أصيب بمصيبة كانت مصيبته في دينه اشد عليه من المصيبة في نفسه وماله وولده ، وكان انبعاثه الى تلافيها أعظم من انبعاثه الى دفع الاذى عن حقيقته ، وجلب الرزق الى نفسه وأهله وعشيرته ، وإيمان المقلد لاغيرة معه على الدين ولا على الإيمان (٢٤ : ٤٨) واذا دعوا الى الله ورسوله ليحكم بينهم اذا فريق منهم معرضون ٤٩ وان يكن لهم الحق ياتوا اليه مذعنين) الآيات

يذكر القرآن الإيمان بالله واليوم الآخر كثيراً وانما المراد به ماله مثل هذه الآثار التي شرحها في آيات كثيرة ، من أجمعها هذه الآية التي نفسرها الآن ، ولكن أهل التقليد الذين لا أثر للإيمان في قلوبهم ولا في أعمالهم الا ما جرت به عادة قومهم من الاتيان ببعض الرسوم يؤولون كل هذه الآيات بجعلهم الإيمان قسمين :قسماً كاملاً ، وهو الذي يصف القرآن أهله بما يصفهم به . وقسماً ناقصاً وهو إيمانهم الذي يجمع ما وصف الله تعالى به الكافرين والمنافقين ، ويرون أن الإيمان الناقص كاف لنيل سعادة الآخرة ولا سيما إذا صحبه بعض الرسوم الدينية ولكن الله تعالى يرشدنا في مثل هذه الآية إلى أن الرسوم ليست من البر في شيء ،

وإنما البر هو الايمان وما يظهر من آثاره في النفس والعمل كما ترى في الآية .
 وأساس ذلك الايمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتب والنبين
 فلايمان بالله يرفع النفوس عن الخضوع والاستعباد المرؤساء الذين استذلوا
 البشر بالسلطة الدينية وهي دعوى القداسة والوساطة عند الله، ودعوى التشريع
 والقول على الله بدون إذن الله، أو السلطة الدنيوية وهي سلطة الملك والاستبداد، فإن
 العبودية تغير الله تعالى تهبط بالبشر الى دركة الحيوان المسخر أو الزرع المستنبت والايمان
 باليوم الآخر وبالملائكة يعلم الانسان أن له حياة في عالم غيبي أعلى من هذا العالم، فلا
 يرضى لنفسه أن يكون سعيه وعمله لاجل خدمة هذا الجسد خاصة ، لان ذلك
 يجعله لا يبالي إلا بالامور البهيمية، ولا يرضى نفسه بالاولى أن يكون عبدا لئلا
 لبشر مثله للقب ديني أو دنيوي وقد أعزه الله بالايمان ، وإنما أئمة الدين عنده
 مبالغون لما شرع الله ، وأئمة الدنيا منغذون لاحكام الله . وإنما الخضوع الديني لله
 ولشرعه لا لشخصهم وألقابهم

نعم ان الايمان بالملائكة أصل للايمان بالوحي ، لان ملك الوحي روح عاقل
 عالم يفيض العلم باذن الله على روح النبي بما هو موضوع الدين ، ولذلك قدم ذكر
 الملائكة على ذكر الكتاب والنبين ، فهم الذين يؤتون النبيين الكتاب (٩٧ : ٤)
 تنزل الملائكة والروح فيها باذن ربهم من كل أمر (١٦ : ١٩٣) نزل به الروح
 الامين * على قلبك لتكون من المنذرين * بلسان عربي مبين) فيلزم من إنكار
 الملائكة إنكار الوحي والنبوة وإنكار الارواح ، وذلك يستلزم إنكار اليوم
 الآخر ، ومن أنكر اليوم الآخر يكون أكبر همه لذات الدنيا وشهواتها وحظوظها ،
 وذلك أصل لشقاء الدنيا قبل شقاء الآخرة . والملائكة خلق روحاني عاقل قائم بنفسه
 وهم من عالم الغيب فلا نبشئ عن حقيقتهم كما تقدم غير مرة

واختير لفظ الكتاب على الكتب للايماء الى أن كلا من اليهود والنصارى لو
 صح ايمانهم بكتابهم وأذعنوا له لكان في ذلك هداية لهم ، وإن جهلوا وحدة
 الدين فلم يعرفوا حقية جميع الكتب الالهية ، عني ان المقصود لازمه وهو انهم لم

یؤمنوا حق الايمان بکتابهم اذ لا يعملون بما یرشد الیه ، ولو کان ایمانهم صحیحاً لقارنه الاذعان ، الباعث علی العمل بقدر الامکان ، فان کثیراً من المؤمنین بالتسليم والتقليد کانوا کمن نزل فیهم (١٤:٤٩) قالت الاعراب آمنا قل ، لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ، ولما یدخل الايمان فی قلوبکم ، وإن تطيعوا الله ورسوله لا یلتکم من أعمالکم شیئاً ان الله غفور رحیم ١٥ انما المؤمنون الذین آمنوا بالله ورسوله ثم لم یرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فی سبیل الله أولئک هم الصادقون) فهذا الايمان الذی حصر الله الصديق فی أصحابه کان قد فقد من اکثر اهل الکتاب كما هو حال مجموع المسلمین فی هذا العصر ، فان الذی تصدق علیه هذه الاوصاف صار نادراً جداً . ولذلك حرم المسلمون ما وعد الله المؤمنین من العزة والتصر ، والاستخلاف فی الارض ، ولن یعود لهم شیء من ذلك حتی یعودوا الى التحقیق بما میز الله به المؤمنین من النعوت والاصناف . فالایمان بالکتاب یتلزم العمل به ، فان المؤمن الموقن بأن هذا الشیء قبیح صار لا تتوجه إرادته الى إتيانه ، والمؤمن الموقن بأن هذا الشیء حسن نافع لا بد أن تتوجه الیه نفسه عند عدم المانع

فما بال مدعی الايمان بالکتاب قد أعرضوا عن امتثال امره ونهیہ حتی صاروا یعدون حفظه وقراءته من موانع الجهاد فی سبیل الله بالمال والنفس ، فکان من قوانینهم أن حافظ القرآن لا یطالب بتعلم فنون الحرب والجهاد لانه حافظ ، وصار حملة الکتاب لا یطالبون ببذل شیء من مالهم فی سبیل الله ، حتی اذا ما طوبل أحدهم ببذل شیء لاعانة المنکوبین أو لبناء مسجد ونحو ذلك اعتذر بانه من العلماء أو الحفاظ لکتاب الله تعالی ، یخل القراء والمتفقه بفضل الله تعالی فجازاهم الله تعالی علی بخلهم ، ووفاهم ما یتحققون علی سوء ظنهم بریهم ، حتی صاروا فی الغالب أذل الناس ، لانهم عالة علی جمیع الناس

والایمان بالنبیین یقتضي الإهتمام بهديهم ، والتخلاق باخلاقهم ، والتأدب بآدابهم ، یتوقف هذا علی معرفة سیرتهم والعلم بسنتهم . وأبعد الناس عن الايمان بهم من رغبوا عن معرفة ما ذکر والاهتمام به - ولا عذر لهم بما یزعمون من الاستغناء عن السنة بالافتداء بالائمة والفقهاء فانه لا معنی للافتداء بشخص الا

الاستقامة على طريقته وانما طريقة الائمة المهتدين البحث عن السنة وتقديعها بعد كتاب الله تعالى على كل هداية وإرشاد ، ولا يغني عن كتاب الله وسنة رسوله شيء أبداً ، فان الله يقول (٣٣ : ٢١) لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر) فمن استغنى عن التأسي بالرسول فقد استغنى عن الايمان بالله واليوم الآخر ، إذ لا ينفعه هذا الايمان إلا بهذا التأسي ، على أن الاقتداء بالائمة يقضي على صاحبه بأن يعرف سيرتهم وطريقة أخذهم عن ربهم وبنبيهم وأصول استدلالهم ، وهؤلاء المقلدون لا يعرفون ذلك ، بل يندر أن يعرف أحد منهم كلام من يدعي اتباعه وتقليده ، بل جعلوا بينهم وبين أئمتهم عدة وسائط من المقلدين فهم يقلدونهم دونه ، بناء على أنهم أعلم منهم بمراده ، كما أنه أعلم بمراد الله ورسوله وهناك قوم غشيم الجبل ففشهم بأنهم من أشد الناس إيماناً بالرسول وحباً له بما يضحون به في قراءة كتب الصلاة عليه كاللذائل وأمثالها ، أو المدائح الشعرية وهم أجهل الناس بأخلاقه العظيمة ، وسنته السنية ، وسيرته الشريفة ، وأشدهم نفوراً عن التأسي به إذا دعوا اليه ، وأنهوا عن البدع في دينه والزيادة في شريعته . وأمثال هؤلاء من الذين ورد الحديث في الصحيحين وغيرهما بأنهم يردون عليه الحوض يوم القيامة فيزدادون أي يطاردون دونه فيقول « أمتي » فيقال انك لا تدري ما أحدثوا بعدك فيقول « سحقاً سحقاً لمن بدل بعدي »

نم ذكر تعالى بعد بيان أصول الايمان أصول الاعمال الصالحة التي هي ثمرته وبدأ بأقواها دلالة عليه فقال ﴿ وآتى المال على حبه ﴾ أي وأعطى المال لأجل حبه تعالى أو على حبه إياه أي المال . قل الاستاذ الامام : وهذا الايتاء غير إيتاء الزكاة الآتي وهو ركن من أركان البر وواجب كزكاة . وذلك حيث تعرض الحاجة إلى البذل في غير وقت أداء الزكاة ، بأن يرى الواحد مضطراً بعد أداء الزكاة أو قبل تمام الحول . وهو لا يشترط فيه نصاب معين بل هو على حسب الاستطاعة ، فإذا كان لا يملك إلا رغيفا ورأى مضطراً اليه في حال استغنائه عنه بأن لم يكن محتاجاً اليه لنفسه أو لمن يحب عليه نفقته وجب عليه بذله . وليس المضطر وحده هو الذي له الحق في ذلك بل أمر الله تعالى المؤمن أن يعطي من

غير الزكاة ﴿ذوي القربى﴾ وهم أحق الناس بالبر والصلة فإن الانسان إذا احتاج وفي أقاربه غني فإن نفسه تتوجه اليه بعاطفة الرحم ومن المغرور في الفطرة أن الانسان يألم لفدقة ذوي رحمه وعدمهم أشد مما يألم لفاقة غيرهم، فانه يهون بهوانهم ويعتز بعزتهم. فمن قطع الرحم ورضي بأن ينعم وذوو قريبه بأسوء فهو يريء من الفطرة والدين، وبعيد من الخير والبر، ومن كان أقرب رحماً كان حقه أكد وصانته أفضل ﴿واليتامى﴾ فانهم لموت كآفتلهم تتعلق كفاتلهم وكفاتلهم بأهل الوجد واليسار من المسلمين كيلاً تسوء حالهم، وتفسد تربيتهم فيكونوا مصائب على أنفسهم وعلى الناس ﴿والمساكين﴾ أهل السكون ولعفة من الفقراء فانهم لما قعد بهم المعجز عن كسب ما يكفيهم، وسكنت نفوسهم للرضى بالقليل، عن مد كف الذليل، وجبت مساعدتهم ومواساتهم على المستطيع ﴿وابن السبيل﴾ المنقطع في السفر لا يتصل بأهل ولا قرابة حتى كأن السبيل أبوه وأمه ورحمه وأهله^١ وهذا التعبير بمكان من اللطف لا يرتقي اليه سواه. وفي الامر بمواساتهم وإعانتهم في سفره ترغيب من الشرع في السياحة والضرب في الارض ﴿والسائلين﴾ الذين تدفعهم الحاجة العارضة إلى تكفف الناس. وآخرهم لانهم يسألون فيعطيه هذا وهذا، وقد يسأل الانسان لمواساة غيره، والسؤال مجرم شرعاً الا لضرورة يجب على السائل أن لا يتعدها ﴿وفي الرقاب﴾ أي في تحريرها وعتقها وهو يشمل ابتداء الأرقاء وعتقهم وإعانة المسكاتبين على أداء نجومهم^٢ ومساعدة الامرئ على الاقتداء. وفي جعل هذا النوع من البذل حقاً واجباً في أموال المسلمين دليل على رغبة الشريعة في فك الرقاب واعتبارها أن الانسان خلق ليكون حراً الا في أحوال عارضة تقضي المصلحة العامة فيها أن يكون الاسير رقيقاً. وآخر هذا عن كل ماسبقه لان الحاجة في تلك الاصناف قد تكون لحفظ الحياة وحاجة الرقيق الى الحرية حاجة الى الكمال

(١) يوشك أن يشمل ذلك اللقيط (٢) المكاتب هو الرقيق يشتري نفسه من مولاه بشمن يجعل أقساطاً والافساط تسمى في اللغة نجومها

ومشروعية البذل لهذه الاصناف من غير مال الزكاة لا تنقيس بزمن ولا بامتلاك نصاب محدود، ولا يكون المبذول مقداراً معيناً بالنسبة الى ما يملك ككونه عشراً او ربع العشر أو عشر العشر مثلاً، وانما هو أمر مطلق بالاحسان موكول الى اريحية المعطي وحالة المعطى . ووقاية الانسان المحترم من اهلاك والتلف واجبة على من قدر عليها، وما زاد على ذلك فلا تقدير له - وقد أغفل أكثر الناس هذه الحقوق العامة التي حث عليها الكتاب العزيز لما فيها من الحياة الاشتراكية المعتدلة الشريفة، فلا يكادون يبذلون شيئاً لهؤلاء المحتاجين الا القليل النادر لبعض السائلين، وهم في هذا الزمان أقل الناس استحقاقاً لانهم أنخنوا السؤال حرفة وأكثرهم واجدون، ولو أقاموها لكان حال المسلمين في معاشهم خيراً من سائر الأمم ولكان هذا من أسباب دخول الناس في الاسلام، وتفضيله على جميع ما يتصور الباحثون من مذاهب الاشتراكيين والماليين

ثم قل ﴿واقام الصلاة﴾ اي أداها على أكل وجه واقومه وادامها، وهذا هو الركن الروحاني الركين للبر . واقامة الصلاة التي يكرر القرآن المطالبة بها لا تتحقق بأداء أفعال الصلاة وأقوالها فقط وان جاء بها المصلي تامة على الوجه الذي يذكره الفقهاء، لان ما يذكرونه هو صورة الصلاة وهياتها، وانما البر والتقوى في سر الصلاة وروحها الذي تصدر عنه آثارها من النهي عن الفحشاء والمنكر، وقلب الطباع السقيمة، والاستعاضة عنها بالفرائز المستقيمة، فقد قال تعالى (٧٠ : ١٩) ان الانسان خلق هلوعاً ٢٠ اذا مسه الشر جزوعاً ٢١ واذا مسه الخير منوعاً ٢٢ الا المصلين) فمن حافظ على الصلاة الحقيقية تطهرت نفسه من الهلع والجزع اذا مسه الشر، ومن البخل والمنع اذا مسه الخير، وكان شجاعاً كريماً قوي العزيمة شديد الشكيمة لا يرضى بالضميم، ولا يخشى في الحق العذل واللوم، لانه بمراقبته لله تعالى في صلاته، واستشعاره عظمته وسلطانه الاعلى في ركوعه وسجوده، يكون الله تعالى غالباً على أمره، فلا يبالي ما لقي من الشدائد في سبيله، وما أنفق من فضله ابتغاء مرضاته - وصورة الصلاة لا تعطي صاحبها شيئاً من هذه المعاني، فليست بمجرد ما من البر في شيء، وانما شرعت

للتذكير بذلك السناء الالهي ، والاستعانة بها على توجه القلب اليه ، واستغراقه في ذكره ومناجاته ودعائه ، وهو روحها وسرها الذي يستعان به وبالصبر على جميع المقاصد العالية والمجاهدات . فهذا هو البر وقد تقدم القول في معنى الصلاة واقامتها والاستعانة بها ، وانما نعيد التذكير ، كما اعاده الكتاب العزيز

﴿ وَأَتَى الزَّكَاةَ ﴾ المفروضة اي اعطاها مستحقيها . فلما تذكر إقامة الصلاة في القرآن إلا ويقرن بها إيتاء الزكاة ، فالصلاة مهذبة للروح ، والمال كما يقولون قرين الروح ، فبذله في سبيل الحق ركن عظيم من أركان البر ، وآية من أظهر آيات الايمان ، ولذلك أجمع الصحابة عليهم الرضوان على محاربة مانعي الزكاة ، ولكن الذين لا يعرفون من الدين والايمان إلا التقليد بعض الكتب التي ألفها الميتون ، ونشرها الرؤساء والحاكمون ، بمنعون الزكاة عمداً باسم الدين ، بما تعلمهم هذه الكتب من الخيل التي تمنع بها الحقوق الثابتة ، وآكدها الزكاة التي ذكر الكتاب مصارفها الثمانية ، وقضى بأن تبقى ببقائها كلها أو بعضها — ويسمونها خيلاً شرعية ، وما نسبها إلى الشرع ، إلا كنسبة منجل الحاصد إلى الزرع ، أو العاصفة في القلع . فمانع الزكاة يهدم في الظاهر ركناً من أعظم أركان الاسلام ، وينقض في الباطن من تحته أساس الايمان ، لانه يحتال على الله تعالى في إبطال فريضته ، وإزالة حكمته ، فهو لم يرض بحكمه ، ولم يذعن لأمره ، بل فسق عن أمر مولاه ، واتخذ إلهه هواه ، وتجرأ على تبديل كلمات الله ، فنسخ الآيات الكثيرة من كتابه الأمانة بإيتاء الزكاة على أنها آية الايمان ، وصلاح العمران ، ثم هو يسمي هذا الخس العظيم ، والجرم الكبير ، حكماً مشروعاً ، وديناً متبوعاً ، والله ان نسبة هذا السفه إلى الشرع ، لأدل على الكفر من ذلك المنع ، إذ لا يعقل أن يشرع الله لنا شيئاً ويؤكده علينا سبعين مرة ثم يرضى بأن نحتال عليه ونخذعه في تركه ، ونزعم أنه قدس وتعالى أذن لنا بهذه الخادعة والخطالة ! إذاً لماذا فرض وأوجب ، ورغب ورهب ، ووعد وأوعد ، وحكم وأحكم ؟ هل كان ذلك لغواً من الكلام ، وجهلاً بحكمة وضع الاحكام ؟ على أن تلك الخيل الشيطانية لم يجد لها واضعوا شبهة من تحريف كتاب الله وتأويل آياته كما هي طريقته في اتباع أهوائهم ، وتأيد آرائهم ، فن الله تعالى لم

يذكر في كتابه الحول والنصاب وإنما ذكر ما هو روح الدين ومقصده وهو إيتاء الزكاة وكونه آية الايمان ، وتركه آية النفاق والكفران

وقد بينت السنة بالهدي والعمل كيفية الأخذ وقدر المأخوذ وسائر الاحكام وليس فيها شيء يصح أن يكون شبهة لابطال الكتاب والهروب من الاهتداء به ، ولكن المخذواين لما تركوا الاهتداء بالكتاب والسنة، وجعلوا عبارات الكتب التي صنفوها هي مأخذ الدين وينابيعه، صاروا يحتالون في تطبيق أعمالهم على تلك العبارات الخلوقة، فيكتب احدهم مثلاً: تجب الزكاة على مالك النصاب إذا تم الحول وهو مالك له . ثم يعمد هو وغيره إلى تطبيق دينه على هذه العبارات فيهب ماله قبل انقضاء الحول بيوم أو يومين إلى امرأته ولو مع الاشتراط عليها أن تعيده له بعد يوم أو يومين، ويقول انه لم تجب عليه الزكاة بحسب نص الكتاب الذي سماه فقهاً ، وبذلك بكلمة كتابه الخلق كتاب الله القديم، وسنة رسوله الحكيم، وحكمة دينه القويم، ويزعم مع هذا كله انه مسلم مؤمن بالله وكتابه ورسوله ، بل يزعم أنه عالم فقيه في الدين ، يجب تقليده واتباعه على المؤمنين، وربما يتبجح إذا سمع أو قرأ قوله ﷺ « من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين » لانه يزعم ان الله اراد به خيراً يفقهه في الدين ، والحديث متفق عليه وفي رواية زيادة « ويلهمه رشده » فيا أهل الفطرة السليمة التي لم يفسدها فقه هؤلاء المحتابين على الله لهدم دينه افتونا :هل العلم بمثل هذه الحيلة ينطبق على أصول البر التي ذكرها الله في هذه الآية وعلى الفقه والرشد الذي ذكره النبي في حديثه هذا ؟ أم هذه فتنة من قنن التقليد، وأخذ الدين من الكتب المحدثّة دون كتاب الله المجيد؟

ثم قال تعالى ﴿والموفون بعهدهم إذا عاهدوا﴾ وهذا انتقال من البر في الاعمال إلى البر في الاخلاق والاعمال الاجتماعية، فذكر منها ما هو أهم اصول البر وهو الوفاء والصبر بضروبه المدينة بعد . وقد ذكر الاعمال بصيغة الفعل والاخلاق بصيغة الوصف لان الاعمال أفعال ، والاخلاق صفات . وفيه تنبيه على أن من أوفى وصبر تسكفاً لا يكون باراً حتى يصير الوفاء والصبر من أخلاقه ولو بتكرار التكلف والتعمل ، فقد ورد «الحلم بالتحلم» وقدم ما ذكر من الاعمال على هذه الاخلاق لان الاعمال

هي التي تطبع الاخلاق في النفوس ، ولا سيما الصلاة وبذل المال فلا أعون منها على الوفاء والصبر وذلك ظاهر لقوم يفقهون

قال الاستاذ الامام : العهد عبارة عما يلتزم به المرء لا آخر وهو بعمومه يشمل ما عاهد المؤمنون عليه الله بايمانهم من السمع والطاعة والاذعان لكل ما جاء به دينه ، ويذكر العهد في القرآن والسنة كثيراً ويراد به في الغالب ما عاهد به الناس بعضهم بعضاً عليه . ويشترط في وجوب الوفاء بهذا العهد أن لا يكون في معصية . وفي معنى العهود المعقود وقد أمرنا بالوفاء بها فيجب على المسلم أن يلتزم الوفاء بما يتعاقد عليه مع الناس ما لم يكن مخالفاً لأمر الله ورسوله الثابت عنده وقواعد الدين العامة

وهذا أمر لا مندوحة عنه وهو معقول الفائدة ، ولذلك قال أهل القوانين الوضعية : ان كل التزام يخالف أصول القوانين فهو باطل ، ولكن لا يجوز أن يعاهد الانسان أحداً أو يعاقده على امر يعلم انه مخالف للدين لا بنية الوفاء ولا بنية الغدر ، والنقض الاول معصية والثاني معصيتان او اكثر ، لما يتضمنه من الغدر والغش ولا يتحقق البر في الايفاء إلا إذا كان المرء يوفي من نفسه بدون إزام حاكم يقع أو يتوقع إذا هولم يوف ، أو خوف أي جزاء ولو من غير الحكم ، فمن أوفى خوفاً من إهانة تصيبه أو ذم يلحق به فهو غير بار ، ولا هو من الموفين بالعهود

وقال الاستاذ الامام ما مثله : ان الايفاء بالعهود والمعقود من اهم الفرائض التي فرضها الله تعالى لنظام المعيشة والعمران ، وإنما الصلاة والزكاة من وسائله - والزكاة فرع منه في وجه آخر - فان الله تعالى فرض علينا الصلاة وهو غني عن العالمين لتؤدب بها نفوسنا فتميش في الدنيا عيشة راضية ، ونستحق بذلك عيشة الآخرة المرغوبة ، إذ المصلي أجدر الناس بالقيام بحقوق عباد الله الذين هم عيال الله بما يستولي على قلبه فيها من الشعور بسلطان الله تعالى وقدرته وفضله وإحسانه ، وعموم هذا السلطان والاحسان له وللناس كافة . والقدر والاختلاف من الذنوب الهادمة للنظام ، المفسدة للعمران ، المغنية للاعمى . وما فقدت أمة الوفاء الذي هو ركن الامانة وقوام الصدق إلا وحل بها العقاب الالهي ، ولا يمجد الله الانتقام من الاعمى لذنوب من الذنوب يفسد فيها كذنوب الاختلال بالعهد والاختلاف بالوعد ،

وانظر حال أمة استهانت بالايفاء بالمهود ولم تبال بالتزام العقود تر كيف حل بها عذاب الله تعالى بالاذلال، وقد الاستدلال، وضياح الثقة بينها حتى في الاهل والعيال، فهم يعيشون عيشة الافراد لا عيشة الامم: صور متحركة، ووحوش منترسة، ينتظر كل واحد وثبة الآخر عليه، إذا أمكن ليداه ان تصل اليه، ولذلك يضطر كل واحد إذا عاقد أي انسان من أمته أن يستوثق منه بكل ما يقدر، ويحترس من غدره بكل ما يمكن، فلا تعاون ولا تناصر، ولا تعاضد ولا تآزر، بل استبدلوا بهذه المزايا التحاسد والتباغض، والتعادي والتعارض (بأسهم بينهم شديد) ولكنهم أذلاء للعبيد (قال) وقد أحصيت في سنة قضايا النخاصم في محكمة بنها فألفيت أن خمسة وسبعين قضية في المئة منها بين الافارب، والباقي بين سائر الناس . ولو كان في الناس وفاء، لسلخوا من كل هذا البلاء

﴿والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس﴾ قالوا ان البأساء اسم من البؤس وهو الشدة والفقر . والضراء ما يضر الانسان من نحو مرض أو جرح، أو فقد محبوب من مال وأهل، وفسروا البأس باشتداد الحرب . والصبر يحمد في هذه المواطن وفي غيرها، وتخص هذه الثلاث بالذكر لان من صبر فيها كان في غيرها أصبر . لما في احتمالها من المشقة على النفس، والاضطراب في القلب، فن العقر إذا اشتدت وطأته يضيق له الذرع، ويكاد يفضي إلى الكفر . والضر إذا برّح بالبدن يضعف الاخلاق حتى لا يكاد المرم يحتمل ما كان يسر به في حال الصحة، فما بالك بالمرض وآلامه وما يطراً في أثناءه من الامور التي تسوء النفس، وأما حالة اشتداد الحرب فهي على ما فيها من الشدة والتعرض للهلكة بخوض غمرات المنية يطلب فيها من الصبر ما لا يطلب في غيرها، لان الظفر مقرون بالصبر، وبالظفر حفظ الحق الذي يناضل من يجاهد في سبيل الله دونه ويدافع عنه، ويحاول إظهاره، ويبغي انتشاره، وهذا هو المأمور من الله تعالى بالصبر حين البأس، لا المحارب لطمع الدنيا وأهواء الملوك .

وقد ورد في الاحاديث الصحيحة ان الفرار من الزحف من أكبر الكبائر . وعبر عنه في بعضها بالكفر - فلا غرو أن يجعل الصبر في حين البأس أصلاً من

أصول البر . وقد كان المسلمون بإرشاد هذه النصوص أعظم أمة حرية في العالم ، فما زال استبداد الحكم يفسد من بأسهم ، وترك الاهتداء بالكتاب والسنة يقل من غربهم ، حتى سبقتهم الأمم كلها في ميادين الكفاح ، وحتى صرنا نسمع من أمثالهم : **فرّ لعنه الله ، خير من مات رحمه الله**

وأبعد الناس عندنا عن الصبر وأدناهم من الجزع والهلع والغزع المشتغلون بالعلوم الدينية ، فإن الشجاعة والفروسية والرياسة عندهم من المعاييب التي تزري بالعالم وتخط من قدره ، وهم مع هذا يقرءون في كتبهم أن الشرع أباح المراهنة - وهي من القمار الذي هو من كباثر الانم - في السباق والرياسة خاصة عناية بها وترغيباً للامة فيها . فهذا البعد عن الدين ممن يسمون أنفسهم ورثة لانبيااء هو الذي قل الجاحظ انه لا يصل اليه احد إلا بخذلان من الله

وانظر بعد هذا حكم الله تعالى على البررة الذين يقيمون ما تقدم ذكره من

أركان البر . قال ﴿ أولئك الذين صدقوا ﴾ اي أولئك الابرار الراسخون في أصول الايمان الخمس والمنفقون المال في مواضع الستة ، والمقيمون للصلاة الروحية الاجتماعية ، والمؤتون للزكاة التي عليها مدار امور الملة المالية والسياسية ، والموفون بعهودهم اثلاثة الدينية والمالية والحربية ، والصابرون في مواقف الشدة الثلاثة - هم الذين صدقوا الله في دعوى الايمان دون الذين قالوا آمنا بفواههم ولم تؤمن

قلوبهم ﴿ وأولئك هم المنافقون ﴾ الذين تشهد لهم بالتقوى أعمالهم وأحوالهم - والتقوى أن تجعل بينك وبين سخط الله وقاية بان تتحامي أسباب خذلانه في الدنيا وعذابه في الآخرة

(١٧٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ، الْحَرُّ بِالْحَرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى، فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبَاعُ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ، ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ، فَمَنْ آعْتَدَى

بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٩) وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ

ذكر المفسر وغيره ان القصاص على القتل كان محتما عند اليهود وأن الدية كانت محتمة عند النصارى وأن القرآن جاء وسطا يفرض القصاص إذا أصر عليه أولياء المقتول ويحجز الدية إذا عفووا . وقد أقرهم الاستاذ الامام على قولهم ان القتل قصاصاً كان حتماً عند اليهود كما في الفصل التاسع عشر من سفر الخروج والعشرين من التثنية . وأنكر عليهم قولهم ان الدية كانت حتماً عند النصارى فإنه ليس في كتبهم شيء يحتم عليهم ذلك إلا أن يقال ان ذلك مأخوذ من وصايا التساهل والعفو وجزاء الاساءة بالاحسان في الانجيل، ولكن أخذ الدية ضرب من ضروب الجزاء ينافي هذه الوصايا

وإذا نظرنا في أعمال الاولين والآخرين وشرائعهم في القتل نجد القرآن وسطا حقيقياً لا بين مانقل عن اليهود والنصارى فقط بل بين مجموع آراء البشر من أهل شرائع السماوية والقوانين الوضعية، فقد كانت العرب تتحكم في ذلك على قدر قوة القبائل وضعفها، فرب حر كان يقتل من قبيلة فلا ترضى قبيلته بأخذ القاتل به بل تطلب به رئيسها، وأحياناً كانوا يطلبون بالواحد عشرة وبالاثنى ذكراً، وبالعبد حراً، فان أجيبوا وإلا قاتلوا قبيلة القاتل وسفكوا دماء كثيرة، وهذا إفراط وظلم عظيم تقتضيه طبيعة البداوة الخشنة . وفرض التوراة قتل القاتل إصلاح في هذا الظلم، ولكن يوجد في الناس لاسياً أهل القوانين في زماننا هذا من يذكر المعاقبة بالقتل ويقولون انه من القسوة وحب الانتقام في البشر . ويرون أن المجرم الذي يسفك الدماء يجب أن تكون عقوبته تربية لا انتقاماً، وذلك يكون بما دون القتل، ويشددون النكير على من يحكم بالقتل إذا لم تثبت الجريمة على القاتل بالاقرار، بان ثبتت بالقرائن أو بشهادة شهود يجوز عليهم الكذب، ويرون أن الحكومة إذا علمت الناس التراحم في العقوبات فذلك أحسن تربية لهم، ومنهم من يقول ان المجرم من لا يكونون إلا مرضى العقول فالواجب أن يوضعوا في

مستشفيات الأمراض العقلية ويعالجوا فيها الى أن يبرءوا .
 وإذا دققنا النظر في أقوال هؤلاء نرى أنهم يريدون أن يشرعوا أحكاماً خاصة يقوم عليها وتربوا على الطرق الحديثة وسيسوا بالنظام والحكم ، حتى لا سبيل لا ولياء المقتول أن يثاروا له من القاتل ولأن يسفكوا لاجله دماء بريئة ، وحتى يؤمن من استمرار العداوة والبغضاء بين بيوت القاتلين وبيوت القتولين ، ووجدت عندهم جميع وسائل التربية والمعالجة ، لا أحكاماً عامة لجميع البشر ، في البدو والحضر ، ومع هذا نرى كثيراً من الناس حتى المنتسبين إلى الاسلام يفترقون بآرائهم ويرونها شبهة على الاسلام^١ . وأما النافذ البصيرة العارف بمصالح الامم الذي يزن الامور العامة بميزان المصلحة العامة لا بميزان الوجدان الشخصي الخاص بنفسه أو ببلده فانه يرى أن القصاص بالعدل والمساواة هو الاصل الذي يربي الامم والشعوب والقبائل كلها ، وان تركه بالمرّة يغري الاشقياء بالجسارة على سفك الدماء ، وأن الخوف من الحبس والاشغال الشاقة إذا أمكن أن يكون مانعاً من الإقدام على الانتقام بالقتل في البلاد التي غلب على أهلها التراحم أو الترف والانغماس في النعيم كبعض بلاد أوربة فانه لا يكون كذلك في كل البلاد وكل انشعوب ، بل ان من الناس في هذه البلاد وفي غيرهما من يحبب اليه الجرائم أو يسلمها عليه كون عقوبتها السجن الذي يراه خيراً من بيته ، وان في مصر من الاشقياء من يسمي السجن نزلاً أو فندقاً . وسمعت أنا غير واحد في سورية يقول : إذا فمل فلان كذا فاني أقتله وأقيم في القلعة عشر سنين . وذلك ان القاتل هناك يحكم عليه غالباً بالسجن خمس

(١) نشر في عدد ١٤٩٩ من جريدة اللواء الصادر في ١٥ ج ٢ سنة ١٣٣٢ ، مقالة من مقالات في الانتصار لجندي قتل ضابطه عمداً في السودان جاء في أولها أن الانسان اذا أطلق لنظره وفكره العنان في مسألة القتل وشخصها تشخيصاً حقيقياً فانه ينادي بوجود إبطاله من بين الامم والشعوب رحمة بالانسان وخدمة للانسانية (قال) وقتل القاتل أقطع وأبشع من قتل المقتول : ثم قال : الانسان يستهجن الحكم بالاعدام وينفر منه ويهده بقايا الهمجية ويقول فيه ما قال مالك في الخمر اه فتأمل كيف يصدر هذا من مسلم وينشر بين المسلمين ، وهو طعن في كتاب ربهم وتشنيع على أصل من أصول شرعهم لا سبب له الا هوى السياسة قاتلها الله تعالى

عشرة سنة في قاعة طرابلس الشام ، ويعفو السلطان في عيد جلوسه عن تمهله ثلثا المدة المحكوم بها عليه في السجن . واشتهر عن بعض المجرمين في مصر انهم يسمون بعض السجون المصرية « لو كاندو كولس » بالاضافة إلى كولس باشا مدير السجون الذي أنشئت في عهده . ويقول بعضهم : أسرق كذا أو أضرب فلانا وأشتو في لو كاندو كولس فان الشتاء فيها أرحم وأنعم من الشتاء في بيتنا أو في الشوارع . ولا يبعد على المجرم من هؤلاء أن يقتل لان عقاب القتل في هذه السجون إن ثبت عليه أهون من عيشته الشقية ، فما القول في أهل البوادي أصحاب الثارات التي لا تموت ؟ — فقتل القاتل هو الذي يربي الناس في كل زمان ومكان ويمنعهم من القتل (قال شيخنا) وقد بالغ في الاعتراف بذلك معدل القانون المصري حيث أجاز الحكم بالاعدام إذا وجدت القرائن القاطعة على ثبوت التهمة ، بعد أن كان لا يجيزه إلا بالاعتراف أو شهادة شهود الرؤية .

وقد تقع في كل بلاد صور من جرّم القتل يكون فيها الحكم بقتل القاتل ضاراً وتركه لا مفسدة فيه ، كأن يقتل الانسان أخاه أو أحد اقاربه لعارض دفعه إلى ذلك ، ويكون هذا القاتل هو العائل لذلك البيت ، وإذا قُتل يفتقدون بقتله المعين والظهير ، بل قد يكون في قتل القاتل أحياناً مفاسد ومضار وإن كان أجنبياً من المقتول ، ويكون الخير لا ولياء المقتول عدم قتله لدفع المفسدة ، أو لان الدية انفع لهم ، فأمثال هذه الصور توجب أن لا يكون الحكم بقتل القاتل حتماً لازماً في كل حال ، بل يكون هو الأصل ، ويكون تركه جائزاً برضاء أو ولياء المقتول وعفومهم ، فإذا ارتقت عاطفة الرحمة في شعب أو قبيل أو بلد إلى أن صار أولياء القاتل منهم يستنكرون القتل ويرون العفو أفضل وأنفع فذلك إليهم ، والشريعة لا تمنعهم منه بل ترغبهم فيه ، وهذا الإصلاح السكامل في القصاص هو ما جاء به القرآن ، وما كان ليرتقي إليه بنفسه علم الانسان . قال تعالى

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ ﴾ القصاص في اصل اللغة يفيد المساواة ، فمعنى القصاص هنا أن يُقتل القاتل لانه في نظر الشريعة مساو للمقتول فيؤخذ به ، فالعرض من الآية شرعية القصاص بالعدل والمساواة

وإبطال ذلك الامتياز الذي للاقوياء على الضعفاء ، ولذلك قال ﴿ الحر بالحر والعبد بالعبد والانسى بالانسى ﴾ أي ان هذا القصاص لا هوادة فيه ولا جور ، فاذا قتل حر حرّاً يقتل هو به لا غيره من سادات القبيلة ولا اكثر من واحد ، وإذا قتل عبد عبداً يقتل هو به لا سيده ، ولا احد الاحرار من قبيلته ، وكذلك المرأة إذا قتلت تقتل هي ولا يقتل واحد فداء عنها ، خلافا لما كانت عليه الجاهلية في ذلك كله . فالقصاص على القاتل نفسه أياً كان لا على احد من قبيلته . فما كانت عليه العرب في التأثر يبين هذا المعنى من الآية ولكن مفهوم اللفظ بحد ذاته وسياقه مقابلة الاصناف بالاصناف يفهم انه لا يقتل فريق بفريق آخر ، وهو غير مراد على إطلاقه ، فقد جرى العمل من زمن الرسول ﷺ إلى الآن على قتل الرجل بالمرأة واختلفوا في قتل الحر بالعبد فذهب ابو حنيفة وابن أبي ليلى وداود إلى انه يقتل به إذا لم يكن سيده . وذهب الجمهور الى انه لا يقتل به مطلقاً ، والاختلاف في قتل الرجل بالمرأة اضعف ولهذه الخلافات زعم بعضهم ان في الآية تسخيراً

وانما منشأ الخلاف ادلة اخرى من السنة وغيرها والاعتبار بمفهوم المخالفة في الآية وعدمه ، والقرآن فوق كل خلاف . فنطوق الآية لاجمال للخلاف فيه وهو أن الحر يقتل بالحر الخ وأما كون الحر يقتل بالعبد والرجل بالمرأة فهذا يؤخذ من لفظ القصاص ولا يعارضه مفهوم التفصيل ، فان بعض اهل الاصول لا يعتبر المفهوم المخالف للمنطوق وبعضهم يعتبره بشرط لا يتحقق هنا لما ذكره في سبب النزول منطبقاً على ما ذكرناه عن العرب ،

قال البيضاوي في تفسير الآية : كان في الجاهلية بين حيين من احياء العرب دماء وكان لا أحدهما طول على الآخر فأقسموا لقتلن الحر منكم بالعبد والذكر بالانسى ، فلما جاء الاسلام تحاكموا إلى الرسول ﷺ فنزلت وأمرهم ان يقتلوا . ولا تدل على أن لا يقتل الحر بالعبد والذكر بالانسى كما لا تدل على عكسه ، فان المفهوم يعتبر حيث لم يظهر للتخصيص غرض سوى اختصاص الحكم اهو البيضاوي من الشافعية القائلين بمفهوم المخالفة . وما ذكره في سبب النزول أخرجه ابن أبي حاتم . ويدخل في عموم الآية الكافر وبه قال الكوفيون والثوري وقال الجمهور .

لا يقتل به المسلم لما ورد في ذلك من الحديث الصحيح المبين لاجال الآية . واستثنى من عمومها السيد يقتل عبده قالوا لا يقتل به ولكن يعزر ولا يعرف في ذلك خلاف . الا عن النخعي . قال الاستاذ الامام : وللاحكام ان يقرر هذا التعزير بشدة تمنع الاعتداء والاستهانة بالدم ولا يخفى ان التعزير قد يكون بالقتل فاذا عهد في قوم من القسوة ما يقتلون به عبيدهم فللامام ان يقتل السيد بعبده تعزيراً لاحدا اذا رأى المصلحة العامة في ذلك . واستشوا ايضاً الوالدين فقلوا لا يقتل الوالد بولده وعذله الاستاذ الامام بأن الحدود توضع حيث تتحرك النفوس للعجناية لتكون رادعة عن الاستمرار فيها ، وقدمت السنة الالهية في الفطرة بأن قلوب الاصول مجبولة من طينة الشفقة والحنو على الفروع حتى لينزلون أمواهم وأرواحهم في سبيلهم . وكثيرا ما يقسو الولد على والده وقلم يقسو والده على ولده الاسبب قوي كعموق شديدا وفساد في اخلاق الولد جنى على اصل الفطرة كالافراط في حب الذات ولكن هذه القسوة لا تنفضي الى القتل الا لامر يكاد يكون فوق الطبيعة كعارض جنون من الوالد أو ايذاء لا يطاق من الولد . ولما كان هذا شاذاً نادراً جعل كالعهد فلم يلاحظ في وضع الحد ، لان الاحكام تنادى بالمنظنة لا بالشواذ التي يندر ان تقع ، ومع هذا يعزر من يقتل ولده بما يراه الحاكم لاثقا بحاله ومربيا لامثاله

(واقول) ان اعظم اسباب هذا الشذوذ في الوالدين طغيان الحكم الاستبدادي وجنون العشق فكثيرا ما قتل الملوك أولادهم ، وكانت سنة سلاطين آل عثمان أن تسلم القوابل ابناء اسرتههم كلهم للقتل عقب الولادة الا من يسمى ولي العهد الوارث للسلطنة ، وبلى ذلك قتل الوالدين حتى الأمهات بشوران جنون العشق^(١) وقد اضطرب العلماء في تعيين المخاطب بهذا القصاص اذ لا يصح ان يكون القاتل ولا المقتول ولا ولي الدم ولا عصبية القاتل ولا سائر الناس الاجانب ولا يظهر ايضاً ان المخاطب بقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص)

(١) من أخبار جرائد مصر في هذا الوقت (شهر رمضان سنة ١٣٥٠) ان امرأة قتلت ابنتها شر قتلة لان وجودها معها ينقص عليها التمتع بمعشوقها وقد تعدد مثل هذا الفساد الوالدي في ديار مصر والعياذ بالله تعالى

١٢٨ شرعية العفو عن القصاص وتحققه بعفو واحد من أولياء المقتول (التفسير: ج ٢)

الحكام خاصة . قال الاستاذ الامام بعدما أورد هذا المعنى عن بعضهم وهذه مشاغبة وتشكيك كشاغبات الرازي وشكوكه والخطاب مفهوم بالبداهة ، والآية جارية على أسلوب القرآن في مخاطبة جمعة المؤمنين في الشؤون العامة والمصالح لاعتبار الأمة متكافلة ومطالبة بتنفيذ الشريعة وحفظها وبالخضوع لأحكامها كما تقدم بيانه في مخاطبة اليهود باسناد ما كان من آبائهم اليهم اذ قلنا ان الأمة في هدى القرآن كاشخص الواحد يخطب البعض منها بالكل والكل بالبعض ، كما يقال للشخص جنيت وجنت يدك واخطأت وأخطأ سمعك أورأيك . ففي هذا الخطاب بالقصاص يدخل القاتل لانه مأثور بالخضوع لحكم الله ، ويدخل الحكم لانه مأثور بالتنفيذ ، ويدخل سائر المسلمين لأنهم مأثرون بمساعدة الشرع وتأييده ، ومراقبة من يختارونه للحكم به وتنفيذه اه وأزيد عليه افادة الآية وأمثله ان سلطة الحكم في الاسلام للامة في جملتها ، كل يقوم بقسطه من الاجتهاد في التشريع بالشورى والتنفيذ للأحكام والخضوع لها بشروطها

بعد أن بين تعالى وجوب القصاص وهو أصل العدل ، ذكر أمر العفو وهو مقتضى التراحم والفضل ، فقال ﴿فمن عفي له من أخيه شيء﴾ الخ اي فن عفاله أخوه في الدين من أولياء الدم عن شيء من حقهم في القصاص ولو واحداً منهم ان تعددوا وجب اتباعه وسقط القصاص كما يأتي ، وانما يعفو من له حق طلب القصاص ، وقد جعل الله هذا الحق لأولياء المقتول وهم عصبته الذين يمتزون بوجوده ويهانون بفقده ، ويجرمون من عونه ورفده ، فمن أزهق روحه كان لهم ان يطلبوا أزهاق روحه ، لما تستفزهم اليه نعمة القرابة وطبيعة المصلحة . فاذا لم يجب طلبهم ، ولم يقتض الحاكم لهم ، فانهم ربما يحتالون للانتقام ، ويفشو بينهم وبين القاتل وقومه القساحن والخصام ، واذا جاء العفو من جانبهم أمن المخدور والفتنة ، ولا سيما اذا كان من أسباب العفو استعطاف القاتل وقومه لهم ، واستعتابهم بإيهم ، باثارة عاطفة الاخوة الدينية ، وأريحية المروءة والانسانية ، ففي مثل هذه الحالة يوجب الله تعالى حجب الدم ، وليس للحكومة ان تمتنع من العفو اذا رضوا به ، ولان أن تستقبل بالعفو اذا طلبوا القصاص فتحفظ قلوبهم ، وتخرج أضعافهم ، وتحملهم

على محاولة الانتقام بأيديهم إذا قدروا ، فيزيد البلاء ، ويكثر الاعتداء ، أو يعيش الناس في تباغض وعداء ، وفوضى تستباح فيها الدماء . وعبرة الآية تشعر بأن الله تعالى يحب من عباده العفو ولذلك فرض اتباع العفو وإن لم يكن تأملاً متفقاً عليه من جميع أولياء الدم كالآباء والأبناء والأخوة ، فإن عفا بعضهم يرجح جانبه على الآخرين كما يدل عليه تكثير شيء في قوله (فمن عفى له من أخيه شيء) فقد ذهب جمهور المفسرين إلى أن « شيء » هنا نائب عن المصدر أي عفى له شيء من العفو بأن ناله بعضه ممن لهم المطالبة به ، ويؤيد هذا ويؤكد كده التعبير عن العافي بلفظ الآخر الذي يحرك عاطفة الرحمة والحنان ، وهو كما قال المفسرون يؤذن بأن القتل لا يقتضي الارتداد عن الإسلام وقطع أخوة الإيمان ، إلا إذا استحله فاعله

ومن مباحث اللفظ هنا أن بعض المفسرين أشكل عليهم استعمال عفى متعدية باللام وزعموا أنها بمعنى ترك قال البيضاوي تبعاً للكشاف : وهو ضعيف إذ لم يثبت عفا الشيء بمعنى تركه بل أعفاه ، وعفا يعدي بمن إلى الجاني وإلى الذنب قال الله تعالى (عفا الله عنك) وقال (عفا الله عنها) فإذا عدي به إلى الذنب عدي إلى الجاني باللام وعليه ما في الآية كأنه قيل : فمن عفى له عن جنائته من جهة أخيه يعني ولي الدم

ولما كان العفو عن القصاص يتضمن الرضى باخذ الدية قال تعالى ﴿ فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان ﴾ أي من ناله شيء من هذا العفو فالواجب في شأنه أو قضيته تنفيذ العفو وثبوت الدية ، وعبر عن الأول باتباع العفو بالمعروف ، وهو واجب على الإمام الحاكم وعلى العافي وغيره من الأولياء ، وإن لم يعفوا فعليهم أن لا يرهقوا القاتل من أمره عسراً بل يطلبون منه الدية بالرفق والمعروف الذي لا يستمكره الناس ، وعبر عن الثاني بالأداء إليه بإحسان ، وهو واجب على القاتل بأن لا يمتل ولا ينقص ولا يسيء في صفة الأداء . ويجوز العفو عن الدية أيضاً كما في قوله تعالى في سورة النساء (٤٦ : ٩٢) ودية مسلمة إلى أهله إلا أن يصدقوا) هذا هو الظاهر في الآية فلا حاجة إلى ذكر ما قالوه من احتمال غيره

ويؤكد رغبة الشارع في العفو امتنانه علينا بأجازته ووعيده لمن اعتدى ،

أما الامتنان به فقلوه ﴿ ذلك تخفيف من ربكم ورحمة ﴾ واي تخفيف ورخصة أفضل من حجب الدم بتجويز العفو ولا كتفا عنه بقدر معلوم من المال ؟ فمذه رحمة منه سبحانه بهذه الامة اذ رغبها في التراحم والتعاطف والعفو والاحسان ، وأما الوعيد على الاعتداء بعده فقلوه ﴿ فن اعتدى بعد ذلك ﴾ اي بعد العفو عن الدم والرضى بالدية بأن انتقم من القاتل ﴿ فله عذاب أليم ﴾ قيل معناه أنه يتحتم قتل الولي العافي أو غيره إذا قتل القاتل بعد العفو ولا يجوز العفو عنه ، بل يقتله الحاكم وإن عفا عنه ولي المنتول ، وبه قال جماعة من المفسرين كعكرمة والسدي . وقال عمر بن عبدالعزيز : أمره الى الامام يفعل فيه ما يراه . والجمهور على أن حكمه حكم القتاتل ابتداء ، وعليه مالك والشافعي ، والمراد بالعذاب الاليم عذاب الآخرة . قال الاستاذ الامام وهو الصحيح . وفي الحديث المرفوع عند أحمد وابن أبي شيبة والبيهقي وغيرهم ما يؤيده

ثم قال تعالى ﴿ ولكم في القصاص حياة ﴾ وهو تعليل لشرعية القصاص وبيان لحكمته ، وقدم عليه تعليل العفو والترغيب فيه والوعيد على الغدر بعده عناية به ، وايدانا بأن الترغيب في العفو لا يستلزم تصغير شأنه . وبيان الاسباب والحكم لوضع الاحكام العملية ، كاقامة البراهين والدلائل للمطالب العقلية ، بهذه يعرف الحق من الباطل ، ويتأكد يعرف المدل وما يتفق مع المصالح ، وبذلك يكون الحكم أوقع في النفس وأبعث على المحافظة عليه ، وأدعى الى الرغبة في العمل به — وقد بينت هذه الآيات حكمة القصاص بأسلوب لا يسامى ، وعبارة لا تحاكى ، واشتهر أنها من أبغ آي القرآن ، التي تعجز في التحدي فوسان البيان ، ومن دقائق البلاغة فيها أن جعل فيها الضد متضمناً للضد وهو الحياة في الامانة التي هي القصاص ، وعرف القصاص ونكر الحياة للاشعار بان في هذا الجنس من الحكم نوعاً من الحياة عظيماً لا يقدر قدره ، ولا يبجل سره .

ثم انها في إيجازها قد ارتقت أعلى سماء الإعجاز ، وكانوا ينقلون كلمة في معناها عن بعض بلغاء العرب يعجبون من إيجازها في بلاغتها ، ويحسبون أن الطاقة لا تصل إلى أبعد من غايتها ، وهي قولهم : القتل أننى للقتل . وإنما فتنوا بهذه الكلمة

(البقرة:س ٢) «أبلغية» في القصاص حياة» على القتل أنفى للقتل من ١٣ وجها ١٣١

وظنوا أنها نهاية ما يمكن أن يبلغه البيان ، ويفصح به اللسان ، لأنها قيلت قبلها
كلمات أخرى في معناها لبلاغتهم كقولهم : قتل البعض إحياء للجميع . وقولهم
أكثرنا القتل ليقول القتل . . وأجمعوا على أن كلمة : القتل أنفى للقتل . أبلغها ،
وأين هي من كلمة الله العليا ، وحكمته المثلث ؟

قال الامام الرازي : وبيان التفاوت من وجوه (أحدها) ان قوله (ولكم في
القصاص حياة) أخصر من الكل ، لان قوله (ولكم) لا يدخل في هذا الباب إذ
لا بد في الجميع من تقدير ذلك ، وإذا تأملت علمت أن قوله (في القصاص حياة) أشد
اختصاراً من قولهم : القتل أنفى للقتل . أي لان حروفه أقل . (وثانيها) ان قولهم :
القتل أنفى للقتل . ظاهره يقتضي كون الشيء سبباً لانتفاء نفسه وهو محال .
وقوله (في القصاص حياة) ليس كذلك لان المذكور هو نوع من القتل وهو
القصاص ، ثم ما جملة سبباً لمطلق الحياة لانه ذكر الحياة منكراً ، بل جملة سبباً
لنوع من أنواع الحياة (وثالثها) ان قولهم فيه تكرير للفظ القتل وليس في الآية تكرير
(ورابعها) ان قولهم لا يفيد إلا الردع عن القتل ، والآية تفيد الردع عن القتل وعن
الجرح وغيرهما فهي أجمع للفوائد (وخامسها) ان نفي القتل في قولهم مطلوب تبعاً
من حيث إنه يتضمن حصول الحياة ، وأما الآية فأنها دالة على حصول الحياة وهو
مقصود أصلي فكان هذا أولى (وسادسها) ان القتل ظاهراً قتل مع أنه لا يكون
نافياً للقتل بل هو سبب لزيادة القتل ، وإنما النافي لوقوع القتل هو القتل المحصوص
وهو القصاص ، فظاهر قولهم باطل ، وأما الآية فهي صحيحة ظاهراً وتقديراً . فظاهر
التفاوت بين الآية وبين كلام العرب . انه باختصار وتصرف يسيرين

وذكر السيد الالوسي هذه الوجوه باختصار أدق وزاد عليها نحوها فقال
(الاول) قلة الحروف فان الملفوظ هنا (أي في الآية) عشرة أحرف إذا لم يعتبر التنوين
حرفاً على حدة وهناك أربعة عشر حرفاً (الثاني) الاطراد إذ في كل قصاص حياة
وليس كل قتل أنفى للقتل ، فان القتل ظاهراً ادعى للقتل (الثالث) ما في تنوين (حياة)
من النوعية او التعظيم (لرابع) صنعة الطباق بين القصاص والحياة فان القصاص
تفويت الحياة فهو مقابلها (الخامس) النص على ما هو المطلوب بالذات أعني الحياة

فان نفي القتل انما يطلب لها لا لذاته (السادس) الغرابة من حيث جعل الشيء فيه حاصلًا في ضده ، ومن جهة ان المظروف اذا حواه الظرف صانعه عن التفرق ، فكأن القصاص فيما نحن فيه بحمي الحياة من الآفات (السابع) الخلو عن التكرار مع التقارب ، فانه لا يخلو عن استبشاع ولا يعد من رد المعجز على الصدر حتى يكون محسنا (الثامن) عذوبة اللفظ وسلاسته ، حيث لم يكن فيه ما في قولهم من توالي الاسباب الخفيفة ، اذ ايسر في قولهم حرفان متحركان على التوالي الا في موضع واحد ، ولا شك انه ينقص من سلاسة اللفظ وجريانه على اللسان ، وأيضا الخروج من الغاء إلى اللام أعدل من الخروج من اللام إلى الهمزة بعد الهمزة من اللام ، وكذلك الخروج من الصاد إلى الحاء أعدل من الخروج من الالف إلى اللام (التاسع) عدم الاحتياج إلى الحثية (أي التعليل) وقولهم يحتاج اليها (العاشر) تعريف القصاص بلام الجنس الدالة على حقيقة هذا الحكم المشتملة على الضرب والجرح والقتل وغير ذلك ، وقولهم لا يشمله (الحادي عشر) خلوهم من أفعال الموهوم أن في الترك نفياً للقتل أيضاً (الثاني عشر) اشتماله على ما يصلح للقتال وهو الحياة بخلاف قولهم فانه يشتمل على نفي اكتشفه قتلان وانه لما يليق بهم (الثالث عشر) خلوهم مما يوهمه ظاهر قولهم من كون الشيء سبباً لا انتفاء نفسه وهو محال — إلى غير ذلك فسبحان من علمت كلمته ، وبهرت آيته ، اهـ

واقول إن الآية على كونها أبلغ ، وكتبها أوجز ، قد أفادت حكماً لم تكن عليه العرب قبلاً ، ولم يطلبه أحد من عقلائهم وبلغائهم ، وهو المساواة في العقوبة . وبيان ان فيه الحياة الطيبة ، وصيانة الناس من اعتداء بعضهم على بعض ، وأما أمرهم بالقتل ليقول القتل أو ينتفي فهو يصدق باعتداء قبيلة على قبيلة والاسراف في قتل رجالها لتضعف فلا تقدر على أخذ الثأر فيكون المعنى : ان قتلنا لعدونا إحياء لنا ، وتقليل أو نفي اقلته إباناً ، وأين هذا الظلم من ذلك العدل ؟ فالآية الحكيمه قررت أن الحياة هي المطلوبة بالذات ، وان القصاص وسيلة من وسائلها ، لان من علم انه إذا قتل نفساً يقتل بها يرتدع عن القتل فيحفظ الحياة على من أراد قتله وعلى نفسه والاكتفاء بالدية لا يردع كل أحد عن سفك دم خصمه إن استطاع ، فان من الناس

من يبذل المال الكثير لاجل الايقاع بعدوه — وفي الآية من براعة العبارة ، وبلاغة القول ما يذهب باستبشاع إزهاق لروح في العقوبة ، ويوطن النفوس على قبول حكم المساواة إذ لم يسم العقوبة قتلا أو إعداما بل سماها مساواة بين الناس تنطوي على حياة سعيدة لهم ، هذا وإن دول الافرنج تجري على سنة عرب الجاهلية في جمل القتل لاعدائها وخصومها أنفى لقتلهم إياها . وذلك شأنهم مع الضعفاء ، كالشعوب التي ابتليت باستيلائهم عليها باسم الاستثمار أو غيره من الاسماء ، فأين هي من عدل الاسلام ، ومساواته بين جميع الانام ؟

قال تعالى — بعد هذا البيان، المتضمن للحكمة والبرهان ﴿ يا أولي الاباب ﴾ فخص بالنداء أصحاب العقول السكالة، مع أن الخطاب عام للتنبيه على أن ذا اللب هو الذي يعرف قيمة الحياة والمحافظة عليها ، ويعرف ما تقوم به المصلحة العامة وما يتوسل به اليها، وهو مرتبآن: القصاص وهو العدل ، والعفو وهو الفضل . كأنه يقول : ان ذا اللب هو الذي يفقه سر هذا الحكم وما اشتمل عليه من الحكمة والمصلحة ، فعلى كل مكلف أن يستعمل عقله في فهم دقائق الاحكام ، وما فيها من المنفعة للانام، وهو يفيد أن من ينكر منفعة القصاص بعد هذا البيان، فهو بلا لب ولا جنان، ولا رحمة ولا حنان ، وقوله ﴿ اعلمكم تتقون ﴾ جملة الجلال تعليلا لشرع القصاص وقدرله (شرع) أي لما كان في القصاص حياة لكم كتبناه عليكم وشرعناه لكم ، اعلمكم تتقون الاعتداء ، وتكفون عن سفك الدماء ، وقل الاستاذ الامام: ان هذا لا بأس به والشرعية مفهومة من الآية ، وإيجاز القرآن يقتضي عدم التصرح بها لاجل التعليل كما ضرح به في الآية التي قبلها (كتب عليكم) ويمكن أن يستغنى عن تقدير (شرع) ويتعاق الرجاء بانظر في قوله (ولكم في القصاص حياة) أي ثبتت لكم الحياة في القصاص اتمدكم وتهيثكم للتعوى و لاحتراس من سفك الدماء، وسائر ظروف الاعتداء، إذ العاقل حريص على الحياة ولوع بالاختذ بوسائلها، واحتراس من غوائلها

(١٨٠) كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ (١٨١) فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ، إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٨٢) فَمَنْ خَافَ مِنْ مَوْصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ

وجه التماس والاتصال بين هذه الآيات وما قبلها هو أن القصاص في القتل ضرب من ضروب الموت يذكر بما يطلب من يحضره الموت وهو الوصية. والخطاب فيه موجه إلى الناس كالمهم بأن يوصوا بشيء من الخير ولا سيما في حال حضور أسباب الموت وظهور أماراته لتكون خاتمة أعمالهم خيراً، وهو على نسق ما تقدم في الخطاب بالقصاص من اعتبار الأمة متكافئة يخاطب المجموع منها بما يطلب من الأفراد، وقيام الأفراد بحقوق الشريعة لا يتم إلا بالتعاون والتكافل والائتمار والتناهي، فلم يأمر البعض وجب على الآخرين حمله على الائتمار - ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ أي فرض عليكم يا معشر المؤمنين إذا حضرت الواحد منكم أسباب الموت وعلاماته ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْرًا﴾ أي إن كان له مال كثير يتركه لورثته ﴿الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي كتب عليكم في هذه الحالة أن توصوا للوالدين والأقربين بشيء من هذا الخير بالوجه المعروف الذي لا يستنكر ثقله بالنسبة إلى ذلك الخير ولا بكثرة الضارة بالورثة بأن لا يزيد الموصى به لهم ولا غيرهم من الأجانب عن ثلث المتروك للوارثين.

والوصية الاسم من الإيصاء والتوصية، وتطلق على الموصى به من عين أو عمل، وهي مندوبة في حال الصحة وتؤكد في المرض، وظاهر الآية أنها تجب عند حضور أمارات الموت للوالدين والأقربين، وفيه الخلاف الآتي. يقال أوصى

ووصى فلانا بكذا من العمل أو المال ، ووصى بفلان ، وأوصى له بكذا من مال أو منفعة . وأوصاه فيه — أى في شأنه . وإيضاء الله بالشيء وفيه أمره . وفسروا الخير بالمال وقيده الا كثرون بالكثير اخذا من التنكير ، ولم يقيده الجلال بذلك . قل الاستاذ الامام : لم يقتصر أحد من المفسرين على ذكر المال فقط إلا مفسرنا وقوله صادق فيما ذكره وجهاً وذكروا معه قول من قيده بالكثير كالبيضاوي ، وجزم المفسر بان الآية منسوخة بآية الموارث وحديث الترمذي « لا وصية لورث » ورده بعضهم ، فكلام الجلالين في المسألتين غير مسلم ، واني أفصل ماذهب اليه شخنا وأشرح استدلاله عليه فأقول :

أما الاولى فقد قالوا ان المال لا يسمى في العرف خيراً الا اذا كان كثيراً كما لا يقال فلان ذو مال إلا اذا كان ماله كثيراً ، وإن تناول اللفظ صاحب المال القليل ، وأيدوا هذا بما رواه ابن أبي شيبة عن عائشة (رض) قال لها رجل أريد أن أوصي ، قالت كم مالك؟ قال ثلاثة آلاف . قالت كم عيالك؟ قال أربعة ، قالت قال الله تعالى (إن ترك خيراً) وهذا شيء يسير فاتركه لعيالك فهو أفضل . وروى البيهقي وغيره ان علياً دخل على مولى له في الموت وله سبعمائة درهم أو ستمائة درهم فقال ألا أوصي؟ قال لا إنما قال الله تعالى (إن ترك خيراً) وليس لك كثير مال فذع مالك لورثتك — فعبارةها تدل على انهم ما كانوا يفهمون من الخير إلا المال الكثير . واختلفوا في تقدير الكثير فروى عبد بن حميد عن ابن عباس انه قال : من لم يترك ستمين ديناراً لم يترك خيراً . واختار الاستاذ الامام عدم تقديره لاختلافه باختلاف العرف ، فهو موكل عنده الى اعتقاد الشخص وحاله . ولا يخفى أن العرف يختلف باختلاف الزمان والاشخاص والبيوت ، فن يترك سبعمين ديناراً في منزل فقر ، وبلد فقر ، وهو من الدماء فقد ترك خيراً . ولكن الامير أو الوزير ، إذا تركا مثل ذلك في المصر الكبير ، فهما لم يتركا إلا العدم والفقر ، وما لا يفي بتجهيزهما إلى القبر .

وأما الثانية فهي خلافية والجمهور على ان الآية منسوخة بآية الموارث أو بحديث : لا وصية لوارث ، أو بهما جميعاً على أن الحديث مبين للآية . قال البيضاوي

وكان هذا الحكم في بدء الاسلام فنسخ بآية المواريث وبقوله عليه السلام «ان الله أعطى كل ذي حق حقه ألا لا وصية لوارث» وفيه نظر لان آية المواريث لا تعارضه بل تؤكد من حيث إنها تدل على تقدم الوصية مطلقا ، والحديث من الآحاد ، وتلقي الأئمة له بالقبول لا يلحقه بالمتواتر اه أي والظني من الحديث لا ينسخ النقضي منه فكيف ينسخ القرآن ، وكله قطعي ؟ وقد زاد الاستاذ الامام عليه القول بأنه لا دليل على أن آية المواريث نزلت بعد آية الوصية هنا ، وبأن السياق ينافي النسخ ، فان الله تعالى اذا شرع للناس حكما وعلم أنه مؤقت وانه سينسخه بعد زمن قريب فانه لا يؤكد ويوثقه بمثل ما أكد به أمر الوصية هنا من كونه حقا على المتقين ، ومن وعيد من بدله ، وبامكان الجمع بين الآيتين اذا قلنا ان الوصية في آية المواريث مخصوصة بغير الوارث ، بأن يخص القريب هنا بالمنوع من الارث ولو بسبب اختلاف الدين ، فاذا أسلم الكافر وحضرته الوفاة ووالداه كافران فله أن يوصي لهما بما يؤلف به قلوبهما ، وقد أوصى الله تعالى بحسن معاملة الوالدين وإن كانا كافرين (٨: ٢٩) ووصينا الانسان بوالديه حسنا ، وإن جاهدك لتشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما (الآية) ، وفي آية لقمان بعد الأمر بالشكر لله ولهما (٣١ : ١٥) وإن جاهدك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفا واتبع سبيل من أناب إليّ) الآية . أفلا يحسن أن يختم هذه المصاحبة بالمعروف بالوصية لهما بشيء من ماله الكثير (قال) وجوز بعض السلف الوصية للوارث نفسه بأن يخص بها من يراه أحوج من الورثة كأن يكون بعضهم غنياً والبعض الآخر فقيراً : مثال ذلك أن يطلق أبوه أمه وهو غني وهي لا عائل لها إلا ولدها ويرى أن ما يصيدها من التركة لا يكتفيها . ومثله أن يكون بعض ولده أو اخوته - إن لم يكن له ولد - عاجزاً عن الكسب فنحن نرى ان الحكيم الخبير اللطيف بعباده ، الذي وضع الشريعة والاحكام لمصلحة خلقه ، لا يحتم أن يساوي الغني الفقير ، والقادر على الكسب من يعجز عنه ، فاذا كان قد وضع أحكام المواريث العادلة على أساس التساوي بين الطبقات باعتبار أنهم سواسية في الحاجة ، كما أنهم سواء في القرابة ، فلا غرو أن يجعل أمر الوصية مقدما على أمر الارث ، أو يجعل

نفاذ هذا مشروطا بنفاذ ذلك قبله ، وبجمل الوالدين والاقربين في آية أخرى ، أولى بالوصية لهم من غيرهم ، لعلمه سبحانه وتعالى بما يكون من التفاوت بينهم في الحاجة أحيانا ، فقد قل في آيات الارث من سورة النساء (من بعد وصية يوصي بها أو دين) فأطلق أمر الوصية وقال في آية الوصية هنا ما هو تفصيل لتلك أقول ورأيت الالوسي نقل عن بعض فقهاء الحنفية أن آية الارث نزلت بعد آية الوصية بالاتفاق ، وأن الله تعالى رتب الميراث على وصية منكورة والوصية الاولى كانت معهودة ، فلو كانت ملك الوصية باقية لوجب ترتيبه على المعهود ، فلما لم يترتب عليه ورتب على المطلق دل على نسخ الوصية المقيدة ، لان الاطلاق بعد التقيد نسخ ، كما ان التقيد بعد الاطلاق نسخ اهـ .

فأما دعواه الاتفاق في التقدم والتأخر فلا دليل عليها ، وأما تأويله فظاهر البطلان ، وقاعدة الاطلاق والتقييد إن سلمت لا تؤخذ على اطلاقها لان شرع الوصية على الاطلاق لا ينافي شرع الوصية لصنف مخصوص ، ونظير هذا الامر بمواساة الفقراء مطلقا ، والامر بمواساة الضعفاء والمرضى منهم ، لا يتعارضان ، ولا يصحح أن يكون الثاني منهما مبطلا للاول ، إلا اذا وجد في العبارة ما ينفى ذلك وما في الآيتين ليس من قبيل تعارض المطاق والمقيد ، وإنما آية الوصية خاصة ، وذكر الوصية منكورة في آية الارث يفيد الاطلاق الذي يشمل ذلك الخاص وغيره ، فان سلمنا لذلك الحنفى أن آية الميراث متأخرة ، فلا نسلم له أنه كان يجب أن تذكر فيها الوصية بالتعريف لتدل على الوصية المعهودة ، إذ لو رتب الارث على الوصية المعهودة لما جازت الوصية لغير الوالدين والاقربين . ولو كان الاسلوب العربي يقتضي ما قاله لما قال علي وابن عباس وغيرهما من السلف بالوصية للوالدين والاقربين على ما تقدم ، وقد نقل ذلك الالوسي نفسه بعد ما تقدم عنه . ولكنه سعى التخصيص نسخا ، فنقل عن ابن عباس أنها خاصة بمن لا يرث من الوالدين والاقربين ، كأن يكون الوالدان كافرين . قال وروي عن علي كرم الله تعالى وجهه : من لم يوص عند موته لذوي قرابته — ممن لم يرث — فقد ختم عمله بمصيبة : ثم ذكر ان الاكثرين قالوا بأن هذه الوصية مستحبة لا واجبة ، وسمى هذا كذبه نسخا .

للأجواب . ولنا أن نقول أن أكثر علماء الأمة وأئمة السلف يقولون إن هذه الوصية المذكورة في الآية مشروعة ولكن منهم من يقول بعمومها ومنهم من يقول إنها خاصة بغير الوارث ، فحكمها إذا لم يبطل ، فما هذا الحرص على اثبات نسخها ، مع تأكيد الله تعالى إياها والوعيد على تبديلها ؟ إن هذا إلا تأثير التقليد

فقد علم مما تقدم أن آية الأنواريت لا تعارض آية الوصية فيقال بأنها ناسخة لها إذا علم أنها بعدها ، وأما الحديث فقد أرادوا أن يجعلوا له حكم المتواتر أو يلصقوه به بتلقي الأمة له بالقبول ليصلح ناسخاً ، على أنه لم يصل إلى درجة ثقة الشيخين به فلم يروه أحد منهما مسنداً ، ورواية أصحاب السنن محصورة في عمرو بن خارجة وأبي أمامة وابن عباس وفي إسناد الثاني إسماعيل بن عياش تكلموا فيه ، وإنما حسنه الترمذي لأن إسماعيل يرويه عن الشاميين ، وقد قوى بعض الأئمة روايته عنهم خاصة . وحديث ابن عباس معلول إذ هو من رواية عطاء عنه وقد قيل أنه عطاء الخراساني ، وهو لم يسمع من ابن عباس ، وقيل عطاء بن أبي رباح ، فإن أباً داود أخرجه في مراسيله عنه ، وما أخرجه البخاري من طريق عطاء بن أبي رباح موقوف على ابن عباس ، وما روي غير ذلك فلا نزاع في ضعفه ، فلم أنه ليس لنا رواية للحديث صححت إلا رواية عمرو بن خارجة ، والذي صححها هو الترمذي وهو من المتساهلين في التصحيح ، وقد علمت أن البخاري ومسلم لم يرضياها ، فهل يقال إن حديثاً كهذا تلقته الأمة بالقبول ؟

وقد توسع الاستاذ الامام هنا في الكلام على النسخ ، وما يخص ما قاله أن النسخ في الشرائع جائز موافق للحكمة وواقع ، فإن شرع موسى نسخ بعض الأحكام التي كان عليها إبراهيم ، وشرع عيسى نسخ بعض أحكام التوراة ، وشرعة الاسلام نسخت جميع الشرائع السابقة ، لأن الأحكام العملية التي تقبل النسخ إنما تشرع لمصلحة البشر ، والمصلحة تختلف باختلاف الزمان . فالحكيم العليم يشرع لكل زمن ما يناسبه ، وكما تنسخ شريعة بأخرى يجوز أن تنسخ بعض أحكام شريعة بأحكام أخرى في تلك الشريعة ، فالمسلمون كانوا يتوجهون إلى بيت المقدس في صلاتهم فنسخ ذلك بالتوجه إلى الكعبة وهذا لا خلاف فيه بين المسلمين .

ولكن هناك خلافا في نسخ أحكام القرآن ولو بالقرآن ، فقد قال أبو مسلم محمد ابن بحر الاصفهاني المفسر الشهير ليس في القرآن آية مذسوخة ، وهو يخرج كل ما قالوا انه منسوخ على وجه صحيح بضرب من التخصيص أو التأويل ، وظاهر ان مسألة القبلة ليس فيها نسخ للقرآن ، وانما هي نسخ لحكم لا ندرى هل فعله النبي صلى الله عليه وآله وسلم بجتهاده أم بأمر من الله تعالى غير اقرآن؟ (١) فان الوحي غير محصور في القرآن .

ولكن الجمهور على ان اقرآن ينسخ بالقرآن بناء على انه لا مانع من نسخ حكم آية مع بقائها في الكتاب يعبد الله تعالى بتلاوتها وتذكر نعمته بالانتقال من حكم كان موافقا للمصلحة وحال المسلمين في أول الاسلام ، الى حكم يوافق المصلحة في كل زمان ومكان . فانه لا ينسخ حكم إلا بأمر منه كالتخفيف في تكليف المؤمنين قتال عشر أمثالهم بالاكتفاء بمقالة الضعف بأن تقاتل المئة مثتين . (٢) وافتقوا على انه لا يقال بالنسخ إلا اذا تعذر الجمع بين الآيتين من آيات الاحكام العملية ، وعلم تاريخهما ، فعند ذلك يقال ان الثانية ناسخة الاولى . وأما آيات العقائد والفضائل والاخبار فلا نسخ فيها . ونسخ السنة بالسنة كنسخ الكتاب بالكتاب ، بل هو أولى وأظهر وكذلك نسخ السنة بالكتاب كما في مسألة القبلة ولا خلاف فيهما . ومن قبيل هذا نسخ الحديث المتواتر لحديث الآحاد

وأما الخلاف القوي فهو في نسخ القرآن بالحديث ولو متواترا ، أو الحديث المتواتر باخبار الآحاد ، والذي عليه المحققون الاولون ان الظني (وهو خبر الآحاد) لا ينسخ القطعي كالقرآن والحديث المتواتر . والخفية وكثير من محققى الشافعية صرحوا بجواز نسخ الكتاب بالسنة المتواترة ، لان النبي ﷺ معصوم في تبليغ

«١» يرجح الثاني قوله تعالى (وما جعلنا القبلة التي كنت عليها) والمختار عند شيخنا انها بيت المقدس كما تقدم قريبا فهي يجعل الله تعالى وليكنها ليست في القرآن «٢» المختار الذي قررناه في تفسير الآيتين (٦٥ و ٦٦) من سورة الانفال ان هذا ليس بنسخ أصولي ، وأن الآيتين نزلتا في وقت واحد ، وانما الاولى عزيمة في حال القوة ، والثانية رخصة في حال الضعف كما صرح فيها (راجع ص ٨٠ ج ١ تفسير)

١٤٠ المجازفة بنسخ الكتاب بالسنة الأحادية وبالقياس الحلي (التفسير : ج ٢)

الاحكام ، فتى أيقنا بالرواية عنه واستوفت شروط النسخ تعتبر ناسخه للكتاب كما اذا نسخت آية آية . وذهب آخرون ومنهم الامام الشافعي كما في رسالته المشهورة في الاصول بأنه لا يجوز نسخ حكم من كتاب الله بحديث مهما تكن درجته لان للقرآن مزايا لا يشاركه فيها غيره

وقد أورد الشافعي كثيراً من الاحاديث التي زعموا أنها ناسخة لاحكام القرآن وبين انها غير ناسخة بل بين انها مفسرة ومبينة (قال الاستاذ) ولا أعرف لابي حنيفة قولاً في هذه المسائل ، والاصوليون المتقدمون من الحنفية والشافعية لا يقولون بنسخ القرآن بغير المتواتر من الاحاديث وإن اشتهر بنحو رواية الشيخين وأصحاب السنن له ، والدليل ظاهر فان القرآن منقول بالتواتر فهو قطعي واحديث الاحاد ظنية يحتمل أن تكون مكذوبة من بعض رجال السند المتظاهرين بالصالح الخداع الناس

(أقول) وهناك تمييز آخر وهو ان كل ما في القرآن وحي من الله تعالى قطعاً ، وأما الاحاديث فان فيها ما هو من اجتهاد النبي عليه الصلاة والسلام وهو دون الوحي ، وإن كان قد تقرر ان النبي اذا أخطأ في اجتهاده لا يقر على الخطأ بل يبين له كافي قوله تعالى (٨ : ٦٧ ما كان للنبي أن يكون له أسرى) وقوله (٩ : ٤٣ عفا الله عنك لم أذنت لهم) وقال بعضهم ينسخ الكتاب بالسنة ولو خبر آحاد لان دلالة الآية على الحكم ظنية فيكأن الحديث لم ينسخ إلا حكماً ظنياً ، وفاتهم ان دلالة الحديث أيضاً ظنية فكأننا ننسخ حكماً ظنياً إسناداً الى الشارع قطعي بحكم ظني إسناداً اليه غير قطعي بل يحتمل أنه لم يقل به أو قاله رأياً لا تشريعاً . ولما كان الخلاف هنا ضعيفاً جداً احتاج القائلون بنسخ حديث « لا وصية لوارث » لآية الوصية الى زعم تواتره بتلقي الامة له بالقبول ، وقد علمت ان هذا غير صحيح . وقد صرح بعض الشافعية بأن الخلاف في نسخ الكتاب بالسنة انما هو في الجواز وأنه غير واقع قطعاً

وقولوا أيضاً ان السنة لا تنسخ الكتاب إلا ومعهما كتاب يؤيدها ، والظاهر في مثل هذه الحال أن يقال إن الكتاب نسخ الكتاب لانه الاصل ، وكأنهم أرادوا تصحيح قول من قل بالنسخ تعظيماً له أن يرد قوله ، وتعظيم الله تعالى أولى

ثم تعظيم رسوله يتلو تعظيمه ولا يبلغه ، وإنما يطاع الرسول ويتبع بأذن الله تعالى ومن أغرب مباحث النسخ أن شافعية — الذين يبالغ إمامهم في الاتباع فيمنع نسخ الكتاب بالسنة ، ثم هو يبالغ في تعظيم السنة واتباعها ولا يبالي برأي أحد يخالفها ، ثم هو يقول أن القياس لا يصار إليه إلا عند الضرورة كأكل الميتة كإرواه عنه الإمام أحمد — يقول بعضهم أن القياس الحلي ينسخ السنة مع أن البحث في العلة أمر عقلي يجوز أن يخطئ فيه كل أحد ، ويجوز أن يكون ما فهمناه من عموم العلة غير مراد للشارع ، فإذا جاء حديث يناقض هذا العموم وصح عندنا فالواجب أن نجعله مخصصاً لعلة عموم الحكم ، ولا نقول رجاءاً بالغيب أنه منسوخ لخالفته للعلة التي ظنناها . فإذا كانت المجازفة في القياس قد وصلت إلى هذا الحد وقد نجراً الناس على القول بنسخ مئات من الآيات ، وإلى إبطال اليقين بالظن ، وترجيح الاجتهاد على النص ، فعلينا أن لا نخجل بكل ما قيل ، وأن نعصم بكتاب الله قبل كل شيء ، ثم بسنة رسوله التي جرى عليها أصحابه والسلف الصالحون ، وليس في ذلك شيء يخالف الكتاب العزيز .

وصفوة القول أن الآية غير منسوخة بآية المواريث لأنها لا تعارضها بل تؤيدها ، ولا دليل على أنها بملها ، ولا بالحديث لأنه لا يصلح لنسخ الكتاب ، فهي محكمة وحكمها باق ، ولك أن تجعلها خاصاً بمن لا يرث من الوالدين والأقربين كما روى عن بعض الصحابة وأن تجعله على إطلاقه ، ولا تكن من المجازفين الذين يخاطرون بدعوى النسخ فتبذل ما كتبه الله عليك بغير عذر ، ولا سيما بعد ما أكد به بقوله ﴿حقاً على المتقين﴾ أي حق ذلك الذي كتب عليكم من الوصية أو حققته حقاً على المتقين لي ، المطيعين لكتابي . والمتبادر أن معنى المكتوب المفروض وبه قال بعضهم هنا ، وقال آخرون أنه للندب ، ويؤيد الفرضية قوله تعالى في وعيد المبدلين له ﴿فمن بدله﴾ أي بدل ما أوصى به الموصي ﴿بعدم ما سمعه﴾ من الموصي أو علم به علماً صحيحاً . من كتابة الوصية وهو مشروع كما سيأتي ومن الحكم بها ﴿فإنما﴾ فأنما على الذين يبدلون ﴿من ولي ووصي وشاهد وقد برئت منه ذمة الموصي وثبت أجره عند الله تعالى﴾ أن الله سميع ﴿لما يقولون المبدلون في ذلك﴾ عليم ﴿

بأعمالهم فيه فيجازيهم عليها، وهو يتضمن تأكيد الوعيد والضمير في الموضع الثلاثة راجع الى الحق او الايصاء اي اثره ومتعلقه

وقد قال بوجوب الوصية بعض علماء السلف واستدلوا عليه بالآية وبحديث « ما حق امرئ مسلم يبيت ليلتين وله شيء يريد أن يوصي به إلا ووصيته عند رأسه » رواه الجماعة كلهم من حديث ابن عمر . ومنهم عطاء والزهري وأبو مجلز وطلحة بن مصرف . وحكاه البيهقي عن الشافعي في القديم وبه قول اسحاق وداود . واختاره أبو عوانة الاسفرائيني وابن جرير وآخرون ائمن فتج الباري وقال الجمهور مندوبة وتقدم قولهم في الآية

ثم قال **﴿ فمن خاف من موص جنفا أو إثمأ فأصلح بينهم فلا إثم عليه ﴾** الجنف بالتحريك الخطأ ، والاثم يراد به تعمد الاجحاف والظلم ، والموصي فاعل الايصاء وقرأ حمزة والكسائي ويعقوب (موص) بالتشديد من التوصية . والمعنى إن خرج الموصي في وصيته عن المعروف والعدل خطأ أو عمداً فتنازع الموصى لهم فيه أو تنازعا مع الورثة فينبغي أن يتوسط بينهم من يعلم بذلك ويصلح بينهم ، ولا إثم عليه في هذا الاصلاح اذا وجد فيه شيء من تبديل الجنف والحيث لانه تبديل باطل الى حق وإزالة مفسدة بمصلحة، فقاما يكون اصلاح الا بترك بعض الخصوم شيئاً مما يراه حقاً له الآخر . قال الاستاذ الامام : الآية استثناء مما قبلها أي ان المبدل للوصية آثم إلا من رأى اجحافاً أو جنفا في الوصية فبدل فيها لاجل الاصلاح وإزالة التخاصم والتنازع والتعادي بين الموصى لهم ، فغير بخاف بدلا عن رأى أو علم بتدنية الموصي من التمتع بجنفه وإثمه وإحتماء من تقييد التصدي للاصلاح بالعلم بذلك يقينا ، يعني ان من يتوقع النزاع للجنف أو الاثم فله أن يتصدي الاصلاح وإن لم يكن موقنا بذلك ، وللتعبير عن مثل هذا العلم بالخوف شواهد في كلام العرب . والمصلح مثاب مأجور ، ونفي الاثم عن تبديل الوصية المحرم تبديلها يشعر بذلك ، إذ لو لم يكن التبديل للاصلاح مطلوباً لم ينف الاثم عنه . وختم الكلام بقوله **﴿ ان الله غفور رحيم ﴾** الاشعار بما في هذه الاحكام من المصلحة والمنفعة وبأن من خالف لاجل المصلحة مع الاخلاص فهو مغفور له

(١٨٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا
 كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَتَسْلَمُكُمُ لَتَتَّقُونَ (١٨٤) أَيَّامًا
 مَّعْدُودَاتٍ ، فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ
 أَيَّامٍ أُخَرَ ، وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ، فَمَن
 تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ ، وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ
 تَعْلَمُونَ (١٨٥) شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى
 لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ ، فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ
 فَلْيَصُمْهُ ، وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ،
 يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ
 وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ

الكلام في سرد الاحكام فلا حاجة الى التناسب بين كل حكم وما يليه ،
 والصيام في اللغة الامساك والكف عن الشيء ، وفي الشرع الامساك عن الأكل
 والشرب وغشيان النساء من الفجر الى المغرب احتسابا لله ، واعدادا للنفس
 وتهيئة لها لتقوى الله بالمراقبة له وتربية الارادة على ترك كبح جاح الشهوات ،
 ليقوى صاحبها على ترك المضار والمحرمات ، وقد كتب على أهل الملل السابقة
 فكان ركنًا من كل دين لانه من أقوى العبادات وأعظم ذرائع التهذيب ، وفي
 إعلام الله تعالى لنا بأنه فرضه علينا كما فرضه على الذين من قبلنا اشعار بوحدة
 الدين في أصوله ومقاصده ، وتأكيده لأمرو هذه الفرضية وترغيب فيها . قال الاستاذ
 الامام : أبهم الله هؤلاء الذين من قبلنا والمعروف ان الصوم مشروع في جميع
 الملل حتى الوثنية فهو معروف عن قدماء المصريين في أيام وثنياتهم ، وانتقل منهم

الى اليونان فكانوا يفرضونه لاسيا على النساء ، وكذلك الرومانيون كانوا يعنون
يا الصيام ، ولا يزال وثنيو الهند وغيرهم يصومون الى الآن ، وليس في أسفار
التوراة التي بين أيدينا ما يدل على فرضية الصيام ، وانما فيها مدحه ومدح الصائمين ،
وثبت ان موسى عليه السلام صام أربعين يوما وهو يدل على ان الصوم كان معروفا
مشروعا ومعددا من العبادات ، واليهود في هذه الازمنة يصومون أسبوعا تذكرا
لخراب اورشليم وأخذها ، ويصومون يوما من شهر آب . أقول وينقل أن التوراة
فرضت عليهم صوم اليوم العاشر من الشهر السابع وانهم يصومونه بابلته ولعلمهم
كانوا يسمونه عاشوراء ، ولهم ايام آخر يصومونها نهارا .

وأما النصراني فليس في اناجياهم المعروفة نص في فريضة الصوم وانما فيها
ذكره ومدحه واعتباره عبادة كالنهي عن الربا وإظهار الكتابة فيه ، بل تأمر
الصائم بدهن الرأس وغسل الوجه حتى لا تظهر عليه أماراة الصيام فيكون مرانيا
كالفرسيسين ، وأشهر صومهم وأقدمه الصوم الكبير الذي قبل عيد الفصح ، وهو
الذي صامه موسى وكان يصومه عيسى عليهما السلام ، والحواريون رضي الله عنهم ،
ثم وضع رؤساء الكنيسة ضروبا أخرى من الصيام وفيها خلاف بين المذاهب
والطوائف ، ومنها صوم عن اللحم وصوم عن السمك وصوم عن البيض واللبن ،
وكان الصوم المشروع عند الاولين منهم كصوم اليهود يأكلون في اليوم والليلة
مرة واحدة ، فغيروه وصاروا يصومون من نصف الليل الى نصف النهار ، ولا

نطيل في تفصيل صيامهم ، بل نكتفي بهذا في فهم قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا
كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ أي فرض عليكم كما فرض على
المؤمنين من اهل الملل قبلكم ، فهو تشبيه الفرضية بالفرضية ولا تدخل فيه صفته
ولا عدة ايامه ، وفي قصتي زكريا ومريم عليهما السلام انهم كانوا يصومون عن
الكلام ، أي مع الصيام عن شهوات الزوجية والشراب والطعام ، قال البيضاوي :
ان الصوم في اللغة الامساك عما تنازع اليه النفس ، لا مطلق الامساك كما يقول
الجمهور ، وقال أبو عبيدة من رواة اللغة : كل ممسك عن طعام أو كلام أو سير
فهو صائم ، ثم قال * خيل صيام وخيل غير صائمة * أي قيام بلا اعتلاف اهـ

﴿لعلكم تتقون﴾ هذا تعليل لكتابة الصيام ببيان فائدته الكبرى وحكمته العليا ، وهو انه يعد نفس الصائم لتقوى الله تعالى بترك شهواته الطبيعية المباحة الميسورة امثالاً لأمره واحتساباً للأجر عنده ، فتتربى بذلك إرادته على ملكة ترك الشهوات المحرمة والصبر عنها فيكون اجتنابها أيسر عليه ، وتقوى على النهوض باطاعات والمصالح والاصطبار عليها فيكون اشبات عليها أهون عليه ، ولذلك قال عليه السلام «الصيام نصف الصبر» رواه ابن ماجه وصححه في الجامع الصغير . وهذا معنى دلالة (لعل) على الترجي فالرجاء انما يكون فيما وقعت اسبابه ، وموضعه هنا المخاطبون لا المتكلم ، ومن لم يصم بالنية وقصد القربة لا ترجى له هذه الملكة في التقوى . فليس الصيام في الاسلام لتعذيب النفس لذاته بل لتربيتها وتزكيتها . قال شيخنا إن الوثنيين كانوا يصومون لتسكين غضب آلهتهم اذا عملوا ما يفضيهم ، أو لارضائهم واسمائهم الى مساعدتهم في بعض الشؤون والاغراض ، وكانوا يعقدون ان إرضاء الآلهة والتزلف اليها يكون بتعذيب النفس وإماتة حظوظ الجسد ، وانتشر هذا الاعتقاد في أهل الكتاب ، حتى جاء الاسلام يعلمنا ان الصوم ومحوه انما فرض لانه يعدنا للسعادة بالتقوى ، وان الله غني عنا وعن عملنا ، وما كتب علينا الصيام إلا لمنفعتنا .

(ثم قال ما معناه مبسوطاً) قلنا ان معنى «لعل» الاعداد والتهيئة ، وإعداد الصيام نفوس الصائمين لتقوى الله تعالى يظهر من وجوه كثيرة أعظمها شأناء وأنصعها يرها ناء ، وأظهرها أثراً ، وأعلاها خطراً (مترفاً) أنه أمره وكول إلى نفس الصائم لا رقيب عليه فيه إلا الله تعالى ، وسر بين العبد وربه لا يشرف عليه أحد غير سبحانه ، فاذا ترك الانسان شهواته ولذاته التي تعرض له في عامة الاوقات لجرد الامتثال لأمر ربه والخضوع لأرشاد دينه مدة شهر كامل في السنة ، ملاحظاً عند عروض كل رغبة له - من أكل نفيس ، وشراب عذب ، وفاكهة يانعة ، وغير ذلك كزينة زوجه أو جمالها الداعي إلى ملابتها - انه لولا اطلاع الله تعالى عليه ومراقبته له لما صبر عن تناولها وهو في أشد التوق لها ، لاجرم أنه يحصل له من تكرار هذه الملاحظة

المصاحبة للعمل ملكة المراقبة لله تعالى والحياء منه سبحانه أن يراه حيث نهاه، وفي هذه المراقبة من كمال الايمان بالله تعالى والاستغراق في تعظيمه وتقديسه أكبر معد للنفوس ومؤهل لها لضبط النفس ونزاهتها في الدنيا، ولإسعادتها في الآخرة

كما تؤهل هذه المراقبة النفوس المنحلية بها لسعادة الآخرة تؤهلها لسعادة الدنيا أيضاً، انظر هل يقدم من تلايس هذه المراقبة قلبه على غش الناس ومخادعتهم؟ هل يسهل عليه أن يراه الله آكل لا مواهم بالباطل؟ هل يمتثل على الله تعالى في منع الزكاة وهدم هذا الركن الركين من أركان دينه؟ هل يمتثل على أكل الربا؟ هل يقترب المنكرات جهاراً؟ هل يجترح السيئات ويسدل بينه وبين الله ستاراً؟ كلا؟ ان صاحب هذه المراقبة لا يستمرسل في المعاصي إذ لا يطول أمد غفلته عن الله تعالى، وإذا نسي وأثم بشيء منها يكون سريع التذكر قريب الفيم والرجوع بالتوبة الصحيحة (٢٠١: ٧) ان الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون) فالصيام أعظم مرب للارادة، وكلمج لجماح الاهواء، فأجدر بالصائم أن يكون حراً يعمل ما يعتقد أنه خير، لا عبداً للشهوات

انما روح الصوم وسره في هذا القصد والملاحظة التي تحدث هذه المراقبة وهذا هو معنى كون العمل لوجه الله تعالى. وقد لاحظته من أوجب من الأئمة تبين النية في كل ليلة ويؤيد هذا ماورد من الاحاديث المتفق عليها كقوله صلى الله عليه وسلم «من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه» رواه أحمد والشيخان وأصحاب السنن - قالوا أي من الصغائر، وقد يكون الغفران للكبائر مع التوبة منها لان الصائم احتساباً وإيماناً على ماينبأ يكون من التائبين عما اقترفه فيما قبل الصوم، وقوله في الحديث القدسي «كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فانه لي وأنا أجزي به» وفي حديث آخر «يدع طعامه وشرابه وشهوته من أجلي» رواهما البخاري وغيره وقد شرح الاستاذ الامام في هذا المقام حال أولئك الغافلين عن الله وعن أنفسهم الذين يفتطرون في رمضان عمداً، وذكر بعض حيل الذين يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله كالأدنياء الذين يأكلون ولو في بيوت الاخلية حيث تأكل الجرذ، والذين يفتطسون في الجداول والأنهار ويشربون في أثناء ذلك -

وما قذف بهؤلاء، وأما لهم ومن هم شر منهم كالمجاهرين بالفطر إلا تلقينهم العبادة جافة خالية من الروح الذي ذكرناه، والسر الذي أفضيناه، فحسبوا عقوبة كما كان يحسبها الوثنيون من قبل، وما كل إنسان يتحمل العقوبة راضياً مختاراً. ثم قال ماثله:

وهنا شيء ذكره بعضهم ويشتمز الإنسان من شره وبيانه وهو أن الصوم يكسر الشهوة بطبعه فتضعف النفوس ويمعز الإنسان عن الشهوات والمعاصي به وفيه من معنى العقوبة والاعنات ما كان يفهمه الكثير من جميع مطالب الدين وراثته عن آبائهم الأولين من أهل الديانات الأخرى، وإذا طبقنا هذا القول على مانعده وجوداً ووقوعاً لانجده واقعاً. لأن المعروف أن الإنسان إذا جاع يضرب بالشهوات وتقوى نهمة ويشتد قرهه، وآثار هذا ظاهرة في صوم أكثر المسلمين فانهم في رمضان أكثر تمتعاً بالشهوات منهم في عامة السنة، فما سبب هذا ومماثراه؟ أليس هو الضراوة بالشهوات - بلى، ولا ينافي ما ذكره الأستاذ الامام تشبيه النبي ﷺ الصوم بالوجاء في كسر سورة الشهوة، لأن المراد أن تأثيره في تربية النفس وتقوية الايمان يجعل صاحبه مالكا لنفسه يصرفها حسب الشرع لا حسب الشهوة

هذا ما كتبه ونشر في الطبعة الاولى ورآه شيخنا ثم بدا لي فيه فالحديث رواه الشيخان عن ابن مسعود ولفظه «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج» فانه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فانه له وجاء» والوجاء بالكسر رض الانثيين وهو يضعف الشهوة الزوجية إن لم يذهب بها كالخضاء والصيام يضعف هذه الشهوة إذا طال، واقتصر الصائم في الليل على قليل من الطعام، قال الحافظ في شرحه واستشكل بأن الصوم يزيد في تهيج الحرارة وذلك مما يشير الشهوة لكن ذلك إنما يقع في مبدأ الامر فإذا أتمادى عليه واعتاده سكن ذلك والله أعلم اهـ ومن وجوه إعداد الصوم للتقوى أن الصائم عند ما يجوع يتذكر من لا يجد قوتا فيحمله التذكر على الرأفة والرحمة الداعيتين إلى البذل والصدقة، وقد وصف الله تعالى نبيه بأنه رؤوف رحيم، ويرتضي لعباده المؤمنين ما ارتضاه لنبيه ﷺ ولذلك أسرم بالتأسي به ووصفهم بقوله (رحماء بينهم)

ومن فوائد عبادة الصيام الاجتماعية المساواة فيه بين الأغنياء والفقراء

والمالوك والسوقة ، ومنها تعليم الامة النظام في المعيشة لجميع المسلمين يفطرون في وقت واحد لا يتقدم أحد على آخر دقيقة واحدة وقلما يتأخر عنه دقيقة واحدة. ومن فوائده الصحية انه يعني المواد الراسبة في البدن ولا سيما ابدان المترفين أولي النهم وقليل العمل ، ويجفف الرطوبات الضارة ، ويطهر الامعاء من فساد الذرّب والسموم التي تحدثها البطننة ، ويذيب الشحم أو يحول دون كثرتة في الجوف وهي شديدة الخطر على القلب ، فهو كتضمير الخيل الذي يزيدها قوة على الكر والفر . قال عليه السلام «صوموا تصحوا» رواه ابن السني وأبو نعيم في الطب عن أبي هريرة وأشار في الجامع الصغير الى حسنه ويؤيده «اغزوا تغتنموا وصوموا تصحوا وسافروا تستغنوا» رواه الطبراني في الاوسط عنه . وقال بعض أطباء الافرنج ان صيام شهر واحد في السنة يذهب بالفضلات الميتة في البدن مدة سنة

وأعظم فوائده كلها الفائدة الروحية التعبدية المنصودة بالذات وهي أن يصوم لوجه الله تعالى كما هو الملاحظ في النية على ما قدمنا ، ومن صام لاجل الصحة فقط فهو غير عبد لله في صيامه فاذا نوى الصحة مع التعبد كان مثابا كن ينوي التجارة مع الحج ، فانه لولا العبادة لاكتفى بالجوع والحمية ، وآية الصيام بهذه النية والملاحظة التحلي بتقوى الله تعالى وما يقبها من أحسن الصفات والخلال ، وفضائل الاعمال وقال الاستاذ : لا أشك في أن من يصوم على هذا الوجه يكون راضياً مرضياً مطمئناً بحيث لا يجد في نفسه اضطراباً ولا انزعاجاً ، نعم ربما يوجد عنده شيء من الفتور الجسماني وأما الروحاني فلا ، وأعرف رجلاً لا يفضب في رمضان مما يفضب له في غيره ، ولا يمل من حديث الناس ما كان عمله في أيام الفطر ، وذلك لانه صائم لوجه الله تعالى (والظاهر انه يعني نفسه) ويؤيد قوله ماورد في علامات الصائم ، من ترك المعاصي والمآثم ، ومنها حديث أبي هريرة عند أحمد والبخاري وأصحاب السنن إلا النسا في مرفوعاً « من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه »

أين هذا كله من الصوم الذي عليه أكثر الناس وهو ما تراهم متفقين عليه من إثارته لسرعة السخط والحق ، وشدة الغضب لأدنى سبب ، واشتهر هذا بينهم

(البقرة: نس ٢) روح الصيام وما تجب مراعاته والتنزه عنه فيه ١٤٩

وأخذوه بالتسليم حتى صاروا يعتقدون أنه أثر طبيعي للصوم ، فهم إذا أخش أحدهم قال الآخر : لا عتب عليه فإنه صائم . وهو وهم استحوذ على النفوس فخل منها محل الحقيقة وكان له أثرها ، ومتى رسخ الوهم في النفس يصعب انتزاعه على العقلاء الذين يتعاهدون أنفسهم بالتربية الحقيقية دائماً ، فكيف حال الغافلين عن أنفسهم المنحدرين في تيار العادات والتقاليد الشائعة ، لا يتفكرون في مصيرهم ، ولا يشعرون في أي لجة يقذفون ، فتأثير الصوم في أنفسهم منافع للتقوى التي شرع لاجلها ، ومخالف للحاديث النبوية التي وصف بها أهلها ، ومن أشهرها حديث «الصيام جنة» وهي بضم الجيم الوقاية والستر فهو بقي صاحبه من المعاصي والآثام ، ومن عقابها وغايته دخول النار ، وللحديث ألفاظ وفيه زيادة في الصحاح والسنن . وذكر الحافظ في شرحه من الفتح لفظ أبي عبيدة (رض) عند أحمد «الصيام جنة ما لم يخرقها» زاد الدارمي «بالغية» وقال في هذه الزيادة: إن الغيبة تضر بالصيام وحكي عن عائشة وبه قال الأوزاعي أن الغيبة تغطر الصائم وتوجب قضاء ذلك اليوم . وأفرط ابن حزم فقال يبطله كل مصيبة من متعدد لها ذاكر لصومه الخ وقل الغزالي فيمن يعصي الله وهو صائم أنه كن يني قصراً ويهدم مصراً . [قال الاستاذ الامام] إن أكثر الناس يلاحظون في صومهم حفظ رسم الدين الظاهر وموافقة الناس فيما هم فيه حتى إن الحائض تصوم وترى الفطر في نهار رمضان عاراً ومأثماً ولا بأس بهذا الصوم من غير الحائض لحفظ ظاهر الاسلام وإقامة هيكل شعائره ، ولكنه لا يفيد الأفراد شيئاً في دينهم ولا في دنياهم لخلوه من الروح الذي يهدم للتقوى ، ويؤهلهم لمعاداة الآخرة والدنيا . وذكر في الدرس ما عليه الناس من الاستعداد لما كل رمضان وشرابه بحيث يتفقون فيه على ذلك ما يكاد يساوي نفقة سائر السنة . حتى كأنه موسم أكل ، وكأن الإمساك عن الطعام في النهار إنما هو لاجل الاستكثار منه في الليل ، وهذا هو الصوم المراد بقوله ﷺ « كم من صائم ليس له من صومه إلا الجوع والعطش » رواه النسائي وابن ماجه ولا تظيل بشرح ما عليه الناس فهم يعلمونه علماً تاماً وفيما كتب كفاية لمن يريد معرفة حقه من باطله

ثم بين تعالى ان الصيام الذي كتبه علينا معين محدود فقال ﴿أياماً معدودات﴾ أي معينات بالعدد أو قليلات وهي أيام رمضان كما سيأتي وروي عن ابن عباس وغيره قل المفسرون وعليه أكثر المحققين، وزعم بعض الناس ان هذه الايام غير رمضان وهي يوم عاشوراء وثلاثة أيام من كل شهر وعينها بعضهم بأنها الايام البيض أي الثالث عشر وما بعده ثم نسخت بآية «شهر رمضان» الآتية ولم يثبت في السنة أن الصوم كان واجباً على المسلمين قبل فرض رمضان ولو وقع لنقل بالتواتر لانه من العبادات العملية العامة . نعم ورد في الصحيح الآحادي أحاديث متعارضة في صوم يوم عاشوراء في الجاهلية وبعد الاسلام بعضها بالامر به في المدينة وبعضها بالتخيير، ولكن لا دليل على انه كان فرضاً عاماً في المسلمين، ولا على أنه نسخ، فهم لا يزالون يصومونه استحباباً من شاء منهم، بل يدل حديث «لئن بقيت إلى قابل لأصومن التاسع» مع ماورد من انه صلى الله عليه وسلم مات من سمته تلك على أن الامر بصوم عاشوراء كان في آخر زمن البعثة، وليس هذا محل تحييص هذه الروايات والجمع بينها ولكن كان لبعض العلماء واع بتكثير استخراج الناسخ والمذسوخ من القرآن لما فيه من الدلالة على سعة العلم بالقرآن وإن كان علماً بابطال القرآن بأدي الرأي، من غير حجة تضاهي حجة القرآن في القطع والقوة . ولا ينبغي المؤمن أن يحسب هذا هيئنا وهو عند الله عظيم .

﴿فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر﴾ أي من كان كذلك فافطر فعليه صيام عدة من أيام أخر غير تلك الايام المعدودات ، أي فالواجب عليه القضاء اذا أفطر بعدد الايام التي لم يصمها ، وكل من المريض والمسافر عرضة لاحتمال المشقة بالصيام ، واطلاق كلمة «مريضاً» يدل على أن الرخصة لا تتقيد بالمرض الشديد الذي يعسر معه الصوم ، وروي هذا عن عطاء وابن سيرين وعليه البخاري لان أمثال هذه الاحكام تقرن بمنظنة المشقة تحقيقاً للرخصة، فرب مرض لا يشق معه الصوم ولكنه يكون ضاراً بالمريض وسبباً في زيادة مرضه وطول مدته ، وتحقيق المشقة عسر ، وعرفان الضرر أعسر . واستدل الجمهور على

بقيده بالمرض الذي يعسر الصوم معه بقوله في الآية الأخرى (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) ولا دليل فانه تعليل لأصل الرخصة ، وكلها أن لا يكون فيها تضيق . وكذلك السفر يشمل إطلاقه وتنكيره الطويل والقصير وسفر المعصية . فالعمدة فيه ما يسمى في العرف سفرا كسائر الالفاظ المطلقة في الشرع . والعرف يختلف باختلاف أسباب المعيشة ووسائل النقل فالذي يركب في هذا الزمان سيارة بخارية أو طائرة هوائية مسافة ثلاثة أميال أو فراسخ أو مسافة يوم أو يومين يتقدر سير الاثقال لميكث مدة قصيرة ثم يعود إلى بلده وداره ، لا يسمى في العرف مسافراً بل متمزها . وقد جاء في السنة ما يؤيد هذا الاطلاق في السفر القصير فقد روى أحمد ومسلم وأبو داود عن أنس انه قال : كان رسول الله ﷺ إذا خرج مسيرة ثلاثة أيام أو ثلاثة فراسخ صلى ركعتين : ويرجح كون الرواية ثلاثة أميال حديث أبي سعيد عند سعيد بن منصور قال : كان رسول الله ﷺ إذا سافر فرسخا يقصر الصلاة والفرسخ ثلاثة أميال . بل روى ابن أبي شيبة بإسناد صحيح عن ابن عمر انه كان يقصر في الليل الواحد ، وما روي في قصره ﷺ في مسافة أطول لا يناق في هذا فان القصر فيها أولى ، ولا خلاف بين المسلمين في أن السفر الذي يباح فيه القصر يباح فيه الفطر ، وأما العاصي بالسفر فهو على دخوله في الاطلاق من جملة المكلفين المحاطين بالشريعة كلها كغيرهم كما تقدم بيانه في تفسير (فن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إنم عليه)

وزعم بعض المفسرين المتقدمين أن قوله تعالى (أو على سفر) يومئ إلى أن من سافر في أثناء اليوم لا يجوز له أن يفطر فيه بل يفطر في اليوم الثاني لان الكلمة تدل على التمكن من السفر بجملة كالمركوب ، ولكن السنة جرت بخلاف ذلك ، فقد روى البخاري وغيره عن ابن عباس قال : خرج رسول الله ﷺ إلى حنين ^(١) والناس مختلفون فصائم ومفطر ، فما استوى على راحلته دعا بانه من ابن أو ماء فوضعه على راحته أو راحلته ثم نظر إلى الناس فقال المفطرون للصوام افطروا : وفي حديث أنس وأبي بصرة الأمر بذلك وتسميته شمة .

(١) الصواب خرج إلى مكة كما صرح به في الروايات الاخرى في البخاري وغيره .

وفي لفظ آخر لابن عباس في البخاري وغيره : ان رسول الله ﷺ خرج الى مكة في رمضان فصام فلما بلغ الكديد (بفتح فكسر) أفطر فأفطر الناس : قال أبو عبدالله (البخاري) والكديد ماء بين عسفان وقديد (بالتصغير) (وفي رواية أخرى : حتى بلغ عسفان ، والكديد تابعة لعسفان وهي أقرب الى المدينة) قال الحافظ في الفتح : واستدل به على ان للمرء أن يفطر ولو نوى الصيام من الليل وأصبح صائماً فله أن يفطر في أثناء النهار وهو قول الجمهور وقطعه به أكثر الشافعية الخ . وذهبت الظاهرية أو بعضهم الى وجوب الافطار في المرض والسفر والآية لا تقتضيه وقد مضت السنة العملية بخلافه . وذهب قوم الى وجوب هذه العدة عليهما وان صاما ، ومقتضاها ان الله تعالى ضيق على المريض والمسافر وشدد عليهما ما لم يشدد على غيرهما وهو كما ترى . والصواب أن من صام فقد أدى فرضه ومن افطر وجب عليه القضاء ، وبذلك مضت السنة العملية فقد ورد في الصحيح انهم كانوا يسافرون مع النبي ﷺ منهم المفطر ومنهم الصائم لا يعيب احد على الآخر ، وانه كل يأمرهم بالافطار عند توقع المشقة فيفطرون جميعاً كما جاء في حديث أبي سعيد عند احمد ومسلم وأبي داود قال : سافرنا مع رسول الله ﷺ الى مكة ونحن صيام فترانا منزلاً فقال رسول الله ﷺ « انكم قد دنوتم من عدوكم والفطر اقوى لكم » فكانت رخصة فنا من صام ومنا من افطر ، ثم نزلنا منزلاً آخر فقال « انكم مصبحو عدوكم والفطر اقوى لكم فأفطروا » فكانت عزيمة فأفطرنا : الحديث ثم لقد رأيتنا نصوم بعد ذلك مع رسول الله ﷺ في السفر . وروى الجماعة كلهم عن عائشة ان حمزة بن عمرو الاسلمي قال للنبي ﷺ « أصوم في السفر ؟ » وكان كثير الصيام فقال « إن شئت فصم وإن شئت فأفطر » وفي مسلم انه أجابه بقوله « هي رخصة من الله فمن أخذ بها فحسن ومن أحب أن يصوم فلا جناح عليه » فدلّت هذه الرواية انه سأله عن صيام رمضان لآل الرخصة انما تطلق في مقابل الواجب »

وروى مسلم والنسائي والترمذي من طريق الدرر اوردي عن جعفر (الصادق) عن أبيه محمد (الباقر) بن علي (زين العابدين) عن جابر أن رسول الله ﷺ خرج

(التفسير: ج ٢) حديث ليس من البر الصيام في السفر والمذاهب فيه ١٥٣

الى مكة عام الفتح فصام حتى بلغ كراع الغميم (كراع بالغميم بالغتج وهو واد امام عسفان) وصام الناس معه فقليل له ان الناس قد شق عليهم الصيام وان الناس ينظرون فيما فعلت ، فدعا بقدر من ماء بعد العصر فشرب والناس ينظرون اليه فأفطر بعضهم وصام بعضهم ، فبلغه أن ناسا صاموا فقال « أوائك العصاة » أي لانهم أبوا الاقتداء به عليه السلام في قبول الرخصة والحال حال مشقة . وفي رواية أخرى تقدمت انه أمرهم أن يفطروا للاستعانة على لقاء عدوهم فلعصيان ظاهر وروى أحمد والشيخان وأبو داود والنسائي من حديث جابر قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر فرأى زحاما ورجلا قد ظلل عليه فقال « ما هذا ؟ فقالوا صائم » فقال « ليس من البر الصوم في السفر » وذكر الحافظ في شرحه من الفتح الخلاف في الافضل من الصيام والفطر في السفر وقال : الحاصل ان الصوم لمن قوي عليه أفضل من الفطر والفطر لمن شق عليه الصوم أو أعرض عن قبول الرخصة أفضل من الصوم ، وان لم يتحقق المشقة بخير بين الصوم والفطر ، وقد اختلف السلف في هذه المسئلة فدللت طائفة لا يجزئ الصوم في السفر عن الغرض بل من صام في السفر وجب عليه قضاؤه في الحضر لظاهر قوله تعالى (فعدة من أيام أخر) ولقوله عليه السلام « ليس من البر الصيام في السفر » ومقابلة البر الانتم وإذا كان أنما بصومه لم يجزئه وهذا قول بعض أهل الظاهر ^(١) وحكي عن عمر وابن عمر وأبي هريرة والزهرى وإبراهيم النخعي وغيرهم واحتجوا بقوله تعالى (فن كان منكم مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر) قالوا ظاهره فعليه عدة أو فالواجب عدة وتأوله الجمهور بأن التقدير فأفطر فعدة ، ومقابل هذا القول قول من قال ان الصوم في السفر لا يجوز إلا لمن خاف على نفسه الهلاك أو المشقة الشديدة حكاه الطبري عن قوم ، وذهب أكثر العلماء ومنهم مالك والشافعي وأبو حنيفة الى أن الصوم أفضل لمن قوي عليه ولم يشق ، وقال كثير منهم الفطر أفضل عملا بالرخصة وهو قول الاوزاعي وأحمد وإسحاق . وقال آخرون هو مخير مطلقا ، وقال آخرون .

(١) قال الشوكاني وحكاه في البحر عن أبي هريرة وداود والامامية اه وهو عمدة الامامية في وجوب الفطر في السفر مطلقا وتقدم الجواب عنه وهذه الرواية كالروايات السابقة كلها في السفر إلى مكة عام الفتح

أفضلهما أيسرها لقوله تعالى (يريد الله بكم اليسر) فإن كان الفطر أيسر عليه فهو أفضل في حقه وإن كان الصيام أيسر لمن يسهل عليه حينئذ وبشق عليه قضاؤه بعد فالصوم في حقه أفضل وهو قول عمر بن عبد العزيز واختاره ابن المنذر . والذي يرجح قول الجمهور ولكن قد يكون الفطر أفضل لمن اشتد عليه الصوم وتضرر به وكذلك من ظن به الاعراض عن قبول الرخصة كما تقدم نظيره في المسح على الخفين وسيأتي نظيره في تعجيل الافطار . وقد روى أحمد من طريق أبي طعمة قال قال رجل لابن عمر اني أقوى على الصوم في السفر . فقال له ابن عمر : من لم يقبل رخصة الله كان عليه من الانثم مثل جبال عرفة . وهذا محمول على من رغب عن الرخصة لقوله ﷺ « من رغب عن سنتي فليس مني » وكذلك من خاف على نفسه العجب أو الرياء إذا صام في السفر فقد يكون الفطر أفضل له . وقد أشار الى ذلك ابن عمر فروى الطبري من طريق مجاهد قال : اذا سافرت فلا تصم فانك إن تصم قل أصحابك : اكفوا الصائم ، ارفعوا للصائم ، وقاموا بأمرك وقالوا فلان صائم ، فلا تزال كذلك حتى يذهب أجرك . ومن طريق مجاهد أيضاً عن جنادة بن أمية عن أبي ذر نحو ذلك

(ثم قال الحافظ) وأما الحديث المشهور « الصائم في السفر كالفطر في الحضر » فقد أخرجه ابن ماجه من حديث ابن عمر مرفوعاً بسند ضعيف وأخرجه الطبري من طريق أبي سمية مرفوعاً أيضاً وفيه ابن لهيعة وهو ضعيف . وذكر ان ماعدا هذين في معناهما فهو موقوف ومنقطع الاسناد . ثم قال

وأما الجواب عن قوله ﷺ « ليس من البر الصيام في السفر » فسلك المجيزون فيه طرقاً فقال بعضهم قد خرج على سبب فيقصر عليه وعلى من كان في مثل حاله ، وإلى هذا جنح البخاري في ترجمته ولذا قال الطبري بعد أن ساق نحو حديث الباب من رواية كعب بن عاصم الأشعري ولفظه سافرتنا مع رسول الله ﷺ ونحن في حر شديد فإذا رجل من القوم قد دخل تحت ظل شجرة وهو مضطجع كضجة الوجع فقال رسول الله ﷺ « ما لصاحبكم أي وجع به ؟ » قالوا ليس به وجع ولكنه صائم وقد اشتد عليه الحر ، فقال النبي ﷺ حينئذ

« ليس البر أن تصوموا في السفر عليكم برخصة الله التي رخص لكم » فكان قوله ﷺ ذلك لمن كان في مثل ذلك الحال . وقال ابن دقيق العيد أخذ من هذه القصة أن كراهة الصوم في السفر مختصة بمن هو في مثل هذه الحالة ممن يحده الصوم وبشق عليه أو يؤدي به إلى ترك ما هو أولى به من الصوم من وجوه القرب . فينزل قوله « ليس من البر الصوم في السفر » على مثل هذه الحالة ، قال والمانعون في السفر يقولون إن اللفظ عام والعبرة بعمومه لا بخصوص السبب . قال وينبغي أن يذنبه للفرق بين دلالة السبب والسياق والقرائن على تخصيص العام وعلى مراد المتكلم وبين مجرد ورود العام على سبب فأن بين العامين فرقا واضحا ومن أجراهما مجرى واحداً لم يصب ، فإن مجرد ورود العام على سبب لا يقتضي التخصيص به كنزول آية السرقة في قصة سرقة رداء صفوان . وأما السياق والقرائن الدالة على مراد المتكلم فهي المرشدة لبيان المجملات وتعيين المحتملات كما في حديث الباب . وقال ابن المنذر في الحاشية: هذه القصة تشعر بأن من اتفق له مثل ما اتفق لذلك الرجل أنه يساويه في الحكم ، وأما من سلم من ذلك ونحوه فهو في جواز الصوم على أصله والله أعلم . وحمل الشافعي نفي البر المذكور في الحديث على من أبي قبول الرخصة فقال معنى قوله ليس من البر أن يبلغ رجل هذا بنفسه في فريضة صوم ولا نافلة وقد أرخص الله تعالى له أن يفطر وهو صحيح ، قل ويحتمل أن يكون معناه ليس من البر المفروض الذي من خالفه أثم ، وجزم ابن خزيمة وغيره بالمعنى الاول ، وقال الطحاوي المراد بالبر هنا البر الكامل الذي هو أعلى مراتب البر وليس المراد به إخراج الصوم في السفر عن أن يكون براً لأن الإفطار قد يكون أبر من الصوم إذا كان للتعوي على لقاء العدو مثلاً قال وهو نظير قوله ﷺ « ليس المسكين بانطواف » الحديث ، فإنه لم يرد إخراجهم من أسباب المسكنة كلها وإنما أراد أن المسكين الكامل المسكنة الذي لا يجد غنى يغنيه ويستحي أن يسأل ولا يفتن له

وعلى الذين يطبقونه فدية طعام مسكين ﴿ هذا هو القسم الثاني من التلستني وهو من لا يستطيع الصوم إلا بمشقة شديدة ، أي وعلى الذين يشق عليهم

الصيام فعلا فدية طعام مسكين عن كل يوم يفطرون فيه من أوسط ما يطعمون. منه أهلهم في العادة الغالة لا أعلاه ولا أدناه، ويطعم بقدر كفايته أكلة واحدة أو بقدر سبع المعتدل الأكلة وكانوا يقدرونها بمد وهو بالضم ربع الصاع وقدره بالحنفة وهي ملء الكفين من انقمح أو التمر، وترتب الفدية على الإفطار لاجل المشقة الشديدة يعرف بالقرينة كقوله (فمن كان منكم مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر) يعني إذا افطار . قل الأستاذ الامام: الطاقة أدنى درجات المكنة والقدرة على الشيء فلا تقول العرب أطاق الشيء إلا إذا كانت قدرته عليه في نهاية الضعف بحيث يتحمل به مشقة شديدة . فالمراد بالذين يطيقونه هنا الشيوخ الضعفاء والزمي الذين لا يرجى برء أمراضهم ونحوهم كالفعله الذين جعل الله معاشهم الدائم بالاشغال الشاقة كاستخراج الفحم الحجري من مناجمه ومنهم المحرمون الذين يحكم عليهم بالاشغال الشاقة المؤبدة إذا كان الصيام يشق عليهم بالفعل وكانوا يملكون الفدية ، أقول وهو مشتق من طاقة الحبل أو الخيط أو الفتلة الواحدة من فتله التي يبرم بعضها على بعض وتسمى القوة ، أو من الطوق وعليه قول الراغب : الطاقة اسم لمقدار ما يمكن للإنسان أن يفعله بمشقة وذلك تشبيهه بالطوق المحيط بالشيء فقوله (ولا تحملن ما لا طاقة لنا به) أي ما يصعب علينا مزاولته ، وليس معناه ولا تحملن ما لا قدرة لنا به ... وقوله (وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين) ظاهره يقتضي أن المطبق له يلزمه فدية أفطر أو لم يفطر ، لكن اجمعوا على أنه لا يلزمه إلا مع شرط آخر أي وهو الإفطار

وروى البخاري أن ابن عمر قال هي منسوخة وإن ابن عباس قال ليست بمنسوخة هي للشبيخ الكبير والمرأة الكبيرة لا يستطيعان أن يصوما فيطعمان مكن كل يوم مسكينا، ورواه أبو داود مع زيادة الحبل والحبل إذا خافنا يعني على أولادهما أفطرتا وأطعمتا . وأخرجه البزار أيضا وزاد في آخره : وكان ابن عباس يقول لأم ولد له حبل أنت بمنزلة الذي لا يطيقه فعليك الغداء ولا قضاء عليك . ولكن الشافعية يوجبون على الحبل والمرضع الفدية والقضاء معا . وفي حديث أنس بن مالك الكعبي عند أحمد وأصحاب السنن أن النبي ﷺ قال « إن الله

عز وجل وضع عن المسافر الصوم وشطر الصلاة وعن الحلي والمرضع الصوم» وروى الدارقطني والحاكم وصحاحه عن ابن عباس أنه قال رخص للشيخ الكبير أن يفطر ويطعم ولا قضاء عليه: وهذا ظاهر في معنى الآية وهو مذهب الشافعية في الشيوخ والعجائز ومن في حكمهم .

(قال شيخنا) ذهب كثيرون الى أن الآية منسوخة إذ فهموا أن الاطاقة بمعنى الاستطاعة وقدر بعض المفسرين كالجلال حرف نفي فقال : وعلى الذين لا يطيقونه فدية — ليوافق مذهبه والآية موافقة له من غير حاجة الى جعل الاثبات نفياً كما قلنا آنفاً ، وقال بعضهم ان المعزة في الاطاقة للسلب فعناها الذين لا يطيقونه من غير تقدير حرف النفي . وهو قول منقول معقول ، ويظهر بارادة سلب الطاقة أي القوة به لا قبله . والقاعدة انه لا يحكم بالنسخ اذا أمكن حمل القول على الاحكام

(أقول) وجملة القول ان المؤمنين على أقسام في الصيام (الاول) المقيم الصحيح القادر على الصيام بلا ضرر يلحقه ولا مشقة ترهقه والصوم واجب عليه حتما وتركه من الكبائر وذهب كثير من العلماء ان متعمده لا يقبل منه قضاء مثله ولا صيام لدهركاه (الثاني) المريض والمسافر ويباح لهما الافطار مع وجوب القضاء لان من شأن المرض والسفر التعرض للمشقة فاذا تعرضا للضرر بالفعل بأن علما أو ظنا ظناً قويا أن الصوم يضرهما وجب الافطار ، وقد فصلنا مسألة الخلاف في الافضل للمسافر والمختار عندنا أن الصيام أفضل اذا كان أيسر ولم يترتب عليه محذور آخر كحمل رفاقه في السفر على خدمته أو عجزه عن القيام ببعض المندوبات وما لا بد منه للمسافر وان لم يقيم به رفاقه ، فان كان يعجزه عن عمل واجب وجب الفطر وهو ظاهر في حديث أبي سعيد المتقدم في مسألة القوة على القتال ، والمريض كالمسافر في مسألة الافضل له وانه الأيسر ، ومن الامراض ما يكون الصيام علاجاً له أو مساعداً على زواله كما علم مما ذكرناه من فوائد الصحة

(الثالث) من يشق عليه الصوم لسبب لا يرجي زواله كاهلهم وضعف البنية الذي لا يرجي زواله والاشغال الشاقة الدائمة والمرض المزمن الذي لا يرجي برؤه

وكذلك من يتكرر سبب مشقته كالحامل والرضع وهؤلاء لهم أن يفطروا ويطعموا بدلا عن كل يوم مسكيناً ما يشيع الرجل المعتدل كما تقدم آنفاً

ثم قل تعالى بعد بيان الواجب الحتم والرخص فيه ﴿فمن تطوع خيراً﴾ بأن زاد على تلك الايام الممدودات ﴿فهو خير له﴾ لان فائدته وثوابه له والفاء في قوله فمن تطوع تدل على هذا لانها تفريع على حصر الفرضية في الايام الممدودات ولا يصلح تفريعا على حكم الفدية لان من سقط عنه الفرض دائما مع الفدية عنه لا يعقل ان يندب للتطوع الذي هو الزيادة على الفرض. وجعل (الجلال) التطوع متعلقا بالكفارة بأن يزيد على إطعام المسكين واستبعده شيخنا وأقرب منه شموله لما

﴿وان تصوموا خير لكم﴾ أي والصيام خير لكم كما قرأها ابي بن كعب (رض) وإيما هي تفسير. أي خير عظيم لما فيه من رياضة الجسد والنفس وتربية الارادة وتغذية الايمان بالتقوى وتقويته بمراقبة الله تعالى. قال ابو امامة للنبي ﷺ مرني بأمر آخذة عنك قال «عليك بالصوم فانه لا مثل له» رواه النسائي بسند صحيح ﴿ان كنتم تعلمون﴾ وجه الخيرية فيه لا ان كنتم تصومون تقليداً من غير فقه ، ولا علم بسر الحكم وحكمة التشريع ، وكونه لمصلحة المكلفين ، لان الله غني عن العالمين ، أو اتباعا لعادات الخلفاء والعاشرين . هذا ما يظهر من الآية ، وقد ذكر بعض المفسرون أن الخطاب فيها لاهل الرخص وأن الصيام في رمضان خير لهم من الترخص بالافطار ، وهذا غير مطرد ولا متفق عليه ، وتنافيه أحاديث وردت ويبعده التفريع بالفاء كما قدمنا ، ويدنا ما هو الافضل منه ومن الفطر

﴿شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن﴾ هذه الآية مستأنفة لبيان تلك الايام الممدودات التي كتبت علينا وانها ايام شهر رمضان ، وأن الحكمة في تخصيص هذا الشهر بهذه العبادة هي أنه الشهر الذي أنزل فيه القرآن ، وأفيضت على البشر فيه هداية الرحمن ، ببعثة محمد خاتم النبيين عليه الصلاة والسلام ، بالرسالة العامة للانام ، الدائمة الى آخر الزمان ، فالمراد بانزال القرآن فيه بدؤه وأوله ﴿هدى للناس﴾ أي أنزل حال كونه هدى كاملا للناس كافة ﴿وبيئات من الهدى﴾ أي وآيات بينات

واضحات لا لبس في حقيقتها ، ولا خفاء في حكمها وأحكامها ، من جنس الهدى .
الذي جاء به الرسل من قبل ، ولكنه أبينه واكمله ﴿ والفرقان ﴾ الذي يفرق
للمهتدي به بين الحق والباطل ، ويفصل بين الفضائل والذائل ، حتى أن يعبد
الله تعالى فيه ما لا يعبد في غيره ، تذكر أن الانعام بهذه الهداية وشكراً عليها .
والحكمة في ذكر الايام مبهمة أولاً وتعيينها بعد ذلك أن ذلك الابهام الذي يشعر
بالقلة يخفف وقع التكليف بالصيام الشاق على النفوس وهو الاصل إذ ليس رمضان
عاماً في الارض كما سيأتي بيانه قريباً . فثمان هذا التعيين والبيان جاء بعد ذكر حكمة
الصيام وفائدته وذكر الرخص لمن يشق عليه ، وذكر خيرية الصيام في نفسه
واستحباب التطوع فيه ، وكل ذلك مما يمد النفس لان تتأق بالقبول والرضى .
جمل تلك الايام شهراً كاملاً .

وانظر كيف ابتدأ هنا بذكر شهر رمضان وإنزال القرآن فيه ووصف القرآن بما
وصفه به حتى كأنه يحكي عنه لذاته بعد الانتهاء من حكم الصوم ، ثم ثنى بالامر
بصومه فلم يفاجيء النفوس به مع ذلك التمهيد له حتى قدم العلة على المعلوم ،
ولعل هذا من حكمة حذف خبر المبتدأ اذا قلنا ان كلمة (شهر رمضان) مبتدأ
أو حذف المبتدأ اذا قلنا انها خبر المحذوف . وقال الاستاذ الامام : ان حذف
الخبر جار على مانع هذه من ايجاز القرآن بحذف ما لا يقع الاشتباه بحذفه ، وان البيان
بعد الابهام جاء على أسلوبه في ذكر لاشياء ثم ذكر علمتها وحذيتها ، وهي هنا
انزال القرآن الذي هدانا الله تعالى به وجمعه آيات بينات من الهدى أي من
الكتب المنزلة ، والفرقان الذي يفرق بين الحق والباطل ، فوصفه بأنه هدى في نفسه .
لجميع الناس ، وأنه من جنس الكتب الالهية ، ولكنه الجنس العالي على جميع الاجناس .
فانه آيات بينات من ذلك الهدى السماوي ، وكتب الله كلها هدى ولكنها
ليست في بيانها كالقرآن ، واضرب لهم مثلاً كتاب دانيال النبي فان الله ما أنزله
عليه إلا لمهتدي به من يقرأه عليهم ولكنه لم يكن آيات بينات ، بل هو كالانغاز
ولرموز لا يفهم إلا بعناء ، وكذلك التوراة التي سماها الله تعالى نوراً وهدى فيها
غوامض ومشكلات وقع الاشتباه فيها ، فلم يكن ضياء الحق والهداية متبلجاً

وساطعنا من سطورها سطوعه من القرآن . والذي نراه في هذه الاناجيل أن تلاميذ المسيح انفسهم ما كانوا يفهمون كل ما يخاطبهم به من المواعظ والاحكام والبشائر وهي الانجيل الحقيقي في اعتقادنا

(أقول) بل فيها ان المسيح قال لهم انه لم يقل لهم كل شيء ، وان ثم أشياء كثيرة ينبغي أن نقال لهم أي لولا الموانع منها في عهده ، وبشرهم بأنه سيأتي بعده الفارقليط روح الحق الذي يقول لهم كل شيء — يعني محمدا خاتم النبيين عليهما الصلاة والسلام — وسيرى القسارىء تفصيل ذلك في تفسير سورة الاعراف ^{١١} ولكن لم ينقل الينا أن الصحابة عي عليهم شيء من آيات القرآن فلم يفهموها ، ولا أن علماء السلف حاروا في شيء منها ، فالقرآن يمتاز على سائر الكتب السماوية بأنه آيات بينات من الهدى الذى توصف به كلها ، وبنات من الامر الالهى الفارق بين الحق والباطل ، بيد أن المقلدين من المسلمين لم يرضوا كافة بأن يمتاز القرآن بالبيان الذى ليس بعده بيان والهدى لجميع الناس كما وصف نفسه ، فحاول بعضهم تغميضه وسلم لهم مقلدتهم أنه غامض لا يفهمه إلا أفراد من الناس أو تواتوا علماء جما ، وفاقوا سائر البشر بقولهم وأفهامهم ، كما فاقوهم بعلومهم ومعارفهم ، ثم زعموا أن هؤلاء الافراد كانوا في بعض القرون الاولى وهم المجتهدون ، وانهم قد انقرضوا ولم يأت بعدهم وان يأتي من يسهل عليه أن يفهم القرآن ولو احكامه فقط ، وتجد هذا القول المناقض للقرآن والناقض له مسلما بين جماهير المسلمين المقلدين ، حتى الذين يدعون أنهم علماء الدين ، ومن نبذه اهنداء بالقرآن ، ربما نبزوه بلفظ المكفر والظفيان ، فأى الفريقين أحق بصديق الايمان ، ؟ أما وسر الحق لولا أن المسلمين لبسوا على أنفسهم من القرآن ما يلبسون ، وحكموا فيه آراء من يقلدون ، لكان نور بيانه مشرقا عليهم وعلى سائر الناس ، كالشمس ليس دونها سحب ، وليكنهم أبوا إلا ان يتبعوا سنن من قبلهم شبرا بشبر وذراعا بذراع ، ويضعوا كتباً في الدين يزعمون ان بيانها اجلى ، والاهتداء بها أولى ، لانها يزعمهم آيين حكما ، واقرب الى الازهان فهما .

قلنا ان الله تعالى فرض علينا صيام هذا الشهر بخصوصه تذكيراً بنعمته علينا بانزال القرآن فيه لنصومه شكرآ له عليها، ومن الشكر أن تكون هدايتنا بالقرآن في مثل وقت نزوله أكل، ومنها أن يكون الصيام موصلاً إلى حقيقة التقوى، فإذا لم ننتفع بالصيام في أخلاقنا وأعمالنا، ولم نهتد بالقرآن في عامة أحوالنا، فأين الانتفاع بالنعمة وأين الشكر عليها؟ كان جبريل يدارس النبي ﷺ القرآن في رمضان، ولذلك كان السلف يتدارسون فيه ويقومون ليله به لزيادة الاهتداء والاعتبار، فإذا كان من اقتداء الخلف بهم؟ كان أن بعض الوجاه والاعنياء يستجصرون في رمضان من القراء من كان حسن الصوت يتغنى لهم بالقرآن في حجرات الخدم وهم في الغرفات مع أمثالهم وأفتالهم لاهون لاعبون، ومن عساه يصفى منهم أحياناً إلى القارئ قائماً يريد التلذذ بسماع صوته الحسن وتوقيفه الغنائي، فقد جعلوا القرآن إما مهجوراً وإما لذة نفسية فصدق عليهم قوله (أخذوا دينهم هزواً ولعباً)

وأما معنى إنزال القرآن في رمضان مع أن المعروف باليقين أن القرآن نزل منجماً متفرقاً في مدة البعثة كلها فهو أن ابتداء نزوله كان في رمضان وذلك في ليلة منه سميت ليلة القدر أي الشرف، واليلة المباركة كما في آيات أخرى، وهذا المعنى ظاهر لا إشكال فيه، على أن لفظ القرآن يطلق على هذا الكتاب كله، ويطلق على بعضه. وقد ظن الذين تصدوا لل تفسير منذ عصر الرواية أن الآية مشكلة، ورووا في حل الإشكال أن القرآن نزل في ليلة القدر من رمضان إلى سماء الدنيا وكان في اللوح المحفوظ فوق سبع سموات ثم نزل على النبي منجماً بالتدرج، وظاهر قولهم هذا أنه لم ينزل على النبي في رمضان منه شيء خلافاً لظاهر الآيات، ولا تظهر المنة علينا ولا الحكمة في جعل رمضان شهر الصوم على قولهم هذا لأن وجود القرآن في سماء الدنيا كوجوده في غيرها من السموات أو اللوح المحفوظ من حيث أنه لم يكن هداية لنا، ولا تظهر لنا فائدة في هذا الانزال ولا في الاخبار به، وقد زادوا على هذا روايات في كون جميع الكتب السماوية أنزلت في رمضان، كما قالوا أن الامم السابقة كانت صيام رمضان، قال الاستاذ الامام: ولم يصح من هذه الاقوال

١٦٢ فرض صيام رمضان على من شهدته وحكم الصيام في جهتي القطبين (التفسير: ج ٢)

والروايات شيء^(١) وإنما هي خواش أضافوها لتنظيم رمضان ، ولا حاجة لنا بها إذ يكفينا أن الله تعالى أنزل فيه هدايتنا وجعله من شعائر ديننا ومواسم عبادتنا ، ولم يقل تعالى انه أنزل القرآن جملة واحدة في رمضان ، ولا انه أنزله من اللوح المحفوظ إلى سماء الدنيا ، بل قال بعد إنزاله (هو قرآن مجيد في لوح محفوظ) فهو محفوظ في لوح بعد نزوله قطعاً . وأما اللوح المحفوظ الذي ذكروا انه فوق السموات السبع وان مساحته كذا ، وانه كتب فيه كل ما علم الله تعالى فلا ذكر له في القرآن . وهو من عالم الغيب فالإيمان به إيمان بالغيب يجب أن يوقف فيه عند النصوص الثابتة بلا زيادة ولا نقص ولا تفصيل ، وليس عندنا في هذا المقام نص يجب بالإيمان به^(٢)

﴿فن شهد منكم الشهر فليصمه﴾ أي فن حضر منكم دخول الشهر أو حلوله بأن لم يكن مسافراً فليصمه وإنما يكون ذلك في أكثر البلاد التي تتألف السنة منها من اثني عشر شهراً . وشهوده فيها يكون برؤية هلاله ، فعلى كل من رآه أو ثبتت عنده رؤية غيره له أن يصوم . وإذا لم يره أحد في الليلة الثلاثين من شعبان وجب صيام يومها وكان أول رمضان مابعد . والاحاديث في هذا ثابتة في الصحاح والسنن ، وجرى عليها العمل من الصدر الاول الى اليوم . وقال بعض المفسرين : ان المراد بالشهر هنا الهلال ، وكانت العرب تعبر عن الهلال بالشهر ، ويردونه أنهم لا يقولون : شهد الهلال ، وإنما يقولون رآه ، ومعنى شهد حضر ، وقال بعضهم ان المعنى : فن كان حاضراً منكم حلول الشهر فليصمه .

قال الاستاذ الامام : وإنما عبر بهذه العبارة ولم يقل «فصوموه» لمثل الحكمة التي لم يحدد القرآن مواقيت الصلاة لاجلها ، وذلك ان القرآن خطاب الله العام لجميع البشر وهو يعلم أن من المواقع ما لا شهور فيها ولا أيام معتدلة بل السنة كلها قد تكون فيها يوماً وليلة تقريباً كالجهات القطبية ، فالمدة التي يكون فيها القطب الشمالي في ليل وهي نصف السنة يكون القطب الجنوبي في نهار وبالعكس ، ويقصر الابل والنهار ويطولان على نسبة القرب والبعد عن القطبين ويستويان في خط الاستواء وهو وسط الارض

(١) فيها حديث وثالة مرفوعا عند احمد وابن جرير وغيرهما وهو غير صحيح (٢) راجع تفصيل هذا البحث في تفسير (٦ : ٥٩ كل في كتاب مبين) ص ٤٦٩ ج ٧ تفسير

أرأيت هل يكلف الله تعالى من يقيم في جهة القطبين وما يقرب منها أن يصلي في يومه (وهو سنة أو مقدار عدة أشهر) خمس صلوات إحداها حين يطلع الفجر والثانية بعد زوال الشمس الخ ويكلفه أن يصوم شهر رمضان بالتعيين ولا رمضان له ولا شهور؟ كلا ان من الآيات الكبر على كون هذا القرآن من عند الله المحيط علمه بكل شيء لا من تأليف البشر ما تراهم فيه من الاكتفاء بالخطاب العام الذي لا يتقيد بزمان من جاء به ولا مكانه، ولو كان من عند النبي ﷺ لكان كل ما فيه مناسبا لحال زمانه وبلاده وما يليها من البلاد التي يعرفها، ولم تكن العرب تعرف أن في الارض بلاداً نهارها كمدة أنهر أو أشهر من أنهرنا وأشهرنا ولياليها كذلك

فنزّل القرآن وهو علام الغيوب وخالق الارض والافلاك خاطب الناس كافة بما يمكن أن يمشثوه، فأطلق الامر بالصلاة والرسول بين أوقاتها بما يناسب حال البلاد المعتدلة التي هي القسم الاعظم من الارض، حتى إذا وصل الاسلام الى أهل البلاد التي أنهرنا اليها يمكنهم أن يقدروا للصلوات باجتهادهم والقياس على ما بينه النبي ﷺ من أمر الله المطلق - وكذلك الصيام ما أوجب رمضان إلا على من شهد الشهر وحضره، والذين ليس لهم شهر مثله يسهل عليهم أن يقدروا له قدره. وقد ذكر الفقهاء مسألة التقدير بعد ما عرفوا بعض البلاد التي يطول ليلا ويقصر نهارها والبلاد التي يطول نهارها ويقصر ليلا، واختلفوا في التقدير على أي البلاد يكون؟ فقليل على البلاد المعتدلة التي وقع فيها التشريع كمكة والمدينة وقيل على أقرب بلاد معتدلة اليهم وكل منهما جائز فانه اجتهادي لا نص فيه.

﴿ومن كان مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر﴾ أعيد ذكر الرخصة ثلاثا يتوهم - بعد تعظيم أمر الصوم في نفسه وأنه خير ويندب التطوع به وبعد تحديده بشهر رمضان الذي له من الفضل والشرف ما له - أن صوم هذا الشهر حتم لا تتناوله الرخصة أو تتناوله ولكن لا تحمد فيه، ولعمري ان تأكيد الصوم بمثل ما أكدّه الله تعالى به يفتضي تأكيد امر الرخصة ايضا، ولولا ذلك ما اتاها متق الله في صيامه، بل روى المحدثون ان بعض الصحابة عليهم الرضوان كانوا على تأكيد امر

الرخصة في القرآن يتحامون الفطر في السفر أولا حتى ان النبي ﷺ أمرهم به في بعض الاسفار فلم يمتثلوا حتى أفطر هو بالفعل وسمى الممتنع عن الفطر عاصيا كما تقدم .

﴿ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ﴾ هذا تعليل لما قبله أي يريد فيما شرعه من هذه الرخصة في الصيام، وسائر ما شرعه لكم من الاحكام، أن يكون دينكم يسرا تاما لا عسر فيه . قال الاستاذ : إن في هذا التعبير ضربا من التحريض والترغيب في إتيان الرخصة ، ولا غرو فله يحب ان يؤتى رخصه كما تؤتى عزائمه . وقد اختلف العلماء في الأفضل للمريض والمسافر على اقوال ثلثها التخيير (أقول) والآية تشعر بأن الأفضل ان يصوم إذا لم يلحقه مشقة او عسر لا نفعاء علة الرخصة وإلا كان الأفضل ان يفطر لوجود علتها ، وبدأ كد بوجود مصلحة أخرى في الفطر كالقوة على الجهاد وتقدم بسطه ، ذلك بأن الله لا يريد إعناء الناس بأحكامه وإنما يريد اليسر بهم وخيرهم ومنفعتهم ، وهذا اصل في الدين يرجع اليه غيره ومنه اخذوا قاعدة « المشقة تجلب التيسير » وورد في هذا أحاديث كثيرة من أشهرها « يسروا ولا تعسروا ، وبشروا ولا تنفروا » متفق عليه من حديث أنس . والمراد بالارادة هنا حكمة التشريع لا ارادة التكوين . زرت بيت المقدس في عهد طاهي العالم بطرابلس في الحرم سنة ١٣١١ فاجتمعت في مدينة الخليل عليه السلام بفتيتها الرجل الصالح من آل التميمي فسألني ممتحنا : يقول الله تعالى (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) وما يريد الله تعالى لا يجوز تخلفه عقلا ولكننا نرى العسر واقعا مشاهدا فكيف هذا ؟ قلت ان الآية في تعليل الرخصة في الصيام للمريض والمسافر لا في التكوين والتقدير كالعسر في المال والرزق ، فأعجبه الجواب ودعا لي بالفتح ، ولم أكن حضرت شيئا من تفسير القرآن في ذلك العهد

ثم قال ﴿ ولتكلوا العدة ﴾ قرأ الجمهور لتكلموا بالتخفيف من الاكمال وأبو بكر عن عاصم بالتشديد من التكيل ، واللام للتعليل وهي معطوفة على التعليل المستفاد من قوله (يريد الله بكم اليسر) كأنه قال : رخص لكم في حالي المرض والسفر لانه يريد بكم اليسر وان تكلموا العدة فمن لم يكملها اداء لعذر المرض أو السفر

أكلها قضاء بعده . وقيل انها تنموية الفعل كما في قوله (يريدون ليطلعوا نور الله) اي يريد الله بكم اليسر وان تكملوا العدة ، وهو يجري في كلام البلغاء كثيراً ورجحه الاستاذ الامام **رحمه الله** على ما هداكم **عليه السلام** اليه من الاحكام النافعة لكم بأن تذكروا عظمته وكبرياه وحكمته في اصلاح عبادته وانه يريد بهم بما يشاء من الاحكام ، ويؤدبهم بما يختار من التكليف ، ويتفضل عليهم عند ضعفهم بالرخص **اللازمة** بحالهم **رحمهم الله** ولعلكم تشكرون **عليه السلام** له هذه النعم كلها ، بالقيام بها على وجهها ، واعطاء كل من العزيمة والرخصة حقها ، فتكونوا من الكاملين ذهب جمهور المفسرين إلى أن في الكلام ثلاثة تعليقات مرتبة بأسلوب النشر على اللف بتقدير فعل محذوف عامل في جملة الاحكام الماضية ، أي شرع لكم ما ذكر من صيام أيام معدودات هي شهر رمضان لمن شاهده سالماً صحيحاً لتكملوا العدة - والتعبير بالعدة دون عدة الشهر يشعر بما قاله الاستاذ الامام من أن الاصل في التكليف العام للصوم هو الايام المعدودات وكونها رمضان بعينه خاص بمن شاهده ممن لم تتناول الرخصة وهذا من دقة القرآن الغريبة وبلاغته التي لا يحظر مثلها على قلب بشر ، وشرع لكم القضاء على من أفطر في مرض يرجى برؤه أو سفر - لتكبروه وتمظؤوا شأنه على ما هداكم اليه من الجمع بين الرخصة بالفطر والعزيمة بالقضاء - وشرع لكم الفدية في حال المشقة المستمرة بالصوم وأراد بكم اليسر دون العسر لعلكم تشكرون هذه النعمة . وقد صورنا ترتيب التعليل الذي ذكروه ، بما نراه أوضح مما صوروه به . هذا ما كتبه أولاً وطبع في المرة الاولى .

وأقول الآن ان الاظهر أن يقال ان إكمال العدة لتعليل لكون الصيام المشروع أياماً معدودات لابد من استيفائها اداء في حال العزيمة وقضاء في حال الرخصة ، وإرادة اليسر دون العسر لتعليل للرخص **الثلاث** للسفر والمرض والمشقة التي تقتضي الفدية ، والتكبير لتعليل لإكمال العدة بصيام الشهر كله ، ومظهوره الاكبر في عيد الفطر إذ شرع فيه التكبير القولي عامة ليلة وإلى ما بعد صلاته ، وبذلك كله تكون من شاكرين له على هذه النعم كلها وعلى غيرها .

(١٨٦) وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ
الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ، فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ

روی ابن جریر وابن ابی حاتم وغیرهما فی سبب نزول هذه الآية أن اعرابا
جاء الى النبي ﷺ فقال : أقرب ربنا فنأجبه ، أم بعيد فنناديه ؟ فسكت عنه
فأنزل الله الآية . وأخرج عبد الرزاق عن الحسن قال : سأل أصحاب رسول الله
ﷺ النبي ﷺ أن ربنا ؟ فنزلت . ورووا في سببه غير ذلك مما هو أضعف
سنداً ، وأقل ناصراً وعدداً ، وقال الاستاذ الامام : عند ذكر السبب الاول هذا
السؤال ليس ببعيد من العرب أو الاعراب لذين اعتادوا أن يتخذوا وسائل بينهم
وبين إلههم يقرّبونهم إلى الله خالق السموات والارض ، وهؤلاء الوسائل والوسائط
إما أشخاص وإما أمثلة أشخاص كالتماثيل والاصنام ، ولم يهتدوا بأنفسهم إلى
التجرد لمعرفة ذلك الاله الواحد العظيم بأنه لا يتقيد بشي حتى هداهم اليه القرآن بآياته
البيّنات ، فكانوا أهل التوحيد الخالص . ولكن الآية جاءت بين آيات الصيام
فهي ليست بأجنبية منها وإنما هي متصلة بما قبلها من الاحكام ، فقد طالعنا في الآية
السابقة باكمل عدة الصيام وتكبير الله تعالى ، وذكر أن ذلك يعدنا لشكره تعالى ،
والتكبير والشكر يكونان بالقول نحو : الحمد لله والله أكبر - كما يكونان بالعمل ،
وما كان بالقول يأتي فيه السؤال : هل يكون برفع الصوت والناداء ، أم بالخافتة
والمناجاة ؟ فجاءت هذه الآية جواباً عن هذا السؤال الذي يتوقع إن لم يقع ، فهي في
محالها سواء صح ما رويوه في سببها أم لا

(قال) ويروى في نزولها سبب آخر وهو ان النبي ﷺ سمع المسلمين
يدعون الله تعالى بصوت رفيع في غزوة خيبر فقال لهم «أربعوا على أنفسكم فانكم
لا تدعون أصم ولا غائباً» وعلى كل حال تفيدنا الآية حكماً شرعياً وهو انه لا ينبغي
رفع الصوت في عبادة من العبادات إلا بالمقدار الذي حدده الشرع في الصلاة
الجمهرية وهو أن يسمع من بالقرب منه ، ومن بالغ في رفع صوته ربما بطلت صلاته ،

(البقرة : س ٢) معنى قرب الله تعالى من عباده والمراد من أخبارهم به ١٦٧

ومن تعتمد المبالغة في الصباح في دعائه أو الصلاة على نبيه كان إلى عبادة الشيطان ، أقرب منه إلى عبادة الرحمن

(أقول) أما الحديث فقد رواه أحمد والشيخان وأصحاب السنن من طرق إلى أبي عثمان النهدي عن أبي موسى قال : كنا مع النبي ﷺ في سفر فجعل الناس يجهرون بالتكبير فقال النبي ﷺ « أيها الناس أربعوا على أنفسكم فانكم لا تدعون أصم ولا غائبا ، انكم تدعون سميعا قريبا وهو معكم » وفي رواية انهم كانوا يرفعون أصواتهم بالتهليل والتكبير إذا علوا عقبة أو ثنية . وليس في هذه الروايات ذكر الآية ولكن الحديث في المقام فانهم كانوا يرفعون أصواتهم بالتكبير للأمور به في الآية السابقة فدلّت الآية على ما صرح به الحديث من النهي فكان الحديث تفسيرا لها بل هو عمل بها وذكره ابن العادل في تفسيره من أسباب نزولها

قل تعالى ﴿ واذا سألك عبادي عني فاني قريب ﴾ هذا التفات عن خطاب المؤمنين كافة بأحكام الصيام ، الى خطاب الرسول عليه الصلاة والسلام ، بأن يذكروهم ويعلمهم ما يراعونه في هذه العبادة وغيرها من الطاعة والاخلاص والتوجه اليه وحده بالدعاء ، الذي يعدم لاهدي والرشاد ، وجعلت بأسلوب الفتوى على تقدير السؤال لتنبيه الالذهان ، والمراد أن يؤمنوا بأن الله تعالى قريب منهم ليس بينه وبينهم حجاب ولا ولي ولا شفيع يبلغه دعاءهم وعبادتهم ، أو يشاركه في إجابتهم أو اثابتهم ، ليتوجهوا اليه وحده خائفاء مخلصين له الدين .

وقال البيضاوي في وجه الاتصال : واعلم انه تعالى لما أمرهم بصوم الشهر ومراعاة العدة وحشهم على القيام بوظائف التكبير والشكر عقبه بهذه الآية الدالة على انه خبير بأحوالهم ، سميع لأقوالهم ، مجيب لدعائهم ، مجاز على أعمالهم ، تاكيدا له وحثا عليه . اهـ ونحن نعلم أن الاحكام العملية إنما تشرع لتقوية الايمان وإصلاح النفس ، ولذلك كان من سنة القرآن الحكيم أن يبين مع كل حكم حكمة تشريعه وفائدته في تقوية الايمان ، ويمزج لكلام فيه بما يذكر بمظمة الله تعالى ، ويعين على مراقبته والتوجه اليه ويثبت الايمان به كهذه الآية . وباليت فقهاءنا اقتدوا بهدي القرآن

فلم يجعلوا كتب الاحكام جافة قاصرة على ذكر الاعمال البدنية ، كأن الدين دين مادي جسماني لا غرض للقلوب والارواح فيه

وأما معنى قرب الله تعالى فقد قالوا : انه القرب بالعلم بمعنى أن علمه محيط بكل شيء فهو يسمع اقوال العباد ويرى أعمالهم . وعبرة البيضاوي : وهو تمثيل لكمال علمه تعالى بافعال العباد وأقوالهم وإطلاعهم على أحوالهم بحال من قرب مكانه منهم . وإنما جعلوا الكلام تمثيلاً لأن القرب والبعد الحقيقي إنما يكونان باعتبار المكان وهو منزّه عن الانحصار في المكان . وقل الاستاذ الامام : يصح أن يكون من قرب الوجود فن الذي لا يتحيز ولا يتحدد تكون نسب الامكنة وما فيها اليه واحدة ، فهو تعالى قريب بذاته من كل شيء إذ منه كل شيء . إيجاداً وإمداداً واليه المصير اه وهذا الذي قاله من الحقائق العالاية وعليه السادة الصوفية فقد قال احد العلماء في قوله تعالى (٥٦ : ٨٥) ونحن اقرب اليه منكهم) اي إذا بلغت روحه الحلقة : انه القرب بالعلم ، وكان احد كبار الصوفية حاضراً فقال : لو كان هذا هو المراد لقال تعالى في تنمة الآية ولكن لا تعلمون . ولكنه لم ينف العلم عنهم وإنما قال (ولكن لا تبصرون) وليس من شأن العلم ان يبصر فينفى هنا ابصاره وإنما ذلك شأن الذات . اه بالمعنى وهو مذكور بنصه في كتاب اليواقيت والجواهر للشمراني . وعلى كل حال لازم القرب مقصود وهو عدم الحاجة إلى رفع الصوت ولا إلى الوساطة بينه وبين عبادته في الدعاء وطلب الحاجات كما كان عليه المشركون في التوسل بالشفعاء والوسطاء إلى الله تعالى كأنه قال : فأخبرهم بأنني قريب منهم وانني اقرب اليهم من حبل الوريد (أي كما في سورة ق)

هذا ما كتبه من التعليق على كلمة شيخنا في قرب الوجود وطبع أولاً واطلع هو عليه ، ثم استشكله بعض اخواننا السلفيين بأنه مخالف لمذهب السلف فانهم يتأولون او يفسرون القرب بالعلم كالتكلمين ، ويقولون ان الله تعالى فوق عبادهم بأن من خلقه ، مستوعب عرشه ، وعبرة الاستاذ على اجمالها اقرب الى مذهب السلف من تأويل المتكلمين ومن وافقهم من السلفيين فان البائن من كل شيء الذي لا يتحيز ولا يتحدد هو الذي تكون نسبة جميع الامكنة ومن فيها اليه واحدة وهي المبنونة المطلقة

التي يقتضيها المعلوم فوق كل شيء والاحاطة بكل شيء. وقرب الصفات لا يعقل بدون قرب الذات، اذ لا انفصال بينهما ولا انفكاك، والتحقيق ان مذهب السلف إمرار النصوص في الصفات على ظاهرها من غير تعليل ولا تمثيل ولا تأويل، والله تعالى قد اسند القرب في هذه الآية وآتي سورة الواقعة وسورة ق الى ذاته فناخذ هذا الاسناد على ظاهره مع اثبات تنزيهه عن مماثلة خلقه واثبات صفات الكمال له التي ينهم بها المراد من هذا القرب في كل سياق بحسبه، والجامع فيه ما ذكره الاستاذ من الابداد للعباد والامداد لهم في أثناء وجودهم ومصيرهم اليه بعد انتهاء آجالهم، فالقرب في سورة ق يناسب الابداد والعلم بالحفظ على قولهم ن قوله (اذ يتلقى المتلقيان) متماق بقوله (ونحن أقرب اليه من جبل الوريد) والقرب في سورة الواقعة يناسب المصير اليه تعالى كما يعلم مما بعده، وقربه في الآية التي نفسرها يناسب الامداد بسمع الدعاء واجابته وهي من متعلقات القدرة والرحمة والغرض منه تقرير توحيد العبادة كما قررناه آنفاً وقد بينه بياناً مستأنفاً بقوله

(أجيب دعوة الداع) منهم بنفسي من غير واسطة (إذا دعان) وتوجه إلى وحدي في طلب حاجته. أي يجب ان يدعى وحده بدون واسطة لانه هو الذي خلق الانسان ويعلم ما توسوس به نفسه بدون واسطة، وهو الذي يجب دعوته وحده بدون واسطة تعينه او تساعد او تنوب عنه في الاجابة وقضاء الحاجة او تؤثر في إرادته وقد فسروا الدعوة بطلب الحاجات وقالوا ان ظاهر الآية ان الاجابة وصف لازم لله تعالى وأنه يجيب كل داع، وأيس الامر كذلك كما هو ثابت بالمشاهدة، وأجابوا بأن المراد ان من شأنه الاجابة فهو يجيب إن شاء كما قال في آية أخرى (فيكشف ما تدعون اليه إن شاء) فهو على حد قولك فلان يعطي الكثير فاطلب منه، أي ان من شأنه ذلك ولا يلزم منه أن يعطي كل طالب عين ما طلبه. وأجاب بعضهم بأن الاجابة أعم من إعطاء السؤال، وقد ورد في الحديث الصحيح ان الاجابة تكون باحدى ثلاث إما أن يعجل له دعوته وإما أن يدخر له وإما أن يكف عنه من سوء مثلها. ولا حاجة إلى التأويل إذ لا محل للشكال فان الآية سيقت لبيان أن الله تعالى قريب من عباده المتوجهين اليه فلا حاجة بهم الى الصياح

بتكبيره ودعائه ، ولا إلى أن يتخذوا وسطاء بينهم وبينه في التوجه إليه وسؤال رحمته وفضله ، بل يجب أن يصمدوا إليه وحده فانه هو الذي يجب دعاءهم وحده (أقول) : وأما كيفية اجابته بإيهم فليس من موضوع الآية ، ولا شك أن العارف بالله تعالى والعالم بشرعه وبسننه في خلانه لا يقصد بدعائه ربه إلا هدايته إلى البارق . والاسباب التي جرت سننه تعالى بأن تحصل الرغائب بها ، وتوفيقه ومعاونته فيها ، فهو إذا سأل الله تعالى أن يزيد في علمه أو في رزقه فلا يقصد أن يكون العلم وحيًا يوحى . ولا أن تمطر له السماء ذهبًا وفضة ، وكذلك إذا سأل الله شفاء مرضه أو مريضه الذي أعيام علاجه فانه لا يريد بذلك أن يحرق الله العادات ، أو يجعله مؤيدًا بالمعجزات والآيات ، وإنما يريد المؤمن العارف بالدعاء ما ذكرنا من توفيق الله . وإياه إلى العلاج ، أو العمل الذي يكون سبب الشفاء ، سواء كان ذلك بإرشاد مرشد أو بالهام إلهي ، فكم لله من عناية بالتوجهين إليه الداعين له بعد ما اجتهدوا في الأخذ بالاسباب فلم يفلحوا . ومن عنايته الهداية إلى سبب جديد ، وإلهام النفس العمل المفيد ، وتقوية المزاج على المرض ولا دليل في الآية على أن كل دعاء يحجب بل هي نفسها دليل على أنه لا يجيب الدعاء إلا الله ، فيجب أن لا يدعى سواه (١٨:٧٢) وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً) فمسي أن يهتدي بهذا الموصومون بسمة الايمان ، الذين يدعون عند الضيق غير الرحمن ، ويتوجهون إلى القبور : يا فلان يا فلان . ويتأول لهم هذا الشرك ادعياء العلم والعرفان ، بأن الكرامات ثابتة عندهم الاموات كالأحياء ، ولكن الله تعالى يقول لهم (بل إياه تدعون فيكشف ما تدعون إليه إن شاء) وانظر كيف لم يقل انه يجيب دعوة الداعي حتى قيدها بقوله (إذا دعاني) قال الاستاذ الامام مامثاله : ان الداعي شخص يطلب شيئاً وهو يصدق على أكثر الناس الذين يطلبون كل يوم أشياء كثيرة وليس كل واحد منهم متحققاً بدعاء الله تعالى وحده كما يجب أن يدعى ، فهو يقول أجيب دعوة الداعي اذا خصني بالدعاء والتجأ إليّ التجاء حقيقياً بحيث ذهب عن نفسه إليّ ، وشعر قلبه بأنه لا مأجأ له إلا إليّ ، ومثل هذا لا يطمع في غير مطعم ، ولا يطلب مالا يصح أن يطلب ، وإنما يمثل أمر الله تعالى باتخاذ جميع الوسائل من طرقها الصحيحة المعروفة

وهي لا تتحقق إلا بالعلم والعزيمة والعمل ، فإن تم للعبد ما يريد بذلك فقد أعطاه الله تعالى من خزائنه التي يفيض منها على جميع متبعي سذنه في الخلق ، وإن بذل جهده ولم يظفر بسؤله فما عليه إلا أن ياجأ الى مسبب الاسباب وهادي القلوب الى ماغاب عنها وخفي عليها ، ويطلب المعونة والتوفيق ممن بيده مذكوت كل شيء . وقد قل بعض السلف ان مثل هذا يحاب لا محالة . وقالت الصوفية الدعاء المحاب هو الدعاء بلسان الاستعداد ، وقد استعاذ النبي عليه الصلاة والسلام من الطمع في غير مطعم فن يترك السعي والكسب ويقول : يارب ألف جنهيه : فهو غير داع ، وانما هو جاهل . ومثل ذلك المريض لايراعي الحمية ولا يتخذ الدواء ، ويقول رب اشفني وعافني ، كأنه يقول اللهم أبطل سذنتك التي قلت انها لا تبدل ولا تحول لأجلي (١) وكما استجاب الله لنا من دعاء ، وكشف عنا من بلاء ، ورزقنا من حيث لا نحتسب ولا نتخذ الاسباب . ولكن بتسخيره هو للاسباب (٢)

سأل سائل في الدرس : اذا كان الرزق مقدراً فعلام السؤال ؟ فقال الاستاذ : اذا كانت إجابتى أو عدمها مقدراً فلم السؤال ؟ هذا لا يقال وانما ينبغي أن يقال بما الحكمة في طلب الدعاء منا في هذه الآية وغيرها من الآيات والأحاديث كحديث «الدعاء مخ العبادة» والله تعالى يعلم ما في أنفسنا وما تنطوي عليه سرائرنا ؟ قالت الصوفية : ان المراد بالدعاء فزع القلب الى الله وشعوره بالحاجة الى معونته والتجاؤه اليه . ويحتجون بما روي في قصة ابراهيم صلى الله عليه وآله وسلم من

(١) راجع مقالة الدعاء في المجدد السادس من المنار (ص ٤٠٦) وتفسير (٧: ٥٤) ادعور بكم تضرعاً وخفية في ص ٤٥٦ ج ٨ تفسير من الطبعة الاولى و ص ٢٥٦ منه (٢) مرض شيخنا مرة بالدوسنطارية وطال مرضه وتعمر علاجه فرأى في المنام قائلاً يقول له ارسل من يأتيك ماء من مكان كذا واشرب منه تشفى ، ففعل فشفى ثم ذهب الى ذلك المكان فاذا بماء في حفرة تحت شجر السنط فعلم ان فائدة الماء في اصلاح فساد الامعاء انما هي بسبب ما يتحلل فيه جذور السنط وورقه من مادته العنصرية القابضة . ومرض اخي السيد ابراهيم ادهم مرضاً طويلاً ثم رأى النبي (ص) في الرؤيا فامرته ان يشرب من كوب كان بالقرب منه فاستيقظ فشرب فقام من مرضه صحيحاً معافى . وامثال هذا الالهام والتأثير الروحي في الرؤيا كثير

أن جبريل سأله قبل أن ياتي في النار ألك حاجة ؟ قل أما إليك فلا . قل فادع الله . قل حسبي من سؤال علمه بحالي .

(أقول) ولكن ظاهر الآيات والاحاديث يدل على أن الدعاء مطلوب بالقول، مع التوجه الى الله بالقلب، ومنه الادعية الماثورة في الكتاب والسنة وذلك أن الدعاء باللسان هو أثر الشعور بالحاجة الى الله تعالى وفزع القلب اليه ، فان لم يكن أثره فهو مذكور به وهو أعظم مظاهر الايمان، ولذلك سماه النبي ﷺ مخ العباداة فهو يطالب لذلك وإجابة الله الدعاء تقبله ممن أخلص له وفزع اليه بروحه ورضاؤه عنه سواء أوصل اليه ماطلبه في ظاهر الامر أم لم يصل . والحديث رواه الترمذي من حديث أنس (رض) وسنده ضعيف ومثله صحيح فهو بمعنى حديث « الدعاء هو العباداة » بصيغة الحصر وهو صحيح رواه أحمد والبخاري في الادب المفرد وأصحاب السنن الاربعة وغيرهم من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه

﴿ فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي ﴾ قالوا : استجاب له واستجابه وأجابه إلى الشيء واحد وهو أن يفعل ما دعاه اليه ويؤتيه ماطلبه منه . وقال الراغب الاستجابة قيل هي الاجابة ، وحقيقتها التحري للجواب والتميز له لكن عبر به عن الاجابة لقلة انفكاكها منها اه وأورد الشواهد عليه من الآيات ومنها هذه الآية . وقد ذكرت في تفسير (٢٤:٨) استجيبوا لله وللرسول ان الاقرب الى الفهم قلب ما قاله الراغب وعكسه وهو ان الاستجابة هي الاجابة بعناية واستعداد فتكون زيادة السنين والتناء للمبالغة وهو يقرب مما قالوه في معانيهما من التكلف والتحري والطلب أو هو بعينه، إلا انه لا يعبر به فيما يسند الى الله تعالى كقوله (فاستجاب لهم ربهم) والمعنى : واذا كنت قريباً منهم مجيباً لدعوة من دعاني منهم فليستجيبوا هم لي بتحري ما أمرتهم من الايمان والاعمال النافعة لهم كالصيام وغيره مما أدعوم اليه كما أجيب دعوتهم بقبول عبادتهم، وتولي اعانتهم . فلا يـة تفيد أن المنفرد بإجابة الدعاء هو الذي يطاع طاعة العباداة ، فاذا دعانا غيره الى عبادة اخترعها باجتهاده لا دليل عليها فيما أوجاه الله الى نبيه لا نجييه اليها كما أننا لا ندعو غيره تعالى . وقال المفسرون في الأمر بالايمان هنا انه أمر بالمداومة عليه لان الخطاب المؤمنين

وذهب الاستاذ الامام الى أن الخطاب عام وأن حظ من استجاب لله وللرسول منه أن يحاسب نفسه ويطالبها بأن تكون اعماله الظاهرة التي عد بها مسلما صادرة عن الايمان اليقيني والاحتساب والاخلاص لله تعالى ففي ذكر الايمان بعد الاستجابة اشارة الى أن من الناس من يستجيب الى الاعمال ويقوم بها وهو خلو من روح الايمان (١٤:٤٩) قالت الاعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الايمان في قلوبكم ﴿ لعلمهم يرشدون ﴾ أي بالجمع بين الايمان والاذعان للامر والنهي . والرشد والرشاد ، ضد النقي والفساد ، فعلنا ان الاعمال اذا لم تكن صادرة بروح الايمان لا يرجى ان يكون صاحبها راشدا مهديا ، فمن يصوم اتباعا للعادة وموافقة للمعاشرين فان الصيام لا يعمده للتقوى ولا للرشاد ، وربما زاده فسادا في الاخلاق وضراوة بالشهوات . لذلك يذكرنا تعالى في اثناء سرد الاحكام بأن الايمان هو المقصود الاول في اصلاح النفوس وانما نفع الاعمال في صدورها عنه وتمكينها اياه

(١٨٧) أَحَلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصَّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ ، عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ ، فَالْسِّنْ بِشِرُّوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ، وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ، ثُمَّ أَتِمُّوا الصَّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ ، وَلَا تُبَشِّرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَجِدِ ، تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا ، كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ

بعد هذا عاد الى سرد بقية أحكام الصيام فقال ﴿ أحل لكم ليلة الصيام

الرفث الى نساءكم ﴿ روي في سبب نزول هذه الآية ان الصحابة كانوا اذا أفطروا يأكلون ويشربون ويتفشون النساء الى وقت النوم فاذا نام أحدهم ثم استيقظ من الليل صام ولو كان في أول الليل ، وروي ان أهل الكتاب كانوا يصومون كذلك وأن الصحابة فهموا من قوله تعالى (كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم) أن التشبيه يتناول كيفية الصوم فوقع لبعضهم ان وقع على امرأته في الليل بعد النوم فشكا ذلك للنبي ﷺ ولبعضهم أن نام قبل أن يفطر ثم استيقظ فواصل الصوم الى اليوم الثاني وكان عاملاً فأضواء الجوع حتى غشي عليه فذكر خبره للنبي ﷺ فنزلت ، قال بعض المفسرين هذه الآية ناسخة لقوله (كما كتب على الذين من قبلكم) وقال بعضهم لا نسخ هنا فان التشبيه ليس من كل وجه وانما هو في الغرضية لا في الكيفية ، وهذه الآية متصلة بما قبلها متممة لاحكام الصوم مبينة لما امتاز به صومنا من الرخصة التي لم تكن لمن قبلنا ، وهذا ما اختاره الامتاز الامام وقال اذا صح ماورد في سبب النزول فهو يدل على انه عند ما فرض الصيام كان كل انسان يذهب في فهمه مذهباً كما يؤديه اليه اجتهاده ويراها أحوط وأقرب الى التقوى . ولذلك قالوا فيما روه من اتيان عمر أهله بعد النوم ان النبي ﷺ قال له « لم تكن حقيقاً بذلك يا عمر »

(أقول) أما الرواية الاولى فعند أحمد وأبي داود والحاكم من طريق عبد الرحمن ابن أبي ليلى عن معاذ بن جبل قال : كانوا يأكلون ويشربون ويأتون النساء ما لم يناموا فاذا ناموا امتنعوا ، ثم ان رجلاً من الانصار يقال قيس بن صرمة (بكسر الصاد) صلى العشاء ثم نام فلم يأكل ولم يشرب حتى أصبح فأصبح مجهوداً و كان عمر قد أصاب من النساء بعد ما نام فأتى النبي ﷺ فذكر له ذلك فأنزل الله (أحل لكم) الى قوله (ثم أتموا الصيام الى الليل) قال في لباب النقول : هذا الحديث مشهور عن ابن أبي ليلى لكنه لم يسمع من معاذ وله شواهد ، وذكر حديث قيس بن صرمة عن البراء عند البخاري - وأخرجه ابو داود أيضاً في الصوم والترمذي في التفسير - وقول البراء عند البخاري لما نزل صوم شهر رمضان كانوا لا يقربون النساء رمضان كله فكان رجال يخونون أنفسهم فأنزل الله (علم الله انكم كنتم

تختانون أنفسكم). الآية. وأما حديث عمر فهو ما رواه عبد الله بن كعب بن مالك عن أبيه عند أحمد وابن جرير وابن أبي حاتم قال : كان الناس في رمضان إذا صام الرجل فأمسى فنام حرم عليه الطعام والشراب والنساء حتى يفطر من الغد فرجع عمر من عند النبي ﷺ وقد سهر عنده فأراد امرأته فقالت إني قد نمتُ قل ما نمتِ ، ووقع عليها وصنع كعب مثل ذلك فغدا عمر الى النبي ﷺ فأخبره فنزلت اه فأنت ترى في هذه الروايات اضطراباً ففني بعضها أنهم كانوا يرون مقاربة النساء محرمة في ايامي رمضان كأنهره على الاطلاق وفي الأخرى أنهم كانوا يعدونها كالأكل والشرب لا تحرم إلا بعد النوم في الليل ، وأقرب ما يمكن أن يخرج عليه الجمع بين الروايتين اختلاف اجتهد الصحابة في ذلك بحمل كل رواية على طائفة وإلا تعارضتا وسقط الاحتجاج بهما . وهذا الجمع يوافق ما قاله الاستاذ الامام فتمين ان اجتهدهم لم يكن حكماً قرآنياً فيقال انه نسخ بالآية ، وانما هو اجتهد أوقعهم فيه الاجال فجاءت هذه الآية بالبيان (قال) وقوله (أحل لكم) لا يقتضي أنه كان محرماً بل يكفي فيه أن يتوهم ان من كمال الصيام أو من شروطه عدم الاكل بعد النوم وعدم مقاربة النساء بعده أو مطلقاً . وهو كقوله تعالى (أحل لكم صيد البحر) ولم يكن قد سبق نص في تحريمه .

(وأقول) ان اقرار النبي ﷺ لهم على ذلك الاجتهاد كان جرياً على سنته في اجازة عمل كل أحد باجتهاده فيما يحتمل الاجتهاد من النصوص من غير إلزام لاحد به اذ لم يكن يلزم الامة كلها الا العمل بالنص القطعي الدلالة كما يأتي بيانه في تحريم الخمر والميسر

أما ليلة الصيام فهي الليلة التي يصبح منها المرء صائماً ، وأما الرفث الى النساء فهو الافضاء اليهن ومباشرتهن ، وأصله الافصاح بما ينبغي أن يكفى عنه مما يقع بين الرجل وامرأته . يقال رفث في كلامه اذا خش وأفصح بذكر الوقاع وشؤونه أو حادث النساء في ذلك ، وقال الازهري الرفث كلمة جامعة لكل ما يريد الرجل من المرأة . وحقق الراغب أن الرفث كلام متضمن لما يستتبع من ذكر الوقاع ودواعيه ، وجعل كناية عنه في الآية تنبيهاً على جواز دعائهن الى ذلك ومكالمتهن

فيه . وعندي باولي لتضمنه معنى الافضاء . وقد علمنا القرآن الزهارة في التعبير عن هذا الامر عند الحاجة الى الكلام فيه بما ذكر من الكنايات اللطيفة ، كقوله (لامستم النساء * أفضى بعضكم الى بعض * دخلتمهن * فلما تفشاها حملت) وقال بعض المفسرين قد ذكر هنا اللفظ الصريح والسبب في ذلك استهجان ما وقع منهم . وهذا غلط فن الكلمة بمعنى ما لا يحسن التصريح به من شأن الرجل مع المرأة وليست هي من الالفاظ الصريحة في ذلك ، فالمعنى أحل لكم ذلك الامر الذي لا ينبغي التصريح به . وان قال الاستاذ الامام : والصواب انه جيء باللفظ على خلاف ما جرت عليه سنة الكتاب للاشارة الى استهجانه في شهر الصوم وان حل فيه من الحلال المكروه على الجملة . وقوله ~~دخلتمهن~~ لباس لكم وانتم لباس لهن قول مستأنف ميق لبيان سبب الحكم أي اذا كان بينكم وبينهن هذه الملازمة والمخالطة فان اجتنابهن عسر عليكم فلهذا رخص لكم في مباشرتهن ليلة الصيام قاله صاحب الكشف واختاره الاستاذ الامام ، فهو يرى أن لفظ لباس هنا مصدر لا بئسه بمعنى خالطه وعرف دخائله ، لا بمعنى ما ورد من اطلاق اللباس والازار على المرأة . وقال ابن عباس معناه من سكن لكم وانتم سكن لهن . وذهب كثير من المفسرين الى أنه كناية عن المعانقة ، استشهدوا له بقول الذبياني :

اذا ما الضجيع ثنى عطفها تثنت عليه فكانت لباسا

وقال بعضهم انه كناية عن الاستمرار المقصود من اللباس لان كلا من الزوجين ستر للآخر واحصان له ، وهو بمعنى الغشيان والتغشي من الفاظ الكناية عن وظيفة الزوجية ،

ثم قال ~~علم الله انكم كنتم تختانون انفسكم~~ أي تلتصقون بها بعض ما أحل الله لها من اللذات توها ان من قبلكم كان كذلك ، فيكون بمعنى التخنون أي النقص من الشيء أو معناه تخونون انفسكم إذ تعتقدون شيئاً ثم لا تلتزمون العمل به ، فمؤم مبالغة من الحياة ، التي هي مخالفة مقتضى الامانة ، ولم يقل تختانون الله كما قال (٨ : ٢٧) لا تخونوا الله وارسول وتخونوا اماناتكم) للشعار بأن الله تعالى لم يحرم عليهم بعد النوم في الليل ما حرمه على الصائم في النهار ، وانما ذهب بهم اجتباؤهم الى ذلك فهم قد خانوا انفسهم في اعتقادها في كانوا كمن يتغشى امرأته ظاناً انها أجنبية ،

فمقصداً به بحسب اعتقاده لا بحسب الواقع ، فهم على أى حال كانوا عاصين بما فعلوا

محتاجين الى التوبة والعفو ولذلك قل ﴿ فتأب عليكم وعفا عنكم ﴾ فان كان ذنبهم تحريم ما أباح الله لهم في ليالي الصوم أو التورع عنه ليوافق صيامهم صيام أهل الكتاب من كل وجه فتفسر التوبة بالرجوع عليهم ببيان الرخصة بعد ذكر فرض الصيام مجعلاً ، والتشبيه فيه مبهماً ، ويكون العفو عن الخطأ في الاجتهاد الذي أدى الى التصديق على النفس وإيقاعها في الحرج ، وإن كان الذنب هو مخالفة الاعتقاد بأن كانوا فهموا من النبي ﷺ أو من قوله تعالى (كما كتب على الذين من قبلكم) تحريم بلامسة النساء ليلاً مطلقاً أو تحريمه كالأكل والشرب بعد النوم في الليل ، فالتوبة على ظاهر معناها ، أي ان الله قبل توبتكم ، وعفا عن خيانتكم أنفسكم

﴿ فالآن باشروهن وابتغوا ما كتب الله لكم ﴾ المباشرة هنا كناية عن المباشرة الزوجية وحققتها مس كل بشرة الآخر أي ظاهر جلده ، فهي كاللامسة في حقيقتها وكنائسها وهي من نزاهة القرآن ، والمعنى فالآن باشروهن إذ أحل لكم الرفث اليهن بالنص الصريح النافي لما فهمتم من الاجمال في كتابة الصيام عليكم ، فالامر بالمباشرة للإباحة الناسخة أو النافية لتلك الحظر فهي كالامر بالشيء بعد النهي عنه ، واطلبوا بمباشرتهن ما قدره لجنسكم في نظام الفطرة من جعل المباشرة سبباً للنسل - أو ما عسى أن يكون كتبه لكل منكم ، بأن تكون مباشرتكم بقصد إحياء سنة الله تعالى في الخليقة ، زاد بعضهم : لا لمحض شهوة النفس واللذة التي يشاركم فيها البهائم . وهو يشعر أن التمتع باللذة الزوجية مذموم إذ لم يكن لاجل النسل ، وليس بصحيح على إطلاقه فان الزوجين المحرومين من الاولاد أو اللذين رزقا بعض الاولاد ثم انقطع نتاجها لا يذم ولا يكره لها الاستمتاع بالمباشرة الزوجية بغير إفراط بل هو مطلوب لإحصان كل منها الآخر وصده عن الحرام . ولما قال ﷺ « لا فقرأ » وفي بضع أحدكم صدقة « قالوا يا رسول الله أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر ؟ قال « أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه وزر ؟ » قالوا نعم . قل « فكذلك إذا وضعها في الحلال

« تفسير النار » « ٢٣ » « الجزء الثاني »

كان له أجر » والحديث في صحيح مسلم وقيل ان العبارة تتضمن النهي عن
المباشرة المحرمة فانها لا يقصد بها الولد سواء كانت بالزنا أو غيره ، وايس بيعد
﴿وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الابيض من الخيط الاسود من الفجر﴾ أي
ويباح لكم الاكل والشرب كلما بشرت عامة الليل حتى يتبين لكم بياض الفجر فتبين
وجب الصيام . وما أحسن التعبير عن أول طلوع الفجر بالخيطين ، والخيط الابيض هو أول
ما يبدو من الفجر الصادق ، فتى أسفر لا يظهر وجهه لتسميته خيطا ، فاذهب اليه
بعض السلف كالاعمش من أن ابتداء الصوم من وقت الاسفار تنافيه عبارة القرآن
هذا ما كتبه أولا وهو غير دقيق وسأفصل المسألة في الاستدراك والايضاح
الذي تراه بعد تمام تفسير الآية . والاقتصار على الاكل والشرب في بيان آخر
الليل دون المباشرة وحكمها حكمها يشعر بكرامتها في آخر وقت الاباحة الذي
تتلوه صلاة الفجر المندوب التقليل بها .

﴿ثم أنموا الصيام إلى الليل﴾ فهم من غاية وقت الاكل والشرب في الجملة السابقة
مبدأ الصيام ، وذكر في هذه غايته وهي ابتداء الليل بغروب قرص الشمس وما يلزمه
من ذهاب شعاعها عن جدران البيوت والمآذن ، ولا يلزم أهل الاغوار والقيعان
ذهاب شعاعها عن شناخيب الجبال العالية بعيدة كانت أو قريبة ، وإنما العبارة بمغيب
الشمس في نفهم الذي يتلوه إقبال الليل . قال عليه السلام « إذا أدير النهار وأقبل
الليل وغابت الشمس فقد أضر الصائم » متفق عليه . وزاد فيه البخاري « من ههنا »
عند ذكر الليل والنهار والاشارة الى المغرب والمشرق وللمعاني المصرية الشاحنة
في بلاد أمريكا حكمها في ذلك . وأنت ترى ان هذا التحديد جاء بأسلوب الاطناب
لانه بيان للاجمال بعد وقوع الخطأ فيه ، وإنما أخر البيان إلى وقت الحاجة اليه ليكون
أوقع في النفس ، وأظهر في رحمة الشارع الحكيم ﴿ولا تباشروهن وأنتم عاكفون
في المساجد﴾ هذا استثناء من عموم إباحة المباشرة . والمقام مقام بيان وإيضاح
لا يبقى معه للإيهام ولا للإيهام مجال ، أي ولا تباشروا النساء حال عكوفكم في
المساجد للعبادة ، فالمباشرة تبطل الاعتكاف ولو ليلا كما تبطل الصيام نهارا
﴿تلك حدود الله﴾ الاشارة إلى الاحكام التي تقدمت كلها ، وسميت حدوداً

لأنها حددت الاعمال وبينت أطرافها وغاياتها حتى إذا تجاوزها الصامل خرج عن حد الصحة وكان عمله باطلا - والحد طرف الشيء وما يفصل بين شيئين ، أو حدود الله محارمه المبينة بالنهي عنها أو بتحديد الحلال المقابل لها ، وقيل أنها خاصة هنا بمباشرة النساء في نهار رمضان أو في حل لا اعتكاف في المساجد ولوليلاء وقوله ﴿فلا تقربوها﴾ هو أبلغ في التحذير من قوله في آية أخرى (فلا تعتدوها) لأنه يرشد إلى الاحتياط ، فمن قرب من الحد أوشك أن يعتديه . كالشاب يداعب امرأته في النهار، يوشك أن لا يملك إربه فيقع في المباشرة المحرمة أو يفسد صومه بالانزال فالقرب من الحد يتحقق باستباحة أقصى مادونه كاستمتاع من الزوج بما دون الوقاع كاللبا لفة في المضمضة للصائم، وتعمديه يتحقق بالوقوع فيما بعده ، فالنهي عن الاول يفيد كراهته وشدة تحريم ما بعده ، ولم ينهنا الله في كتابه عن قرب حدوده إلا في هذه الآية وفي الزنا ومال اليتيم ، وقد تعدد في الوعيد على تعديها ، وهذا من كبار الانم التي قلما يسلم من قربها من لوقوع فيها . وفي معنى الاول النهي عن قرب النساء في الصيام والاعتكاف ، فتحصيل النهي بها ظاهر ، فإن حمل على عموم أحكام الصيام كان فيه دليل على استحباب الامساك الاحتياطي قبل الفجر وبعد الغروب ولكن هذا قد يعارض الامر بتمجيل كل منهما وسيأتي بيانه . وقال بعضهم : معناه لا تقربوها بالتأويل والتحرير ولا بالهوى والرأي بل اقبلوها كما هي ، وهذا يشير إلى تحطئة أولئك الصحابة بما كان من اجتهادهم واتباع آراء أنفسهم في أمر ديني يجب فيه الاتباع المحض ، كأنه قال لا ينبغي لكم أن تتجاوزوا النصوص في العبادات لأنها لا مجال للرأي فيه بل عليكم فيها بالاتباع المحض ، فما أمرتم به فخذوا ، وما سكت عنه فذروا ، وفي هذا المعنى حديث « ان الله فرض فرائض فلا تضيعوها ، وحرم حرما فلا تنتهكوها ، وحدد حدودا فلا تعتدوها ، وسكت عن أشياء من غير نسيان فلا تبحثوا عنها » رواه ابو داود والترمذي والنسائي والدارقطني من حديث ابي ثعلبة الخشني . وفي رواية زيادة «رحمة بكم من غير نسيان» في تعليل السكوت ﴿ كذلك يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون ﴾ أي على هذا النحو من بيان أحكام الصيام في أوله وآخره وحقيقته وعزيمته ورخصته وفائدته وحكمته ، يبين الله آياته للناس ثم البيان وأكله ، لعدم التنوى ، والتباعد عن الوهم والهوى

﴿استدراك وإيضاح لتفسير آيات الصيام﴾

﴿وتحقيق الحق فيما اختلف فيه منها اجتهاد العلماء﴾

(مسألة بدء الصيام وهل هو طلوع الفجر أم تبين بياض النهار للناس ؟)

إن ما كتبتة أولا وبينت به مذهب الجمهور في تحديد نهار الصيام يني على ما كان من تشبيه العرب أول الصبح بالخيط كقول بعضهم:

ولما تبدت لنا سدفه ولاح من الصبح خيط أنارا

ومنه قول كمال الدين بن النبيه الشاعر في الحفرة وهو من التشبيه المعيم

وتريك خيط الصبح مفتولا إذا نصبت من الراووق في الطاسات

ولكن هذا التشبيه يصدق بالفجر الكاذب وهو الضوء المستطيل، ولا يظهر

في الخيط الأسود إلا بتكلف أو بطريق التغليب، وصح أن بعض الصحابة فهموا أولا

أن الخيطين على حقيقةهما حتى بين لهم النبي ﷺ أنها النهار والليل يتميز أحدهما من

الآخر، ففي الصحيحين من حديث سهل بن سعد قال: أتزلت (وكلوا واشربوا حتى

يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود) ولم ينزل (من الفجر) فكان رجال إذا

أرادوا الصوم ربط أحدهم في رجله الخيط الأبيض والخيط الأسود ولا يزال يأكل

حتى يتبين له رؤيتها، فأنزل الله بعد (من الفجر) فعملوا أنه إنما يعني الليل والنهار.

وهذا الحديث مشكل باستبعاده تأخر نزول هذا البيان، وزعم بعضهم أنه نزل بعد سنة

من نزول الآيات والعمدة في الباب حديث عدي بن حاتم الرقوع المتفق عليه الذي قدمه

عليه البخاري قال: لما نزلت (حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود) عمدت

إلى عقال أسود وإلى عقال أبيض فجعلتهما تحت وسادتي فجعلت أنظر في الليل فلا

يستبين لي، فعدوت على رسول الله ﷺ فذكرت له ذلك فقال «إنما ذلك سواد

الليل وبياض النهار» زاد في رواية: فضحك وقال «إن كان وسادك إذا لعريضا

إن كان الخيط الأبيض والأسود تحت وسادتك» ورواية مسلم «إن وسادك

نعريض طويل» ويحمل قول عدي في الآية: لما نزلت - على علمه بنزولها لتأخر

إسلامه عنه. ورواية الامام أحمد توضح هذا فانه روى عنه أنه لما علمه ﷺ الصلاة

والصيام قال له « فكل حتى يتبين لك الخيط الأبيض من الخيط الأسود » قال فأخذت خيطين الخ الحديث

قال الحافظ في شرح حديث سهل من الفتيح : ومعنى الآية حتى يظهر بياض النهار من سواد الليل . وهذا البيان يحصل بطلوع الفجر الصادق ففيه دلالة على أن ما بعد الفجر من النهار . وقال أبو عبيد المراد بالخيط الأسود الليل وبالخيط الأبيض الفجر الصادق والخيط اللون (ثم قال) : واستدل بالآية والحديث على أن غاية الأكل والشرب طلوع الفجر فلو طاع الفجر وهو يأكل أو يشرب فتزعم ثم صومه ، وفيه اختلاف بين العلماء ولو أكل ظانا أن الفجر لم يطلع لم يفسد صومه عند الجمهور لأن الآية دلت على الإباحة إلى أن يحصل التبين . وقد روى عبد الرزاق بإسناد صحيح عن ابن عباس قال : أحل الله لك الأكل والشرب ما شككت . ولابن أبي شيبة عن أبي بكر وعمر نحوه . وروى ابن أبي شيبة من طريق أبي الضحى قال : سأل رجل ابن عباس عن السحور فقال له رجل من جلسائه : كل حتى لا تشك . فقال ابن عباس : ان هذا لا يقول شيئا ، كل ما شككت حتى لا تشك . قال ابن المنذر : وإلى هذا القول صار أكثر العلماء . وقال مالك : يقتضي . وقال ابن بريزة في شرح الأحكام : اختلفوا هل يحرم الأكل بطلوع الفجر أو بتبينه عند الناظر تمسكا بظاهر الآية واختلفوا هل يجب إمساك جزء قبل طلوع الفجر أم لا ؟ بناء على الاختلاف المشهور في مقدمة الواجب ، وسندكر بقية هذا البحث في الباب الذي يليه ان شاء الله . اهـ

ويعني الحافظ بالباب الذي يليه حديث عائشة : إن بلالا كان يؤذن بليل فقال رسول الله ﷺ « كلوا واشربوا حتى يؤذن ابن أم مكتوم فانه لا يؤذن حتى يطاع الفجر » قال البخاري : قال القاسم ولم يكن بين أذانيها إلا أن يرقى ذاه وينزل ذاه . اهـ وقد ذكر الحافظ في شرحه الروايات في معناه عند مسلم وفي السنن الناطقة بأن أول النهار الذي يجب به الصيام الفجر الصادق ثم قال :

وذهب جماعة من الصحابة وقل به الأعمش من التابعين وصاحبه أبو بكر ابن عياش إلى جواز السحور إلى أن يتضح الفجر ، فروى سعيد بن منصور عن

أبي الاحوص عن عامر عن زر عن حذيفة قال : تسحرنا مع رسول الله ﷺ هو والله النهار غير أن الشمس لم تطلع . وأخرجه الطحاوي من وجه آخر عن عامر نحوه . وروى ابن أبي شبة وعبد الرزاق ذلك عن حذيفة من طرق صحيحة وروى سعيد بن منصور وابن أبي شبة وابن المنذر من طرق عن أبي بكر أنه أمر بفتح الباب حتى لا يرى الفجر . وروى ابن المنذر بإسناد صحيح عن علي أنه صلى الصبح ثم قال : الآن حين تبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود . (قال ابن المنذر) : وذهب بعضهم إلى أن المراد بتبين بياض النهار من سواد الليل أن ينتشر البياض في الطرق والسكك والبيوت ، ثم حكى ما تقدم عن أبي بكر وغيره . وروى بإسناد صحيح عن سالم بن عبيد الأشجعي أنه سمع أبا بكر قال له اخرج فانظر هل طلع الفجر ؟ قال فنظرت ثم أتيت فقلت قد أبيض وسطهم ، ثم قال اخرج فانظر هل طلع ؟ فنظرت فقلت قد اعترض ، فقال : الآن أبلغني شراي . وروى من طريق وكيع عن الأعمش أنه قال : لو لا الشهرة لصليت الغداة ثم تسحرت . قال إسحاق : هؤلاء رأوا جواز الأكل والصلاة بعد طلوع الفجر المعترض حتى يتبين بياض النهار من سواد الليل ، قال إسحاق : وباقول الأول أقول ، لكن لا أطمئن على من تأول الرخصة كاقول الثاني ولا أرى عليه قضاء ولا كفارة (قلت) وفي هذا تعقب على الموفق وغيره حيث نقلوا الإجماع على خلاف ما ذهب إليه الأعمش والله أعلم . اهـ

(أقول) : إذا كان الحكم منوطا بما يظهر للناس بدوهم وحضرم بالحس كما أقيت صلوات الظهر والعصر والمغرب والعشاء وثبوت شهر رمضان وشهر ذي الحجة برؤية هلاله عند عدم المانع وإلا فإكمال الشهر الذي قبله - فإن لنا في صلاة الفجر وبدء الصيام بحثين (أحدهما) ما بسطناه من الخلاف في اتحاد أول وقتها وقول بعضهم أن بدء الصيام متأخر عن أول وقت الصلاة ، ومن قال باتحادهما وهم الجمهور إنما يريدون بالفجر الصادق انتشار الضوء الذي يظهر به النهار

وههنا يأتي (البحث الثاني) وهو أن ظهور الصبح لعامة الناس يختلف باختلاف

(١) هو موفق الدين بن قدامة صاحب المغني الذي نقل فيه الإجماع المذكور خطأه الحافظ

الليالي من أول الشهر وآخره فان طلوع الفجر في الليالي القمرية لا يظهر ويرى في الوقت الذي يظهر فيه في الليالي المظلمة بل يكون متأخراً ، وإنما العبرة في العبادة برؤية الفجر وتبين النهار لا بحساب الموقتين والفلكيين ، فان هؤلاء قد يجمعون على تولد الهلال ووجوده بعد غروب الشمس من اليوم التاسع والعشرين من شعبان ولا يعمل أحد بحسابهم حتى الذين يوقنون بصحته من أهل العلم بهذا الشأن ولو إجمالاً ومن أهل الاستقراء لحساباتهم الدقيقة في السنين الطوال ، ولا فرق بين مسألة الفجر ومسألة القمر فلهذا يتبع جميع أهل الحضرة المدني حسابهم في الفجر دون الهلال ؟

ان نص الآية ينوط بدء الصيام بان يقين للناس بياض النهار ناصلاً من سواد الليل بحيث يراه كل من وجه نظره الى جهة المشرق وقيل بحيث يرويه في طرقهم وبيوتهم ومساجدهم ، ففي بعض روايات حديث الاذانين « فكلوا واشربوا حتى تسمعوا أذان ابن أم مكتوم » وكان رجلاً أعمى لا يؤذن حتى يقال له : أصبحت أصبحت . اهـ ، وإنما كان يقول له هذا من يكون عند المسجد ويظهر النهار لهم ، لا أناس يرصدون الفجر من منارة أو سطح ويعتمدون على أول ما يروونه في أفق المشرق من انتشار الضوء المستطيل الذي يسمى الفجر الكاذب الذي يظهر كذب السرحان (الذئب) ثم استطارته معترضاً التي حددوا بها الفجر الصادق فان هذا التحديد لا يدركه إلا الراصد للراقب للافق دون الجمهور الذي خاطبه ربه بقوله (وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم) الخ فجعل لهم بدء صيامهم وقتاً واضحاً لا شبهة فيه وهو ما عبر عنه المتنبي بقوله :

وهبني قلت هذا الصبح ليل أيمى العالمون عن الضياء ؟

وقوله وليس بصبح في الاذهان شيء إذا احتاج النهار إلى دليل

ولكن من طباع البشر أن يميل بعض أفرادهم بطبعه إلى التشدد والتنطع وبعضهم الى التساهل في الامور كلها ويكون الاكثرون في الوسط بين الافراط والتفريط ، وهو الاصل في التشريع ، فهذا هو السبب في اختلاف السلف في تحديد أول النهار في الصيام هل هو أول ما يسمى الفجر الصادق أو تبين بياض النهار للناس منه ؟ كما اختلفوا في صفة المرض والسفر المبيحين للغير . والقاعدة العامة أن التكليف الشرعية

العامة كلها يسر لا عسر ولا حرج فيها، ولا في معرفتها وثبوتها وحدودها، وإنما وسط بين إفراط الغلاة المشددين، وتفريط المترفين المتساهلين، ومن مبالغة الخلف في تحديد الظواهر مع التفريط في إصلاح الباطن من البر والتقوى، أنهم حددوا أول الفجر وضبطوه بالدقائق وزادوا عليه في الصيام إمساك عشرين دقيقة قبله للاحتياط، والواقع أن تبين بياض النهار لا يظهر للناس إلا بعده عشرين دقيقة تقريباً وأما وقت المغرب فيزيدون فيه على وقت الغروب الثام خمس دقائق على الأقل ويشترط بعض الشيعة فيه ظهور بعض النجوم. وهذا نوع من اعتداء حدود الله تعالى ولكنه اجتهد لا تعمد، والثابت في السنة ندب تعجيل الفطور وتأخير السحور وجملة القول أن وقت بدء الصيام من كل يوم موضع اجتهد وأخذ الناس كلهم أو أكثرهم فيه بقول أئمة المذاهب المدونة المتبعة أضبط وأحوط وأوفى بحاجة سكان الامصار. بيد أنه يجب إعلام عامة المسلمين في الدروس الدينية وخطب الجمعة وفي الصحف المنشرة أيضاً بأن وقت الامساك الذي يروونه في التقاويم (النتائج) والصحف إنما وضع لتنبيه الناس إلى قرب طلوع الفجر الذي يجب فيه بدء الصيام كصلاة الفجر ليعجل المتأخر في سحوره اتباعاً للسنة باتمامه والاستعداد للصلاة ولا سيما الذين يذهبون إلى صلاة الجماعة في المساجد، وأن من أكل وشرب حتى طلوع الفجر الذي تصح فيه صلاته ولو بدقيقة واحدة فإن صيامه صحيح. وأن من أكل أو شرب ظاناً بقاء الليل فظفر له بعد ذلك أنه إنما أكل بعد طلوع الفجر صح صيامه، ولكن يتأكد الاحتياط في مباشرة النساء ليقسرن التغايس بصلاة الفجر

﴿ مسألة تعجيل الفطر وتأخير السحور وما بينه وبين صلاة الفجر ﴾

قال رسول الله ﷺ « لا يزال الناس بخير ما عجلوا الفطر » متفق عليه من حديث سهل بن سعد (رض) وروى أحمد من حديث أبي ذر أنه (ص) قال « ما زال أمتي بخير ما أخرؤا السحور وعجلوا الفطر » ولكن في إسناده سليمان ابن أبي عثمان قال أبو حاتم مجهول. وقال ﷺ « يقول الله تعالى إن أحب عبادي إلي أعجلهم فطراً » رواه أحمد والترمذي وقال حسن غريب من حديث

أبي هريرة ، وعنه قال النبي ﷺ « لا يزل الدين ظهراً ما عجل الناس الفطر لان اليهود والنصارى يؤخرون » رواه أبو داود والنسائي وابن ماجه . وقال « لا تزل أمتي على سنتي ما لم تنتظر بفطرها النجوم » رواه ابن حبان والحاكم من حديث سهل بن سعد . وروى عبد الرزاق عن عمرو بن ميمون الاودي قال : كان أصحاب محمد ﷺ أسرع الناس إفطاراً وأبطأهم سحوراً - قال الحافظ ابن حجر إسناده صحيح . وقال الحافظ ابن عبد البر : أحاديث تعجيل الإفطار وتأخير السحور صحاح متواترة - يعني والله أعلم بالعمل بها

وأما فصل ما بين السحور وصلاة الفجر ففيه حديث زيد بن ثابت : تسحرنا مع النبي ﷺ ثم قام إلى الصلاة . فسأله أنس : كم كان بين الاذان والسحور ؟ قال قدر خمسين آية . قال الحافظ في شرحه من الهمتح عند ذكر الآيات : أي متوسطة لا طويلة ولا قصيرة ولا سريعة ولا بطيئة . ونقل عن المهلب انهم كانوا يقدرون بالعمل ولا سيما هذا الوقت فانه وقت تلاوة وذكر ولو كانوا يقدرون بغير العمل لقال مثلاً : قدر درجة أو ثلث أو خمس ساعة اه . وأقول ان سورة فصلت ٥٤ آية منها (حم) آية . وسورة الشورى ٥٣ منها حم آية وعسق آية . فهذا قدر ما بين سحورهم وصلاتهم للفجر وهونحو خمس دقائق

﴿ مسألة تحديد مواعيت الصلاة والصيام والحج والعيد في الاقطار ﴾

﴿ والعمل بالحساب القطعي ﴾

قد نشرت في الجزء الاول من مجلد المنار اثامن والعشرين مقالا طويلا شرحت فيه الاحاديث الصحيحة في هذا الموضوع وذكرت أقوال الفقهاء وما عليه العمل في الامصار ثم خلصت خلاصة ذلك كله في المسائل الخمس الآتية (١) ان إثبات أول شهر رمضان وأول شهر شول هو كاثبات أوقات الصلوات الخمس قد ناطها الشارع كلها بما يسهل العلم به على البدو والحضر لما تقدم من بيان حكمة ذلك . وغرض الشارع من ذلك العلم بهذه الاوقات لا التعبد برؤية الهلال ولا بتبين الخيط الابيض من الخيط الاسود من الفجر أي انفصال كل من الآخر

برؤية ضوء الفجر المستطير من جهة المشرق — ولا التعبد برؤية ظل الزوال وقت الظهر، وصيرورة ظل الشيء مثله وقت العصر — ولا برؤية غروب الشمس وغيبة الشفق لوقتي العشائين ، فغرض الشارع من مواقيت العبادة معرفتها وما ذكره ﷺ من نوط إثبات الشهر برؤية الهلال أو إكمال العدة بشرطه قد علمه يكون الأمانة في عهده كانت أمانة. ومن مقاصد بعثته إخراجها من الأمية لإبقاؤها فيها ، قال تعالى (هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين) وفي معناه ما ذكره من دعوة إبراهيم (ص) بذلك من سورة البقرة ويؤخذ منه أن تعلم الكتابة والحكمة حكما غير حكم الأمية .

(٢) أن من مقاصد الشارع اتفاق الأمة في عبادتها ما أمكن الاتفاق وسيلة ومقصدا ، فاما أن تتفق كلها أو أهل كل قطر منها على العمل بظواهر نصوص الشرع وعمل النبي ﷺ وأصحابه في الصدر الاول في مواقيت الصلاة والصيام والحج من رؤية الفجر والظل والغروب والشفق والهلال عند الامكان ، وبانتقير أو رؤية العلامات عند عدم الامكان ، وفي هذه الحالة لا يجوز لمؤذن الفجر أن يؤذن إلا اذا رأى ضوءه معترضا في جهة المشرق وهو يختلف باختلاف الليالي ففي النصف الثاني من الشهر ولا سيما أخره يرى متأخرا عن الوقت الذي يرى فيه ليالي النصف الاول المظلمة بقدر تأثير نور القمر في جهة المشرق (ويختلف باختلاف حالي الصحو والغيم) وقد قال ﷺ في رمضان « ان بلا لا يؤذن بليل فكاوا واشربوا حتى تسمعوا أذان ابن أم مكتوم » قال بعض رواه وكان رجلا أعمى لا يؤذن حتى يقال له أصبحت أصبحت » رواه الشيخان وغيرهما وإما أن تعمل بالحساب والمراسد عند ثبوت إفادتها العلم القطعي بهذه المواقيت التي جرى عليها العمل في جميع بلاد الحضارة الإسلامية في الصلاة (ولو) مع المحافظة على الاستهلال ورؤية الهلال في حال عدم المنافع من رؤيته للجمع بين ظاهر النص والراد منه ومن المعلوم من الدين بالضرورة أن الصلاة عماد الدين فهي أفضل من الصوم وأعم ، وفي غير حالة الصحو وعدم المنافع من رؤية الهلال يكون إثبات الشهر بإكمال العدة ثلاثين ظنياً أو دون الظني ،

ومن قواعد الشريعة المتفق عليها أن العلم مقدم على الظن فلا يعمل بالظن مع إمكان العلم ، فمن أمكنه رؤية الكعبة لا يجوز له أن يجتهد في التوجه إليها ويعمل بظنه الذي يؤديه إليه الاجتهاد .

(٣) اذا قيل ان افادة الحساب للعلم القطعي بوجود الهلال وإمكان رؤيته خاص بالفلكي الحاسب وقد اختلف العلماء في العلم به كما ذكرتم ولا يكون علمهم حجة على غيرهم (قلنا) ان الذين لم يبيعوا العمل بالحساب قد عللوه بأنه ظن وتخمين لا يفيد عما ولا ظنا كما نقلناه عن شرح البخاري للحافظ ابن حجر آفناء، والحساب المعروف في عصرنا هذا يفيد العلم القطعي كما تقدم ويمكن لائمة المسلمين وأمرائهم الذين ثبت ذلك عندهم أن يصدروا حكما بالعمل به فيصير حجة على الجمهور، وهذا أصح من الحكم باثبات الشهر باكال عدة شعبان ثلاثين يوما مع عدم رؤية الهلال ليلة الثلاثين والسماء صحو ليس فيها قمر ولا سحب يمنع الرؤية، فان هذا يخالف النصوص الاحاديث الصحيحة (وكذا الحكم برؤية الواحد للهلال لان شهادة الواحد ظنية وان كان عدلا لكثرة ما يعرض فيها من الخطأ ولو لم الذي ثبت بالقطع كشهادة بعض العدول برؤية الهلال بعد غروب الشمس كاسفة)

(٤) يؤيد هذا الوجه الاخير القول الثالث للامام أحمد فيما يجب العمل به اذا غم على الناس رؤية الهلال وهو أن يرجعوا الى رأي الامام (أي السلطان ولي الأمر الشرعي) في الصوم والفطر وقد تقدم مع القولين الآخرين له

(٥) اذا تقرر لدى أولي الأمر العمل بالتقاويم الفلكية في مواقيت شهري الصيام والحج كواقيت الصلاة وصيام كل يوم من الفجر الى الليل امتنع التفريق والاختلاف بين المسلمين في كل قطر أو في البلاد التي تتفق مطالعها، وهذه لا ضرر في الاختلاف في صيامها كما أنه لا ضرر في الاختلاف في صلواتها

وجملة القول أننا بين أمرين: إما أن نعمل بالرؤية في جميع مواقيت العبادات أخذاً بظواهر النصوص وحسابها تعبدية، وحينئذ يجب على كل مؤذن أن لا يؤذن حتى يرى نور الفجر الصادق مستطيراً منتشراً في الافق ، وحتى يرى الزوال والغروب الخ . وإما أن نعمل بالحساب المقطوع به لانه أقرب الى مقصد الشارع

وهو العلم القطعي بالمواقيت وعدم الاختلاف فيها ، وحينئذ يمكن وضع تقويم عام تبين فيه الاوقات التي يرى فيها هلال كل شهر في كل قطر عند عدم المانع من الرؤية وتوزع في العالم ، فإذا زادوا عليها استهلال جماعة في كل مكان فإن رأوه كان ذلك نوراً على نور ، وأما هذا الاختلاف وترك النصوص في جميع المواقيت عملاً بالحساب ما عدا مسألة الهلال فلا وجه ولادليل عليه ، ولم يقل به امام مجتهد بل هو من قبيل (أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض) والله أعلم وأحكم اهـ

﴿ فصل فيما يفطر الصائم وما لا يفطره ﴾

ملخص من رسالة لشيخ الاسلام أحمد تقي الدين ابن تيمية نشرت في المجلد ٣١ من المنار

(قال رحمه الله) وهذا نوعان : منه ما يفطر بالنص والاجماع ، وهو الاكل والشرب والجماع ، وكذلك ثبت بالسنة واتفاق المسلمين ازدم الحيض ينافي الصوم فلا تصوم الحائض لكن تقضي الصيام . وثبت بالسنة أيضاً حديث لقيط بن صبرة ان النبي ﷺ قال له « وبالغ في الاستنشاق إلا أن تكون صائماً » فدل على ان إزال الماء من الانف يفطر الصائم وهو قول جماهير العلماء

وفي السنن حديثان (أحدهما) حديث هشام بن حسن عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « من ذرعه قيء ، وهو صائم فليس عليه قضاء ، وإن استقاء فليقض » وهذا الحديث لم يثبت عند طائفة من أهل العلم ، بل قالوا هو من قول أبي هريرة . قال ابو داود : سمعت احداً ابن حنبل قال : ليس من ذا شيء . قال الخطابي : يريد أن الحديث غير محفوظ وقل الترمذي : سألت محمد بن اسماعيل البخاري عنه فلم يعرفه إلا عن عيسى ابن يونس ، قال وما اراه محفوظاً . قال : وروى يحيى بن كثير عن عمر بن الحكم ان أبا هريرة كان لا يرى القيء يفطر الصائم

قال الخطابي : وذكر ابو داود ان حفص بن غياث رواه عن هشام كما رواه عن ابن يونس . قال ولا أعلم خلافاً بين أهل العلم في ان من ذرعه القيء فإنه لا قضاء عليه ، ولا في ان من استقاء عامداً فعليه القضاء ، ولكن اختلفوا في السكفارة

فقال عامة اهل العلم : ليس عليه غير القضاء ، وقال عطاء : عليه القضاء والكفارة وحكي عن الازاعي وهو قول ابي ثور

والجامع الناسي فيه ثلاثة أقوال في مذهب أحمد وغيره ، ويذكر ثلاث روايات عنه (أحداها) لا قضاء عليه ولا كفارة ، وهو قول الشافعي وأبي حنيفة والاكثرين (والثانية) عليه القضاء بلا كفارة وهو قول مالك (والثالثة) عليه الأمران وهو المشهور عن احمد . والاول أظهر كما قد بسط في موضعه ، فانه قد ثبت بدلالة الكتاب والسنة ان من فعل محظوراً مخطئاً أو ناسياً لم يؤاخذ الله بذلك وحينئذ يكون بمنزلة من لم يفعله ، فلا يكون عليه اثم ، ومن لا اثم عليه لم يكن عاصياً ولا مرتكباً لما نهى عنه ، وحينئذ فيكون قد فعل ما أمر به ولم يفعل ما نهى عنه ، ومثل هذا لا يبطل عبادته ، انما يبطل العبادات اذا لم يفعل ما أمر به أو فعل ما حظر عليه . وطردها ان الحج لا يبطل بفعل شيء من المحظورات فلا ناسياً ولا مخطئاً لا لجماع ولا غيره وهو أظهر قول الشافعي

وكذلك طرد هذا ان الصائم اذا أكل أو شرب أو جامع ناسياً أو مخطئاً فلا قضاء عليه وهو قول طائفة من السلف والخلف ، ومنهم من يفطر الناسي والمخطيء كمالك ، وقال ابو حنيفة : هذا هو القياس لكن خالفه لحديث أبي هريرة في الناسي ، ومنهم من قال لا يفطر الناسي ويفطر المخطيء ، وهو قول أبي حنيفة والشافعي وأحمد ، فأبو حنيفة جعل الناسي موضع استحسان ، وأما اصحاب الشافعي وأحمد فقالوا النسيان لا يفطر لانه لا يمكن الاحتراز منه بخلاف الخطأ فانه يمكنه ان لا يفطر حتى يتيقن غروب الشمس وان يمسك اذا شك في طلوع الفجر وهذا التفريق ضعيف والأمر بالعكس ، فان السنة للصائم ان يجعل الفطر ويؤخر السحور ، ومع الغيم المطبق لا يمكن اليقين الذي لا يقبل الشك إلا بعد ان يذهب وقت طويل جداً يفوت المغرب ويفوت تعجيل الفطور ، والمصلي مأمور بصلاة المغرب وتعجيلها ، فاذا غلب على ظنه غروب الشمس امر بتأخير المغرب إلى حد اليقين فربما يؤخرها حتى يغيب الشفق وهو لا يستيقن غروب الشمس وايضا فقد ثبت في صحيح البخاري عن اسماء بنت أبي بكر قالت : أفطرتنا

يوماً من رمضان في غيم على عهد رسول الله ﷺ ثم طلعت الشمس، وهذا يدل على شيئين: على أنه لا يستحب مع الغيم التأخير إلى أن يتيقن الغروب، فانهم لم يفعلوا ذلك ولم يأمرهم به النبي ﷺ والصحابة مع نبيهم أعلموا وطوعوا لله ولرسوله من جاء بعدهم. (والثاني) لا يجب القضاء، فإن النبي ﷺ لو أمرهم بالقضاء لشاع ذلك كما نقل فطرم، فلما لم ينقل ذلك دل على أنه لم يأمرهم به.

فان قيل: فقد قيل لهشام بن عروة: أمرؤا بالقضاء؟ قال أو بد من القضاء؟ قيل: هشام قال ذلك برأيه، لم يرو ذلك في الحديث، ويدل على أنه لم يكن عنده بذلك علم أن معمرأ روى عنه قال: سمعت هشاماً قال: لا أدري قضاؤ أم لا؟ ذكر هذا وهذا عنه البخاري، والحديث رواه عن أمه فاطمة بن المنذر عن أسماء، وقد نقل هشام عن أبيه عروة أنهم لم يؤمروا بالقضاء، وعروة أعلم من ابنه، وهذا قول اسحاق بن راهويه. وأيضاً فإن الله قال في كتابه (وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر) وهذه الآية مع الأحاديث الثابتة عن النبي ﷺ تبين أنه مأمور بالأكل إلى أن يظهر الفجر فهو مع الشك في طلوعه مأمور بالأكل كما قد بسط في موضعه.

وأما الكحل والحقنة وما يقطر في الحليله، ومداداة المأمومة والجائفة^(١) فهذا مما تنازع فيه أهل العلم، فمنهم من لم يفطر بشيء من ذلك، ومنهم من فطر بالجميع لا بالكحل، ومنهم من فطر بالجميع لا بالتقطير، ومنهم من لا يفطر بالكحل ولا بالتقطير ويفطر بما سوى ذلك. والأظهر أنه لا يفطر بشيء من ذلك. فان الصيام من دين المسلمين الذي يحتاج إلى معرفته الخاص والعام، فلو كانت هذه الأمور مما حرمها الله ورسوله في الصيام وبفسد الصوم بها لكان هذا مما يجب على الرسول بيانه، ولو ذكر ذلك لعلمه الصحابة وبلغوه الامه كما بلغوا سائر شرعه. فلما لم ينقل أحد من أهل العلم عن النبي ﷺ في ذلك لاحدياً صحيحاً ولا ضعيفاً ولا مسنداً ولا مرسلان - علم أنه لم يذكر شيئاً من ذلك. والحديث المروي في الكحل ضعيف. رواه أبو داود في السنن ولم يروه غيره ولا هو في مسند أحمد ولا نثار الكتب المعتمدة.

(١) سيأتي تفسير الحقنة والقطرة والمأمومة والجائفة في حاشية (ص ١٩٤).

والذين قالوا ان هذه الامور تفطر كالخفنة ومد اواة المأمومة والجائفة لم يكن معهم حجة عن النبي ﷺ ، وانماذكروا ذلك بما رأوه من القياس ، وأقوى ما احتجوا به قوله « وبالغ في الاستنشق إلا أن تكون صائماً » قلنا فدل ذلك على أن ما وصل الى الدماغ يفطر الصائم اذا كان بفعله ، وعلى القياس كل ما وصل الى جوفه بفعله من حقة وغيرها سواء كان ذلك في موضع الطعام والغذاء أو غيره من حشو جوفه . والذين استثنوا التقطير قالوا : التقطير لا ينزل الى جوفه ، وانما يرشح رشحاً فالداخل الى احليله كالداخل الى فيه وأنفه . والذين استثنوا الكحل قالوا : العين ليست كالفعل والدبر ، ولكن هي تشرب الكحل كما يشرب الجسم الدهن والماء . والذين قالوا الكحل يفطر قالوا : انه ينفذ الى داخله حتى يتنخمه الصائم لان في داخل العين منفذاً الى داخل الحلق . واذا كان عمدتهم هذه الاقيسة ونحوها لم يحز افساد الصوم بمثل هذه الاقيسة لوجوه :

(أحدها) ان القياس وإن كان حجة اذا اعتبرت شروط صحته فقد قلنا في الاصول ان الاحكام الشرعية يثبتها النصوص أيضاً ، وإن دل القياس الصحيح على مثل ما دل عليه النص دلالة خفية ، فاذا علمنا بأن الرسول لم يحرم الشيء ولم يوجبه علمنا انه ليس بحرام ولا واجب . وان القياس الثابت لوجوبه وتحريمه فاسد ، ونحن نعلم أنه ليس في الكتاب والسنة ما يدل على الافطار بهذه الاشياء فعلمنا انها ليست مفسدة

(الثاني) ان الاحكام التي تحتاج الامة الى معرفتها لا بد أن يبينها الرسول

ﷺ بيانا عاما ، ولا بد أن تدقها الامة ، فاذا اتفق هذا علم أن هذا ليس من دينه

وهذا كما يعلم انه لم يفرض صيام شهر غير رمضان ، ولا حج بيت غير البيت

الحرام ، ولا صلاة مكتوبة غير الخمس ، ولم يوجب العمل في مباشرة المرأة بلا انزال ، ولا أوجب الوضوء من الفزع العظيم وإن كان في مظنة خروج الخارج ، ولا سن الركعتين بعد الطواف بين الصفا والمروة كما سن الركعتين بعد الطواف بالبيت ، وبهذا يعلم ان النبي ليس بنجس ، لانه لم ينقل عن أحد باسناد يحتاج به انه

١٩٢ الاحكام التي تعم بها البلوى انما ثبت بنص تنقله الامة (التفسير : ج ٢)

أمر المسلمين بغسل أبدانهم وثيابهم من المني مع عموم البلوى بذلك ، بل أمر الخائض أن تغسل قيصها من دم الحيض مع قلة الحاجة الى ذلك ، ولم يأمر المسلمين بغسل أبدانهم وثيابهم من المني . والحديث الذي يرويه بعض الفقهاء « يغسل الثوب من البول والغائط والمني والمذي والدم » ليس من كلام النبي ﷺ ، وليس في شيء من كتب الحديث التي يعتمد عليها ولا رواه أحد من اهل العلم بالحديث باسناد يحتج به . وروى عن عمار وعائشة من قولهما

وغسل عائشة لمني من ثوبه وفركها إياه لا يدل على وجوب ذلك ، فان الثياب تغسل من الوسخ والخناط والبصاق ، والوجوب انما يكون بأمره ، لا سيما ولم يأمروا سائر المسلمين بغسل ثيابهم من ذلك ، ولا نقل انه أمر عائشة بذلك ، بل أقرها على ذلك ، فدل على جوازها أو حسنه واستحبابه . وأما الوجوب فلا بد له من دليل فاذا كانت الاحكام التي تعم بها البلوى لا بد أن يبينها الرسول ﷺ بيانا عاما ولا بد أن تنقل الامة ذلك ، فعلوم أن السكحل ونحوه مما تعم به البلوى كما تعم بالدهن والاعتسال والبخور والطيب . فلو كان هذا مما يفطر لبيته النبي ﷺ كما بين الإفطار بغيره ، فلما لم يبين الإفطار علم انه من جنس الطيب والبخور والدهن ، والبخور قد يتصاعد الى الانف ويدخل في الدماغ وينعقد أجساما والدهن يشربه البدن ويدخل الى داخله ويتقوى به الانسان ، وكذلك يتقوى بالطيب قوة جيدة ، فلما لم ينه الصائم عن ذلك دل على جواز تطيبه وتبخيره . وادها نه ، وكذلك اكتتاله . وقد كان المسلمون في عهده ﷺ يجرح أحدهم إما في الجهاد وإما في غيره مأمومة وجانفة ، فلو كان هذا يفطر لبيته لم ذلك ، فلما لم ينه الصائم عن ذلك علم انه لم يجعله مفطرا .

(الوجه الثالث) اثبات التفطير بالقياس يحتاج الى أن يكون القياس صحيحا . وذلك إما قياس على بابة الجامع ، وإما بالغاء الفارق ، فاما أن يدل دليل على العلة في الاصل معدي لها الى الفرع ، وإما أن يعلم أن لا فارق بينهما من الاوصاف المعتبرة في الشرع ، وهذا القياس هنا منتف . وذلك انه ليس في الادلة ما يقتضي أن المفطر الذي جعله الله ورسوله مفطر

هو ما كان واصلا الى دماغ أو بدن ، أو ما كان داخلا من منفذ أو واصلا الى الجوف ونحو ذلك من المعاني التي يجعلها أصحاب هذه الاقاويل هي مناط الحكم عند الله ورسوله ، ويقولون ان الله ورسوله اما جعل الطعام والشراب مفطرا لهذا المعنى المشترك من الطعام والشراب وما يصل الى الدماغ والجوف من دواء المأمومة والجائفة وما يصل الى الجوف من الكحل ومن الحقنة والنقط في الاحليل وغير ذلك .

واذا لم يكن على تعليق الله ورسوله للحكم بهذا الوصف دليل كان قول القائل : ان الله ورسوله اما جعل هذا مفطرا لهذا — قولاً بلا علم ، وكان قوله « ان الله حرم على الصائم أن يفعل هذا » قولاً بأن هذا حلال وهذا حرام ، بلا علم ، وذلك يتضمن القول على الله بما لا يعلم وهذا لا يجوز

ومن اعتقد من العلماء أن هذا المشترك مناط الحكم فهو بمنزلة من اعتقد صحة مذهب لم يكن صحيحاً ، أو دلالة لفظ على معنى لم يردده الرسول ، وهذا اجتراء يشوبون عليه ، ولا يلزم أن يكون قولاً بحجة شرعية يجب على المسلم اتباعها

(الوجه الرابع) ان القياس اما يصح اذا لم يبدل كلام الشارع على علة الحكم " اذا سبرنا اوصاف الاصل فلم يكن فيها ما يصلح للعلة إلا الوصف المعين ، وحيث اثبتنا علة الاصل بالمناسبة أو الدوران أو الشبه المطرد عند من يقول به ، فلا بد من السبر ، فاذا كان في الاصل وصفان مناسبان لم يجز ان يعلل الحكم بهذا دون هذا ومعلوم ان النص والاجماع اثبتا الفطر بالاكل والشرب والجماع والحيض والنبي ﷺ قد نهى التوضي عن المبالغة في الاستنشاق اذا كان صائماً ، وقياسهم على الاستنشاق أقوى حججهم كانه تقدم وهو قياس ضعيف ، وذلك لان (من) نشق الماء بمنخره ينزل الماء الى حلقه والى جوفه ، فيحصل له بذلك ما يحصل للشارب بفمه ، ويعتدى بدنه من ذلك الماء ، ويزول العطش ويطبخ الطعام في معدته كما يحصل

(١) يعني ان القياس اما يصح في حالة عدم دلالة نص الشارع على علة الحكم بالشرط الآتي

بشرب الماء ، فلو لم يرد النص بذلك لعلم بالعقل ان هذا من جنس الشرب فانها لا يفرقان إلا في دخول الماء من الفم ، وذلك غير معتبر ، بل دخول الماء الى الفم وحده لا يفطر ، فليس هو مفطراً ولا جزءاً من المفطر لعدم تأثيره ، بل هو طريق الى الفطر ، وليس كذلك الكحل والحقنة ومداواة الجائفة والمأمومة ، فان الكحل لا يغذي البتة ولا يدخل احد كحلا الى جوفه لا من انفه ولا من فمه ، وكذلك الحقنة لا تغذي بل تستفرغ ما في البدن كما لو شم شيئاً من المسهلات ، او فرغ فزعا اوجب استطلاق جوفه وهي لا تصل الى المعدة (١) والدواء الذي يصل الى المعدة في مداواة الجائفة والمأمومة لا يشبه ما يصل اليها من غذائه (٢) اه كلام شيخ الاسلام رحمه الله تعالى

(١٨٨) وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبُطْلِ وَتُدُلُّوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ

الكلام كما تقدم في سرد الاحكام العملية ولما فرغ من احكام الصيام وفيها حكم اكل الانسان مال نفسه في وقت دون وقت مهد لحكم اكل مال غيره بذكر الحسود العامة والنهي عن قربها ثم قال ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبُطْلِ ﴾ (١) قال في المصباح: وحقنة المريض اذا اوصلت الدواء الى باطنه من مخرجه بالحقنة بالكسر ، واحتقن هو والاسم الحقنة مثل الفرقة من الافتراق. ثم اطلقت على ما يتدواى به ، والجمع حقن مثل غرفة وغرفة اه. فهذه هي الحقنة التي يقول شيخ الاسلام انها لا تقطر الصائم وقوله حق ، ولكن يوجد في هذا الزمن حقن آخر وهو ايصال بعض المواد المغذية من الدبر الى الامعاء لاجل تغذية بعض المرضى والامعاء من الجهاز الهضمي كالمعدة وقد تغني عنها فهذا النوع من الحقنة يفطر الصائم فهو لا يباح له الا في المرض المبيح للفطر (٢) الجائفة الجراحة التي تصل الى الجوف ، والمأمومة الشجرة في الرأس تصل الى أم السماع ؛ ومداواتهما ليس فيه تغذية تنافي الصيام

الخطاب لعامة المكلفين والمراد لا يأكل بعضهم مال بعض، واختار لفظ اموالكم وهو يصدق بأكل الانسان مال نفسه للاستعمار بوحدة الامة وتكافلها، وللتنبيه على ان احترام مال غيرك وحفظه هو عين الاحترام والحفظ لمالك، لان استحلال التعدي واخذ المال بغير حق يعرض كل مال للضياع والذهاب، ففي هذه الاضافة البليغة تعاليل للنهي، وبيان لحكمة الحكم، كأنه قال لا يأكل بعضهم مال بعض بالباطل، لان ذلك جناية على نفس الآخر، من حيث هو جناية على الامة التي هو احد اعضائها، لا بد ان يصيبه سهم من كل جناية تقع عليها، فهو باستحلاله مال غيره يجرى غيره على استحلال اكل ماله عند الاستطاعة، فما ابلغ هذا الايجاز! وما اجدر هذه الكلمة بوصف الاعجاز.

وفي الاضافة معنى آخر قاله بعضهم وهو التنبيه على انه يجب على الانسان ان ينفق مال نفسه في سبيل الحق وان لا يضيعه في سبيل الباطل المحرمة، ونظر فيه آخر بما رضىه الاستاذ الامام فقال انه صحيح في ذاته واسكن فهمه من الآية بعيد لقوله (بينكم) فهو صريح في ان المراد ما يقع به التعامل بين اثنين فأكثر والمراد بالاكل مطاق الاخذ والتعبير عن الاخذ بالاكل معروف في اللغة تجوزوا فيه قبل نزول القرآن، ومنشؤه ان الاكل اعم الحاجات من المال واكثرها، وان كان بعض الناس يفضل غير الاكل من الاهواء ينفق فيه المال، فان هذا لا ينفي ان الحاجة إلى الاكل وتقوم البنية اعظم وأعم. وأكثر ما يستعمل اكل المال في مقام أخذه بالباطل وقد يستعمل في غيره.

وأما الباطل فهو مالم يكن في مقابلة شيء حقيقي، وهو من البطل والبطلان، أي الضياع والخسار، فقد حرمت الشريعة أخذ المال بدون مقابلة حقيقية يعتمد بها ورضاء من يؤخذ منه، وكذلك إنفاقه في غير وجه حقيقي نافع.

قال الاستاذ الامام: ومن ذلك تحريم الصدقة على القادر على كسب يكفيه وإن تركه حتى نزل به الفقر اعتماداً على السؤال، ونقول انها كما حرمت إعطاءه حرمت عليه الاخذ إذا هو أعطاه معط، فلا يحل لمسلم أن يقبل صدقة وهو غير مضطر اليها، ولا للمضطر إلا إذا كان عاجزاً عن إزالة اضطراره بسعيه وكسبه.

أقول: وأبلغ من هذا وذاك ما ذكره الفقهاء من أنه لا يجب على العاري الذي لا يجد ما يستر عورته في الصلاة أن يستعير ثوبا يصلي فيه أو يقبله صدقة ممن يبذله له لما في ذلك من المنفعة التي لا يكلفه الإسلام احتمالها، وله أن يصلي عاريا

قال: ومنه تحريم الربا لأنه أكل لأموال الناس بدون مقابل من صاحب المال المعطي، ومثل لذلك بما يقع في الناس كثيرا من أكل الربا أضعافا مضاعفة، وفرق بينه وبين السلم، وقال إن روح الشريعة تعلمنا بمثل هذه الآية أنه يطلب من الإنسان أن يكتسب المال من الطرق الصحيحة المشروعة التي لا تضر أحدا، وإنما أجل وأوجز القرآن في الباطل لأنه من الأمور المعروفة للناس بوجوده الكثيرة، وحسب المسلم أن يكف عن كل ما يعتقد أنه باطل، على أنه بين هذا الاجمال في أمور قد نخفي على الناس كالدلاء إلى الأحكام الآتي وكن تحريم الربا أي ربا الفضل للنهي عنه في الحديث دون ربا النسيئة المحرم بنص القرآن فهو لاختفاء في بطلانه لأنه زيادة في المال لاجل التأخير في أجل الدين الذي استهلك لا لمنفعة جديدة

ويدخل في هذا الباب التعدي على الناس بقصب المنفعة بأن يسخر بعضهم بعضا في عمل لا يعطيه عليه أجرا، أو ينقصه من الاجر المسمى أو أجر المثل، ويدخل فيه سائر ضروب التعدي والعش والاحتياال كما يقع من السامسة فيما يذهبون فيه من مذاهب التلبيس والتدليس، إذ يزنون للناس السلع الرديئة، والبضائع المزجاة، ويسولون لهم فيورطونهم، وكل من باع أو اشترى مستعينا بايهام الآخر بما لا حقيقة له ولا صحة بحيث لو عرف الحفايا وانقلب وهمه علما لما باع أو لما اشترى فهو آكل لماله بالباطل

ومن هؤلاء الموهمين باعة التولات والتناجيس^(١)، والتمائم، وكذا العزائم وختمات القرآن والعدد المعلوم من سورة (يس) أو بعض الاذكار، وقد بلغ من هرؤ هؤلاء بالدين ان كان بعض المشهورين منهم يبيع سورة (يس) لفضاء الحاجات

(١) التولات جمع تولة كعنبه ما تحمله المرأة ليجهز زوجها، والسحر والتناجيس ما يحمل لنحو ذلك او للعين من الخرز والعظام التي يعلقنها على الاطفال، او يحفظ من الجن والشياطين

أو لرحمة الاموات ، يقرأها مرات كثيرة ، ويمقد لكل مرة عقدة في خيط يحمله حتى إذا ما جاءه طالب إبتياح القراءة وأخذ منه الثمن بعد المساومة يحل له من تلك العقدة ، بقدر ما يطلب من العدد ، ذكر هذه الواقعة الاستاذ الامام في الدرس ، وقد كنا نسمع عن رؤساء بعض النصارى نحو هذا في بيع العبادۃ التي يسمونها القداديس فنسخر منهم ، حتى علمنا اننا قد اتبعنا منهم شبرا بشبر حتى دخلنا في جحر الضب الذي دخلوه قال الاستاذ : ان كل أجر يؤخذ على عبادة فهو أكل لاموال الناس بالباطل وقد مضى الصدر الاول ولم يكن أخذ الاجر على عبادة ما معروفا ، ولا يوجد في كلام أهل القرن الاول والثاني كلمة تشعر بذلك ، ثم لا يعقل أن تحقق العبادۃ وتحصل بالاجرة ، لان نيةها انما يكون بالنية وإرادة وجه الله تعالى وابتناء مرضاته بامتثال أمره ، ومتى شاب هذه النية ثابتة من حظ الدنيا خرج العمل عن كونه عبادۃ خالصة لله ، والله تعالى لا يقبل إلا ما كان خالصاً من الحظوظ والشوائب

(أقول) وقد ورد على لسان الشارع تسمية مثل هذا العمل شركا في حديث مسلم وغيره «قال الله تعالى : أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه - إذا كان يوم القيامة أتى بصحف محتمة فتنصب بين يدي الله تعالى فيقول الله ملائكتي : اقبلوا هذا وألقوا هذا ، فتقول الملائكة وعزتك ما رأينا إلا خيراً ، فيقول نعم لكن كان لغيري ، ولا أقبل اليوم إلا ما ابتغي به وجهي» وفي رواية يقولون «ما كتبنا إلا ما عمل» الخ وفي حديث أحمد والترمذي وابن ماجه «إذا جمع الله الاولين والآخرين ليوم لا ريب فيه نادى مناد من كان أشرك في عمل عمله الله أحداً فليطلب ثوابه من عنده فان الله أغنى الشركاء عن الشرك» وإنما يظهر تأويل مثل هذا فيمن قصد العبادۃ والاجر معاً بحيث لو لم يستأجر للقراءة (مثلاً) لقرأ . وأما من لا يقصد إلا الاجرة فاذا لم تكن لا يقرأ تلك الختمۃ أو العدد من السورة أو الذكر فأمره أقبح ، وذنبه أكبر ، وعمله باطل لا يعتد به شرعاً ، فدافع الاجر عليه خاسر لماله ، وأخذ منه خاسر لماله ، ومثل قصد الاجرة المالية الرباء فانه منفعة معنوية

وقد فرق بعض الفقهاء بين قراءة القرآن وتعليمه ، فأجاز أخذ الاجرة على

تعليمه كتعليم العلم لان الاشتغال بالتعليم يصد عن التفرغ للكسب من الوجوه الاخرى ، فإذا لم يحجز المعلم بتعمير علينا ان نجد من يتصدى لتعليم الاولاده وليس زمننا كزمن السلف يتفرغ فيه الناس لنشر العلم وافادته تعبداً لله وتقرباً اليه

(قال الاستاذ الامام) من علم العلم والدين بالاجرة فهو كسائر الصنائع والاجراء لا ثواب له على أصل العمل بل على إتقانه والاخلاص فيه والنصح لمن يعلمهم ، وأذكر انني سمعته في وقت آخر يقول: ينبغي للمعلم الذي يعطى راتباً من الاوقاف الخيرية ان يأخذ إذا كان محتاجاً لاجل سد الحاجة لا بقصد الاجرة على التعليم ، وبذلك يكون عابداً لله تعالى بالتعليم نفسه ، وعلامته ان يستعفف إذا هو استغنى ، فلا يأخذ من الوقف شيئاً — وقالوا في المؤذن مثل ما قلوا في معلم القرآن ويأتي فيه من القصد وانية ما ذكر في المعلم . ولا خلاف في عدم جواز أخذ الاجرة على جواب السائل عن مسألة دينية تعرض له إذ الاجابة فريضة على العارفين وكنان العلم محرم عليهم . وبسط هذه الاحكام موضع آخر

وجملة القول ان أكل اموال الناس بالباطل يتحقق في كل اخذ للمال بغير رضى من المأخوذ منه لاشائية للجهل او الوهم او الغش او الضرر فيه ، ومما تعرض فيه هذه الشوائب كلها او كثرها قراءة القرآن بالاجرة لاجل الوتى او دفع ضرر الجن وغيره عن الاحياء ، والذي يعطي الاجرة عليها يجبل ذلك ، ويتوهم انها تكون سبباً لنفع الميت او الحي او دفع ضرر العذاب في الآخرة او الجن في الدنيا (مثلاً) والجاهل بالشرع في المسألة عرضة لقبول الايهام والغش من الدجالين والمحتالين — وليس كذلك إقراء القرآن في البيوت لاجل اتعاض اهله وتقوية شعور الايمان بسماعه ، بل هذا كتعليم العلم الذي بسطناه آنفاً ، وينبغي ان يكون كرام القراء بغير صفة الاجرة ١

ذكر الاكل مجملاً عاماً بين نوعاً منه خصه بالنهي عنه مع دخوله في العام ما يقع من الشبهة فيه لبعض الناس اذ يعتقد بعضهم أن الحكم الذي هو نائب الشارع في بيان الحق ومنفذ الشرع اذا حكم لانسان بشيء ولو بغير حق فانه

يحل له ولا يكون من الباطل فقال تعالى ﴿وتدلوها الى الحكام﴾ أي ولا تلقوا

بها الى الحكام رشوة لهم ﴿لئلا كلوا فريقا من أموال الناس بالاثم وأنتم تعلمون﴾
بإبطال هذا الاعتقاد ليعلم أن الحق لا يتغير بحكم الحاكم بل هو ثابت في نفسه
وليس على الحاكم الا بيانه وايصاله الى مستحقه بالعدل، بل قال الاستاذ الامام :
إن الحاكم عبارة عن شخص العدل الناطق بما لكل أحد منه اه أي فاذا نطق
بغير الحق خطأ أو اتباعا لهواه ، فقد خرج عن حقيقته ومعناه ، وتعريفه للمحكوم
له غير ما يعرفه لا يعني عنه شيئا ، وكذلك إلزام خصمه التنفيذ . نعم ، ان كان
الحكوم له بالبطل في الواقع يعتد أنه صاحب الحق لشبهة عرضت له وحكم له
الحاكم يكون معذورا فيما يأكله بحكمه ، ولا يعذر اذا كان عالما بأنه غير محق لان
حكم القاضي على الظاهر فقط .

قال الاستاذ الامام : قد نفت الآية الاشتباه وبينت أن الاستعانة بالحكام
على أكل المال بالباطل محرم لأن الحكم لا يغير الحق في نفسه ولا يحله للمحكوم له
به ، ومع هذا قد اختلف علماؤنا في حكم القاضي هل هو على الظاهر فقط أم ينفذ
ظاهراً وباطناً ويكون الاثم على القاضي وحده ان تعمد الجور دون المحكوم له ،
فالجمهور على أن حكم القاضي ينفذ ظاهراً فقط ، وأبو حنيفة على أن حكم القاضي
ينفذ بالطلاق وعقد النكاح أو فسخه ينفذ ظاهراً وباطناً وان كان الشهود زوراً ،
وان حكمه بالمال لا ينفذ إلا ظاهراً فلا يحل للمحكوم له تناوله اذا لم يكن له .
وأزيد المسألة وضوحاً بالتمثيل فأقول يعني ان القاضي اذا حكم بفسخ النكاح
أو التفريق بين الزوجين بشهادة زور حرم عليهما أن يعيشا معاً عيشة الأزواج ،
وإذا شهد شهود الزور بأن فلانا عقد على فلانة وحكم القاضي بصحة العقد حل
للرجل للمحكوم له أن يدخل بها بغير عقد اكتفاء بحكم القاضي الذي يعلم أنه بغير
حق . وقد نقل النووي في شرح مسلم أن الشافعي حكى الاجماع على أن حكم
الحاكم لا يحل الحرام ، وقد علمت أن عليه الجمهور ومنهم صاحب أبي حنيفة فلم
يخالفناه الا لانه ظهر لها قوة دليل الجمهور ، ومنه حديث أم سلمة عند الجماعة :

مالك وأحمد والشيخين وأصحاب السنن وهو أن النبي ﷺ قال « إنما أنا بشر وإنكم تختصمون إلي ، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضي له بتحو ما أسمع ، فمن قضيت له من حق أخيه شيئاً فلا يأخذه ، فإنما أقطع له قطعة من النار » وروي بلفظ آخر بمعناه : والمتصرون لأبي حنيفة يقصرون الأمر على الأموال لأنها الموضوع الذي وردت فيه الآية والحديث كما تراه في لفظ الحديث ، وبعضهم فيهما من التحريف ما لا ينبغي أن يحكى ، ورد الجمهور ذلك بالقاعدة انجم عليها وهي أن الابضاع أولى بالاحتياط من الأموال فن لم يتناولها النص بلفظه تناولها بعلمته بالأولى . وفي الآية والحديث عبرة لكلاء الدعاوي الذين يدعون بالحامين ، فلا يجوز لمن يؤمن منهم بالله واليوم الآخر أن يقبل الوكالة في دعوى يعتقدان صاحبها مبطل ولا أن يستمر في محاولة اثباتها إذا ظهر له بطلانها في أثناء التقاضي . وإننا نراهم يعتمدون على خلافتهم في القول ولحنهم في الخطاب (وما يذكر إلا أولو الألباب)

ومن مباحث اللفظ في الآية أن الأدلاء بمعنى الإلقاء وقالوا إنه في الأصل إلقاء الدلو واختير هذا التعبير لأنه يشعر بعدم الروية ، وهذا ما اقتصر عليه الأستاذ الامام وفي التفسير الكبير للامام الرازي : إلقاء الدلو يراد به إخراج الماء ، وإلقاء المال إلى الحكم يراد به الحكم الملقى ، وذكر وجه آخر بعيداً ، والضمير في قوله تعالى (بها) قيل إنه يرجع إلى الأموال والمعنى لا تلقوها اليهم بالرشوة وقالوا إن الرشوة رشاء الحكم ، وقيل إن المراد ولا تلقوها بحكومة الأموال إلى الحكم . والفريق من الشيء الجملة والطائفة منه . والائتم فسرهم بعضهم بشهادة الزور وبعضهم باليمين الفاجرة ، وهو أعم من ذلك وإن صح ما ذكره في سبب نزول الآية وهو ما أخرجه ابن أبي حاتم عن مراسيل سعيد بن جبير أن عبد الله بن أشوع الحضرمي وامراً القيس بن عابس اختصما في أرض ولم تكن بينة لحكم رسول الله ﷺ بأن يحلف امرؤ القيس ، فهم به ، فنزلت ، والمراد بالعلم في قوله (تعلمون) ما يشمل الظان وهو احتباس عن رأ كل معتقداً أنه حقه ، ولذلك أمثلة وفروع لا تحصى ، ذكر الأستاذ الامام منها في الدرر مثل ما إذا علم زيد

أن أباه أودع له وديعة كذا عند فلان الذي مات فطالب ولد الميت بذلك وكان هذا يمتد أن أباه تركه تراثا فن حكم له به منها لا يقال انه أكله بالاثم
وذكر الاستاذ الامام في تفسير الآية ما عليه المسلمون في هذا العصر ،
ولاسيا في بلاد مصر ، من كثرة التقاضي والخصام ، والادلاء الى الحكم ، حتى
ان منهم من لا يطالب غريمه بحقه الا بواسطة المحكمة ، ولعله لوطأ له لما احتاج
الى التقاضي ، ومنهم من يحاكم الاخر لحض الانتقام والايذاء وان أضرب نفسه اه
(أقول) وكمن ثروة نفدت ، وبيوت خربت ، ونفوس أهينت ، وجماعة
فرقت ، وما كان لذلك من سبب الا الخصام ، والادلاء بالمال الى الحكم ،
ولو تأدب هؤلاء الناس بأداب الكتاب الذي يتسبون اليه لكان لهم من هدايته
ما يحفظ حقوقهم ، ويمنع تقاطعهم وعقوقهم ، ويجل فيهم التراحم والتلاحم ، محل
التراحم والتلاحم ، وإنك ترى من أذكيائهم من يزعم أنهم عن هدي الدين
أغنياء ، وقد عموأ نصابهم بتركه من الارزاء ، فهم بالفسق عنه يتنابدون
ويتحاسدون ، ويتنافذون ويتنافدون ، ويحسبون أنهم على شيء الا أنهم هم الكاذبون

(١٨٩) يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْآهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ
وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى ،
وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ

ذكر الله تعالى حكم الاموال عقب ذكر أحكام الصيام لما تقدم من المناسبة ،
والصيام عبادة موقوتة لا يتعدى فرضها شهر رمضان ، والاموال وسيلة لعبادة
الحج وهو يكون في الاشهر الحرم ، ولعبادة القتال مدافعة عن الملة والامة وهي
قد كانت ممنوعة في هذه الاشهر ، فناسب أن يعقب بعد أحكام الصيام والاموال
بذكر ما يشرع في الاشهر الحرم من الحج ومن القتال عند الاعتداء على المسلمين
ويبدأ ذلك بذكر حكمة اختلاف الاهلة ، قال ﴿ يسألونك عن الاهلة قل هي

مواقيت للناس والحج أي مواقيت لهم في صيامهم وحجهم من العبادات ،
 وفي نحو عدة النساء وآجال العقود من المعاملات ، فان التوقيت بها يسهل على
 العالم بالحساب والجاهل به ، وعلى أهل البدو والحضر ، فهي مواقيت لجميع الناس .
 وأما السنة الشمسية فان شهورها تعرف بالحساب فهي لا تصلح للالحاسيين ،
 ولم يقدروا على ضبطها الا بعد ارتقاء العلوم الرياضية بزمن طويل . وقد ورد
 في أسباب نزول الآية أن بعضهم سأل النبي عن الالهة مطلقا وان بعضهم سأل
 لم خلقت ؟ والروايتان عند ابن أبي حاتم . واخرج ابو نعيم وابن عساكر من
 طريق السدي الصغير عن الكلبي عن ابي صالح عن ابن عباس ان معاذ بن جبل
 وثعابة بن غنيمه قالوا يا رسول الله ما بال الهلال يبدو دقيقا مثل الخيط ثم يزيد
 حتى يعظم ويستوي ويستدير ، ثم لا يزال ينقص ويدق حتى يعود كما كان لا
 يكون على حال واحد ؟ فبرزت وقد اشتمر هذا السبب لان علماء البلاغة يذكرونه
 في مطابقة الجواب للسؤال وعدمها ، وزعموا ان مراد السائئين ببيان السبب
 الطبيعي لهذا الاختلاف ، وان الجواب إنما جاء ببيان الحكمة دون بيان العلل لانه
 موضوع الدين ، جريا على ما يسمى في البلاغة اسلوب الحكيم او الاسلوب الحكيم ،
 قال الاستاذ الامام : كأنه قال كان عليكم ان تسألوا عن الحكمة والفائدة في
 اختلاف الالهة ان لم تكونوا تعرفونها ، وإلا فعليكم الاكتفاء بها وعدم مطالبة
 الشارع بما ليس من الشرع . وفي الكلام تعريض بأن سؤالهم في غير محله ، ولو
 توجه هذا السؤال ممن يتعلم علم الفلك إلى أستاذه فيه لما عند قبيحا ولا قيل انه في
 غير محله ، ولكنه موجه من أمي ، إلى نبي لا إلى فلاني ، فهو قبيح من هذا
 الوجه لا لذاته ، وإلا لكان النظر في السموات والارض لأجل الوقوف على
 أسرار الخليفة وأسباب ما فيها من الآيات والعبر مذموما ، وكيف يذم وقد
 أرشدنا الله تعالى اليه ، وحشنا في كتابه عليه (٦ : ٥٠) أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم
 كيف بيناها وزيناها وما لها من فروج) والآيات في هذا المعنى كثيرة .
 وأقول ان الرواية عن ابن عباس ضعيفة ، بل قالوا ان رواية الكلبي عن أبي

صالح هي أوهى الطرق عنه . على ان السؤال غير صريح في طلب بيان العلة، وحمله على طلب الحكمة والفائدة ولو مع العلة غير بعيد ، فاختار ان الجواب مطابق للسؤال . وقد بين الاستاذ الامام بمناسبة القول المشهور في السؤال وانه عن العلة ما بحث الانبياء لبياناه فهم يستلون عنه وما ليس كذلك فقال ما مثاله

العلوم التي نحتاج اليها في حياتنا على أقسام : منها مالا نحتاج فيه إلى أستاذ كالحسوسات والوجدانات فهذا هو (القسم الاول) ومنها مالا نحتاجه لأستاذ لأنه مما لا مظامع للبشر في انوصول اليه البتة وهو كيفية التكوين والايجاد الاول المعبر عنه بسر القدر (١) يمكن للنباتي ان يعرف مايتكون منه النبات وكيف ينبت وينمو ويتغذى ، وللطبيب ان يعرف كيفية تولد الحيوان والاطوار التي يتدرج فيها منذ يكون نطفة إلى ان يكون انسانا مستقلا عاقلا ، ولكن لا يعرف نباتي ولا طبيب كيف وجدت أنواع النبات وأنواع الحيوان او مادتهما لأول مرة ، ولا كيف وجد غيرهما من المخلوقات ، ومن هنا تعلمون ان العلاقة بين الخالق والمخلوق من هذه الجهة — جهة اليجاد والخلق — لا يمكن اكتناهاها . وكذلك لا يمكن اكتناه ذات الله تعالى وصفاته . وهذا هو (القسم الثاني) ومنها ما يقيسر للناس ان يعرفوه بالنظر والاستدلال والتجربة والبحث كالعلوم الرياضية والطبيعية والزراعية والصناعات والهيئة الفلكية ، ومنها اسباب أطوار الهلال ، وتنقله من حال إلى حال ، أي المعبر عنه بقوله تعالى (٣٦ : ٣٩) والقمر قد رنا من منازل حتى تباد كالمرجون القديم) وهذا هو (القسم الثالث)

(القسم الرابع) ما يجب علينا للخالق العظيم الذي أودع في فطرنا الشعور بسلطانه وهدى عقولنا إلى الايمان به بما نراه من آياته في الآفاق وفي أنفسنا . فمن هذا الشعور وهذه الهداية مبهمان لاسبيل لنا إلى تحديددهما من حيث ما يجب اعتقاده في الله تعالى وفي حكمة خلقنا ومراده منا وما يتبع ذلك من أمر مصيرنا ومن حيث ما يجب له من الشكر والعبادة . وهذا مما لا سبيل إلى معرفته بطريق

صناعي أو كسب بشري ، فقد وقعت الالام في الحيرة والخطأ في مسائله لجهلهم بالصلة والنسبة بين المخلوق والمخلوق ، فمنهم من وصفه تعالى بما لا يصح ان يوصف به ، ومنهم من توهم ان أعمالنا تفيده او تؤله ، وانه ينعم علينا او ينتقم منا بالمصائب لاجل ذلك . ومنهم من توهم ان الحياة الاخرى تكون بهذه الاجساد والجزاء فيها يكون بهذا المتاع ، فاخترعوا الادوية لحفظ أجسادهم ومتاعهم . واذا كان الانسان عاجزاً عن تحديد ما يجب عليه ويحتاج اليه من الايمان بالله وبالحياة الاخرى وما يجب عليه في الحياة الاولى شكراً لله واستعداداً لتلك الحياة لان الخواس والعقل لا يدركان ذلك ، فلا شك انه محتج إلى عقل آخر يدرك به ما يعوز افراده من هذه الامور ، وهذا العقل هو النبي المرسل (١)

وبقي (قسم خامس) وهو ما يستطيع العقل البشري ادراك الفائدة منه ولكنه عرضة للخطأ فيه دائماً لما يعرض له من الاهواء والشهوات التي تلقي الغشاوة على الابصار والبصائر ، فتحول دون الوصول إلى الحقيقة ، او تشبه النافع بالضار ، وتلبس الحق بالباطل . مثل ذلك السعاية والحل يدرك العقل ما فيه من الضرر والقيح ولكنه اذا رأى لنفسه فائدة من السعاية بشخص زينها له هواه فيراها حسنة من حيث يخفى عليه ضررها لذاتها ، وكذلك شرب الخمر والحشيش قد يعرف الانسان مضرتهما في غيره ولكن الشهوة تحجبه عن ادراك ذلك في نفسه فيؤثر حكم لذته على حكم عقله الذي ينهاه عن كل ضار فصار محتاجاً إلى معلم آخر ينصر العقل على الهوى ، ووازع يكبح من جماح الشهوة ليكون على هدى

فما يمكن للانسان ان يصل اليه بنفسه ، لا يطالب الانبياء ببيانها ، ومطالبتهم به جهل بوظيفتهم وإهمال للمواهب والقوى التي وهبها الله إياها ليصل بها إلى ذلك ، وكذلك لا يطالبون بما يستحيل على البشر الوصول اليه كقول بعض بني اسرائيل لموسى (ان تؤمن لك حتى نرى الله جهرة) وأما ما كان ادراكه ممكناً ، وكسبه بالحس والعقل متعذراً او تحديده متعسراً ، فهو الذي يحتاج فيه إلى هاد ينحبر

(١) وقد قال في رسالة التوحيد ان الوحي اول الدين الموحى به هو لنوع انسان كالعقل لافراده ، فنسمية النبي او الوحي عقلاً على التشبيه

عن الله تعالى لنا أخذه عنه بالإيمان والتسليم ، ولذلك قلنا ان الرسول عقل للامة
وهداية وراء هداية الحواس والوجدان والعقل

لو كان من وظيفة النبي أن يبين العلوم الطبيعية والفلكية لكان يجب ان
تعطل مواهب الحس والعقل ، وينزع الاستقلال من الانسان ، ويلزم بأن يتلقى
كل فرد من أفراد كل شيء بالتسليم ، ولوجب ان يكون عدد الرسل في كل أمة
كافياً لتعليم أفرادها في كل زمن كل ما يحتاجون اليه من أمور معاشهم ومعادهم ،
وإن شئت فقل لوجب ان لا يكون الانسان هذا النوع الذي نعرفه ، نعم ان
الانبياء ينبهون الناس بالاجل إلى استعمال حواسهم وعقولهم في كل ما يزيد منافعهم
ومعارفهم التي ترتقي بها نفوسهم ، ولكن مع وصلها بالتنبيه على ما يقوي الايمان
ويزيد في العبارة . وقد أرشدنا نبينا ﷺ إلى وجوب استقلالنا دونه في مسائل
دنيانا في واقعة تأبير النخل إذ قال : « أنتم أعلم بأمور دنياكم » (١) ومن ههنا كان
السؤال عن حقيقة الروح خطأ وقد أمر الله نبيه ان يحجب السائلين بقوله (١٧: ٨٥)
قل الروح من أمر ربي (اي انها من المخلوقات التي لا يسئل النبي عنها كما كان
السؤال عن علة اختلاف أطوار الالهة خطأ لا تصح مجازاة السائل عليه بل عده
المقرآن من قبيل إتيان البيوت من ظهورها كما في تلمة الآية

فان قيل ان التاريخ من العلوم التي يسهل على البشر تدوينها والاستغناء بها
عن الوحي فلماذا كثر مردد الاخبار التاريخية في القرآن وكانت في التوراة أكثر؟
والجواب ليس في القرآن شيء من التاريخ من حيث هو قصص وأخبار للأمم او
البلاد لمعرفة أحوالها ، وانما هي الآيات والمعبر تجلت في سياق الوقائع بين الرسل
وأقوامهم ، لبيان سنن الله تعالى فيهم ، انذاراً للكافرين بما جاء به محمد ﷺ وتشبيهاً
لقلبه وقلوب المؤمنين به (وسترى ذلك في محله إن شاء الله تعالى) ولذلك لم تذكر
قصة بترتيبها وتفصيلها ، وانما يذكر موضع العبارة فيها (١٢ : ١١٠) لقد كان في قصصهم
عبرة لاولي الالباب (١١٠ : ١٢٠) وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك

وكل ما تراه في هذه التوراة التي عند القوم من القصص المسببة والتاريخ المتصل من ذكر خلق آدم وما بعده فهي مما ألحق بالتوراة بعد موسى بقرون ، بل كتب أكثر تواريخ العهد القديم بعد السبي ورجوع بني اسرائيل من بابل (١) ومن أراد كمال البيان في وظائف الرسل فعليه برسالة التوحيد للاستاذ الامام

واذا كان ماورد في السؤال عن الالهة لم يصح سنداً كما تقدم فلا ينبغي ذلك ان السؤال قد وقع بالفعل ، ولا ان الرواية التي قالوها هي في نفسها صحيحة ، فماكل ما لم يصح سنده باطل ، ولا كل ماصح سنده واقع ، فرب سند قالوا انه صحيح لانهم لا يعرفون جارحا في أحد من رجاله وهو غير صحيح لان فيهم من خفي كذبه واستتر أمره . يدل على السؤال في الجملة قوله (يسألونك) ويستأنس لقول من قال ان السؤال

كان على العلة والسبب قوله تعالى ﴿وليس البر بان تأتوا البيوت من ظهورها﴾ فان فيه تعريضاً بان من يسأل النبي عما لم يبعث النبي لبيانها ولا يتوقف عرفاته على الوحي فهو في طلبه الشيء من غير مطلبه كمن يطلب دخول البيت من ظهره دون بابه . وبهذا التقرير يكون الاتصال والالتحام بين أجزاء الآية أحكم وأقوى . ولولا ان هذا مفيد لحكم من أحكام الحج الذي يعرف ميقاته بالالهة لكان لامعنه له إلا تأديب السائئين بمثل ذلك السؤال بمثابة لا يرتضيه عاقل ، وهو آيات البيوت من ظهورها ، وإرشادهم إلى ما ينبغي أن ينبغي ان يستفيدوه وتحسينه لهم بجعله كآيات البيوت من أبوابها

روى البخاري وابن جرير عن البراء قال كانوا اذا أحرموا في الجاهلية أتوا البيت من ظهره فأنزل الله الآية وأخرج ابن أبي حاتم والحاكم وصححه عن جابر قال كانت قريش تدعى الحرس (٢) وكانوا يدخلون من الابواب في الاحرام ، وكانت الانصار وسائر العرب لا يدخلون من باب في الاحرام ، فبينما رسول الله ﷺ

(١) يراجع الكلام في اسفار التوراة وغيرها من كتبهم في ص ٢٢٢ ج ١٠ تفسير

(٢) هو جمع أحرس كحمر جمع احمر - من الحراسة وهي الشدة والصلابة وهو بذلك لمشددهم في دينهم ، وكان مما يمتازون به أو تطلق على الشجاعة

في بستان إذ خرج من بابه وخرج معه قطبة بن عامر الانصاري فقالوا يارسول الله إن قطبة ابن عامر رجل فاجر ، وانه خرج معك من الباب ، فقال له « ما حملك على ما فعلت ؟ » قل رأيتك فعلته ففعلت كما فعلت . قال « اني رجل أحسي » قال له فان ديني دينك فأنزل الله الآية . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس نحوه وعبد ابن حميد ماهو يعمناه . وذكر ابن جرير عن الزهري في سبب ذلك انهم كانوا يتخرجون من الدخول من الباب من أجل أن سقف الباب يحول بينهم وبين السماء . وبعد ان أعلمهم الله تعالى بخطئهم في ذلك بين لهم البر الحقيقي فقال ﴿ ولكن البر من اتقى وأتوا البيوت من أبوابها واتقوا الله لعلكم تفلحون ﴾ أي ان البر هو تقوى الله تعالى بالتخلي عن المعاصي والردائل ، وعمل الخير والتخلي بالفضائل ، واتباع الحق واجتناب الباطل ، فاتوا البيوت من أبوابها ، وليكن باطنكم عنواناً لظاهرهم بطيب الامور كلها من مواضعها ، واتقوا الله رجاء ان تغفروا في أعمالكم ، وتبلغوا غاية آمالكم ، فمن يتق الله يجعل له من أمره يسراً

ومن مباحث اللغز ان الاهلة جمع هلال وهو القمر في اليامين او ثلاث من أول الشهر على الاشهر ، وقيل حتى يحجر اي يستدير بخط دقيق ، وقيل حتى يهر ضوءه سواد الليل وقدروا ذلك بسبع . وقالوا انه مأخوذ من استهل الصبي إذا صرخ حين الولادة ، وذلك انهم كانوا يرفعون اصواتهم عند رؤيته للاعلام بها يقولون اهلال والله . وأهل الرجل رفع صوته عند رؤيته . وأهل بالحج رفع صوته باللبية وأهل بذكر الله وباسم الله . وأهل القوم واستهلوا رأوا الهلال . ثم قال تعالى

(١٩٠) وَقَتِّلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْكُرُكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يَحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (١٩١) وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ ، وَلَا تَقْتُلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى تَقْتُلُوهُمْ فِيهِ ، فَإِنْ قَتَلْتُمْ فَاقْتُلُوهُمْ

كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (١٩٢) فَإِنْ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ
(١٩٣) وَقَتْلُهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ انْتَهَوْا
فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ

وردت هذه الآيات في الاذن بالقتال للمجرمين في الاشهر الحرم إذا فوجئوا
بالتفعل بغياً وعدواناً. فهي متصلة بما قبلها أم الاتصال لان الآية السابقة بينت
ان الالهة موافقت للناس في عباداتهم ومعاملاتهم عامة وفي الحج خاصة. وهو
في اشهر هلالية مخصوصة كان القتل فيها محرماً في الجاهلية. وأخرج الواحدي
من طريق الكلبي عن ابي صالح عن ابن عباس ان هذه الآية نزلت في صالح
الحديبية، وذلك ان رسول الله ﷺ صُددَ عن البيت ثم صالحه المشركون
فرضي على ان يرجع عامه القابل ويخلوا له مكة ثلاثة ايام يطوف ويفعل ما يشاء.
فلما كان العام القابل تجهز هو وأصحابه لعمرة القضاء وخافوا ان لا تفي لهم قريش
وأن يصدوهم عن المسجد الحرام بالقوة ويقاتلوهم، وكره أصحابه قتالهم في الحرم

والشهر الحرام، فأنزل الله تعالى ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَقَاتِلُونَكُمْ﴾
يقول أبها المؤمنون الذين يخافون أن يمنكم مشركو مكة عن زيارة بيت الله
والاعتماد فيه نكثاً منهم للعهد وفتنة لكم في الدين، وتكرهون أن تدافعوا عن
أنفسكم بقتالهم في الاحرام والشهر الحرام، إني أذن لكم في القتال على انه دفاع
في سبيل الله لاتمكن من عبادته في بيته، وتربية من يفتنكم عن دينكم وينكث
عهديكم، لا لحفظ النفس وأموالها، والضرارة بحب التساكن، فقاتلوا في هذه

السبيل الشريفة من يقاتلكم ﴿وَلَا تَعْتَدُوا﴾ بالقتل فتبدأوهم - ولا في القتال
فتقتلوا من لا يقاتل كالنساء والصبيان والشيخوخ والمرضى أو من أتى اليكم السلم
وكف عن حربكم - ولا بغير ذلك من انواع الاعتداء كالتهريب وقطع الاشجار،
وقد قالوا ان الفعل المنفي يفيد العموم.

علل الاذن بأنه مدافعة في سبيل الله وسيأتي تفصيله في الآية التالية، وعلل بالنهي بقوله ﴿ ان الله لا يحب المعتدين ﴾ أي ان الاعتداء من السيئات المكروهة عند الله تعالى لذاتها فكيف إذا كان في حال الاحرام ، وفي ارض الحرم والشهر الحرام ؟ ثم قال

﴿ واقتلوهم حيث تقتلوهم ﴾ اي اذا نشب القتال فاقتلوهم أينما أدر كنتموهم وصادقتهم ، ولا يصدكنم عنهم أنكم في أرض الحرم إلا ما يستثنى في الآية بشرطه ﴿ وأخرجوهم من حيث أخرجوكم ﴾ أي من المكان الذي أخرجوكم منه وهو مكة فقد كان المشركون أخرجوا النبي وأصحابه المهاجرين منها بما كانوا يفتنونهم في دينهم ، ثم صدوهم عن دخولها لاجل العبادة ، فرضى النبي والمؤمنون على شرط أن يسمحوا لهم في العام القابل بدخولها لاجل النسك والاقامة فيها ثلاثة أيام كاتقدم ، فلم يكن من المشركين الا ان تقضوا العهد. أليس من رحمة الله تعالى بعباده أن يقوي هؤلاء المؤمنين ويأذن لهم بأن يعودوا إلى وطنهم ناسكين مسالمين ، وأن يقاوموا من يصدهم عنه من أولئك المشركين الخائنين ؟ وهل يصح أن يقال فيهم انهم أقاموا دينهم بالسيف والقوة ، دون الارشاد والدعوة ؟ كلا لا يقول هذا إلا غر جاهل ، أو عدو متجاهل . ثم زاد التعليل بيانا فقال ﴿ والفتنة أشد من القتل ﴾ اي ان فتنتهم إياكم في الحرم عن دينكم بالأيذاء والتعذيب ، والاخراج من الوطن ، والمصادرة في المال ، أشد قبحاً من القتل ، إذ لا بلاء على الانسان أشد من إيذائه واضطهاده وتعذيبه على اعتقاده الذي تمكن من عقله ونفسه ، ورآه سعادة له في عاقبة أمره . والفتنة في الاصل مصدر فتن الصائغ الذهب والفضة إذا أذابها بالنار ليستخرج الزغل منها . وبسمي الحجر الذي يختبرهما به أيضا فتانة (كجبانة) ثم استعملت الفتنة في كل اختبار شاق ، وأشدّه الفتنة في الدين وعن الدين ، ومنه قوله تعالى ﴿ ٢٩ : أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ؟ ﴾ وغير ذلك من الآيات .

وما تقرّر في هذه الآيات على هذا الوجه مطابق لقوله تعالى في سورة الحج (٢٢: ٣٩) أَذِنَ لِلَّذِينَ يَقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ٤٠ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ (الآيات) . وهي اول ما نزل من القرآن في شرع القتال معللاً بسببه مقيداً بشروطه المعادلة (١) وفسر بعضهم الفتنة هنا وفي الآية الآتية بالشرك وجرى عليه الجلال ، ورده الاستاذ الامام بأنه يخرج الآيات عن سياقها ، وذكره البضاوي هنا بصيغة التضعيف [قيل] ورد قولهم أيضاً أن هذه الآية ناسخة لما قبلها ، وذلك انه كبر على هؤلاء أن يكون الاذن بالقتال مشروطاً باعتداء المشركين ، ولاجل أمن المؤمنين في الدين وأرادوا أن يجعلوه مطلوباً لذاته . وقال ان هذه الآيات نزلت مرة واحدة في نسق واحد وقصة واحدة فلا معنى لكون بعضها ناسخاً للآخر ، وأما ما يؤخذ من العمومات فيها بحكم أن القرآن شرع ثابت عام فذلك مبيّء آخر (٢) ثم استثنى من الامر بقتل هؤلاء المحاربين في كل مكان أدركوا فيه المسجد

الحرام بقتل ﴿ ولا تقتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه ﴾ أي ان من دخل منهم المسجد الحرام يكون آمناً إلا أن يقاتل هو فيه وينتهك حرمة فلا أمان له حينئذ . ولما كان القتل في المسجد الحرام امراً عظيماً يخرج منه أكد الاذن فيه بشرطه ولم يكتف بما فهم من الغاية فقال ﴿ فان قاتلوكم فاقتلوهم ﴾ ولا تستسلموا لهم ، فالباقي هو الظالم والمدافع غير آثم ﴿ كذلك جزاء الكافرين ﴾

(١) راجع بيان هذه الشروط المأخوذة من هذه الآيات في القاعدة الثانية من قواعد الحرب الاسلامية من المقصد الثامن من مقاصد القرآن في بحث الوحي من تفسير سورة يونس (ج ١١ تفسير) وفي القاعدة العاشرة من الباب السابع من خلاصة سورة الانفال (ص ١٤١ ج ١٠ تفسير)

(٢) راجع تفصيل هذا البحث في تفسير (٨ : ٣٩) وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة . ويكون الدين كله لله (في تفسير سورة الانفال (ص ٥٥٦ ج ٩ تفسير)

أي أن من سنة الله تعالى أن يجازي الكافرين مثل هذا الجزاء فيعذبهم في مقابلة تعرضهم للعذاب بتعدي حدوده فيكونوا هم الظالمين لأنفسهم . وقرأ حمزة والكسائي : ولا تقتلوهم .. حتى يقتلوكم .. فإن قتلوكم فاقتلوهم . من قتل الثلاثي ويخرج على أن قتل بعض الامة كقتل جميعها لتكفلها . والمراد حتى لا يقتلوا أحداً منكم فإن قتلوا أحداً فاقتلوهم وهو اسلوب عربي بليغ . ثم قال

﴿فان انتهوا﴾ عن القتال فكفوا عنهم ، أو عن الكفر فان الله يقبل منهم ، ﴿فان الله غفور رحيم﴾ يحو عن العبد ما سلف ، إذا هو تاب عما اقترف ، ويرحمه فيما بقي ، إذا هو أحسن واتقى ، (إن رحمة الله قريب من المحسنين)

﴿وقتلوهم حتى لا تكون فتنة﴾ عطف على (قاتلوا) في الآية الاولى فذلك بينت بداية القتال وهذه بينت غايته وهي الا يوجد شيء من الفتنة في الدين ، ولهذا قال الاستاذ الامام : أي حتى لا تكون لهم قوة يفتنونكم بها ويؤذونكم لأجل الدين ويعنونكم من اظهاره أو الدعوة اليه ﴿ويكون الدين لله﴾ وفي آية سورة الانفال (٩ : ٢٩) ويكون الدين كله لله (أي يكون دين كل شخص خالصاً لله لا أثر لحشية غيره فيه ، فلا يفتن اصدده عنه ولا يؤذي فيه ، ولا يحتاج فيه إلى الدهان والمدارة ، أو الاستخفاء أو الحباية ، وقد كانت مكة إلى هذا العهد قرار الشرك ، والسكينة مستودع الاصنام ، فالمشرك فيها حر في ضلائه ، والمؤمن مغلوب على هدايته ، قل ﴿فان انتهوا﴾ أي في هذه

المرّة عما كانوا عليه ﴿فلا عدوان إلا على الظالمين﴾ أي فلا عدوان عليهم لأن العدوان انما يكون على الظالمين تأديباً لهم ليرجعوا عن ظلمهم ، ففي الكلام ايجاز بالحذف ، واستغناء عن المحذوف بالتعليل الدال عليه . ويجوز أن يكون المعنى فان انتهوا عما كانوا عليه من القتال والفتنة فلا عدوان بعد ذلك إلا على من كان منهم ظالماً بارتكابه ما يوجب القصاص . أي فلا يجازبون عامة وإنما يؤخذ المجرم بجريمته ، ثم زاد تعليل الاذن بالقتال بياناً بينائنا على قاعدة عادة معقولة فقال تعالى

(١٩٤) الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَتُ قِصَاصٌ فَمَنِ
اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ
وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (١٩٥) وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا
تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ

لما خرج المؤمنون مع النبي ﷺ للنسك عام الحديبية صدهم المشركون
وقاتلوهم رميا بالسهم والحجارة ، وكان ذلك في ذي القعدة من الأشهر الحرم
سنة ست ، ولو قابلهم المسلمون عامئذ بالمثل ولم يرض النبي بالصلح لاحتدام القتال ،
ولما خرجوا في العام الآخر لعمره القضاء ، وكرهوا قتل المشركين وان اعتدوا
ونكثوا العهد في الشهر الحرام ، بين لهم أن المحذور في الأشهر الحرم إنما هو
الاعتداء بالقتال دون المدافعة ، وأن ما عليه المشركون من الإصرار على الغنمة
وإذناء المؤمنين لأنهم مؤمنون هو أشد قبحاً من القتل لازالة الضرر العام وهو
منعهم الحق وتأييدهم الشرك . ثم بين قاعدة عظيمة معقولة وهي أن الحرمات أي
ما يجب احترامه والحفاظة عليه يجب أن يجري فيه القصاص والمساواة فقال
﴿الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص﴾ ذكر هذه القاعدة حجة
لتوجب مقاصدة المشركين على انتهاك الشهر الحرام بمقابلتهم بالمثل ، ليكون شهر
يشر جزاء وفاقا . وفي جملة : والحرمات قصاص . من الإيجاز ما ترى حسنه
وابداعه . ثم صرح بالإصرار بالاعتداء على المعتدي مع مراعاة المائلة وإن كان يفهم
مما قبله لمكان كراهتهم للقتال في الحرم والشهر الحرام فقال تفريعا على القاعدة
وتأييدا للحكم ﴿فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم﴾ وإنما
يتحقق هذا فيما تنأت في المائلة ، وسمى الجزاء اعتداء للمشاكلة ، وقد استدلل
الامام الشافعي بالآية على وجوب قتل القاتل بمثل ما قتل به بأن يُذبح إذا ذبح ،
ويخنق إذا خنق ، ويفرق إذا أغرق ، وهكذا . وقال مثل ذلك في الغصب

والاتلاف . والقصد أن يكون الجزاء على قدر الاعتداء بلا حيف ولا ظلم ، وأزيد على هذا ما هو أولى بالمقام وهو المائثلة في قتال الأعداء كقتل الخمرمين بلا ضعف ولا تقصير ، فالقتال بالمدافع والقذائف الدارية والغازية السامة يجب أن يقاتل بها ، وإلا فانت الحكمة لشرعية القتال وهي منع الظلم والعدوان ، والفتنة والاضطهاد ، وتقرير الحرية والامان ، والعدل والاحسان . وهذه الشر وطول الأذاب لا توجد إلا في الاسلام ، ولذلك قال تعالى بعد شرح القصاص والمثلة ﴿ واقبوا الله ﴾ فلا تعتدوا على أحد ولا تبتغوا ولا تظلموا في القصاص بأن تزيدوا في الإبداء . وكذا الأمر

بالتقوى بما بين من مزيته وفائدها فقال ﴿ واعلموا أن الله مع المتقين ﴾ بالمعونة والتأييد ، فإن المتقي هو صاحب الحق وبقاؤه هو الإصلاح ، والعاقبة له في كل ما ينازعه به الباطل ، لأن من اصول التقوى اتقاء جميع أسباب الفشل والخذلان . ولما كان الجهاد بالنفس وهو القتال ، يتوقف على الجهاد بالمال ، أمرهم به

فقال ﴿ وأنفقوا في سبيل الله ﴾ وهو عطف على قاتلوا رابطا لحكم القتال والخروج بحكم الاموال السابق ، فهناك ذكر ما يحرم من أكل المال مجملا ، وههنا ذكر ما يجب من انفاقه منه كذلك ، وسبيل الله هو طريق الخير والبر والدفاع عن الحق . ثم ذكر علة هذا الأمر وحكمته على ما هي سنته في ضمن حكم آخر فقال

﴿ ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة ﴾ بالامساك عن الانفاق في الاستعداد للقتال ، فإن ذلك يضعفكم ويمكن الأعداء من نواصيكم فتهلكون . ويدخل في النهي التطوُّح في الحرب بغير علم بالطرق الحربية التي يعرفها العدو كما يدخل فيه كل مخاطرة غير مشروعة ، بأن تكون لا تباع الهوى لا لتصر الحق وتأييد حربه . وقال بعضهم يدخل فيه الأسراف الذي يوقع صاحبه في الفقر المدقع فهو من قبيل « كلوا واشربوا ولا تسرفوا »

ويفسر الجلال سبيل الله « بطاعته : الجهاد وغيره » والتهلكة « بالامساك عن النفقة وترك الجهاد » قل لانه يقوي العدو عليكم . قال الاستاذ الامام : أصاب مفسرنا وأجاد في تفسير هذه الآية ، وقال بعضهم في تفسير النهي عن التهلكة أي

لا تقاتلوا إلا حيث يغلب على ظنكم النصر وعدم الهزيمة. وهذا لا معنى له إذ لا يلتزم مع ما سبقه ، وقال بعضهم انه نهي عن الاسراف ولا يلتزم مع الاسلوب قبله وبعده ، وإنما الذي يلتزم ويناسب هو ما قاله الجلال وآخرون ، فالمعنى إذا لم تتبدلوا في سبيل الله وتأييد دينه كل ما تستطيعون من مال واستعداد فقد أهلكتم أنفسكم : وفي أسباب النزول عن أبي أيوب الانصاري قال نزلت هذه الآية حينما معشر الانصار ، لما أعز الله الاسلام وكثر ناصروه قال بعضنا لبعض مرا إن أموالنا قد ضاعت ، وإن الله قد عز الاسلام فلو أقمنا في أموالنا فأصلحنا ما ضاع منها ، فأنزل الله يرد علينا ما قلنا « وأنفقوا » الآية فكانت التهلكة الاقامة على الاموال واصلاحها وتركنا الغزو : رواه أبو داود والترمذي وصححه وابن حبان والحاكم وغيرهم . وروي أنه قاله لما خاطر رجل من المسلمين في القسطنطينية فدخل في صف الروم فقال الناس ألقى بيديه إلى التهلكة ، فقال أبو أيوب أيها الناس انكم تقولون هذه الآية وذكروه .

أقول وبيانه أن المشركين كانوا بالمرصاد للمؤمنين وهم كثير ونفوسهم فلو انصرفوا عن الاستعداد للجهاد إلى تدمير الاموال لاغتالوهم . واصلاح الاموال واستثمارها في هذا الزمان هو أساس القوة ، فقوى الدول على قدر ثروتها ، فالامة التي تقصر في توفير الثروة هي التي تلتقي بأيديها إلى التهلكة ، والتي تقصر في الانفاق في سبيل الله الاستعداد لقتال من يعتدي عليها تكون أدنى إلى التهلكة ولا ثروة مع الظلم ، ولا عدل مع الحكم المطلق الاستبدادي .

ثم قال تعالى ﴿ وأحسنوا ﴾ ان الله يحب المحسنين ﴿ الامر بالاحسان على عمومه أي أحسنوا كل أعمالكم وأتقنوها فلا تهملوا اتقان شيء منها ، ويدخل فيه التخويع بالانفاق

وقد زعم بعض المفسرين ان هذه الآية منسوخة بآية سورة براءة (التوبة) التي يسمونها آية السيف . وهاك ما قاله الاستاذ الامام : محصل تفسير الآيات ينطبق على ما ورد من سبب نزولها وهو اباحة القتال للمسلمين في الاحرام بالبلد

الحرام والشهر الحرام إذا بدأهم المشركون بذلك ، وأن لا يبقوا عليهم إذا انكشوا عنهم واعتدوا في هذه المرة ، وحكمها باق مستمر لا ناسخ ولا منسوخ ، فالكلام فيها متصل ببعضه ببعض في واقعة واحدة فلا حاجة إلى تمزيقه ، ولا إلى ادخال آية براءة فيه ، وقد نقل عن ابن عباس أنه لا نسخ فيها ، ومن حمل الأمر بالقتال فيها على عمومته ولو مع انتفاء الشرط فقد أخرجها عن أسلوبها وحملها ما لا يحتمل . وآيات سورة آل عمران نزلت في غزوة أحد وكان المشركون هم المعتدين . وآيات الانفال نزلت في غزوة بدر الكبرى وكان المشركون هم المعتدين أيضاً . وكذلك آيات سورة براءة نزلت في ناكثي العهد من المشركين ولذلك قل (٧، ٩) فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم وقال بعد ذكر نكثهم (٩ : ١٣) ألا تتقاتلون قوما نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول وهم بدوكم أول مرة (الآيات ١) كان الأمر كون يبدؤون المسممين بالقتال لاجل إرجاعهم عن دينهم ولو لم يبدؤوا في كل واقعة لكان اعتداءهم بإخراج الرسول من بلده وفتنة المؤمنين وإبدؤهم ومنع الدعوة — كل ذلك كافياً في اعتبارهم معتدين . فقتال النبي ﷺ كله كان مدافعة عن الحق وأمله وحماية لدعوة الحق ولذلك كان تقديم الدعوة شرطاً لجواز القتال . وإنما تكون الدعوة بالحجة والبرهان لا بالسيف والسنان ، فإذا مُنعنا من الدعوة بقوة بأن هدد الدعي أو قتل فعليتنا أن نقاتل لحماية الدعوة ونشر الدعوة لا لإكراه على الدين فالله تعالى يقول (٢ : ٢٥٦) لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي) ويقول (١٠ : ٩٩) أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين) وإذا لم يوجد من يمنع الدعوة ويؤذي الدعوة أو يقتلهم أو يهدد الأمن ويعتدي على المؤمنين فالله تعالى لا يفرض علينا القتال لاجل سفك الدماء وإزهاق لأرواح ولا لاجل الطمع في الكسب

ولقد كانت حروب الصحابة في الصدر الأول لاجل حماية الدعوة ، ومنع المسلمين من تغلب الظالمين لا لاجل العدوان . فالروم كانوا يعتدون على حدود

البلاد العربية التي دخلت حوزة الاسلام ويؤذونهم وأولياؤهم من العرب المنتصرة، من يظفرون به من المسلمين . وكان الفرس اشد ايداء لأممؤمنين منهم فقد مزقوا كتاب النبي ﷺ ورفضوا دعوته وهددوا رسوله وكذلك كانوا يفعلون . وما كان بعد ذلك من فتوحات الاسلامية اقتضته طبيعة الملك ولم يكن كله موافقاً لاحكام الدين ، فان من طبيعة الكون أن يسط القوي يده على جاره الضعيف، ولم تعرف أمة قوية أرحم في فتوحاتها بالضعفاء من الامة العربية شهد لها علماء الافرنج بذلك (١) وجملة القول في القتال انه شرع للدفع عن الحق وأهله وحماية الدعوة ونشرها، فعلى من يدعي من الملوك والامراء انه يحارب للدين أن يحبي الدعوة الاسلامية ، ويعمل لها عدتها من العلم والحجة بحسب حال العصر وعلومه، ويقرن ذلك بالاستعداد التام لحمايتها من العدوان ، ومن عرف حال الدعاة إلى الدين عند الامم خمية وطرق الاستعداد لحمايتهم يعرف ما يجب في ذلك وما ينبغي له في هذا العصر (٢)

وبما قررناه بطل ما يهذي به أعداء الاسلام - حتى من الممتنن اليه - من زعمهم أن الاسلام قام بالسيف ، وقول الجاهلين المتعصبين انه ليس ديناً إلهياً لان الاله الرحيم لا يأمر بسفك الدماء ، وأن العقائد الاسلامية خطر على المدنية - فكل ذلك باطل ، والاسلام هو الرحمة العامة للعالمين (٣)

(١٩٦) وَأَتَمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ، وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ، فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ بِهِ أَذًى مِّنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ

(١) من ذلك قول الفيلسوف المؤرخ غوستاف لو بون الفرنسي صاحب المصنفات :
ما عرف التاريخ فاتحاً أعدل ولا أرحم من العرب

(٢) قد كتبنا في المجلد الثالث من النار مقالاً عن (الدعوة حياة الأديان) ومقالاً آخر في الدعوة وطريقها وآدابها فليراجعها من شاء في (ص ٤٥٧ و ٤٨١) منه ثم فصلنا ذلك في تفسير (ولكن منكم أمة يدعون إلى الخير) الخ من سورة آل عمران

(٣) راجع بيان ذلك في ص ٣٠٦ ج ١٠ تفسير

فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَنَّحَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ، فَمَنْ
لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ
كَامِلَةٌ، ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلَهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا
اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ

اتصال هذه الآيات بما قبلها جلي جداً لاسيما لمن قرأ ما تقدم من التفسير،
فان آيات القتال السابقة نزلت في بيان أحكام الأشهر الحرم والاحرام والمسجد
الحرام، فكان الغرض الاول من السياق بيان أحكام الحج بعد بيان أحكام الصيام
لان شهوره بعد شهره الذي هو رمضان . ولما أراد النبي ﷺ العمرة وصده
المشركون اول مرة بالحديبية وأراد القضاء في العام القابل وخاف أصحابه غدر المشركين
بهم واضطرارهم إلى قتالهم إذا هم نقضوا العهد وبدأوا بالقتال أنزل الله تعالى أحكام
القتال بعد ذكر الحج في الجواب عن حكمة اختلاف الأهل ثم عاد إلى إتمام أحكام الحج فقال

﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ فالعطف والتعبير بالإتمام ظاهران في أن السياق
في الكلام عن الحج، ولذلك لم يقل هنا كتب عليكم الحج كما قول في الصيام . وقد
كان الحج معروفاً في الجاهلية لانه فرض على عهد إبراهيم واسماعيل فأقره الاسلام
في الجملة، ولكنه أزال ما أحدثوا فيه من الشرك والبتكرات، وزاد ما زاد فيه من
المناسك والعبادات، فالآية ليست في فرضيته وفرضية العمرة بل هي في واقعة تتعلق
بهم وبقاصدهم وقد كانوا توجهوا إلى ذلك قبل نزولها بعام كما تقدم، فدل ذلك
على أن المشروعية سابقة لنزول هذه الآيات

والمراد بإتمام الحج والعمرة الاتيان بهما تأمينا ظاهراً بأداء المناسك على وجهها .
وباطناً بالاخلاص لله تعالى وحده دون قصد الكسب والتجارة أو الرياء والسمعة .
فيهما، ولا ينافي الاخلاص البيع والشراء في أثناء الحج إذا لم تكن التجارة هي المقصودة .
في الاصل . وسيأتي التفصيل في حكم التجارة في الحج في تفسير (ليس عليكم
جناح أن تبغوا فضلاً من ربكم)

وأما الرياء وحب السمعة فإذا كان هو الباعث على الحج فالحج ذنب للمرأى
للاطاعة ، وإذا عرض الرياء في أثناؤه فمقبول أنه لا يقبل منه شيء لما ورد من أن الله
تعالى لا يقبل إلا ما كان خالصاً لوجهه ، والاحاديث في ذلك كثيرة ، وإذا كان
هذا قد بدأ بالنسك لوجه الله فإنه لم يتمه لله كما أمر ، وقيل بل يؤخذ بقدر قصده
الطاعة والاخلاص وقد قصده الرياء ، وكل شيء عنده تعالى بمقدار (٧: ٩٩) فمن
يعمل مثقال ذرة خيراً يره ٨ ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) وتجد القول في هذه
المسألة مفصلاً في كتاب الرياء من الجزء الثالث من (الاحياء) فراجعه

وقد نبه الأستاذ الامام في الدرس لحال عامة الحاج في هذا الزمان فقال
إن أكثرهم لا يخطر في بالهم مناسك الحج وأركانه وواجباته ولا يقصدونها للجهل
بها ، وإنما يقصدون زيارة (أبو إبراهيم) يعني النبي ﷺ ، ومنهم من لا يعرف
للحج معنى سوى هذه الزيارة ، وهؤلاء هم طائفة المغرمون بالحج . ومن الناس
من يحج ليقال له الحاج فلان أو ليحتفل بقدمه ، وهذا من أخس ضروب الرياء ،
وكثير منهم يقترض بالربا ويحج فيريد أن يعبد الله بأنكر المنكرات

وقد استدلل بالآية القائلون بوجوب العمرة كالحج وهو المروي عن علي وابن
عمر وابن عباس وجماعة من كبار التابعين وعليه الشافعي وأحمد . وقيل إنها سنة
ويروى عن ابن مسعود وجابر بن عبد الله وعليه مالك والحنفية وعن أبي حنيفة قول
بالوجوب . وقد تقدم أن الآية ليست في وجوب الحج والعمرة فلا تصاح حجة
على القائلين بالسنية ، لأن الأمر بتمام الحج والعمرة خطاب لمن شرع فيها ،
وهو يصدق وإن كانت العمرة سنة

ويدل على فرضية الحج قوله تعالى (٣ : ٩٧) والله على الناس حج البيت من
استطاع إليه سبيلاً) والاحاديث الصحيحة الصريحة . وأما الاحاديث في العمرة
فمعارضة . والصواب أن الاحاديث الناطقة بأن العمرة غير واجبة وبأنها تطوع
ضعيفة ، وأقواها حديث الاعرابي الذي سأل النبي ﷺ : أخبرني عن العمرة
أو اجبة هي ؟ فقال « لا وأنت تعتمر خير لك » وهو عند أحمد وابن أبي شيبة
وعبد بن حميد وصححه الترمذي وفي إسناده الحاج بن أرطاة وقد ضعفه الاكثرون

ويبلغ ابن حزم فقال ان هذا الحديث مكذوب وباطل . والصواب ما قاله النووي من اتفاق الحفاظ على تضعيفه

وأقوى أحاديث القائلين بوجوب العمرة حديث أبي رزين العقيلي قال يا رسول الله ان أبي شيخ كبير لا يستطيع الحج ولا العمرة ولا الظعن فقال « حج عن أبيك واعتمر » رواه أحمد وأصحاب السنن وصححه الترمذي بلانكير بل قال الامام احمد لا أعلم في إيجاب العمرة حديثاً أوجب من هذا ولا أصبح منه . فهو حجة عند القائلين بأن الامر للوجوب ما لم يصرفه صارف ، وقد يقال ان هذا السائل لم يقصد السؤال عن مشروعية أصل الحج والعمرة فانه كان يعلم حكمها وإنما سأل هل يصح أن يأتي بها عن أبيه الذي يقعه عنها العجز . ولا ينافي هذا كون العمرة سنة متبعة لا فرضاً لازماً ، ويؤيد هذا عدم ذكرها في الآية الناطقة بالوجوب ولا في حديث أركان الاسلام فهي تطوع النسك وإن لم يصح الحديث الذي فيه لفظ التطوع . وقال بعضهم ان العمرة سنة متى شرع فيها كان إتمامها واجباً . وما تقدم في معنى الإتمام هو المتبادر والجامع بين الأقوال المختلفة وما رواه ابن أبي حاتم عن صفوان ابن أمية في سبب نزولها إن صح لا ينافيه ، وهو أن رجلاً جاء النبي ﷺ متضمخاً بالزعفران عليه جبة فقال كيف تأمرني يا رسول الله في عمري ؟ فأنزل الله الآية فقال « أين السائل عن العمرة ؟ » قال ها أنا ذا فقال له « ألق عنك ثيابك ثم اغتسل واستنشق ما استطعت ثم ما كنت صانعاً في حجك فاصنعه في عمرتك »

وأركان الحج خمسة (١) الاحرام من الميقات وهو في الاصل الوقت المضروب للشئ والمراد به هنا المكان الذي عينه الشارع لاحرام أهل كل قطر ، وسيأتي تفسير الاحرام (٢) الوقوف بعرفة (٣ و ٤) الطواف بالكعبة والسعي بين الصفا والمروة (٥) الحلق أو التقصير للشعر فمن أدى هذه الاعمال فقد أدى الفريضة التي هي ركن من أركان الاسلام . وله أعمال أخرى واجبة من قصر في شيء منها كان عليه فدية — وأركان العمرة هي ما عدا الوقوف من أركان الحج . وفرضية الحج مجمع عليها معلومة من الدين بالضرورة من أنكروها كان مرتدّاً — والراجح

انه فرض سنة تسع من الهجرة وعليه الجمهور وهذه الآية نزلت سنة ست ولكن ليس فيها ان الحج فرض على كل مستطيع من المؤمنين رجالا ونساء

هذا ما كتبه عقب حضور درس التفسير على شيخنا وطبع في المنار سنة ١٣٢٢

ثم على حدة سنة ١٣٢٥ وأقول الان ان الحج مما أقره الاسلام من ملة إبراهيم عليه السلام كما تقدم آنفاً ، وآية آل عمران في التصريح بفرضيته نزلت قبل هذه الايات فيما يظهر لان سورة آل عمران نزلت عقب غزوة أحد سنة أربع ، ولكن المسلمين لم يكن يمكنهم الحج قبل فتح مكة فالطائف وكان فتحها في سنة ثان وفي سنة تسع خرجوا للحج أول مرة بامارة أبي بكر (رض) وكانت تمهيداً لحجة النبي (ص) سنة عشر إذ أذن أبو بكر بالمشركين الذين حجوا فيها بأن لا يطوف بالبيت بعد هذا العام مشرك . ونزلت آية (انما المشركون نجس فلا يقربوا المسجدة الحرام بعد عامهم هذا) ولهذا قال الجمهور ان الحج فرض سنة تسع والصواب انه فرض قبلها ونفذ فيها

أمر بالانكسار ثم ذكر حكم ما عساه يحول دونه فقال فان أحصرتم فما استيسر من الهدى * الحصر والاحصار في اللغة الحبس والتضييق ، يقال حصره عن السفر وأحصره عنه إذا حبسه ومنعه ، وقال بعض أئمة اللغة إن الاحصار هو المنع بسبب الناس والحصر بسبب المرض وقال بعضهم بالعكس ، وقوله تعالى الا بني بعد «فاذا أمنتم» يرجح أن المراد بالاحصار منع العدو أي أن منعتهم من تمام التمسك فعليكم ما تيسر لكم وسهل حصوله وثمنه من الهدى وهو ما يهديه لحاج والمعتمر إلى البيت الحرام من النعم ليندح ويفرق على فقرائه ، وذهب الجمهور إلى أن المراد بما استيسر الشاة وهي أدناه وقال ابن عمر وعائشة وابن الزبير : جعل أوبةرة والمتبادر من الآية أن على كل أحد ما استيسر له من بدنة أو بقرة أو شاة قال ابن عباس وما عظم فهو أفضل . والجمهور على أن يذبحه حيث أحصر ولو في الحل ويتحلل لانه عليه الصلاة والسلام ذبح عام الحديبية بها وهي من الحل على الأرجح . وقالت الحنفية يبعث به إلى الحرم ويجعل للمبعوث بيده يوم أماراة فاذا خاء اليوم وغلب على ظنه أنه ذبح لتحلل

ثم قال ﷺ ولا تحمقوا رءوسكم حتى يبلغ الهدى محله ﴿ الدخول في الحج أو العمرة يكون بالأحرام وهو نية الفسك عند الإبتداء به بالتلبية ولبس غير الخيط من إزاء ورداء مع كشف الرأس للرجل ولبس الثعلين العربيين ، والخروج منها - ويعبر عنه بالاحلال والتحلل - يكون بحلق الرأس أو تقصير شعره ، فالنهي عن الحلق هنا عبارة عن التهي عن الاحلال قبل بلوغ الهدى إلى المكان الذي يحل ذبحه فيه وهو في حال الإحصار حيث يحصر الحاج وإلا فالكعبة لقوله تعالى (٩٥:٥ هديا بالغ الكعبة) وقوله (٣٣:٢٢ ثم حملها إلى البيت العتيق) واستدل الحنفية بهذا على عدم جواز نحر الهدى في محل الإحصار ، وحجة الجمهور فعمل النبي ﷺ في الحديبية وأن الأصل في الهدى أن يبلغ الكعبة لانه مهدي إليها ، وحال الإحصار حال ضرورة ولا سيما إحصار السنة التي أنزلت فيها الآية ، فقد كانت الكعبة في أيدي المشركين ، فلا يعقل أن يأمر الله تعالى بإرسال الهدى إليها فيكون غنيمة لهم ، على أن إبلاغه محله في حال الإحصار يكون متعذراً أو متعسراً فكيف بتوقف الاحلال عليه ؟ ثم إن اكتفاءهم بذبحه في أدنى مكان من أرض الحرم لا ينطبق على الايتين الناطقتين ببلوغه الكعبة والبيت العتيق ، وقولهم انه عليه السلام ذبح عام الحديبية في أول الحرم غير مسلم فجمهور أهل النقل على خلافه . ثم انهم احتاجوا في تصحيح قولهم الى تقدير العلم أي حتى تعلموا أن الهدى بلغ محله ولا حاجة الى تقدير على رأي الجمهور

واستدل الجمهور بالاقتران على الهدى في مقام البيان على أن القضاء غير واجب على المحصر ، وقالت الحنفية يجب قضاء العمرة لان النبي قضاها بأصحابه وسميت عمرة القضاء ، وقال الشافعي سميت عمرة القضاء والقضية للقضاة التي وقعت بين النبي ﷺ وبين قريش لا على أنه أوجب عليهم قضاء تلك العمرة . والهدى جمع هدية كجدي وجدي والحل بكسر الحاء اسم مكان من حل يحل حلا أي صار حلالا ، ضد حرم يحرم إذا صار حراما

ثم ذكر حكم من يؤذيه عدم الحلق فقال ﴿ فمن كان منكم مريضا ﴾ مرضا

ينفعه فيه الحلق ويضره عدمه ﴿أو به أذى من رأسه﴾ كقمل أو جرح
﴿فندية من صيام أو صدقة أو نسك﴾ أي فعلية أن حلق فندية من هذه الاجناس
الثلاثة على التخيير . أخرج البخاري من حديث كعب بن عجرة قال وقف علي
رسول الله ﷺ بالحديبية ورأسي يتهافت قملا فقال « يؤذيك هو أمك ؟ »
قلت نعم قال « فاحلق رأسك » قال فنزلت هذه الآية وذكركها فقال النبي ﷺ
« صم ثلاثة أيام أو تصدق بفرق بين ستة أو انسك بما تيسر » قال البخاري وعنه
رضي الله عنه أنه قال: نزلت في خاصة وهي لكم عامة . والفرق بالتحريك قيل
وبالفتح مكيال بالمدينة يسع ستة عشر رطلا والمراذهنا ما يكال فيه من تمر وغيره
من الاقوات . وقوله بين ستة أي من المساكين ، والنسك هنا قال ابن عبد البر لا
خلاف بين العلماء في أنه شاة .

ثم قال تعالى ﴿ فإذا أمنتم ﴾ الاحصار وذهب خوف العدو قال بعض الفقهاء
ومثله المرض أو كنتم في حال أمن وسعة ﴿ فن تمتع بالعمرة الى الحج فما استيسر
من الهدي ﴾ أي فمن تمتع بمحظورات الاحرام بسبب العمرة أي أدامها بأن آتمها
وتحمل ربق متمتا الى زمن الحج ليحج من مكة فعليه ما استيسر له من الهدي أي
فعليه دم جبر أقله شاة لأنه أحرم بالحج من خير الميقات يذبحه يوم النحر أو قبله
جوازا عند بعضهم ، أو المعنى فمن قام بأعمال العمرة قبل الحج متمتعا اليه فعليه ذلك
﴿ فمن لم يجد ﴾ الهدي لعدمه أو عدم المال ﴿ فصيام ثلاثة أيام في الحج ﴾ أي
فعليه صيامها في أيام الاحرام بالحج وتمتد الى يوم النحر ، وقال أبو خنيفة في أشهره
بين الاحرامين وهذا أوسع ﴿ وسبعة اذا رجعتم ﴾ من الحج الى بلادكم ، وبصدق
بالشروع في الرجوع وعليه الأئمة الثلاثة وغيرهم من السلف قالوا يحزونه الصوم في
الطريق ولا يتضيق عليه الا اذا وصل الى وطنه ، وقال مالك إذا رجع من متى فلا
بأس أن يصوم ، وقال أبو خنيفة معناه : اذا فرغتم من أعمال الحج ، فيجوز الصوم
عنده قبل الشروع بالرجوع الى الوطن وأخرج البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي

من حديث ابن عمر في حجة الوداع أنه صلى الله عليه وآله وسلم قال « فمن لم يجد هديا فليصم ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجع إلى أهله » ولهذا الحديث قال بعض العلماء أنه لا يجوز صيامها قبل الوصول إلى أهله ، لأنه تقديم للعبادة البدنية على وقتها ، ويجب عنه بأن لفظ الرجوع يصدق بالشروع فيه ، ولا يخفى أن الاحتياط أن يصومها بعد الوصول إلى أهله لأنه المتبادر من العبارة ، ولأن الصيام في السفر خلاف الأصل في هذه القرية

وقوله تعالى ﴿تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ إشارة إلى الثلاثة والسبعة مبين للجملة العدد الواجب كما بين تفصيله ومزيل لومهم من عساه يتوهم أن الواو العاطفة للسبعة للتخيير كما عليه بعض العرب في مثل : جالس الحسن وابن سيرين . وروي أن بعض العرب كانوا يستعملون عدد السبعة للكثرة في الآحاد كما يستعملون عدد السبعين لغاية الكثرة فالفضل لكه نزيل وهم هؤلاء أيضا ولذلك أكدها بقوله كاملة . قال الامتاز الامام ان الله تعالى اذا اراد أن يقرر حكما وكان في التعبير للمألوف عنه ما يوم خلاف المقصود ولو لبعض الخطابين يأتي بما يؤكد الحكم وينفي أدنى وهم يعرض فيه ولذلك وصف كتابه بالمبين والنبين . واذا كان هذا شأنه فيستحيل أن يطلق في مقام بيان الاحكام القول في نفي شيء بصيغة الاثبات كما قدر بعضهم النفي في قوله (وعلى الذين يطيقونه فدية)

ثم بين تعالى أن التمتع بالعمرة مضمومة إلى الحج أو إلى وقت الإحرام بالحج وما يتبعه من الاحكام خاص بالآفاقين دون أهل الحرم فقال ﴿ذلك لمن لم يكن

أهله حاضري المسجد الحرام﴾ وذلك ان أهل الآفاق هم الذين يحتاجون إلى هذا التمتع لما يلحقهم من المشقة بالسفر إلى الحج وحده ثم السفر إلى العمرة وحدها . هذا ما اختاره لامتاز الامام وعليه الحنفية فلا متعة ولا قران عندهم لحاضري المسجد الحرام وقول غيرهم كاشافعية ان الإشارة إلى أقرب مذكور وهو الجزاء على التمتع من الهدى أو بدله لان الآفاقي اذا تمتع يحرم بالحج من مكة لأمن المقات . فيكون حجه ناقصا يجبر بالهدى أو بدله اذا لم يجدد؛ ولعل وجه الاختيار التعبد

باللام المفيدة ان التمتع رخصة دون « على » المفيدة للجزاء. وحضور الالاهل المسجد الحرام كناية عن لاقامة في أرض الحرم، وقال الجلال: «والالاهل كناية عن النفس. وما قلناه في الكناية أظهر والعبارة تشمل من لا اهل له على كل حال، والمتبادران اهل المسجد الحرام هم اهل مكة ومن لم يكن اهله حاضري المسجد الحرام غيرهم. وعليه مالك، وقال طاووس هم اهل النحل، وابو حنيفة هم من وراء الثقات، والشافعي غم من كان على مرحلتين من مكة اي مسافة القصر عنده.

ثم ختم الآية بالامر بتقوى الله المقصودة من كل امر ونهي والاعلام بشدة عقوبته لمن لم يتق الله فقال ﴿واتقوا الله﴾ بالمحافظة على امتثال هذه الاوامر والنواهي

وغيرها من ضروب الهداية التي فيها سعادتكم ﴿واعلموا ان الله شديد العقاب﴾ بما جعل عاقبة التفريط والاضاعة شديدة على المفرطين في الدنيا والاخرة ، فاذا علمتم ذلك علما صحيحا رجي لكم الاستمسك بحبل التقوى وكنتم من المفلحين. وأما من لم يكن على صحة علم يسر وعيد الله تعالى بأن ظن أنه تعالى يخلفه وان لم يقب ويتق صاحبه فهو من الخاسرين

ذكر الله تعالى في هذه الآية حكم التمتع بالعمرة إلى الحج وقد علم أن الحربي فيه ليس كالأفاقي ، ويفهم منه أن هناك حجا واعتمارا على غير هذه الطريقة، وقد ذكرنا أن الحج مع العمرة على ثلاثة ضروب نذكرها هنا لأفادة من لم يقرأ الفقه أو لمن لا يعرف فيها إلا ما قاله بعض الفقهاء . وهي التمتع والافرد والقران ، وقد اختلفوا في أفضلها لتعارض الاحاديث في حجة الوداع أي الضروب كانت. فالتمتع أن يحرم بالعمرة في أشهر الحج فيتمها ويتحلل ثم يحرم بالحج من مكة أو من قريب منها ، وقال بعضهم لا يشترط التحلل فتدخل في القران وقد أشرنا إلى الوجهين في تفسير الآية . والافراد أن يحرم بالحج وحده ثم يعتمر بعد أدائه. والقران أن يحرم بهما جميعا أو يحرم بالعمرة ثم يدخل عليها الحج أو العكس كما تقدم وقد اختلفت الاحاديث الصحيحة في حجه صلى الله عليه وآله وسلم فمن بعض الصحابة أنه كان متمتعاً وعن بعضهم أنه كان افردا وعن بعضهم أنه كان

قرانا ، وقد جمع المحدثون بين الروايات بوجوده أقواها وأجمعها أنه أهل بالحج مفردا ثم أدخل عليه العمرة فصار قرانا فيحمل قول القائلين بالافراد على ما أهل به ، وقول القائلين بالقران على ما انتهى اليه عمله من ادخال العمرة على الحج . وقال شيخ الاسلام ابن تيمية : ان التمتع عند الصحابة يتناول القران . فتحمل عليه رواية من قال انه حج تمتعا فتصح جميع الروايات . وصفوة القول أن حجه ﷺ كان قرانا ولذلك فضل كثير من العلماء القران وقل بعضهم التمتع أفضل واحتجوا له بحديث جابر عند البخاري وأبي داود قال : أهل النبي ﷺ هو وأصحابه بالحج وليس مع أحد منهم هدي غير النبي ﷺ وطلحة ، وقدم علي من اليمن ومعه هدي ، فقال أهللت بما أهل به النبي ﷺ ، فأمر النبي ﷺ أصحابه أن يجمعوها عمرة ويطوفوا ثم يقصروا ويحلقوا الا من كان معه الهدي . وحكى استنكارهم وقول النبي ﷺ رداً عليهم « لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما أهديت ، ولولا أن معي الهدي لأحلت » وقال بعضهم وهو رواية عن أحمد ان الافضل التمتع لمن لم يسبق الهدي لا مطلقا . وقال ابن القيم في اعلام الموقعين أفق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بجواز فسخهم الحج الى العمرة ثم أفتاهم بفعله حتما ولم ينسخه شيء بعده ، وهو الذي ندين الله به أن القول بوجوده أقوى وأصح من القول بالمنع منه ، وقد صح عنه صحة لا شك فيها انه قل « من لم يكن أهدي فليهل بعمرة ومن أهدي فليهل بحج مع عمرة » والمراد بسوق الهدي اخذه إلى الحرم ، ومن الاهلال الاحرام ، وإذا كان سوق الهدي في هذا الزمان شاقا على حجاج الآفاق وكثير النفقة ، إلا على اهل جزيرة العرب المجاورين للحجاز فأكثر الناس يحرمون بالعمرة وحدها وبعد أداء أركانها يتحللون منها بمكة ، ثم يحرمون بالحج قبل عرفة بيوم واحد في الغالب وهو المسمى بيوم التروية الذي يخرجون فيه إلى عرفات

(١٩٧) الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ

قوله تعالى ﴿الحج أشهر معلومات﴾ معناه أن الوقت الذي يؤدي فيه الحج أشهر يعلمها الناس وهي شوال وذو القعدة وذو الحجة أي أنه يؤدي في هذه الأشهر ولا يلزم أن يكون من أول يوم منها إلى آخر يوم بل معناه أنه يصح الاحرام به من غرة أولها وتنتهي أركانها وواجباتها في ثلثة آخرها ، فانوقوف في التاسع من ذي الحجة وبقية المناسك في أيام العيد وهي يوم النحر الذي فسر به قوله تعالى (يوم الحج الأكبر) وأيام التشريق وجوز بعض السلف تأخير طواف الافاضة إلى آخر ذي الحجة . وقد اختلف العلماء في ذلك فقال بعضهم انها الاشهر الثلاثة من أولها إلى آخرها ويروى عن ابن مسعود وابن عمر وعليه مالك ، وقال بعضهم انها شوال وذو القعدة وعشر من ذي الحجة ، ويروى عن ابن عباس وعليه ابو حنيفة والشافعي واحمد ، ولا حجة في الآية لا أحد على تحديده والمتبادر منها ما ذكرناه . وقوله تعالى معلومات اقرار لما كان عليه العرب في الجاهلية من اشهر الحج لأنه منقول بالتواتر العملي من عهد ابراهيم واسماعيل (ص) وهو يتضمن بطلان النسيء فيها لانه جاهلي معروف

وقد استدل بالآية على أنه لا يجوز الاحرام بالحج في غير هذه الاشهر لانه شروع في في العبادة في غير وقتها كمن يصلي قبل دخول الوقت ، ويروى عن بعض علماء التابعين وعليه الشافعي والاوزاعي وأبو ثور من أئمة الفقه ، وقال ابو حنيفة وأحمد انه جائز مع الكراهة ومالك بلا كراهة

وقد بحث بعض العلماء في لفظ الأشهر وكونها جمع قلة وهل ورد في بيانها نص أو إجماع ، وأقول انه بحث لا وجه له فالمراد بقوله تعالى (معلومات) انها هي أشهر الحج المعروفة للعرب قبل الاسلام ، ولا خلاف في انها الثلاثة التي ذكرناها

ولذلك لم يؤثر عن الصحابة فيها إلا ما قيل في الثالث منها هل تكون أيامه كلها أيام حج أم تنتهي أركان الحج في العاشر منه؟ لا يـة ظاهرة في أن الحج لا يكون إلا في هذه الأشهر ، ولعل هذا هو سر جعلها خبراً عنه ، ولما كان أعظم أركانه وهو الوقوف بعرفة يكون في التاسع من الثالث علم أن الحج لا يتكرر فيها فن أحرم بالحج بعد هذا اليوم فلا حج له . قل تعالى

﴿ فمن فرض فيهن الحج ﴾ أي أوجبه وألزمه نفسه بالشروع فيه وقد مر بيان

كيفيته ﴿ فلا رث ولا فسوق ولا جدال في الحج ﴾ تقدم تفسير الرث في آيات الصيام وأنه كناية عن الجماع ، والفسوق الخروج عن حدود الشرع بأي فعل محظور وقيل إن المراد به الذبح الاصنام خاصة ، وخصه بعضهم بالسباب ، والتنازع بالالقاء . والجدال قيل هو بمعنى الجدل بمعنى القتل . وقيل هو المراء بالقول ، وهو يكثر عادة بين الرقة والخدعة في سفر لأن مشقته تضيق الأخلاق . هذا هو المشهور وأقول أنه يجوز حملها على جميع معانيها الحقيقية وغيرها على قول الشافعي وابن جرير المختار عندنا ويكون النفي المراد به النهي في بعضها للتحريم كالرث . بمعنى الجماع لا يفسد النسك ، وفي بعضها الآخر للكرهية الشديدة كالرث بمعنى الكلام الصريح في أمور الواقع كما تقدم بيانه في تفسير آيات الصيام الخ

وقال الأستاذ الامام : أن تفسير الكلمات الثلاث ينبغي أن يكون متناسلاً . وبحسب حال القوم في زمن التشريع ، فَمَا الرث فهو كما قيل الجماع ، وأما الفسوق فهو الخروج عما يجب على المحرم إلى الأشياء التي كانت مباحة في الحل كالصيد والطيب والزينة باللباس المحيط ، والجدال هو ما كان يجري بين القبائل من التنازع والتفاخر في الموسم ، فبهذا يكون التناسب بين الكلمات وإحتمل كلها على مدلولها اللغوي فجعل الرث قول الفحش ، والفسوق التنازع بالالقاء على حد (ولا تنازعوا بالالقاء بنس الاسم الفسوق) والجدال المراء والخصام ،

تحتكون هذه المناهي كلها آداباً لسانية
والنكته في منع هذه الأشياء [على أنها آداب لسانية] تعظيم شأن الحرم وتعليل

أمر الائمه فيه ، إذ الاعمال تختلف باختلاف الزمان والمكان ، فلملاً آداب غير آداب الخلوة مع الاهل ، ويقال في مجلس الاخوان ، ما لا يقال في مجلس السلطان ، ويجب أن يكون المرء في أوقات العبادة والحضور مع الله تعالى على أكل الآداب وأفضل الاحوال ، وناهيك بالحضور في البيت الذي نسيه الله سبحانه اليه ، وقد يتنا معنى هذه النسبة في تفسير (وإذ جعلنا البيت مثابة للناس) الآيات

وأما السرفيا [على أنها من محرمات الاحرام] فهو أن يتمثل الحاج أنه بزيارته لبیت الله تعالى مقبل على الله تعالى قاصد له ، فيتجرد عن عاداته وقيمته ، ويتسلخ من مفاخره ومميزاته على غيره ، بحيث يساوي الغني الفقير ، وعائيل الصعلوك الأمير ، فيكون الناس من جميع الطبقات في زي كزي الاموات ، وفي ذلك من تصفية النفس وتهذيبها وإشمارها من حقيقة العبودية لله والاخوة للناس ما لا يقدر قدره ، وإن كان لا يخفي أمره ، وفي حديث أبي هريرة في الصحيحين « من حج ولم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه » وذلك ان الاقبال على الله تعالى بتلك الهيئة والتقلب في تلك المتناسك على الوجه المشروع يمحو من النفوس آثار الذنوب وظلمتها ويدخلها في حياة جديدة ، لها فيها ما كسبت وعليها ما اكتسبت

(واقول) ان من بلاغة الایجاز في الآية التصريح في مقام الاضمار بذكر نطج ثلاث مرات المراد باولها زمان الحج كقولهم البرد شهران ، وبالثاني الحج نفسه المسلمي بالنسك ، وبالثالث ما يعم زمان ادائه ومسكاته وهو أرض الحرم وما يتبعها كعرفات ، كما تم الظرفية في قوله تعالى (ومن يزد فيه بالحاد يظلم نذقه من عذاب آليم) جميع أرض الحرم وإن كان الضمير فيه راجعا الى المسجد الحرام ، فقد كان عبد الله بن عمر يضرب خيامه خارج حدود الحرم فيطوف كل يوم في المسجد ويصلي ثم يجي خيامه فيبيت فيها ، وعلى ذلك بأنه يخاف يهين أحد خدمه فيكون ملحقا في المسجد الحرام ، فجميع أمكنة الحرم من شعائر الله ومشاعره وحرماته التي يجب احترامها ، وأهمه اجتناب الرفث والفسوق والجدال بالباطل فيها . إلا أن الرفث بين الزوجين يحل بالتحلل من النسك لأنه في نفسه ليس قبيحا . ولو قال : فمن فرضه فيهن فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فيه ، لم يؤد هذه المعاني كلها ومن

القوامات فيها قراءة ابن كثير وأبي عمرو ويعقوب رقت وفسوق الرفع وجدال بالفتح والباقون بالفتح . وهو أبغ لأنه نفي لجنس هذه الاشياء يشمل جميع أفرادها بالنص ويتضمن معنى النهي عنها بطريق الاولوية

ثم قل تعالى بعد النهي عن هذه المحظورات ﴿ وما تفعلوا من خير يعلمه الله ﴾ وفيه التفات إلى الخطاب ويشعر العطف بمحذوف تقديره ان اتركوا هذه الامور الممنوعة في الحج لتخليصة نفوسكم وتصفيتها ، وحلها بعد ذلك بفعل الخير لستم تركيتها ، فان النفوس بعد ذلك تكون أشد استعداداً للاتصاف بالخير ، والله لا يضع عليكم أقل شيء منه ، لانه عالم به وبأنكم وافقتم فيه سنته وشريعته

﴿ وتزودوا فان خير الزاد التقوى ﴾ قلوا ان هذا نزل في ردع أهل اليمن عن ترك التزود زعماً انه من مقتضى التوكل على الله فقد أخرج البخاري وأبو داود والنسائي وغيرهم عن ابن عباس انه قال : كان أهل اليمن يحجون ولا يتزودون ، ويقولون نحن متوكلون ، ثم يقدمون فيسألون الناس فنزلت . فالمراد بالتقوى على هذا انقاء السؤال وبذل ماء الوجه

قال الاستاذ الامام وهو غير ظاهر من العبارة ، بل المتبادر منها ان الزاد هو زاد الاعمال الصالحة وما تدخر من الخير والبر كما يرشد اليه التعليل في قوله (فان خير الزاد التقوى) والمعنى من التقوى معروف وهو ما به يتقى سخط الله ، وليس ذلك إلا البر والتزود عن المنكر ، ولا يعمل بان التقوى خير زاد الا وهو يريد التزود منها ، أما المعنى الذي ذكره فلا يصح مراداً من الآية لانه لولا ما أوردوا من السبب لم يخطر ببال سامع اللفظ ، والسبب ليس مذكوراً في الآية ولا مشاراً اليه فيها فلا يصح قرينة على المراد من ألتظها ، نعم ان السبب قد ينير السبيل في فهم الآية ، ولكن يجب أن تكون مفهومة بنفسها لان السبب ليس

من القرآن ولذلك أتمها بقوله ﴿ واتقون يا أولي الانياب ﴾ يعني من كان له لب وعقل فليتقني فانه يكون على نور من فائدة التقوى وأهلاً للانتفاع بها

[قول] ويدخل في فعل الخير والطاعة الأخذ بالأسباب كالنزود، وتحامي وسائل الحاجة إلى السؤال المذموم والله اعلم

(١٩٨) لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَقَضْتُمْ مِنْ عَرَفَتٍ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَيْتَكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّالِّينَ (١٩٩) ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ

قوله عز وجل ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ﴾ متصل بما قبله واقع موقع الاستدراك والاحتراس مما عساه يسبق إلى الفهم من الأمر بالنزود من التقوى وعمل البر والخير وهو خير الزاد، ثم من مخاطبة أولي الألباب بالأمر بالتقوى تعريضاً بأن غير التقي لا لب له ولا عقل، وهو أن أيام الحج لا يباح فيها غير أعمال البر والخير، فيحرم فيها ما كانت عليه العرب في الجاهلية من التجارة والكسب في الموسم، كما يحرم لرفث والفسوق والجدال الذي هو من لوازم التجارة غالباً، والترفة بزيينة اللباس الخيط والحلق والافضاء إلى النساء، فأزال هذا اليوم من الفهم وعلمنا أن الكسب في أيام الحج مع ملاحظة أنه فضل من الله غير محذور لانه لا ينفى الإخلاص له في هذه العبادة، وإنما الذي ينافي الإخلاص هو أن يكون القصد إلى التجارة، بحيث لو لم يجر الكسب لم يسافر لأجل الحج. هذا ما عليه الجماهير. وحمل أبو مسلم ذلك على ما بعد الحج ومنع الكسب في أيامه، ويرد عليه نزول الآية في سياق أحكام الحج، ونفي الجناح الذي لا معنى له في غير الحج وما ورد في أسباب نزولها، أخرج البخاري عن ابن عباس قال كانت عكاظ ومجنة وذو الحجاز أسواقاً في الجاهلية فتأثموا أن يتجروا في الموسم فسألوا رسول الله ﷺ عن ذلك فنزلت، وقرأ ابن عباس الآية بزيادة: في موسم الحج، وأعتد أنه قاله تفسيراً وأخرج أحمد وابن أبي حاتم وابن جرير والحاكم وغيرهم من طرق عن أبي

إمامة التيمي قل قلت لابن عمر : انا نكري — اي الرواحل للحجاج — فهل لنا من حج ؟ فقال ابن عمر جاء رجل إلى النبي ﷺ فسأله عن الذي سألتني عنه فلم يجبه حتى نزل عليه جبريل بهذه الآية — وذكرها فدعاه النبي (ص) فقال « أتم حجاج » وفي رواية ان ابن عمر قال لهم أستم تلبون ؟ أستم تطوفون بين الصفا والمروة ؟ أستم أستم ؟ ثم ذكر ما تقدم

وقال الاستاذ الامام : كان بعض المشركين وبعض المسلمين في أول الاسلام يتأثمون في أيام الحج من كل عمل حتى كانوا يقولون حوائثهم ، فعلمهم الله تعالى ان الكسب طلب فضل من الله لا جناح فيه مع الاخلاص ، وقال ان قوله تعالى [من ركب] يشعر بأن ابتغاء الرزق مع ملاحظة أنه فضل من الله تعالى نوع من أنواع العبادة ، ويروى أن سيدنا عمر قال في هذا المقام لسائل : وهل كنا نعيش إلا بالتجارة ؟ أقول لكن قال بعض العلماء ان نبي الجناح يقتضي ان هذه الاباحة رخصة وان الأولى تركها في أيام الحج. وهذا لا ينافي ما قاله إذا أريد بـ أيام الحج الايام التي تؤدي فيها المناسك بانفعل لا كل أيام شوال وذو القعدة وذو الحجة أو عشره الأول ، وذلك ان لكل وقت عبادة لا تنزاحها فيه عبادة أخرى كالتلبية للحجاج والتكبير في أيام العيد والتشريق ، والتلبية عند الاحرام بالحج كتكبير الاحرام في الصلاة ، وهو ذكر الحج الخاص الذي يكرر في أثنائه إلى انتهاء الوقوف بعرفة أو إلى رمي جرة العبة يوم النحر ، ثم يستحب التكبير ، وللعلماء خلاف في التحديد ، والمراد من الآية أن الكسب مباح في أيام الحج إذا لم يكن هو المقصود بالذات واتمم حسن النية وملاحظة انه فضل من الرب تعالى يكون فيه نوع عبادة ، وان التفرغ للمناسك في أيام أدائها أفضل ، والتزهد عن جميع حظوظ الدنيا في تلك البقاع الطاهرة أكمل . ثم قال تعالى

﴿ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ رِجْزَ الْإِفَاضَةِ مِنَ الْمَكَانِ الدَّفْعِ مِنْهُ ، مُسْتَعَارًا مِنْ إِفَاضَةِ الْمَاءِ وَأَصْلُهُ أَفَضْتُمْ أَنْفُسَكُمْ ، وَيُقَالُ أَيْضًا أَفَضَ فِي الْكَلَامِ إِذَا انْطَلَقَ فِيهِ كَمَا يَفِضُ الْمَاءُ وَيَتَدَفَّقُ ، وَعَرَفَاتٌ مَعْرُوفَةٌ وَهِيَ مَوْقِفُ الْحَاجِّ فِي النَّسَكِ يَجْتَمِعُ

فيها كل عام ألوف كثيرة من الناس، وقد جاء هذا الاسم بصيغة الجمع وقيل انه جمع وضع لفرد كأذرعاً وهو من جبل، وذكروا وجوهاً للتسمية أحسنها انه يعرف فيه الناس إلى ربهم بالعبادة، أو انه يشعر بعارف الناس فيه، وعرفه اسم اليوم الذي يقف فيه الحجاج بعرفات، وهو تاسع ذي الحجة واطلاق ايضاً على المكان في كلامهم ولعرفات اربعة حدود حد إلى جادة طريق المشرق، والثاني إلى حافات الجبل الذي وراء أرضها، والثالث إلى البساتين التي تلي قرنيها على يسار مستقبل الكعبة، والرابع وادي عرنة (بضم ففتح) وليست عرنة ولا نمره (بفتح فكسر) من عرفات.

والوقوف بعرفات اعظم اركان الحج وكلها موقف. والمشعر الحرام جبل المزدلفة يقف عليه الامام ويسمى قزح (بضم ففتح) وتسمى مشعراً لانه معلم للعبادة، ووصف بالحرام لحرمته وقيل هو المزدلفة كلها من مازعي عرفات إلى وادي محسر (بكسر السين انه حلة المشددة) وليس هو من مزدلفة ولا من منى بل هو مسيل ماء بينهما في الاصل، وقد استوت أرضه الآن او هو من منى.

والمعنى انه يطلب من الحاج اذا دفع من عرفات إلى المزدلفة ان يذكر الله عند المشعر الحرام فيها بالدعاء والتكبير والتهليل والتلبية، وقيل بصلاة العشائين جمعاء وليس هو المتبادر بل قالوه لينطبق على قولهم الامر للوجوب مع قولهم ان الذكر هناك غير واجب. (واقول) الظاهر انه واجب للآية وفعل النبي ﷺ في بيان المناسك مع قوله «خذوا عني مناسككم» او «لتأخذوا عني مناسككم فاني لا ادري لا احج بعد حجتي هذه» هذا لفظ مسلم في صحيحه من حديث جابر (رض) وهو كقوله «صلوا كما رأيتموني أصلي» فكل ما ألزمه ﷺ في صلاته ونسكه فهو واجب مبين لما اجهل في كتاب الله واما السنون من أعماله ما لم يأمره وما صحت فيه الرخصة عنه كقوله «وقفت هنا وعرة كلها موقف ومنى كلها منحر» وفي حديثه عنه أيضاً «ان النبي ﷺ أتى المزدلفة فصلى بها المغرب والعشاء بأذان واحد واقامتين ولم يسبح بينهما شيئاً ثم اضطجع حتى طلع الفجر فصلى الفجر حين تبين له الصبح بأذان واقامة ثم ركب القصوا (أي ناقته المجدوعة

وهذا اسمها وهو بالفتح والقصر ويمد) حتى أتى المشعر الحرام فاستقبل القبلة فدعا الله وكبره وهله ووحده ، فلم يزل وقفا حتى أسفر جدا ، فدفع قبل أن تطاع الشمس - الحديث - وهو دليل على أن المشعر الحرام هو قزح وأن الذكر غير صلاة العشائين جمعا . والمبيت بمزدلفة « وتسمى جمعا » من جملة المناسك قال الاستاذ الامام امر بالذكر عند المشعر الحرام للاهتمام به لانهم ربما تركوه بعد المبيت ولم يذكر المبيت لانه كان معروفا لا يخشى التهاون فيه والقرآن لم يبين كل المناسك بل المهم بين النبي ﷺ والباقي بالعمل

ثم قال ﴿ واذا كروه كما هداكم ﴾ اي اذ كروه ذكرا حسنا كما هداكم هداية حسنة اذ انجاكم من الشرك واتخاذ الوسطاء كما كنتم في الجاهلية تذكرونه مع ملاحظة غيره ينسكم وينده لا يفرغ قبكم له . وكانوا يقولون في التلبية : لبيك لا شريك لك ، الا شريكا هو لك ، تملكه وما ملك . فالكاف للتشبيه لا للتعامل

كما قيل ﴿ وان كنتم من قبله لمن الضانين ﴾ اي وانكم كنتم من قبله من زمرة الضالين عن الحق في عقائدكم واعمالكم الراسخين في الضلال . قال الاستاذ الامام اي من قبل الله الذي آمنتم به إيمانا صحيحا بهداية الاسلام دون الخيال الذي كنتم تدعونوه إلهاء ، وتجمعون له وسطاء شركاء يقربون اليه ويشفعون عنده فان ذلك الخيال لا حقيقة له ، وبهذا التقرير يستغنى عن تقدير المضاف ولا بأس بحمل ضمير « قبله » للهدي كما قال الجلال وغيره لسبق فعله ، ويمكن ان يراد به القرآن كما قال بعضهم اكتفاء بدلالة المقام كقوله تعالى (انا أنزلناه)

﴿ ثم افيضوا من حيث افاض الناس ﴾ جعل المفسر (لجلال) كغيره الخطاب هنا لقریش خاصة اذ ورد في حديث عائشة عند الشيخين ان قریشا ومن دان دينهم وهم الحرس كانوا يقفون في الجاهلية بمزدلفة ترفعا عن الوقوف مع العرب في عرفات ، فأمر الله نبيه ان يأتي عرفات ثم يقف بها ثم يفيض منها اي ابطالا لما كانت عليه قریش فالمراد بهذه الافاضة الدفع من عرفات كالاولى قال : وثم للترتيب في الذكر : وانكر الاستاذ الامام هذا الان الاسلوب

ينافيه وذلك ان الخطاب في الآيات كلها عام قول وهم يذكرون هذا كثيرا ولا يذكرون له نكتة تزيل التفاوت من النظم، ويمكن ان يقال هنا انه بعد ان ذكر كذا وكذا من احكام الحج قول هذا كآل المعنى هكذا : بعد ما تبين لكم ما تقدم كله من أعمال الحج وليس فيها امتياز أحد على أحد ، ولا قبيل على قبيل ، وعلمتم أن المساواة وترك التفاخر من مقاصد هذه العبادة ، بقي شيء آخر وهو أن تلك العادة المميزة لا وجه لها ، فعليكم أن تفيضوا مع الناس من مكان واحد

والمتبادر أن المراد بالاغاضة هنا الدفع من مزدلفة لانه ذكر الدفع من عرفات في خطاب المؤمنين كافة ، وهو لا يكون إلا بعد الوقوف فعلم أنهم سواء في الوقوف بعرفت وفي الاغاضة منها إلى المزدلفة ، وبعد أن أمرهم بما يتوقع ان يفعلوا عنه فيها عند الشعور الحرام منها ذكر الاغاضة منها . وقوله (ثم) يفيد أن الاغاضة من مزدلفة يجب أن تكون مرتبة على الاغاضة من عرفات ومتأخرة عنها ففيه تأكيد ابطال تلك العادة وقوله (من حيث أفاض الناس) يشعر بأنه لا معنى للامتنياز في الموقف ترفعا عن الناس اذ كانوا بعد ذلك يتساوون في الاغاضة ، فان غير قريش من العرب كانوا يفيضون من المزدلفة أيضا فلاية تتضمن ابطال ما كانت عليه قريش مع كون المراد بالاغاضة فيها الدفع من مزدلفة ، ولعل هذا هو المراد من الاثر وانه روي بالمعنى ، والظاهر ان المراد بالناس الجنس وقيل ابراهيم واسماعيل

ومن كان على دينها ، وقوله ﴿ واستغفروا لله ﴾ يراد به الاستغفار مما أحدثوا بعد ابراهيم من تغيير المناسك وادخال الشرك واعماله فيها ، وإلا فهو استغفار من الضلال الذي ذكرهم به في الآية قبلها ، ومن عامة الذنوب في الحج وغيره ، وهذا هو الذي يوجه الى من بعد . ولأنك الذين أسأموا في الصدر الاول بعد أن كانوا

مشركين ﴿ ان الله غفور رحيم ﴾ أي واسم الغفرة والرحمة لمن استغفروه تائبين

(٢٠٠) فَإِذَا قُضِيَتِ مَنَاسِكُكُمْ فَادْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ

ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَالَهُ فِي الْآخِرَةِ

مِنْ خَلْقِي (٢٠١) وَمَنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي
 الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (٢٠٢) أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا
 كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٢٠٣) وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ
 مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ يَوْمَئِذٍ تَأْخُذُ بِفُلَاثِمِ
 عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ تُحْشَرُونَ

﴿فَإِذَا قُضِيَتْ مِنْكُمْ أَسْوَاقُكُمْ فَذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا ذَكَرْتُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ كان
 للعرب في الجاهلية مجامع في الموسم يفاخرون فيها بابائهم ويذكرون أنسابهم
 وفعلهم ، أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال كان أهل الجاهلية يفتقون في
 الموسم يقول الرجل منهم : كان أبي يطلع ويحمل الحلات ويحمل الديات . ليس
 لهم ذكر غير فعل آبائهم ، فأنزل الله هذه الآية . ولابن جرير عن مجاهد كانوا
 إذا قضوا مناسكهم وقفوا عند الجرة وذكروا آبائهم الخ وروى أنهم كانوا يفتقون
 بين المسجد والجبل يتفاخرون ويتعاضدون ويكفون ويماشدون ، فأمرهم الله تعالى
 بأن يذكروا الله تعالى بعد قضاء المناسك وهي أعمال الحج كما كانوا يذكرون
 آبائهم في الجاهلية أو أشد من ذكرهم إياهم . وقد كان في حجة الوداع أن خطب
 النبي في اليوم الثاني من أيام التشريق فأرشدهم إلى ترك تلك المفاخرات

روى أحمد من حديث أبي نضرة قال حدثني من سمع خطبة النبي ﷺ
 في أوسط أيام التشريق فقال « يا أيها الناس إن ربكم واحد ، وإن أبائكم واحد ،
 ألا لا فضل لعربي على عجمي ، ولا لعجمي على عربي ، ولا لأحمر على أسود ، ولا
 لأسود على أحمر إلا بالتقوى . أبلغت ؟ » قالوا بلى يا رسول الله ﷺ

وقوله تعالى (أو أشد ذكر) معناه ظاهر وهو بل اذكروه أشد من ذكركم
 آبائكم وفيه من الإيجاز ما ترى حسنة . قل الاستاذ الامام وقد تعسف في إغرابه
 الذين حكموا النحو الذي وضعوه في القرآن ، ويعجبني قول بعض لائمة وظن
 انه أبو بكر بن العربي : من العجيب ان النحويين إذا ظفر احدهم ببيت شعر

لأحد اجلاف الاعراب يطير فرحاً به ويحمله قاعدة ، ثم يشكل عليه اعراب آية من القرآن فلا يتخذها قاعدة ، بل يتكلف في ارجاعها إلى كلام أولئك الاجلاف وتصحيحها به كأن كلامهم هو الاصل الثابت ويعجبني ايضاً ما قاله أبو البقاء وهو ان للقرآن ايجازاً واختصاراً في بعض المواضع المفهومة من المقام ، وهو ان المعنى هنا او كونوا أشد ذكراً ، ومثل هذا شائع في اللغة وقال الاستاذ هنا كتمه التي يكررها في مثل هذا المقام وهي انه كان يجب ان يكون القرآن مبدأً لإصلاح في اللغة العربية ، وقد ذكرناها من قبل

ثم بين تعالى ان الذين يذكرونه فيدعونهم على قسمين ^١ فمن الناس من يقول

ربنا آتنا في الدنيا وما له في الآخرة من خلاق ﴿ الخلاق التسميم والحظ ذكر تعالى ان هذا الفريق يطلب حظ الدنيا مطلقاً ولم يقل انه يطلب حسنة فيها ، لأن من كانت الدنيا كل همه لا يبالي ا كانت شهواته وحظوظه حسنة أم سيئة ، فهو يطلب الدنيا من كل باب ، ويسلك اليها كل طريق ، لا يميز بين نافع لغيره ولا ضار ، فباستيلاء حب الدنيا عليه لم يكن للآخرة وما اعد الله فيها للمتقين من الرضوان موضع من نفسه يرجوه ويدعو الله فيه ، كما انه لا يخاف ما توعد الله به المجرمين فيها فيلجأ اليه تعالى بأن يقيه شره . فخرمان هذا الفريق من خلاق الآخرة هو اثر كسبه وسوء اختياره ، وتفضيله حظوظ الدنيا الغانية على سعادة الآخرة الباقية ، لانه يعمل للأولى كل ما يستطيع من اسباب الحلال والحرام ، حتى انه لا يسأل ربه إلا المزيد من حظوظها وشهواتها ، وقد يناها كثير من الناس بدون هم كبير في العمل لها ، ولا يعمل الآخرة وقد اشترط لسعادتها خير العمل ، فقال تعالى (من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ، ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذمومة مذكورة) * ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً (الآيات . وبالله ما يبلغ حذف مفعول « آتينا » في هذا المقام فهو من دقائق الایجاز التي تحار فيها الافهام ، وتمجز عنها قرائح الانام ، فانه بدلاً لله على العموم يشمل كل ما يعنى به أفراد هؤلاء الناس المتساوي الهمم المتخلفي الاهواء ، من

المحظوظ والشهوات ، حسننها وقبيحها ، خيرها وشرها ، كبيرها وخسيسها ، وما لا يابى ذكره منها .

وقد اختلف المفسرون في تعيين هذا الفريق فقولهم المكفار الذين لا يؤمنون بالآخرة واستدلوا بما روي عن ابن عباس وانس من دعاء المشركين في ذلك المقام بمحظوظ الدنيا ، وقيل لهم المسلمون الذين لم تمس اسرار الدين وحكمه قلوبهم ، ولم تشرق انوار هدايته على ارواحهم ، بل استغفوا بالتقليد في رسومه الظاهرة ، فكان همهم في الدنيا دون الآخرة ، وذكروا هنا ما روي في المرفوع من ان الله تعالى يؤيد هذا الدين بمن لا خلاق لهم . واستدلوا على صحة رأيهم بالسياق . ولا شك أن هذا القسم موجود في المسلمين كما وجد في كل أمة ، ومن بلا الناس وفلاهم عرف ذلك .

﴿ ومنهم من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة ﴾ أي ومنهم من يطلب خير الدنيا والآخرة جميعا ، لا حظوظ الدنيا وحدها كمن كانت كالفريق الاول . وقد اختلف المفسرون في تعيين الحسنة هل هي العافية أو الكفاف أو المرأة الصالحة أو الاولاد الابرار أو المال الصالح أو العلم والمعرفة أو العبادة والطاعة ، وروي بعض هذه الاقوال عن بعض السلف ، ولعل كل ذي قول يطلقها على المهم عنده ، والظاهر ان حسنة وصف لمحذوف اي حياة حسنة ، وانظر بم تكون حياة المرء حسنة فيكون سعيداً في الدنيا . فمن دعا الله تعالى دعاء إجماليا فليدعه بسعادة الدنيا والآخرة والحياة الطيبة فيها يكن مهتدياً بالآية ، ومن كانت له حاجة خاصة فدعاه لها من حيث هي حسنة فهو مهتد بها ، على أنهم اختلفوا في حسنة الآخرة ايضاً فقول الجنة ، وقول الرؤية ، واختلفوا في عذاب النار ورووا عن علي كرم الله وجهه انه المرأة السوء . وقد علم مما تقدم في تفسير (١٨٦) أحيب دعوة الداع إذا دعان) أن الطلب من الله تعالى إنما يكون باتباع سننه في الاسباب والمسببات ، والتوجه اليه تعالى واستمداد المعونة والتوفيق منه ، للهداية إلى ما يعجز العبد عنه ، وعلى هذا يتخرج تفسير الحسن

لقوله تعالى ﴿وقتنا عذاب النار﴾ بقوله اي أحفظنا من الشهوات والذنوب المؤدية اليها فطلب الحياة الحسنة في الدنيا يكون بالأخذ بأسبابها المجربة في الكسب والنظام في المعيشة ، وحسن معاشره الناس بأداب الشريعة والعرف ، وقصد الخير في الاعمال كلها ، وتوقي الشر وركها ، وطلب الحياة الحسنة في الآخرة يكون بالإيمان الخالص ومكارم الاخلاق والعمل الصالح بقدر الاستطاعة ، وطلب الوقاية من النار يكون بترك المعاصي واجتناب الرذائل والشهوات المحرمة ، مع القيام بالفرائض المحتمة — هذا هو الطلب بلسان القلب والعمل ، وأما الطلب بلسان العقل فهو يصدق بما يذكر القلب بأن هذه الاسباب من الله فالسعي لها مع الايمان هو عين الطلب من فيضه وإحسانه ، مضت سنته بأن يعطي بها فضلا منه ورحمة ، لا بخوارق العادات التي لا يعلم عملها وحكمتها غيره ، وانه لا يرجع إلى سواه في الهداية إلى ما خفي ، والمعونة على ما عسر .

ولم يذكر في التقسيم من لا يطلب إلا حسنة الآخرة ، لان التقسيم لبيان ما عليه الناس في الواقع ونفس الامر بحسب داعي الجبلة وتأثير التربية وهندي الدين ، ولا يكاد يوجد في البشر من لا توجه نفسه إلى حسن الخلق في الدنيا مهما يكن غالباً في العمل للآخرة ، لان الاحساس بالجوع والبرد والتعب يحمله كرهاً على التماس تخفيف ألم ذلك الاحساس ، والشرع يكلفه ذلك بما يقدر عليه من أسبابه ، وقد جعل عليه حقوقاً لبدنه ولاهله وولده ولرحمه ولزائريه واخوانه وأمتة لا تصح عبوديته بدعاء الله تعالى فيها

وفي الآية إشعار بأن هذا العلوم مذموم خارج من سنن الفطرة وصرط الدين معاً ، وما نهى الله أهل الكتاب عن القلو في الدين وذمهم على التشدد فيه إلا عبرة لنا ، وقد نهانا عنه نبينا ﷺ ، وفي حديث أنس عند البخاري ومسلم ان رسول الله ﷺ دعا رجلاً من المسلمين قد صار مثل العرغ المنتوف فقال له « هل كنت تدعو الله بشيء ؟ » قال نعم كنت أقول « اللهم ما كنت معافى به في الآخرة فعمّله لي في الدنيا » فقال رسول الله ﷺ « سبحان الله إذا لم تطيق ذلك ولا

تستطيعه فهلا قلت : ربنا آتينا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقتنا عذاب النار « ودعا له فشفاه الله تعالى

وأبعد من هذا في الغلو ان بعض الصوفية سمع قارئاً يتلو قوله تعالى (٣: ١٥٢) منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة (فصاح أواه فأين من يريد الله ؟ وهو قول حسن الظاهر قبيح الباطن ، فالآية خطاب لخيار الصحابة وهو وشيخه من الصوفية لم يبلغوا مد أحدهم ولا نصيفه ، فإرادة الدنيا والآخرة بالحق إرادة لمرضاة الله وعمل بسنته وشرعه ، والمراد بالدنيا فيها الغنيمة في الخرب ، وبالآخرة الشهادة في سبيل الله ، فهل يظن بجعله أن من شهد الله تعالى لهم بانهم بذلوا أنفسهم في سبيله ونصر رسوله وآثروا الشهادة في اقتتال على الغنيمة انهم لا يريدون الله ؟ وقد ورد في الصحيح ان الآية كانت أكثر دعاء النبي ﷺ فهل يدعي ذلك الصوفي وأمثاله من الغلاة انهم أشد حبا منه لله وطلباً له عز وجل ؟ (أقول) كلا انما هي فلسفة خيالية من خيالات وحدة الوجود البرهمية الهندية ، قد شغل بها أفراد عن فطرة الله وشرعه معاً فجعلوها أعلا مراتب العبودية ، وتأولوا لها بعض آيات الكتاب العزيز كقوله تعالى (يريدون وجهه) وما إرادة وجهه تعالى إلا الاخلاص له في كل عمل مشروع من مصالح الدين والدنيا وتحري هداية دينه فيه ، لا ما تخيلوه من إرادة وجهه تعالى هو الوصول إلى ذاته بعد التجرد من كل نعمه في الدنيا والآخرة جميعاً ، فان الاتصال بتلك الذات العلية القدسية التي لا تدركها العقول ولا تدنو من كتبها الافكار ولا الاوهام ، مما لم يتعلق به تكليف ، ولم يرد به شرع ، بل إدراك كنهه الذوات المخلوقة له تعالى فوق استطاعة خلقه . وإعلا مراتب معرفة الله تعالى في الدنيا هي معرفة كل شيء به ومعرفة في كل شيء وبكل شيء ، ودعاؤه بكل اسم من أسمائه بما يناسب تعلقه بشؤون عبادته ، وهذا فضل جمهور اهل السنة خيار البشر على الملائكة الذين يعبد كل منهم ربه عبادة خاصة ، والمؤمن الكامل من يعرف حق ربه على عبادته وما شربه من حقوق بعضهم على بعض ، والقيام في كل ذلك بذكره وشكره وحبه والتوكل عليه والاخلاص له ، وأعلا

مراتب معرفته في الآخرة هو مقام لرؤية بتجاليه الاعلى في جنات عدن، والاشتغال بالذكر الجزاء عن العمل الموصل اليه جهل لا علم ولا معرفة

ثم قال تعالى بياناً لمن يسأل عن حظ هؤلاء ﴿اولئك لهم نصيب مما كسبوا﴾
 الإشارة بأولئك إلى الذين يطلبون سعادة الدارين، والحسنة في الميزتين،
 لأن حكم الفريق الذي يطلب الدنيا وحدها قد علم من قوله تعالى (وما له في
 الآخرة من خلاق) فإن العطف يشعر بحذف كأنه قال هذا الفريق له حظه من
 الدنيا وما له في الآخرة من حظ سواء، ومجموع الكلام في الفريقين بمعنى قوله
 تعالى (٤٢: ٢٠) من كان يريد حرث الآخرة زد له في حريته، ومن كان يريد
 حرث الدنيا نؤثمه منها وما له في الآخرة من نصيب) وقد بينت الآية صريحاً أنهم
 يعطون مادعوا الله تعالى فيه بكسبهم، وهذا نص فيما تقدم من معنى الدعاء وأنه
 لا بد أن يكون طلب اللسان مطابقاً لما في النفس من الشعور بالحاجة إلى الله تعالى
 بعد الأخذ بالاسباب والسعي في الطرق التي مضت بها سنة الله تعالى، ولهذا قال
 ﴿عما كسبوا﴾ ولم يقل لهم ما طلبوا - والمعنى أنهم لما كانوا يطلبون الدنيا بأسبابها
 ويسعون للآخرة سعيها، كان لهم حظ من كسبهم هذا في الدارين على قدره

﴿والله سريع الحساب﴾ يوفي كل كاسب أجره عقب عمله بحسبه لأن سنته مضت
 بأن تكون الرغائب آثار الاعمال، فهو يوفي كل عامل عمله بلا ابطاء، وكما يكون
 الجزاء سريعاً في الدنيا كذلك يكون في الآخرة، فإن آثار الاعمال الصالحة يظهر
 للمرء عقب الموت وهو أول قدم يضعها في باب عالم الآخرة. وهذا أحسن بيان
 لما قالوه في تفسير [سريع الحساب] من أنه اجابة الدعاء. والاكترون على أن المراد
 حساب الآخرة، واختلفوا في كيفية ذلك على اقوال اقربها إلى التصور أن سرعة
 الحساب عبارة عن اطلاع كل عامل على عمله أو اعلامه بما له مما كسب، وما عليه
 مما اكتسب وذلك يتم في لحظة، وقد ورد أن الله تعالى يحاسب الخلائق كلهم في
 مقدار نصف يوم من أيام الدنيا، وورد في قدر فواق الناقة، وورد بمقدار لحظة البصر
 (أقول) هذا ما كنت كتبت في تفسير الآية بالمعنى الذي قررته شيخنا (رح)

من كون النصيب فيها شاملا لجزاء هذا الفريق في الدنيا والآخرة معا وطبيع في حياته، ثم فكرت في التعبير عنه بمن التبعيضية (كما كسبوا) والحال أن جزء الآخرة يضاعف، وإن الدنيا هي التي لا يزال الناس فيها كل ما يطلبون بسكسبهم ولادعائهم ونفاق لاستشهادي عليه آتفا بآيات سورة الاسراء (عجلنا له فيها ما تشاء لمن يريد) فرجح عندي أن المراد هنا بالنصيب من الكسب ما يكون في الدنيا وأشار إلى جزء الآخرة بسرعة الحساب الذي يكون لجزاء في أثره وهو ما حكمته عن الجمهور ثم قال تعالى بعد أن أمر بذكره عند المشعر الحرام وكانوا لا يذكرونه هناك وبذكره عند تمام قضاء المناسك بعد أيام منى حيث كانوا يذكرون مغاخر آبائهم

﴿واذكروا الله في أيام معدودات﴾ حكى القرطبي عن الحافظ ابن عبد البر وغيره الاجماع على أن الايام المعدودات هي ايام منى وهي ايام التشريق الثلاثة من حادي عشر ذي الحجة إلى ثالث عشرة، ويؤيده حديث عبد الرحمن بن زمر عند احمد وأصحاب السنن الاربعة وغيرهم قال ان ناسا من اهل نجد اتوا رسول الله ﷺ وهو واقف بعرفة فسالوه فأمر منادياً ينادي «الحج عرفة من جاء ليلة جمع - اي مزدلفة - قبل طلوع الفجر فقد أدرك، ايام منى ثلاثة ايام فمن عجل في يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه» وأردف رجلا ينادي بهن، أي أركب رجلا وراءه ينادي بهذه الكلمات ليعرف الناس الحكم، وهو ان من أدرك عرفة ولو في الليلة التي ينفر بها الحاج إلى المزدلفة للمبيت فيها وهي الليلة العاشرة من ذي الحجة فقد أدرك الحج، وإن ايام منى ثلاثة وهي التي يرمون فيها الجمار وينحرون فيها هديهم وضحاياهم، فمن فعل ذلك في اليومين الأولين منها جاز له، ومن تأخر إلى الثالث جاز له، بل هو الافضل لانه الاصل وقية زيادة في العبادة. فالحديث مفسر للايام المعدودات وعليه العمل عند أهل العلم كما قال الترمذي في جامعه

نما امر سبحانه بالذكر في هذه الايام ولم يأمر برمي الجمار لانه من الاعمال

التي كانوا يعرفونها ويعملون بها وقد أقرهم عليها وذكر المم الذي هو روح الدين وهو ذكر الله تعالى عند كل عمل من تلك الاعمال ، وذلك سنة القرآن يذكر إقامة الصلاة والخشوع فيها وذكر الله تعالى ودعاءه وتأثير ذلك في إصلاح النفوس ، ولا يذكر صفة القيام والركوع والسجود ، وكون الركوع يفعل مرة في كل ركعة ، والسجود يفعل مرتين ، وإنما يترك ذلك لبيان النبي ﷺ له بالعمل . وبينت السنة أيضا أن ذكر الله تعالى في هذه الايام هو التكبير أديار الصلوات وعند ذبح القرابين وعند رمي الجمار وغير ذلك من الاعمال ، فقد روى الجماعة عن الفضل بن العباس قال كنت رديف رسول الله (ص) من جمع (مزدلفة) إلى منى فلم يزل يلبي حتى رمي جرة العقبة ، وروى أحمد والبخاري عن ابن عمر انه (ص) كان يرمي الجرة يكبر مع كل حصاة . وورد في التكبير في أيام التشريق أحاديث كثيرة منها حديث ابن عمر في الصحيح انه (ص) كان يكبر بمنى تلك الايام وعلى فراشه وفي فسطاطه وفي مجلسه وفي مناه في تلك الايام جميعاً

وأما الذكر في يوم عرفة ويوم النحر فهو التكبير لغير الحاج وله أهم ، ففي حديث أحمد والشيخين ان محمد بن أبي بكر بن عوف قال سألت أنساً ونحن غاديان من منى إلى عرفات عن التلبية كيف كنتم تصنعون مع النبي (ص) ؟ قال كان يلبي اللبي فلا ينكر عليه ويكبر المكبر فلا ينكر عليه . وفي حديث أسامة عند النسائي انه (ص) رفع يديه يوم عرفة يدعو . وفي روايات ضعيفة السند ان أكثر دعائه يوم عرفة : لا إله الا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد بيده الخير وهو على كل شيء قدير . وقد ذكرنا ذكره (ص) عند المشعر الحرام وقد قالوا ان التلبية أفضل ان ذكر الحاج ويلبسها التكبير في يوم عرفة والاضحى وأيام التشريق ، ولفظ التلبية المأثور : لبّيك اللهم لبّيك ، لا شريك لك لبّيك ، ان الحمد والنعمة لك والملك ، لك لا شريك لك . هذا هو المرفوع وله أن يزيد من الذكر والثناء والدعاء ما شاء ، والتكبير المرفوع صحيحاً : الله أكبر الله أكبر الله أكبر ، وي زيدون

وقد جعل الله تعالى التخيير في التعجيل والتأخير مشروطاً بالتقوى فقال .

﴿ من تعجل في يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه لمن اتقى ﴾ أي من

استسجل في تأدية الذكر عند هذه الاعمال التعبدية المعلومة وهي رمي الجرات في يومين من تلك الايام المعدودات فلا حرج عليه، ومن أتمها كذلك إذا اتقى كل منها الله تعالى ووقف عند حدوده ، فإن نحصيل ملكة التقوى هي الغرض من الحج ومن كل عبادة ، والوسيلة الكبرى اليها كثرة ذكر الله تعالى بالقلب مع اللسان ، حتى يغلب على مراقبته في جميع الاحوال ، فيكون عبداً له لا للاهواء والشهوات ، وإنما تلك الاعمال مذكرات للناسي

والجار ثلاث وهي كالجرات جمع حجرة ومعناها هنا مجتمع الحصى من جره بمعنى جمعه ، ورميها من ذكريات النفس المأثورة عن سيدنا ابراهيم عليه السلام كذبح القرابين هنالك وعامة أعمال الحج ذكريات انشأة الاسلام الاولى في عهد الخليل عليه السلام وكل حجرة ترمى بسبع حصيات صغيرة كل يوم من الايام الثلاثة او الاثنين وتمتاز حجرة العقبة منها بأنها ترمى قبل ذلك يوم النحر أيضاً

ثم أمر بالتقوى بعد الاعلام ، كانتها فقال ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ أي اتقوه في حال أداء المناسك وفي جميع أحوالكم وكونوا على علم يقين بأنكم تجمعون وتساقون اليه في يوم القيامة فيرىكم جزاء أعمالكم والعاقبة للمتقين (تلك الجنة التي نورث من عبادنا من كان تقياً) فإن العلم بذلك هو الذي يؤثر في النفس فيبذلها على العمل ، وأما من كان غليظاً أو شك فانه يعمل تارة ويترك أخرى لتنازع الشكوك قلبه ومن فوائد هذا الاسلوب أن تكرار الامر بالذكر وبيان مكانة التقوى ، ثم الامر بها نصريحاً في هذه الآيات التي فيها من الابحاز ، ما هو في أعلى درجات الاعجاز ، حتى سكت عن بعض المناسك الواجبة للعالم بها — كل ذلك يدنا على أن المهم في العبادة ذكر الله تعالى الذي يصلح النفوس وينير الارواح ، حتى تتوجه إلى الخير وتنبت الشرور والمعاصي فيكون صاحبها من المتقين . ثم يرتقي في فوائد الذكر وثمراته فيكون من الربانيين

(٢٠٤) وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ
لِللَّهِ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ (٢٠٥) وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي
الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ
(٢٠٦) وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ
وَلَيْسَ الْمُبَادُ (٢٠٧) وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ
اللَّهِ وَاللَّهُ رَمِيفٌ بِالْعِبَادِ

أرشدتنا آيات المناسك السابقة إلى ان المراد منها ومن كل العبادات هو
تقوى الله تعالى باصلاح القلوب، وإنارة الارواح بنور ذكر الله تعالى واستشعار
عظمته وفضله — وإلى ان طلب الدنيا من الوجوه الحسنة لا ينافي التقوى بل يعين
عليها ، بل هو مما يهدي اليه الدين ، خلافا لأهل الملل السابقة الذين ذهبوا إلى
أن تعذيب الاجساد وحرمانها من طيبات الدنيا هو أصل الدين وأساسه — وإلى
أن من يطلب الدنيا من كل وجه ويجعل لذاتها أكبر همه ليس له في الآخرة من خلاق ،
لأنه مخلد إلى حضيض البهيمية لم تستر روحه بتور الايمان ، ولم يرتق عقله في
معارج العرفان . ولما كان محل التقوى ومنزلها القلوب دون الالسنه ، وكان الشاهد
والدليل على ما في القلوب الاعمال ، دون مجرد الاقول ، ذكر في هذه الآيات
ان الناس في دلالة أعمالهم على حقائق أحوالهم ومكنونات قلوبهم قسما ، فكانت
هذه متصلة بتلك في بيان مقصد القرآن العزيز وهو إصلاح القلوب ، واختلاف
أحوال الناس فيها ، وما ينبغي أن يعلموه منها ، ولذلك عطفها عليها فقال

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ يقال اعجبه الشيء اذا
راقه واستحسنه ورآه عجبا اي طريقا غير مبتذل ، والخطاب عام ، وفي قوله
(في الحياة الدنيا) وجهان (أحدهما) أن من الناس فريقا يعجبك قوله وأنت في
هذه الحياة لأنك تأخذ بالظواهر وهو منافق اللسان يظهر خلاف ما يضر ، ويقول

ما لا يفعل ، فهو يعتمد على خيالة لسانه ، في غش معاشريه وأقرانه ، يوههم أنه مؤمن صادق ، نصير للحق والفضيلة ، خاذل للباطل والرديلة ، متقن لله فيه السر والعلن ، مجتنب للفواحش مظهر منها وبطن ، لا يريد للناس إلا الخير ، ولا يسعى إلا في سبيل النفع ﴿ ويشهد الله على ما في قلبه ﴾ أي يخلف بالله أن ما في قلبه موافق لما يقول ويدعي . وفي معنى الخلف أن يقول الانسان : الله يعلم أو يشهد بأنني أحب كذا وأريد كذا . قال تعالى (قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون) وهو تأكيد معروف في كلام العرب

أليس الله يعلم أن قلبي يحبك أيها البرق النمامي

وقال العلماء إن هذا آكد من اليمين ، وعن بعض الفقهاء أن من قاله كاذباً يكون مرتداً لأنه نسب الجهل إلى الله تعالى . وأقول إن أقل ما يدل عليه عدم المبالاة بالدين ولو لم يقصد صاحبه نسبة الجهل إلى الله عز وجل فهو قول لا يصدر إلا عن المنافقين الذين (يخادعون الله والذين آمنوا) فإن أحدهم ليبالغ في الخيالة

والتودد إلى الناس بالقول ﴿ وهو ألد الخصام ﴾ أي وهو في نفسه أشد الناس مخاصمة وعداوة لمن يتودد إليهم ، أو هو أشد خصائهم على أن الخصام جمع خصم ككتاب جمع كتب وهو المختار وللد شدة الخصومة ولد (كتب) الرجل لازم ولد خصمه (كنصر) شدد خصومته ولادته المشاركة . وفيه وجه آخر قاله بعضهم وهو أن الخصام بمعنى الجدال أي وهو قوي العارضة في الجدل لا يعجزه أن يختلب الناس ويعشهم بما يظهر من الميل إليهم وإسعادهم في شؤونهم ومصالحهم . قال صاحب هذا القول فالأوصاف المحموده التي يعتمد عليها ثلاثة : حسن القول بحيث يعجب السامع ، وإشهاد الله تعالى على صدقه وحسن قصده ، وفي معناه ما هو دونه من ضروب التأكيذ الذي يقبله خالي الذهن ، وقوة العارضة في الجدل التي يحاج بها المذكر أو المعارض وأما بيان سوء حاله ، وفساد أعماله ، فهو في الآيتين التاليتين وقد مهد لها بقوله تعالى (في الحياة الدنيا) والتحديد في بداية الكلام للمراد منه في غايته من ضروب البلاغة وأقناتها

هذا الفريق من الناس يوجد في كل أمة وتختلف الخلاصة اللسانية في الامم باختلاف الاعصار، ففي بعض الازمنة لا يتيسر للواحد أن يعش بزخرف القول إلا الفرد أو الأفراد المعدودين، وفي بعضها يتيسر له أن يعش الامة في مجموعها حتى ينكل بها تنكيلا (١) وإن الجرائد في عصرنا هذا قد تكون طريقاً للنفس العام، كما تكون طريقاً للنصح العام، والله يكون تليسه سهلاً على من يعجب العامة قوهم في الامم التي يغلب فيها الجهل لاسيما في طور الانتقال من حال إلى حال إذ تختلف ظروف الدعوة وطرق الارشاد^٢

وفي الآية وجه آخر ذهب اليه بعض المفسرين وهو أن الظرف في الحياة الدنيا متعلق بالقول قبله أي يعجبك قوله إذا تكلم في شؤون الحياة الدنيا وأحوالها وطرق جمع المال وإحراز الجاه فيها، لأن جها قد ملك عليه أمره، والميل إلى لذاتها وشهواتها قد استحوذ على قلبه، وصار هو المنصرف لشعوره وليه، فينطق لسانه - ومثله قلبه - في كل ما يستهوي أصحاب الجاه والمال، ويستميل أهل السيادة والسلطان، ولكنه إذا تكلم في أمر الدين جاء بالخطل والحشو، ووقع في العسالة واللغو، فلا يحسن وقع قوله في السمع، ولا يكون له تأثير في النفس

(١) في التاريخ شواهد كثيرة على هذا من أعجبها أن غايوم دورانج الماكر الهولندي كاد (لجان وكوزنيل دي ويت) مؤسس جمهورية هولندا في القرن السابع عشر اللذين خدما أمتهم بغاية الاخلاص وهبيج الامة عليهما باسم الوطنية والدعاري الكاذبة حتى قتلتهم شر قتلة. وكما رأينا من مضرات مدعي خدمة الوطن في هذه البلاد ولا تزال نرى

(٢) مثال ذلك حال أمتنا اليوم فانك ترى من المقتونين بحب المال والجاه والافلاس في اللذات من يخادعها بوساوس السياسة وأوهام الوطنية لاجل الوصول إلى شهواتهم، ونرى من المخلصين من يدعو إلى الاعتصام بعروة الدين لاجل جمع القلوب، والتخلص من جيوش الفسق، كالخمر والقمار والزنا المبيدة للاموال المفسدة للاخلاق، وينهى عن الاعتزاز بوساوس السياسة والاشتغال بها عن العلم وتوفير الثروة، وتجد المخادعين ينصبونهم حق باسم الدين، والاعمال هي الشاهدة على حقائق الاحوال

وذلك ان روح المتكلم تتجلى في قوله ، وضميره المكنون يظهر في لحنه (٤٧ : ٣٠)
ولو نشاء لا ريباً انهم فلعرقتهم بسببهم ٣١ ولتعرقتهم في لحن القول والله يعلم أعمالكم)
وفي الحكم : كل كلام يبرز وعليه كسوة من القلب الذي عنه صدر ، ولهذا كان إرشاد
الخلصين نافعا ، وخداع المنافقين صادعا

وعلى هذا الوجه في التفسير تكون جملة (ويشهد الله) وصفاً مستقلاً غير حال
كما قبله ، أي انه لا يحسن إلا الكلام في الدنيا ليعجب السامع ويخدعه ، ولكنه يزعم
ان قلبه مع الله ، وانه حسن السريرة ، وانك ترى هذا في سيرة المجرمين ظاهراً
جلياً كما وصف الله تعالى : يتركون الصلاة ، ويمنعون الزكاة ، ويشربون الخمر ،
ويتساقبون إلى الفجور ، ويأكلون أموال الناس بالباطل ، ثم يفضلون أنفسهم في
الدين على أهل النزاهة والتقوى ، زاعمين ان هؤلاء المتقين قد عمرت ظواهرهم
بالعمل والإرشاد ، ولكن بواطنهم خربة بسوء الاعتقاد ، ويقولون نعم النافعين
ناكل الربا أو القمار ولكننا نحرمه ، ونأتي في ناديتنا وخلوتنا المنكر ولكننا لا نستحسنه ،
وان ما نبهه من جيوب الاغنياء بخلافتنا ليس المقصود به ترفيه معيشتنا ، وإنما هو
أجر على السعي في إعلاء شأنهم ، ومكافأة على خدمة أوطانهم - فهم بهذه الدعاوي
ألد الخصماء ، ألا أنهم هم السفهاء ، فقد جرت سنة الله تعالى في خلقه ، ودلت
هدايته في كتابه ، على أن سلامة الاعتقاد وإخلاص السريرة هما ينبوع
الأعمال الصالحة ، والأقوال النافعة (٧ : ٨) والبلد الطيب يخرج نباته بأذن ربه
والذي خبث لا يخرج إلا نكداً)

وانظر ما قاله عز شأنه في وصف فريق هذه الدعاوي العريضة ، والقلوب

المريضة ، قال ﴿ وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ﴾ في تفسير التولي هنا
قولان (أحدهما) ان صاحب الدعوى القولية إذا أعرض عن مخاطبه وذهب إلى
شأنه فان سعيه يكون على ضد ما قال - يدعي الإصلاح والإصلاح وحسب الخير ، ثم
هو يسعى في الأرض بالفساد ، ذلك انه لا هم له إلا في الشهوات والذات والخطوط
الخسيسة ، فهو يعادي لأجلها أهل الحق والفضيلة ويؤذيهم ، لانه ألد خصم لهم

للتناقض والتضاد في العرائز والسجايا ، ويعادي أيضاً المزاحمين فيها من أمثاله
المفسدين ، فلا يكون له هم وراء التمتع وأسبابه إلا الكيد للناس ومحاولة الإيقاع

بهم فهو يقصد باعتدائه على الاموال والاعراض ^{بهم} ويهلك الحرث والنسل ^{بهم}
بما يكون من أثر إفساده في اعتدائه وهو ذهاب ثمرت الحرث وهو الزرع ،
والنسل وهو ما تنسل من الحيوان ، وكأنه إشارة إلى مكسب أهل الحضارة وأهل
البادية ، وفي هذا عبرة كبرى للذين يقطعون الزرع ويقتلون البهائم بأنهم وغيره
انتقاماً من بكر هونهم وهي جرائم فاشية في آرياف مصر لهذا العهد ، تأين الاسلام وأين
هداية القرآن ؟ وذكر الازهري أن المراد بالحرث ههنا النساء كما في قوله (٢ : ٢٢٢)
نساءكم حرث لكم ، وبالنسل الاولاد ، وهل المراد نساء الناس وأولادهم ، أم نساء
المفسدين وأولادهم خاصة ؟ لعل الامر أعم فان المفسدين الذين يطمحون بأبصارهم
إلى نساء الناس أو يسمعون في إفساد نظام البيوت بما يلقون من الفتن ويعملون
من التفريق لا تسكاد تسلم بيوتهم من الخراب ظاهراً وباطناً أو باطناً فقط فلفسد
الشرير يؤدي نفسه وأهله بضروب من الايذاء قد يعميه الغرور عنها أو عن
كونها من سميه . وقال الاستاذ الامام إن إهلاك الحرث والنسل عبارة عن
الايذاء الشديد وقد صار التعبير به عن ذلك من قبيل المثل فالمعنى أنه يؤدي
مسترسلاً في إفساده ولو أدى إلى إهلاك الحرث والنسل وكذلك شأن المفسدين
يؤذون إرضاء لشهواتهم ولو خرب الملك بارضائها

والقول الآخر أن المراد بتولى صار والياً له حكم ينفذ وعمل يستبد به .
وإفساده حينئذ يكون بالظلم مخرب العمران وآفة البلاد والعباد ، وإهلاكه الحرث
والنسل يكون إما بسفك الدماء والمصادرة في الاموال ، وإما بقطع آمال العاملين
من ثمرات أعمالهم ، وفوائد مكسبهم ، ومن انقطع عمله انقطع عمله إلا الضروري
الذي به حفظ الدماء ، ولا حرث ولا نسل إلا بالعمل . وقد شرحت لنا حوادث
الزمان وسير الظالمين هذه الآية فقرأنا وشاهدنا أن البلاد التي يفشو فيها الظلم
تهلك زراعتها ، وتبعضها ماشيتها ، وتقل ذريتها ، وهذا هو الفساد والهلاك

الصورديان . ويفشو فيها الجهل ، وتفسد الاخلاق ، وتسوء الاعمال حتى لا يثق الاخ بأخيه ، ولا يثق الابن بأبيه (١) فيكون بأس الامة بينها شديداً ولكنها تذلل وتخضع للمستعبدين لها . وهذا هو الفساد والهلاك المعنويان ، وفي التاريخ الغابر والحاضر من الآيات والعبر ، ما فيه ذكرى ومزدجر

ولما كان هذا المفسد يشهد الله على هداية قلبه ، عند من يظن أنه يجهل

حقيقة أمره ، قال تعالى بعد بيان عمله في الافساد ﴿ والله لا يحب الفساد ﴾ أي ان إفساد هذا المنافق ظاهر في الوجود ، والظاهر عنوان الباطن ، ففساده في عمله دليل على فساد قلبه وكذبه في اشهاد الله عليه (والله لا يحب المفسدين) لانه لا يحب الفساد . وفي الآية دليل على أن تلك الصفات الظاهرة الحمودة لا تكون محمودة مرضية عند الله تعالى إلا اذا أصلح صاحبها عمله فان الله تعالى لا ينظر إلى الصور والاقوال ، وانما ينظر إلى القلوب والاعمال ، وهي ترشدنا إلى التمييز بين الناس بأعمالهم وسيرتهم وعدم لاغترار بزخرف القول فان الناس اذا انصرفوا من مجالس القول لم يكن لهم بد من سعي وعمل ، والعمل إما خير وإصلاح ، وإما شر وإفساد ، وكل إناء ينضح بما فيه

ولما كان الافساد يصدر تارة عن الجهل وسوء الفهم ، وأحياناً عن فساد الفطرة وسوء القصد ، وكان من يعمل السوء بجهالة سريع التوبة ، مبادراً إلى قبول النصيحة ، وكان شأن الآخر الاصرار على ذنبه ، كالمستعزي بربه ، ذكر

من صفة المفسد ما يميز بينه وبين الخطيء فقال ﴿ واذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإلحام ﴾ أي أنه اذا أمر بمعروف أو نهى عن منكر يسرع اليه الغضب ، ويعظم

(١) من أعجب عبر الفساد في الاخلاق ما نقل إلينا عن بعض المفسدين الذين تعجبك أقوالهم في الحياة الدنيا أنه قال لاحد هؤلاء الولاة : لا يسلم لك ملكك وتستقر عظمتك إلا اذا نفيت من بلادك أخي وفلانا وفلانا : ونقل عنه أيضاً أنه قال للوالي : إن ابني فلانا هم جوك مع فلان وفلان . وتلك غاية في الافساد لم تكن تخطر في بال أحد من العباد .

عليه الامر ، فتأخذ هذه الكبرياء والانفة ، وتخطفه الحمية وطيش السفه ، فيكون كالأخوذ بالسحر ، لا يستقيم له فكر ، لانه مصر على إفساده لا يبغي عنه حولا ، يعبر عن الكبرياء والحمية بالعرى ، للشعار بوجه الشبهة للنفس لامارة بالسوء وهو تخيلها النصح والارشاد ذلة تنافي العزة المطلوبة

قال شيخنا هذا الوصف ظاهر جداً في تفسير التولي بالولاية والسلطة ، فان الحاكم الظالم المستبد يكبر عليه أن يرشده إلى مصلحة ، أو يحذر من مفسدة ، لانه يرى أن هذا المقام الذي ركبه وعلاه يجعله أعلا الناس رأياً وأرجحهم عقلاً ، بل الحاكم المستبد الذي لا يخفى الله تعالى يرى نفسه فوق الحق كما انه فوق أهله في السلطة ، فيجب أن يكون أفن رأيه خيراً من جودة آرائهم ، وإفساده نافذاً مقبولاً دون إصلاحهم ، فكيف يجوز لأحد منهم أن يقول له : اتق الله في كذا ؟ وإن الأمير منهم ليأتي أمراً فيظمر له ضرره في شخصه أو في ملكه ويود لو يهتدي السبيل إلى الخروج منه فيعرض له ناصح يشرع له السبيل فيأبى سلوكها ، وهو يعلم أن فيها النجاة والفوز إلا أن يحتمل الناصح في إشرعها فيجمله بصيغة لا تشعر بالارشاد والتعليم ، ولا بأن السيد المطاع في حاجة إليه ^١

وقد عرضت نصيحة على بعضهم مع ذكر لفظ النصيحة بعد تهديد له بالحديث «الدين النصيحة لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم» وبيان معناه ، فعظم عليه أن يقول أحد انني أنصح لك لأنك إمامي وكان ذلك آخر عهد الناصح به ^٢ فانظر كيف لم يرض حاكم مسلم بأن يبذل له ما يجب أن يبذل لله ولرسوله ولالأئمة ، وقد كان العلماء ينصحون للخلفاء والملوك المسلمين ، فيأخذون بالناصح بحسب مكانهم من الدين ، وما الطغاة البغاة الذين ليس لهم من الاسلام إلا ما يخذعون به العامة

١) وضرب الاستاذ الامام المثل لذلك في الدرس بالازهر بقوله كان يقول له أن مولانا حفظه الله وأيده لا يخفي عليه كذا... وقد فهم الاذكياء أنه يعني بهذا ما يفعله في نصيحة أمير البلاد

٢) هذا ما وقع لي كتبته يومئذ مبهما وقد امتد ذلك الغضب تسع سنين ولكن كان له سبب غير النصيحة التي أثارته

من إتيان المساجد في الجمع والاعياد والمواسم المبتدعة ، فانهم يؤذون من يشير
إشارة ما إلى أنهم في حاجة إلى تقوى الله في أنفسهم ، أو في عيال الله الذين سلطوا
عليهم ، وإن لم يبق لهم من السلطان والحكم ، ما يمكنهم من كل ما يهونون من الافساد
والظلم ، وإذا كان هذا شأن أكثر الملوك والامراء الذين ينسبون إلى الدين ويدعون
اتباعه فهل تجد دعوى فرعون الالهية غريباً عجيباً ؟

وحمل التولي على الوجه الآخر لا يتنافى مع أخذ العزة بالانهم من جرأ الامر
بالتقوى ، فان في طبع كل مقصد المنفور من يأمره بالصلاح والاحكام عليه ، لانه يرى
أمره بالتقوى والخير تشهيراً به ، وصرفاً لعيون الناس إلى مفاسده التي يسترها
يزخرف القول وخلايقه ، ولكن التمييز أظهر في إرادة الولاة والسلطين . وقد يبلغ
منفور المفسدين في الارض من الحق والدعين إلى الخير إلى حد استنقاظهم والحد
عليهم ، والسعي في ابدانهم وإن لم يأمرهم بذلك ، إذ يرون أن الدعوة إلى الخير
والنهي عن المنكر على إطلاقها كافيان في فضيحتهم ، وذهابان بخلايقهم ، فلا يطيقون
رؤية دعاة الخير ولا يرتاحون إلى ذكرهم ، بل يبتغون عوراتهم وعثراتهم ليوقعوا
بهم وينفروا الناس عن دعوتهم ، فن لم ينفروا بزلّة ظاهرة التمسوها بالتحريف
والتناول ، أو الاختراع والتقول ، ولذلك تجد طعن المفسدين في الأئمة المصلحين ،
من قبيل طعن الكافرين في الانبياء والرسلين : إن فلانا مغرور ، لا يعجبه أحد
خطأ جميع الناس ، وصفهم بالضلال ، سفّه أحلامهم ، شنع على أعمالهم ، فرق
بينهم ، وما أشبه هذا

هذه آثار المفسدين في الارض عند العجز عن الايقاع بالأمر بالتقوى ،
وإن قدروا حبسوا وضربوا ، ونفوا وقتلوا ، ولذلك قل عز وجل فيمن يأنف من
الأمر بالتقوى ﴿فخسبه جهنم﴾ أي هي مصيره وكفاه عقابها جزاء على كبريائه

وحقيقته الجاهلية . ثم وصف جهنم وهي دار العذاب في الآخرة بقوله ﴿ولبئس المهاد﴾
المهاد الفراش يأوي إليه المرء الراحة ، واللام وقعة في جواب قسم محذوف ، فأنه
تعالى يقسم تأكيذاً للوعيد بأن الذي يرى عزته مانعة له عن الاذعان للأمر بتقوى الله

سيكون مهاده ومأواه النار ، وهي بئس المهاد وشره ، لراحة فيها ، ولا اضمحلت لاهلها . وقد بعث المفسرين انه عبر بالمهاد الذي هو مظنة الراحة للتمك

وأنت ترى من هذا التقرير ومن كون التقسيم حقيقياً في نفسه شارحاً لما عليه البشر في حياتهم ، متصلاً بما قبله ملتئماً معه في السياق أن الكلام عام ، وما روي من أن له سبباً خاصاً لا ينافي عمومته . وقد اختلفوا في السبب والآيات فروى ابن أبي حاتم من طريق سعيد أو عكرمة عن ابن عباس أنها نزلت في رجلين من المنافقين قالوا لما ملكت سرية للمسلمين : يا ويح هؤلاء المفتونين الذين هلكوا هكذا ، لاهم قعدوا في أهلهم ، ولا هم أدوا رسالة صاحبهم . وروى ابن جرير عن السدي أنها نزلت في الاخنس بن شريق أقبل إلى النبي ﷺ وأظهر له الاسلام فأعجبه ذلك منه ، ثم خرج فمزرع لقوم من المسلمين وحر فأحرق الزرع وعقر الحمر . فان صححت الروايتان فالظاهر أن من جعلهما سبباً حمل الآيات عليهما في الجملة ، وإلا فأنت ترى أن الآيات ليست مطابقة للحادثين ، اللتين ان صحتا كانتا في وقتين متباعدتين ، فان الاخنس من مشركي مكة

ثم ذكر الفريق الآخر المقابل لمن تأخذه العزة إذا ذكر بالله تعالى فقال

ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله ﷻ وكان مقتضى المقابلة أن يوصف هذا الفريق بالعمل الصالح مع عدم الدعوى والتبجح بالقول ، أو مع مطابقة قوله لعمله ، وموافقة لسانه لما في قلبه ، والآية تضمنت هذا الوصف وإن لم تنطق به ، فان من يشري أي يبيع نفسه لله لا ينبغي أنما لها غير مرضاته ، لا يتحري إلا العمل الصالح وقول الحق ، مع الاخلاص في القلب ، فلا يتكلم بلسانين ، ولا يقابل الناس بوجهين ، ولا يؤثر على ما عند الله عرض الحياة الدنيا وما عند كبرائها ومترفها من القصور ، ومتاع الزينة والغرور ، وهذا هو المؤمن الذي يعتد القرآن بإيمانه . وأما الايمان القولي الذي يظهر على اللسان ولا يمس سواد القلوب ، ولا تظهر آثاره في الاعمال ، ولا يحمل صاحبه شيئاً من الحقوق لدينه وماله ، ولا تقومه وأمنه ، فلا قيمة له في كتاب الله ، ولا يقام اصحابه وزن في يوم الله

جل يخشى أن يقال لذويه يومئذ (٤٦ : ٧٠) أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون)

ذكر الله تعالى هذا الشراء في آيات أخرى تشرح هذه الآية وتفسرها وتبين أن المؤمنين باعوا وأن الله قد اشترى كقوله عز وجل (٩ : ١١١) إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة) إلى قوله (فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم) وقد وصف هؤلاء المؤمنين في الآية التي بعدها بما يجب على المؤمن أن يجعله معها ميزاناً للإيمان وأهله. فففس المؤمن لله لا للشهوة واللذة البهيمية والمسكر الشيطاني، فمن أثر شهوته على مرضاة ربه، والتزام حدوده، والمحافظة على هدي دينه، فلا وزن له في سوق هذا البيع ولا قيمة. ولقد نعلم أنه ليكبر هذا القول على المفتونين بزينة الحياة الدنيا، ولذاتها وقصورها، وخجورها وحورها، وإن كانوا يزعمون أنهم من زعماء الدين، وخدمته الخالصين لأن الحق مر في مذاق المبطلين

ولاية لا تنافي ما دلت عليه آية الدعاء من أن الاسلام شرع لنا طلب الدنيا من الوجوه الحسنة كما شرع لنا طلب الآخرة، بل هي مؤيدة لها، فإن طلبها من الطرق الحسنة أي المشروعة النافعة لا ينافي مرضاة الله تعالى ببيع النفس له، ولذلك لم يحرم سبحانه علينا إلا ما هو ضار بفاعله أو غيره، فلنا أن نتمتع بها حالاً ونكون مثاين مرضيين عند الله تعالى. قال بعض الصحابة لما قال عليه الصلاة والسلام «وفي بضع أحدكم صدقة» يارسول الله أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال «أرايتم لو وضعها في حرام أكان عليه وزر؟» قلوا نعم، قال «فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر» رواه مسلم من حديث أبي ذر. ولكن الذي ينافي مرضاة الله تعالى وينافي سعادة الدنيا قبل الآخرة هو أن يستمرسل المرء في سبيل خطوئه وشهواته خارج الحدود المشروعة فيفسد في الأرض، ولا يبال أن يهلك بافساده الحرث والنسل

ثم إن هذا البيع لا يتحقق إلا إذا كان المؤمن يجود بنفسه وبماله في سبيل الله

إذا مست الحاجة لذلك فكيف إذا ألحأت إليه الضرورة كجهاد أعداء الملة والامة عند الاعتداء عليهما أو الاستيلاء على شيء من دار الاسلام، وحينئذ يكون فرضاً عينياً على جميع الافراد، فمن قدر على الجهاد بنفسه وجب عليه، ومن قدر عليه بماله وجب عليه، ومن قدر عليه بهما وجب عليه. وسبيل الله هي الطريق الموصلة إلى مرضاته، وهي التي يحفظ بها دينه ويصلح بها حال عباده. ومعنى هذا أنه لا يكتفى من المؤمن أن يكتسب بالحلال، ويتمتع بالحلال، وينفع نفسه ولا يضر غيره، وأن يصلي ويصوم، لأن كل هذا يعمل لنفسه خاصة، بل يجب أن يكون وجوده أوسع، وعمله أشمل وأنفع، فيساعد على نفع الناس ودرء الضرر عنهم، بحفظ الشريعة، وتعزيز الامة بالمال والاعمال، والدعوة إلى الخير، ومقاومة الشر، ولو أقضى ذلك إلى بذل روحه. فان قصر في واجب يتعلق بحفظ الملة وعزة الامة من غير عذر شرعي فقد أثر نفسه على مرضاة الله تعالى، وخرج من زمرة كلة المؤمنين. الذين باعوا أنفسهم لله تعالى، وكان أكبر إجرأ مما ممن يقصر في واجب لا يضر تقصيره فيه إلا بنفسه، ذلك أن الحكمة في تربية النفس بالاعمال الحسنة والاخلاق الفاضلة، هي أن ترتقي ويتسع وجودها في الدنيا فيعظم خيرها وينتفع الناس بها، وتكون في الآخرة أهلاً لجوار الله تعالى مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، الذين بدلوا أنفسهم وأموالهم وجعلوا أكثر أعمالهم خدمة للناس وسعيًا في خيرهم. فان الله تعالى لم يشتر أنفسهم المؤمنين من الحظوظ والشهوات الشخصية الحسية لأجل نفعه سبحانه أو دفع الضر عنه جل شأنه، فهو غني عن العالمين، وإنما شرع هذا ليكون المؤمن باتساع وجوده وعموم نفعه سيد الناس، فليعرض مدعو الايمان أنفسهم على الآلة وأمثالها، فمن ادعى أنه من الذين باعوا أنفسهم لله، وأثروا مرضانه على مناسواه، فليعرضه غيره من النصفين عليها، ولا سيما إذا ادعى أنه واسع الوجود خادماً للامة والملة، لاجرم أن كثيراً منهم لا يصدق عليهم شيء من ذلك، ولا قوله تعالى (٤٩: ١٤) قالت الاعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الايمان في قلوبكم) فان معنى أسلمنا أنقذنا لأحكام الدين الظاهرة وأخذنا بأعماله البدنية. وكثير ممن تعجبك أقوالهم من صنف المسلمين لا يصلون

ولا يصومون ، ولا يزكون ، ولا يحجون ، ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون .
ويأتون كثيراً من الكبائر جهاراً ، ويصرون عليها إصراراً

ذكر تعالى أن من الناس من يشترى أي يبيع نفسه وهم المؤمنون الخالص كما
في الآيات الأخرى ، والأخبار بذلك أقوى في طلبه من الأمر به وأدل على تقريره ،
لأن الأمر به لا يدل على امتثال المؤمنين والأخبار هو الذي يدل على الوقوع ،
فالقرآن يصور المؤمنين عاملين بمقتضى الإيمان

ثم بين أنه مasher هذا إلا رافة بعباده فقل ﴿ والله رؤوف بالعباد ﴾ إذ
يرفع همهم بعضهم ، ويعلي نفوسهم ، حتى يبذلوها في سبيله لدفع الشر والفساد عن
عباده ، وتقدير الحق والعدل والخير فيهم ، ولولا ذلك غلب شر أولئك المفسدين
في الأرض حتى لا يبقى فيها صلاح (٢ : ٢٥١) ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض
لفسدت الأرض (وإن هذا يؤيد ما قلناه في إزالة وهم من يتوهم أن يبيع النفس
يؤذن بترك الدنيا ، وأن لا يتمتع المؤمن نفسه ببدانها ، ولو كان كذلك وهو من
تكليف ما لا يطاق لما قرنه الله تعالى باسمه الرؤوف الدال على سعة رحمته بعباده .
فيا لله ما أعجب بلاغة كلام الله ، وما أعظم خذلان المعرضين عن هداية

ومن الدقة الغريبة في هذا التعبير أن جاز بيان حقيقة عظيمة وهي أن وجود هذه
الامة في الناس رحمة عامة للعباد لا خاصة بهم ، والأمر كذلك ، بل كثيراً ما ينتفع
الناس بعمل الصالحين من دينهم ، إذ تظهر ثمرات إصلاحهم من بعدهم . وإن على
من يبذل نفسه ابتغاء مرضاة الله تعالى في نفع عباده أن لا يتهور ويلقي بنفسه في
التهلكة ، بل عليه أن يكون حكيماً بقدر الأمور بقدرها ، إذ ليس المقصود بهذا الشراء
إهانة النفس ولا إذلالها ، وإنما المراد دفع الشر . وتقدير الخير العام رافة بالعباد .
وإثارة للمصلحة العامة . وإن أمة يتصف جميع أفرادها أو أكثرهم بهذا الوصف
لجديرة بأن تسود العالمين ، وكذلك ساد سلفنا الصالحون ، وإن أمة تحرم من
هذا الصنف الخلقة بأن تكون مستعبدة لجميع المتغلبين ، وكذلك استعبد خلفاء
الطالحون ، فهل نحن معتبرون ؟

(٢٠٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السَّلَامِ كُلَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا
خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٢٠٩) فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ
مَا جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَاذْكُرُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢١٠) هَلْ
يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلُلٍ مِّنَ الْعَمَامِ وَالْمَلَأْكَاتِ وَقُضِيَ
الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ

بعد ما بين عز وجل اختلاف الناس في الصلاح والفساد والاصلاح والافساد
أراد أن يهتدينا إلى ما يجمع البشر كافة على الصلاح والسلام، والوفيق الذي قرره
الاسلام، وهو ما يقتضيه الايمان بالله واليوم الآخر، وجعل هذه الهداية بصيغة

الامر وشرف أهل الايمان به فقال ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السَّلَامِ كُلَّةً﴾
الح السلم المسالمة والانقياد والتسليم، فيطلق على الصلح والسلام، وعلى دين الاسلام
قرأ ابن كثير ونافع والكسائي السلم بفتح السين والباقون بكسر هاء وهما لغتان. وقد
فسره بعض المفسرين بالصلح وبعضهم بالاسلام وعليه الجلال، وقال في تفسير
«كافة» حال من السلم أي في جميع شرائعه. واقول إن أساسها الاستسلام لأمر
الله والاخلاص له، ومن أصولها الوفاق والمسالمة بين الناس وترك الحروب والقتال
بين المؤمنين به. واللفظ يشمل جميع معانيه التي يقتضيها المقام، والامر بالدخول فيه
يشعر بأنه حصن منيع للداخلين في كنفه، وهول الكمانين منهم أمر بالثبات والدوام
كقوله تعالى (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ) وإن دونهم أمر بالتمكن منه وتحري الكمال
فيه، وعلى القول بأن الخطاب فيه لأهل الكتاب أو كل من يؤمن بالله
فالدخول على حقيقته. يقول لهم إذا لم تدخلوا في دين الاسلام الذي أكله لحقه
كتابة بيعة خاتم النبيين، فلا ينغممكم إيمانكم به مع بقائكم على تماديكم وتفرقكم ودين
الله جامع لا تفرق فيه. وهاك ما كتبه بعد حضور درس تفسير شيخنا الالية.
هذه كلمة عظيمة، وقاعدة لوبي جميع علماء الدين مذاههم عليها لما نفاقم أمر

الخلاف في الامة ، ذلك أنها تفيد وجوب أخذ الاسلام بجملة ، بان ننظر في جميع ما جاء به الشارع في كل مسألة من نص قولي وسنة متبعة وفهم المراد من ذلك كله ونعمل به ، لأن يأخذ كل واحد بكلمة أو سنة ويجملها حجة على الآخر ، وإن أدت إلى ترك ما يخالفها من النصوص والسنن ، وحملها على الذسخ أو المسخ بالتأويل ، أو تحكيم الاحتمال بلا حجة ولا دليل ، ولو أنك دعوت العلماء إلى العمل بالآية على هذا الوجه — الذي عرفوه ولم ينكره على قليله أحد منهم ، وإن رجح بعضهم في التفسير غيره عليه — لولوا منك فراراً ، وأعرضوا عنك استكباراً ، وقالوا مكر مكراراً ، إذ دعا إلى ترك المذاهب ، وحاول إقامة المسلمين على منهج واحد . ومن آيات العبرة في هذا المقام اننا نجد في كلام كثير من علمائنا هدى ونوراً .

توابعته الامة في أزمتهم لاستقامت على الطريقة ، ووصلت إلى الحقيقة ، بعد الخروج من مضيق الخلاف والشقاق ، إلى مجبوحة الوحدة والاتفاق ، والسبب في بقاء الغلب .

سلطان الخلاف والنزاع ، فشر الجبل وتمصب أهل الجاه من العلماء لمذاهبهم التي اليها ينسبون ، وبجاهها يمشون ويكرمون ، وتأييد الامراء والسلاطين لهم استعانة بهم على إخضاع العامة ، وقطع طريق الاستقلال العقلي والنفسي على الامة ، لأن هذا أعون لهم على الاستبداد ، وأشد تمكيناً لهم مما يهوون من الفساد والافساد ، إذ اتفق كلمة علماء الامة واجتماعها على أن الحق كذا بديل كذا ، ملزم للحاكم باتباعهم فيه ، لأن الخواص إذا اتحدوا تبعهم العوام ، وهذه هي الوسيلة الفردة لا بطل استبداد الحكام ، وهذا التفسير مؤيد بالتمحي على الذين جعلوا القرآن عضيض ، والانسكار على الذين يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض ، أي يعملون ببعضه على انه دين ، وبشر كون بعضاً بتأويل أو غير تأويل ، كشأن من لم يصدق بأنه من الله ، فوجود أخذ القرآن والذين بجملة ، وفهم هدايته من مجموع ثابت عن جاء به ، أمر مقرر في ذاته سواء فسرت به الآية أم لا . لأن الآيتين اللتين أشرنا اليهما آنفاً في جعل القرآن عضيض ، وفي الايمان ببعضه والكفر ببعضه وما في معنى ثما من النصوص تثبته وذهب بعض المفسرين إلى أن (كافة) ترجع إلى الذين آمنوا ، أي ادخلوا

في الاسلام جميعاً لا يتخفف منكم أحد ، وصاحب هذا القول يصرف نداء (الذين آمنوا) إلى أهل الكتاب أي آمنوا بالانبياء السابقين والوحي ، حتى لا يرد عليه أن الايمان يستلزم الدخول في الاسلام فيكون أمر المؤمن بالاسلام من تحصيل الحاصل ، ووجه اللزوم أن الايمان هو التصديق الجازم مع إذعان النفس ، فمن صدق بالشيء وأذعن له فقد دخل في أعماله واتقاد لأحكامه لا محالة

وأما قول الجماهير ان العلم لا يوجب العمل فهو على إطلاقه خطأ ، فالعلم التصديقي الاذعاني المتعلق بالمنافع والمضار يوجب العمل به ما لم يارضه في موضوعه علم أقوى منه ، وأما العلم التصوري والعلم النظري المعارض بعلم ضروري أو نظري أقوى منه فلا يوجبان العمل ، وقد صرح حجة الاسلام الغزالي وشيخ الاسلام ابن تيمية والعلامة الشاطبي صاحب الموافقات بأن العلم الصحيح يستلزم العمل ، والحق التفصيل الذي أشرنا اليه آنفاً ، وآيات الكتاب العزيز دالة عليه ومعرزة له ، ويبدل لمن قال ان الآية نزلت في أهل الكتاب ما رواه ابن جرير عن عكرمة قال قال عبد الله بن سلام وثعلبة وابن يامين وأسد وأسيد ابنا كعب وسعيد بن عمرو وقيس ابن زيد كلهم من يهود : يا رسول الله يوم السبت نعظمه فدعنا فلمنسبت فيه ، وان التوراة كتاب الله فدعنا فلنقم بها بالليل ، فنزلت — فالخطاب على هذا لليهود خاصة لا لأهل الكتاب عامة ، ولكن الرواية غير صحيحة وهي تم على نفسها فهي موضوعة للآية ، وهناك رواية أخرى بمعناها

والوجه الثاني في تفسير السلم وهو المسالمة والوفاق يتوقف على لوجه الاول - أخذ الدين بجمليته - لانه أمر برفع الشقاق والتنازع وبالاعتصام بمجمل الوحدة ، وشد أواخي الاخاء ، ولا يرتفع الشيء إلا برفع أسبابه ، ولا يستقر الا بتحقيق وسائله ، وهو بمعنى قوله عز وجل (١٠٣: ٣) واعتصموا بمجمل الله جميعاً ولا تفرقوا) الآية. وقوله تعالى (٨ : ٤٦) ولا تنازعوا فتفشلوا) وقوله عليه الصلاة والسلام « لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم أعناق بعض » رواه الجماعة كلهم . وقد خالفنا كل هذه النصوص فتفرقنا وتنازعنا وشاق بعضنا بعضاً بشبهة الدين ، إذ اتخذنا مذاهب متفرقة كل فريق يتعصب لمذهب ويعادي سائر اخوانه المسلمين

لأجله ، زاعما أنه ينصر الدين ، وهو يأخذ به بتفريق كلمة المسلمين ، هذا سني يقاتل
شيعيا ، وهذا شيعي ينازل أبا ضيا ، وهذا شافعي يغري التنازع بالخنفية ، وهذا حنفي
يقيس الشافعية على الذمية ، وهو لاء مقلدة الخلف ، يحادون من اتبع طريقة السلف
(٦٨٤٣٣) أفلم يدبروا القول أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين ؟ ثم أمروا بهذا من
الله ورسوله ومن الائمة المجتهدين ؟ كلا بل كان التعادي والتنازع نحرافا عن الصراط
المستقيم ، واتباعا لخطوات الشيطان الرجيم ، فكما خالف المفرقون المتنازعون
ربهم في ذلك الامر ، خالفوا ما أتبعه به من هذا النهي ، اذ قال

﴿ولا تتبعوا خطوات الشيطان انه اسكن عدو مبين﴾ الخطوات جمع خطوة .
بالضم وبالفتح ، وهما ما بين قديمي من يخطو بنقلها في المشي ، أي لا تسيروا سيره .
وتتبعوا سبله في التفرق في الدين أو الخلاف والتنازع مطلقاً . وسبيل الشيطان
وخطواته هي كل أمر يخالف سبيل الحق والخير والمصلحة ، وهي ما عبر عنه بالسبل .
في قوله تعالى (٦ : ١٥٣) وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل
فتفرق بكم عن سبيله) فذكر تعالى أن له سبيلاً واحداً سماها صراطاً مستقيماً
لأنها أقرب طريق إلى الحق والخير والسلام ، وأن هناك سبلاً متعددة يتفرق
متبعوها عن ذلك الصراط وهي طرق الشيطان ، وقد علم من جعل التفرق تابعاً
لاتباع سبل هي غير صراط الله أن الذين يتبعون سبيل الله لا يتفرقون (٦ : ١٥٩)
إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً إني است منهم في شيء نعم قد يطرأ عليهم سبب
الخلاف والتنازع وإن كنتم متى شعروا بأن التنازع قد دب إليهم في أمر فزعوا
إلى محكيم الله ورسوله فيه برده إلى حكمهما ، كما أمرهم بقوله (٤ : ٥٩) فإن تنازعتم
في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير
وأحسن تأويلاً) أي مآلاً وعاقبة . فالآيات يفسر بعضها بعضاً إذا نحن أخذنا
القرآن بجماعته كما أمرنا .

وقال الاستاذ الامام : هذه الآيات حجة لعلماء الاصول القائلين بأن الحق
واحد لا يتعدد . وبآيات أصحاب هذا الاصل فرضوا على أنفسهم الاجتماع لكل

خلاف يعرض لهم والبحث عن وجه الحق فيه بلا تعصب ولا مراء ، حتى إذا ما طاهر لهم أجمعوا عليه ، وإذا هو لم يظهر لبعضهم ثابر من لم يظهر له على تطلابه باخلاص لا يعادى فيه أحداً ، ولا يجعله ذريعة لتفريق الكلمة

طريق الحق هو الوحدة والاسلام ، وطرق الشيطان هي مشاركات التفرق والخصام ، وهي معروفة في كل الامم ، ولكن الشيطان يزين طريقه ويسول للناس المنافع والمصالح في التفرق والخلاف ، فقد كانت يهود أمة واحدة مجتمعة على كتاب واحد هو صراط الله فسول لهم الشيطان فتفرقوا وجعلوا لهم مذاهب وطرقاً ، وأضافوا إلى الكتاب ما أضافوا ، وحرفوا من كله ما حرفوا ، واتبعوا السبل فتفرقت بهم عن سبيل الله ، حتى حل بهم الهلاك والدمار ، ومزقوا كل ممزق . وكذلك فعل غيرهم ، كأنهم رأوا دينهم ناقصاً فكمّلوه ، وقليلاً فكثروه ، وواحداً فعدّوه ، وسهلاً فصعبوه ، فقتل عليهم بذلك فوضعوه ، فذهب الله بوحدتهم ، حتى لم تكن عنهم كثرتهم ، وسلط عليهم الاعداء ، وأنزل بهم البلاء ، (٤٠ : ٨٥ سنة الله التي قد خلت في عباده) *

هذا هو المتبادر من خطوات الشيطان في هذا المقام . ومن خطواته طرق الفواحش والمنكرات كلها ولذلك قال تعالى في سورة النور (٢٤ : ٢١) ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر) وأما كون الشيطان عدواً مبيناً فذلك ان جميع ما يدعو اليه ظاهر البطلان بين الضرر لمن تأمل وعقل ، فمن لم يدرك ذلك في مبدأ الخطوات أدركه في غايتها ، عند ما يدوق مرارة مقبتها ، لا سيما بعد تذكير الله تعالى وهدايته عباده إلى ذلك ، فلا عذر لمن بلغته هذه الهداية إذا بقي على ضلّالته واستحب العمى على الهدى ولذلك قال عزّ شأنه

﴿فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي فإن

(*) قد ذكرنا طريق الخروج من ظلمات الخلاف إلى نور الوحدة الاسلامية في مقالات المصلح والمقلد من المجلد الرابع من المنار وفيها رأي الفزائي في ذلك وقد طبعت في كتاب مستقل ثم زدناها يا ناو طبع في كتاب سمي (الوحدة الاسلامية)

وَلَمْ يَحْدِثْ عَنْ صِرَاطِ اللَّهِ وَهُوَ السِّلْمُ إِلَى خُطَاوَاتِ الشَّيْطَانِ وَهِيَ طُرُقُ الْخِلَافِ وَالْإِفْتِرَاقِ وَالْبَاطِلِ وَالشَّرِّ ، مِنْ بَعْدِ أَنْ يَبَيِّنَ اللَّهُ تَعَالَى لَكُمْ أَنْ سَبِيلَهُ وَاحِدَةٌ وَهِيَ السِّلْمُ ، وَأَنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ، وَأَمْرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوهُ عَدُوًّا وَتَجْتَنِبُوا طَرِيقَهُ وَخُطَاوَاتَهُ ، ثُمَّ فَصَّلَ لَكُمْ مِنْ ذَلِكَ مَا اضْطُرَرْتُمْ إِلَيْهِ ، وَأَكْثَرَ النَّهْيِ عَنْ شَرِّ تِلْكَ الطَّرِيقِ وَأَشْأَمِهَا وَهِيَ طُرُقُ التَّفَرُّقِ وَالاخْتِلَافِ — فَاعْلَمُوا أَنَّ أَمَامَكُمْ أَمْرًا جَلِيلًا ، وَأَخَذًا وَبِيلًا ، ذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لِعِزَّتِهِ لَا يَنْسِي مَنْ يَنْسِي سُنَّتَهُ وَيَزُلْ عَنْ شَرِيعَتِهِ ، بَلْ يَأْخُذْهُ أَخْذٌ عَزِيزٌ مُقْتَدِرٌ ، وَلِحُكْمَتِهِ قَدْ وَضَعَ تِلْكَ السُّنَنَ فِي الْخَلْقِ ، وَهَدَى إِلَيْهَا النَّاسَ بِمَا أَنْزَلَ مِنْ الشَّرِيعَةِ ، وَمِنْ ذَلِكَ أَنْ جَعَلَ لِكُلِّ ذَنْبٍ عِقَابًا ، وَجَعَلَ الْعِقَابَ عَلَى ذُنُوبِ الْإِسْمِ أَثَرًا مِنْ آثَارِهَا لِأَزْمَانِهَا حَتْمًا . فَكُنْ أَنْتَ تَعَالَى قَالِ فَاعْلَمُوا أَنَّهُ يَحِلُّ بِكُمْ الْعِقَابُ لِأَنَّهُ عَزِيزٌ لَا يَغْلِبُ عَلَى أَمْرِهِ ، وَحَكِيمٌ لَا يَهْمِلُ أَمْرَ خَلْقِهِ ، وَلَسْكَنَ هَذَا التَّعْبِيرُ أَكْبَلُ لَانَّهُ بَيَانٌ لِلْحُجَّةِ ، وَتَقْرِيرٌ لِلْبُرْهَانِ بِالْإِشَارَةِ إِلَى مَقْدَمَاتِهِ ، اِكْتِفَاءً بِهِ عَنْ ذِكْرِ النَتِيجَةِ وَهُوَ مِنْ ضُرُوبِ إِيجَازِ الْقُرْآنِ ، الَّتِي لَمْ تَعْدُ فِي كَلَامِ إِنْسَانٍ .

قال لاستاذ الامام : انه ذكر من صفاته تعالى ما هو دليل العقاب وهو ما لا مطمع في زواله ، ولا هزء في الدين أكبر من ظن المغرور أنه ينال جنة عرضها السموات والأرض وفيها من النعيم والرضوان ما لم يخطر على قلب بشر ، بغير الاعمال التي أرشدت إليها آيات الله تعالى ، مينة أن العقوبات على تركها من آثار صفاته القديمة التي لا يلحقها تغيير ، ولا تؤثر فيها الحوادث بتبديل ولا تحويل اه ونقول نحن على طريقته أن ظن المغرورين بأنه يكون لهم السلطان والخلافة في الأرض بمجرد دعوى الإيمان والاسلام ، ولو مع بعض لاعمال البدنية من غير إقامة العدل في الناس والعمارة والاصلاح في الأرض ، هو من الهزء بآيات الله في كتابه ، وآياته في خلقه ، فأنها متفقة على أن الأرض يرثها عباد الله الصالحون لعمارتها وإقامة العدل فيها (١١٦ : ١١٧) وما كان ربك ليهلك القرى (أي الامم) (بظلم) منهم أي شرك وكفر ، أو منه لهم (وأهلها مصلحون) أي والحال أنهم مصلحون في أعمالهم وسياساتهم وانما يهلكها اذا ظلموا وافسدوا فيها

والآيتان المفسرتان آنفا وما في معناها كقوله تعالى (٣ : ١٠٣) واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا (إلى قوله (١٠٥) ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم اليينات وأولئك لهم عذاب عظيم) وقوله (٦ : ١٥٩) ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء (كلها هادمة للتقاليد التي فرقت الامة وجعلتها شيعاً ، حتى صار بأسها بينها شديداً ، فسفكت دماءها بأيديها ، ومرقت دنياها بتمزيق دينها ، وكان من أمرها بعد ذلك ما ترى سوء عاقبته في كل شعب وكل قطر

ثم بين تعالى غاية الوعيد المشار إليه في الاسمين الكريمين فقال ﴿هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة﴾ وقد غير الاسلوب بالالتفات عن الخطاب والامر إلى الحكاية عن الزالين عن صراط الله بضمير الغائب. والحكمة في الالتفات تناول هذا الوعيد لجميع من زل من المؤمنين المخاطبين في الدخول في السلم والمنهين عن ضده ، ومن زل من غيرهم ، أو هي الايذان بأن الزالين لا يستحقون شرف الخطاب الالهي

الاستفهام في الآية بمعنى النفي ، وينظرون بمعنى ينتظرون ، وهي كثيرة الاستعمال بهذا المعنى في الكتاب العزيز ولا سيما في أمور الآخرة كقوله تعالى (٤٧ : ١٧) هل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة (— (٣٦ : ٤٩) ما ينظرون إلا صيحة واحدة) وإتيان الله تعالى فصره الجلال وآخرون ببيان أمره أي عذابه كقوله في آية أخرى (١٦ : ٣٣) هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي أمر ربك (أي فهو بمعنى ما جاء من التخويف بعذاب الآخرة في الآيات الكثيرة الموافقة لهذه الآيات في أساليبها . وأقر الاستاذ الامام الجلال على ذلك وبين في الدرس أن هذا الاستعمال من أساليب العرب المعروفة من حذف للضاف واسناد الفعل إلى المضاف اليه مجازاً وأوضحه أمم الايضاح . فهو على حد (واسأل القرية) ومن المفسرين من قال أن الاسناد حقيقي وإنما حذف الفاعل للعلم به من الوعيد السابق ، أي هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله بما وعدهم به من الساعة والعذاب ؟

وعده آخرون من التشابهات فقالوا ان الله تعالى يأتي بذاته ولكن لا كانيان
 البشر بل اتيانه من صفاته التي لا نبحت عن كيفيتها اتباعا للسلف . وأما
 تأويل الاتيان بما نقله البيهقي عن الأشعري فلا نذكره لانه مما يزيد المعنى بعدا عن الفهم
 وقد يقال انه ليس من مقتضى مذهب السلف أن يجعل كل ما يسند الى الله تعالى
 من التشابهات التي لانفهم بحال ، ولا تفسر ولو باجمال ، فحسبنا أن نقول على رأي
 من فسر إتيان الله هنا بإتيان أمره وما وعد به من العذاب ، أو إتيانه بما وعد به
 إتيان نفوذ اليه تعالى كيفية ذلك ، وبذلك نكون على طريقة السلف في التفويض ،
 مع العلم بأن الله تعالى ينذر الذين زلوا عن صراطه وفرقوا دينه بأمر معروف في
 الجملة لا بشيء مجهول مطابق . ومما يدلنا على أن المراد بالآية ما ذكرنا قوله تعالى
 (٢٥٠، ٢٥١) ويوم تشق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلا) مع الآيات الكثيرة
 الناطقة بأن قيام الساعة وخراب العالم يكون (إذا السماء انشقت) وانتشرت كواكبها
 الخ وإنما يأتي بذلك الله تعالى بتغيير هذا النظام الذي وضعه لارتباط الكواكب
 وحفظ كل كوكب في مكانه ، وسيأتي لمذهب السلف في الاتيان توجيه أقرب من هذا
 وأما ظلل الغمام فهي قطع السحاب الاول وهي جمع ظلة بالضم كغرف جمع غرفة
 وهي ما أظلك ، والثاني جمع غمامة كسحاب وسحابة وزنا ومعنى ، سمي بذلك لانه يغم
 السماء أي يسترها ، وخص بعضهم الغمام بالمسحاب الأبيض ، وزاد بعض آخر
 الرقيق ، وفيه ان الأبيض الرقيق لا يطر والعرب تسمي البرد حب الغمام . وذكر
 المفسرون ان إتيان أمر الله أو عذابه في الغمام عبارة عن مجيئه من حيث ترجى
 الرحمة بالمطر ، وذلك أبلغ في تمثيل هول العذاب وفظاعته لان الخوف إذا جاء من
 موضع الأمن كان خطبه أعظم ، والعذاب إذا فاجأ من حيث ترجى الرحمة كان
 وقعته ألم ، كدورق لعاد قوم هود (٤٦: ٢٤) قالوا هذا عارض ممطرنا بل هو ما استعجلتم
 به يوم فيها عذاب أليم) وهو مبني على أن الغمام مظنة المطر ، والظاهر أن من قال ان
 الغمام هو السحاب الأبيض لا يعني به تلك السحاب البيضاء الرقاق المرتفعة التي تظهر
 في أيام الصيف وإنما أراد به ذلك السحاب المسف الثقله بالمطر الذي هو أقرب إلى
 البياض منه إلى السواد .

وقال الاستاذ الامام ان الحكمة في نزول العذاب في الغمام انزاله فجأة من غير تمهيد يشذره ، ولا توطئة توطن النفوس على احتماله ، وذلك ابلغ في هولاه [مامن دهي بالامر كالمتد] وهو ذلك الغمام الذي يحدث عن تخريب العالم فجأة فيأتيهم العذاب ، قبل أن يقبذ الغمام الناشيء عن الخراب . وهذا القول يتفق مع الاول وهو أقرب إلى معنى قوله تعالى في الساعة (١٨٧،٧) لا تأتاكم الا بغتة)

ويجب أن تكون هذه الآيات عبرة للمؤمن ترغبه في المبادرة الى التوبة ، لئلا يفاجئه وعد الله تعالى وهو غافل ، فان لم يفاجئه قيام الساعة العامة التي بها يهلك هذا العالم كله ، فاجأه قيام قيامته بموته بغتة ، فان لم يمت بغتة جاءه مرض الموت بغتة ، حتى لا يقدر على العمل ، وتدارك الزلل

واذ جرينا على هذه الطريقة التي أرشدتنا اليها الآية السابقة على الوجه الاول في تفسيرها فحملنا بعض الآيات على بعض واستخرجنا المعنى من مجموعها كانا أن نقول : اذا وقعت الواقعة ، وقرعت القارعة ، وكورت الشمس ، وتناثرت الكواكب ، وانثقت السماء شقاء ، ورجت الارض رجاء ، وبست الجبال بساء ، فكانت أولا كالمهن المنفوش ثم صارت هباء منبثاء ، فان مادة هذا الكون تعود كما كانت قبل التكوين أي مادة سديمية وهي ماعبر عنه في بدء التكوين بالدخن ، وفي الحكاية عن الخراب بالغمام . وان كثيراً من علماء الهيئة الغربيين ليتوقعون خراب هذا العالم بقارعة تحدث من اصطدام بعض الكواكب ببعض بحيث تبطل الجذب العام الذي به قام هذا النظام ، وهو في معنى ما ورد من تشقق السماء بالغمام ، وهذا المعنى لم يكن يخطر ببال أحد على عهد نزول القرآن

وأما تيان الملائكة هنا فهو بمعنى نزولهم في قوله (٢٥ : ٢٥) ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلاً) أي وتأتيهم الملائكة الموكلة بكل ما قضاه الله يومئذ . وقوله ﴿ وقضي الامر ﴾ جملة حالية أي كيف ينتظرون غير ذلك ،

وهو أمر قضاه الله وأمره فلا مفر منه ﴿ والى الله ترجع الامور ﴾ فيضع كل شيء في موضعه الذي قضاه فهو الاول ومنه بدأت الاشياء ، وهو الآخر واليه

ترجع وتصير ، وهو بكل شيء محيط (٢٣: ٥٥) معشر الجن والانس ان استطعتم
أن تنفذوا من أقطار السموات والارض فانفذوا، لا تنفذوا الا بسلطان ٣٤
فبأي آلاء ربكما تكذبان)

وإذا كان كل ما سنه الله تعالى من النظام خلقه حتماً مقضياً لا يضل واضعه -
ولا ينسى ، فعلى من زل عن صراطه واتبع خطوات الشيطان أن يبادر بانوبة
والرجوع الى الحق قبل أن يحيط به زلله ، ويسله عمله ، وقبل أن تقوم قيامته أو
قيامه الناس أجمعين ، فيجازى على زلله و (كل امرئ به كسب رهين) وأجدر
الناس بالمبادرة إلى هذه التوبة علماء الامة الذين أسلوها بخلافهم وتفرقهم ، فعنهم أن
يحكموا كتاب الله وسنة رسوله فيما شجر بينهم من غير تعصب ويساموا تسلياً

وذكر الاستاذ الامام في تفسير الآية وجهاً آخر يعد بياناً للقول بأن الاتيان
مسند إلى الله تعالى على أنه هو الذي يأتي على ظاهر مذهب السلف لا عذابه ولا
يومه الموعود ، وهو من الآيات الكبرى ، وأسرار المعارف العليا ، فقال ما مثاله :

من الناس من يؤمن بالله تعالى وصحة دينه إيماناً موافقاً لما جاء في كتابه -
ويكون في إيمانه على حق اليقين ، والاطمئنان الذي لا زلزال فيه ولا اضطراب ،
وأهل هذا اليقين هم الذين يقال ان الله حاضر عندهم وأنه معهم أينما كانوا ، لأن
معرفة ثابتة في عقولهم ، والتوكل عليه قد لا بس قلوبهم ، وهم الذين قال فيهم :
لو كشف الحجاب ما ازددت يقيناً . ومنهم من ليس له تلك المعرفة وهذا اليقين ،
فلا يقال ان الله عندهم لأن ما حضر في عقده هو غير ما وصف الله تعالى به نفسه ،
وشهدت به آياته في كتابه وآياته في خلقه ، ثم هو ليس على يقين مما عنده ، أولئك
أصحاب الظنون وأرباب الشكوك ، وجملة التقاليد الذين زلوا من بعد ما جاءتهم
البيئات ، فاتخذوا بينهم وبين الله حجاباً ووسطاء ، وشبهوه بخلقهم في كثير من
الشئون ، فهم غائبون عن الله تعالى ومحجوبون عن ربهم ، بحيث لا تطوف معرفته
الحقيقية بعقولهم ، ولا تلبس عظمتهم وكأته قلوبهم ، فإذا كان يوم القيامة وكشف
الحجاب عرفوا الله ربهم الحق ، وتبين لهم ما كانوا عليه من الباطل ، فذلك إتيان الله لهم ،

أي يأتيهم من معرفته ما كانوا غائبين عنه ومحرومين منه في الدنيا . والاتيان يكون في المعقولات ، كما يكون في المحسوسات ، فلا حاجة إلى التأويل

ان هؤلاء الزالين عن صراط الله تعالى صنفان : صنف اعتقدوا الباطل حقاً فلم يعرفوا حقيقة التوحيد ورجوع كل أمر إلى من أعطى كل شيء خلقه على سنن ثابتة ، ولا غير التوحيد من أصول الايمان ، وصنف اتبعوا الظن ، وهاموا في أودية الوهم ، فلم يكونوا على بينة من هذا الامر ، فإذا ما تجلى الله تعالى في ذلك اليوم على الأرواح ، وزالت الحجب التي كانت دونها في سجن الاشباح ، زال جهل الجاهلين ، وانكشف ظن الظانين ، وبطل وهم الواهمين ، وعرف الجميع رب العالمين ، بما جاءهم من الحق اليقين ، فذلك مجي الله تعالى وإتيانه في يوم الدين . هذا ما يجي به مسألة الاتيان على مذهب السلف

وأما كون هذا الاتيان في ظلل من الغمام فهو من الامور الاخرية الغيبية التي قلنا مراراً أننا لا نبحث عن حقيقتها فكون معرفة الله تعالى واليقين به مما يحصل لتجاهلين والغافلين بحصول ظلل من الغمام نفوض سره إلى الله تعالى ، وما يدرينا ان في ذلك الغمام آيات بينات ، وحججاً باهرات ، وإتيان الملائكة على هذا التأويل أظهر منه في التأويل الاول لان المقام مقام تمثيل ظهور سلطان الله تعالى وعظمته ، واستعراق القلوب في الخضوع لجلاله عندما يعيشها نور معرفته ، ولا ريب أن حضور الملك في جنده الأكبر ، هو آيين لكمال العظمة وأظهير ، ولذلك قال في سورة الفجر (وجاء ربك والملك صفاً صفاً) وقال في سورة النبأ (يوم يقوم الروح والملائكة صفاً لا يتكلمون الا من أذن له الرحمن وقال صواباً)

والمراد بهذا المعنى الذي قرره الاستاذ الامام ترميز هذا المذهب من الاتهام ، ولا يعني ان هذا بيان لكيفية الاتيان في اقام . ويمكن أن يقال ان الغمام في الآية اشارة إلى الحجاب او الرداء الذي ورد في حديث أبي موسى عند الشيخين وغيرهما « وما بين القوم وبين أن يروا ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه » وبينه أنه ورد في أحاديث أخرى ان النبي ﷺ قال « سألت جبريل عليه السلام هل تروى ربك ؟ فقال ان بيدي سبعين حجاً با من نور »

وقال الغزالي وغيره من أئمة الصوفية إن الحجب أي الموانع التي تمنع العبد من معرفة الحق كثيرة أكتفها نفسه وهذه الحجب تنزل يوم القيامة عن المؤمنين إلا حجاباً واحداً فيعرفون حق معرفة كاملة تستغرق الروح وذلك ما عبر عنه بالرؤية وبمجيء الله وإتيانه . فالتمام في هذا المقام التمثيلي إشارة إلى الحجاب الذي لا يحصل كمال المعرفة الممكنة بدونه وبذلك تتفق الآيات مع الأحاديث (١٦ : ٢٠) والله المثل الأعلى - ٤٢ : ١١ ليس مثله شيء)

ولنا أن نقول على هذه الطريقة مع تفسيرنا القمام بمادة التكوين الأولى كما مر أن الحجب التي تشغل الإنسان عن ربه في الدنيا حفظ النفس وشهواتها وشواغل الخس بالمحسوسات والفكر بالمذكرات - كلها ترتفع فلا تعود حائلة دون كمال العلم بالله تعالى . ما خلا سر الإيجاد والتكوين الأول ثم كان وبم كان وكيف كان؟ فهذا لا يرتفع في الدنيا للموقنين ، ولا في الآخرة للمقربين^١ هذا وأنت ترى أن الوجه الأول في تفسير الآية هو المتبادر والمنطوق على الآيات الأخرى في نذر القيامة وفي كل منها عبرة وهداية للمؤمنين وأما المرتابون الممارون فلا يزيدهم الكلام عن الآخرة إلا ظلمة ورجسا إلى رجسهم لأنهم محجوبون في حسهم حتى عن أنفسهم (كل حزب بما لديهم فرحون)

(٢١١) سَلِّ بْنِ إِسْرَءِيلَ كَمْ آتَيْنَهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَنْ يُبَدِّلْ شِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢١٢) زَيْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَالْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَسَخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَبِمِهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ

(١) قد بسطت مسألة الحجب هذه ومعنى سر الوجود والتكوين في الكلام على الرؤية من تفسير سورة الاعراف ص ١٢٨ - ١٨٩ ج ٩

تقدم أن في قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة) وجبين أحدهما أن المراد بالذين آمنوا أهل الكتاب وثانيهما أن المخاطب بها المؤمنون من المسلمين . وقوله عز وجل ﴿ سل بني اسرائيل كم آتيناهم من آية بينة ﴾ ظاهر على كلا الوجهين فهو على الأول بيان لحقيقة حالهم ، وأن الآيات والنذر لا ترجعهم عن ضلالهم ، فإذا استمروا على الجحود والحصام ، وأعرضوا عن الدعوة إلى الدخول في السلام ، فليس ذلك بدعا منهم ، ولا دليلا على أن الاسلام غير بين لهم ، فكلم جاءهم انبياءهم بالآيات البينات ، وكم بلامم الله تعالى بالحسنات والسيئات ، ولم يغن ذلك عنهم ، ولا صدمهم عن خلافهم وشقاقهم ، بل بدل الذين كفروا منهم قولاً غير الذي قيل لهم ، وبدلوا نعمة الله كفراً ، ﴿ ومن يبذل نعمة الله ﴾ عليه بالآيات الدالة على الحق ، والوحدة الداعية إلى الشكر ﴿ من بعد ما جاءته ﴾ بالبيان ، وأبرهت بالبرهان ، يجعلها مشاراً للتفرق والاختلاف وجعل الامة الواحدة شيعاً وأحزاباً ومذاهب وفرقاً يسوء التأويل وعصبيات الرياسة والسياسة ﴿ فان الله شديد العقاب ﴾ لمن تنكب سنته ، وخالف شرعته ، وهؤلاء المبدلون منهم ، فالعقاب الشديد نازل لا محالة بهم ، ولم يقل فان الله يعاقبهم ليشعرنا بأن هذا من سنته العامة فحذرنا أن نكون من الخالفين المبدلين ، توهمنا أن العقاب خاص ببعض الغابرين ، كما يلغو كثير من الجاهلين ، فانت ترى أن هذه الجملة في معني قوله (فان زلتم من بعد ما جاءكم البينات فاعلموا أن الله عزيز حكيم) والتقييد بتجيء البينات والآيات دليل على أن من لم تبلغه الدعوة الصحيحة بالبينات والدليل لا يخاطب بهذا الوعيد ، فحسبه حرمانه من هداية الانبياء عليهم السلام ، فكيف يطالب مع ذلك بما لا يعلم ، ويجعل مع عاند الحق من بعد ظهوره له في قرن

وفي هذه الهداية أيضاً بيان أمر عظيم يغفل عنه العلماء والاذكياء ، وهو أن الآيات والبيانات إنما تفيد النفوس الخيرة المستعدة لقبول الحق المتوجهة إلى

حطبه ، وأما النفوس الحبيثة التي يفضحها الحق ويظهر باطلها الذي تحب ستره ،
والاسترسال فيما هي فيه من اللذة الحسية والجاه الباطل ، فإن الآيات والبيّنات
لا تزيدّها الا مماراة وجدلا في القول وجحوداً وعناداً بالفعل ، هذه سنة الله
تعالى في البشر عامة ، لا في بني اسرائيل خاصة — كذلك كان وكذلك يكون
وسيكون وسوف يكون الى ما شاء الله

وأما تفسير الآية على الوجه الآخر المختار في المخاطبين بالدخول في السلم
فهو أنها هادية الى الاعتبار بسنة الله تعالى في الامم الماضية على ما بينا آنفاً ، كأنه
يقول يا أيها المؤمنون بحمد عليه السلام — عليكم بالدخول في السلم والاتفاق ، والاعتصام
بالاسلام في جملة ، لا تفرقوه ولا تفرقوا فيه وتكونوا شيعاً ، كيلا يصيبكم ما أصاب
أولئك الذين تفرقوا واختلوا من بعد ما جاءتهم البيّنات من قبلكم ، وهؤلاء
جنو اسرائيل بين أيديكم ، وحلمهم لا تخفى عليكم ، فسلوهم حالهم ، واسقطقوا
آثارهم ، وارقؤا تاريخهم ، تروا أنهم أوتوا نحواً مما أوتيتم من البيّنات ، وأمرؤا
كما أمرتم بالاتحاد والاجتماع ، فتفرقوا الى مذاهب وشيع ، وزلوا عن صراط الله
فتفرقت بهم السبل فأخذهم الله بعزته ونفذ فيهم حكم سنته ، وزال سلطانهم ،
وافظتهم أوطالهم وضربت عليهم القلة والمسكنة ومزقوا في الارض كل ممزق
والآية على كلا الوجهين عبرة للمخاطبين بالقرآن من المؤمنين به لاحكاية
تاريخية عن بني اسرائيل . ولكن هل يعتبر بها المنتسبون الى القرآن ؟ وهل
يفهمون منها أن ملكتهم الذي يتقلص ظله عن رؤسهم عما بعد عام ، وعزم الذي
تتخذه منهم حوادث الايام ما بدلها الله تعالى الا بعد ما بدلوا نعمته عليهم في
قوله (١٠٣: ٢) واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ
كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً) ؟ (٥٣: ٨) ذلك بأن
الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) كلا انهم لم يفهموا
هذا ولم يتفهموا وترجموا بهذه الآيات في كل مأثم وكل موسم وان رؤسهم لا يعقون
لأحد منهم لمن يذكرهم به وان أكثر عاستهم تبع لهؤلاء الرؤساء كما كانت بنو

اسرائيل على عهد نزول القرآن وإنا لنعلم أن الساكتين منهم على جميع ما مني به السالمون من البدع والخرافات والفسوق والعصيان، ينفقون مع المدافعين عن الفاسقين وللمبتدعين، على إيذاء الواعظين الناصحين، باسم المدافعة عن الدين والسبب في هذا وامثاله لم يفرط فيه الكتاب المبين، بل هو ما هدانا الله تعالى اليه بقوله

﴿ زين للذين كفروا الحياة الدنيا ﴾ هذا بيان معلل لما قبله من الوعيد لمن يبذل نعمة الله كفرًا، ولا سيما نعمة آيات الله تعالى في هداية الملة الى وحدة الامة، فالكفر فيها هو كفر النعمة، لا انكار وجود الله تعالى ولا الشرك به كما زعم الجلال وغيره، وسببه الافتتان بزينة الحياة الدنيا الزائلة واشارها على حياة الآخرة الباقية، والمقام مقام الامر بالاتفاق في الدين والاخذ بجميع أحكامه وشرائعه والنهي عن التفرق فيها، والسالمون هم المخاطبون بالوعيد على التفرق واتباع خطوات الشيطان على رأيه وتفسيره وهو المختار. فيعد أن أمرنا تعالى ونهاها وتوعد من يزل عن سبيله منا بعد ما جاءنا من البينات، ذكرنا بحال من سبقنا من أهل الكتاب الذين نزل بهم عذاب التفرق والخلاف في الدنيا ولم يمنعه عنهم أنهم أهل الكتاب وأنهم منتهمون الى نبي مرسل وعندهم شريعة اهلية، ذلك أنهم لم يجتمعوا على الكتاب لاختلاف أئمتهم وأخبارهم في التأويل والتأليف، وكان كل فريق منهم يعتذر عن تركه العمل بالتوراة بأنه متبع لبعض الاحبار الذين هم أعلم منه بها

بعد هذا كله يسأل سائل كيف يختلف الناس في دينهم ويتفرقون شيعاً بعد مجي البينات المانعة من ذلك؟ فهذه الآية جواب لهذا السؤال، وحل لما فيه من الاشكال، ما يخصه ان حب الدنيا والغرور بزينةها، يصر فان جميع قوى النفس الى التغاضي في طلبها، وبذلك تنصرف عن النظر الصحيح في آيات الحق وبيناته، فما الرؤساء فأنهم ينصرفون الى حب الامتياز والشهرة والاستعلاء على الاقران، ولا يكون ذلك إلا بالخلاف، وانتصار كل رئيس لمذهب والذب عنه بالجدل والتأويل وما للرؤسوسون فان كل فريق منهم ينتمي إلى رئيس يعتز به ويقله دينه، ولا يستمع قولاً يخالفه، ويربط كلا منهما بالآخر الاشتراك في المصالح الدينية،

فحب الدنيا هو علة العمل ورأس كل خطيئة . وقد تقدم شرح ارتباط الرؤساء بالمردوسين في تفسير (١٦٥) ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا (الآيات . وما ذكرناه هنا قاض بأن يختص الذين كفروا بمن أوتوا كتابا وجاءتهم بينات تجمع كلتهم وتحقق وحدتهم ، ففصموا بالخلاف عروتها ، ومزقوا بالتفرق نسيج وحدتها ، وذلك كفر بهذه النعمة ، وتبديل لها بالنعمة ، ويدل على أن الكلام لا يزال في مسألة الخلاف والوفيق في الذين الآية التالية هذه فنها مبيدة لأصل الخلاف في الدين ، منذ بعث الله النبيين

جملة (زين للذين كفروا) الخ في معنى قوله تعالى (١٨ : ٧) إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا) ابتلاهم ففرت قوا ما زينتها ، وفنتهم بهجتها ، فانصرفت همهم إلى الاستمتاع بلذاتها ، وانحصرت أفكارهم في استبطاء الوسائل الشهواتها ، ومساابقة طلاب المال والجاه عند أربابها ، ومن أحمة الطارقين لأبوابها ، فلم يبق فيها سعة لطالب شيء آخر وإن لم يكن معارضا لهم فيما يرغبون ، وحائلا بينهم وبين ما يشتهون ، فما بالك يطالب الحق ، والتطلع إلى حياة بعد هذه الحياة ، والحق ينبغي عليهم إسماعهم في أمرهم ، ويطالبهم بحقوق عليهم لغيرهم ، والتطلع إلى حياة أخرى يزغزع من سكوتهم إلى لهُوم ، وبعض شيئا من تعاليمهم في زهومهم ، بل يكدر عليهم بعض صفوهم ، ويقف بهم دون شأومهم ، ومن لم يطالب الحق من طريقه باخلاص وإنصاف لا يجده ولا يتفق مع أهله ، وأنى للمؤمنين بالزينة الاخلاص والانصاف ؟

(أقول) وثم أقوام آخرون نظروا الى زينة الدنيا كما أمر الله ، وهو من وجهين أحدهما ما فيها من الآيات الدالة على قدرته تعالى وعلمه وحكمته ورحمته بعباده . وثانيها كونها نعمة منه تعالى ينتفع بها ، ويشكر الله تعالى عليها ، ويتبع شرعه فيها باقصد واجتناب العرف والخطيئة وتذكر الدعاء بحسنة الدنيا وحسنة الآخرة وهو قريب ، ولا تنس قوله تعالى (٧ : ٣٣) قل من حرم زينة الله (الخ)

والمراد بالذين كفروا هنا من لا يؤمنون بالحقوق المشروعة لله وللناس إيمان
البرهان والقياد ، بل يؤثرون الحياة الدنيا على ما عند الله تعالى من النعيم المقيم ، لا
المشركون أو الكافرون في عرف بعض الناس كالذين لا يسمون مسلمين ، كما أن
القرآن لا يعني بالمؤمنين الناجين طائفة يسمون أنفسهم أو يصفونها بالإيمان أو
الاسلام ، وإنما يعني بهم أولئك الموقنين بما عند الله ، الذين يؤثرون الحق على كل
ما يعارضه من شهواتهم ولذاتهم ، وإذا عثر أحدهم فعمل السوء بحجة يتوب من
قريب . وانظر سائر ما عرف الله تعالى به المؤمنين والكافرين من النعموت
والأوصاف يظهر لك هذا

وأظهر أوصاف الكافر أن تكون زينة الدنيا أكبر همه يؤثرها على كل شيء ،
حتى أن أمر الدين لا يحرزه عن شيء يقدر عليه من هذه الزينة ومتاعها بلا
معارض من الدنيا ، كحكم يزعج ، أو إهانة تتوقع ، لأنه لا يقين له في الآخرة . فان
كان منقسبا إلى دين فما دينه إلا تقاليد وعادات ، وخواطر تتنازعها الشبهات ،
وتتجاذبها الشكوك والتأويلات ، ومنهم من يسلم تقليداً بأن هناك آخرة فيها نعيم
خاص بأهل ملته ، وإن كانوا على ما وصف الله الكافرين ، وضد ما نعت المؤمنين ،
كما كان اليهود في زمن التنزيل وقد أطلق القرآن عليهم اسم الإيمان في مواضع
منها الآية السابقة قريباً على قول بعض المفسرين وفي غيرها أيضاً كقوله في أهل
الكتاب عامة من آخر سورة الحديد (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وأمنوا برسوله يؤتكم
كفلاً من رحمته) الخ وأطلق عليهم اسم الكافر في مواضع كثيرة . وذلك أن
اللائق - كما ذكرنا قبل - إطلاقاً فيطلق على المؤمن الموقن المذهن للعمل والاتباع .
ويطلق على من يصدق تقليداً بأن للعالم إلها أرسل رسلاً وينسب إلى بعضهم وإن
لم يكن على يقين في إيمانه ، وبصيرة في دينه ، وحسن اتباع لنبيه ، بل هو على خلاف ذلك
كما تقدم ، وهؤلاء قد يكونون في عرف القرآن كافرين وذكر من علامتهم الافتتان
بزينة الحياة الدنيا فهم يعدون الكياسة الانفاس في نعيمها ويرون النضل في
الاستكثار من فضولها ، ويسخرون من الذين آمنوا ، إيماناً حقيقياً يحمل على

العمل - يسخرون من فقرائهم لانهم محرومون من زينتهم وكن كانوا راضين من الله مغبوتين بما منحهم من الايمان والرجاء بالآخرة. ومن أغنيائهم لانهم لا يتنقون في النعيم بل يرون الكياسة في الاستعداد لما بعد الموت بترقية النفس بالاعتقاد الصحيح المؤيد بالبينات والتحلي بالفضائل وأحسن الاخلاق ويعمدون الفضل في القيام بحقوق الناس وخدمة الامة، والافاضة من فضل المال على العاجزين والبائسين .
وكما أنفقوا في سبيل الله درهماً عده أولئك المستمرون مفرماً

قال تعالى ردّاً على هؤلاء الساخرين الذين يرون أنهم في زينتهم ولذاتهم،

خير من أهل اليقين في نزاهتهم وتقائهم ﴿والذين اتقوا فوقهم إلى يوم القيامة﴾
فاذا استملى بعضهم على بعض المؤمنين طائفة من الزمن في هذه الحياة القصيرة العانية، بما يكون لهم من الاتباع والانصار والمال والسلطان، فإن المؤمنين المتقين يكونون أعلى منهم مقاماً يوم القيامة في تلك الحياة العلمية الابدية . ولم يقل : والذين آمنوا فوقهم . لأن هؤلاء المفتونين بزينة الحياة الدنيا يدعون الايمان لانهم ولدوا ونشأوا بين قوم يدعون بأهل الايمان وأهل الكتاب، فالله يرشدنا إلى أنه لا اعتداد بالايمان في الآخرة إلا إذا صحبته التقوى ، وكانت أثرآ له في النفس والعمل الصالح (١٩ : ٦٣) تلك الجنة التي نورث من عبادنا من كان تقياً — ١٣٣ : أعدت للمتقين — ٩٣ : ٥ ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا) والآيات في في هذا كثيرة جداً ولكن الذين يزعمون أن النجاة في الآخرة والدرجات العلى فيها تحصل بمجرد القلب والجنسية ، أو بعض التقاليد التي لا أثر لها في النفس ، لا يلتفتون إلى مثلها ، وإذا قيل لعظماهم فيها ، واحتج عليهم بها ، طفقوا يحرقون ويؤولون ، ويدعون أنها نزلت في الكافرين وهم مسلمون . أو يقولون هكذا قال شيوخنا وإنما نحن مقلدون . وهؤلاء الدعون إلى الكتاب صالون مضلون ، لانهم يدعون الاجتهاد في الدين . وقد أقبل علمائنا بانه منذ عشرين من السنين

ذكر تعالى ما يمتاز به المؤمن المتقي على الكافر بتبديل النعمة وتفريق الكلمة، وهو الملو في دار الكرامة، ثم أخبرنا أن رزق الدنيا ونعيمها ليس خاصاً فيها بقي ولا شقي بل هو مبذول لكل أحد وأنه قد يأتي من حيث لا يظن المرء ولا يحسب

فقال ﴿والله يرزق من يشاء بغير حساب﴾ الحساب التقدير أي من غير تقدير له على حسب الإيمان والتقوى والكفر والفجور. وفيه وجه آخر وهو أنه كناية عن السعة وعدم التقدير والتضييق كقولهم : ينفق فلان بغير حساب. أي ينفق كثيراً. والمعنى أنه بذل العطاء في الدنيا لكل أحد بخلق الارزاق وإقدار الناس على الكسب، وقيل إن المعنى بغير حساب عليه من أحد، فهو الذي خلق ورزق وهو الذي قدر فهدي من غير محاسبة أحد ولا مراجعته، وقد بسط معنى هذا الكلام في آيات أخرى قال تعالى في سورة الاسراء (١٧ : ١٨) من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً * ١٩ ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً * ٢٠ كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك، وما كان عطاء ربك محظوراً * ٢١ انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً (فأنت ترى أنه لم يشترط السعي لرزق الدنيا لأنه قد يأتي بلا سعي كارت وهبة ووصية وكثرة أو ارتفاع لأمان ما يملك من عقار وعروض بأسباب عامة. واشتراط الآخرة السعي مع الإيمان كما خصها هنا بالذين اتقوا من المؤمنين لأن الكلام فيهم. ثم ذكر أن عطاءه واسع مبذول لكل أحد ليس فيه حظ من الله تعالى فللمشرك تشمير، وعلى المقصر تقصيره، وفي الحساب هنا وجه آخر وهو الاحتساب والتقدير من جانب العبد فيكون بمعنى قوله تعالى في سورة الطلاق (٦٥ : ٢) ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب)

قال الأستاذ الامام : ان الرزق بغير حساب ولا سعي في الدنيا إنما يصح بالنسبة إلى الأفراد فانك ترى كثيراً من الأبرار وكثيراً من الفجار أغنياء موسرين متمتعين بسعة الرزق، وكثيراً من الفريقين فقراء معسرين، والمتقي

يكون دائماً أحسن حالا وأكثر احتمالا ومحلا لعناية الله تعالى به فلا يؤله الفقور كما يؤلم الفاجر . فهو يجد بالتقوى مخرجاً من كل ضيق . ويجد من عناية الله رزقاً غير محسوب . وأما الامم فأمرها على غير هذا فان الامة التي ترونها فقيرة ذليلة معدمة مهينة لا يمكن أن تكون متقية لاسباب نعم الله وسخطه بالجري على سننه الحكيمة وشريعته العادلة . ولم يكن من سنة الله تعالى أن يرزق الامة العزة والثروة والقوة والسلطة من حيث لا محسوب ولا تقدر ، ولا تعمل ولا تدبر ، بل يعطيها بعملها ، ويسلبها بزللها . وقد بين الاستاذ هذا المعنى غير مرة وتقدم في التفسير وهو مؤيد بآيات الكتاب المبينة لسنن الله العامة كقوله تعالى (٨ : ٢٥) واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة) فجعل وقوع الظلم سبباً في وقوع البلاء . على الامة من ظلم منها ومن لم يظلم . ومن الظلم ترك مقاومة الظالم حتى يفشو ويكون له السلطان الذي يذهب بكل سلطان . وكقوله (٨ : ٤٦) ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم) ولأجل هذه السنة . أمر بالاستعداد على قدر الطاقة (٨ : ٦٠) وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة) ولا قوة مع الخلاف والنزاع . والتفرق الانقسام . وذلك أمرنا تعالى بالدخول في السلم كافة ، ومنحنا على ذلك البيئات الكافية . وضرب لنا الامثال . وتوعدنا بالوعيد بعد الوعيد . ثم بين لنا منشأ الاختلاف في البشر لنكون على بصيرة فقال

(٢١٣) كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فَمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ . وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ، فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ . وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ

يقول المؤلف محمدرشيد رضا كتب تفسير هذه الآية الاستاذ الامام باقترح مني وأنا الذي وضعت الارقام للسور والايات في شواهد ما كتبه وهذا نصه

تطلق الأمة في كتاب الله تعالى بمعنى الملة أي العقائد وأصول الشريعة كما في قوله تعالى في سورة الانبياء (٢١ : ٩٢) ان هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون) بعد ما ذكر من شأن جماعة الانبياء صلوات الله عليهم وكما قال في سورة المؤمنين (٢٣ : ٥١) يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا أفى بما تعملون عليهم * ٥٢ وأن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون) رجح كثير من المفسرين أن المراد من الأمة في الآيتين الملة أي العقائد وأصول الشرائع ، أي ان جميع الانبياء ورسل الله على ملة واحدة ودين واحد كما قال (٣ : ١٩) ان بالدين عند الله الاسلام) وقال كثير منهم ان الأمة في هذه الآية بمعنى الجماعة كما هي في قوله تعالى (١٧ : ١٨١) ومن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون) أي جماعة وكما في قوله (٣ : ١٠٤) ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر) ولا تكون بمعنى الجماعة مطلقا وإنما هي بمعنى الجماعة الذين تربطهم رابطة اجتماع يعتبرون بها واحدا ، وتسوِّغ أن يطلق عليهم اسم واحد كاسم الأمة ، وتكون بمعنى السنين كما في قوله تعالى (١١ : ٨) ولئن أخرجنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة) وفي قوله (١٢ : ٤٥) وادَّكر بعد أمة) وبمعنى الامام الذي يقتدى به كما في قوله (١٦ : ١٢٠) ان ابراهيم كان أمة قانتا لله) وبمعنى إلهدى الامم المعروفة كما في قوله (٣ : ١١٠) كنتم خير أمة أخرجت للناس) وهذا المعنى الأخير لا يخرج عن معنى الجماعة على ما ذكرنا وإنما خصه العرف تخصيصا وقد حمل جمهور من المفسرين لفظ الأمة في هذه الآية على الملة ثم اختلفوا فيم كانت الملة فقال جمهورهم إنها ملة الهدى والدين القوم فيكون معنى الآية في رأيهم ﴿ كان الناس أمة ﴾ أي ملة ﴿ واحدة ﴾ قيمة الدين صحيحة العقائد جارية في أعمالها على أحكام الشرائع ﴿ فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ﴾ ولما وجدوا ان المعنى لا يكون قويا لأنه لا معنى لارسال الرسل إلى الامم الصالحة المهتدية ليحكموا بينهم فيما يختلفون فيه ، إذ لا يتأتى الاختلاف الذي يحتاج في رفعه إلى رسالة الرسل مع

استقامة العمل والوقوف عند حدود الشرائع ، قلوا لا بد من تقدير في العبارة
فيكون الكلام كان الناس أمة واحدة فاختلغوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين ،
والقرينة على هذه القضية المقدرة قوله فيما بعد « ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه »
وأنت ترى ان هذا بمنزلة أن تقول كان زيد علما فبعثت اليه من يعلمه ما كان نسيه
من معلوماته ، أو كان عالما فأرسلت اليه من يعظه في العود إلى مترك من عمله ،
وتقول ان كلاهما على تقدير كان عالما ففسي أو كان عاملا فترك العمل فبعثت اليه
أو أرسلت اليه الخ وهو مما لا يقبله ذوق عربي ، فإذا كنت لاتراه لاتأثقا بكلامك
فكيف تجده لاتأثقا بكلام الله أبلغ الكلام ، وأولى قول يملك العقول والافهام ،
ومما استدلوأ به على صحة قولهم ان آدم عليه السلام كان نبيا وكان أولاده على ملته
هادين مهتدين إلى أن وقع التحاسد بين ولديه وكان من قتل أحدهما الآخر
ما هو معروف ، وان الانسان يولد على الفطرة السليمة والدين الحق ، وانما يعرض
له ما ينحرف به عن الفطرة من تحكّم الاهواء ، واغواء الشهوات ، ورين الشبهات ،
ونحو ذلك ، فلا ريب يكون للانسان طور أول كان فيه خيرا عادلا واقفاً عن
الحق فيما يعتقد وما يعمل ، ثم يعرض عليه ما يعرض من الميل إلى الشر والقيح
من الاعمال ، ولكن هذه الأدلة لا تغير شيئا مما ذكرناه مختصا بتأليف الكلام ،
على انه قد عرض على أولاد آدم من بعده أطوار كثيرة بلغ بهم الجهل في بعضها أن
كانوا ملة واحدة في الكفر وفساد الاعمال ، كما كانت الحال لعهد نوح وعهد
ابراهيم من بعده ، والآية لم تحدد زمن كان الناس أمة واحدة ، وغاية ما في الامر
أن يكون النبيون المبعوثون مخصوصين بغير آدم أو نوح مثلا اذا حملت الامة
الواحدة على أمة الضلال ، وبملة الفساد والاعتلال
ولذلك ذهب طائفة أخرى وفي مقدمتهم ابن عباس وعطاء والحسن إلى
ان الامة الواحدة أمة الضلال ، التي لانهتدي بحق ولا تقف في أعمالها عند حد
شرعية ، واحتجوا على قولهم بهذا التعقب في الآية فانه جعل بعثة الرسل تابعة
لوحدة الامة ، ولا تكون كذلك حتى تكون تلك الوحدة قاضية بالحاجة إلى إرسالهم
ليحكموا بينهم في الاختلاف الذي يقع فيهم بسبب الفساد في العقائد ، والذهاب

مع الاهواء الضالة في الاعمال، واعتداء بعضهم على بعض لذلك، وانتهاءهم حرمة ما أمر الله برعاية حرمة، فيجب أن تكون وحدة الامة وحدة في الباطل حتى يرد الحق عليه فيزقه، وأما لو كانت الامة واحدة في الهدى واتباع الحق فلا معنى لجعل بعثة الرسل مترتبة عليها كما هو ظاهر . ودفعوا ما يقال : من أن آدم كان نبياً وكان من أولاده من بقي على شريعته فكيف يقال : إن الناس كانوا أمة واحدة على الباطل (دفعوه) بأن الحكم على الغالب فقد كان الناس لهم نوح كفاراً إلا القليل منهم ، ومن المعروف انه يقال دار كفر لمن كان أغلب سكانها كفاراً وإن كان فيها مسلمون . وقد يجاب بما تقدم ذكره من تخصيص النبيين بما بعد آدم ونوح من ابراهيم ومن بعده ، ولكن المعنى كما تراه ليس مما قطع عن اليه النفس بعد النظر إلى آدم ورسالته ، ومن بقي من أولاده على ملته

وقال أبو مسلم والقاضي أبو بكر ان وحدة الامة كانت فيما هو من مقتضى أصل الفطرة من الاخذ بما يرشد اليه العقل في الاعتقاد والعمل ، فكان الناس يهتدون بعقولهم ، والنظر المحض في الآيات الدالة على وجود الصانع ووجوب شكره ، ثم كانوا يميزون الحسن من القبيح ، والباطل من الصحيح ، بالنظر في المنافع والمضار ، أو الاتفاق مع ما يليق بالله على حسب ما يرشد اليه العقل أو مالا يليق ، ولا ريب أن استسلام الناس إلى عقولهم بدون هداية إلهية بما يدعو إلى الاختلاف ، بل كثير ما حالت الإوهام ، دون الوصول إلى المراد من العقائد والاحكام ، فيكون الاختلاف مفهومًا من معنى الوحدة على هذا التأويل وما سبقه ولهذا رتب عليها بعثة الانبياء ليحكموا بما أنزل الله فيما اختلف فيه الناس . وقد أورد القاضي على نفسه مسألة آدم ورسالته وأجاب عنها بأنه من الجائز أن يكون آدم وأولاده قد بدأ أمرهم على سنة الفطرة فكانوا من أهل النظر ، ثم بعد أن كثر أولاده وظهر ان هداية العقل وحده لا تكفي في حفظ سلامة القلوب ولا صلاح الاعمال ، أرسله الله اليهم بهداية إلهية من عنده ، وأنه من المحتمل بل يكاد يكون من المحقق انه طرأ على نسل آدم ما أنساهم شره فعادوا إلى استعمال عقولهم وحدها فعادت اليهم الوحدة فيما يؤدي إلى الاختلاف فبعث الله النبيين الخ

وتوقف قوم في معنى الامة وقولوا لاحاجة إلى البحث في أنها كانت أمة هداية أو أمة ضلال أو أمة عقل ، وهو قول غاية في الغرابة لأنه ذهاب إلى ترك فهم الآية الكريمة ومعنى ترتيب بعثة الانبياء على وحدة الامة ، اللهم إلا أن يكون القائل قد أراد ماسيأتي لنا ذكره إن شاء الله تعالى

وأغرب من هذا القول قول بعض المفسرين ونقل عن مجاهد ان الناس هم ادم وحده وانه كان أمة يقتدى به، ولا ندري ماذا يقول أصحاب هذا القول في تفسير بقية الآية؟ نعموذ بالله من الخذلان

وزعم آخرون ان المراد من الآية أهل الكتاب الذين آمنوا بموسى عليه السلام ثم اختلفوا بغياً بينهم فأرسلت اليهم الرسل بكتب تهذيبهم كما أرسل داود يزبوره وعيسى بالإنجيل ليردوهم إلى الحق فيما اختلفوا فيه ، وهو تخصيص للناس وللنبيين بما لا دليل عليه البتة كما لا يخفى

قال ابن العادل نقلاً عن القرطبي: ولغظة « كان » على هذه الأقوال على بابها من المضي وبجمل أن تكون للشبوت، والمراد الاخبار عن الناس الذين هم الجنس كله أنهم أمة واحدة في خلوهم عن الشرائع وجهلهم بالحقائق لولا أن الله من عليهم بالرسل تفضلاً منه فلا تختص بالمضي فقط بل يكون معناها كقوله « وكان الله غفوراً رحيماً » اهـ

وقد قارب الصواب في هذا الاحتمال الثاني وهو الذي كان يذهب اليه اليه لأول الامر لولا ما يشتغل به من النظر في تلك الضروب من التأويل ، فتفرق به السبل ويكاد يضل السبيل ، ونحن ذاكرون لك إن شاء الله ما يجلي المعنى في الآية مقتفين أثر ابن العادل والقرطبي فيما قالاه في معنى كان وانها للشبوت لا للمضي ، غير أننا نقدم لك ما جاء في كتاب الله من وصف الامة بالواحدة، والمعنى من ذلك الوصف في مواضع مختلفة، ليكون في ذلك توضيح لما نقصد ، وسند لنا فيما اليه نعمد ، والله الموفق

ورد وصف الامة بالواحدة في قوله تعالى في سورة الانبياء (٢١: ٩٢) إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون ٩٣ وتقطعوا أمرهم بينهم كل إلينا

(راجعون) جاءت هذه الآية الكريمة [ان هذه أمتكم] النخ بعد ذكر جمع من الانبياء صلوات الله عليهم وذكر ما كان من شأنهم مع قومهم والخطاب فيها للانبياء كما يفسره قوله تعالى في سورة المؤمنين بعد ما ذكر من احوال الانبياء والمرسلين وما كان من اقوامهم معهم (٢٣ : ٥١ يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا اني بما تعملون عليم ٥٢ وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فتقون ٥٣ فتقطعوا أمرهم بينهم زبراً كل حزب بما لديهم فرحون) وقد جاء لفظ [أمة] بالنصب في الآيتين على الحال والخبر قد تم في قوله (وان هذه أمتكم) أي هذا الجمع من الانبياء والمرسلين أمتكم أي جماعتكم حال أنها أمة واحدة، أي ليس جمعا تربطه الروابط البعيدة كما يقال أمة الهند على اختلاف ملاتها وتفرق كمتهبا، بل هي أمة تربطها رابطة قريبة هي رابطة الاهتداء بنور الله ولدعوة إلى توحيده، والقيام على شريعته وحمل الناس على اتباع أحكامه، فهي مجتمعة على أمر واحد لا تعدد فيه هو الحق والعدل، فهي جذيرة بأن تكون أمة واحدة. وان شئت قلت كما قالوا ان الامة بمعنى اللاتفي الآيتين، يراد بذلك ان الله يخبر المرسلين بأن هذا الذي سبق في الكلام من السير في الناس بهداية الله والمثابرة على ذلك وعدم المبالاة بما يكون منهم من تكذيب أو شرب أو تعذيب، هذه هي ملتكم ودينكم وهو امر واحد لا تعدد فيه، يأتي به السابق، ويتبعه عليه اللاحق، لا يختلف فيه نبي، عن نبي ولا ينكر فيه مرسل من سلا هذا المعنى من الوحدة هو الذي جاء في قوله تعالى في سورة هود (١١٨: ١١٩) ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم ونمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين) وفي قوله في سورة الشورى (٨٠: ٤٢) ولو شاء الله لجلسهم أمة واحدة ولكن يدخل من يشاء في رحمته والظانون ما لهم من ولي ولا نصير) أي لو شاء ربك لحق الناس على غريزة تميل الى الحق، وفطرة يسطع فيها نور الهداية، اليه بدون حجاب من الهوى والشهوة أو ظلمة الفكر وستر الغواية، فكانوا جميعا على مثل الانبياء والمرسلين ومن تبعهم باحسان، وكانوا بذلك من أهل السعادة وسكان دار النعيم، ولكن

قضى ربك أن يخلق الانسان انسانا يكله الى فكره، ويدعه الى سعيه وكسبه، فلا يزال يتخبط في الاختلاف، وسيجرحم الاختلاف الى دار اشقاء، بعد الحزني في دار الفناء، الا اولئك الذين رحهم ربك من هداة العالمين، وقادة الناس الى خير الدارين، ومن وفقه الله لاستجابة دعوتهم والاهتداء بسنتهم، فأدخلهم في رحمته بعد ما شمل الظالمين بسخطه ونقمته

وبينهم من هاتين الآيتين الكريمتين ان الناس لم يكونوا أمة واحدة قط لا بمعنى انهم كانوا جميعا على الخير والهدى لان الله خلق الانسان على غريزة تبعده به عن الاتحاد على الحق والاتفاق على العمل، ولا بمعنى انهم كانوا جميعا على الضلال كما تراه من صرح النبي الشريف، فكان الناس ولا يزالون منهم المحسن والمسيء، والمعتدي والضال، سنة الله في هذا الخلق

لكنك تجد في سورة يونس نصا صريحا في ان الله تعالى شاء ان يكون الناس امة واحدة قال تعالى (وما كان الناس الا امة واحدة فختلفوا ولو لا كلمة سابقة من ربك تقضي بينهم فيما فيه يختلفون) ولا يمكنك أن تحمل « كان » على معناها من الماضي لان الحصر يبعد ذلك بالرة، فلو اراد منه ان الناس كانوا ولا يزالون امة واحدة ونشأ عن هذه الوحدة نفسها الاختلافهم، وكان الله سبحانه يقضي في اختلاف باهلاك من ينحرف منهم عن سبيل المنة السليمة فلا يبقى من الذين إلا من استقام عليهم، ولكن سبقت كلمته وثبت في علمه وتم في مشيئته ان يكون الناس في امرهم كاسبين اسعبيهم، مكلفين بالنظر فيما بين ايديهم من الآيات، وأن يكون منهم الضال والمعتدي والعاقل والاعتدي حتى يوفي كلا جزاءه في الدار الاخرى . ولهذا بعث فيهم الرسل عليهم الصلاة والسلام ليكونوا لهم أمة في الايمان وأسوة في العمل الصالح

فهل يمكنك مع هذا أن تحمل وحدة الامة على وحدة العقيدة والعمل في حياتها على ذلك في الآيات الأخرى ؟ انيس ذلك بممكن لان الناس ليسوا أمة واحدة بذلك المعنى بل هم مختلفون فلا ريب انه يجب حمل وحدة الامة على معنى آخر، وهو ذلك الذي نختاره في الآية التي نحن بصدد تفسيرها

خلق الله الانسان أمة واحدة أي مرتبطا بعضه ببعض في المعاش لا يسهل على أفرادها أن يعيشوا في هذه الحياة لدنيا إلى الاجل الذي قدره الله لهم الاجتماعيين يمانون بعضهم بعضا، ولا يمكن أن يستغني بعضهم عن بعض، فكل واحد منهم يعيش ويحيا بشيء من عمله، لكن قواه النفسية والبدنية قصيرة عن توفيقه جميع ما يحتاج اليه، فلا بد من انضمام قوى الآخرين إلى قوته فيدعمونهم في بعض شأنه كما يستعينون به في بعض شأنهم، وهذا الذي يعبرون عنه بقولهم [الانسان مدي بالطبع] يريدون بذلك انه لم يوهب من القوى ما يكفي للوصول الى جميع حاجاته، بل قدر له أن تكون منزلة أفرادها من الجماعة منزلة العضو من البدن، لا يقوم البدن إلا بعمل الأعضاء كما لا تؤدي الأعضاء وظائفها إلا بسلامة البدن.

فما كان الناس أمة واحدة ولا يمكن أن يكونوا بمقتضى فطرتهم إلا كذلك وهم إنما يعملون بمقتضى آرائهم، وينحون في أعمالهم نحو المنافع التي يرونها لازمة لقوام معيشتهم، ولم يمنحوا من قوة الإلهام ما يعرف كلا منهم وجه المصلحة في حفظ حق غيره، لتوفير المنفعة بذلك لنفسه — لما كانوا كذلك كان لابد لهم من الاختلاف، وكان من رحمة الله بهم أن يرسل اليهم الرسل مبشرين ومنذرين، وترتيب بعثة الرسل على وحدة الأمة في الآية التي نفسرها يكون على هذا المعنى: أن الناس أمة واحدة لابد لهم أن يعيشوا تحت نظام واحد يكفل لهم ما يحتاجون اليه مدة بقائهم في هذه الحياة الدنيا، ويضمن لهم ما به يسعدون في الحياة الآخرة، ولا يمكنهم في هذه الوحدة ومع تلك الوصلة اللازمة بمقتضى الضرورة أن يتفقا على تحديد ذلك النظام مع اختلاف الفطر وتفاوت العقول وحرمانهم من الإلهام الهادي لكل منهم إلى ما يجب عليه صاحبه — لما كانوا كذلك كان من لطف الله ورحمته بهم أن يرسل اليهم رسل مبشرين ومنذرين، يبشرونهم بالخير والسيادة في الدنيا والآخرة إذا لم كل واحد منهم ما حدد له واكتفى بما له من الحق، ولم يعتمد على حق غيره، وينذرونهم بخيبة الأمل وحبوط العمل وعذاب الآخرة إذا اتبعوا شهواتهم الحاضرة ولم ينظروا في العاقبة.

هذه الآية الكريمة جاءت بمنزلة بيان الحكمة فيما سبقها من الأوامر الإلهية

والاخبار السماوية. أمر الله الذين آمنوا بنبيه وكتابه بأن يدخلوا في السلم كافة ، وهو على أحد الوجوه السلام وعلى أحدهما الاسلام ، والسلام هو الوفاق الذي ليس معه نزاع ، ولا يلبق بمن جاءته الهداية من ربه تبين له الطريق الذي يسلكه في معاملة اخوانه ومن يرتبط معه برابطة بعيدة أو قريبة من الناس أن ينحو في عمله نحو ما يدعو الى الخلاف ويشير النزاع ، بل الواجب عليه أن يقف عندما حددته هداية الكتاب الالهي والسمن النبوي - والاسلام كذلك يدعو الى السلام ، ثم بين سبب ما يقع من الاختلاف بين الناس ويجرمهم حيطة النظام فقال (زين للذين كفروا الحياة الدنيا ويسخرون من الذين آمنوا) أي ان جاحد الحق والمعرض عن هداية الله له التي يسوقها اليه على أيدي رسله انما ينظر في عمله الى ما يوفر عليه لذاته في هذه الحياة الدنيا ، فهو لا يسعى إلا إلى لذة عاجلة ، ولا ينظر إلى عاقبة آجلة ، ومن كان هذا شأنه كان أمره اختلافا وشقاقا ورياء ونفاقا ، ثم أراد الله تعالى أن يقيم الدليل على أن لاهتداء بهدي الانبياء ضروري للبشر ، وأنه لا غنى لهم عنه مها باغوا من كان العقل ، فقال ان الله قضى أن يكون الناس أمة واحدة يرتبط بعضهم ببعض ، ولا سبيل لعقوبهم وحدها الى الوصول إلى ما يلزم لهم في توفير مصالحهم ودفع المضار عنهم ، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين ، وأيدهم بالدلائل القاطعة على صدقهم ، وعلى ان ما يأتون به إنما هو من عند الله تعالى القادر على إثابتهم وعقوبتهم ، العالم بما يخطر في ضمائرهم ، الذي لا تخفى عليه خافية من سرايرهم

قل تعالى ﴿ وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ﴾ الاتيان بهذه القضية بعد وصف الانبياء بالمبشرين والمنذرين يدل على ان التبشير والانذار عمل يسبق انزال الكتب وهو حق لان الانبياء أول ما يبعثون ينبهون قومهم إلى ما غفلوا عنه ، ويحذرونهم عاقبة ما يكونون فيه ، من عادة سيئة أو خلق قبيح أو عمل غير صالح ، فاذا تهيبأت الاذهان لقبول ما بعد ذلك من تشريع الاحكام وتحديد الحدود ، أنزل الله الكتب لبيان ما يريد حمل الناس عليه مما هو

صالح لهم على حسب استعدادهم، ثم في قوله « وأنزل معهم الكتاب » وعود الضمير على جميع النبيين ما يفيد أن الله أنزل مع كل نبي كتاباً معجزاً كان أو غير معجز طويلاً كان أم قصيراً، دون وحفظ أم لم يدون ولم يحفظ، ليؤدي من سلف إلى خلف، وقوله « ليحكم بين الناس » قرأ يزيد بضم الياء وفتح الكاف والباقيون بفتح الياء وضم الكاف وهي الرواية المشهورة المعروفة. أما على رواية يزيد فاعني أن الله أنزل الكتب مع النبيين بالحق أي بيان ما يجب أن يعتقد به مما هو منطبق على الواقع وبيان ما يجب أن يعمل به مما هو صالح لا مفسدة فيه، ليقع الحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه من الأمور، والحكم هو المتولي للفصل بين الناس في الخصومات بالنسبة إلى الأعمال، والرشد إلى صحيح العقائد على مقتضى ما جاء في الكتاب النازل بالحق، والمبين لما ينطبق على نصوصه من الأعمال التي يحكم فيها الحاكمون.

أما على القراءة المعروفة فالحكم مسند إلى الكتاب نفسه فالكتاب ذاته هو الذي يفصل بين الناس فيما اختلفوا فيه وفيه نداء على الحاكمين بالكتاب أن يلزموا حكمه، وأن لا يعدلوا عنه إلى ما تسوله الأنفس وتزينه الأهواء، فإن الكتاب نفسه هو الحاكم وليس الحاكم في الحقيقة سواء، ولو ساء للناس أن يؤولوا نصاً من نصوص الكتاب على حسب ما تزرع اليه عقولهم بدون رجوع إلى بقية النصوص وبناء التأويل على ما يؤخذ من جميعها جملة لما كان لا نزل الكتاب فائدة، ولما كانت الكتب في الحقيقة حاكمة، بل تحكم الأهواء وتذهب النفوس منازع شتى، فينضم إلى الاختلاف في المنافع اختلاف آخر جديد وهو الاختلاف في ضروب التأويل، وبناء كل واحد حكماً على ما تزرع اليه، فتعود المصلحة مفسدة، وينقلب الدواء علة، ولهذا رد الله تعالى الحكم إلى الكتاب نفسه لا إلى هوى الحاكم به وقال « فما اختلفوا فيه » لأن الاختلاف كان تابعاً لتلك الوحدة التي بينها فكان كأنه لازم لها، وهو كذلك كما يبينه تاريخ البشر وما توارثوه عن أسلافهم. وكما يقضي فيما اختلفوا فيه يقضي فيما يختلفون به من بعد، ونسبة الحكم إلى الكتاب هي كنسبة النطق والهدى والتبشير اليه في قوله (٢٩: ٤٥ هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق) وقوله (٢٩: ٧٧)

إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ (وكنسبة القضاء اليه
في قول الشاعر

ضربت عليك العنكبوت بنسجها وقضى عليك به الكتاب المنزل
والسر في التجوز هو ما ذكرت لك . وقد يعود الضمير على الله أي أنزل
الله معهم الكتاب بالحق ليحكم سبحانه بين الناس فيما اختلفوا فيه ، وهو يشعر
كذلك بأن الحاكم يجب أن يكون هو الله دون آراء البشر وظنونهم التي لا ترد
إليه - جل شأنه

وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم
وقد عرفت فيما سبق أن الناس يحكم أشترأ بهم في الاعمال وضرورة اشتباكهم
في المعاملات عرضة للاختلاف في الحق ، لأن عقولهم وحدها ليست كافية في الهداية
إليه على الوجه الذي يحفظ جامعهم من الاضطراب ، ويؤدي بهم إلى السعادة
العظمى في المآب ، فلا يصح بعد ذلك أن يعود الضمير في « فيه » إلى الحق فلا
يقال وما اختلف في الحق إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات ، فإن الحق
يختلف فيه الناس قبل مجيئ البينات الأولى ، ولا أعجب مما ذكره بعض المفسرين
من أن النص في الآية دليل على أن الناس لم يكن منهم اختلاف في الحق إلا بعد
بعثة الانبياء وإرسال الرسل وإزالة الكتب ، أما فيما قبل ذلك فكانوا متفقين
على الحق فكان رذيلة الاختلاف والتفرق لم تقع في العالم الإنساني إلا ببعثة الرسل ،
والقول بمثله من أغرب ما ينسب إلى صاحب دين ما فما بالك به إذا صدر عن مسلم ؟
والحق أن الضمير في قوله « وما اختلف فيه » يعود إلى الكتاب وهو
استدراك على ما عساه يقال : إذا كان الناس في جامعهم مستعدين للتخالف بمقتضى
عظمتهم إذا تراكمت وحدها ، ولا غنى لهم عن هداية تعليمية تأتيهم من الله تعالى ،
ولهذا بعث الانبياء ليكونوا قواداً للفطرة إلى ما هو خير الدنيا والاخرة ، فما بال
الناس بعد انزال الكتب لا يزالون مختلفين ولا يرتفع من بينهم ذلك الخلاف
الذي كان يخشى منه افساد جماعتهم وهلاك خاصتهم ؟ فقد كانوا يختلفون على جلب

المنافع والتوسع في مطالب الشهوات ، ولم تكن لديهم في ذلك آلة يستعملها كل منهم في نيل مطلبه من صاحبه سوى القوة أو الحيلة ، وبعد انزال الكتب قد انضم إلى تلك الآلات آلة أخرى ربما كانت أقوى من سواها وهي آلة الألفاظ بالكتاب ، فيتخذ الواحد منهم كلمة من الكتاب أو أثراً مما جاء به وسيلة إلى تسخير غيره لما يريد ، وذلك بقطع الكلمة أو الأثر عن بقية ما جاء بالكتاب والآثار الأخرى ، وليّ اللسان به وتأويله بشيء ما قصد منه ، وما هم المؤول أن يعمل بالكتاب ، وإنما كل ما يقصد هو أن يصل إلى مطلب شهوته ، أو عضد لسلطوته ، سواء عليه هدمت أحكام الله أم قامت ، وأعوجت السبيل أم استقامت ، ثم يأتي ضال آخر يريد أن ينال من هذا ما نال هذا من غيره ، فيحرف ويؤول حتى يجد المخدوعين يقولونه ويتخذهم عوناً على ذلك الخادع الأول ، فيقع الخلاف والاضطراب ، وآلة المتخلفين في ذلك هي الكتاب ، وقد شوهد ذلك في الأزمان الغابرة بين اليهود وبين من سبقهم وبين النصاري ، ولا يزال الأمر على ما كان عليه عند هاتين الطائفتين إلى اليوم ، وكم حروب وقعت بين المسلمين أنفسهم حتى قصمت ظهورهم ، ودمرت ما كان من قواهم ، وما كان آلة المبطلين في تلك المشاغب الإدعوى الدين . وحمل الناس على الحق المبين . والله يعلم إنهم لكاذبون فيما يقولون . وإنهم لخاطئون فيما يفعلون ، وما كفة الدين ودعوى تأييد الكتاب إلا وسائل لارضاء الشهوة ، وتمكين الظالم من السطوة .

ثم هناك داع آخر للخلاف وهو اختلاف القوم في فهم ما جاء في الكتاب . فكل يذهب إلى أن الواجب أن يعتقد كذا وربما كان حسن النية فيما يقول ، وبعد الخلاف مخطئاً فيما يزعم ، وقد يعرض لكل منهم التعصب لرأيه فيذهب حسن النية ولا يبقى إلا الميل إلى تأييد المذهب ، وتقرير المذهب ، بدون رعاية للدليل ولا نظر إلى البرهان ، فلم يستفد النوع الإنساني من إرسال الرسل ونزول الكتب إلا حدوث سبب جديد للخلاف لم يكن : وإلا موضوعاً للشقاق

(١) وما أحسن قول أبي العلاء المعري رحمه الله تعالى :

وكم من فقيه خابط في ضلالة وحجته فيها الكتاب المنزل

كان العالم في سلامة منه ، فما فائدة إرسال الرسل وكيف عين الله على الناس بأمر لم يزدكم إلا شقاء ، ولم يكسب بصائرهم إلا عماء ؟

أراد الله جل شأنه أن يستدرك على هذا الظن وبين وجه الخطأ فيه فقال « وما اختلف فيه » الخ وحاصل الاستدراك أن غرائز البشر وحدها ليست كافية في توجيه أعمالهم إلى ما فيه صلاحهم ، فلا بد لهم من هداية أخرى تعليمية تتفق مع القوة المميزة لنوعهم ، وهي قوة الفكر والنظر ، تلك الهداية التعليمية هي هداية الرسل منهم ، والكتب التي ينزلها الله عليهم ، مع الأدلة القائمة على عصمة الرسل من الكذب ، وعصمة الكتب من الخطأ ، فعلى الناس أن يستعملوا عقولهم في فهم الأدلة على الرسالة والعصمة أولا ، وسطوع الأدلة يحتمل المستعدين منهم على التصديق حتما ، فإذا عقلوا ما جاءت به الرسل وجب عليهم أن يقوموا عليه ، ولا يعدلوا بعمل من أعمالهم عنه ، ذلك كما وهب لهم السمع والبصر ليهتدوا بها إلى ما يوفر لهم الفوائد ، ويدفع عنهم العوائل ، ويتقوا بها الوقوع في المنكرات ، وكما وهب لهم العقل ليهتدوا به فيما يتبع الأعمال من العواقب ، وإنما عليهم أن ينظروا في فهم الأحكام الإلهية إلى جملتها ومجموع ما تفرق منها ، لا يقصرون نظرهم على بعض ويفضون بصرهم عن بعض آخر ، ثم عليهم أن يقفوا على حكمة الله في تشريع شريعته ، ووضع ما قرره من الأحكام فيها بحيث لا يحيدون عن تلك الحكمة التي أُنزلت اليها كتبه ، بل صرحت بها نصوصها لا يمتنع ولا يسره ، حتى يتم لهم الاهتداء بها ، فإن الغفلة عن حكمة العمل غفلة عن فائدته ، والغفلة عن فائدته انصراف عن روحه التي لا يقوم إلا بها ، غير أن عامة الخاطئين لا يمكنهم أن يصلوا إلى كل ذلك بفهمهم على قصرها ، وإنما ذلك فرض على الخاصة الذين قدمهم الرسل للنبأ عنهم ، وهؤلاء هم الذين أوتوه ، وأعطاهم الله الكتاب على أن يقرروا ما فيه ، ويراقبوا انطباق سير العامة عليه ، ولذلك قال (من بعد ما جاءهم البينات) وفي آيات أخرى أن اختلافهم من بعد ما جاءهم العلم . والبيانات هي الدلائل القائمة على عصمة الكتاب من وصمة إثارة الخلاف ، وعلى أنه ما جاء إلا لاسعاد الناس والتوفيق بينهم ، لا لاشقائهم وتمزيق شملهم ، وعلى أن الحكمة الإلهية فيه راجعة إلى جميع ما جاء

فيه ، فلا بد أن يكون فهم كل جزء منه مرتبطاً بفهم بقية أجزائه ، وعلى أن دعوة الرسول الذي جاء به إنما كانت إلى جملة ، لا إلى الانقراض المتفرقة منه ، وقال ان هذا الاختلاف الذي وقع منهم لم يكن إلا بغياً بينهم ، وتعدياً لحدود الشريعة التي أقامها حواجز بين الناس والخلاف داعية البغي . ان الحبر أو السكاخن أو العالم أو الرئيس أو أي واحد من تسميه من أهل النظر في الدين القائلين عليه الذين ينبون عن الرسل في حفظه والدعوة إلى صيانتها الواحد من هؤلاء يرى الرأي ويفهم الفهم ويأخذ الحكم من نص يقف عنده ذهنه ، أو أثر يصل إليه ، وربما لم يكن وصل إليه ما هو أصح منه ، وآخر يرى غير ما يرى ، ويزعم وصول أثر غير الذي وصل إلى صاحبه ، فكان اتباع الكتاب يقضي عليها بالاجتماع والتمحيص وتخليص النفس من كل هوى سوى الميل إلى تقرير الحق وتطبيق الواقعة عليه ، ولولم يتيسر لها ذلك وجب على من يأتي بعدها ما كان يجب عليها ، حتى يستمر الاتفاق بين هؤلاء الخاصة ويسود بهم بين العامة

لكن قد يشوب طالب الحق شيء من الرغبة في عزة الرئاسة أو ميل مع أربابها أو خوف منهم أو شهوة خفية في منفعة أخرى فيلج ذلك بصاحب الرأي حتى يكون شقاق ، ويحدث افتراق ، ولا ريب أن هذا الشوب وان كان قد يكون غير ملحوظ لصاحبه بل دخل على نفسه من حيث لا يشعر فهو من البغي على حق الله في عباده أولاً ، والبغي على حقوق العباد الذين جاء الكتاب لتعزيز الوفاق بينهم ثانياً ، وأما العامة من الناس فلا جريمة لهم في هذا ولذلك جاء بالحصر في قوله « وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم اليينات بغياً بينهم » فإذا كان الرؤساء قد جنوا هذه الجناية على أنفسهم وعلى الناس بسبب البغي الخاص بهم فهل هذا يقدح في هداية الكتاب إلى ما يتفق الناس عليه من الحق ويرتفع به النزاع فيما بينهم ؟ كلا فقد رأينا كل دين في بدء نشأته يقرب البعيد ويجمع المتشتت ويملئ الشعب ويمحق أسباب الخلاف من النفوس ويقرر بين الأخذيين به أخوة لا تدانيها أخوة النسب في شيء . وهل يؤثر الاخ في النسب أخاه بماله بجلى نفسه وهو في أشد الحاجة إليه كما كان يفعل أولئك الذين يؤثرون على أنفسهم

ولو كان بهم خصاصة ؟ وهل يبدل الاخ النسبي روحه دون أخيه ويؤثره بالحياة على نفسه كما أثره بالمال ، كما كان يقع من أولئك الأبطال ؛ هذا شأن الدين وهو باق على أصله ، معروف بحقيقته لأهله ، تبينه للناس رؤساؤه ، ويمشي بنوره فيهم علماءؤه ، لا خلاف ولا اعتساف ، ولا طرق ولا مشارب ، ولا منازعات في الدين ولا مشاغب

هذا هو الدين الالهي الذي قدر الله أن يكون هداية للبشر فوق الهدايات التي وهبها لهم من الحواس والعقول ، فاذالم يهتد بها الذين أوتوها وهم علماء الدين ، وبنعوا بالتأويل ، وكثرة القال والقيل ، فهل بمس ذلك جانبها بعيب ؟ ماذا يقول القائل في أولئك الذين يؤتيهم الله العقل ثم لا يستعملونه فيما أوتي لأجله ؟ هل تنقص حالهم هذه من منزلة العقل وتدل على أن العقل ليس من نعم الله على الانسان ؟ ما ذا يقول القائل في أولئك الذين لهم أبصار وأسماع ولكن يخط الواحد منهم في سيره فلا يستعمل بصره في معرفة الطريق التي يسير فيها ، أو في وقاية رجله من الشوك الواقع عليها ، أو التبعاد عن حفرة يتردى فيها ، وربما كانت نظرة واحدة تقيه من التهلكة لو وجهها نحوها . وقد يسمع من الاصوات التي تنذره بالخطر القريب منه ثم لا يبالي بما يسمع ، حتى يصيبه ما ليس له مدفع . فهل تحط حال هؤلاء الناس من قيمة السمع والبصر ؟

هذه الآية الكريمة ترفع من شأن الدين وتعلو به الى أرفع مقام من مقامات الهدايات الالهية ، وتدفع عنه مطاعن أولئك السفهاء الذين تغشى أعينهم حجب الظواهر ، فتقف بهم دون معرفة السرائر ، يناصبهم اخق فلا يصل اليهم الا جدى صوف الباطل ، ثم يرفع النص الكرم مقام المؤمنين الصادقين ، ويحلهم من الكرامة أعلى عليين ، اذ يقول بعد ما ذكر جنانية أهل الخلاف ﴿ فهدى الله ﴾

الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق ياذنه والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم ﴿ الاذن هنا التيسير والتوفيق والذين آمنوهم أهل الايمان الصادق في كل

دين أو هم المؤمنون بمحمد ﷺ وعلى كل فالله جل شأنه يخبرنا وهو أصدق القائنين بأن المؤمنين هم الذين يهتدون لما اختلفت الناس فيه من الحق أي يصلون الى الحق الذي تختلف مزاعم الناس فيه ، فيزعم كل واحد انه عليه ، وهو اما بعيد عنه بعد الباطل عن الحق ، واما على شيء منه غير انه على حكم المصادفة والافتقار ، والذي يحمله على زعمه اما هو الهوى والميل الى الشقاق ، وهو في الخسائين على الباطل لان موافقة الحق على غير بصيرة لاتعد هداية اليه .

الايمان الصحيح له نور يسطع في العقول فيهديها في ظلمات الشبه ويضيء لها السبيل الى الحق الذي لا يخالطه باطل ، فيسهل عليها أن تميّط كل أذى يتعرّض فيه السالك ، وقد يستقطب به في مهاو من الممالك . الايمان الصحيح لا يسمح لصاحبه أن يأخذ بأمر قبل أن يتبصر فيه ، وبمحصص الدليل على أنه نافع له في دينه أو دنياه ، ولا يدع أمرا حتى يشهد عنده البرهان أو العيان بأنه ليس مما يجب عليه أن يأتيه بحكم ايمانه . الايمان الصحيح يجعل من نفس صاحبه رقيقا عليها في كل خطرة تمر به ، وكل نظرة تقع منه على ما بين يديه من آيات الله في خلقه ، لا يطير الخيال بصاحب الايمان الصحيح الا الى صور من الحق تنزل منه منزلة العبارة من معانيها ، فهو اذا اعتقد فاما يعتقد ما هو مطابق للواقع ، واذا تخيل فاما يتخيل صورا تمثل ذلك الواقع ونجليه في أقوى مظاهره ، بهذا يكون تيسير الله له الهداية الى الحق الذي يختلف فيه الناس ، فهو مطمئن ساكن القلب ، وهم في اضطراب وحرب ، تولوا عن هداية الله فحرموا توفيقه ، وكفروا بنعمة العقل والدين ، فعوقبوا عليها بقشور الشر ، وفساد الامر ، والله لا يصلح عمل المفسدين ، ولا فساد أعظم من الاختلاف في الدين (٦ : ١٥٩) إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شيء انما أمرهم الى الله ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون (٤٢ : ١٣) شرع لسكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبير على المشركين ما تدعوهم اليه (٢ : ١٣٧) فان آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وان تولوا فانما هم في شقاق فسيكفيكم الله وهو السميع العليم * ١٣٨ صبغة ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدين (

هذه آيات الله لا يعرض عنها الا بعيد عن الله والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم

هذا ما اخترنا من التأويل^(١) وهناك ماضى اليه قول أبي مسلم الاصفهاني والقاضي أبي بكر فيما نقلناه عنها سابقاً^(٢) وهو أن الناس كانوا أمة واحدة على سنة الفطرة والتمسك بالشرائع العقلية فيما يعتقدون وما يعملون وما يتحركون، والدليل على ذلك أن الفناء توجب التعقيب فيعلم من ذلك أن تلك الوحدة كانت متقدمة على جميع الشرائع الالهية فلا تكون الا الاستفادة من العقل ، ولا بد لبيان ماضى اليه قول الشيخين من بيان يطمئن اليه الجنان :

ما جاءنا من أنباء الامم وما رأيناه من آثارهم وما عرفناه من حال بعضهم اليوم يشهد شهادة لا يرتاب فيها من أدبت اليه ان العناية الالهية سارت بالانسان في جماعته كما سارت به في أفراده — يخلق الله الفرد من البشر ضعيف القوة فاقد العلم لا يعرف شيئاً من أمره كما جاء في التنزيل (١٦ : ٧٨) والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لاتعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والابصار والافئدة لعلكم تشكرون) ثم أبواه أو من يكفله سواهما يقوم عليه يقوي بقيته ويدفع عنه ما عساه يهدمها ، ويعلمه كيف يسمع وكيف ينظر وكيف يتق ببصره وسمعه ما تحشى عقبه وقمه الى أن يبلغ من السن حداً معلوماً يكون فيه الحس قد أعده لاستعمال قوة أخرى ، كانت لانزال قصرة فيه وهي قوة العقل ، ويسهل عليه أن يفكر فيما مضى وينظر فيما حضر ، ليعرف منها كيف يسلك في عمله لما يستقبل ، فكال استعداد العقل للنظر في شؤون الشخص هو منتهى نحو القوى المدركة كما أن وصول البنية الى الحد المعروف في السن المعلومة هو منتهى نمو البدن ، تلك السن هي المعروفة بسن الرشد

لم يكن من متناول قوة الصبي في زمن الصبا الا حاطة بكنهه الجمعية البشرية وما وضع الله فيها من الروابط المعنوية والمعنات الروحية التي تقوم بها بنية الاجتماع ، ولم يكن من طوق مداركه أن تخترق هذا الكون المحسوس لتصل الى معرفة

(١) يعني بالتأويل هنا التفسير لا التأويل الاصولي

(٢) هذا القول هو الموافق لما عليه الباحثون في شؤون البشر وأطوارهم في الترقى

مكونه، ويشرق عليها نور وجوده الباهر، وإنما كان كل هم الصبي منصرفاً الى تغذية جسمه ورياضة قواه البدنية، ولا يبالي بما وراء ذلك، وإذا ذكر له شيء من تلك المعاني العالية لم يتمثلها ذهنه الا في صور من الخيال هي الى الباطل أقرب منها الى الحق. كل ذلك معروف لسكل من كان طفلاً ثم صار صبياً ثم بلغ سننا عرف نفسه فيها رجلاً عاقلاً، فلاحاجة بنا الى الاطالة فيه

على هذه السنة قادت العناية الالهية جماعة البشر، لأن الحكمة قد قضت بأن يحيا الانسان الى أجله المحدود في جماعة من نوعه كما قدمنا لامناص له عن ذلك. هذه الجماعة هي التي تسمي أمة كما عرفت، ويمكنك أن تسميها بنية الاجتماع وتسمي كل فرد منها عضواً من تلك البنية فكما ينشأ الفرد قاصراً في جميع قواه ضعيفاً في جميع أعضائه. كذلك نشأت الجمعية البشرية على ضرب من السذاجة لا تبلغ بها الى تناول الشؤون الرفيعة والمعاني العالية والمعارف السامية، غير أن الذي يربي الفرد ويسوس قواه الى أن يبلغ رشده هو الابوان أو من يقوم مقامهما، والذي يكفل الجمعية ويربي قواها، ويشد بناها، إنما هو الكون وما عساه من حوادثه، والحاجات ووقعها، والضرورات ولذعها، وكما يؤدي الصبي أبواه يؤدب الجماعة شدة وقع الحوادث السكونية منها، وهي في هذا الطور لاعم لها الا المحافظة على بنيتها الجسمية، وحاجتها البدنية، وليس عندها من الزمن ما تفرغ فيه للأدنى من ذلك كما هو شأن الطفل في صباه

والآثار التي عثر عليها الباحثون في مبادئ ظهور الصناعة عند البشر وارتقائها من أدنى الاعمال الى ما يظنه الناظر اعلاها اليوم تشهد شهادة كافية بأن البشر كانوا في بدء أمرهم من قصور القوي على حالة تشبه حالة الصبيان في الافراد فقد كانوا في بعض أطواره لا يهتدون إلى اصطناع المعادن القابلة للطرق كالنحاس والحديد، وإن آلا منهم للدقاع ونحوه كانت من الحجارة، ثم ارتقوا إلى استعمال النحاس، ثم ارتقوا بعد ذلك إلى استعمال الحديد، وعلى هذا النحو

كان رقي معارفهم في جميع أبواب الصنعة (١) وما عليك إلا أن تنظر كيف ابتدأوا وضع حروف الكتابة من الخط المسماري ثم لم يزلوا يرتقون فيه إلى أن وصلوا إلى ما تعرف اليوم - كل ذلك يدل على أن سنة الله في الجماعة هي بعينها سنته في الفرد منها من التدرج به من ضعف إلى قوة ومن قصور إلى كمال

كانوا في طور القصور منغمسين في الحس والمحسوس ، فإذا تخلصوا منه إلى شيء تخلصوا إلى وهم يشبه الحس ، وإنما هو ظل له يظن شيئاً وليس بشيء . إذا عجبوا كيف يموت الميت ولم يهتدوا إلى فهم معنى الموت ظنوا أنه يغيب عنهم غيبة ولكن لا يزال يتعدهم بما يؤذيهم ، كأن الموت يحدث بينه وبينهم عداوة ، فظنوا أن أرواح الاموات من جملة العدايات الضارات ، المعينات النافعات ، ولذلك كانوا يمدون لها ما يرضيها ، وكانوا يخافون أن يكروا أسماها ، وإذا سمعوا رعداً أو رأوا برقاً أو أمطرتهم السماء أو ذعرتهم الأعاصير ، تخيلوا أشباحاً مثلهم ترسل ذلك كله عليهم ، ويذهب بهم الخيال فيها إلى ما شاء من صور وتأثيل ، وهكذا كانت شأنهم في كثير من الحيوان والنبات والنجوم إذا استعظموا منها شيئاً اعظم مضرتهم أو نكسرة منفعتهم ، توهوا فيها ما شاءوا من قدرة تفوق قدرتهم ، وإرادة تقهر ارادتهم (٢)

ولم يزلوا كذلك والتجارب تكشف لهم خطائهم فيما يتوهمون ، والحوادث تأتيهم بعلم ما لم يكونوا يعلمون ، حتى عقلوا كثيراً من أصول اجتماعهم وكشفوا شيئاً من عناصر بديته المعنوية ، ووصلوا إلى منزلة الاستعداد لأن يفهموا باطن

(١) لم يذكر الاستاذ ارتقاءهم بعد ذلك إلى عصر البخار ثم إلى عصر الكهرباء وهو عصرنا اكتفاءً بالإشارة إليه بهذه العبارة وما بعدها من الارتقاء في الخط بالاجازة ولكنه أشار بقوله قبلها : ما يظنه الناظر أعلاها - إلى أن ارتقاء صناعة البشر ليس له حد ، وقد ارتقت بمده رحمه الله تعالى ارتقاء عظيماً

(٢) وهذا الخوف منها والرجاء فيها كانا مبدأ عبادتها ، إذ العبادات كلها بعينها الخوف من الضر والرجاء في النفع ما هو فوق الأسباب المسخرة للبشر وهو السلطان الإلهي الأعلى - سلطان الرب الخالق المتصرف بمشيئته وحكمته

ما عقلوا وسر ما عرفوا . ولأن يخلصوا من هذا العالم الجسماني الذي كانوا فيه إلى عالم روحي كانوا يسرون في طلبه من حيث لا يشعرون .
هناك تهيأ لهم أن ينتقلوا من طرر قصور الصبي إلى أول سن الرشد ، فحاجتهم النبوة تهديهم إلى ما يستقبلونه في ذلك الطور الجديد - طور يكون واضع النظام لاجتماعهم فيه هو الله جل شأنه ، ويكون المحدد لصلاتهم بربهم تعال آسماءه هو الرحيم بهم العليم بمصالحهم ، وهو مع ذلك مما لا تحدده عقولهم ، ولا نسمو إلى اكتناه ذاته معارفهم ، هذه هي الغاية التي لم يكن لهم أن يدركوها وهم في قصور الطور الاول قد انتهوا إليها عند دخولهم في الطور الثاني

فهذا هو قول الشيخين : ان الامة الواحدة هي الامة الآخذة في اعتقادها وعملها بالعقل ومقتضى الفطرة قبل النبوات جميعها ، لان ظهور النبوة والاستعداد لقبولها طور من الاطوار البشرية لا يصل إليه النوع الانساني إلا بعد التدرج في طريق طويلة تنتهي غايتها إلى هذا النوع من الكمال الانساني

الاستعداد لظهور النبوة وقبول دعوتها مرحلة من المراحل التي تسير فيها الجمعية البشرية عند ما تبلغ العقول معزلة من القوة ومقاما من السلطة ، وتبلغ النفوس من قوة التصرف في المنافع والمصار ، ما يخشى منه من ضلالتها ، أن يوقعها في خباياها ، عند ما تعظم مطاعم العقول والشهوات وتتسع مجالاتها وتبعد مطامحها ، هنالك يخشى على الجمعية البشرية من بعض أفرادها أو من كل واحد منهم على بقية أركانها ، كما يخشى من قوى الشاب أن تهلكه عندما تبلغ البنية حد النمو وتبدو له الشهوات في أجلى صورها ، فكما كان من حكمة الله أن يهب الشاب قوة العقل عند بلوغ السن التي تعظم فيها الشهوة ، ويقوى فيها الاحساس بالحاجة إلى توفير الرغائب ، حتى يقوده في تلك الغمار ، كذلك فعل الله بالجمعية البشرية عندما بلغت معارف أفرادها ذلك الحد الذي ذكرنا - وهبها تلك الهداية الجديدة ، وأيدها بالدلائل التي يبلغ من قوة العقول أن تدركها ، وان تصل من مقدماتها إلى نتائجها ، تلك الآيات ؤيينية التي جاء بها الانبياء على اختلاف أزمانهم وأصمهم جاءت إلى كل أمة - يلائم حالتها النفسية ومكانتها العقلية ، فكان الانبياء عليهم الصلاة والسلام في

الامم ، بمنزلة الرأس من البدن . جاؤهم يبينون لهم الخير ، ويبشرونهم بحسن الجزاء لكاسبه ، ويكشفون لهم مساالك السوء ، وينذرونهم بسوء المصير لصاحبه ولما كان الاستعداد يتفاوت في الامم كانت أمة أولى من أمة بتقدم عهد النبوات فيها ، وكانت تلك الامم المتقدمة جديدة بأن تكون إماما للأمة المتأخرة ، سنة الله في الخلق .

هذا المظهر النوراني الجديد طور ظهور النبوة هو طور خير وسعادة ، طور هداية ورشاد ، وأخوة بين المهتدين فيه وسداد في أعمالهم ، ونزوع إلى تكميل غيرهم بمثل ما كملت به أنفسهم ، وإضاءة ما أظلم من جو غيرهم بمثل ماضاء به جوههم ، ولا يزالون كذلك ما قاموا على فهم ما جاء إليهم ، وما قيدوا عقولهم بنفوسهم بالحدود التي وضعها لهم ، وما وقفوا على سر ما حملوا عليه ، ولزموا روح ما دعوا إليه ، وما حذب كل واحد منهم على الآخر ليرده إذا زاغ عن الطريق المعبدة ، ويقيم على السنة المعروفة ، فهذا قوله تعالى ﴿ فبعث الله النبيين مبشرين ﴾

ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ﴿ فقد قطع الانسان في سيره إلى الكمال مرحلة أولى انتهت إلى ظهور النبوات ، ثم هو يسير في هذه مرحلة أخرى إلى أن يصل إلى منزل آخر ، ولكنه يالأسف ليس بالمنزل المرتضى .

ذلك أنه إذا طال الامد على عهد النبوة وبعد الناس عن مبعث نورها ، وينبوع نعيمها ، قست القلوب ، وأظلمت الانفس ، وغلبت الشهوات ، فضعف العلم بسر الدعوة ، وأهملت الجمعية تقويم الطريقة ، واستعمل أهل العلم بالدين ، قصوص الدين فيما يضييع حكمة الدين ، ويذهب بأثره في الناس ، فيقع الاختلاف والاضطراب ، ويتقلب سبب السعادة الاولى ، عاملا للشقاء في لاخرى ، وذلك باتباع خطوات شيطان الرئاسة ، والانقياد لغوايات السياسة ، فهذا قوله تعالى

﴿ وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم اليينات بغيا بينهم ﴾ هذا طور ثالث للجمعية البشرية ، ومرحلة تسير فيها ما شاء الله أن تسير

حتى تذوق وبال أمرها ، وحتى تبصر عواقب أخلاف بما كان من فوائد الالفة .
وحتى تردها الضرورت إلى النظر فيما أغضت عنه ، وإلى الرجوع إلى ما خرجت
منه ، فتعود إلى نحو ما عرض من العادات ، وتنقية القلوب من فساد الاعتقادات ،
وتطهير النفس من رديء المللكت ، فتشرق لها شمس الحق الاول ، وتقوم على
الطريق الامثل ، وتعود الطائفة إلى النفوس ، ويتساوى في الحق الرئيس .
والمرءوس ، ويجتمع الناس على التنزيل ، ويتحدون على صحيح التأويل ، وهذا قوله
تعالى ﴿ فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق باذنه ﴾

تلك الاطوار التي لا بد للبشرية أن تمر فيها حتى تبلغ كمالها ، وتمال تفصيلها
وابهامها ، وتأويل الآية على طريقة الشيخين المذكورين لا يضايق ما اخترناه .
ولا يبعد عما قررناه ، ومكانة آدم عليه السلام من الرسالة لا تزعج صاحب هذا
التأويل ، ولا تلتصق به شذوذ أبعد من شذوذ من قال كان الناس على الحق
متقين ، ثم كان الخلاف أثر بعثة النبيين ، ولا شذوذ من قال ان الناس هم آدم
كما علمت . فانه يقول ان رسالة آدم لم تعلم بم كانت وإلى من كانت ، فيجوز أن
تكون بأمور تتفق مع تلك السداجة الاولى إلى واحد أو أكثر من أبنائه ، ثم
نسي ما كان من ذلك عند من باغى ، وجهل عند من لم يبلغه . على أن ما سبق في
تأويل قوله تعالى (٢ : ٣٠) تجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء) من رأي
ابن عباس وأناس معه من أن الارض كان فيها عمار يعملون فيها ما يعمل بنو آدم ،
يسمح لصاحب التأويل أن يقول ان آدم عليه السلام مع بنيه كانوا في عارة الارض
كولد نوح ، وأن الارض كانت معمورة من قبله بأقوام قيمهم تلك الصفات
البشرية ثم انقرضوا وخلفهم آدم ، كما تنقرض أمة وت خلفها أمة ، يهلك الله صنفاً
وينشئ آخر والنوع واحد ، ولا يزال الهالك يترك أثراً للباقي يحدث فيه فكرة .
ويثير في نفسه عبرة ، ويكون ذلك سلماً له إلى رقي كان من قبل دونه ، وان مثال
هذه الاعتراضات التي تكاد تكون ضرورياً من إنكار المشهود لقول قائل انه غير
موجود . لا تقف دون العقلاء من أهل الدين خصوصاً علماء الدين الاسلامي .

الذي لم يحدد تاريخاً خاصاً يبتدىء منه الوجود الانساني في هذه الارض . فهم أحرار فيما ينظرون ما داموا لم يخالفوا نصاً قاطعاً من نصوص الكتاب ، ولا سنة خلا نقلها من الريب والاضطراب . والله أعلم بما أودع كتابه من أسرار وحكمة ، نسأله سبحانه أن يتم علينا هذه النعمة ، فهو حسبنا ونعم الوكيل ، وهو يقول الحق . ويهدي السبيل (انتهى ما كتبه الاستاذ الامام)

وأقول ان المتبادر من الآية عند العرب الأئمين في عصر التنزيل الذين لم يعرفوا شيئاً من تاريخ البشر وأطوارهم يحملونها عليه يتفق مع هذا التفصيل في جعلته ، وهو أن الناس كانوا بمقتضى الفطرة أمة واحدة أي لوحدة مداركهم وحاجات معيشتهم وقلة رغائبهم وسهولة تعاونهم على مطالبهم ولكن عرض لهم الاختلاف بالفرق والانقسام إلى عشائر قبائل فشعوب تختلف حاجاتها وتعدد رغائبها ، ويلجئها ذلك إلى تعاون كل عشيرة فقبيلة فشمع فيما تختلف فيه أفرادها أو تختلف هي وغيرها . فاشتدت حاجتهم إلى تشريع رباني وهداية إلهية يدعون لها الافراد والجماعات — فبعث الله النبيين فيهم مبشرين من أطاعهم بالسعادة والثواب ، ومنذرين من عصاهم بالعذاب . وأنزل معهم الكتاب المفصل لما يحتاجون إليه من التشريع الديني والمدني بالحق ، ليحكم تعالى فيه — أو ليحكم الكتاب نفسه بمعنى يمين الحكم — بين الناس فيما اختلفوا فيه من الحقوق الشخصية وغيرها ، وما اختلف فيه أي الكتاب بعد الانعام به إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءهم البينات فيه وفي تنفيذ نبيهم له بغياب بينهم . من بعضهم على بعض . ثم يظهر فيهم مصاحبون يهديهم الله بإيمانهم للمخرج مما اختلفوا من الحق بأذنه ومشيئته ، كما وقع لأهل الكتاب ثم للمسلمين الذين حذرهم الله تعالى أن يكونوا مثلهم بقوله (ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل ففأطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون) وهم لأن احوج الى هذا الإصلاح من كل زمان مضى

هذا المعنى الجميل لا يخالف النصوص في شيء ، وظواهر القرآن توافق نص حديث الشفاعة المتفق عليه في أن نوحا عليه السلام كان أول رسول ارسله الله

إلى أهل الأرض ، وقد حققت مسألة نبوة آدم في الكلام على عدد الرسل من تفسير سورة الانعام

(٢١٥) أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلُّوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ؟ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ

لا آية متصلة بما قبلها فقد أمر الله تعالى بالوفق والسلام، وبين سبب التنازع الخصام، وأرشد إلى ما فطر عليه البشر من حاجة بعضهم إلى التعاون مع بعض سند ما كثروا واجتمعوا وكثرت مطالبهم وتعددت رغائبهم، ومن إفضاء ذلك إلى التنازع والتعادي، ومن حاجتهم إلى نظام جامع وشرع يحدد الحقوق ويهدي القلوب، لا مجال فيه للنزاع والاختلاف، لوجوب أخذه بالتسليم لما معه أو لما فيه من البينات على أنه من عند الله، وذكر إحسان الله تعالى إليهم إذ بعث فيهم الانبياء وأنزل عليهم الكتاب ليحكم في الاختلاف. ثم ذكر اختلاف الذين أوتوا الكتاب في الكتاب نفسه وتحويلهم الدواء داء، واتخاذهم الرابطة الجامعة آلة مفرقة، ثم هداية الله تعالى أهل الإيمان الصحيح لما وقع الاختلاف فيه من الحق برجوعهم إلى الأصل وهو الكتاب، وتحكيمه في كل خلاف، وقبول حكمه في كل نزاع، والاعتقاد في فهمه على ما يؤخذ من جملته، وما علم عالماً صحيحاً من سنة من جاء به، ومن صدقوه وأتبعوه قبل الخلاف

بين الله تعالى هذه الاطوار في البشر فأثار لنا الطريق التي اهتدت فيها الأمم بعد ضلال. ثم ضلت بعد هداية، لتكون على بصيرة فيما نعمله للخروج من الخلاف بعد وقوعه، ولكن الذي يحاول الخروج من الخلاف يكون عرضة لبني المختلفين وإيذائهم، وهكذا أهل الضلالة يبعثون على أهل الهداية وإن كان هؤلاء يريدون خيرهم، سواء كان ما يحاولون هدايتهم فيه هو الضلال في طريق الفطرة والعقل، أم الضلال في تأويل الكتب والتصرف في الشرع، ولذلك فتنى على ذلك

تالبيان كله بتمثيل حال الاولين الذين سلكوا سبيل الهداية في أنفسهم وقصدوا
الهداية الناس وإرشادهم إلى السلم والوفاق فقال

﴿ أم حسبكم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم ﴾ الخ
الخطاب موجه إلى الذين هداهم الله تعالى إلى السلم والخروج من ظلمة الخلاف
إلى نور الكتاب الذي أنزل لآلته في زمن النزول وفي كل زمن يأتي بعده .
وتوجيهه أولاً وبالذات إلى أهل الصدر لاول من المسلمين الذين كانوا خير أمة
أخرجت للناس أكبر عبرة وموعظة لمن يأتي بعدهم ويحسبون أنهم بمجرد الانتماء
إلى الاسلام يكونون أهلاً لدخول الجنة ، جاهلين سنة الله تعالى في أهل الهدى منذ
خلقهم ، وهي تحمل الشدائد والمصائب والضرر والايذاء في طريق الحق ، وهداية
الخلق . وعجيب من أمة ينطق كتابها بالآيات البينات على أن سنة الله في خلقه
واحدة لا تحويل لها ولا تبديل ، ويعتبرها دائماً على الاعتبار بها والسير في الارض
لمعرفة آثارها في الامم البائدة والامم الحاضرة . ثم هم يحولون هذه السنة عنهم ،
ويفشرو فيهم الانكار على من معظمهم ، بما حكى الله تعالى عن حال تلك الامم التي
كفرت بنعمة الله تعالى عليها بالسلم والهداية قائلين انه يقيس المسلمين على الكافرين !!
« أم » ههنا هي الواقعة في طريق الاستفهام وهي تشعر بمحذوف دل عليه
الكلام في وصف الذين خلوا من قبلنا وما نالوا من البأساء والضراء ، كأنه يقول
قد خات من قبلكم أم أوتوا الكتاب ودعوا إلى الحق فأذاهم الناس في ذلك
فتصبروا وثبتوا . فتصبرون مثلهم على المكارة ، وتثبتون ثباتهم على الشدائد أم
حسبكم أن تدخلوا الجنة وتناولوا رضوان الله تعالى من غير أن تفتنوا في سبيل
الحق فتصبروا على ألم الفتنة وتؤذوا في الله فتصبروا على الايذاء كما هي سنة الله
تعالى في أنصار الحق وأهل الهداية في كل زمان ؟ . قرر الاستاذ معنى الآية على
هذا الوجه وقال انه معنى ظاهر من الآية يسبق إلى ذهن كل قارئ ، وإن لم
يستطع كل أحد التعبير عنه وإذا جعلت « أم » بمعنى الاضراب والاستفهام معاً
كما قال المفسر (الجلال) بطل هذا المعنى الذي يملك النفس ويؤثر في الوجدان

قيل إن الآية نزلت في غزوة أحد حين غلب المشركون المؤمنين وشجوا رأس النبي ﷺ وكسروا رباعيته . وقيل إنها نزلت في غزوة الأحزاب إذا اجتمع المشركون مع أهل الكتاب وتحالفوا على الإيقاع بالمسلمين وقطع دابرهم ، وأصاب المؤمنين يومئذ ما أصابهم من الجهد والشدة والجوع والحاجة وضروب الأذى . وإذا انتقض التفاق على المؤمنين الصادقين ، وقالوا كما قال الذين في قلوبهم مرض (٣٢ : ١٢) ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً) — وإذا جاءهم الأعداء من فوقهم ومن أسفل منهم ، وذراغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وظنوا بالله الظنون . وإذا تبلى المؤمنون وزلزلوا زلزلاً شديداً . وإذا رأى المؤمنون الصادقون الأحزاب متحزبة عليهم فسالوا على قتلهم وضعفهم وجوعهم وعريهم (٣٣ : ٢١) هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله : وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً

أمثال هؤلاء يخاطبهم الله تعالى بقوله (أم حسبكم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم) أي وإلى الآن لم يصيبكم ما أصاب الذين سبقوكم بالآيمان والهدى والدعوة إلى الحق من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين ، فلمراد بالمثل الوصف العظيم والحالة التي لها شأن بحيث يضرب بها المثل . أي لم تكن لكم هذه الحال الشديدة إلى الآن . وهذا النبي المستغرق مما يوجه الأذهان

إلى طلب العلم بما أصاب أولئك الأقوام ، ولذلك وصله بالبيان فقال ﴿ مسهم البأساء

والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ﴾ البأساء الشدة تصيب الإنسان في غير نفسه وبدنه كأخذ المال والإخراج من الديار وتهديد الأمن ومقاومة الدعوة ، وفسره الجلال بالفقر وهو من أثره ، والضراء ما يصيب الإنسان في نفسه كالجرح والقتل ، وفسره الجلال بالمرض وهو بعضه ، وأما الزلزال فهو الاضطراب في الأمر يتكرر حتى يكاد يزل صاحبه عنه ، وهذا الحرف فيه لفظ زل مكرراً ومعناه زلق وانحرف ، فزلزله بمعنى هزه ودعاه ليزله عما هو عليه ، أي إنهم وصلوا إلى درجة حدوث الاضطراب والاشراف على الزل في مجموعهم كما قال تعالى في المؤمنين يوم لا حزاب (وزلزلوا زلزلاً شديداً) والآية التي

ينقسمها تصرح بأن بعض السابقين كانوا شذوذاً لا من هذا الذي وقع للمسلمين في يوم الاحزاب . ولعل الغاية التي وصلوا اليها ولم يصل اليها سلفنا هي قوله تعالى « حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله » أي حتى وصلوا الى غاية من الشدائد والاهوال لم يروا فيها منفذاً لسبب من أسباب الفوز لان قوة أعداء الحق أطلت بهم من كل جانب ودنت حتي أخذت بأكظامهم ، فاعتقدوا أن وقت العناية الالهية والنصر الذي وعد الله به من ينصر الحق قد حان وقته أو أبطأ فاستعجلوه بقولهم : متى نصر الله؟ فاجابهم تعالى ﴿ أَلَا أَنْ نَنْصُرَ اللَّهَ قَرِيبًا ﴾ . بيان نصرهم وكف عنهم شر أهل البغي وأيد دعوتهم وجعل كلمتهم العليا وكلمة الذين كفروا هي السفلى وكان الله قوياً عزيزاً ومثل هذه بل أشد قوله تعالى (حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فنجي من نشاء) الآية فالرسول هنا للجنس وقد ذكرت هذه الغاية في الشدة بصيغة المضارع تصويراً لها كأنها حاضرة ، ليمثل المخاطب هولها وشدتها فيخف عنده ما يجده مما هو دونها . وما من شدة تصيب الأمم الا وهي دون الشدة التي يستعجل بها رسل الله تعالى نصر الله استبطاء له وهم أعلم الناس بالله تعالى وأشدهم اتكالا عليه وتسليماً فيه . ولعمري إن المسلمين لم يصلوا في تلك الشدة التي حلت عليها الآية الى تلك النهاية التي قال فيها أولئك الرسل ما قالوا ولقد قتل بعض النبيين ضروباً من القتل حتى ورد أن منهم من نشر بالمنشار حياً وناهيك بأصحاب الأخدود الذين أحرقوا المؤمنين فيه بالمر (٨٥ : ٨) وما تقوموا منهم الا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد . وحاصل معنى الآية لوم المؤمنين على ذلك الحسبان وبيان أن ما كانوا فيه من الشدة والألم في وقعة الاحزاب أو وقعة أحد ان صح ان لاية نزلت في ذلك الوقت أو في عامة أحوالهم قبل فتح مكة اذ كانوا يألمون من منازعة المشركين واليهود والمنافيقين ويقاسون من جحودهم وكيدهم ما يقاسون — كل ذلك قليل في جنب ما قاس غيرهم ممن سبقهم بالايمان والهدى اذ كان استعداد البشر أضعف ببقية أنفسهم أشد وعنادهم أقوى .

جاء في معنى هذه الآية آيات أخرى منها لفظاً ومعنى قوله تعالى في سورة

آل عمران (١٢:٣) أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين) وهذه نزات في غزوة أحد لا محالة وأما قوله تعالى في سورة التوبة (٩: ١٦) أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة والله خير مما تعملون فقد قيل إنه خطاب للمؤمنين وقيل للمنافقين . ومن خطاب المؤمنين في مثل هذا المقام قوله في أول سورة ألم العنكبوت (٢٨) ألم، أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون * ٢ ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين * — الى قوله — ١٠ ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أؤذي في الله حمل فتنة الناس كذاب الله) . فهذه الآيات وأمثالها تؤيد الآية التي نفسرها في ابتلاء الله المؤمنين الصادقين الداعين الى الحق ، ولكنت تجد أكثر المسلمين الذين تتلى عليهم دائما في غفلة عنها ، فمن لم يفعل عن تصور المعنى في ذهنه يغفل عن انطباقه على الواقع ، ولذلك نجد الكثيرين منهم يذهبون الى أن من يؤذى في سبيل الحق بالقول أو بالفعل ، كان وقوع الاذى عليه دليلا على أنه مبطل لا يطلب الحق ! ! فما أجهلهم بكتاب الله؟ وما أبعدهم عن العلم بمنين الله؟ وما أغفلهم عن تأويلها في خلق الله؟

اتخذ المسلمون هذا القرآن مهبثورا الا ما يتغنون به من بعض سورده في المحافل الجامعة، ففقدوا روح الدين ، وتبع الروح الجثمان الاقليلا من الرسوم الماثلة في جانب بروج البدع المشيدة، وانما أبقى على تلك الرسوم تمسك العوام بها ، فلولا هم لما بالى بها الامراء والرؤساء الذين لا قوام اعظمهم الاخضوع العامة لهم ، لذلك جعلوا الدين رابطة سياسية وآلة لاختضاع العاسة، ولذلك يحاربون من يدعو الامة الى الكتاب العزيز ، ويستعينون عليه بعلماء الرسوم الذين يستمدون سلطتهم ورزقهم وجاههم منهم ، لئلا توجه نفوس الجمهور الى الكتاب ، فيعرو رياستهم الزوال والاضطراب ،

هذا هو الحجاب بين الامة وبين الاعتبار بالقرآن والاهتداء بهديه المسلم العارف بتاريخ دينه يعرف قيمة أصحاب الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، والمسلم

العامي المقلد يعظمهم في خياله وشعوره، أشد مما يعظمهم العارف في فكره وقلبه، حتى ان الكثيرين أو الاكثرين من المسلمين يكادون يرفعونهم عن مرتبة البشرية ويكاد تعظيمهم اياهم يشبه العبادة، ولكن ما بال هؤلاء وأولئك لا يعتبرون بما خاطبهم الله تعالى به في مثل هذه الآية، ولا يتأملون كيف عاتبهم الله تعالى هذا العتاب الشديد على ظنهم وحسبانهم أنهم يدخلون الجنة وهم يرفعون من البأساء والضراء واحتمال الشدائد في سبيله ما قامى الذين سبقوهم بالايمان، حتى استحقوا الجنة؟ يقول الاستاذ الامام أن الآية عتاب لهم، وقال غيره من المفسرين انها انكار عليهم، هذا القول أشد من قوله. فكيف لا ينكر مسلم على نفسه مثل هذا وهو يعلم أنه دون الصحابة الكرم ايماناً واسلاماً ودعوة الى الحق وصبراً على المكراه في سبيله؟ لماذا لا ينكر على نفسه وعلى من يراه من أمثاله الذين يقولون آمنا بالله، فاذا أذوي أحدهم في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله، وأثر ما عند الناس على ما عند الله؟ بل لماذا لا ينكر على نفسه وعلى من يراهم لا همهم الا زينة هذه الحياة الدنيا والاستكثار من المال ولو من غير حله، والانبساط في الارض ولو بالبغي في الارض والاعتداء على حقوق الجيران وغيرهم؟ أم حسبت أن هؤلاء الذين يفشون أنفسهم ويفشون الناس بدعواهم الايمان، وغرورهم بالانتساب الى الاسلام، كانوا بدعا من الناس بمجهلهم وأمانتهم؟ كلا ان هذه كانت حال كل أمة طال عليها الامد بعد زمن البعثة، فقسست من أفرادها القلوب، وفسقوا عن أمر ربهم فلم يزنوا ايمانهم ولا اسلامهم بالميزان الذي وضعه الله تعالى في كتابه ليميز به الراجح والطائش وبه حكم على أصحاب النبيين وأتباعهم بما قرأت في الآية الكريمة وما ذكرنا في تفسيرها مما في معناها. وانما البدع الغريب، والامر العجيب، الذي لم يعرف له نظير في أمة من الامم، هو ما نراه في هذا العصر من تصدي أناس لدعوى نصر الدين والزعامه فيه وحفظه على أهله، وهم لم يقرأوا كتابه، ولو قرأوه لما فهموه، ولم يتلقوا سنته وأو سمعوا ما وعوها، ولم ينظروا في عقائده ولو نظروا فيها لما عقلوها، ولم يعرفوا معظم أحكامه وما يعرفونه منها لا يهتمون به،

وأعجب من هذا وأغرب أنهم بلغوا من الوقاحة والتهجم أن صاروا يعارضون حملة القرآن ، وانصار السنة ، وعرفاء الشريعة ، وحجج العقائد ، وحكماء الاحكام ، ويجادلونهم في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ، وقد حلوا رابطة الدين ودعوا الى رابطة أخرى يسمونها الوطنية يفرقون بها بين المؤمنين - وماجرأهم على ذلك كله الاجهل العامة وقلة الذين يميزون بين العلماء العاملين والادعياء الجاهلين ، ولو كان هؤلاء على شيء من الايمان لاستحيوا من الله تعالى أن يدعوا هذه الدعاوي التي يكذبهم بها كتابه كما تكذبهم سيرة السابقين الاولين ، لكنهم لا هم لهم الا العامة التي يبتغون عندها الرزق والاستعلاء في الارض ، وهم في مأمن من فهمها معنى الايمان وصفات أهله ، لانهم يحولون بينها وبين كل من يوجه وجهها الى كتاب الله تعالى الهادي الى ذلك :

جعل الله تعالى للمؤمنين آيات ووصفهم في كتابه بصفات غيرها المحرفون واستبدلوا بها آيات النفس وصفات الخداعة التي يفتنون بها العامة . أكبر آيات الايمان وأظهرها الاهتداء بكتاب الله تعالى والدعوة اليه وإشاره على كل ما يخالفه ، واحتمال البأساء والضراء في سبيل الحق الذي يهدي اليه والخير الذي يحض عليه ، ويدخل في ذلك بذل المال والنفس ، فمن يخل بما آتاه الله من مال وقوة على تأييد كلمة الله ، فلا وزن لايمانه في كتاب الله :

فيا أيها المسلم المقلد لو الذيه ومعاشره وأقرانه ، الذي يحسب انه من أهل اللجنة لانه ولد وربى بين المسلمين ، ورضي ببعض ما هم عليه من رسوم الدين ، أو انكلا على شفاعة الاولين ، اقرأ أو اسمع وتأمل ما عاتب الله تعالى به أفضل سلفك الصالحين ، وما ذكره عن سبقهم من أتباع النبيين ،

ويا أيها العلماء بالرسوم والعالمون على قراءة كتب العلوم ، ليس بأمانيتكم ولا أمانى الكاتبين فقد وضع كتاب الله الميزان للصادقين والمنافقين ، فعليكم أن تتذكروا وتذكروا به اخوانكم المسلمين ، ولا يصدنكم عن آيات الله والاهتداء بكتاب الله أنكم فضلتهم الناس بقراءة مطولات الكتب العربية ، وصرف السنين الطوال في فهم الاحكام الفقهية ، والاكتفاء من علم الايمان بمثل البنوسية والنفسية فان ينبوع

الايمان كتب الله تعالى فأحصوا ما فيه من الشعب والآيات على الايمان (٩:٥٥)
وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان

ويا أيها الامراء والسلاطين، الذين انتقمتم لأنفسكم الرياسة في هذا الدين،
ورافضة السلطة الدينية على العلماء والحاكمين، اعملوا انكم مخاطبون كغيركم بهذه
الآيات، بل هي موجهة الى غيركم بالتبع واليكم أولا وبالذات ، لأنكم سلبتم الامة
الاستطاعة على العمل للملة ، ومنكم من سلبها أيضاً حرية القول والدعوة ، فعليكم
أن تخفضوا من هذه الكبرياء ، وأن تتحملوا في سبيل الحق البأساء والضراء ،
وان تبدلوا في تأييد كلمة الله قناطير الذهب التي تخزنون، وهذه المزارع والدساكر
التي تتأثلون ، فان ما تستدلون به على أصل سلطتكم من القرآن ، مقيد بكونكم من
أهل الايمان ، وهذه آيات المؤمنين ، وما أنعم الله به أهل الايمان الصادقين ، بل
عليكم بعد إقامة شعب الايمان في أنفسكم ، أن تقيموها في أنفس رعييتكم، وتكونوا
قدوة لعالمهم وعامليهم ، وغنيهم وفقيرهم ، لتكونوا أئمة هدى ونور، لا أئمة ضلالة
وفجور ، والا كان عليكم إنكم ، وانتم جميع الامة التي منيت بكم .

وجملة القول انه يجب على كل مكلف أن يتحقق بصفات الايمان التي جاء بها
الكتاب العزيز ، ويعلم ان للايمان عليه حقوقا عامة وواجبات خاصة ، هن آيات
الايمان وعمراته في الانفس والاعمال، وبهن يؤدي الى غايته من سعادة الدارين،
ولم يسلب الله هذه الامة تلك النعم التي أنعم بها على سلفها بقيامهم بحقوق الايمان
الا بعد التفريط فيها . ثم إنهم لينون أنفسهم بالجنة ، يدلا عما فاتهم من السيادة
والعزة ، غافلين عن الآيات البينات التي تفرض عليهم من الاعمال لسعادة الآخرة
أكثر مما تفرض عليهم لسعادة الدنيا ، وان في كل آية منها ما يكفي لاستئصال
جراثيم الغرور والاماني فما بالك بمجموعها ، فعلى المسلم المذعن ان يشمله تطبيقها
على نفسه ، عن اشتغاله بعيوب غيره ، وان يتعاون مع أهلها على البر والتقوى ،
ويحجر الراغبين عنها غرورا بزينة الحياة الدنيا .

ومن مباحث اللفظ في الآية أن الجلال فسر « أم » هنا بيل والهمزة تجعلها للاضراب مع الاستفهام ، تبعاً للبصريين ووفقاً لكثير من المفسرين وقال الاستاذ الامام ان « أم » تقع في أول الكلام فلا يصح فيها المعنى المشهور اذ لامعي الاضراب في أول القول وما استشهدوا به من الشعر لا يشهد اقوهم بل يصح على أن تكون « أم » في الآية للاستفهام المجرد وهو ما قاله الزجاج . وقد فسر الآية بنحو ما تقدم وهو مبني على جعل « أم » للمعادلة وحذف ما عطف عليه ، وقال في المعنى إن الزمخشري هو الذي أجاز هذا وحده ، ثم قال وجوز ذلك الواحد أيضاً وعزا مجيئها للاستفهام المجرد الى أبي عبيدة . ثم قال : ونقل ابن السجري عن جميع البصريين أنها أيداً بمعنى بل والهمزة جميعاً ، وإن الكوفيين خالفوهم في ذلك ، والذي يظهر لي قولهم اذ المعنى في نحو « أم جعلوا لله شركاء » ليس على الاستفهام

وذكر سيبويه في الكتاب ان « أم » المتصلة لا تخرج عن معنى المعادلة والتسوية وان « أم » المنفصلة تجيء بعد الاستفهام كما تجيء بعد الخبر وبعد ان مثل فلما قال : ويمتدله أم هنا قوله عز وجل (١ : لم تنزل الكتاب لاريب فيه من رب العالمين . ٢ أم يقولون افتراء) فجاء هذا الكلام على كلام العرب ليعرفوا ضاللتهم الى أن قل - ومثل ذلك قوله (٤٣ : ١٦ أم اتخذ ما يخلق بنات وصفاكم بالبينين) فقد علم النبي ﷺ والمسلمون ان الله عز وجل لم يتخذولداً ولكنه جاء على حرف الاستفهام ليبصروا ضاللتهم : اهـ

وفسر الجلال « لما » بلم وهو غير صحيح ولم يقل به أحد بل قال سيبويه ان لما لنا كيد النبي في مقابلة الاثبات المؤكدة ، كأن يقول أحد ان فلاناً جاء فنقول لما يجيء ، وهذا قد يصح في الآية لان المقام مقام تأكيد أنه لا وجه لحسابهم أن يدخلوا الجنة ولم يأتهم بعد ما أصاب من قبلهم ، وقال الزمخشري ان لما للنبي مع توقع الحصول ، ولم للنبي المنقطع ، وهو الذي يتجه في الآية وأمثاله . وفي المعنى ان « لما » تغارق « لم » في خمسة أمور فراجع هناك

(٢١٦) يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ
فَلِلَّهِ الدِّينَ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ : وَمَا
تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ

قلنا في تفسير قوله تعالى (١٧٢ يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم)
الخ إن ما تقدم من أول السورة إلى تلك الآية كان في القرآن والرسالة وإن تلك
الآية وما بعدها إلى قوله تعالى (٢٤٣ ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم) في سرد
الاحكام العملية . ثم أشرنا إلى هذا بعد ذلك وقلنا انه لا حاجة إلى التناسب بين
كل آية وما يتصل بها ، ويظهر هذا أتم الظهور إذا كانت الاحكام المسرودة
أجوبة لأسئلة وردت أو كان من شأنها أن ترد للحاجة إلى معرفة حكمها كذه
الآية على أن ما تقدم من بيان التحام آيات القرآن والتشامها غريب ، حتى في سرد
الاحكام التي يظهر يادي الرأي أن لا تناسب بينها . فقوله تعالى ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا
يُنْفِقُونَ﴾ الخ متصل بما قبله في المنزى فإن الآيات السابقة دلت على أن حب
الناس لزينة الحياة الدنيا هو الذي أغراهم بالشقاق والخلاف ، وأن أهل الحق والذين
هم الذين يتحملون البأساء والضراء في سبيل الله وابتغاء مرضاته ، ومنها ما يصيبهم
في أنفسهم وأموالهم ، وذلك مما يرغب الانسان في الاتفاق في سبيل الله ، وبذل
المال كبذل النفس كلاهما من آيات الايمان ، فكان السامع لما تقدم تتوجه نفسه
إلى البذل فيسأل عن طريقه فجاء بعده السؤال مقرونا بالجواب

وقد ورد في أسباب النزول أن السؤال وقع بالفعل . أخرج ابن جرير عن
ابن جريج قال سأل المؤمنون رسول الله ﷺ أين يضعون أموالهم فنزلت الآية .
وأخرج ابن المنذر عن أبي حيان أن عمرو بن الجوح سأل النبي ﷺ ماذا
تنفق من أموالنا وأين نضعها ؟ فنزلت . قال بعض المفسرين ان هذا من رواية
أبي صالح عن ابن عباس وقال غيره انها من رواية الكلبي عنه وهي واحدة قالوا
انها أوهى الروايات عنه . وعن عطاء عنه أنها نزلت في رجل آتى النبي ﷺ

فقال ان لي ديناراً فقال « أنفقها على نفسك » قال ان لي دينارين قال « أنفقهما على أهلِكَ » قال ان لي ثلاثة قال « أنفقها على خادمك » قال ان لي أربعة قال « أنفقها على والديك » قال ان لي خمسة قال « أنفقها على قرابتك » قال ان لي ستة قال « أنفقها في سبيل الله تعالى » هكذا أورد الحديث بعض المفسرين وهو عند أحمد والنسائي من حديث أبي هريرة بسياق آخر وهو ان النبي ﷺ قال « تصدقوا » فقال رجل عندي دينار قال « تصدق به على نفسك » قال عندي دينار آخر قال « تصدق به على زوجك » قال عندي دينار آخر قال تصدق به على ولدك » قال عندي دينار آخر قال « تصدق به على خادمك » قال عندي دينار آخر قال « أنت أبصر به » ورواه أبو داود ولكنه قدم الولد على الزوجة. ورواه أيضاً الشافعي وابن حبان والحاكم ولم يذكروا أن ذلك كان سبب نزول الآية وقد زعم كثير من المفسرين أن الجواب غير مطابق للسؤال لأنه بيان لمن ينفق عليه لا لما ينفق، وخرجوها على أسلوب الحكيم، كأنه قال أنه ينبغي السؤال ممن ينفق عليه لا عن جنس ما ينفق أو نوعه، وليس ما قالوا بصواب فإن جعل السؤال بما خاصاً بالسؤال عن الماهية والحقيقة من اصطلاح علماء المنطق لا من أساليب العربية. قال الاستاذ الامام ليس المراد السؤال عن جنس ما ينفق أو نوعه من ذهب أو فضة أو بر أو شعير وإنما السؤال عن كيفية الإنفاق وتوجيهه إلى الاحق به، وذلك مفهوم لكل عربي وليس أسلوب القرآن جارياً على مذهب أرسطو في منطقته وإنما هو بلسان عربي مبين. وسبق القول إلى بيان ذلك فقال أنه وإن كان السؤال وارداً بلفظ « ما » إلا أن المقصود السؤال عن الكيفية لأنهم كانوا عالمين أن الذي أمروا به إنفاق مال يخرج قرابة إلى الله تعالى، وإذا كان هذا معلوماً لم ينصرف الوهم إلى أن ذلك المال أي شيء هو؟ وإذا خرج هذا عن أن يكون مراداً تعين أن المطلوب بالسؤال مصرفه أي شيء هو؟ حينئذ يكون السؤال مطابقاً للسؤال، ونظيره قوله تعالى (٦٩) قالوا ادع لنا ربك لينا ما هي إن البقر تشابه علينا وإذا إن شاء الله لم تهدون * ٧٠ قال انه يقول انها بقرة لا ذلول) الخ وإنما كان الجواب موافقاً لذلك السؤال لأنه كان من المعلوم أن البقرة هي

البهيمة التي نشأتها وصفتها كذا فقوله « ما هي » لا يمكن حمله على طلب الماهية فتعين أن يكون المراد منه طلب الصفة التي بها تتميز تلك البقرة عن غيرها ، فهذا الطريق قلنا ان ذلك الجواب مطابق لذلك السؤال ، فكذا همنا لما علمنا أنهم كانوا عالمين بأن الذي أمروا بانفاقه ما هو ، وجب أن يقطع بأن مرادهم من قولهم « ماذا ينفقون » ليس هو طلب الماهية بل طلب المصرف فلمنا حسن هذا الجواب . اهـ

وقيل ان السؤال كان عن الامرين — ما ينفق وأين ينفق كما في بعض الروايات فذكر في إirاده عنهم الاول وحذف الثاني للعلم به ودلالة الجواب عليه

فانه ذكر فيه الامرين وهو قوله تعالى ﴿ قل ما أنفقتم من خير ﴾ وهذا هو المنفق والخير هو المال وتقدم في تفسير (١٨٠) ان ترك خيراً الوصية للوالدين) ان اكثرين قيدوه بالكثير ، ولكن قوله هنا من خيريم القليل والكثير لدخول « من » التبعيضية عليه وتشكيكه . وقال بعضهم ان التعبير عن المال بالخير يتضمن كونه حلالا فكأنه قال ان الانفاق والتصدق يكون من فضل المال الكثير الحلال

الطيب وأما بيان المصرف فهو قوله ﴿ فلولوالدين والاقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل ﴾ قدم الوالدين لمكانتهما وفسروا الاقربين بالاولاد وأولادهم ولا شك أن أقرب الناس إلى المرء أولاده ان وجدوا ، وإلا كان أقربهم إليه بعد والديه اخوته ، وما اختير لفظ الاقربين هنا إلا لبيان أن العلة في التقديم القرابة فمن كان أقرب كان أحق بالتقديم . وكان الذين حملوا لفظ الاقربين على الاولاد خاصة أرادوا جعل الآية للنفقة الواجبة في الفقه ، وهي تجب للوالدين والاولاد عند الحاجة بالاجماع ، والنفقة في الآية أعم ، وهؤلاء اليتامى والمساكين لا يجب على فرد معين من المكلفين الانفاق على يتيم أو مسكين معين منهم من حيث انه يتيم أو مسكين ، ولكنهم أحق بالصدقة المفروضة والمندوبة بعد الاقربين ، فالآية عامة في النفقة وأحق الناس بها . ومن أغرب ما قيل فيها زعم بعضهم أنها منسوخة بآية الموارث كأنها اشبهت عليهم بآية الوصية للوالدين والاقربين

على أن دعوى النسخ هناك لم تسلم لهم ، فكيف بها هنا وقد ردها عليهم الجماهير
ثم قال تعالى ﴿ وما تفعلوا من خير ﴾ كلاً لافاق في موضعه بتقديم الاحق
فالاحق به ممن ذكر وهو ما يوجد في كل زمان ومكان ومن لم يذكر في هذه
الآية وذكر في غيرها كالرجل تعرض له الحاجة فتدفعه إلى السؤال — لا من
يتخذ السؤال حرفة وهو قادر على الكسب — وكذلك كتب يساعد على أداء
نجمه وكغير الانفاق من أعمال الخير ﴿ فان لله به علم ﴾ لا ينيب عنه فينبى
الجزاء والثوبة عليه بل يجزي به مضاعفاً

(٢١٧) كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ
تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ
لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ * (٢١٨) يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ
الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ
بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ
أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يَقْتُلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ
دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ قُتِلَ وَهُوَ
كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَلُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ
أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * (٢١٩) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ
هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ
وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ

أخرج ابن أسحق وابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني في الكبير والبيهقي
في سننه من طريق زيد بن رومان عن عروة قال بعث رسول الله صلى الله عليه

وسنة عبدالله بن جحش - وهو ابن عمته - في ثمانية من المهاجرين في رجب مقتله^١ من بدر الأولى وكتب له كتاباً يعلمه فيه أين يسير فقال «أخرج أنت وأصحابك حتى إذا سرت يومين فافتح كتابك فانظر فيه فما أمرتك به فامض له، ولا تستكره أحداً من أصحابك على الذهاب معك» فلما سار يومين فتح الكتاب فإذا فيه أن امض حتى تنزل نخلة فانما من أخيار قريش بما اتصل اليك منهم، ولم يأمره بقتال. فقال لأصحابه - وكانوا ثمانية - حين قرأ الكتاب سمعاً وطاعة من كان منكم له رغبة في الشهادة فليطلق معي فأنا ماض لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن كره ذلك منكم فليرجع، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد نهاني أن أستكره منكم أحداً : فضى القوم معه حتى كانوا بنجران أضل سعد ابن أبي وقاص وعتبة بن غزوان يعيرا لهما كأنهم يمتقباناه فتخلعا عليه يطلبانه، ومضى القوم حتى نزلوا نخلة فمر بهم عمرو بن الحضرمي والحكم بن كيسان وعثمان بن عبدالله بن المغيرة وأخوه نوفل بن عبدالله وأشراف لهم عكاشة ابن حصن وكان قد حلق رأسه ، فلما رأوه حليفاً قالوا عثمان ليس عنكم منهم بأس ، وأتمر بهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان آخر يوم من جمادى ، فقالوا نحن قتلتموهم انكم اثقتلتموهم في الشهر الحرام ، ولئن تركتموهم ليدخلن في هذه الليلة الحرم فليمتنن منكم ، فأجمع القوم على قتالهم ، فرمى واقد بن عبدالله السهمي عمرو ابن الحضرمي بسهم فقتله ، واستأسر عثمان بن عبدالله والحكم بن كيسان ، وافدت نوفل ، وأعجزهم ، واستاقوا العير فقدموا بها على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لهم « والله ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام » فأوقف رسول الله (ص) الاسيرين والعير فلم يأخذ منها شيئاً . فلما قال لهم رسول الله ما قال سقط في أيديهم (أي ندموا) وظنوا أن قد هلكوا ، وغنمهم إخوانهم من المسلمين ، وقالت قريش حين بلغهم أمر هؤلاء قد سفك محمد الدم الحرام وأخذ المال وأسر الرجال واستحل

(١) اسم زمان من الغفول منصوب على الظرفية وقوله رجب غلط بل كان

الشهر الحرام ، فنزل قوله تعالى (يستأثرونك عن الشهر الحرام) الآية فآخذ النبي صلى الله عليه وسلم العير وفدى الأسيرين . وفي رواية لزهري عن عروة انه لما بلغ كفار قريش تلك الفعلة ركب وفد منهم حتى قدموا على النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا أيجل القتال في الشهر الحرام ؟ فنزلت . هكذا أورد القصة بعض المفسرين وقوله في صدرها « في رجب الخ » يختلف مع قوله بعد « وكان آخر يوم من جمادى » وذكرنا ان هذه القصة كانت قبل غزوة بدر بشهرين وبعد الهجرة بسبعة عشر شهرا . وأخرجها السيوطي في أسباب النزول عن ذكر معاذا ابن اسحق من حديث جندب بن عبد الله مختصرة . وقال انهم قتلوا ابن الحضرمي . ولم يدروا أن ذلك اليوم من رجب أو من جمادى . وقال في آخرها : فقال بعضهم ان لم يكونوا أصابوا وزرا فليس لهم أجر ، فأنزل الله « ان الذين آمنوا والذين هاجروا » الآية ومشى على ذلك في التفسير . وقال الاستاذ الامام ان كلامه يفيد ان الآيات نزلت متفرقة والصواب ان الآيات الثلاث نزلت في قصة واحدة مرة واحدة

﴿ كتب عليكم القتال ﴾ الخ قالوا ان هذه أول آية فرض فيها القتال وكان ذلك في السنة الثانية من الهجرة . وقد كان القتال ممنوعا فأذن فيه بعد الهجرة بقوله تعالى في سورة الحج (٢٢ : ٣٩ أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا) الآيات ثم كتب في هذه السنة . ونقل عن ابن عمر وعطاء ان القتال كان واجبا في ذلك الوقت على الصحابة فقط وان هذا هو المراد من الآية . وذهب السلف الى أن القتال مندوب اليه واستدلوا بقوله تعالى في سورة النساء (٩٥ : ٤ فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلا وعد الله الحسني) وهو مردود بأن القاعدين هنا هم أولو الضرر العاجزون عن القتال لما نطقت به الآية وأما القاعدون كراهة في القتال فحكمهم في سورة براءة ، وقيل ان القتال يجب في العمر مرة واحدة . وقد انعقد الاجماع بعد هذا الخلاف الذي كان في القرن الثاني على ان الجهاد من فروض الكفاية إلا أن يدخل العدو بلاد المسلمين فاتحاً فيكون فرض عين . أما قوله تعالى ﴿ وهو كره لسكم ﴾ فقد عده بعضهم من

المشكلات اذ كيف يكره المؤمنون ما يكلفهم الله تعالى إياه وفيه سعادتهم ، وحمله جمهور المفسرين على الكره الطبيعي والمشقة وهذا لا ينافي الرضى به والرغبة في القيام بأعبائه من حيث نه مما أمر الله به وجعل فيه المصلحة لحفظ دينه كما قال في آيات الاذن به من سورة الحج (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد) الخ

وقوله ﴿ وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم ﴾ معناه أن من الاشياء المكروهة طبعاً ما تأتونه وأنتم ترجون نفعه وخيره كشراب الدواء البشع المر ، ومن الاشياء المستلذة طبعاً ما يتوقع فاعلمها الضرر والاذى في نفسه أو من جهة منازعة الناس له فيه هذا تقرير ما قاله المفسرون ولكن الاستاذ الامام قال انه لا يظهر على هذا

معنى وجيه لقوله عز وجل ﴿ والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾ لان هذا مما يعلمه الناس ويتوقعونه لا بما هدام الكسب اليه بمد أن كانوا غائبين عنه ، والصواب ان « عسى » في مثل هذا المقام تعيد ان ما دخلت عليه من شأنه أن يقع ، لأنه مرجو من المتكلم ومتوقع ، وأن الكره محمول على غير ما حملوه عليه. ذلك ان النبي ﷺ بعث والعرب في قتال مستحضر ، ونزاع مستمر ، وكان الغزو للسلب والنهب ، من أعظم أسباب المكسب ، وكان الصحابة قد ألفوا القتال واعتادوه وصرخوا عليه فلم يكن عندهم مكروهاً بالطبع ، ولكنهم كانوا يرون أنفسهم فئة قليلة حملت هذا الدين واهتدت به وبخشون ان يقاوموا المشركين بالقوة فيهلكوا ويضيع الحق الذي هدوا اليه وكافوا إقامته والدعوة اليه . ونم وجه آخر وهو ان كرههم للقتال لم يكن خوفاً على انفسهم أن يبيدوا ولا على الحق الذي حملوه أن يضيع ، وانما هو حب السلام والرحمة بالناس التي أودعها القرآن في نفوسهم ، وثبتها الايمان في قلوبهم ، واختيار مصابرة الكفار ومجاداتهم بالدليل والبرهان ، دون مجاداتهم بالسيف والسنان ، رجاء أن يدخلوا في السلم كافة ويتركوا خطوات الشيطان ، وعلى هذا الوجه يظهر من معنى « وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم » مالا يظهر في المعنى

الذي قبله ويفيد قوله « والله يعلم وأنتم لا تعلمون » أن قياسكم جميع الكافرين على أنفسكم ، وتوقعكم أن يزين لهم من الأيمان ما زين لكم ، هو من الأقيسة الباطلة ، فن الاستعداد في الناس يتفاوت تفاوتاً عظيماً ، فمنهم من ساءت خلقته ، وأحاطت به خطيئته ، حتى لم يبق لروح الحق منفذ إلى عقله ، ولا لحب الخير طريق إلى قلبه ، فلا تنفع فيه الدعوة ، ولا ترجى له الهداية ، ومثل هذا الفريق في الأمة كمثل الدم الفاسد في الجسم ، إذا لم يخرج منه فإنه يفسد ، ولم يأمر الله بمقتالهم ، إلا رحمة بمجموع الأمة أن تفسد بهم ، فلا يقاسون على من سلمت فطرتهم وحسنت سريرتهم ، حتى كان وقوعهم في الباطل جبراً منهم بالحق وإصابتهم ببعض الشر ، لعدم التمييز بينه وبين الخير ، وأنتم أيها المؤمنون لا تعلمون كنه استعداد الناس ولا ما يكون من أثره في مستقبلهم ، وإنما الله هو الذي يعلم ذلك فامثلوا أمره .

وأما معناه على الوجه الأول مما أورد الاستاذ الامام فهو ان سنة الله تعالى قد مضت بأن ينصر الحق وحزبه على الباطل وأحزابه ما استمسك حزب الله بحجتهم فأقاموه ودعوا اليه ودافعوا عنه ، وأن القعود عن المدافعة ضعف في الحق يفرى به أعداءه ويظلمهم بالتكليف بحزبه ، حتى يتألبوا عليهم ويوقعوا بهم ، وأنه قد سبق في علم الله تعالى أن الله لا يدان يظهر دينه وينصر أهله على قتلهم ، ويخذل أهل الباطل على كفرتهم (٢ : ٢٤٩) كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين) وقد علم الله كل هذا وأنتم لا تعلمون ما خبا لكم في غيبه ، وستجدونه في امثال أمره ، والعمل بما يرشدكم اليه في كتابه ،

ومن عجيب ما ترى العيان نقل المفسرين بعضهم عن بعض أن المراد بقوله تعالى « وعسى أن تكرهوا شيئاً » جميع التكاليف التي أمروا بها ، وقوله تعالى « وعسى أن تحبوا شيئاً » جميع ما نهوا عنه . ولا يوجد مسلم على وجه الارض يكره طبعه وتستقل نفسه جميع ما أمره الله تعالى به ، وتحب جميع ما نهاه عنه ، ولكن التقليد يذهل المرء عن نفسه وما يحب وتكره ، وعما يراه ويعرفه في الناس بالمشاهدة والاختبار . فليأمل القارئ الفرق بين هذا القول الذي يعرف بطلانه من نفسه

يرين ماقله الاستاذ الامام ، يعرف قيمة استعمال العقل فيما خلق له من غير تقييد بالتقليد وكم ترك الاول للآخر

بعد ما بين سبحانه ان القتال كتب على هذه الامة فلا مفر منه ، وان كرهه المؤمنون خشية ان يضيع الحق بهلاك أهله ، أو لما أودع القرآن قلوبهم من الرحمة ، والرجاء يجذب الناس الى الايمان بجاذب الدليل والحجة ، — وهو الارجح — بين سبحانه مسألة لا بد في هذا المقام من بيانها للحاجة الى العلم بها ، على أنه وقع السؤال عنها ، وهي مسألة القتال في الشهر الحرام فقد كانت العرب تحرم القتال في الاشهر الحرم وهي ذو القعدة وذو الحجة ومحرم ورجب ، وكان النبي ﷺ يقرر الناس على غير القبيح مما كانوا عليه ، وترك القتال أربعة أشهر من السنة حسن لانه تقليل للشراء ، لذلك كان لما فعله عبدالله بن جحش وأصحابه وقع سيء عند المسلمين والمشركون جميعاً ، على أنهم لم يكونوا يعلمون عند أخذ العير وقتل من قتلوا ان ذلك اليوم غرة رجب . قيل ان السائلين هم المؤمنون وقيل هم المشركون وقد تقدمت الرواية في ذلك ، وسياق الآية رد على المشركين ، وإرشاد المؤمنين ، وهي

﴿ يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه ﴾ أي عن القتال فيه وقرئ « عن قتال فيه » بتكرير العامل وقدم ذكره للعناية به ، ونكر القتال في السؤال والجواب

لتنويده كأنه قيل أيسح أن يقع فيه قتال ما ؟ ﴿ قل قتال فيه كبير ﴾ أي ان أي قتال فيه وان كان صغيرا في نفسه امر كبير مستنكر وقوعه فيه لعظم حرمة قتال بعضهم معناه ذنب كبير وهذا تقرير لحرمة القتال في الشهر الحرام ، قال ابن جرير حاف لي عطاء بالله انه لا يحل للناس الغزو في الحرم ولا في الاشهر الحرم الاعلى سبيل الدفع ، وان هذا حكم باق الى يوم القيامة . وقال بعضهم انه منسوخ بقوله تعالى في سورة التوبة (فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم) وانكر بعضهم هذا لانه نسخ للخاص بالعام وفيه خلاف . وقال آخرون ان الآية لا تدل — وعبارة البيضاوي والاولى منع دلالة الآية — على حرمة القتال في كل الشهر الحرام مطلقاً لان لفظ « قتال » فيها نكرة في حيز مثبت فلا نعم

وهذا القول غير ظاهر فان دلالة الآية على المنع المطلق لا يتوقف على كون لفظ القتال فيها علما ، وربما كانت دلالة النكرة فيها أدل على اطلاق الحكم في كل قتال في جنس الشهر الحرام كما بيناه في معنى تنكيرها وكونه للقنوبيع . ولهم في الآية كلام كثير ، والظاهر المتبادر أن اثبات كون القتال في الشهر الحرام كبيراً تهديد للحجة على أن ما فعله عبد الله بن جحش وما عساه بفعله المسلمون من القتال فيه مبني على قاعدة لا ينكرها عقل ، وهي وجوب ارتكاب أخف الضررين إذا لم يكن بد من أحدهما ، ولا شك أن القتال في نفسه أمر كبير وجرم عظيم ، وإنما يرتكب لازالة ما هو أعظم منه وذلك قوله تعالى ﴿ وَصَدَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أي وصد الناس ومنعهم عن الطريق الموصل اليه تعالى وهو الاسلام — وهو الذي يفعله المشركون من اضطهاد المسلمين وفتنتهم عن دينهم إذ يقتلون من يسلم أو يؤذونه في نفسه وأهله وماله ، ويمنعونه من الهجرة الى النبي عليه الصلاة والسلام ﴿ وَكَفَرُوا بِهِ ﴾ أي بالله تعالى ﴿ وَالْمَسْجِدَ الْحَرَامَ ﴾ أي وصد عن المسجد الحرام وهو منع المؤمنين من الحج والاعمار ﴿ وَآخِرَاجَ أَهْلِهِ مِنْهُ ﴾ وهم النبي ﷺ والمهاجرون وذلك كقوله في آيات الاذن بالقتال في سورة الحج (الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق الا أن يقولوا ربنا الله) كل واحدة من هذه الجرائم التي عليها المشركون ﴿ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ من القتال في الشهر الحرام فكيف بها وقد اجتمعت ثم صرح بالعلة العامة لمشروعية القتال وهي فتنة الناس عن دينهم فقال

﴿ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ ﴾ وكان المشركون يفتنون المؤمنين عن دينهم بالقاء الشبهات وبما علم من الايذاء والتعذيب ، كما فعلوا بعمار بن ياسر وعشيرته ، وبلال وصهيب وخبيب بن الارت وغيرهم . كان عمار يعذب بالنار يسكوى بها ليرجع عن الاسلام ، وكان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يمر به فيرى أثر النار بد كابرص . وعن أم هانئ قالت إن عمار بن ياسر واباه واخاه عبد الله وسمية أمه كانوا يعذبون في الله فمر بهم النبي ﷺ فقال : « صبرا آل ياسر ، صبرا آل ياسر ، فان موعدكم الجنة » وفي رواية « صبرا يا آل ياسر اللهم اغفر لآل ياسر وقد فعت »

مات يأسر في العذاب وأعطيت سمية أم عمار لابي جهل يعذبها وكانت مولاة
لنعمه أبي حذيفة بن الغيرة وهو الذي عهد اليه بتعذيبها فعذبها عذابا شديدا رجاء
ان تقبل في دينها فلم تجبه لها يسأل ، ثم طعنها في فرجها بحربة فماتت رضي الله
عنها وكانت عجوزا كبيرة ، وكان أبو جهل يقول لها مع ذلك : ما آمنت بحمد
إلا انك عشقته لجمالها : يؤذنها بالقول كما يؤذيها بالفعل . وكان يلبس عمار درعا
من الحديد في اليوم الصائف يعذبه بجره . وكان أمية بن خلف يعذب بلالا بفتنه
فكان يجبره ويمطشه ليلة ويوما ثم يطرحه على ظهره في الرمضاء ، أي يضعه
على الرمل المحمي بحرارة الشمس الذي ينضج اللحم ، ويضع على ظهره صخرة
عظيمة ويقول له لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بحمد ﷺ وتعبد اللات
والعزى . فبأن ذلك وهانت عليه نفسه في الله عز وجل ، وكانوا يعطونه لاولدان
يقربطونه بحبل ويطوفون به في شعاب مكة وهو يقول « أحد ، أحد » . وحكى
خباب رضي الله عنه عن نفسه قال لقد رأيته يوما وقد أوقدت لي نار وضوها
على ظهري فما أطعأها الا ودك (دهن) ظهري : فهذا نموذج من فتنة المشركين
الاضغاث المسكين ، وما امتنع منهم الا من له عصبية من قومه عز عليهم ايساله
فمنموه حمية وانفة للقرابة . على أن النبي ﷺ على منعة قومه وعناية الله تعالى به
لم يسلم من ايذائهم فقد وضعوا سلا لجزور (كرش البعير المملوء فرثا) على ظهره
وهو يصلي وخاف أصحابه تنجيته عن ظهره ، حتى نحت السيدة فاطمة عليها السلام
وتعرضوا له بضروب من الايذاء كفاه الله شرها كما قال تعالى (١٥ : ٩٥) انا
كفيناك المسهزئين) وسيجيء ذكرهم وبيان ايذائهم في موضعه ان شاء الله تعالى
هذا ما كان المشركون يعاملون به المؤمنين في حال ضعفهم ، ولما هاجروا
وكنوا صاروا يقصدونهم بالقتال في مهجرهم لأجل الدين ، ولذلك قال تعالى
﴿ ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم ان استطاعوا ﴾ عاد إلى خطاب
المؤمنين الذين كانوا يكرهون القتال لما تقدم ، فأعلمهم أن أولئك المشركين لا
هم لهم إلا منع الاسلام من الارض ، فترك قتالهم هو الذي يبيد الحق وأهله ،
وانتظار إيمانهم بمجرد الدعوة ، طمع في غير مطعم ، والقتال في الشهر الحرام

أهون من الفتنة عن الاسلام ، لو لم يحتف بها غيرها من الآثام ، كيف وقد قارنها الصد عن سبيل الله والكفر به والصد عن المسجد الحرام واخراج أهله منه والاعتداء بالقتال والاستمرار عليه . وقوله « إن استطاعوا » يفيد الشك في استطاعتهم وعدم الثقة بها لان من عرف الاسلام معرفة صحيحة وهو الحق الصريح لا يرجع عنه إلى الكفر وهو الباطل المفضوح ، وهكذا كان وهكذا يكون فلا يزال الكفار يقاتلوننا ليردوننا عن ديننا ان استطاعوا ، ولم يستطيعوا

ولما ذكر الردة التي يرغبونها بقتالهم بين حكمها فقال ﴿ ومن يرتدد منكم عن

دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة ﴾ أي ومن يرجع منكم عن الاسلام إلى الكفر حتى يموت عليه فرضاً ، فأولئك المرتدون هم الذين بطلت وفسدت أعمالهم في الدارين حتى كأن واحدهم لم يعمل صالحاً قط ، لأن الرجوع عن الايمان إلى الكفر يشبه الآفة تصيب المخ والقلب فتذهب بالحياة ، فان لم يمت المصاب بمقتله وقلبه ، فهو في حكم الميت لا ينفع بشيء . وكذلك الذي يقع في ظلمات الكفر بعد أن هدى إلى نور الايمان ، تفسد روحه ويظلم قلبه ، فيذهب من نفسه أثر الاعمال الصالحة الماضية ، ولا يعدل شيئاً من أحكام المسلمين الظاهرة ، فيخسر الدنيا والآخرة .

يقول بعض الفقهاء ان المرتد يبطل أعماله حتى كأنه لم يعمل خيراً قط ، وحتى انه يجب عليه إعادة نحو الحج إذا رجع إلى الاسلام ، وتطلق منه امرأته طلاقاً بائناً فلا تعود إليه إذا هو عاد إلى الاسلام إلا بمقد جديد . ويقول غيرهم انه حبوط العمل مشروط بالموت على الكفر ، فإذا ارتد المسلم مدة ثم عاد لا تجب عليه إعادة نحو الحج ، وأما امرأته فإنها تكون موقوفة إلى انتهاء العدة ، فان عاد إلى الاسلام قبل انقضاء عدتها كانت على عصمته ، وإن عاد بعد انقضاء العدة فإنها لا ترجع اليه إلا بمقد جديد . وللردة أحكام أخرى عند الفقهاء تطلب من كتبهم ومعنى الآية ظاهر وهو أن المرتد لا ينفع بأعمال الاسلام في دنياه ولا في آخره ، وذلك ان الرجوع عن الدين رجوع عن أصوله الاساسية الثلاثة وهي

(١) الايمان بأن لهذا الكون العظيم المتقن في وحدة نظامه ، وبديع إحكامه ، رباً إلهاً أبدعه وأنقنه بقدرته وحكمته بغير مساعد ولا واسطة ، فلا تأثير لغيره في شيء منه إلا ما هدى هو الناس اليه باطراد سننه في الاسباب والمسببات ، فيجب عليهم أن يعبدوه وحده ولا يشركوا به شيئاً ، لا في الدعاء ولا في غيره من معاني العبادة التي يبتناها في سورة الفاتحة وغيرها . وهذا الاصل هو منتهى ما يصل اليه إرتقاء العقل البشري في الاعتقاد ، وتطهير الانفس من الخرافات والالوهام . و (٢) لايمان بعالم الغيب والحياة الآخرة ذلك أن العوالم الحية التي في هذا الكون لا تنعدم من الوجود ولا تنفذ من أقطار ملك الله بما تراه من فساد تركيبها وذهاب صورها ، فإذا كان المدم المخفض غير معقول ، والتحول في الصور مألوف منظور ، فلا غرو أن يكون للناس حياة أخرى في عالم آخر بعد خراب هذا العالم . وهذا لايمان ركن من أركان الاعتقاد البشري لانه يبعث البشر إلى الاستعداد لذلك العالم الاوسع الاكمل ، ويعرفهم بأن وجودهم أكمل وأبقى مما يتوهمون . و (٣) العمل الصالح الذي ينفع صاحبه وينفع الناس

فهذه الاصول الثلاثة التي جاء بها كل نبي مرسل لا يتركها إنسان بعد معرفتها . والأخذ بها ، إلا ويكون منكوساً لا حط له من اسكالم في دنياه ولا في آخرته ، بل يكون من أصحاب النفوس الخبيثة والارواح المفلانة ، التي لامقر لها في الآخرة إلا دار الغرزي والهوان كما قال تعالى ﴿ وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ وقد تقدم الكلام في مثل هذا

كأنه تعالى يقول للمؤمنين الكافرين للقتال لا سيما في الشهر الحرام : إذا كان هؤلاء المشركون على ما ذكر من الكفر والطغيان ، ومن إبدائكم وفننكم عن الايمان ، ومن منع إخوانكم عن الهجرة إليكم بعد طردكم من الاوطان ، ومن القصد إلى قتالكم حتى يردوكم عن دينكم ، لتخسروا دنياكم وآخرتكم ، فلا ينبغي أن تحجموا عن قتالهم عند الامكن ، ولا أن تحفلوا بانكارهم عليكم القتال في الشهر الحرام .

ولما ذكر حال المشركين وحكم المرتدين ، ناسب أن يذكر جزاء المؤمنين .

المهاجرين والمجاهدين ، لان الذهن يتوجه إلى طلبه فقال ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ﴾ المهاجرة مفارقة الاوطان والاهل وهي من الهجرة ضد الوصل . ولما هاجر النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم من مكة فراراً بنفسه وبقومه من اذى قريش وفتنتهم إلى المدينة التي عاهده من آمن من أهلها على أن يمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم ، وجب على كل مسلم أن يتبعه في هجرته ليعتز الاسلام بأهله ، ويقدر المؤمنون باجتاعهم على الدفاع عن أنفسهم . واستمر وجوب الهجرة على من قدر إلى فتح مكة ، إذ خذل الله المشركين وجعل كتبهم السفلى ، وكلمة الله هي العليا .

وقد اختلف الفقهاء في حكم الهجرة من بلاد الكفر إلى بلاد الاسلام في مثل عصرنا هذا ويؤخذ من علة وجوب الهجرة في عهد التشريع أنها تجب بمثل تلك العلة في كل زمان ومكان ، فلا يجوز لمؤمن أن يقيم في بلاد يقن فيها عن دينه ، بأن يؤدي إذا صرح باعتقاده أو عمل بما يجب عليه ، وإن كان حكاهم تلك البلاد من صنف المسلمين ، ومن ذلك أن لا يقدر المسلمون على التصريح قولاً وكتابة بكل ما يعتقدون ، ولا يمكنوا من القيام بفريضة الامر بالمعروف والنهي عن المنكر في الجمع عليه منها .

وأما المجاهدة فهي من الجهد وهو المشقة وليس خاصاً بالقتال . والرجاء هو توقع المنفعة من أسبابها . فالمؤمنون الذين هاجروا مع الرسول أو هاجروا اليه للقيام بنصرة الحق ، والذين بذلوا جهدهم في مقاومة الكفار ومقاومتهم ، هم الذين يرجون رحمة الله تعالى واحسانه رجاء حقيقياً ، وهم أجدر بأن يعطوا ما يرجون ، وأما طلب المنافع ودفع المضار من غير أسبابها العسادية في العاديات والشرعية في الدينيات ، فلا يسميان رجاء ، بل تمنياً وغروراً :

تروحو النجاة ولم تسلك مسالكها إن السفينة لا تجري على اليبس

﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ واسع المغفرة للتائبين المستغفرين ، عظيم الرحمة بالمؤمنين المحسنين . ولا سيما المهاجرين المجاهدين ، يغفر لهم ما عساه يفرط منهم من تقصير ، ويتعبد لهم برحمته ورضوانه ونعم المصير .

(٢٢٠) يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعَةٌ لِلنَّاسِ، وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا، وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُحْكِمُونَ قُلِ الْعَفْوَ، كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (٢٢١) فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الِیْتِمَى قُلْ إِصْلَاحُ لِهَمْ خَيْرٌ، وَإِنْ تَخَالَطَوْهُمْ فَإِنْ خَوَّاهُمْ وَأَلَّهِ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْتَبَكُمْ، إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ

قال السيوطي في أسباب النزول : روي أحمد من حديث أبي هريرة قال قدم رسول الله ﷺ المدينة وهم يشربون الخمر ويأكلون الميسر فسألو رسول الله ﷺ

عنها فأنزل الله ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ الآية فقال الناس : ما حرم علينا إنما قال إثم كبير ، وكانوا يشربون الخمر حتى كان يوم من الأيام صلى رجل من المهاجرين أم أصحابه في المغرب فخالط في قراءته فأنزل الله آية أغلظ منها (٤: ٤٣) يأيتها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى (لا آية ثم نزلت آية أغلظ من ذلك) ٥: ٩٠ يأيتها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان إلى قوله فهل أنتم متنبهون « قالوا انتهينا ربنا . وقال الجلال في تفسير آية البقرة أنها لما نزلت شربها قوم وامتنع آخرون حتى نزلت آية المائدة وهو مخالف للاعلاق الذي نقلناه آنفاً عن كتاب أسباب النزول له . وروي أحمد وأبو داود والترمذي وصححه والنسائي وغيرهم عن عمر أنه قال : اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً فانها ذهب بالمال والمقل . فنزلت هذه الآية فدعي عمر فقرأت عليه فقال : اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً . فنزلت الآية التي في سورة النساء « يأيتها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى » فكان ينادي رسول الله ﷺ إذا قام إلى الصلاة « أن لا يقربن الصلاة سكران » فدعي عمر فقرأت

عليه ، فقال اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً . فنزلت الآية التي في المائدة فدعي عمر فقرأت عليه فيما بلغ « فهل أنتم متهنون » قل عمر انهمينا انهمينا . ولا يتوقف فهم معنى الآيات على شيء من هذه الروايات ويظهر من مجموعها أن القطع بتحريم الخمر والنهي عنها كان بعد تهيئيد بالدم والنهي عن السكر في حال قرب الصلاة وأوقات الصلوات متقاربة فمن ينهي عن قرب الصلاة وهو سكران فلا بد أن يتجنب السكر في أكثر الاوقات لئلا يحضره الصلاة وهو سكران وهو الذي تدل عليه الجملة الحالية (وأنتم سكارى) التي قيد بها النهي كما سنبينه في تفسير الآية من سورة النساء ، وفي هذا من الحكمة في التدرج بالتكليف مالا يخفى . قال الفقهاء والحكمة في وقوع التحريم على هذا الترتيب أن الله تعالى علم أن القوم كانوا قد ألفوا شرب الخمر وكان استغفارهم بها كثيراً ، فعلم الله أنه لو منهم دفعة واحدة لشق عليهم ، فلا جرم استعمل في التحريم هذا التدرج وهذا الرفق : والذي كان يقبدر لولا الروايات أن آية سورة النساء هي التي نزلت أولاً فكلوا يمتنعون عن الشرب في أكثر الاوقات لئلا تغوتهم الصلاة ، وأما آية المائدة فلا شك أنها آخر ما نزل لأنها أكدت النهي ، وبيئت علة التحريم بالتعيين ، على أن السورة برمتها من آخر السور نزولاً^(١)

وقد ذهب بعض الائمة الى أن الخمر حُرمت بهذه الآية وإن ما أتى بعدها فهو من قبيل التوكيد لأن لفظ الاثم يفيد المحرم قال تعالى (٣٣: ٧) إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والاثم والبغي بغير الحق) . ولكن ذهب الجمهور الى أن التحريم كان تدريجياً كما تقدم ووجه الاستاذ الامام بأنه المنقول والمعهود في حكمة التشريع ، وقال ان الاثم هو الضرر ، فتحريم كل ضار لا يقتضي تحريم ما فيه مضرة من جهة ومنفعة من جهة أخرى ، لذلك كانت هذه الآية موضعاً لاجتهاد الصحابة فترك لها الخمر بعضهم وأصر على شربها آخرون ، كأنهم كانوا انه يفسر لهم أن يفتنعوا بها مع اجتناب ضررها ، فكان ذلك تهيئيداً للقطع

(١) الروي المشهور أن سورة البقرة أول سورة نزلت بعد الهجرة ، ونزلت سورة النساء في السنة السابعة بعد صلح الحديبية وسورة المائدة في الثامنة بعد فتح مكة

بتحريمها ولو فوجئوا بالتحريم مع ولوع الكثيرين بها واعتقادهم منفعتها لخشي أن يخالفوا أو يستثقلوا التكليف فكان من حكم الله أن رباهم على الاقتناع بأسرار التشريع وفوائده لياخذوه بقوة وعقل

لفظ الخمر منقول من مصدر خمر الشيء بمعنى سهره وغطاه ، يقال خمرت الشيء إذا سهرته وخمرت الجارية ألبستها الخمار وهو النصف الذي تغطي به وجهها وتخمرت هي واختمرت ، والوجه في العقل أن هذا الشراب يسر العقل ويغطيه ، أو هو من خامره بمعنى خالطه ، يقال خامره الداء أي خالطه وهو ما صرح به عمر في خطبة له على منبر النبي ﷺ أو بمعنى انتعير ، يقال خمر الشيء (كلم) إذا تغير عما كان عليه ، والعصير يتغير فيكون خمرًا ، أو بمعنى الادراك من خمر العجين ونحوه فاختمر أي بلغ وقت ادراكه وقال ابن الأعرابي إنه يقال سميت الخمر خمرًا لأنها تركت حتى اختمرت واختمارها تغير رائحتها. وجميع هذه المعاني ظاهرة في هذه الاشربة المسكرة كلها كما قال ابن عبد البر فيصح إطلاق اسم الخمر لغة على كل مسكر وهذا ما ذهب اليه أشهر علماء اللغة كالجوهري وأبو نصر القشيري وأبو حنيفة الدينوري والمجد صاحب القاموس . والظاهر أن هذا الإطلاق حقيقي ولا وجه للعدول عنه إلا أن يصح أن العرب كانت تسمي نوعا خاصا من المسكرات خمرًا لانطلاق اللفظ على مسكر سواء وهو ما زعمه بعض الناس ، والحنفية على أن الخمر ما اعتصر من ماء العنب إذا اشتد وقذف بالزبد زاد بعضهم ثم سكن وغيل إنما اشتد فقط . ويرد أن الصحابة وهم صميم العرب فهموا من تحريم الخمر تحريم كل مسكر ولم يفرقوا بين ما كان من العنب وما كان من غيره ، بل قال أهل الآثار إن الخمر حرمت بالمدينة ولم يكن شراهم يومئذ إلا نبيذ البسر والتمر : فهو الذي تناولوه نص القرآن ابتداء ، وأخرج أبو داود : نزل تحريم الخمر يوم نزل وهو من خمسة من العنب والتمر والحنطة والشعير والذرة والخمر ما خامر العقل : وكأن هذا كل ما كان يعرف ولا شك أن غيره مشبه . والاحاديث الصحيحة صريحة في ذلك ومنها حديث الصحيحين وأبي داود والترمذي والنسائي « كل مسكر خمر » وروي بزيادة « وكل خمر حرام » وكان النبي ﷺ والخلفاء يجلدون كل من

مسكر ويعبرون عن ذلك بحذر الحُر أو عقوبته ، يقول المحققون ان ما ورد في الحديث اصطلاح شرعي لا لغوي ، ونقول ان الذي أنزل عليه الذكر ليعين للناس ما نزل عليهم قد بين لهم ان الحُر التي نهى الله عنها في كتابه هي كل مسكر فلا فرق في حكمها بين مسكر وآخر ، وهذا البيان قطعي متواتر لان العمل عليه وفي حديث أبي داود وغيره « ما أسكر كثيره فقليله حرام »^(١)

وأما اليسر فهو القار واشتقاقه من يسر اذا وجب ، أو من اليسر بمعنى السهولة لانه كسب بلا مشقة ولا كد أو من اليسار وهو الغنى لانه سببه للراح أو من اليسر بمعنى التجزئة والاقسام يقال يسروا الشيء اذا اقسموه . قال الأزهري اليسر الجزور (الجمل) كانوا يتقامرون عليه ، سمي ميسرا لانه يجزأ أجزاء ، فيكأنه موضع التجزئة ، وكل شيء جزأه فقد يسرته ، واليسر الجازر أي لانه يجرى . لم الجزور ثم صار يقال للمتقمارين جازرون لأنهم سبب الجزر والتجزئة ، هذا هو الاصل .

وأما كقيته عند العرب فهي أنه كان لهم عشرة قذاح (جمع قذح بالكسر) وتسمى الأزلام والأقلام^(٢) — وهي القذ والتوأم والرقب والحلس (ككتف) والسبل والمعلنى والنافس والنيح والسقيح والوغد — لكل واحد من السبعة الأولى نصيب معلوم من جزور ينحرونها ويحزنونها عشرة أجزاء أو ثمانية وعشرين جزءاً ، وليس للثلاثة الأخيرة شيء فلفظ سهم ، وللتوأم سهمان ، وللرقب ثلاثة ، وللحلس أربعة ، وللنافس خمسة ، والسبل ستة ، والمعلنى سبعة وهو أعلاها ، ولذلك يضرب به المثل لمن كان أكبر حظاً أو نجاحاً من غيره في كل شيء مفيدة فيقال : صاحب القذح المعلنى . وكانوا يحملون هذه الأزلام في الرابة وهي الخريطة ، ويضعونها على يد عدل

(١) هذا ما كتبه في تفسير هذه الآية ثم اني بسطت الكلام في الحُر لفة وشرحاً أيضاً واجتهاداً في تفسير آيات سورة المائدة فتراجع من صفحة ٤٩ - ٩٩ من جزء التفسير السابع (٢) جمع زلم وقلم وهي قطع من الخشب والزلم والقلم القطع

يجلبها ويدخل يده فيخرج منها واحدا باسم رجل ، ثم واحدا باسم رجل الخ
 فمن خرج له قدح من ذوات الانصباء أخذ النصيب الموسوم به ذلك القدح ،
 ومن خرج له قدح لا نصيب له لم يأخذ شيئا ، وعزم ثمن الجزور كله . وكانوا
 يدفعون تلك الانصباء إلى الفقراء ولا يأكلون منها ، ويعتفرون بذلك ويذمون
 من لم يدخل فيه ، ويسمونه البرم (بالتحريك) وهو في الاصل ثمر المضام
 لا ينتفع به ، وقد نظم بعضهم هذه الاسماء فقال

كل سهام الياسرين عشره	فأودعوها صحفاً منشره
لها فروض ولها نصيب	الفنذ والتوأم والرقيب
والجلس يتلوهن ثم النافس	وبعده مسيلهن السادس
ثم المعلى كاسمه المعلى	صاحبه في الياسرين الأعلى
والوغد والسفيح والمنيح	غفل فما فيها يرى ربيح

وقد اختلفوا هل الميسر ذلك النوع من القمار بعينه أم يطبق على كل مقامرة
 ولكن لا خلاف بين الفقهاء في أن كل قمار محرم إلا ما أباح الشرع من الرهان
 في السباق والرمية ترغيباً فيهما للاستعداد للجهاد ، وليس منها سباق الخيل المعروف
 في عصرنا فإنه من شر القمار الذي ترجع جميع أنواعه إلى كونها من أكل أموال
 الناس بالباطل

﴿ قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس ﴾ قرأ حمزة والكسائي « كثير » بالمشة
 من الكثرة وقرأ الباقون « كبير » من الكبير . والاثم كل ما فيه ضرر وتبعة من
 قول وعمل أي قل أيها الرسول إن في تعاطي الخمر والميسر إثم كثير للمفاسد وذنوب
 كبير الضرر وإنما كان إثم الخمر كبيراً لأن مضراتها والتبعات التي تعقبها كبيرة ،
 والضرر يكون في البدن والنفس والعقل والمال ، ويكون في التعامل وارتباط
 الناس بعضهم ببعض . ولا يوجد إثم من الآثام يدخل ضرره في كل شيء كالخمر
 من الافعال والكذب من الاقوال ، وأنواع هذا الضرر كثيرة فمن مضرات الخمر
 الصحية إفساد المعدة والاقهاء (فقد شهوة الطعام) وتغيير الخلق فالسكر ييسر

اليهم انتشوه ، فتجحظ أعينهم ، وتمتقع سحتهم ، وتعظم بطونهم ، بل قال أحد أطباء الألمان إن السكر (كثير السكر) ابن الأربعين يكون نسيج جسمه كنسيج جسم ابن الستين ، ويكون كاهرم جسما وعقلا ، ومنها مرض الكبد والكلى ، وداء السل الذي يفتك في البلاد الأوروبية فتكا ذريعا على عناية أهلها بقوانين الصحة ، ولكن لا وقاية من شرور السكر إلا بتركه ، وقد قيل إن نحو نصف الوفيات في بعض بلاد أوربا بداء السل . ولم يكن هذا الداء معروفا أو منتشرا في مثل هذه البلاد (مصر) قبل شيوع السكر فيها ، فهو من الادواء التي حملها اليها الأوربيون ، وقد كثر كثره فاحشة في مصر على أن جوها لا يساعد على انتشاره . وأما ضرر الخمر في العقل فهو مسلم عند الناس وإيس ضرره فيه خاصا بما يكون من فساد التصور والادراك عند السكر ، بل السكر يضعف القوة العاقلة ، وكثيرا ما ينتهي بالجنون ، ولا أحد أطباء ألمانية كلمة اشتهرت كالمثل وهي « اقبلوا لي نصف الحانات ، أضمن لكم الاستغناء عن نصف المستشفيات والبيارات والملاجي . (التسكيا) والسجون »

وقد قال الأطباء إن السكر لا يتحول إلى دم كما تتحول سائر الاغذية بعد الهضم ، بل يبقى على حاله فيزحم الدم في مجاريه ، فتسرع حركة الدم ، وتختل موازنة الجسم ، وتعطل وظائف الاعضاء أو تضعف ، وتخرج عن وضعها الطبيعي المعتدل ، فن تأثيره في اللسان إضعاف حاسة الذوق ، وفي الحلق التهاب ، وفي المعدة ترشيع العصارة الفاعلة في الهضم حتى يغلف نسيجها وتضعف حركتها ، وقد يحدث فيها احتقان والتهاب ، وفي الامعاء التقرح ، وفي الكبد تمديده وتوليد الشحم الذي يضعف عمله ، وكل هذا يتعلق بما يسمونه الجهاز الهضمي . ومن تأثيره في الدم أنه يمازجته له يعميق دورته وقد يوقفها أحيانا فيموت السكر فجأة ، ويضعف مرونة الشرايين فتتعدد وتغلظ حتى تنسد أحيانا فيفسد الدم ولو في بعض الاعضاء فتكون الشغرينا التي تقضي بقطع العضو الذي تظهر فيه لثلا يمري الفساد إلى الجسد كله فيكون هالكا ، وتصلب الشرايين يسرع الشيخوخة والمهرم ومن تأثيره في جهاز التنفس إضعاف مرونة الحنجرة ، وتهيج شعب التنفس ،

«وأهون ضرر ذلك بحجة الصوت والسماع ، وأعظمها تدرن الرئة أي السبل الفانك
بالبشيان ، والقاطع لجميع لذات الانسان

وأما تأثيره في لمجموع العصبي فهو الذي يولد الجنون ويهلك النسل ، فولد
السكور لا يكون نجيباً ، وولد ولده يكون شراً من ولده وأضعف بدناً وعقلاً ،
وقد يؤدي تسلسل هذا الضعف إلى انقطاع النسل البتة ، ولا سيما إذا جرى الإبقاء
على طريق الآباء كما هو الغالب

ومن مضرات الخمر في التعامل وقوع النزاع في الخصام بين السكارى
بعضهم مع بعض ، وبينهم وبين من يعاملهم ويعاملهم ، تثير ذلك أدنى بادرة
من أحدهم ، فيوغلون فيه حتى يكون عداوة وبغضاء . وهذه العلة في التحريم من
أكبر العمل في نظر الدين ولذلك ورد بها النص في سورة المائدة (٩٠ : ٥) إنما
يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر)

ومنها إفشاء السر وهو ضرر يتولد منه مضرات كثيرة ، ولا سيما إذا كان
السر يتعلق بالحكومة وسياسة الدولة ومصالحها العسكرية ، وعليها يعتمد الجواسيس
ومنها الخسة والمهانة في أعين الناس فإن السكران يكون في هيأته وكلامه وحركاته
بحيث يضحك منه ويستخف به كل من يراه حتى الصبيان ، لانه يكون أقل منهم
عقلاً ، وأبعد عن التوازن في حركاته وأعماله ، والضبط في أفكاره وأقواله ، وينقلون
عن السكارى من النوادر الغريبة ما يكفي في ردع من له شرف وعقل عن الخمر فيراجع
ذلك في كتب الادب والمحاضرة وما ذكر عن المحدثين ان ابن أبي الدنيا مر بسكران
وهو يقول في يده ويمسح به وجهه كهيئة المتوضئ . ويقول الحمد لله الذي جعل
الاسلام نوراً والماء طهوراً . وعرض بعضهم شرب الخمر على أحد فصحاء المجازين
فقال له المجنون : أنت تشرب لتسكون مثلي ، فأنا أشرب لأكون مثلك من ؟
ومنها ان جرمة السكر تغري بجميع الجرائم التي تعرض للسكران وتجرى عليها
ولا سيما الزنا والقتل وبلغني ان جميع الذين يخلطون الى مواخير الزنا لا يذهبون
إليها الا وهم سكارى لأن غير السكران تنفر نفسه من هذه القاذورات المبتذلة مهما تسكن

خسيسة ولذلك سميت الخمر أم الخبائث كما ورد في الحديث فهذه إشارة إلى مضرتها في النفس من حيث الاخلاق والآداب.

ومن مضراتها المالية أنها تستهلك المال وتفني الثروة كما قال عنترة «فاذا شربت فاني مستهلك مالي» البيت . ولم تكن الخمر مذهباً للثروة في زمن من الأزمنة كزماننا هذا ولا في مكان هذه البلاد فإن أنواع الخمر كثر فيها ومنها ما هو غالي الثمن جداً ، ثم إن المتجربين بها كثيراً ما يقرنون بينها وبين القيادة إلى الزنا ، وفي مصر القاهرة بيوت للفسق تجمع بين الخمر والنساء والراقصات والمغنيات ، يدخلها الرجال زرافات وافذاذاً ، ويتبارون ثم في النفقة حتى ليخسر الرجل في ليلته المئتين والالوف . وإن الخمار الرومي الفقير ليفتح في أحد القرى والمزارع من هذه البلاد حانة صغيرة فلا تزال تقسم بما تبتاع من ثروة الاهالي وغلات أرضهم حتى تبتلع القرية كلها فتكون أموالها وغلاتها وقطنها وتجارها في يد (نحواحه) صاحب الحانة . وقد عم البلاء بالخمر هذا القطر بما لاهله من الاستعداد للتقليد حتى قيل إن ما يصرف في مصر على الخمر يعدل ما يصرف في فرنسا كلها ومن مضرات الخمر في الدين من حيث روجه ووجهة العبد إلى الله تعالى أن السكران لا تتأتى منه عبادة من العبادات لاسيما الصلاة التي هي عماد الدين ولذلك قال تعالى في آية المائدة بعد ما تقدم أنفاً (ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة) وسياً في إيضاح هذا المعنى في تفسير سورة المائدة إن شاء الله تعالى .

فهذا تي من البيان نكون إثم الخمر كبيراً بمعنى أن كبره يكبر ضرره أو كونه كثيراً لكثرة أنواعه . وقد يشبه بعض المبتائين بشرب الخمر في بعض تلك المضرات الصحية أو يتوهمون أنه يسهل عليهم التوقي منها وهيئات هيئات لما يتوهمون فإن المزاج الذي يتحمل سم الخمر الذي يسمى الكحول أو لغول زمناً طويلاً بحيث يعتد الناس بحسن صحة صاحبه قليل في الناس ، ولكن هؤلاء المبتلين يقيسون على الفادر ، ويجهلون الاصل الغالب ، وهو أنه لا يكاد يسلم مدمن السكر من ضرره في جسمه أو عقله ومداركه أو ولده وذريته بل تجتمع كلها في الغالب . وأما المضرات المعنوية فيقل في معتادي السكر من يحفل بها ، على أن منهم من يرى أنه يسهل عليه تجنبها

وأما كون إنهم لميسر كبيراً أو كثيراً فقد جاء فيه ما جاء في الخبر من كونه يورث العداوة والبغضاء ويصد عن ذكر الله وعن الصلاة ، وهذا ظاهر في ميسر العرب ، وفي جميع أنواع القمار المعروفة في عصرنا إلا ما يسمونه (اليانصيب) فإنه على كونه ميسراً لا شك فيه لا يظهر جميع مفاسده في بعض أنواعه وهذا بيانه :

ميسر اليانصيب

هو عبارة عن مال كثير تجمعه بعض الحكومات أو الجمعيات أو الشركات من ألوف من الناس كائة ألف دينار (جنيه) مثلاً تجعل جزءاً كبيراً كعشرة آلاف منه لعدد قليل من دافعي المال كائة مثلاً يقسم بينهم بطريقة الميسر وتأخذ هي الباقي . ذلك بأن تطبع أوراق صغيرة كأوراق المصارف المالية (بنك نوت) تسمى أوراق (اليانصيب) تجعل ثمن كل واحدة منها ديناراً واحداً مثلاً يطبع عليها وتعمل العشرة الآلاف التي تعطى ربحاً لمشتري هذه الأوراق مائة سهم أو نصيب تعرف بالأرقام العددية وتسمى النمر (جمع نمر) ويصبع على الورقة المشتراة عددها وما تربحه كل واحدة من العشر لأوائل منها وتعمل باقيةا للتسعين الباقية من المائة بالتساوي بترتيب كترتيب أرقام الميسر يسمونه السحب . ذلك بأنهم يتخذون قطعاً صغيرة من المعدن ينقش في كل واحدة منها عدد من أرقام الحساب يسمونه نمر من واحد إلى مائة ألف إذا المبيع من الأوراق مائة ألف ، ويضعونها في وعاء من المعدن كروي الشكل كخريطة الأرقام (القدرج) التي بينها اتفاقها ثقبه كلما أديرت مرة خرج منها نمر من تلك النمر ، فإذا كان يوم السحب أديرت بعدد الأرقام الراجعة فما خرج منها أول اسمي النمر الأولى مخا يكن عددها وهي التي تعطى حاملها النصيب الأكبر من الربح كالقدح المعنى عند العرب ، وما خرج منها ثانياً سمى النمر الثانية ويعطى حاملها النصيب الذي يلي الأول حتى إذا ما انتهى عدد النمر الراجعة وقف السحب عنده وكان الباقي خاسراً

وأما كون هذا النوع لا يظهر فيه ما في سائر الأنواع من ضرر العداوة والبغضاء والصد عن ذكر الله وعن الصلاة فلا لأن دافعي المال فيه لا يجتمعون عند السحب .

وقد يكونون في بلاد أو أقطار بعيدة عن موضعه ، ولا يعملون له عملاً آخر . فيشغلهم عن الصلاة أو ذكر الله تعالى كقمار الموائد المشهورة ، ولا يعرف الخاسر منهم فرداً أو أفراد أكلوا ماله فيفيضهم ويعاديهم كميسر العرب وقمار الموائد ونحوه ، وكثير ما يجعل (اليانصيب) لمصلحة عامة كانشاء المستشفيات والمدارس الخيرية وإعانة الفقراء . أو مصلحة دولية ولا سيما الإعانات الخيرية والحكومات التي تحرم القمار تبيح (اليانصيب) الخاص بالأعمال الخيرية العامة أو الدولية . ولكن فيه مضار القمار الأخرى وأظهرها أنه طريق لأكل أموال الناس بالباطل ، أي بغير عوض حقيقي من عين أو منفعة وهذا محرم بنص القرآن كما تقدم في محله ، وقد يقال إن المال الذي يبنى به مستشفى لمعالجة الرضخى أو مدرسة لتعليم أولاد الفقراء أو مابجاً لتربية اللقطاء لا يظهر فيه معنى أكل أموال الناس بالباطل لا في أخذني ربح الخمر الراجعة دون أخذني بقية المال من جمعية أو حكومة ، وهو على كل حال ليس فيه عداوة ولا بغضاء لأحد معين كالذي كان يعرم فمن الجزور عند العرب ، وليس فيه صد عن ذكر الله وعن الصلاة

ومن مضرات الميسر ما نهى الله الاستاذ الامام والمسيحة اليه أحد من المفسرين وهو إفساد التربية بتعويد النفس الكسل وانتظار الرزق من الأسباب الوهمية ، وإضعاف القوة العقلية ، بترك الأعمال المفيدة في طرق السكسب الطبيعية ، وإهمال الياسرين (للقامرين) للزراعة والصناعة والتجارة التي هي أركان العمران .

ومنها هو أشهرها تفريب البيوت فجأة بالانتقال من الغنى إلى الفقر في ساعة واحدة ، فكم من عشيرة كبيرة نشأت في الغنى والعز وانحصرت ثروتها في رجل أضاعها عيباً في ليلة واحدة فأصبحت غنية وأمس فقيرة لا قدرة لها على أن تعيش على ما تعودت من السعة ولا ما دون ذلك

وأما المنافع في الخمر فأهمها التجارة فقد كانت ولا تزال مورداً كبيراً للثروة ومادة عظيمة للتجارة ، ولولا ذلك لأغلب علماء الأفرنج على جهالهم وأبطلوا عمل الخمر وبيعها حتى لا يبقى منها إلا ما يعمل سراً كما هو شأن الناس في اللذات الممنوعة . وقد كانت العرب تسخو في شراء الخمر مالا تسخو في غيرها وكانوا

يعدون ترك الماكسة فيها مكرمة وفضيلة فيكثر ربح مجتلبها وبائعها ، ومنها أنها قد تكون علاجاً لبعض الأمراض كالكثير من السموم والنبات الضار بالمزاج المعتدل ولكن الدواء يؤخذ بمقدار قليل قد يعينه الطيب بالنقط فإذا زاد كان شديد الضرر كسائر الادوية ولا سيما السامة منها ، فالتداوي بالخمر لا يتفق مع شربها للشوة واللذة (١) ومنها أنها تسلي الحزين على أن ما يكون بعدها من رد الفعل يزيد في الحزن والمكابة . ومنها أنها تسخي البخل ولكن هذا السخاء قد صار ضرراً كله لانه يذهب بشرة البلاد فيضعها في أيدي شرار الأجانب ، وقد كان في الجاهلية نافعاً لأن لرجل كان يبذل ماله في قومه . ومنها أنها تثير النخوة وتشجع الجبان وربما كان هذا أعظم منفعها عند العرب في الجاهلية ، وهو من أكبر مضراتها في هذا الزمان ومثل هذه البلاد ، لأن هذه الحمية هي السبب فيما يكون بين أسكاري من التمزع والتخاصم والاعتداء . ولا حاجة اليها في الحرب الآن بل هي ضارة فيها لأن الحرب صارت صناعة دقيقة وفناً من العلم لا بد فيها من حضور العقل وحدة النظر قرب غلطة من قائد تذهب بجيشه وتظفر به عدوه . فالضباط مدبرون والجنود آلات عاقلة في أيديهم لآنجاح لها إلا بالسمع والطاعة مع الفهم ، والسكر قد يحول دون حسن التدبير من الضباط وسرعة الامتثال من الجنود . قد انقضت الحكومات التي تبيح الخمر على منعيها عن الجيوش في زمن الحرب . ويعدون من منافع بعض الخمر القليلة التأثير كالجمعة (البيرة) التغذية والتحليل ، ويمجني جواب سؤال في ذلك ذكر في مجلة عربية وهو أن اقامة من الخبز أكثر تغذية من كوب من البيرة ، وأن كوباً من الماء أشد تحليلاً من كوب منها ، على أنه ليس في الخبز والماء ضرر ما ، ومن الجملة ما لا يسكر كما يقال

ومن منافع الخمر مواساة الفقراء كما علمت من عادة العرب التي لا وجود لها الآن ، إلا فيما ذكر آنفاً من النوع الذي يسمونه (ياضيب) لبناء الملاحي . والمستشفيات والمدارس وغير ذلك من البر الذي هو أنفع للفقراء من لحم الجزور الذي كان العرب يخصوصهم به ، ومنها سرور الراح وأريحته ، ويقابله كدر لذين

٣٣٢ قاعدة التحريم العام أن يكون دليله قطعي الرواية والدلالة (التفسير ج ٢)

يخسرون وهم الاكثرون ، لان كثر ربح القار في هذا العصر يقتاله الذين يديرون اعماله ومنها أن يصير الفقير غنيا من غير تعب ولا نصب ، ولكن هذا من اشد ضرره في الامة أو أشده كما تقدم . وزعم بعض الناس ان المنافع التي كانت في الحر والميسر قد سلبها الله تعالى منهما بعد التحريم وهو قول غير معقول ولا دليل عليه ، بل الحس ينبذه ولا حاجة اليه في التنفير عن الجريمتين بعد ما بين الله تعالى الاصل في التنفير بقوله

﴿وإعما أتمر من نعمهما﴾ وهذا القول إرشاد للمؤمنين إلى طريق الاستدلال فكان عليهم أن يهتدوا منه إلى القاعدتين اللتين تقررتا بعد في الاسلام : قاعدة درء المفسد مقدم على جاب المصالح ، وقاعدة ترجيح ارتكاب أخف الضررين اذا كان لابد من أحدهما ، ولكن لم يهتد إلى ذلك جميعهم ، إذ ورد أن بعضهم ترك الحر عند نزول الآية وبعضهم لم يترك كما تقدم .

هذا ما كنت كتبت ونشرته في تفسير الآية في المرة الاولى ، ثم فطنت بعد ذلك الى قاعدة عظيمة من قواعد التشريع الاسلامي بيئتها في المنار وفي التفسير واستدلت عليها بهذه الآية ، وهي أن ما كانت دلالة على التحريم من النصوص ظنية غير قطعية لا يجعل تشريعا عاما تطالب به كل الامة ، وإنما يعمل فيه كل احد باجتهاده فمن فهم منه الدلالة على تحريم شيء امتنع منه ومن لم يفهم منه ذلك جرى فيه على أصل الاباحة . ودلالة هذه الآية على تحريم الحر والميسر ظنية ولذلك عمل فيها الصحابة باجتهادهم على اختلافهم فيه وأقرهم النبي ﷺ على ذلك وفي عمر ابن الخطاب يدعو الله أن يبين للامة في الحر بيانا شافيا حتى نزلت آية سورة المائدة كما تقدم آنفاً فترك جميع الصحابة الحر والميسر لان دلالتها قطعية لاسراء فيها ، ولا سيما قوله تعالى (فهل أنتم منتبهون) لانه استغفها بمعنى النهي المؤكد واما كون إسمها تين الفعالتين أي ضررها أكبر من نعمها مع إثبات المنافع لها فلا يدل على ذلك دلالة قطعية ومضرة الحر لا يجعلها أحد ولذلك كان في الجاهلية من حررها على نفسها ومنهم العباس بن مرداس قيل له في الجاهلية ألا تشرب الخمر قتها تريد في حرارتك فقال : ما أنا بأخذ جهلي بيدي فأدخله جوفي ، ولا أَرْضَى أن أصبح سيد القوم وامسي سفيهم

واطباء الاقربح وعلمهم مجمعون على ان ضرر الخمر - وكذلك الميسر
بالاولى - اكبر من نفعها وقد اغتت جميعات في أوروبا وامريكا للسعي في ابطال
المسكرات ، فهم يتعاهدون على عدم الشرب ، وعلى الدعوة الى ذلك ، والسعي
لدى الحكومات بالتشديد على بائعي الخمر^(١) فالايام والاعمال كما تقدمت وارتقت
تؤيد قول القرآن بأن إثم الخمر والميسر اكبر من نفعها ، فان اطباء هذا العصر
يصفون من مضرات الخمر ما لم يكن معروفاً عند الاطباء المتقدمين وهو ما أطلقه
الله تعالى لعباده ليبحثوا فيه ويتبينوا صدقه بأنفسهم لتكون عقولهم مؤيدة لكتابته
يوجب اجتنابه

ولكن لدينا من أهل الذكاء والفطنة وادعياء العلم والمدنية من استعبدهم
سلطان المذلة فصر فهم عن النظر والبحث في هذه المضرات ، كما صرفهم عن
هداية الدين ، وصرف آباءهم عن تربيتهم عليه ، فاسرفوا في معاقرة الخمر حتى
غيب معين حياة بعض الشبان ، وانكسفت شمس عقول آخرين قبل الاكتهال ،
فحرموا من سعادة الحياة ، وحرمت بيوتهم وأمتهم مما كانت ترجوه من ذكائهم
واستعدادهم ، بنت فتنة السكر في طائفة من الكبراء والمتعلمين ، وصارت تعد من
علامات المتفرنجين الذين يسمون المتمدنين ، وصرت عدواً الى غيرهم من
المقلدين ، حتى قلدها شيوخ القرى وعمد البلاد فكانوا شر قدوة للفلاحين
والعمال والاجراء ، وعم خطر هذه الآفة التي تدبها آفة الزنا حيث سارت ،
ويتبع الزنا داء الزهري الذي هو من أسباب انقطاع النسل ، فأية منفعة توازي
هذه الآفات العاتلة والجوانح المصطلة ؟

(١) بعد أن كتبنا هذا بنين حرمت حكومة الولايات المتحدة الامريكانية
جميع الخمر عصراً وشرباً وباعاً بقانون صدر ولكن انصارها من الوارثين لتأثير
السكر ومن تجارها عاذوا في هذا العام الذي نعيد فيه طبع هذا الجزء من التفسير
(١٣٥٢ ١٩٣٣ م) بطالبن حكومتهم بابطال قانون الخمر بقدر أو بلا قيد
حتى اوشكت تستجيب لهم لكثرتهم

نوه الاستاذ الامام في الدرس بهذه العبارة وقال انني كنت أقول إن المصريين لا يفتنون في جنس آخر وان استولى عليهم قروناً طويلة ، ولكن غيرهم قد يفتني بهم ، لأنهم يرضون بكل سلطة ، ويدينون لكل قوة ، فلا يؤثر فيهم الذل والفقر كما يؤثر في غيرهم ، بل يظلمون ما وجدوا قوتاً يتناسلون ويكثرون ، والعامل لا يعدم في أرض زراعية كحصر قوتاً ، ولذلك تقلبت الامم على المصريين ثم زالت أوزال سلطانها عنهم ، وبقي المصريون مصريين ، لم سحتهم وصفاتهم وأخلاقهم وعاداتهم ، ولكنني رجعت عن هذا القول بعد ما رأيت من انتشار الخمر والزنا في البلاد ، ولا سيما هذه الخمر الافرنجية التي تباع للفقراء والغالحين وما هي بخمر جعلت للشرب ، وإنما هي المادة المحرقة السامة التي تسمي السبيرتو يضاف اليها شيء من الماء والسكر أو غير ذلك مما يمكن من تناولها ، فإذا اسنم السكر والفحش على سريانها هذا ، فلا يبعد ان تنقرض الامة المصرية بعد جيلين أو ثلاثة كبر ، تنقرض هنود أمريكا ، فلا يبقى منهم الا بقية من الخدم والاجراء عند من يخلفهم في الارض ، فان السكر وزنا كالقراضين يقرضان الامم قرضاً (١)

وأما كون اثم الميسر أكبر من نفعه فهو أظهر مما تقدم في الخمر لا سيما في هذا العصر الذي كثرت فيه أنواع القمار وعم ضررها ، حتى ان الحكومات الحرة التي تبيح تجارة الخمر تمنع أكثر أنواع القمار وتعاقب عليها ، على احترامها للحرية الشخصية في جميع ضروب التصرف انني لا تنصر بغير العامل ، فنفعة القمار وهمية ، ومضراته حقيقية ، فان القمار يبذل ماله المملوك له حقيقة على وجه اليقين لاجل ربح موهوم ليس عنده وزن ذرة لترجيحه على خطر الخسران والضياع ، والمسترسل في اضاعة المحقق طلباً للمتهم يفسد فكره ويضعف عقله ، ولذلك ينتهي الامر بكثير من المقامر ين الى نجع أنفسهم (فتلها غماً) أو الرضى بعيشة الذل والمهانة.

قال الاستاذ الامام انني أعرف رجلاً كانت ثروته لا تقل عن ثلاثة آلاف ألف جنيه (٣ ملايين) فما زال شيطان القمار يغريه باللعب فيه حتى فقد ثروته كلها.

(١) وقد فشا بدمه رحمه الله في الشعب ما هو شر من الخمر وأقفل في قتل الامم وهو استعمال بعض السموم تحت الجلد أو شتبا بالاق كالمورفين والكوكايين والهيروين

وعاش بقية حياته فقيراً معدماً حتى مات جائعاً ، وذكر انه ربح في ليلة تسع مائة ألف فرنك فقال لا أبرح حتى أمها مليوناً فلم يرح حتى خسرها الى مليون آخر ، وهكذا شأن أكثر المقامرین يغترون بالربح الذي يكون لهم أو لغیرهم أحياناً فيسترسلون في المقامرة حتى لا يبقى لهم شيء .

وليوت القمار في مصر طارق في استدراج الاغنياء لا يعقلها المصريون على ما يرون من آثارها في تخريب بيوت من اصغفدوا بأحاييلها من اخوانهم . ويحكى أن رجلاً غافلاً رأى من ولده ميلاً الى المقامرة لمعاشرته بعض أهلها فلما حانت وفاته وحف أن يضعم ولده ما يرثه عنه ، وعلم أن النهي لا يكون الا اغراء ، قال له يا بني أوصيك إذا شئت أن تقامر بأن تبحث عن أقدم قمار في البلد وتلاعب معه ، فطلق الولد بعده يبحث ويسأل وكلما دل على واحد علم منه ان هناك من هو أقدم منه حتى انتهى به البحث الى شيخ رث الثياب ، ظاهر الاكتئاب ، فعلم من حاله ومقاله أن مال القمار الى أسوأ مآب ، وأن والده قد اجتهد بنصيحته فأصاب ، وأنه نوتي الحكمة وفصل الخطاب ، ورجع هو الى رشده وأتاب ، فلم يدخل بيت المقامرة من حاف ولا باب .

ويشارك الميسر مع الخمر في أن متعاليهما قلما يقدر على تركهما والسلامة من بلائهما ، لان للخمر تأثيراً في العصب يدعو الى العود الى شربها والاكتثار منها ، فان ما تحدثه من التنبيه بعقبه خور وفتور بمقتضى سنة رد الفعل ، فيشعر السكران بعد الصحو أنه مضطرب الى معاودة السكر ، لينزل عنه ما حل به ، فإذا هو عاد فويت الداعية . وأما الميسر فان صاحبه كلما ربح طمع في الزيادة ، وكلما خسر طمع في تعويض الخسارة ، ويضعف الإدراك حتى تعز مقاومة هذا الطمع الوهمي . وهذا شر ما في هاتين الجرمتين .

وجملة القول أن الله تعالى قد هدانا لان نعلم مضرات الخمر والميسر بمحشنة . لنكون على بصيرة في تحريمهما علينا ، وأننا نرى الأمم التي لا تدین بالاسلام ولم تخاطب من الله تعالى بهذه الهداية قد اهتدت الى ما لم نهتد اليه من تلك المضار . وأنشأت تواف الجمعيات للسعي في ابطال هاتين الجرمتين ، ونحن الذين منعنا تلك

الهداية منذ ثلاثة عشر قرناً ونيف أنشأنا نأخذ عن تلك الامم ما أنشأت هي تقاومه وتذمه ، حتى ان السكر قد غلب في رؤساء دنيانا ، والميسر قد انتشر في أشرائنا وكبرائنا ، ثم فشا فيمن دونهم تقليدا لهم . نبه الاستاذ الامام لهذه العبرة وقال انظروا الى من أنعم الله عليهم بهذه النعمة كيف صاروا يكفرونها ، وكيف حل بهم غضب الله تعالى فسلبوا معظم ما وهبوا ، ويخشى أن يمتد ذلك حتى يعز تداركه والعياذ بالله تعالى

قال تعالى ﴿ ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو ﴾ — قال السيوطي في كتاب اسباب النزول : أخرج ابن أبي حاتم من طريق سعيد أو عكرمة عن ابن عباس أن نغرا من الصحابة حين أمروا بالنفقة في سبيل الله أتوا النبي ﷺ فقالوا انالنا قدرنا ما هذه النفقة التي أمرنا في أموالنا فما نفق منها ؟ فانزل الله (ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو) . وأخرج أيضاً عن يحيى انه بلغه ان معاذ بن جبل وثعلبة أتيا رسول الله ﷺ فقالا يا رسول الله ان لنا ارقاء واهلين فما نفق من أموالنا؟ فانزل الله هذه الآية . وليس المعنى أن السؤال الاول عن الحر والميسر نزل وحده ثم نزل هذا السؤال بعده ، بل المراد أن هذه الاسئلة كانت مما يقع من الصحابة فانزل الله هذه الآيات بيانا لهذه الاحكام واجابة لاسائلين عند ما استعدوا للاخذ بها ، وما ورد يدل على أن المراد أي جزء من أموالهم ينفقون ، وأي جزء منها يسكنون ، ليكونا ممتثلين لقوله « وانفقوا في سبيل الله » ومتحققين بقوله « وما رزقناهم ينفقون » وما في معنى ذلك من الآيات التي تنطق بأن الاتفاق في سبيل الله من آيات الايمان وشعبه اللازمة له على الاطلاق ، الذي يشعر أن على المؤمن أن ينفق كل ما يملك في سبيل الله . وقد قضت الحكمة بهذا الاطلاق في أول الاسلام ويمدح الايثار على النفس لان المسلمين كانوا فئة قليلة في أمم وشعوب وقبائل تناصبهم العداوة وتبذل في ذلك الاموال والارواح ، فاذا لم يتحدوا حتى يكونوا كشخص واحد ويبذل كل واحد ما بيده لمصلحتهم العامة ، لاستقيم لهم حال ولا تقوم لهم قائمة ، وهذه هي السنة العامة في كل دين عند ابتداء ظهوره

وأول نشأته ، ثم بعد ان تهتز الملة وتكثر الأمة ، ويصير يسكن في حفظ مصلحتها ما يبذل كل ذي غنى من بعض ماله ، ويفرغ الجمهور للأعمال الخاصة بحيث يتمكن ذو العمل أن يفيض من كسبه على أهله وولده ، بعد أن كان مستغرقاً في السعي لتعزيز دينه ووقايته من المحو والزوال ، بعد هذا كله تختلف الحال فلا يسهل على كل واحد أن يؤثر كل محتاج على نفسه وأهله وولده ، ولذلك توجهت النفوس بعد استقرار الاسلام الى تقييد تلك الاطلاقات في الانفاق ، فسألوا ماذا ينفقون ؟ فأجيبوا بأن ينفقوا العفو وهو الفضل والزيادة عن الحاجة ، وعليه الاكثر ، وقال بعضهم إن العفو تقيض الجهد أي ينفقون ما سهل عليهم ويسر لهم مما يكون فاضلاً عن حاجتهم وحاجة من يعملون .

قرأ أبو عمرو (العفو) بالرفع والباقون بالنصب والاعراب ظاهر ، والزيادة أمر مجمل يحتاج الى بيان ، قبل المراد حاجة اليوم أو الشهر أو السنة ؛ رجع بعضهم الآخر لان النبي ﷺ ادخل لاهله قوت سنة ، وقال الاستاذ الامام إن القرآن أطلق العفو ليقدره كل قوم في كل عصر بحسب ما يليق بحالهم ، لانه خطاب عام ليس خاصاً بأهل جزيرة العرب ، ولا بحال الناس في زمن البعثة . والمراد بهذا الانفاق ما وراء الزكاة المفروضة المحدودة كصدقة التطوع على الافراد وعلى المصالح العامة ، وان كان لفظ العفو يصدق على الزكاة لانها لا تكون إلا من الزائد على الحاجة الذي لا جهد ولا مشقة فيه .

وقد ورد في الاحديث الصحيحة ما يؤيد هذا فتد أخرج البخاري ومسلم وأبو داود وابن سائى من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال « خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى وابدأ بمن تعول » وأخرج ابن خزيمة من حديثه أيضاً أن النبي ﷺ قال « خير الصدقة ما أبت غنى ، وابدء العلياء خير من اليد السفلى ، وابدأ بمن تعول ، تقول المرأة انفق علي أو طلقني ، ويقول مملوكك أنفق علي أو بعني ، ويقول ولدك الى من تسكني »

وقد نوه الاستاذ الامام في هذا المقام بالانفاق في حفظ مصالح الامة واعمالها

الخيرية فقال ما مثاله : ان الامة الواحدة من مليون واحد اذا كانت تبذل من فضل مالها في مصالحها العامة كاعداد القوه وتربية النابتة على ما يؤهلها لاستعمالها ويقرر الفضيلة في أنفسها تكون أعز وأقوى من أمة مؤلفة من مئة مليون لا يبذلون شيئاً من فضول أموالهم في مثل ذلك : ذلك بأن الواحد من الامة الاولى يعد بأمة لأن أمته عون له تعدد جزءا منها ويعدها كلاً له ، والامة الثانية كلها لا تعد بواحد لأن كل جزء من أجزائها (أي أفرادها) يخلد الآخر ويرى ان حياته بموته فيكون كل واحد منها في حكم الميت . وفي الحقيقة أن مثل هذا الجمع لا يسمى أمة لأن كل واحد من أفرادهم يعيش وحده وإن كان في جانبه أهل الارض ، فهو لا يتصل بمن معه لئلا يستمد منهم ، ويتعاون الجميع على حفظ الوحدة الجامعة فهم التي تحقق معنى الامة فيهم . وانه لم تنهض أمة ولا ملة الا بمثل هذا التعاون ، وهو مساعدة الغني للفقير ، وإعانة القوي للضعيف ، وبذل المال والعناية في حفظ المصلحة العامة . بهذا ظهر القليل على الكثير وكانت لهم السيادة ، وبترك هذا انحلت الأمم الكبيرة ، وفقدت الملك والسعادة

قال الاستاذ الامام : ان النكتة في الجمع بين السؤال عن الخير واليسر والسؤال عن الانفاق في آية واحدة هي المقارنة بين حل فريقين من الناس : فريق ينفق المال بغير حساب في سبيل الانتم ، إما للتفاخر والتباهي فيما لا خير فيه ولا شرف في الحقيقة ، وإما تجرد اللذة وان ساءت عواقبها ، وفريق ينفقه في سبيل الله يزيل به ضرورة اخوانه المساكين والضعفاء ، ويرفع به من شأن أمته بما يجعله المصالح العامة واعمال الخير ، وأعظم المصالح والاعمال في هذا العصر هو التعليم والتربية ، ولو بذل المصريون عشر ما ينفقون في الخير واليسر - ولا سيما ما يسمونه المضاربة - على التعليم لتييسر لهم تعلم المدارس في بلادهم ، وتوجيه التعليم فيها الى ما يجدون ملتهم ، ويعيد اليهم ما فقدوا من كرامتهم

وقوله تعالى ﴿ كذلك يبين الله لكم الآيات ﴾ معناه : مثل هذا النحو وعلى هذه الطريقة من البيان قد قضت حكمة الله بأن يبين لكم آياته في الاحكام

المتعلقة بمصالحكم ومنافعكم ، وذلك أن يوجه عقولكم الى ما في الاشياء من

المضار والمنافع ﴿اعلمكم تتفكرون﴾ فيظهر لكم الضرر منها أو الراحح ضرره فتعلموا انه جدير بالترك فتتركوه على بصيرة واقتناع بأنكم فعلتم ما فيه المصلحة ، كما يظهر لكم النافع فتطلبوه ، فمن رحمته بكم لم يرد أن يعنتكم ويكلفكم ما لا تمقلون به فائدة إرغاماً لارادتكم وعقلكم ، بل أراد بكم اليسر فعلمكم حكم الاحكام وأسرارها ، وهذا كما الى استعمال عقولكم فيها ، أمرتوا بهدايته عقولاً وأرواحاً ، لا لتنفعوه سبحانه أو تدفعوا عنه الضرر ، فانه غني عنكم بنفسه ، حميد بذاته ، عزيز بقدرته .

ثم بين جل شأنه ان هذا البيان المعدل للتفكر ليس خاصاً بمصالح الدنيا وحدها ، ولا

بطلب الآخرة على انفرادها ، وانما هو متعلق بها جميعاً فقال ﴿في الدنيا والآخرة﴾ أي تتفكرون في أمورهما معاً ، فتحتمل لكم مصالح الجسد والروح فتكونون أمة وسطاً ، وأناسي كاملين ، لا كالذين حسبوا أن الآخرة لا تتأثر إلا بترك الدنيا وإهمال منافعها ومصالحها بالمرءة ففسروها وخسروا الآخرة معها ، لأن الدنيا مزرعة الآخرة ، ولا كالذين انصرفوا الى الذات الجسدية كاليهاثم ففقدت أخلاقهم وازلت أرواحهم ، وكانوا بلاء على الناس وعلى أنفسهم ، ففسروا الآخرة الدنيا معها . وهذا الارشاد الى التفكير في مصالح الدنيا والآخرة جميعاً هو في معنى الحاجة في الدعاء بقوله تعالى (٢٠١ ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة) وتقدم تفسيرها ، فله تعالى يبين في مثل هذه الآيات أن الاسلام هادي مرشد الى توسيع دائرة الفكر واستعمال العقل في مصالح الدارين ، وقدم الدنيا في الذكر ، لأنها مقدمة في الوجود بالفعل ، وكل ما أمرنا الله تعالى به وهذا الى فهو من ديمقنا ، ولذلك قال علماؤنا إن جميع الفنون والصناعات التي يحتاج اليها الناس في معاشهم من الفروض الدينية إذا أهمات الامة شيئاً منها فلم يقم به من أفرادها من يكفها أمر الحاجة اليه ، كانت كلها عاصية لله تعالى مخافة لدينه ، الا من كان عاجزاً عن دفع ضرر الحاجة وعن الامر به للقادر عليه ، فأولئك هم المأمورون بالتقصير

على هذا قام صرح مجد الاسلام عدة قرون ، كان المسلمون كما عرض لهم

شيء بسبب التوسع في العمران يتوقف عليه حفظه وتعميم دعوته النافعة قاموا به حق القيام، وعدوا القيام به من الدين عملاً مثل هذه الآية وغيرها من الآيات، ومضوا على ذلك قروناً كانوا فيها أبسط الأمم وأعلاها حضارة وعمراناً، وبروا إحساناً، إلى أن غلا أقوام في الدين وأتبعوا سنن من قبلهم في إهمال مصالح الدنيا، زعموا أن ذلك من الزهد المطلوب، أو التوكل المحبوب، وما هو منهما في شيء؛ وكان من أثر ذلك أن أهملت الشريعة فلا توجد حكومة إسلامية على وجه الأرض تقيمها، لأنه لا يوجد من أهلها من يصلح لحكم الناس في هذه العصور التي اتسعت فيها مصالح الأمم والحكومات، بالتوسع في العلوم والصناعات وارتباط العالم ببعضه ببعض، ثم صار علماء المسلمين أنفسهم يعدون الاشتغال بالعلوم والفنون التي تتوقف عليها مصالح الدنيا صادة عن الدين مبعدة عنه، بل يوجد فيهم من يقول أنها مفسدة لمقائده مفضية إلى الخروج منه. وهذا هو دخول جحر الضب الذي دخله من قبلنا وهو كما ترى خروج عن هدى القرآن؛


وقد يقال إذا كان المتقطع لعلوم الدين لا يأمن على عقيدته أن تذهب ودينه لأن يفسد إذا هو تفكر في مصالح الدنيا وعرف العلوم التي لا تقوم هذه المصالح بدونها، فكيف يكون حال من يدرسون هذه العلوم الدنيوية من المسلمين وليسوا على شيء يعتد به من العلوم الدينية؟ لا جرم أن هذا قضاء على الإسلام، بأنه آفة العمران، وعدو العلم والنظام، وهو قضاء جائر يبطله القرآن، وتنفذه سيرة السلف الصالحين الذين سبقونا بالإيمان، ولكن أين من يتبعهما الآن؟ وقد قام شريك من الذين لم ينظروا في كتاب الله مرة نظرة معتبر، ولم يتلو منه آية تلاوة مفكر متدبر، يقسمون المسلمين إلى قسمين: قسم لا نجب المبالاة بدينه، ولا يهتم به في شكه أو يقينه، فله أن يتعلم ما يشاء صحت عقيدته أو فسدت، صليحت أعماله أو خسرت. وقسم آخر يجب أن يسان عقله عن كل فكر، ويحاط بجميع الوسائل التي تمنعه من النظر فيما عليه الناس من خير وشر، وما يعرض في الكون من نفع وضرر، كيلا يفسد النظر عقيدته، ويضل الفكر السليم بصيرته، وهذا القسم هو الذي تفوض إليه الرياسة الدينية، وبعمدها يهتدى الأمة في صلاح


الاعمال، وانتظام الاحوال، وأعظم قسم في الامة هو القسم الاول بحكم الضرورة، بل هو الامة كلها بالتقريب، وقد صار بيده زمام جميع أمورها وقوة الحكم فيها، إذ لا يمكن أن يتيسر لهذا القسم الثاني وهو خلو من العلم بحالها، ودون كل واحد منها في العقل، وفوقه في الغباوة والجهل، أن يقود واحدا منها بله قيادتها كلها؟ فهل يتفق مثل هذا للخلاف، مع شيء من سنة السلف؟ ألا عاقل يقول هؤلاء المشعوذين كيف ساء في عقولكم أن يسلم الى الجاهل، قيادة العاقل؟ وكيف يتيسر حفظ الدين، بالعدول عن سنن المرسلين، ومخالفة سير السلف الصالحين؟ ٢٩

ثم قال تعالى ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى﴾ الخ اخرج أبو داود والنسائي والحاكم وغيرهم عن ابن عباس قل لما نزلت «ولا تقربوا مال اليتيم الا بالتي هي أحسن» و«ان الذين يأكلون أموال اليتامى» الآية انطلق من كان عنده يقيم فعزل طعامه من طعامه وشرابه من شرابه، فجعل بفضل له الشيء من طعامه فيحبس له حتى يأكله أو يفسده، فاشتد ذلك عليهم فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فأمر الله (ويسألك عن اليتامى) الآية. ذكره السيوطي في أسباب النزول

نعم ان آيات الوصية في اليتامى كثيرة ومنها ما نزل في مكة كقوله تعالى (١٧ : ٣٤) ولا تقربوا مال اليتيم الا بالتي هي أحسن) في سورة الاسراء وقوله تعالى (٩٣ : ٩) فأما اليتيم فلا تقهر) في سورة الضحى وقوله عز وجل (٧ : ١٠٧) فذلك الذي يدع اليتيم) في سورة الماعون، جعل دع اليتيم وهو دفعه وجره بعنف أول آيات التكذيب بالدين. وأجمع ما ورد في ذلك وآ كده آيات سورة النساء وهي مدنية كسورة البقرة، ومنها قوله تعالى (٤ : ١٠) ان الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون في بطونهم نارا) ولكن سورتها نزلت بعد سورة البقرة، وقد كان السابقون الاولون من المؤمنين يحفظون حدود الله تعالى وبأخذون القرآن بقوة لانهم لبلاغتهم يفهمون الوعيد في مثل هذه الآية فتحدث لهم من الذكري والعظة ما لا يجد مثله من لم يؤت بلاغتهم. وليس المراد ببلاغتهم أنهم قرأوا علم المعاني والبيان فحفظوا في أذهانهم عللا كثيرة للتقديم والتأخير فيه

المسند والسند اليه ونحو ذلك ، وإنما هي مقاصد الكلام ومغازيه تفوص في
أعماق القلوب كما يعوص الماء في الاسفنج ، فلا تدع فيها مكاناً يتعاصى على
تأثيرها كما قال الاستاذ الامام . هذا الاتعاظ والاعتبار بوصايا الكتاب العزيز
في اليتامى قد ملك نفوس المؤمنين فتركهم في حيرة وخرج من أمر القيام عليهم
واستغلال أموالهم ، خوفاً أن ينافهم شيء من الظلم المذكور في آية سورة النساء
لأن الظلم يتناول كل ما نقص من الحق ، وشاهدته قوله تعالى (كلنا الخبيثين
آتت أكلها ولم تظلم منه شيئاً) فإذا اختلط اثنان في النفقة وأكل أحدهما مما اشترى
بمالها أكثر من الآخر ، تكون الزيادة من مال الآخر ، فإن كان راشداً فراضاه
ولو باع عرف أو القرينة إذن يبيع هذا التناول ، وثم إذا كان الخليل يتيماً فإن
الزيادة تكون مظنة الظلم أو هي منه حتماً ، ولذلك تأثم الصحابة عليهم الرضوان
من مخالطة اليتامى بعد نزول آية النساء ، وإن كانت العادة جارية بتسامح الناس
في مؤاكلة الخطاء والشر كاه من غير تدقيق فكان بعضهم يأبى القيام على اليقيم
وبعضهم يعزل اليقيم عن عياله فلا يخاطونه في شيء حتى إنهم كانوا يطبخون له
وحده ، ثم إنهم فطنوا إلى أن هذا على ما فيه من الحرج عليهم لا مصلحة فيه لليقيم
بل هو مفسدة له في تربيته ومضيعة لماله ، وفيه من القهر المنهي عنه فلا يخفى ،
فانه يكون في البيت كالكلب أو الداجن في مأكله ومشربه . ومن هنا جاءت الحيرة
واحتياج إلى السؤال عن طريق الجمع بين الأمرين ، والتوحيد بين المصلحتين ،
بأن يعيش اليقيم في بيت كافله عزيزاً كريماً كأحد عياله . ويسلم الكافل من أكل
شيء من ماله بغير حق ، وكان من فضل الله تعالى ورحمته أن أنزل الوحي في
إزالة الحيرة وكشف الغمة ، فقال لنبيه (قل) هؤلاء السائلين عن القيام على

اليتامى وكفالتهم ، وعن المصلحة في عزلهم أو مخالطتهم  إصلاح لهم خير ،

وإن تخاطوهم فاجروا نكم  يعني أي إصلاح لهم خير من عدمه فلا تتركوا شيئاً
بما تعلمون أن فيه صلاحاً لهم في أموالهم وأحوالهم من تربية وتهذيب ، هذا ما

(البقرة س ٢) مخالطة اليتامى لحريم واصلاح أنفسهم وأموالهم (٣٦٤٣) ٣٣

إفاده تنكير (اصلاح) وإن تخاطبهم لرؤيتكم الخير لهم في المخالطة في لمصلحة فهم
إخوانكم في الدين ، وإنما شأن الاخوان المخالطة في المعاشرة .

وقد أزال الكلمة الاولى من هذا الجواب الوجيز شبهة المتأمنين من كفالتهم ،
وكشفت الكلمة الثانية شبهة القوام للتحرجين من مخالطتهم ، ومن هذا الجواب
عرفنا حقيقة السؤال ، وهذا من ضروب الایجاز التي لم تعرف الا من القرآن

أما معنى كون الاصلاح لهم خيراً فهو ان القيام عليهم لاصلاح نفوسهم
بالتهديب والتربية ، واصلاح أموالهم بالثمير والتنمية ، هو خير من إهمال شأنهم
وتركهم لانفسهم ، تفسد أخلاقهم وتضيع حقوقهم — خير لهم لما فيه من
صلاحهم ، وخير للقوام والكافلين لما فيه من درء مفسدة إهمالهم ، ومن المصلحة
العامه في صلاح حالهم ، ولما في ذلك من حسن القدوة في الدنيا ، وحسن المثوية
في الآخرة قال في التفسير الكبير قل اتقوا : هذا الكلام يجمع النظر في صلاح
مصالح لیتيم بالتقويم والتأديب وغيرها لكي ينشأ على علم وأدب وفضل ، لأن
هذا الصنع أعظم تأثيراً فيه من اصلاح حاله بالتجارة ، ويدخل فيه أيضاً اصلاح
ماله كي لا تأكله النفقة من جهة التجارة ، ويدخل فيه أيضاً معنى قوله تعالى (وآتوا
اليتامى أموالهم ولا تبدلوا الخبيث بالطيب)

وأما قوله « وإن تخاطبهم فإخوانكم » فمعناه انه لا وجه للتأثم من مخالطتهم
في المأكل والمشرب والمكسب ، فهم اخوانكم في الدين ، ومن شأن الاخوة ان
يكونوا خلطاء وشركاء في النكاح والمعاش ، ولا ضرر على أحد منهم في ذلك ،
بل هو نافع لهم ، لأن كل واحد منهم يسعى في مصلحة الجميع ، والمخالطة مبنية
بينهم على المسامحة لانتفاء مظنة الطمع وتحقيق الاخلاص وحسن النية . كأنه يقول :
وان تخاطبهم فعليكم ان تعاملوهم معاملة لاخوة في ذلك فيكون اليتيم في
البيت كالأخ الصغير تراعى مصلحته بقدر الامكان ، ويتحري أن يكون في
كفته الرجحان ، وقيل إن المراد بالمخالطة المصاهرة واخوة الاسلام علة لحالها ،
وقد اطلأ أبو مسلم في ترجيح هذا الوجه .

وهذا الذي هدانا اليه الكتاب العزيز في شأن اليتيم من معاملتهم كالاخوان

مبني على ما أودع الفطرة السليمة من الحب والاخلاص للأقربين ، وقد طرأ
 الفساد على هذه الرابطة النسيبة في بلاد كثيرة بما أقسدت السياسة في الأمة ،
 فصار الأخ يطمع في مال أخيه ، ويحفر له من المهاوي ما لعله هو يقع فيه ، وأمثال
 هؤلاء الذين فسدت طبائعهم واعتلت خلاتهم ، لا يوكل اليهم الرجوع إلى الفطرة
 وتحكيمها في معاملة اليتامى كالأخوة ، لذلك لم يكتف القرآن بذلك حتى وضع
 للضمير والوجدان ، ، قاعدة يرجع إليها في هذا الشأن ، فقال

﴿ والله يعلم المفسد من المصلح ﴾ أي انه لم يكل أمر مخالطة اليتامى إلى حكم
 نزعة القربة وعاطفة الأخوة من قلوبكم إلا وهو يعلم ما تضرر هذه القلوب من
 قصد الإصلاح لهم أو الإفساد ، فعليكم ان تراقبوا في أعمالكم ونياتكم ، وتنبهوا
 ان سيحاسبكم على مثقال الذرة مما تعملون لهم . والمصلح هو من يأتي بالإصلاح
 عملاً ، والمفسد هو من يأتي بالإفساد فعلاً ، وحال كل منهما ظاهرة للعيان ، وإنما
 أيقظ الله تعالى القلوب إلى ذكر علمه بذلك لتلاحظ اطلاعه على العمل ، وتذكر
 جزاءه عليه فترقبه فيما خفي منه ، لعلها تأمن من مزالق الشهوة ، وتسلم من مزالق
 الشبهة ، فان شهوة الطمع تولد لصاحبها شبهة أكل مال اليتيم ، كأي كل صاحبها مال
 أخيه الضعيف ، ولا عاصم من ذلك إلا بمراقبة الله تعالى وتقواه . والإنسان يرى
 أكثر الاوصياء على الايتام في هذا الزمان يظهرون الملاءم لإصلاح أحوالهم ،
 وتشير أموالهم ، مع العفة والزهادة فيها ، وهم في الباطن يأكلونها أكلاً لئماً ، حتى
 ان واحدهم يصبح غنياً بعد فقر ولا عمل له إلا القيام على اليتيم ، والاجرة المفروضة
 له على الوصاية لا غناء فيها فيكون غنياً بها . وكل من يطلب ان يكون وصياً على
 يتيم ويسعى لذلك سعيه فهو موضع للظنة ، ولما يوجد فيهم من يرضى بما يفرض
 له على عمله ، وسيأتي ما يحل للوصي من مال اليتيم وما يحرم في سورة النساء ان شاء
 الله تعالى

ثم بين لنا سبحانه وتعالى منته علينا ورحمته بنا بما أذن لنا من مخالطة اليتامى

فقال ﴿ ولو شاء الله لا أغنتكم ﴾ أي لا أوفقكم في العنت وهو المشقة وما يصعب

(البقرة ٢) مناسبة اسمي العزيز الحكيم المقام ونكتة الجمع بين السؤالين ٢٤٤

احتماله ، بأن يكلفكم القيام بشؤون اليتامى وتربيتهم وحفظ أموالهم ، ولا يذنب لكم بمخالطتهم ولا بأكل لقمة واحدة من طعامهم ، ولكنه لسعة رحمته لا يكلفهم نفساً إلا وسعها ، وما جعل عليكم في الدين من حرج ، ولذلك أباح لكم مخالطة اليتامى على أن تعاملوهم معاملة الأخوة ، ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم ، وقد عفا عما جرى العرف على التسامح فيه لعدم استغناء الخطاء عنه ، ووكّل ذلك إلى ذمتكم وأمركم بمراقبته فيه ، وهو الرقيب المهيمن الذي لا يخفى عليه شيء من أعمالكم ولا من قصدكم ونيّتكم . ﴿ ان الله عزيز حكيم ﴾ فلو شاء إعانتكم لعز على غيره منة من ذلك ، اذ لا عزة تعلو عزته ؛ ولكن مصّت حكمته بأن تكون شريعته جامعة لمصالح عباده ، جارية على سنن الفطرة العادلة التي فطروهم عليها . هكذا جعل الاستاذ الامام ذكر العزيز في هذا المقام لتقرير إمكان تعالى المشيئة بالاعانت ، وذكر الحكيم لتقرير التفضل بعدم تعليق المشيئة به ، وكل من الامرين مفهوم من قوله « ولو شاء الله لأعتكم » وبجمل أن يكون ذكر الاسمين الكريمين تقريراً لعزته وحكمته تعالى في المسائل الثلاث في الآيتين — مسئلة الحر والميسر — ومسألة الانفاق ومسألة نيامي — قائماً وردت في الآيات معطوفاً آخرها على أولها ، والله العزة بمنع الناس بعض الشهوات ، وبتكليفهم الانفاق من فضول أموالهم ، وبتكليفهم تحري الاصلاح للآيتام مع الاذن بمخالطتهم ، ومن حكمته أن منعهما ما يضرهم من ذلك ، وكلفهم ما فيه مصالحتهم ، وأن هداهم إلى وجه منفعة النافع ومضرة الضار

الاستاذ الامام : لنكتة في وصل السؤال عن اليتامى بالسؤال عن الانفاق والسؤال عن الحر والميسر انه لما كان ذاك السؤالان مبينين لحال فريقين من الناس في الانفاق وبذل المال (على ما تقدم) ناسب ان يذكر بعدهما السؤالان عن صنف هو من أحق أصناف الناس بالانفاق عليه وبذل المال في سبيل تربيته وإصلاح شأنه ، وهو صنف اليتامى ، وليس الرغبة بالانفاق عليهم بعيدة من هذه الآية ، وقد تكرر في غير هذه السورة . كأنه سبحانه وتعالى يذكرنا عسى لاذن بمخالطة اليتامى والرغبة في الاصلاح لهم ، بأن النعمة عليهم من أموالنا .

منذوب اليها ، وانهم من المستحقين لما نفقه من العفو الزائد عن حاجتنا ، فلا يليق بنا أن نعكس القضية ونطمع في فضول أموالهم ، لأنهم ضعفاء قصرون لا يستطيعون دفاعاً عن حقوقهم ، ولا ذوداً عن مصالحهم . فجمع الاسئلة الثلاثة في الآيتين وعطف بعضها على بعض في غاية الاحكام والالتزام . وترون من هذا السؤال وجوابه كيف كانت عناية المؤمنين في حفظ أحكام الله وافتاء اعتداء حدوده ، وكيف شدد الله تعالى الأمر في شأن اليتامى فلم يأذن بالقيام عليهم إلا بقصد الإصلاح ، ولا بمخالطتهم إلا لمخالطة اخوة ، وكيف وجه القلوب مع هذا إلى مراقبته ، والتذكر لاحاطة علمه ؟ ثم ترون كيف اتخذ الناس هذه الآيات وسيلة للتلذذ بتغيات قارئها ، أو للتعبد بألفاظها دون الاهتمام بمعانيها ، ومن أخذته هزة عند سماع مثل قوله تعالى (والله يعلم المفسد من المصنح) فأنها " لا تلبث أن تزول ، ثم هو لا يزول عن إفساده ، ولا يرجع إلى رشاده ، ومنهم من يتزيا بزى المتقين ، ويظهر في صورة الصالحين ، ويكثر من التسبيح والتلاوة ، وحضور صلاة الجماعة ، حتى إذا ما جعل وصيا على بيتهم لا ترى لذلك التحنث أثرا في عمله ، ولا ذلك السمات حثلا دون زلله ، فهو إن أصلح شيئا يفسد أشياء ، ولا يراقب الله ولكن يراقب الحسية والقضاء ، ذلك أن الاسلام قد صار تقاليد عبودية ، وحركات بدنية ، ليس له منبع في القلوب ، ولا أثر صالح في الاعمال ، وإن الله تعالى لا ينظر إلى الصور والابدان ، ولا يعاب بالحركات والاقوال ، ولكن ينظر إلى القلوب والارواح ، وما ينشأ عن صلاحها من خير وإصلاح

(٢٢٢) وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَ، وَلَا مِمَّنْ مُمِنَةً خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ، وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا، وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ، أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ، وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ، وَيُبَيِّنُ آيَتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ

الآيات في سرد الاحكام كما تقدم فلا حاجة لربط كل آية بما قبلها والربط ظاهر على القول بأن المراد بالمخالطة في الآية السابقة نكاح اليتامى . أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم والواحدي عن مقاتل قل نزلت هذه الآية في ابن أبي مرثد العنوي استأذن النبي ﷺ في « عناق » أن يتزوجها وهي مشركة وكانت ذات حظ من جمال فنزلت : يعني (ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن) ذكر ذلك السيوطي في أسباب النزول ، ثم قال وقوله تعالى (ولأمة مؤمنة) الآية أخرج الواحدي من طريق السدي عن أبي مالك عن ابن عباس قال نزلت هذه الآية في عبد الله بن رواحة كانت له أمة سوداء وأنه غضب عليها فلطمها ثم انه فزع فأتى النبي ﷺ فأخبره وقال : لأعتقها ولأتزوجنها : ففعل فطعن عليه ناس وقلوا يشكح أمة فأنزل الله هذه الآية . وأخرجه ابن جرير عن السدي منقطعاً . وظاهره أن قوله تعالى (ولأمة مؤمنة) إلى (أعجبتكم) آية مستقلة نزلت في حادثة غير الحادثة التي نزل فيها قوله تعالى (ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن) وهذا الظاهر من صنيعه خفي في نفسه بل هو باطل البتة . ولا شك أن الآية واحدة نزلت مرة واحدة عند حاجة الناس إلى بيان أحكامها ، ولا مانع أن يكون ذلك بعد حدوث ما روي عن أبي مرثد وعن عبد الله بن رواحة وفي روح المعاني ما نصه : روى الواحدي وغيره عن ابن عباس رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بعث رجلاً من غني يقال له مرثد بن أبي مرثد حليفاً لبني هاشم إلى مكة ليخرج أناساً من المسلمين بها أسرى فلما قدمها سمعت به امرأة يقال لها عناق وكانت خديلة له في الجاهلية فلما أسلم أعرض عنها فأتته فقالت ويحك يا مرثد ألا تخلو ؟ فقال لها ان الاسلام قد حال بيني وبينك وحرمة علينا ، ولكن إن شئت تزوجتك فقالت نعم ، فقال إذا رجعت إلى رسول الله ﷺ استأذنته في ذلك ثم تزوجتك : فقالت له أبي تبرم ؟ ثم استعانت عليه فضربه ضرباً وجيعاً ثم خلوا سبيله ، فلما قضى حاجته بمكة انصرف إلى رسول الله ﷺ راجعاً وأعلمه الذي كان من أمره وأمر عناق وما نجي بسببها ، فقال يا رسول الله أحل لي أن أتزوجها ؟ وفي رواية إنها تعجني

فبزلت . وقمب ذلك السيوطي بأن هذا ليس سببا لنزول هذه الآية وإنما هو سبب في نزول آية النور (الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة) وروى السدي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن هذه نزلت في عبد الله بن رواحة وكانت له أمة سوداء وأنه غضب عليها فلطمها ثم انه فرغ فأتى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فأخبره خبرها فقتل له النبي ﷺ « ما هي يا عبد الله ؟ » قال هي يا رسول الله تصوم وتصلي وتحسن الوضوء وتشهد أن لا إله إلا الله وأنت رسول الله ، فقال « يا عبد الله هي مؤمنة » قال عبد الله : فوالذي بعثك بالحق لا أعتقها ولا تزوجها ، ففعل قطعن عليه ناس من المسلمين فقالوا نكح أمة . وكانوا يريدون أن ينكحوا إلى المشركين وينكحوهم رغبة في أنسابهم ، فأنزل الله « ولا تنكحوا » الآية

انتهى سياق الالوسي وهو أحسن من سياق السيوطي الذي قدمناه لانه مفصل وذاك مختصر اختصاراً أوهم أن الذي نزل في عبد الله بن رواحة هو قوله تعالى (ولائمة) الخ على أن السيوطي قال في مقدمة كتابه في أسباب النزول إن الصحابة يذكرون أن الآية نزلت في كذا ولا يريدون به إلا تفسيرها أي إن معناها يقتاول ذلك ، وإذا ذكروا أسباباً فقد يعنون أنها نزلت عقياً . والالوسي يقول إن السيوطي تعقب الواحد في السبب الاول وليس في كتابه هذا شيء من هذا التعقب ، على أنه حوى كتاب الواحد وزيادات . وأما آية (٢٤ : ٣) زاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة) فقد ذكرها السيوطي سببين أحدهما أن رجلاً أراد أن يتزوج امرأة يقال لها أم مهزول كانت تسافح ، رواه النسائي ، والثاني أن رجلاً يقال له مزيد أراد أن يتزوج امرأة بمكة صديقة له يقال لها عناق ، رواه أبو داود والترمذي والنسائي والحاكم من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده (وفي حديثه عنهما مقال) وقد روى الاول غير من ذكر وقوله هنا « مزيد » مصحف والصواب مرثد . ونكح البغايا كان فاشياً ، والمشهورات منهن في الجاهلية كثيرات وقد نزلت الآية في الجميع وجلة القول أن ما روي في الآية التي تفسرها الآن متفق على أن المراد بالمشركات فيها غير الكتابيات من نساء العرب ، وذهب بعضهم إلى أن المراد بالمشركين

والمشركت عام يشتمل أهل الكتاب لان بعض ما هم عليه شرك ، وقد قال تعالى بعد ذكر بعض عقائدهم (٩ : ٣١ سبحانه عما يشركون) واستدلوا على شركهم ايضا بقوله تعالى (٤ : ٨٤ ان الله لا يغفر ان يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) ولو لم يكونوا مشركين لجاز ان يغفر الله لهم . وذهب الاكثرون إلى ان المراد بالمشركت مشركت العرب اللاتي لا كتاب لهن لان هذا هو عرف القرآن في لقب المشرك قال تعالى (٢ : ١٠٥ ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين) الآية وقال تعالى (٩٨ : ١ لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة) والعطف يقتضي المغايرة . وهذا القول هو الذي يتفق مع قوله تعالى في بيان من يحل من النساء (٥ : ٥) والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم) وهي في سورة المائدة وقد نزلت بعد سورة البقرة ولذلك ذهب من قال بأن لفظ المشركت شامل للكتابيات إلى أن آية المائدة نسخت آية البقرة ، وقال بعضهم ومنهم الجلال أنها خصصتها بغير الكتابيات والمقصود واحد . وزعم بعض المفسرين ان آية البقرة هي الناسخة لآية المائدة ، وهذا لا وجه له مع الاتفاق على ان سورة المائدة من آخر القرآن نزولا . وذهب بعض آخر إلى التناويل بأن آية المائدة مقيدة بما إذا أسلمن . هذا ليس بشيء إذ لا دليل على القيد المحذوف ، ولان المشركت إذا أسلمن يحل نكاحهن أيضا بالاجماع ، وجرى عليه العمل في عصر التنزيل قبل نزول الآية فما فائدة ذكره ؟

وقد اختلف في المجوس فقيل يدخلون في المشركين لانهم لا كتاب لهم وقيل بل كان لهم كتاب ، وبعض الفقهاء يقول لهم شبهة كتاب ، وقد يشعر بأنهم أهل كتاب قوله تعالى في سورة الحج (٢٢ : ١٧) ان الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين النصارى . المجوس والذين اشركوا ان الله يفصل بينهم يوم القيامة) فالعطف يقتضي المغايرة وقد فرق الفقهاء بين المشركين والمجوس في الجزية ولا حاجة للبحث في ذلك هنا

أما استدلال به الآخرون على شرك أهل الكتاب من قوله تعالى (٩ : ٣١ سمعته عما يشركون) وقوله (٤ : ٨٤ ان الله لا يغفر ان يشرك به) الآية بعد اجابهم

عن الاول بأن قوله (يشركون) لا يقتضي ان من حكي عنهم ذلك الفعل يشترط لهم منه وصف يكون عنوانا لهم فيدخلوا في صنف من يسميهم القرآن بالمشركين والذين اشركوا فان الاوصاف كثير أما يراد بها عند أهل التخطيب صنف مخصوص لا يدخل فيه كل من يتلبس بالفعل الذي اشتق منه الوصف . مثال ذلك لفظ (العلماء) يطلق الآن عند المسلمين على صنف من الناس لا يدخل فيه كل من يتعلم علما أو علوما ، ولو تعلم ما يتعلمون وفقهم فيه ما لم يكن على زعيمهم ومشاركهم في مجموع المزايا التي كانوا بها عنفا مستقلا ، وبطلق هذا اللفظ عند قوم آخرين على صنف آخر ، وأجيبوا عن الثاني بأنه مسوق لبيان فظاعة الشرك والتعليق فيه وكونه غاية البعد عن الله تعالى ، بحيث قضى بأن لا تتعق مشيئته بغفرانه ، على أنه لو شاء أن يغفر كل ذنب سواء لفعل ، إذ لا مرد لمشيئته ، فلا يدخل هذا فيما نحن فيه ، إذ لا يدل على ان كل من ليس مشركا يغفر الله له ، فيقال ان نفي الشرك عن أهل الكتاب يستلزم مغفرة الله تعالى لهم مع قيام الأدلة على أنه لا يغفر لمن تبلغه دعوة الحق الذي جاء به الاسلام فيجحدوها عنادا واستكبارا .

﴿ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن﴾ هذا معطوف على مفهوم ما قبله من الامر بالاصلاح والنهي عن الافساد ، ومعناه لا تزوجوا النساء المشركات ما دمن على شركهن ﴿ولا أمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم﴾ أي والله ان أمة أي مملوكة مؤمنة بالله ورسوله خير من مشركة حرة ولو أعجبتكم للمشركة بما لها وبغيره . وأصل الأمة أمة بالتجريك يقال أمت الجارية : صارت أمة ، وأميتها بالتشديد جعلتها أمة وتأممت صارت أمة . ﴿ولا تنكحوا المشركين﴾ أي لا تزوجوه المؤمنات ﴿حتى يؤمنوا﴾ فيصيروا أكفاء لهم ﴿ولابد مؤمن خير من مشرك﴾ أي ولملوك مؤمن خير من مشرك حر ﴿ولو أعجبتكم﴾ المشرك بنسبه أو قوته أو ماله . وجلة القول ان هؤلاء الذين اشركوا وهم الذين بينكم وبينهم غاية الخلاف والتباين في الاعتقاد لا يجوز لكم ان تتصلوا بهم برابطة

الصاهر لا تزويجهم ولا بالتزوج منهم ، وأما الكتابيات فقد جاء في سورة المائدة "هن حلالا ، وسكت هناك عن تزويج الكتابي بالمسلمة وقالوا — ورضيه الاستاذ الامام — انه على أصل المنع وأبدوه بالسنة والاجماع . ولكن قد يقال ان الاصل الاباحة في الجميع فجاء النص بتحريم المشركين والمشركات تغليظا لأمر الشرك ويحذل الكتابيات تأملا لأهل الكتاب ليروا حسن معاملتنا وسهولة شريعتنا ، وهذا إنما يظهر بالتزوج منهم لأن الرجل هو صاحب الولاية والسلطة على المرأة ، فإذا هو أحسن معاملتها كن ذلك دليلا على ان ما هو عليه من الدين القويم ، يدعو إلى الحق وإلى طريق مستقيم . والعدل بين المسلمين وغير المسلمين ، وسعة الصدر في معاملة المخالفين ، وأما تزويجهم بالمؤمنات فلا تظهر منه هذه مثل الفائدة لان المرأة أسيرة الرجل لاسيا في مائ ليس للنساء فيها من الحقوق ما أعطاهن الاسلام — وأهل الكتاب وسائر الملل كذلك — فقد يصح أن يكون هذا هو المراد من النصين في السورتين ، وذا قامت بعد ذلك أدلة من السنة أو الاجماع أو من التعليل الآتي لمنع منة كحة عن الشرك على تحريم تزويج الكتابي بالمسلمة فيها حكمها لاعمالا بالأصل او نص الكتاب . بل عملا بهذه الأدلة ، والتعبير يتكحوا وتنكحوا (بفتح التاء وضما) يتنكر أن الرجال هم الذين يزوجون أنفسهم ويزوجون النساء اللواتي يتولون أمرهن ، وان المرأة لا تزوج نفسها بالاستقلال بل لابد من الولي ، إذ الزواج تجديد قرابة ومودة رحمة بين أسرتين وعشيرتين لا يتم ونحصل فائدته إلا بتولي أولياء المرأة له مع اشتراط رضاها واذنها به صراحة في الشيب وسكوتها إقرارا في البكر التي يغلب عليها الحياء .

وقد فسر الجمهور الامة والعبد في الآية بالريق أي ان الامة للمملوكة المؤمنة خير من الحرة المشركة ولو أعجبكم جهادا ، وكذلك التين المؤمن خير من الحر المشرک وإن كان معجبا ، وتعلم منه خيرية الحر المؤمن والحرة المؤمنة بالأدلى ، وقال آخرون ان المراد أمة الله وعبد الله أي ان المؤمنة والمؤمن كل منهما عبد الله يطيعه ويخشاه ولذلك كان خيرا ممن يشرك به ، فكان في التعبير بالامة والعبد إشعار بعلة الخيرية . بيان ذلك ان ليس المراد بالزوجية قضاء الشهوة الحسية .

فقط وإنما المراد بها تعاقد الزوجين على المشاركة في شؤون الحياة والاتحاد في كل شيء ، وإنما يكون ذلك بكون المرأة محل ثقة الرجل يأمنها على نفسه وولده وماله ، عالماً أن حرصاً على ذلك كحرصه ، لأن حفظها منه كحفظه ، وما كان الجلال الذي يروق الطرف ، ليحقق في المرأة هذا الوصف ، ولكن قد يمنعه التباين في الاعتقاد ، الذي يتعذر معه الركون والاتحاد ، والمشاركة ليس لها دين يحرم الحياة ، ويوجب عليها الأمانة ، ويأمرها بالخير ، وينهاها عن الشر ، فهي موكولة إلى طبيعتها ، وما تربت عليه في عشرينها ، وهو خرافات الوثنية وأوهامها ، وأمانى الشياطين وأحلامها ، فقد تخون زوجها ، وتفسد عقيدة ولدها ، فان ظل الرجل على إعجابه بجبالها ، كان ذلك عوناً لها على التوغل في ضلالها واضلالها ، وإن نبا طرفه عن حسن الصورة ، وغلب على قلبه استنباح تلك السريرة ، فقد ينغص عليه التمتع بالجمال ، ما هو عليه من سوء الحال

وأما الكتابية فليس بينها وبين المؤمن كبير مباينة فانها تؤمن بالله وتعبده ، وتؤمن بالانبياء وبالحياة الأخرى وما فيها من الجزاء ، وتدين بوجوب عمل الخير وتحرم الشر ، والفرق الجوهرى العظيم بينهما هو الايمان بنبوة النبي ﷺ ومن آياها في التوحيد ، والتعبد والتهديب ، والذي يؤمن بالنبوة العامة لا يمتنع من الايمان بنبوة خاتم النبيين إلا الجهل بما جاء به وكونه قد جاء بمثل ما جاء به النبيون وزيادة اقتضتها حال الزمان في توقيه ، واستعداده لأكثر مما هو فيه ، أو المعاندة والنجود في الظاهر ، مع الاعتقاد في الباطن ، وهذا قليل والكثير هو الاول ، ويوشك أن يظهر للمرأة من معاشرة الرجل حقيقة دينه وحسن شريعته والوقوف على سيرة من جاء بها وما أيدته الله تعالى به من الآيات الدينات فيكمل إيمانها ، ويصح إسلامها ، وتؤتي أجرها مرتين ، إن كانت من المحسنات في الحلين ، ومثل هذه الحكمة لا تظهر في تزويج الكتابية بالمؤمنة ، فانه بما له من السلطان عليها ، وبما يعقب عليها من الجهل والضعف في بيان ما تعلم ، لا يسهل عليها أن تقنعه بحقيقة ما هي عليه ، بل يخشى أن يزيعها عن عقيدتها ويفسد منها دون أن تصلح منه ، وهذا للضعف يفهم من تعليل النهي عن مناكحة المشركين في قوله عز وجل

﴿ولئك يدعون إلى النار﴾ أشار بأولئك إلى المذكورين من المشركين والمشركات أي من شأنهم الدعوة إلى أسباب دخول النار بأقوالهم وأفعالهم ، وصلة الزواج أقوى مساعد على تأثير الدعوة ، لأن من شأنها أن يتسامح معها في شؤون كثيرة ، وكل تساهل وتسامح مع الشرك أو المشركة محذور محذور الشر ، بما يختص منه أن يسري شيء من عقائد الشرك لهؤلاء أو المؤمنين. يضروب الشبه والتضليل التي جرى عليها المشركون ، كقولهم فيمن يتخذونهم وسطاء بينهم وبين الخالق (١٨: ١٠) هؤلاء شفعاؤنا عند الله) وقولهم (٣: ٣٩) ما نعبدكم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) فهذه الشبهة هي التي فتن بها أكثر البشر ، ولم يسلم منها أهل شريعة سماوية خالطوا المشركين وعاشروهم ، فقد دخلوا في الشرك من حيث لا يشعرون ، لأنهم لم يتخذوا معبودات المشركين أنفسهم شفعاء ووسطاء ، بل اتخذوا أنبياءهم ورؤساءهم ، وظنوا أن هذا تعظيم لهم لا ينافي التوحيد الذي أمروا به وجعل أصل دينهم ، وأساس ارتقاء أرواحهم وعقولهم ، وقد اغتروا بظواهر الالفاظ، وجعلوا تسمية الشيء بغير اسمه إخراجا له عن حقيقته ، فهم قد عبدوا غير الله ولكنهم لم يسموا عملهم عبادة ، بل أطلقوا عليه لفظ آخر كالاستشفاع والتوسل ، واتخذوا غير الله إلهاً ورباً ، ومنهم من لم يسمه بذلك ، بل سموه شفيعاً ووسيلة وتوهموا أن اتخذوه إلهاً أو رباً هو تسميته بذلك أو اعتقاد أنه هو الخالق والرازق والمحبي والمنمي استقلالاً ، ولو رجعوا إلى عقائد الذين اتبعوا سننهم من المشركين لوجدوا كما قال تعالى (١٨: ١٠) ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله) مع قوله (٨٧: ٤٣) ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله) فإذا كانت مساكنة المشركين ومعاشرتهم مع الكراهة والنفور قد أفسدت جميع الأديان السماوية الأولى ، فما بالنا بتأثير اتخاذهم أزواجاً ، وهو يدعو إلى كمال السكون اليهم والمودة لهم والرحمة بهم ؟ ألا يكون ذلك دعوة إلى النار ، وسبباً للشقاء والبوار .

هذه دعوة الزوج المشرك بطبيعة دينه ﷻ والله يدعو إلى لجنة وانعزة الآخرة

بما اشتمل عليه دينه الذي أرسل به رسله من التوحيد الخالص الذي ينقذ العتول من أوهم الوثنية ، ومنها اعطاء بعض المخلوقين شعباً من خصائص الالهية ، وبإفراد الله سبحانه بالعبادة والسلطة القيدية ، وهذا هو السبب الاول في دخول الجنة واستحقاق المغفرة منه تعالى للمؤمن الموحد اذا ألم بمعصية او كسب خطيئة ، لان خطيئته لا تحيط بروحه ولا ترين على قلبه فتجعله شريراً ، لان الله غالب على أمره (٢٠١:٧) إن الذين اتقوا اذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون) فحاصل معنى (والله يدعو الى الجنة والمغفرة باذنه) هو ان دعوة الله التي عليها المؤمنون هي الموصلة إلى الجنة والمغفرة باذن الله وإرادته وهدايته وتوفيقه ، فهي مناقضة لدعوة المشركين وهي مأم عليه من الشرك الموصلي الى النار بسوء اختيار أصحابه له ، ففيه المقابلة بين المشركين والمؤمنين وهي أنهما على غاية التباين ، وفيه ان ماعليه المشركون هو من سوء اختيارهم وقبح تصرفهم في كسبهم ، وان ماعليه المؤمنون لم يكن بوضعهم وعملهم وانما هو الدين الذي هو وضع الله ببلغه عنه رسله باذنه وهدى اليه خلقه .

وذكر الاستاذ الامام وجهاً آخر في هذا وهو ان المراد باسم الجلالة (الله) هو ما يعتقده فيه سبحانه المؤمنون به من كونه واحداً أحداً صمداً لا كفؤ له ولا مساعداً ولا وزير ، ولا واسطة بينه وبين خلقه يحمله على نفعهم او ضررهم ، وانما هو فاعل بآرادته القديمة على حسب علمه القديم ، ولا تأثير لحوادث فيهما ولا في غيرها من صفاته تعالى — فهذا الاعتقاد بالله هو الاصل الذي يدعوهم إلى الجنة ، لأنه ينبوع الاعمال الحسنة النافعة ، ومصدر الاخلاق الفاضلة التي يستحق صاحبها الجنة على ما يحسن فيه ، والمغفرة على ما أساء فيه ، ومنعه إيمانه من الاصرار عليه ، والاسترسال فيه حتى يحيط به ، وانما كان أصلاً في ذلك لأنه متى صح إيمانه صحت عزيمته في اتباع الشريعة والاهتداء بالدين القويم ، وهذا التعيير مأنوس به في اللغة ، يعبر بالشيء عن المصرف له والغالب على أمره ، على حد الحديث القدسي « ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فاذا أحببته كنت سمعه الذي

يسمع به ، وبصره الذي يبصر به « الخ وذلك أن اعتقاده يملك شعوره ومشاعره فيكون أصل كل عمل نفسي وبدني فيه

وقد يقال أن هذه العلة في تحريم مذاكحة المشركين متحققة في نكاح الكتابيات فالكتابية تدعو بسيرتها وعملها وقولها إلى ما هي عليه من العقيدة الفاسدة ، وما يتبعها من الاعمال التي لم تكن من أصل دينها الصحيح المتفق مع الاسلام ، فهي إن وافقت زوجها المسلم فيما هو إيمان صحيح كالايمان بالله والايمان بالانبياء وباليوم الآخر في الجملة ، فهي بخلافه بما تصف به الله أو تتخذله من الابناء والانداد ، وذلك من الدعوة إلى النار ، وقد تغلب المرأة على أمر زوجها أو ولدها فتقوده إلى دعوتها ، ولهذا ذهب بعض الشيعة إلى تحريم نكاح الكتابية :

ونقول في الجواب لو أتت العلة لما صرح الكتاب بجواز الزواج بالكتابية المحصنة ، ولما اتفق سلف الامة وخلفها على ذلك ماعدا هذه الشريعة من الشيعة ، وكيف يستوي الفريقان — أهل الكتاب والمشركون — وقد فرق الكتاب والسنة بينهما في كثير من المزايا والاحكام ، ولم يجمع القرآف بين المشركين والمؤمنين في حكم كما جمع بين المؤمنين وأهل الكتاب في مثل قوله في سورة البقرة (٢ : ٢٢) إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) وقوله في سورة آل عمران (٣ : ٦٤) قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله) الآية وقوله في البقرة ومثله في آل عمران (٢ : ١٣٦) قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والاسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون) وقوله فيها (٢ : ١٣٩) قل أتحاجوننا في الله وهوربنا وربكم ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ونحن له مخلصون ؟) وقوله في (٢٩ : ٤٦) ولاتجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل

اليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون) وأمثال هذه الآيات كثير جداً وهي تصرح بأن إله المسلمين وأهل الكتاب واحد وربهم واحد والذي أنزل عليهم هو شيء واحد أي في جوهره والمراد منه وهو الايمان بالله وتوحيده والبعث والعمل الصالح ولكنها في أواخرها تبين محل الدعوة والفرق وهو أننا مسلمون مخلصون ، وأنه طراً عليهم الانحراف تأخذوا من أنفسهم أرباباً يحلون ويحرمون ويشرعون لهم ما لم يأذن به الله ، وأنهم غير مخلصين ولا مسلمين في أعمالهم ، وهذا شيء لا ينكره أهل العلم الحقيقي والتاريخ منهم ، بل يقولون لولا الانحراف والشرائع التي زادوها وسبوا بالطقوس وبأسماء أخرى لما ضعفت أخلاقهم ، ومرضت قلوبهم ، وانحلت جامعتهم ، حتى كان من أمر الاسلام فيهم ما كان . وقد طرأ شيء من ذلك على من اتبعوا سنتهم منا شيئاً بشيراً وذراعاً بذراع ، مع أن أصل الدين عندنا قد حفظ بعناية لم يكن لهم مثلها ، وصرنا في حاجة إلى من يدعونا إلى إقامة الأصل كما دعاه داعي الاسلام ، لا فرق في ذلك إلا أن الأصل الذي يجب أن يدعى إليه الجميع موجود محفوظ كما هو لا ينقص الجميع إلا إقامته والعمل به ، وهو القرآن الذي اتخذته المسلمون في عصرنا آلة هو وسلة تجارة ، ولكنهم لا يدعون إلى إقامته والعمل به ، بل منهم من يصرح بتحريم العمل به ، ويسمي ذلك اجتهاداً والاجتهاد عندهم ممنوع ، فقد منعوا القرآن بشبهة سخيفة وهي منع العلم الاستدلالي ، ومنعه منع حقيقة الاسلام وانصراف عن ينبوعه ، وتفضيل أخذ عقائد الاسلام من كتب الكلام المبتدعة على أخذها من كتاب الله المعصوم ، وتفضيل أخذ الأحكامه حتى التعبدية من كتب الفقهاء على أخذها منه ومن سنة الرسول ﷺ . ويبقى ما في الكتاب والسنة من الآداب والفضائل والحكم والمواعظ ، والسياسة والمعارف والملاياوسن الاجتماع المثل مما لا يوجد في كتبهم ، وقد استغفروا عن التبع لاتباعهم عن تغييرها ، كما أنهم يبق لهم أدنى حاجة في علوم القرآن ومعارفه ، والعبادة بالله من الخذلان ! فإذا كان الفرق بيننا وبين أهل الكتاب يشبه الفرق بين الموحدين والمخلصين للعالمين بالكتاب والسنة ، وبين المبتدعة الذين انحرفوا عن مذهب الثقلين الذين تر كها رسول الله ﷺ فينا ، وأخبرنا لا نرضى ما نرى كتبنا بهما . كما في

حديث الوطأ — فكيف يكون أهل الكتاب كالشركيين في حكم الله تعالى ؟
والجلمة أن ما عليه الكتابية من الباطل هو مخالف لاصل دينها وقد عرض لها
وتقومها بشبه ضعيفة يسهل على المؤمن العالم بالحق أن يكشف لها عن وجه الحق
في شبهتها ، ويرجمها إلى الصواب ، ويعسر عليها هي أن تنصرف بالشبهة على الحجة .
وتزيل السنة الاولى بما عرض من الشبهة ، وأما ما نراه من التباين بين المسلمين
وأهل الكتاب الآن فسيبه سياسة الملوك والرؤساء . ولو أقننا الكتاب وأقاموه
لتقاربنا ورجعنا جميعاً إلا الاصل الذي أرشدنا إليه القرآن العزيز . ولا يخفى أن
هذا الامر يختلف باختلاف الاشخاص قرب مسلم مقلد يزوج بكتابية عالمة فتفسد
عليه تقاليدہ ولا عوض له عنها فينبغي أن يعرف هذا

هذا ما كتبتہ عند طبع التفسير للمرة الاولى ، وقد حدث بعد ذلك ان فتن
كثير من الشبان المصريين بنساء الافرنج فتزوجوا بهن فأفسدن عليهم أمورهم
الدينية والوطنية ، واضطر بعضهم إلى الطلاق ، وغرم كثير من المال ، ومنهم
رجل غني قتلته امرأته افرسية وجاءت تطالب بميراثها منه ، وقليل منهم من
اهتدت به زوجه وأسلمت ، وقد سرت العدوى إلى المسلمات فن الغنيات منهن
من تزوجن بمن عشقن من رجال الافرنج بدون مبالاة بالدين الذي لا تعرف
منه غير القلب الوراثي . وقد عظمت الفتنة وفي الله البلاد شرها ولن يكون إلا
بتجديد التربية الاسلامية واصلاح الحكومة

ثم قال تعالى ﴿وَيبين آياته للناس﴾ أي يوضح الدلائل على أحكام شريعته
للناس فلا يترك لهم حكماً إلا ويبين لهم حكمته وفائدته بما يظهر لهم به ان المصلحة

والسعادة فيما شرعه لهم ﴿لعلهم يتذكرون﴾ يتعظون فيستقيمون فان الحكم إذا
لم تعرف فائدته للعامل لا يلبث ان يمل العمل به فيتركه وينساه ، وإذا عرف عاقبته
ودليله وانطباعه على مصلحته ومصلحة من يعيش معهم فاجدر به أن يحفظه ويقيمه
على وجهه ويستقيم عليه ، لا يكتفي بالعمل بصورته وان لم تؤد إلى المراد منه .
ومن هنا قال الفقهاء ان الحكم يدور مع العلة وجوداً وعندما وان ما يشارك

المقصود في العلة يعطى حكمه ، وليتنا علمنا بهذه القواعد ولم نرجع إلى التمسك بالظواهر من غير عقل ، وباليتمها ظواهر الكتاب والسنة ، ان هي إلا ظواهر أقوال أقوام من المؤلفين ، منهم المعروف تاريخه ، ومنهم المجهول أمره ، وإلى الله المشتكى ، فاللهم ذكرنا ما نسينا واهدنا إلى الاعتبار بكتابك والعمل به لسكون من المفلحين

(٢٢٢) وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَى فَأَعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ ، فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ * (٢٢٣) نِسَاءكُمْ حَرَّتْ لَكُمْ فَأْتُوا حُرَّتْكُمْ أَنْتَى شِئْتُمْ ، وَقَدَّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلْقَوُهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ

هذا هو السؤال الثالث من الاسئلة التي وردت معطوفة بالواو وهو يتصل بما قبله وما بعده في أن ذلك من الاحكام المتعلقة بالنساء ، وأما الاسئلة التي وردت قبلها منفصلة فلم تكن في موضوع واحد فيعطف بعضها على بعض فجاءت على الاصل في سرد متعدد . وقد كانت هذه الاسئلة في المدينة حيث الاختلاط بين العرب واليهود ، وهؤلاء يشددون في مسائل الحيض والدم كما هو مذكور في الفصل الخامس عشر من سفر اللاويين من لاسفار التي يسمون جملتها التوراة . ومنها أن كل من مس الحائض في أيام طمثها يكون نجساً ، وكل من مس فراشها فيفسل ثيابه ويستحم بماء ويكون نجساً إلى المساء ، وكل من مس متاعاً تجلس عليه فيفسل ثيابه ويستحم بماء ويكون نجساً إلى المساء ، وان اضطجع معها رجل فكان طمثها عليه يكون نجساً سبعة أيام ، وكل فراش اضطجع عليه يكون نجساً الخ . وللرجل الذي يسيل منه دم نحو هذه الاحكام عندهم

وأما النصارى فقد نقل عنهم أنهم كانوا يتساهلون في أمر الحيض وكانوا مخالطين للعرب في مواطن كثيرة ، وروي أن أهل الجاهلية كانوا لا يساكنون

الحيض ولا يؤاكلوهن كفعل اليهود والمجوس ، ومن شأن الناس التساهل في أمور الدين التي تتعلق بالخطوط والشهوات فلا يقفون عند الحدود المشروعة فيها لمنفعتهم ومصلحتهم فكان اختلاف ما عرف المسلمون عن أهل الكتاب مما يجر كمال النفس لسؤال عن حكم الحيض في هذه الشريعة المصالحة ، فسألوا كما في حديث أنس الآتي قريباً فأنزل الله تعالى على نبيه

﴿ ويسألونك عن الحيض ﴾ أي عن حكمه والحيض هو الحيض المعروف وهو الدم الذي يخرج من الرحم على وصف مخصوص في زمن معلوم ، لوظيفة حيوية صحية تعدد الرحم للحمل بعده إذا حصل التلقيح المقصود من الزوجية لبقاء النوع . فالحيض كالحيض مصدر كالمجيء والمبيت ويطلق على زمان الحيض ومكانه ، والمرأة حائض بدون تاء لانه وصف خاص وجمعه حيض بتشديد الياء (كرا كع وركع) وورد حائضة وجمعه حائضات . ولا حاجة الى تقدير محل الحيض فانما

يسأل الشارع عن الاحكام ﴿ قل هو أذى فاعتزلوا النساء في الحيض ولا تفرهوهن حتى يطمئن ﴾ قدم العلة على الحكم ورتبه عليها ليؤخذ بالقبول من المتساهلين الذين يرون الحجر عليهم تحكماً ، ويعلم أنه حكم للمصلحة لا للتعبد كما عليه اليهود ، والمراد من النهي عن القرب النهي عن لازمه انذني يقصد منه وهو الوقاع ، والمعنى أنه يجب على الرجال ترك غشيان نساءهم زمن الحيض لان غشيانهن سبب للأذى والضرر ، وإذا سلم الرجل من هذا الأذى فلا تمكاد تسلم منه المرأة لان الغشيان يزعج أعضاء التسل فيها إلى ما ليست مستعدة له ولا قادرة عليه لاشتغالها بوظيفة طبيعية أخرى وهي إفراز الدم المعروف .

وقد فسر لجلال الأذى بالقدر تبعاً لغيره على أن أخذه على ظاهره وهو الضرر مقرر في الطب فلا حاجة إلى العدول عنه . وقد جاء هذا الحكم وسطاً بين إفراط الغلاة الذين يمدون المرأة الحائض وكل من يمسه أو يمسه ثيابها أو فراشها من النجاسات ، وتفريط المتساهلين الذين يستحلون ملابتها في الحيض على ما فيه من الأذى والندس . وقد أفادت عبارة الآية الكريمة تأكيد الحكم إذ أمرت باعتزال النساء في

زمن الحيض ، وهو كناية عن ترك غشيانهن فيه ، ثم بينت مدة هذا الاعتزال بصيغة النهي . والحكمة في التأكيد هي مقاومة الرغبة الطبيعية في ملائسة النساء وإيقافها دون حد الإيذاء . وكان يظن بعض الناس أن الاعتزال وترك القرب حقيقة لا كناية ، وأنه يجب الابتعاد عن النساء في الحيض وعدم الترب متين بالمرّة ، ولكن النبي ﷺ بين لهم أن المحرم إنما هو الوقاع . عن أنس بن مالك أن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة منهم لم يؤاكلوها ولم يجامعوها في البيوت فسأل أصحاب النبي ﷺ عن ذلك فأمرهم الله عز وجل « ويسألونك عن الحيض قل هو أذى » إلى آخر الآية فقل رسول الله ﷺ « اصنعوا كل شيء إلا الجماع » رواه أحمد ومسلم وأصحاب السنن . وفي حديث حزام بن حكيم عن عمه أنه سأل رسول الله ﷺ : ما يحل لي من امرأتي وهي حائض ؟ قل « لك ما فوق الأزار » أي ما فوق السرة رواه أبو داود ، وقد حمل بعضهم النهي على من يضاف على نفسه الوقاع ، وكأن السائل كان كذلك ، وقال بعضهم إن هذا الحديث مخصص للحديث الأول ولما في معناه فلا يجوز الاستمتاع إلا بما فوق السرة والركبة ، وهو تخصيص بالمفهوم والخلاف فيه عند الأصوليين معلوم . قرأ حزمة واندكسائي وعاصم (يطهرن) بتشديد الطاء وأصله يتطهرن والباقون بالتخفيف

﴿ فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله ﴾ الطهر في قوله تعالى « حتى يطهرن » انقطاع دم الحيض وهو ما لا يكون بفعل النساء ، وأما التطهر فهو من عملن وهو يكون عقب الطهر ، واختلفوا في المراد منه فقال بعض العلماء هو غسل أثر الدم وقال مجاهد وعكرمة أن انقطاع الدم يحلها لزوجها ولكن تنوضاً والجمهور على أن المراد به الاغتسال بالماء إن وجد ، ولا مانع منه ولا فالتيمم . وقالت الحنفية إن طهرت لأقل من عشر فلا تحل إلا إذا اغتسلت وإن لعشر حلت ولو لم تغتسل وهو تفصيل غريب . والامر باتيانهن لرفع الحظر في النهي عن قربهن وبيان شرطه وقيد . والظاهر أن المراد بلفظ الامر في قوله « فأتوهن من حيث أمركم الله » الامر التكويني أي فأتوهن من المأثي الذي برأ الله تعالى الفطرة

على الميل اليه ومضت سنّته بحفظ النوع به وهو موضع النسل . ويحتمل أن يكون المراد بالامر ما قضت به شريعة الله تعالى من طلب الزوج وتحريم الرهبانية فليس للمسلم أن يترك الزواج على نية العبادة والتقرب الى الله تعالى لانه سبحانه قدامت علينا بأن خلق لنا من أنفسنا أزواجا لتسكن اليها وأرشدنا الى أن ندعوه بقوله (٢٥ : ٧٤) ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين) ولا يتقرب اليه تعالى بترك ما شرعه وامتن به على عباده وجهله من نعمه عليهم ، فأتيان النساء بالزواج الشرعي من الجهة التي يتقرب بها النسل من أعظم العبادات ، وتركه مع القدرة عليه وعدم المانع مخالفة لسنة الله تعالى في خلقته ، وسنّته في شريعته ، ولما قال عليه الصلاة والسلام « وفي بضع أحدكم صدقة » قالوا يا رسول الله أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجره؟ قال « أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه وزر » الحديث وكأن السائلين كانوا هموا ان الاسلام يكون كلابيان الأخرى يحمل العبادة في تعذيب النفس ومخالفة الفطرة ، كلا انه دين الفطرة بحمل الناس على رقابها مع القصد وعدم البغي فيها

﴿ ان الله يحب التوابين ﴾ الذين اذا خافوا سنة الفطرة بقلية سلطان الشهوة فأتوا نساءهم في زمن الحيض أو في غير المأني الذي أمر الله به يرجعون اليه تائبين ولا يصرون على فعلهم الميئ ﴿ ويحب المتطهرين ﴾ من الاحداث والافذار ، ومن إتيان المنكر ، بل هؤلاء أحب اليه من الذين يقعون في الدنس ثم يتوبون منه

ثم قال تعالى ﴿ نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم ﴾ بين في الآية السابقة حكم الحيض وأحل غشيان النساء بعده ، وبين في هذه الآية حكمة هذا الغشيان التي شرع الزوج لاجلها وكالت من مقتضى الفطرة ، وهي الاستمتاع والاستيلاد ، لان الحرث هو الارض التي تستنبت ، والاستيلاد كالاستنبات ، وهذا التعبير على لطفه وزاخرته وبلاغته وحسن استعارته تصريح بما فهم من قوله عز وجل ﴿ فأتوهن من حيث أمركم الله ﴾ أو بين له ، فهو يقول انه لم يأمر بإتيان النساء الامر التكويني بما أودع في فطرة كل من الزوجين من الميل الى الآخر ،

والامر التشريعي بما جعل الزواج من أمر الدين وأسباب المثوبة والقرية ، الا
لأجل حفظ النوع البشري بالاستيلاد كما يحفظ النبات بالحرث والزرع ، فلا
تجعلوا استلذاذ المباشرة مقصوداً لذاته فتأتوا النساء في الحيض حيث لا استعداد
تقبل زراعة الولد وعلى ما في ذلك من الاذى . وهذا يتضمن النهي عن اتيانهن
في غير المآثي الذي يتحقق به معنى الحرث ، وقوله تعالى « أنى شئتم » معناه كيف
شئتم « وأنى » تستعمل غالباً بمعنى « كيف » وتستعمل بمعنى « أين » قليلاً ، ولا
يظهر هنا لان الحرث له مكان واحد لا يتعداه ، والامر مقيّد به ، ولذلك أعاد
ذكر الحرث مظهرًا ولم يقل « فاتوهن أنى شئتم » فكأنه يقول : لا حرج عليكم
في اتيان النساء بأي كيفية شئتم ما دمتم تقصدون بها الحرث في موضعه الطبيعي ،
لان الشارع لا يقصد الى اغنائكم ومنعكم من لذاتكم ، ولكن يريد ليوافقكم عند
حدود المصلحة والمنفعة كيلا تضعوا الاشياء في غير مواضعها فتفوت المنفعة وتحل
محلها المفسدة . وهذا التفسير الذي ظهر به ان الآية متممة لمعنى ما قبلها يعنيها في
فهمها عما روي في أسباب النزول

وقد ذهب بعض المفسرين والمحدثين الى ان (أنى) في الآية بمعنى المكان
لا بمعنى الكيفية والصفة ، وقالوا انها نزلت في اباحة الاتيان في غير المزدرع والحرث ،
فمعناها في أي المآثيتين شئتم . قل الاستاذ الامام ان جنون المسلمين بالرواية هو
الذي حمل بمضمون على تفسير الآية بهذا المعنى الذي تثير منه عبارتها العالية ،
ونزاهتها السامية ، ولم يلتفتوا الى ذوق التعبير ومراعاة لادب في بيان هذه الاحكام
كما رأوا في الآية الكريمة ، فقد فاتهم فهم حكمها ، كما فاتهم فهم حكمتها ونزاهتها
وذهبوا . وأقول ان ما اختاره الاستاذ الامام في تفسير « أنى شئتم » هو المأثور
عن أئمة السلف والخلف وهو ظاهر من لفظ الآية لا يشك فيه من له ذوق العزمية
والروايات متعارضة متناقضة وأصحها حديث جابر عند الشيخين وأهل السنن
وغيرهم وهو أن سبب نزولها حظر اليهود اتيان الحرث بكيفية غير المعهودة عندهم
وزعمهم ان الولد يجيء بحول اذا كان العلوق بالواقع من الطرف الآخر ، وتكذيبهم
التجارب . وأما ما روي في إباحة الخروج عن سنة الفطرة فلا يصح منه شيء ،

بولثن صح سنداً فهو لن يصح مقناً ، ولا نخرج عن هدي القرآن ومحجته البيضاء
رواية أفراد قيل انه لا يعرف عنهم ما يجرح روايتهم

وبؤيد التفسير المختار قوله تعالى بعدما تقدم ﴿وقدموا لأنفسكم واتقوا الله﴾
إخ . فهذه أوامر تدل على أن هنا شيئاً يرغب فيه وشيئاً يرغب عنه ويحذر منه .
أما ما يرغب فيه فهو ما يقدم للنفس وهو ما ينفعها في المستقبل ولا أنفع للانسان
في مستقبله من الولد الصالح ، فهو ينفعه في دنياه كما هو ظاهر ، وفي دينه من حيث
أن الوالد سبب وجوده وصلاحه ، وقد ورد في الحديث ان الولد الصالح من عمل
المرء الذي ينفعه دعاؤه بعد موته ، ولا يكون الولد صالحاً الا اذا أحسن والداه تربيته ،
فالأمر بتقديم للنفس ، يتضمن الأمر باختيار المرأة الودود الولود التي تعين الرجل
على تربية ولده بحسن خلقها وعملها ، كما يختار الزراعة في الارض الصالحة ، التي
يرجى ثماء اشبات فيها وايثاؤه الغلة الجيدة ، ويتضمن الامر بحسن تربية الولد
وتهدئته . وأما ما يحذر منه ويتقى الله فيه فهو اخراج النساء عن كونهن حرّاً
بإضاعة مادة النسل في الحيض أو بوضعها في غير موضع الحث ، وكذلك اختيار
المرأة الفاسدة التربية وإهمال تربية الولد . فان الأمر بالتقوى ورد بعد التهي عن
اثنين النساء في الحيض والامر باتيانهن من حيث أمر الله تعالى وهو موضع الحث
والامر بالتقديم لانفسنا فوجب تفسير التقوى بتجنب مخالفة هذا الهدي الالهي

وقوله تعالى ﴿واعلموا أنكم ملاقوه﴾ إندار للذين يخالفون عن أمره بأنهم
يلاقون جزاء مخالفتهم في الآخرة كما يلاقونها في الدنيا ، بفقد منافع الطاعة
والامتنان ، وتجرع مرارة عاقبة المخالفة والعصيان . ثم قرن إندار العاصين بتبشير
المطيعين فقال ﴿وبشر المؤمنين﴾ الذين يقفون عند الحدود ويتبعون هدى الله
تعالى في أمر النساء والاولاد ، وقد حذف ما به البشارة ليفيد انه عام يشمل منافع
الدنيا ونعيم الآخرة . ولا يعزب عن فكر العاقل ان من يختار لنفسه المرأة
الصالحة ولا يخرج في شأن الزوجية عن سنة الفطرة والشرعية في ابتغاء الولد ، ثم
انه يحسن تربية ما يرزقه الله من ولد ، فانه يكون في الدنيا قريراً العين بحسن حاله

وحال أهل وسعادة بيته . وأما الذين تطفئ بهم شهواتهم فتخرجهم عن الحدود
والسنن فانهم لا يسلّمون من المنغصات والشقاء في حياتهم الدنيا ، وهم في الآخرة
أشقى وأضل سبيلا ، وإنما سعادة الدارين في تكميل النفس بالاعتقاد الصحيح ،
والاخلاق المعتدلة ، وتلك هي الفطرة السليمة . والتعبير بالمؤمنين يشعر بأن العمل
والامثال والاذعان مما يتحقق به إيمان المؤمن وان قاعدة الإيمان بشمراته هذه ،
وإن شئت قلت بتمام أركانها وهي الاعتقاد والقول والفعل ، كما ورد في الأحاديث
الصحيحة الميمنة للآيات الكريمة ، الدامغة للذين يفصلون بين الاعتقاد
والاعمال اللازمة له

وانما نعيد التنبية للاقتداء بنزاهة القرآن في التعبير عن الأمور التي يستحي
من التصريح بها بالكنايات البعيدة التي يفهم منها المراد ولا تستحي من تلاوتها
العذراء في خدرها ، فإن الاتيان بمعنى المجيء فهو كناية لطيفة كقوله (ولا تقربوهن)
وتشبيه النساء بالحرث لا يخفى حسنه . فأين هذه النزاهة مما تراه لبعضهم في
تفسيرها وتفسير أمثالها من الآيات المعجزة بنزاهتها كاعجازها بيلاعبها ، ومما
تراه في بعض كتب الدين الأخرى من العبارات المستهجنة التي قد يستغنى عنها
في بيان المراد منها

(٢٢٤) وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِإِيمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا
وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٢٥) لَا يَأْخُذُكُمْ اللَّهُ
بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤْخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ
غَفُورٌ حَلِيمٌ (٢٢٦) لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصٌ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ
فَإِنْ قَاؤُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٢٨) وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ
اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ

هذه الآيات في أحكام الإيمان وهي عامه وخاصة والثاني هو حلف الرجل

﴿البقرة س ٢﴾ جعل الله عرضة للإيمان بكشرتها أو بتروك البر والاصلاح بها ٢٦٥

أن لا يقرب امرأته وخص باسم الابلاء في عرف الشرع كما سيأتي فبين الآيات وما قبلها وما بعدها تناسب بهذا الاعتبار

﴿ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم﴾ العرضة بالضم كالفرقة لها معان أظهرها هنا اثنان أحدهما أن تكون بمعنى المانع للمعتزض دون الشيء أي لا تجعلوا الله تعالى مانعاً بينكم وبين عمل الخير بأن تحلفوا به على تركه فتتركوه تعظيماً لاسمه، ويؤيد هذا المعنى ما رواه ابن جرير في سبب نزول الآية وهو حلف أبي بكر رضي الله عنه على ترك الانفاق على مسطح بعد أن خاض في قصة الافك وفيه نزل ﴿ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولي القربى﴾ الآية. ويؤيده أيضاً أحاديث في الصحيحين وغيرهما منها قوله ﷺ «من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها فليأتها فليكفر عن يمينه» وقوله عليه الصلاة والسلام «والله ان شاء الله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها إلا أتيت الذي هو خير وكفرت عن يميني» وفي حديث عائشة عند ابن ماجه وابن جرير قالت قال رسول الله ﷺ «من حلف على يمين قطيعة رحم أو معصية فبره أن يحنث فيها ويرجع عن يمينه» وفي هذا المعنى أحاديث أخرى. ذلك ان الانسان يسرع الى لسانه الحلف أنه لا يفعل كذا وقد يكون خيراً ليفعل كذا وقد يكون شراً، والله تعالى لا يرضى بأن يكون اسمه حجاً دون الخير أو محضاً للشر، فنهى عن ذلك وأمر نبيه ﷺ بوجوب تحري الخير، والاحسن وان حلف على غيره فليكفر عن يمينه بما هو منصوص في سورة المائدة

والعنى الثاني للعرضة ما يعرض للشيء أي ما ينصب ليعرض له الشيء كالهذف للسهام، يقال فلان عرضة للناس إذا كانوا يقومون فيه ويعرضون له بالمكره وقال الشاعر وان أترك وارسط الفدوكس عصبة يتامى أياي عرضة للقبائل ويقال جعلته عرضة لكذا أي نصبته له فكان معروضاً ومعرضاً له يكسر ووروده عليه وقال الشاعر

طلقتهن وما الطلاق بسبة ان النساء لعرضة للتطبيق

والعنى على هذا الوجه لا تكثروا الحلف بالله تعالى فالذي يجعل الله عرضة

لايمانه هو كالحلاف في قوله تعالى (٦٨ : ١٠) ولا تقطع كل حلاف مبهين) فكثير الحلف حليف المهادنة وقرينها ، وقد ذكر تعالى في هذه الآيات صفات أخرى . ذميمة نهى عن أهلها وبدأها بالحلاف فقال بعد ما تقدم (١١) همار شاء بمسيمه ١٢ مناع للخير معتد أثيم ، ١٣ عتل بعد ذلك زليم) فالحلاف يعبد في مقدمة هؤلاء الاشرار . ومن أكثر الحلف قلت مهابته وكثر حفته وآتهم بالكذب ، ولا يكون الحلاف إلا كذابا فهو على اهانة لاسم الله تعالى يفوته ما يريد من قبول قوله وتصديقه ، فلاية الكريمة ترشدنا إلى ترك الحلف بالله تعالى إلا عند الحاجة إلى ذلك . وهذا الوجه أظهر من الذي سبقه والعرضة بهذا المعنى أكثر استعمالا . وكانت العرب تتمدح بقلة الحلاف وحفظ الايمان قال الشاعر

قليل الأليا حافظ ليمينه وإن سبقت منه الألية برت

الأليا جمع ألية وهي اليمين كفضية وقضايا وانك لتجد كثيرا من أهل الدين لا يحفظون من ايمانهم ما كان يحفظ أهل الشرك في الجاهلية فأين هم من قول الامام الشافعي : ما حلفت بالله صادقا ولا كاذبا ؟ وقال الاستاذ الامام من مذام كثرة الحلاف انه يقل ثقة الانسان بنفسه وثقة الناس به ، فهو يشعر بأنه لا يصدق فيحلف ، ولهذا وصفه الله تعالى بالمهين ، وكثيرا ما يعرض نفسه للخطا إذا حلف على المستقبل ، ثم انه لا يكون إلا قليل الخشية والتعظيم لله تعالى لا يهمله إلا أن يرضي الناس ويكون موثوقا به عندهم ، فتعريض اسم الله تعالى للحلف بدون ضرورة ولا حاجة ينشأ عن فقد هيبة الله واجلاله من النفس فان الناس يتملمون كثرة الحلاف من أمهاتهم ومن الولدان الذين يتربون معهم وهم صغار فيتعبدون عدم احترام اسم الله تعالى (قال الاستاذ الامام بعد تقرير هذا المعنى) وقد نجد هذا الحلاف فاشيا حتى في المشتغلين بعلم الدين ، ذلك ان عالم الدين أصبح صناعة لفظية لا أثر لها في القلوب ولا في الاعمال ، وقد حدثني بعضهم حديثا ربيع صرات وفي كل مرة كان يحلف عليه ويكذب فيه بما يريد فيه وينقص منه

وقوله تعالى ﴿ أَرْتَبُوا وَتَقُوا وَتَصْلَحُوا بَيْنَ النَّاسِ ﴾ على الوجه الاول بيان الايمان لانها بمعنى المحلوف عليه أي لا تجعلوا ما نعا لما حلفتكم على تركه من البر والتقوى

والاصلاح بين الناس بل إذا حلف أحدكم على ترك البر أو التقوى أو الاصلاح فليكفر عن يمينه وليفعل البر والتقوى والاصلاح ، فلا عذر لاحد في ترك ذلك . ولا يرضى الله تعالى أن يكون اسمه مانعاً منه ، وأما على الوجه الثاني فهو لتعليل النهي أي لا تجملوه تعالى معرضاً لايمانكم لاجل البر والتقوى والاصلاح فان كثير الحلف لا يكون أهلاً لذلك لما تقدم من كونه يكون مهميناً ، غير معظم لله تعالى ، وعرضه للكذب والحنث ، وغير موثوق بقوله ، فاني برضاه الناس مصلحاً بينهم ؟ والمصلح مربٍّ ومؤدب وحامٍ مطاع بالاختيار . ثم قال ﴿ والله سميع عليم ﴾ أي سميع لما تلفظون به من الحلف وغيره عليم بما يترتب على كثرة الحلف وبغيره من أعمالكم فعليكم أن تراقبوا عند داعية كل قول وعمل انه سميع لا قوالكم عليم بأفعالكم ، لعلمكم تقفون عند حدود هدايته لكم فتكونون من المفلحين ، والا كنتم من الخاسرين

هذا الختم الآية يتضمن الوعيد على كثرة الحلف فاذا دخل فيه ما يجري في الكلام من قصد ودوية كقول الانسان : أي والله ، لا والله : وعد هذا مما يؤخذ عليه ويجري فيه الحكم السابق كان الحرج عظيماً ، وقد رفع الله هذا الحرج بقوله ﴿ لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ﴾ فاللغو ان يقع الكلام حشواً غير مقصود به معناه ، فهو يقول ان هذه الالفاظ التي تسبق الى اللسان عادة ولا يقصد بها عقد اليمين لغو من القول لا تعدأيماناً حقيقية ، فلا يؤاخذكم الله تعالى بها بفرض الكفارة عليها ولا بالعقاب ﴿ ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم ﴾ بأن تقصدوا جعل اسمه الكريم عرضة الابتدال ، أو مانعاً لاصلاح الاعمال ، فان الله لا ينظر الى صوركم وأقوالكم ، ولكن ينظر الى قلوبكم وأعمالكم ، فالقول الحشر الذي لا أثر له في القلب ، ولا شأن له في العمل ، مما يعفو عنه ، ولا يعاقب عليه ، ﴿ والله غفور حلیم ﴾ يغفر لعبده ما يلزمه مما لا يفسد أخلاقه وأعماله ، ولا يتعجل بالاعتوبة على هذا اللطم الذي يضعف العبد عن التوقي منه ، ولذلك لم يكلف عباده ما يشق عليهم فيما لم يقصده قلوبهم ولم تعمده نفوسهم ، لأنه مما لا يدخل تحت سلطة الاختيار . وقد

ذكر بعض الفقهاء الغواليين غير هذا المعنى المتبادر ووضعوا لذلك أحكاما ذكرها المفسرون ولا حاجة إليها ، وما قلناه هو المتبادر المأثور عن جمهور السلف بعد بيان هذه الأحكام في الأيمان العامة انتقل الى حكم اليمين الخاصة فقال

﴿ للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر ﴾ الخ فالايلاء من امرأة أن يحلف الرجل إنه لا يقر بها ، وهو مما يكون من الرجال عند المغاضبة والغيط ، وفيه متهان المرأة وهضم لحقها وأظهار لعدم المبالاة بها ، فترك المقاربة الخاصة المعلومة ضرارا معصية ، والحلف عليه حلف على مالا يرضى الله تعالى به لما فيه من ترك التواد والتراحم بين الزوجين وما يترتب على ذلك من المفاصد في أنفسهما وفي عيالهما وأقاربهما ، والظاهر أن حكم هذا الايلاء « الحلف » يدخل في معنى الآية السابقة على الوجه الاول من الوجهين اللذين أوردناهما ، وهو أنه يجب على المؤل أن يحنث ويكفر عن عيمته ، ولكنه إذا لم يفعل هذا الواجب لم يكن آثما في نفسه فقط فيقال حسب ما يلقي من جزاء إثم ، بل يكون بآثمه هاضما لحق امرأته ، ولا يبيح له العدل هذا الهضم والظلم ، ولذلك أنزل الله فيه هذا الحكم ، وهو التربص مدة أربعة أشهر ، وقد قيل أن هذه هي المدة التي لا يشق على المرأة البعد فيها عن الرجل وهي كافية لتروى الرجل في أمره ورجوعه الى رشده ﴿ فان فاؤا ﴾ أي رجعوا إلى نسائهم بأن حشوا في اليمين وقاربوهن في أثناء هذه المدة أو آخرها ﴿ فان الله يغفور رحيم ﴾ يغفر لهم ما سلف برحمته الواسعة لان الفيئة توبة في حقهم ﴿ وان عزموا الطلاق ﴾ أي صمموا قصده وعزموا على أن لا يعودوا الى ملازمة نسائهم ﴿ فان الله سميع عليم ﴾ أي فليراقبوا الله تعالى عالين انه سميع لا يلائهم وطلاقم عليم بذيتهم فيه ، فان كانوا يريدون به إيذاء النساء ومضارتهن فهو يتولى عقابهم ، وإن كان لهم عذر شرعي بأن كان الباعث على الايلاء تربية النساء لأجل اقامة حدود الله ، وعلى الطلاق اليأس من إمكان المعاشرة بالمعروف ، فهو يغفر لهم ، والمعنى أن من حلف على ترك غشيان امرأته فلا يجوز له أن يتربص أكثر من أربعة أشهر فان تاب وعاد قبل انقضائها لم يكن عليه إثم ، وإن أمها تعين عليه

أحد الأمرين الغيئة والرجوع إلى المعاشرة الزوجية أو الطلاق، وعليه أن يراقب الله تعالى فيما يختاره منها . فإن لم يطلق هو بالقول كان مطلقاً بالفعل ، أي أنها تطلق منه بعد انتهاء المدة رغم أنه منعاً للضرار ، وقيل ترفع أمرها إلى الحاكم فيطلق عليه ، والمسألة خلافية في هذا . ولكن لا خلاف في عدم جواز بقائها على عصمته وعدم إبادة مضاررتها . وقد فضل الله تعالى الغيئة على الطلاق إذ جعل جزاء الغيئة المغفرة والرحمة ، وهدى إلى مراقبته في العزم على الطلاق ، وذكر التولي بسمعه تعالى لما يقول وعلمه بما يسره في نفسه ويقصده من عمله

هذا حكم الإيلاء من المرأة إذا أطلقه الزوج فلم يذكروا وقتاً أو قال لا أقربك مدة كذا وذكر أكثر من أربعة أشهر، فإن ذكر مدة دون أربعة أشهر فلا يلزمه شيء إذا أنما وفي الأربعة خلاف . وقد عدي الإيلاء هنا بمن لما فيه من معنى المفارقة والانفصال ، وهو من البلاغة والابحاز . ويمكن . ويقال في غيره ألى وألى وائتلى أن يفعل كذا أي حلف ، وصار الإيلاء حقيقة شرعية في الحلف المذكور

(٢٢٨) وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ

لَهُنَّ أَنْ يَكْسُثْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَنَّ بِاللَّهِ
وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَبَعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا
إِصْلَاحًا ، وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ، وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ
دَرَجَةٌ ، وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ

لما ذكر في الآية السابقة أن لأمهولين من نسايتهم حالين الغيئة بالرجوع إلى معاشرتهن، وعزم الطلاق وامضاءه، ناسب أن يذكر بعده شيئاً من أحكام الطلاق

معطوفاً على ما قبله متمم له فقال ﴿والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء﴾ الخ

قال الاستاذ الامام قدس الله روحه ^(١) المراد بالمطلقات الأزواج اللواتي تحقق فيهن معنى الزوجية وعهدهن أن يكن مطلقات ، وأن يتزوجن بعد الطلاق ، وهن الحرائر ذوات الحيض بقربنة السياق ، فلا يأتي هنا ما يقوله الأصوليون في كلمة المطلقات هل اللام فيها للاستغراق أم للجنس ؟ وهل هو عام مخصوص أم لا ؟ لأن وصل الآية بما قبلها يمنع كل ذلك كما يمنع التبرص بالزواج ، ولولا ذلك لكان البحث في موضعه ، وأما حكم من لسن كذلك في الطلاق كاليائسة والتي لم تبغ سن الحيض فذكر في سورة الطلاق ، وهن كأنهن لا يدخلن في مفهوم المطلقات فإن اليائسة من شأنها أن لا تطلق لأن من أمضى زمن الزوجية مع امرأة حتى يئست من الحيض كان من مقتضى الطبع والغطرة ومن أدب الشرع والدين أن يحفظ عهدها ويرعى ودها بإبقائها على عصمة الزوجية ، وإن كان بعض السفهاء لا يحترمون تلك العشرة الطوبى ، ولا براعون ذلك الميثاق الغليظ ، فيقدموا على طلاق اليائسة ، ثم إن اليائسة إذا طلقت فلا تكاد تتزوج ، وما خرج عن مقتضى الشرع واستقامة الطبع فلا يعتد به ، والتي لم تبلغ سن الحيض قلما تكون زوجا ومن عقد على مثله كانت رغبته فيها عظيمة فيندر أن يتحول فيطلق ، وحاصل ما تقدم أن ما يتبادر في هذا المقام من لفظ المطلقات يعيد أنهن أزواج للمهورات المستعدات للحمل والنسل الذي هو المقصد من الزوجية فينتظر أن يرغب الناس في الزوج بهن

ومعنى التبرص مدة ثلاثة قروء هو أن لا تتزوج لمطابقة حتى يمر عليها ثلاثة قروء ، وهي جم قروء بضم القاف وفتحها ويطلق في اللغة على حيض المرأة وعلى طهرها منه والأصل فيه الانتقال من الطهر إلى الحيض كما نقل عن الشافعي في قول له ولذلك لا يقال للطاهر التي لم تر الدم ذات قروء أو قروء ، وللحائض التي استمر لها الدم ، فلما كان القروء وسطا بين الدم والطهر أو عبارة عن الصلة بين هاتين الحالتين عبر به قوم من الفقهاء عن أحدهما وقوم عن الآخر ، وبكل منهما شواهد في اللغة

(١) أشرنا بهذا الدعاء إلى أن الاستاذ «رح» كان عند كتابة تفسير الآية قد توفي وإنما تنقل آراءه عن المذكرات التي كتبناها عقب دروسه

أطل المفسرون في إيرادها والترجيح بينهما، فالمالكية والشافعية وآل البيت على أن القرء هو الظهر، والحنفية والحنابلة في أصح الروايتين على أن القرء هو الحيض، وأدلة الاولين أقوى. قال الاستاذ الامام والخطيب في الخلاف سهل لان المقصود من هذا التربص العلم ببراءة الرحم من الزوج السابق وهو يحصل بثلاث حيض كما يحصل بثلاثة أطهار، ومن النادر أن يستمر الحيض إلى آخر الحمل فكل من القولين، وافق لحكمة الشرع في المسألة. وأورد الحكم بلفظ الخبر دون الامر وغيره من ضروب الانشاء - كقوله كتب على المطلقات كذا - لتأكيد الاهتمام به، كأنه يقول ان هذا التربص واقع كذلك لا محالة، كما يقول الشيخ عبدالقاهر الجرجاني في هذا النوع من الاسناد الخبري في مقام الامر، فعندما يقال المطلقات يلتفت ذهن السامع ويكون متهيئاً لسماع ما يقال عنهن، فاذا قيل (يتربصن بأنفسهن) الخ - وفيه الاسناد والحكم - يقرر عنده أنه أمور به أمر مؤكداً كأنه قال اننا أمرناهن بذلك وفرضنا عليهن فامثلن الامر وجرين عليه بالامتثال حتى صار شأننا من شؤونهن اللازمة لهن لا ينصرفن عنه، بل لا يخطر في البال مخالفتن له. وليس في الامر بصيغته ما يفيد هذا التأكيد والاهتمام، لأن المأمور ياشيء قد يمثل وقد يخالف. وهذا الضرب من التعبير معهود في التنبيل في مقام التأكيد والاهتمام يقع في الكتاب مواقعه لا يعدوها، ولا يخفى ذلك على من طعم البلاغة وذاقها

وفي التعبير بقوله (يتربصن بأنفسهن) من الابداع في الاشارة، والنزاهة في العبارة، ما عهد في كل القرآن، ولم يبلغ مراعاة مثله انسان، فالكلام في المطلقات وهن معرضات للزواج، وخلو من الأزواج، والانصب فيه ترك التصريح بما يشوفن اليه، والاكتفاء بالكناية عما يرغبن فيه، على اقرارهن عليه، وعدم اثباتهن منه، مع اجتناب اخبالهن، وتوقي تنفيرهن أو التنفير منهن، وقد جمع هذه المعاني قوله تعالى (يتربصن بأنفسهن) على ما فيه من الایجاز، الذي هو من مواقع الاعجاز، فأفاد أنه يجب عليهن أن يملكن رغبتهن، ويكفئن جهاح أنفسهن، إلى تمام المدة الممدودة، والعدة الممدودة، ولكن

بطريق الرمز والتلويح ، لا بطريق الابانة والتصريح ، فان التربص في حقيقته وظاهر معناه التريث والانتظار ، وهو يتعلق بشيء يتريث عنه ، وينتظر زوال المدة المضروبة دونه ، ولولا كلمة (بأنفسهن) لما أفادت الجملة تلك المعاني الدقيقة ، والمكنايات الرشيقة ، وما كان ليخطر على بال إنسان يريد إفادة حكم العدة أن يزيد هذه الحكمه على قوله (يتربصن ثلاثة قروء) ولو لم تزد لكان الحكم عارياً عن تأديب النفس والحكم على شعورها ووجدانها ، ولعل الارشاد إلى ما تنطوي عليه نفوس النساء من تلك البرقة في ضمن الاخبار عنهن بأن من شأنهن امتلاكها والتربص بها اختياراً ، هو أشد فصلاً في أنفسهن وأقوى إلزاماً لهن أن يكن كذلك طائعات مختارات ، كما ان فيه اكراماً لهن ولطفاً بهن ، إذ لم يؤمرن أمراً صريحاً ، وهذا من الدقائق التي نحمد الله تعالى أن هدانا إلى فهمها ، فإني لا أمثالنا من البشر أن يأتوا بمثلها !

قال الاستاذ الامام بعد بيان هذه النكتة التي شرحناها : وزعم بعض الناس أن معنى التربص بالانفس هنا ضبطها ومنعها أن تقع في غمرة الشهوة المحرمة ، وعللوا ذلك بأن النساء أشد شهوة من الرجل ، ومنهم من قدر هذه الشدة والزيادة بأضعاف كثيرة حدها وعدها عداً ، وهذا من تبذ الاقوال وطرحها بغير بينة ولا علم ، فان الرجال كانوا وما زالوا هم الذين يطلبون النساء ويرغبون فيهن ، ثم يظعنونهن حتى يالتحكن في طلبا نعن والحكم على شعورهن ، وبأخذ بمعضهم ذلك من بعض بالتسليم والتقليد واقول ان من دقق النظر في اقوال الرجال في النساء في كل عصر ولا سيما اقوال كتاب الصحف في زماننا ، ووزنها بموازينها ، رأى فيها من الاغلاط والاوهام ، ما يبطله النظر والاختبار ، وأظهر نواهمهم ما يكتبونه في حب المرأة وفي نوازنة بينها وبين الرجل فيما تقدم وفي غيره ، وان المقلدين للمخطيء في ذلك اضعاف المقلدين للمصيب

ثم بين تعالى حكمة هذا التربص بالزواج في سياق حكم آخر فقال ﴿ ولايجل

لهن أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن ﴾ كما كن يفعلن أحياناً في الجاهلية اذ كانت

(البقرة ص ٢) كتمان المطلقات الحيض لاجل النفقة ينافي في الايمان بالله وبالجزء ٣٧٣

المرأة تتزوج بعد فراق رجل بآخر ويظهر لها أنها حبل من الأول فتلحق الولد بالثاني ، فهذا محرم في الاسلام ، لانه شر ضرور العش والزور والبهتان ، ينفي عن قوم من هو منهم ، ويلحق بآخرين من ليس منهم . وفي ذلك من المضار ما لا يحمل ، وقد حرمه الله في الاسلام ، وأمر بأن تمتد المرأة بعد فراق زوجها ليظهر أنها بريئة من الحمل ، ونهى أن تكتم الحمل اذا علمت به . واختار كثير من المفسرين أن ما خلق الله في أرحامهن يشمل الولد والحيض وهو المروي عن ابن عمر فقد تكتم المرأة حيضها ، تطيل أجل عدتها ، وذلك محرم أيضاً ، وقد فشا في مطلقات هذا الزمان اللواتي لا يطعن في الزواج ، لأن الحكم يفرضون لمن نفقة ما دمن في العدة فيرغبين في استدامة هذه النفقة بكتمان الحيض ، وادعاء عدم مرور القروء الثلاثة عليهن ، وما يأخذنه بعد انقضاء العدة حرام ، وما هن ممن يتفكر في ذلك اذ لا علم لمن بالحكم الحلال والحرام ، ولا يباين ما عساهن يعرفنه منها ، لانهن لم يترين على آداب الدين واعماله ، بل لم يلقن عقائده ولم يذكرن بآياته ، حتى صاراً كثرهن أقرب الى أهل الاباحة ممن الى أهل الدين ، وانما يجتنب الحرام ويتحرى الوقوف عند حدود الحلال أهل الايمان الصحيح ، ولذلك قال تعالى عقب النهي

﴿إِنْ كُنْ مِنْكُمْ رَجُلٌ فَقُلْ أَصْحَابُ الْمِيثَاقِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ وهذا وعيد شديد وتهديد عظيم ، كأنه يقول اذا كن يعرفن من أنفسهن الايمان بالله الذي أنزل الحلال والحرام لمصلحة الناس ، وباليوم الآخر الذي يكون فيه الجزاء بالقسطاس ، فلا يكتمن ما خلق الله في أرحامهن ، والا كن غير مؤمنات بما أنزله الله تعالى من هذه الاحكام التي هي خير لمن ولا زواجهن ، وحافضة لحقوقهم وحقوقهن ، اذ التصديق الجازم بأن الله تعالى أنزل هذا الحكم وجعل في أتباعه المثوبة والرضوان ، وفي تركه الشقاء والخسران ، يكون سبباً طبيعياً لامثاله ، مع إعظامه واجلاله ، وعلى هذا الحد ماورد في الحديث الصحيح « لا يزني الزني حين يزني وهو مؤمن » الخ فمن لنا بمن يبلغ النساء المؤمنات هذا التشديد ؟ ومن لنا بمن يهتم بتلقين البنات عقائد الايمان ، وتربيتهن على الاعمال التي تمكن هذه العقائد في العقل والوجدان ؟ وأي

الرجل يفعل هذا والرجال أنفسهم لم يعد لهم هم في الدين الا قليلا منهم ؛ وهؤلاء يرون النساء متاعا لا أناسي مشاهم ، فيدعونهن وشأنهن ، لا يتفكرون في أسباب ما يلغون من عواقب إهمالهن ، ورزايا جهلهن

وبعولتهن أحق بردهن في ذلك إن أرادوا إصلاحا ﴿ قال الاستاذ الامام قدس الله روحه : هذا نطف كبير من الله سبحانه وتعالى وحرص من الشارع على بقاء العصمة الاولى ، فان المرأة اذا طلقت لأمر من الامور سواء كان بالايلاء أو غيره فقلما يرغب فيها الرجال ، وأما بعلمها المطلق فقد يندم على طلاقها ، ويرى ان ما طلقها لاجله لا يقتضي مفارقتها دائما ، فيرغب في مراجعتها ولا سيما اذا كانت العشرة السابقة بينهما جرت على طريقتها الفطرية ، فانقضى كل منهما الى الآخر بسره حتى عرف بعجره وبمجره ، وتمكنت الالفه بينهما على علانها . واذا كانا قد رزقا الولد فان الندم على الطلاق يسرع اليهما لان الحرص الطبيعي على العناية بتربية الولد وكفالته بالاشهرار تغلب بعد زوال أمر المغاضية العارضة على النفس ، وقد يكون أقوى اذا كان الاولاد إناثا ، لهذا حكم الله تعالى لطفاً منه بعباده بأن يعمل المطلقة أي زوجها أحق بردها في ذلك أي في زمن التربص وهي العدة . وفي هذا بيان حكمة أخرى للعدة غير تبين الحمل أو براءة الرحم ، وهي امكان المراجعة ، فعلم بذلك أن تربص المطلقات بأنفسهن فيه فائدة لهن وفائدة لازواجهن . وإنما يكون بعلم المرأة أحق بها في مدة العدة اذا قصد اصلاح ذات البين وحسن المعاشرة ، وأما اذا قصد مضارتها ومنعها من التزوج بعد العدة حتى تكون كالمعلقة لا يعاشرها معاشره الأزواج بالحسن ولا يمكنها من التزوج ، فهو آثم بينه وبين الله تعالى بهذه المراجعة ، فلا يباح للرجل أن يرد مطلقته الى عصمته الا بإرادة اصلاح ذات البين ونية المعاشرة بالمعروف . وإنما قل الامام انه آثم بينه وبين الله تعالى لفائدة ان ذلك محرم لا مخرج خفي يتعلق بالقصد فلم يكن شرطا في الظاهر لصحة الرجعة ، وما كل ما صح في نظر القاضي يكون جائزا تدينا بين الانسان وربه ، لان القاضي يحكم بالظاهر ، والله يتولى السرائر . والطلاق الذي تحول فيه الرجعة قبل

انقضاء العدة يسمى طلاقاً رجعيًا ، وهناك طلاق بائن لا تحل مراجعة المطلقة بعده وسيأتي ذكره في محله . ومن مباحث اللفظ أن كلمة أحق هنا بمعنى حقيقين كما قالوا . ولما كانت إرادة الإصلاح برد الرجل امرأته إلى عصمته انما تتحقق بأن يقوم بحقوقها كما يلزمها أن تقوم بحقوقه ذكر جل شأنه حق كل منهما على الآخر بعبارة مجملة تعد ركنًا من أركان الإصلاح في البشر وهي قوله تعالى

﴿ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف﴾

هذه كلمة جلية جداً جمعت على إيجازها ما لا يؤدي بالتفصيل إلا في سفر كبير فهي قاعدة كلية ناطقة بأن المرأة مساوية للرجل في جميع الحقوق إلا أمراً واحداً عبر عنه بقوله (وللرجال عليهن درجة) وسيأتي بيانه ، وقد أحل في معرفة ما لهن وما عليهن على المعروف بين الناس في معاشراتهم ومعاملاتهم في أهليهم . وما يجري عليه عرف الناس ، هو تابع لشرائعهم وعقائدهم وآدابهم وعاداتهم ، فهذه الجملة تعطي الرجل ميزاناً يزن به معاملته لزوجته في جميع الشئون والاحوال ، فإذا تمّ بتطالبتها بأمر من الأمور يتذكر أنه يجب عليه مثله بازائه ، ولهذا قل ابن عباس رضي الله تعالى عنها: اني لأتزين لامرأتي كما تزين لي لهذنه الآية . وليس المراد بالمثل المثل بأعيان الاشياء وأشخاصها ، وانما المراد ان الحقوق بينهما متبادلة وانها أكفاء ، فامان عمل تعمله المرأة للرجل الا وللرجل عمل يقابلها ، ان لم يكن مثله في شخصه ، فهو مثله في جنسه ، فها متماثلان في الحقوق والاعمال ، كما انهما متماثلان في الذات والاحساس والشعور والعقل ، أي أن كل منهما يشتر تام له عقل يتفكر في مصالحه ، وقلب يحب ما يلائمه ويسر به ، ويكره ما يلائمه وينفر منه ، فليس من العدل أن يتحكم أحد الصنفين بالآخر ويتخذ منه عبداً يستعمله ويستخدمه في مصالحه ، ولا سيما بعد عقد الزوجية والدخول في الحياة المشتركة التي لا تكون سعيدة الا باحترام كل من الزوجين الآخر والقيام بحقوقه

قل الاستاذ الامام قدس الله روحه: هذه الدرجة التي رفع النساء اليها لم يرفعهن اليها دين سابق ولا شريعة من الشرائع ، بل لم تصل اليها أمة من الامم قبل

الاسلام ولا بعده ^(١) وهذه الأمم الاوربية التي كان من آثار تقدمها في الحضارة والمدنية أن بالغت في تكريم النساء واحترامهن، وعظمت بتربيتهن وتعليمهن العلوم والفنون، لا تزال دون هذه الدرجة التي رفع الاسلام النساء اليها، ولا تزال قوانين بعضها تمنع المرأة من حق التصرف في مالها بدون اذن زوجها، وغير ذلك من الحقوق التي منحها ايها الشريعة الاسلامية من نحو ثلاثة عشر قرناً ونصف، وقد كان النساء في أوروبا منذ خمسين سنة بمنزلة الارقاء في كل شيء كما كن في عهد الجاهلية عند العرب أو أسوأ حالاً، ونحن لا نقول ان الدين المسيحي أمرهم بذلك لاننا نعتقد أن تعليم المسيح لم يخلص اليهم كاملاً سالماً من الاضافات والبدع، ومن المعروف ان ما كانوا عليه من الدين لم يرق المرأة وانما كان ارتقاؤهم من أثر المدنية الجديدة في القرن الماضي

وقد صار هؤلاء الافرنج الذين قصرت مدنيتهن عن شريعتنا في إعلاء شأن النساء يفخرون علينا بل يرموننا بالهجومية في معاملة النساء، ويزعج الجاهلون منهم بالاسلام أن مانحن عليه هو أثر ديننا. ذكر الاستاذ الامام في الدرس أن أحد السائحين من الافرنج زاره في الازهر وبيناهما ماران في المسجد رأى الافرنجي مبتاً مارة فيه فبهت وقال ما هذا؟ انشئ تدخل الجامع!! فقال له الامام وما وجه الغرابة في ذلك؟ قال اننا نعتقد ان الاسلام قرر أن النساء ليس لهن أرواح وليس عليهن عبادة: فبين له غلطه وفسر له بعض الآيات فيهن. قال فانظروا كيف صرنا حجة على ديننا؟ وإلى جهل هؤلاء الناس بالاسلام حتى مثل هذا الرجل الذي هو رئيس جمعية كبيرة فما بالك بمعامتهم؟

إذا كان الله قد جعل للنساء على الرجال مثل ما لهم عليهن الا ما يميزهم به من الرياسة، فالواجب على الرجل بمقتضى كفالة ارياسة أن يعلموهن ما يمكنهن من

(١) قد صنفنا في هذا العام (١٣٥١) كتاباً مستقلاً في حقوق النساء في الاسلام بينا فيه ان جميع أُمم الأرض الوثنية والكتانية كانت تهم حقوق النساء وتستزقن او تمدهن كالحقوق او كالحوان، وان الاسلام هو الذي اعطاهن جميع الحقوق الانسانية من دينية ومدنية ومالية، وان مصالحة البشر في اتباعه ومفسدتهن في مخالفته.

القيام بما يجب عليهن ويجعل لهن في النفوس احتراماً يعين على القيام بحقوقهن ويسهل طريقه، فإن الإنسان بحكم الطبع يحترم من يراه مؤدباً، عالماً بما يجب عليه عاملاً به، ولا يسهل عليه أن يمتنعه أو يهينه، وإن بدرت منه بادرة في حقه رجع على نفسه باللائمة، فكان ذلك زاجراً له عن مثلها

خاطب الله تعالى النساء بالإيمان والمعرفة والأعمال الصالحة في العبادات والمعاملات كما خاطب الرجال، وجعل لهن عليهم مثل ما جعل لهم عليهم، وقرن أسماءهن بأسمائهم في آيات كثيرة، وبايع النبي ﷺ المؤمنات كبايع المؤمنين، وأمرهن بتعلم الكتاب والحكمة كما أمرهم، وأجمعت الأمة على ماضى به الكتاب والسنة من أنهن مجزيات على أعمالهن في الدنيا والآخرة، أفيجوز بعد هذا كله أن يحرم من العلم بما عليهن من الواجبات والحقوق لربهن ولبعولتهن ولأولادهن ولذي القربى والأمة والملة؟ العلم الاجمالي بما يطلب فعله شرطي توجه النفس اليه، إذ يستحيل أن تتوجه إلى المجهول المصالح، والعلم التفصيلي به المبين لفائدة فعله ومضرة تركه يعد سبباً للعناية بفعله والتوقي من إهماله، فكيف يمكن للنساء أن يؤدين تلك الواجبات والحقوق مع الجهل بها إجمالاً وتفصيلاً؟ وكيف تسعد في الدنيا والآخرة أمة نصفها كالبهايم لا يؤدي ما يجب عليه لربه ولا لنفسه ولا لأهل ولا للناس، والنصف الآخر قريب من ذلك لأنه لا يؤدي إلا قليلاً مما يجب عليه من ذلك ويترك الباقي، ومنه اعانة ذلك النصف الضعيف على القيام بما يجب عليه من علم وعمل، أو إلزامه إياه بما له عليه من الساطة والرياسة

إن ما يجب أن تعلمه المرأة من عقائد دينها وآدابها وعباداته محدودة، ولكن ما يطلب منها لنظام بيتها وتربية أولادها ونحو ذلك من أمور الدنيا كأحكام المعاملات — إن كانت في بيت غنى ونعمة — يختلف باختلاف الزمان والمكان والاحوال، كما يختلف بحسب ذلك الواجب على الرجال، ألا ترى الفقهاء يوجبون على الرجل النفقة والسكنى والخدمة اللائقة بحال المرأة؟ ألا ترى أن فروض الكفايات قد اتسعت دائرتها؟ فبمقدار أن كان أخذ السيوف والرماح والقسي.

كافياً في الدفاع عن الحوزة صار هذا الدفاع متوقفاً على المدافع والبنادق والبوارج^١ وعلى علوم كثيرة صارت واجبة اليوم ولم تكن واجبة ولا موجودة بالأمس ، ألم تر أن تمرض المريض ومداواة الجرحى كان يسيراً على النساء في عصر النبي ﷺ وعصر الخلفاء رضي الله تعالى عنهم ، وقد صار الآن متوقفاً على تعلم فنون متعددة وتربية خاصة ، هي الأمرين أفضل في نظر الاسلام ؟ أتمرّض المرأة لزوجها اذا هو مرض أم اتخذ ممرضة أجنبية تطعم على عورته وتكتشف مخبات بيته ؟ وهل يتيسر للمرأة أن تمرّض زوجها أو ولدها اذا كانت جاهلة بقانون الصحة وبأسماء الادوية ؟ نعم قد تيسر لكثيرات من الجاهلات قتل مرضاهن بزيادة مقادير الادوية السامة أو بجعل دواء مكن آخر

روى ابن المنذر والحاكم وصححه وغيرهما عن علي كرم الله تعالى وجهه انه قال في تفسير قوله تعالى (٦ : ٦٦) يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا) علموا أنفسكم وأهليكم الخير وأديبهم . والمراد بالأهل النساء والاولاد ذكورا وإناثا ، وزاد بعضهم هنا العبد والامة ، وهو من أهل السكان اهولا وعرا ، وأهل الرجل وأهل تزوج . وأهل الرجل وزوجه وأهل بيته الذين يسكنون معه فيه والاصل فيه القرابة . وجمع "أهل" أهولون وربما قيل الاهالي (المصباح) . واذا كان الرجل يقي نفسه وأهله نار الآخرة بتعليمهم وتأديبهم ، فهو كذلك يقيهم بذلك نار الدنيا وهي المعيشة المنقصة بالشقاء وعدم النظام

والآية تدل على اعتبار العرف في حقوق كل من الزوجين على الآخر مالم يحل العرف حراما أو يحرم حلالا مما عرف بالنص ، والعرف يختلف باختلاف الناس والازمنة ، ولكن أكثر فقهاء المذاهب المعروفة يقولون ان حق الرجل على المرأة أن لا تمنعه من نفسها بغير عذر شرعي ، وحققا عليه النفقة والسكنى الخ وقالوا لا يلزمها عجن ولا خبز ولا طبخ ولا غير ذلك من مصالح بيته أو ماله ومساكنه . والاقرب إلى هداية الآية ما قاله بعض المحدثين والحنابلة . قال في حاشية المقنع بعد ذكر

(١) وقد حدث بعد كتابة هذا وطبعه سنة ١٣٢٣ أن قد دم فن الاساطيل الجوية فصارت من عوامل الحرب وربما تفوق غيرها حتى يستغنى بها عنها

القول بأنه لا يجب عليها ماذكر . وقال أبو بكر بن أبي شيبة والجوزجاني عليها ذلك واحتجا بقضية علي وفاطمة رضي الله عنهما قال النبي ﷺ قضى على ابنته بخدمة البيت، وعلى علي ما كان خارجا من البيت من عمل . رواه الجوزجاني من طرق، قال وقد قل عليه السلام « لو كنت امرأة أحدنا أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها ، ولو ان رجلا أمر امرأته ان تذهب من جبل أسود الى جبل أحمر أو من جبل أحمر إلى جبل أسود لكان نولها (أي حتمها) ان تفعل ذلك » ورواه بإسناده قال فهذا طاعة فيما لا منفعة فيه فكيف بمؤنة معاشه ؟ وقال الشيخ تقي الدين يجب عليها المعروف من مثلها لمثله . قال في الانصاف والصواب أن يرجع في ذلك إلى عرف البلد اهـ

وما قضى به النبي ﷺ بين بنته وربيبه وصهره (عليهما السلام) هو ما تقضى به فطرة الله تعالى ، وهو توزيع الاعمال بين الزوجين على المرأة تدبير المنزل والقيام بالاعمال فيه ، وعلى الرجل السعي والكسب خارجه . وهذا هو المأثله بين الزوجين في الجملة ، وهو لا ينافي استعانة كل منهما بالخدم والاجراء عند الحاجة إلى ذلك مع القدرة عليه ، ولا مساعدة كل منهما الآخر في عمله أحيانا إذا كانت هناك ضرورة ، وإنما ذلك هو الاصل والتقسيم الفطري الذي تقوم به مصلحة الناس وهم لا يستغنون في ذلك ولا في غيره عن التعاون (٢٨٦: ٢) لا يكلف الله نفسا إلا وسعها — وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الأثم والعدوان وأتقوا الله)

وما قاله الشيخ تقي الدين وما بينه به في الانصاف من الرجوع إلى العرف لا يعدو مافي الآية قيد شعرة . وإذا أردت أن تعرف مسافة البعد بين ما يعمل أكثر المسلمين وما يعتقدون من شريعتهم ، فانظر في معاملتهم للنساء ، تجدهم يظلمونهن بقدر الاستطاعة لا يصد أحدهم عن ظلم امرأته إلا العجز ، ويحملونهن مالا يحملهن إلا بالتكلف والجهد ، ويكثر من الشكوى من تقصيرهن ، ولئن سألتهم عن اعتقادهم فيما يجب لهم عليهن ليقولن كما يقول أكثر فقهاءهم : أنه لا يجب للناعلين خدمة ولا طبخ ، ولا غسل ، ولا كنس ولا فرش ، ولا إرضاع طفل ولا تربية

ولد ، ولا إشراف على الخدم الذين نستأجرهم لذلك ، ان يجب عليهن إلا المكث في البيت والتمكين من الاستمتاع ، وهذان الامران عديمان أي عدم الخروج من المنزل بغير إذن ، وعدم المعارضة بالاستمتاع ، فالعني انه لا يجب عليهن الرجال عمل قط ، ولا الاولاد مع وجود آبائهم أيضاً . واقول إن هذه مبالغة في إعنائهن من التكاليف الواجبة عليهن في حكم الشرع والعرف ، يقابلها المبالغة في وضع التكاليف عليهن بالفعل ، ولكن الجاهلين بالمذاهب الفقهية يتهمون رجالها بهضم حقوق النساء ، وما هو إلا غلبة التقاليد والعادات مع عموم الجاهل

وأما قوله تعالى ﴿ وَالرَّجُلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ دَرَجَةٌ ﴾ فهو يوجب على المرأة شيئاً على الرجل أشياء . ذلك ان هذه الدرجة هي درجة الرياسة والقيام على المصالح المفسرة بقوله تعالى ﴿ ٣٤:٤ ﴾ الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم) فالحياة الزوجية حياة اجتماعية ولا بد لكل اجتماع من رئيس لان المجتمعين لابد أن تختلف آراؤهم ورغباتهم في بعض الامور ، ولا تقوم مصالحهم إلا اذا كان لهم رئيس يرجع إلى رأيه في الخلاف لئلا يعمل كل على ضد الآخر فتتفهم عروة لوحدة الجامعة ، ويختل النظام ، والرجل أحق بالرياسة لانه أعلم بالمصلحة ، وأقدر على التنفيذ بقوته وماله ، ومن ثم كان هو المطالب شرعا بحماية المرأة والنقطة عليها ، وكانت هي مطالبة بطاعته في المعروف ، فان فشرت عن طاعته كان له تأديبها بالوعظ والهجر والضرب غير المبرح إن تعين تأديبا ، يجوز ذلك لرئيس البيت لأجل مصلحة العشيرة وحسن العشرة ، كما يجوز مثله لقائد الجيش ولرئيس الامة (الخليفة أو السلطان) لأجل مصلحة الجماعة . وأما الاعتداء على النساء لأجل التحكم أو التشفي أو شفاء الغيظ فهو من الظلم الذي لا يجوز بحال ، قال ﷺ « كلكم راع وكلهم مسئول عن رعيته » فالامام راع وهو مسئول عن رعيته ، والرجل راع في أهله وهو مسئول عن رعيته ، والمرأة راعية في بيت زوجها وهي مسئولة عن رعيته — إلى أن قال — فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » متفق عليه من حديث ابن عمر . وسيتأتي تفصيل لهذه السلطة في سورة النساء إن شاء الله تعالى .

وختم الآية بقوله عز وجل ﴿والله عزيز حكيم﴾ قال الاستاذ الامام ان
لذكر العزة والحكمة ههنا وجهين (أحدهما) إعطاء المرأة من الحقوق على الرجل مثل
ماله عليها بعد أن كانت مهضومة الحقوق عند العرب وجميع الأمم (والثاني) جعل
الرجل رئيسا عليها ، فكان من لم يرض بهذه الاحكام الحكيمة يكون منازعا لله
تعالى في عزة سلطانه ، ومنكرا لحكمته في أحكامه ، فهي تتضمن الوعيد على المخالفة
كما عهدنا من سنة القرآن

(٢٢٩) الطَّالِقُ مَرَّتَيْنِ فَامْسَاكِ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٍ بِإِحْسَنِ ، وَلَا
يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا بِمَا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَنْ
لَا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ ، فَإِنْ خِفْتُمْ أَنْ لَا يُقِيمَا - وَدَّ اللَّهُ فَلَا جُنَاحَ
عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ ، تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ
حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ *

كان للعرب في الجاهلية طلاق ومراجعة في العدة ولم يكن للطلاق حدودا عدد
فان كان للمغاضبة عارضة عاد الزوج فراجع واستقامت عشرته ، وان كان لمضارة
المرأة راجع قبل انقضاء العدة واستأنف طلاقا ثم يعود إلى ذلك المرة بعد المرة
أو يفي ويسكن غضبه ، فكانت المرأة المعبودة بيد الرجل يضارها بالطلاق ما شاء
أن يضارها ، فكان ذلك مما أصلحه الاسلام من أمور الاجتماع . وكان سبب
نزول الآية ما أخرجه الترمذي والحاكم وغيرهما عن عائشة وأورده السيوطي
في أسباب النزول قالت كان رجل يطلق امرأته ما شاء أن يطلقها وهي امرأته
إذا اتجمعا وهي في العدة وأن طلقها مائة مرة واكثر ، حتى قال رجل لامرأته
والله لا أطلقك فبيني ، ولا آويك أبداً ، قالت وكيف ذلك ؟ قال أطلقك فكلما
همت عدتك أن تنقضي راجعتك . فذهبت المرأة فأخبرت النبي ﷺ فسكت

حتى نزل القرآن ﴿الطَّالِقُ مَرَّتَيْنِ فَامْسَاكِ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٍ بِإِحْسَانٍ﴾

قال الاستاذ الامام (رحمه الله تعالى) ما مثاله بایضاح : قد ذكر في الآية السابقة الطلاق على الطلاق وذكر العدة، والطلاق هنا هو الطلاق هناك . وهو عبارة عن مفارقة المرأة المدخول بها ، بحل الرجل عقدة الزوجية التي تربطها معها ، واللفظ دل على هذا المعنى . فهذا يمان لأصل الشرع في الطلاق جاء على صيغة الخبر لتقريره وتوكيده كقوله (والمطلقات يتربصن) أي إن حد الله الذي حسمه للطلاق ولم يخرج به العصمة من أيدي الرجال هو مرتان ، أي طلقتان ، وعبر بالمرتين ليفيد ان الطنقتين تكون كل منهما مرة تحل بها العصمة ثم تبرم ، لأنهما يكونان بلفظ واحد ، ولهذا روي عن ابن عباس أنه جعل كلمة (طلقت ثلاثا) بمثابة قرأت الفاتحة ثلاثا ، فإن كان صادقا فالطلاق صحيح والا فهو لغو من القول وقال بن انشاء الطلاق ثلاثا بالقول ليس في قدرة الرجل إيقاعه مرة واحدة . ذلك ان الامور العملية لا تتكرر بتكرار القول المعبر عنها ، بل ولا القولية أيضا . فمن فسخ العقد مرة وعبر عنها بقوله ثلاثا فهو كاذب . ولو صح ذلك لصح أن يقال الواحد ثلاثة والثلاثة واحد . ومن سغه نفسه وجاء بهذا فقد خرج عن السنة واستحق التأديب ، فقد روى النسائي من حديث محمود بن لبيد قال أخبر رسول الله ﷺ عن رجل طلق امرأته ثلاث تطليقات جميعا فقام غضبان ثم قال « أيلعب بكتاب الله وأنا بين أظهركم » حتى قام رجل فقال يا رسول الله ألا تقتله ! قال ابن كثير أسناده جيد وقال الحافظ بن حجر في بلوغ المرام رواه موثقون . وقد صرح جماهير العلماء ومنهم الحنفية بأن الطلاق الشرعي هو ما كان مرة بعد مرة ، وان جمع الثنتين أو الثلاث بدعة ، وأنه حرام . قال أبو زيد الدوسقي في الاسرار وهذا هو قول عمر وعثمان وعلي وعبد الله بن مسعود وعبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر وعمران بن الحصين وأبي موسى الأشعري وأبي الدرداء وحذيفة وهم أعلم الصحابة رضي الله عنهم

(قال) هذا هو الطلاق المشروع في كتاب الله تعالى وهو الطلاق الرجعي على هذه الصفة وبهذا العدد ، وأما الطلاق البائن فلم يرد في كتاب الله تعالى والعقهاء والمحدثون متفقون على أن حكم الطلاق البائن بلفظ الثلاث أو تكرار اللفظ لا يؤخذ

من هذه الآية ولا من آية أخرى من القرآن ، ولذلك وقع فيه الخلاف من الصدر الاول إلى الآن ، ولم يذكر الخلاف بعد الائمة الاربعة عن أحد من اتباعهم إلا عن بعض المجابلة^(١) وجمهور الامة على ان من قل لامرأته أنت طالق ثلاثا تبين منه كما لو طلقها ثلاث مرات ، فإطلاق في الآية يراد به نوع منه وهو الرجمي ، وأما البائن فلم يذكر ، وقد أخذوه من حديث الملاعة^(٢) والآخرون يجيبون عنه بأن الملاعة تقتضي التفريق فالطلاق بعدها لغو

(أقول) حديث الملاعة الذي أشار إليه الاستاذ الامام هو ما رواه احمد والشيخان عن سهل بن سعد ان عويمراً العجلاني أنى النبي ﷺ فقال يا رسول الله أرأيت رجلاً وجد مع امرأته رجلاً أيقنله فقتلونه أم كيف يفعل ؟ فقال رسول الله ﷺ « قد أنزل فيك وفي صاحبك قرآناً فأت بها » فتلاعنا وانا مع الناس عند رسول الله ﷺ فلما فرغ قل عويمر كذبت عليها يا رسول الله ان أمسكتها ، فطلقها ثلاثا قبل أن يأمره رسول الله ﷺ . قال ابن شهاب فكانت سنة المتلاعنين . وفي لفظ لمسلم واحمد وكان فراقه أياها سنة في المتلاعنين . وفي حديث ابن عمر المتفق عليه أن النبي ﷺ فرق بينهما ، ومن هنا ذهب بعض العلماء الى ان اللعان لا يقتضي التفريق الا بحكم الحاكم به ، وأجاب عنه الذين قالوا ان اللعان يقتضي التفريق بنفسه بأن تفريقه ﷺ بينهما هو بيانه الحكم في ذلك لا انشاء تفريق ، وعلى كل من القولين لا يحتاج بالحديث في وقوع التطليق الثلاث بتسكير اللفظ في المجلس كما فعل عويمر اذ قال « كما في رواية » فهي الطلاق فهي الطلاق فهي الطلاق . فان المتبادر منه انه تأكيد باللفظ ، ولو كان هذا طلاقاً مكرراً صادف محلاً لا نكر عليه النبي ﷺ إيقاعه بدعياً كما أنكر على الرجل الآخر الذي ذكر في حديث النسائي

(١) سيأتي خلاف هذا (٢) الملاعة في الامة المشاركة في اللعن وفي الشرع ان يقذف الرجل امرأته بالفاحشة فيشهد أربع شهادات بالله لأنه لصادق وفي الخامسة بامن نفسه ان كان كاذباً ، ويدفع عنها الحد أن تشهد بعده أربع شهادات بالله أنه لكاذب ، والخامسة أن غضب الله عليها ان كان صادقاً والآيات في سورة النور واضحة

والجمهور أحاديث أخرى لم يذكروها الاستاذ الامام من أدلتهم لضعفها واضطرابها أشهرها حديث ركانة وهو أنه طلق امرأته البتة فأخبر النبي ﷺ فقال والله ما أردت إلا واحدة فأعاد ليمين النبي ﷺ وأعادها هو فردها اليه ، وطلقها الثانية في زمن عمر ، والثالثة في زمن عثمان ، رواه الشافعي وأبو داود والترمذي وغيرهم قال الترمذي لا يعرف إلا من هذا الوجه وسألت عنه محمدا يعني البخاري فقال فيه اضطراب ، فقبل طلقها ثلاثا وقبل واحدة وقبل البتة ، وفي اسناده الزبير بن سعيده الهاشمي وقد ضعفه غير واحد وقال ابن عبد البر في التمهيد تكلموا في هذا الحديث ، فهو ضعيف ومضطرب كما أنه معارض بما يأتي ، ورواية ثلاثا فيه معارضة للروایتين الآخرين وهي حجة لمن قال لا يقع بلفظ الثلاث الا واحدة فإنه قال فيها طلقها ثلاثا وجعلها النبي ﷺ واحدة فهو باختلاف رواياته مشترك الالتزام ، ومنها حديث ابن عمر وقد ضعفه غير واحد ولا حجة فيه

وأما الحديث المعارض لذلك الموافق للكتاب العزيز فهو ما رواه احمد ومسلم من حديث طاوس عن ابن عباس قال كان الطلاق على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وسنتين من خلافة عمر طلاق اثلاث واحدة فقال عمر بن الخطاب : ان الناس قد استعجلوا في أمر كانت لهم فيه أناة فلو أمضيناه عليهم ، فأماضاه عليهم ، وفي رواية لمسلم عن طاوس ان أبا الصهباء قل لابن عباس هات من ههناك ، ألم يكن طلاق الثلاث على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر واحدة ؟ قال قد كان ذلك فلما كان في عهد عمر تتابع الناس في الطلاق (التتابع بالمشقة التحقية الوقوع في الشر من غير تماسك ولا توقف) فأجازه عليهم ، وفي رواية لأبي داود التقييد بما قبل الدخول وهو فرد من أفراد الرواية المطلقة التي هي أصح . وللحديث طريق آخر عند الحاكم وصححه . فلم يبق للجمهور الا الأخذ بعمل عمر رضي الله عنه ومن لم يحتاج بعمل الصحابة قال انه لا بد له من دليل

قال في نيل الأوطار : وأعلم انه قد وقع الخلاف في الطلاق الثلاث اذا وقعت في وقت واحد هل يقع جميعها ويتبع الطلاق الطلاق أم لا ؟ فذهب جمهور التابعين وكثير من الصحابة وأئمة المذاهب الأربعة وطائفة من أهل البيت منهم أمير المؤمنين

علي رضي الله تعالى عنه والنصر والامام يحيى حكي عنهم في البحر وحكاه أيضا عن بعض الامامية ان الطلاق يتبع الطلاق ، وذهب طائفة من أهل العلم الى ان الطلاق لا يتبع الطلاق بل يقع واحدة فقط ، وقد حكي ذلك صاحب البحر عن أبي موسى ورواية عن علي عليه السلام وابن عباس وطاوس وعطاء وجابر بن زيد والهادي والقاسم والباقر والناصر وأحمد بن عيسى وعبد الله بن موسى بن عبد الله ورواية عن زيد بن علي ، و له ذهب جماعة من المتأخرين منهم ابن تيمية وابن القاسم وجماعة من المحققين ، وقد نقله ابن مقبب في كتاب الوثائق عن محمد بن وضاح ونقل الفتوى بذلك من مشايخ قرطبة كـ محمد بن بقي ومحمد بن عبد السلام وغيرهما ، ونقله ابن المنذر عن أصحاب ابن عباس كـ عطاء وطاوس وعمر بن دينار وحكاه ابن مقبب في ذلك الكتاب عن علي رضي الله عنه وابن مسعود وعبد الرحمن بن عوف والزبير . وذهب بعض الامامية الى أنه لا يقع بالطلاق المتتابع شيء لا واحدة ولا أكثر منها ، وقد حكي ذلك عن بعض التابعين ، وروى عن ابن علية وهشام بن الحكم وبه قال أبو عبيدة وبعض أهل الظاهر وسائر من يقول ان الطلاق البدعي لا يقع لأن الثلاث لمفظة واحد أو الفاظ متتابعة منه . الخ ثم ذكر الشوكاني الأدلة وعرضها على ميزان التعادل والترجيح ورجح وقوع الواحدة وله أي للشوكاني رسالة خاصة في تفنيذ أدلة الجمهور وأجوبتهم عن الحديث الصحيح ، ولشيخ الاسلام ابن تيمية مؤلف خاص فيها .

وقد أطال ابن القيم في اعلام الموقعين القول في المسألة وأورد الاحاديث فيها والدلائل وأوضح معنى قوله تعالى «الطلاق مرتان» بالآيات والاحاديث وهو أن معناها انه يكون مرة بعد مرة كما تقدم قال «وما كان مرة بعد مرة لم يملك المكلف إيقاع مراتها كلها جملة واحدة كاللعان فانه لو قال : أشهد بالله أربع شهادات اني لمز ، نصادقين : كان مرة واحدة ، ولو حلف في القسامة (١) وقال أقسم بالله خمسين عيماً ان هذا قاتله : كان

(١) نفسامة بانفتح الايمان تقسم على أوياء القتل اذا ادعوا لدمهم وهموا رجلاً أنه قتله ومعهم دلائل دون البينة فيحلفون خمسيناً أنه قتله ، ويحلف في القسامة عليهم أئمة

ذلك يميناً واحدة ، ولو قال المقر بالزنا: أنا أقر أربع مرات اني زيت : كان مرة واحدة ، فمن يعتبر الاربع لا يجعل ذلك الاقراراً واحداً » ثم ذكر أحاديث وآيات أخرى كالأمر بالاستئذان ثلاث مرات وغير ذلك

ثم ذكر أن الصحابة كانوا يجمعون على أنه لا يقع بالثلاث مجتمعة الا واحدة من أول الاسلام الى ثلاث سنين من خلافة عمر ، وان هذا الاجماع لم ينقضه اجماع بعده ، وذكر بعض من أفتى به من الصحابة والتابعين وأتباع تابعيهم ، وان الفتوى بذلك تعابعت في كل عصر حتى كان من اتباع الائمة الاربعة من أفتى بذلك ، فانه عند ما ذكر اتباع تابعي التابعين قال « فأفتى به داود بن علي وأكر أصحابه حكاة عنهم أبو المغلس وابن حزم وغيرهما ، وأفتى به بعض أصحاب مالك حكاة التلمساني في شرح تفرغ ابن الحلاب قولاً لبعض المالكية ، وأفتى به بعض الحنفية حكاة أبو بكر الرازي عن محمد بن مقاتل ، وأفتى به بعض أصحاب أحمد حكاة شيخ الاسلام ابن تيمية عنه قال وكان الجدل يفتي به أحياناً » ثم ذكر أن الاثر من أصحاب أحمد سأل عن حديث ابن عباس بأي شيء يدفعه ؟ فقال بما روي من فتوى ابن عباس بخلافه - روي عنه في لفتوى روايتان - ثم قال ان مذهب أحمد العمل برواية الصحابي دون رأيه اذا اختلفا ، وذكر لذلك شواهد . ثم بين ان اجازة عمر الثلاث لما تعابعت الناس في الطلاق تأديب لهم على مخالفة ما شرعه الله في الطلاق من كونه يوقع المرة بعد المرة ليرجعوا الى السنة ، ووجه ذلك بالنسبة الى ذلك الوقت ، وذكر الروايات في تأييده ، ثم بين ان المصلحة الآن تقضي بالرجوع الى الكتاب وما مضت به السنة في عهد النبي ﷺ والخليفة الاول فرراً من مفسد التحليل التي هي من أكبر العار على المسلمين على انها مخالفة لدينهم ، وأطال في ذلك

وانما أطالنا في ذكر الخلاف في هذه المسألة على تحامينا في التفسير ذكر الخلاف ما وجدنا مندوحة عنه لان بعض الناس يعتقدون ان المسألة اجماعية فيما جرى عليه الجمهور ، وما ثم من اجماع إلا ما قاله ابن القيم ، وليس المراد مجادلة المقلدين أو إرجاع القضاة والمفتين عن مذاهبهم فيها فان أكثرهم يطالع على هذه النصوص في

كتب الحديث وغيرها ، ولا يالي بها ، لان العمل عندهم على أقوال كتبهم (١)
دون كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ

وقوله تعالى ﴿فامسك بمعروف أو تسريح بإحسان﴾ فيه وجهان (أحدهما)
ان معناه : فالواجب عليكم إما إمساك المرأة مع المعاشرة بالمعروف ، وإما تسريحها
بامضاء الطلاق مع الاحسان اليها في المعاملة والتمتع بما لا يثق به وهو ماسيأتي بيانه
قريباً ، ويستلزم إلقاء الاهانة والاساءة . والوجه الثاني أنه ليس لكم بعد امرتين
إلا أحد الامرين الامساك بالمعروف أو التسريح أي الطلاق بالاحسان ، وبؤيده
حديث أبي رزين الاسدي عند أبي داود وغيره أنه سأل النبي ﷺ : سمعت الله
يقول (الطلاق مرتان) فأتين الثالثة ؟ فقال ﷺ « أو تسريح بإحسان » وعنى
هذا يكون قوله (فان طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجاً غيره) في لآية
الآتية بمعنى هذا فان اختار الامر الثاني وهو التسريح فطلقها بانت منه ولا تحل
له الخ ماسيأتي مع حكيمته لا انه دليل على طلقة ربعة

بعد أن فرض سبحانه الاحسان على من اختار التسريح حرم عليهم أخذ شيء

من المرأة فقال ﴿ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً﴾ ويدخل في ذلك
المهر وغيره مما يعطيه الرجل امرأته على سبيل التملك . بل يجب أن يتمتع بشيء
من ماله زائداً على ذلك (٣٣ : ٣٨ فتموهن وسرحوهن) قال الاستاذ " دام
(رض) ان أخذ الرجل شيئاً من مال مطلقة ، أو تلاحسان فلا أمر بالاحسان
يستلزمه ، وإنما صرح به ليزيد رأفته سبحانه بالنساء ، وتأكيده تحذير الرجال
الاقوياء من ظلمهن وهضم حقوقهن ، وقد كرر هذا النهي ومنه قوله في سورة
النساء (٤ : ٢٠ وإن اردتم استبدال زوج مكان زوج وأنتم إحداهن قنطاراً
فلا تأخذوا منه شيئاً) الخ الآيتين . ومحل هذا الحكم اذا كان الزوج هو الذي
اختار فراق المرأة ورغب عنها ، وأما اذا كانت هي الزوجة عنه الطالبة لفراقه ،

(١) ألا إن محاكم مصر الشرعية قد خانت مذهب الحنفية بعد استقلال البلاد
دون الدولة العثمانية في كثير من أحكام الزوجية ومنها هذه المسألة

وخيف أن تتوسل اليه بالنشوز وسوء العشرة لكرهتها إياه أو لسوء خلقها ،
للمضاربة لها ، فلا جناح عليهما حينئذ فيما يأخذ منها لا طلاق سراحها ، إذ لا
يكلف خسارة امرأته وماله بغير ذنب منه ، ولذلك قال تعالى ﴿ إلا أن يخافان ﴾

لا يقيما حدود الله ﴿ التي حدها للزوجين من حسن المعاشرة والمائلة في الحقوق
مع ولاية الرجل ، والتعاون على القيام بأمر المنزل وتربية الأولاد وعدم المضاربة لقوله
(٦٥ : ٦) ولا تضاروهن لتضييقا عليهن) وغير ذلك ، وذلك بأن يخاف المرأة أن
تعصي الله في أمر زوجها فتكفره أو تخونه ، ويخاف هو أن يخرج عن الحد المشروع
في مؤاخذه النازح ، ويخاف معا سوء العشرة ﴿ فإن خفتم أن لا يقيما حدود الله فلا

جناح عليهما فيما افتدت به ﴾ الحرج الاثم أي لا جناح عليهما فيما تعطيه إياه ليعلمها لأن
طلبها الطلاق إنما يحظر لمنع هذا العذر ، ولا جناح عليه فيما يأخذ لأجل ذلك لأنه
يرضاها واختيارها من غير إكراه منه ولا مضاربة ، والخوف هنا على ظاهره وهو توقع
المكره ، وفسره بعضهم بالظن وبعضهم بالعلم ، وتوقع الشيء لا يكون الا بوجود
ما يدل عليه ، فإن كان الدليل قطعيا فهو من العلم والا فهو من الظن ، وقد جعل
بعض المفسرين الخطاب الأول للازواج والثاني للحكام ، وجعل بعضهم الخطاب
للحكام أولا وآخرًا لتناسق النظم بتناسق الضمائر ، ويقول الاستاذ الامام ان
الخطاب في مثل هذا الامة لأنها متكافلة في المصالح العامة ، وأولو الامر هم المطالبون
أولا وبالذات بالقيام بالمصالح ، والحكام منهم وسائر الناس رقباء عليهم . وقرأ
حمزة ويعقوب « يخافا » بضم الياء أي يتوقع الناس منها ذلك لظهور أماراته وآياته
وظاهر الآية أنه لا فرق في الخوف من عدم إقامة حدود الله بين أن يكون
مثاره الرجل أو المرأة وخصه بعض المفسرين بما إذا كان المانع من إقامتها من جانب
المرأة واختاره الاستاذ الامام على ما تقدم آنفا . وهذا هو الذي يتفق مع عدل
الاسلام ويدل عليه السياق ، إذ جعل هذا استثناء من تحريم أخذ الرجل المطلق
شيئا مما كان أعطاه امرأته

وينجلي هذا بعرض حالات الزوجين الثلاث على العقل والعدل : فما ان أقاما

حدود الله تعالى بحسن المعاشرة وأداء كل منها حق الآخر الا ما كان من شذوذ يتسامح فيه عادة ، فلا خوف ولا فراق ، وان عرض لها ما يمتنع اقامتها ، فلا بد أن يكون العارض المانع من قبل أحدها أو كليهما ، فان كان من قبل الرجل بأن أبغض المرأة أو فتن بغيرها واحب فراقها لغير ذنب منها أو جب ذلك وخاف أن لا يعاملها بما يجب من المعروف ، وان تقابل به بمثل ذلك فله أن يسرحها باحسان ، لان عقدة الزوجية بيده ، وليس له أن يأخذ في هذه الحالة بما كان أعطاها شيئاً بالنص ، وهو (٢٠: ٤) وان أردتم استبدال زوج (الآية فان التحريم فيها مبني على ما إذا كان الرجل هو الذي أراد الطلاق

وان كان المانع من قبلها كأن أبغضته بغضا لا تستطيع الصبر عليه والقيام معه بحقوق الزوجية ، وخافت أن تقع في الذنور ، ويسرف هو في العقوبة ، فمن العدل أن تعطيه ما كانت أخذت منه باسم الزوجية ليحل عقدها ، فلا يحسر ماله وزوجته معا . عملاً بالرخصة في الآية اذ تعين حمله عليها . ونفي الجناح عنهما في هذه الحالة ظاهر في الرجل وجعله بعضهم بمعنى المفرد خلفائه عليهم في جانب المرأة ، وما هو يخفي فان المرأة يذم منها شرعاً وعرفاً أن تضرب الطلاق ، وقد رفع عنها الجناح فيه بهذا العذر ، وهو عليها بتعذر اقامة حدود الله في الزوجية .

وقد يقال ان هناك حالة ثالثة وهي ان يكره كل منهما الآخر ويود فراقه : ونقول ان المطلوب في هذه الحال الصبر لقوله تعالى (٤ : ١٩) فان كرهتموهن فمضى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً) فان صبر أحدهما دون الآخر جاء الوجهان السابقان ، وان اتفقا على الفراق خوفاً من الشقاق ، ورضيت المرأة بأن تعطيه شيئاً صدق عليها أنها هي الطالبة للفسخ . وجملة القول أنه لا يجوز للرجل أن يأخذ منها شيئاً الا برضاها واختيارها من غير إبداء منه ولا مضارة ، وبدل على هذا ماورد في نزول الآية

أخرج البخاري والنسائي وابن ماجه وابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس أن جميلة بنت عبد الله بن سلول امرأة ثابت بن قيس بن شماس أتت النبي ﷺ فقالت يا رسول الله : ثابت بن قيس ما أعتب عليه في خلق ولا دين ، ولكن

لا أطيعه بغضا ، واكره الكفر في الاسلام (أي كفر نعمة العشير وخيانتها) قال « أتريدن عليه حديثه » قالت نعم قل « قبل الحديقة ، وطلقها تطليقة » ولفظ ابن ماجه فأمره أن يأخذ منها حديثه ولا يزداد . وذكر السيوطي في أسباب النزول من رواية ابن جرير عن ابن جريج أن قوله (ولا يحل لكم أن تأخذوا) الخ نزل في ذلك . وقد زعم بعض العلماء أن هذه الآية منسوخة بآية النساء التي لا استثناء فيها ، ولا دليل على ذلك والجمهور على خلافه .

وهذا الفراق المبني على الافتداء يسمى الخلع وقد اختلف فيه العلماء هل هو طلاق أم فسخ ؟ ولكل مذهب أدلة ليس التفسير بمحل لها ، ويترتب على هذا الاختلاف في عدة من الطلاقات الثلاث أم لا ، وفي عدة المختلعة فلجمهور على أنها كعدة المطلقة ، وفي حديث ابن عباس عند أبي داود والترمذي والنسائي والحاكم أن النبي ﷺ أمر امرأة ثابت بن قيس أن تعتد بحبضة ومشله حديث الربيع يثبت معوذ عند الترمذي

ثم ختم الآية بوعيد من يخالف هذه الاحكام فقال ﴿ تلك حدود الله فلا تعتدوها ﴾ أي هذه الاوامر والنواهي هي حدود الله للمعاملة الزوجية فلا تتجاوزوها بالخالفه ﴿ ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون ﴾ الذين صار الظلم وصفا لازما لهم متمكنا من أنفسهم دون الملتزمين لها والظلم آفة العمران ومهلك الامم ، وإن ظلم الأزواج للأزواج أعرق في الفساد وأعجل في الاهلاك من ظلم الأمير للرعية ، لأن رابطة الزوجية أمتن الروابط وأحكم ، فتلا في الفطرة ، فإذا فسدت الفطرة فسادا انتكث به هذا القتل ، وانقطع هذا الحب ، فأي رجاء في الامة من بعده ، ينفع عنها غضب الله وسخطه ؟ ثم إن هذا الظلم ظلم للنفس يؤدي إلى الشقاء في الآخرة كما أنه مشق بطبيعته في الدنيا . وقد بلغ التراخي والانفصام في رابطة الزوجية لعمدنا هذا مبلغا لم يعهد في عصر من العصور الاسلامية ، فأسرف الرجال في الطلاق ، وكثر نشوز النساء واعتداؤهن من الرجال بالخلع ، فساد

الطهارة في الزوجين ، واعتداء حدود الله من الجانبين ^{١١} وقد ورد في كراهة الطلاق في الشرع ما هو مشهور وورد مثله أيضاً في طلب المرأة له كحديث ثوبان عند احمد وأبي داود والترمذي وابن ماجه وابن جرير والحكم والبيهقي قال : قال رسول الله ﷺ « أيما امرأة سألت زوجها الطلاق من غير ما بأس فحرام عليها رائحة الجنة » فطلب الطلاق وانخلع محظور في غير حال الضرورة المنصوصة في الآية ، ولكنه يقع ، قال البيضاوي والجمهور استكرهوه ولكن نفذوه

(٢٣٤) فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ ، فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ

بعد أن بين الله سبحانه وتعالى أن الطلاق مرتان وأنه يكون بلا عوض

وقد يكون بعوض قال ^{١٢} فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره ^{١٣} أي فإن طلقها بعد المراتين طلقة ثالثة - وهي التسريح باحسان - فلا يملك مراجعتها بعد ذلك إلا إذا تزوجت بأخر زواجا صحيحا مقصودا حصل به ما يراد بالزواج من الغشيان. قال الاستاذ الامام عبر عن الطلقة الثالثة بان دون اذا للاشعار بانها لا ينبغي أن تقع مطلقا كانه تعالى لا يرضى أن يتجاوز الطلاق المراتين ، والنكاح له إطلاقان العقد وما وراء العقد وهو المقصود منه الذي يكفى عنه بالدخول. وقد ذهب سعيد بن المسيب إلى أن الحل يحصل بمجرد العقد، وهو خلاف ما عليه الجماهير من الصحابة والتابعين ومن بعدهم إذ قالوا لا بد من المخاطبة الزوجية أخذاً من إسناد النكاح

(١) قد تفاقم أمر هذا الفساد فزاد على ما كان في الزمن الذي كتبنا فيه ما هنا أضعافا وهتك النساء حجب الصيانة والحياء . وأسرفن في التبرج والاختلاط بالرجال . فكثرت الطلاق وقل الزوج . وعمت الشكوى من نتائج هذه الفوضى في الآداب والنبد للدين . وشعر الكثيرون بسوء عواقبها ، ولكن لا يرجع أحد عن

إلى المرأة مع العلم بان المرأة لا تتولى العقد ومن تسمية من تنكح زوجا . وهذا هو الموافق لحديث العسيلة الصحيح والمنطبق على الحكمة في منع المراجعة

روى لشافعي وأحمد والبخاري ومسلم وغيرهم من حديث عائشة قالت جاءت امرأة رفاعة القرظي إلى رسول الله ﷺ فقالت : اني كنت عند رفاعة فطلقني فبنت طلاق فتنزوجني عبد الرحمن بن الزبير وما معه إلا مثل هدية الثوب ، فتبسم النبي ﷺ وقال « أتريدن أن ترجعي إلى رفاعة ؟ لا حتى تذوقي عسلته ويذوق عسلتك » والعسيلة كناية عن أقل ما يكون من تغشي الرجل للمرأة . وذكر السيوطي في أسباب النزول ان هذه الآية نزلت في امرأة رفاعة هذه واسمها عائشة بنت عبد الرحمن بن عتيك ورفاعة بن وهب ابن عتيك بن عمار . وساق الحديث من رواية ابن المنذر عن مقاتل بن حيان وفيه انها قالت انه طلقني — أي عبد الرحمن زوجها الثاني — قيل أن يسمى فأرجع إلى الاول ؟ قال « لا حتى يمسن »

وقال المفسرون والفقهاء في حكمة ذلك انه اذا علم الرجل أن المرأة لا تحل له بعد أن يطلقها ثلاث مرات إلا اذا نكحت زوجا غيره فانه يرتدع لانه مما تأباه غيره الرجال وشهامتهم ، ولا سيما إذا كان الزوج الآخر عدواً أو منافراً للاول ، ولنا أن نزيد على ذلك ان الذي يطلق زوجته ثم يشعر بالحاجة اليها فيرجعها نادماً على طلاقها ، ثم يمقت عسرتها بعد ذلك فيطلقها ، ثم يبدو له ويرجع عنده عدم الاستغناء عنها فيرجعها ثنية ، فانه يتم له بذلك اختبارها ، لان الطلاق الاول ربما جاء عن غير روية تامة ومعرفة صحيحة منه بمقدار حاجته إلى امرأته ، ولكن الطلاق الثاني لا يكون كذلك ، لانه لا يكون إلا بعد الندم على ما كان أولاً والشعور بأنه كان خطأ ، ولذلك قلنا ان الاختبار يتم به فاذا هو راجعها بعد ذلك ترجيحاً لامساكها على تسريحها ، ويبعد أن يعود إلى ترجيح التسريح بعد أن رآه بالاختبار الشام مرجوحاً ، فان هو عاد وطلق ثالثة كان ناقص العقل والتأديب ، فلا يستحق أن تجعل المرأة كره بيده يقدفها متى شاء تقلبه ويرجمها متى شاء هواه ، بل يكون من الحكمة أن تبين منه ويخرج أمرها من يده ، لانه علم ان لاثقة بالثناءهما واقامتهما حدود الله تعالى . فان اتفق بعد ذلك أن تزوجت برجل آخر عن رغبة

واتفق أن طلقها الآخر أو مات عنها ، ثم رغب فيها الاول وأحب أن يتزوج بها . — وقد علم أنها صارت فراشا لغيره — ورضيت هي بالعود اليه ، فإن الرجاء في الثباتها وإقامتها حدود الله تعالى يكون حينئذ قويا جديداً ، ولذلك أحلت له بعد العدة ، وقد شرحنا الحكمة بناء على ما فسرنا به كون الطلاق مرتين ، وكون النكاح لزوج آخر هو ما يكون بين الزوجين بالعقد الصحيح وهو الحق .

﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا﴾ الزوج الثاني ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ أي الزوج الثاني والمرأة ﴿أَنْ يَتَرَاجَعَا﴾ هذا ما اختاره الاستاذ الامام خلافاً للجلال وغيره من القائلين ان المراد الزوج الاول والمرأة قول وحكته بعد قوله تعالى (وبعولتهن أحق بردهن) هي إزالة وهم من يتوهم ان الزوج الاول يكون أحق بها ولا تظهر لنا حكمة في قولهم ان المراد الزوج الاول والمرأة . وعلى كل من القولين لابد في التراجع من مراعاة شرطه وهو قوله ﴿إِنْ ظَنَّا أَنْ يَقِيََا حُدُودَ اللَّهِ﴾ أي نرجح عند كل منهما أنه يقوم بحق الآخر على الوجه الذي حده سبحانه وتعالى ، فلا بد من حسن القصد وسلامة النية من كل من الزوجين ، لأن الله تعالى ما وضع هذه الحدود للزوجين إلا ليصالح حالهما ويستقيم عليهما ، فإن كانت هناك نية سوء فن هذا التراجع لا قيمة له عند الله تعالى ، وإن صح عند القاضي أو المفتي عملاً بالظاهر . وقد فسر بعضهم الظن هنا بالعلم ، ولا وجه له لغة ولا فعلاً إذ لا يعلم أحد باليقين كيف يعامل الآخر في المستقبل ويكتفى أن ينوي إقامة الحدود الشرعية ويغلب على ظنه القدرة على تنفيذ ما نواه . قال ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يَبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ الإشارة بتلك إلى الاحكام في الآية أو الآيتين يبينها في كتابه لاهل العلم بفائدتها وما فيها من المصلحة ، ومن علم المصلحة في شيء كان مندفعاً يطبعه إلى العمل به وإقامته على الوجه الذي تتحقق به الفائدة منه ، يبينها لهؤلاء الذين يعلمون الحقائق لانهم هم الذين يقيمونها لا من يحيل ذلك فيأخذ بظاهر قول المفتي أو القاضي ولا يجعل لحسن النية وإخلاص القلب مدخلاً في عمله ، فيرجع إلى المرأة ويضم لها السوء وبعيها لانتقام ، وقد بينا معنى هذه الحدود في تفسير (ولهن مثل الذي عليهن) فأرجع اليه إن كنت نسيت

ألا فليعلم كل مسلم أن الآية صريحة في أن النكاح الذي تحل به المطلقة ثلاثاً هو ما كان زوجها صحيحاً عن رغبة، وقد حصل به مقصود النكاح لذاته، فمن تزوج بامرأة مضطقة ثلاثاً بقصد إحلالها للاول كان زواجه صحيحاً غير صحيح، ولا تحل به المرأة للاول، بل هو معصية لعن الشارع فاعلها، وهو لا يمين من فعل فعلاً مشروعاً ولا مكروهاً فقط، بل المشهور عند جمهور العلماء أن اللعن إنما يكون على كباثر المعاصي، فإن عادت إليه كانت حراماً، ومثل ذلك مثل من طهر الدم بالبول، وهو رجس على رجس. وبهذا قال مالك وأحمد والثوري وأهل الظاهر وخلائق غيرهم من أهل الحديث والفقه، وقال الاستاذ الامام أن نكاح التحليل شر من نكاح المتعة وأشد فساداً وجرأً وقال آخرون من الفقهاء أنه جائز مع الكراهة لم يشترط في العقد لأن القضاء بالظواهر، لا بالمقاصد والضمائر، نقول نعم ولكن الدين القيم هو أن يكون الظاهر عنوان للباطن وإلا كان نفاقاً، على أن باغي التحليل ليس بمنزوح حقيقة الزواج الذي شرعه الله وبيّنه لا عند نفسه ولا عند من أرادوه على التحليل وتواطأ معه عليه، فإن عذر القاضي المنفذ له بحمله للواقع عملاً بالظاهر، فلا يندر به العالم به، والمفتور له. وقد أوضح ذلك الحافظ الفقيه ابن القيم في (اعلام الموقعين) أم لايضاح (*) ومن غرائب الانتصار للتقيد أن استدلل بعضهم (كالا لوسي) على صحة نكاح الحمل بتسميته محلاً في الحديث الناطق بتحريم التحليل، وإنما سماه بذلك عن أرادوه أول مرة عند حاجتهم إليه، وبعد التسمية سئل عنه الشارع فلم يجز عمله ولا يصح أن تكون حكاية لفظ الاسم، مبطلة لمضمون الحكم، قالوا هم الذين سموا، والشارع هو الذي حرم، كما ترى في حديث ابن عباس الآتي، وإننا ثبت هذا ما أورده ابن حجر المكي في الزواج من الاخبار والآثار في تحريم التحليل قال: أخرجه أحمد والنسائي وغيرهما بسند صحيح عن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال «ألا أخبركم بالتيس المستعار» قالوا بلى يا رسول الله قال «هو الحمل لعن الله المحلل والحمل له» قال الترمذي والعمل على ذلك عند أهل العلم منهم عمر وابنه وعثمان رضي الله عنهم وهو قول الفقهاء من التابعين. وروى (*) (راجع بحث تحريم التحليل في ص ٥٦٤ من مجلد المنار السادس)

أبو اسحاق الجوزجاني عن ابن عباس رضي الله عنهما قال سئل رسول الله ﷺ عن المحلل فقال « لا ، إلا نكاح رغبة لاداسة ولا استمراء بكتاب الله عز وجل ثم تذوق العسيلة » وروى ابن المنذر وابن أبي شيبة وعبد الرزاق والاثرم عن عمر رضي الله عنه أنه قال : لا أتى بمحلل ولا محلل له إلا رجتهما ، فسئل ابنه عن ذلك فقال كلاهما زان ، وسأل رجل ابن عمر فقال ما تقول في امرأة تزوجتها لأجلها زوجها ثم يأمرني ولم يعلم ؟ فقال له ابن عمر : لا ، إلا نكاح رغبة إن أعجبتك أمسكتها وإن كرهتها فرفقتها ، وإن كنت لتعد هذا سفاحا على عهد رسول الله ﷺ وسئل عن تحليل المرأة زوجها فقال ذلك هو السفاح . وعن رجل طلق ابنة عمه ثم ندم ورغب فيها فأراد أن يتزوجها رجل ليحياها له فقال : كلاهما زان وإن مكثا عشرين سنة أو نحوها ، إذا كان يعلم أنه يريد أن يحياها . وسئل ابن عباس رضي الله عنهما عن طلق امرأته ثلاثا ثم ندم فقال : هو رجل عصى الله فأندمه وأطاع الشيطان فلم يجعل مخرجاً ؟ فبيل له فكيف ترى في رجل يحياها له ؟ فقال من يخادع الله يخدعه » اهـ

وأنت ترى مع هذا أن رذيلة التحليل قد فشت في الاشرار الذين جعلوا رخصة الطلاق عادة ومثابة ، ولا سيما مع الفتوى والحكم بأن الطلاق مرة واحدة يلفظ الثلاث يقع ثلاثا ، اتخذ خوفاً المسلمين دينهم هزواً ولعباً ، فصار الاسلام نفسه يعاب بهم وما عيبه سواهم . وقد رأيت في لبنان رجلاً نصرانياً ولع بشراء الكتب الاسلامية وغيرها وأكثر من النظر فيها ، فاهتدى إلى حقيقة الاسلام مع النيل إلى التصوف ، فأسلم ، وقال لي لم أجد في الاسلام غير ثلاثة عيوب لا يمكن أن تكون من الله أقبحها مسألة (التجديش) أي التحليل فيبنت له الحق فيها فافتنع

(٢٣١) وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلِّغْنَ أَجْلَهُنَّ فَأُمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرَّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ، وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضَرَاراً لِّتَعْتَدُوا ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ، وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا ، وَإِذَا كُروا

نِعْمَةُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ
يُعِظُكُمْ بِهِ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ

هذا حكم جديد غير ما تقدم في قوله (الطلاق مرتان فامساك بمعروف أو تسريح بإحسان) فهذه الآية بيان للواجب في معاملة المطلقات ونهي عن ضده ووعيد على هذا النضد ، وإرشاد إلى المصلحة ، والحكمة في الانتهاز بذلك الأمر والانتهاز عن هذا النهي . وتلك بيان لكيفية الطلاق المشروع وعدده وكون الاصل فيه أن يكون بغير عوض ، وكون أخذ العوض من المرأة لا يحل إلا بشرط ، ولا يناق في هذا ما ورد في سبب ازوها وذكرناه في تفسيرها وهو أتيق بهذه ، فإن هذه الآيات كلها نزلت في ابطال ما كان عليه الناس من سوء معاملة النساء في الطلاق ، فجميع الوقائع التي كانت تقع على العادات الجاهلية كانت تعد من أسباب النزول لها ، وقد ورد في أسباب نزول هذه ما نقله السيوطي في كتابه عن ابن جرير وهو في معنى رواية الترمذي والحاكم هناك قال : اخرج ابن جرير من طريق العوفي عن ابن عباس قال كان الرجل يطلق امرأته ثم يراجعها قبل انقضاء عدتها ثم يطلقها ثم يفعل ذلك يضارها ويعضلها فأنزل الله هذه الآية . وأخرج عن السدي قال نزلت في رجل من الانصار يدعى ثابت بن يسار طلق امرأته حتى انقضت عدتها الا يومين أو ثلاثة راجعها ثم طلقها مضارة فأزل الله تعالى (ولا تمسكوهن ضرارا) (لنعتدوا) اهـ ولا تحسبن أن قوله تعالى (ولا تمسكوهن) نزل وحده بل القول فيه كالقول في مجموع هذه الآيات ، في مسائل الطلاق نزلت كلها مرة واحدة فيا يظهر من سياقها ، ولكن بعد وقوع حوادث جعلت من أسبابها

الاجل في قوله تعالى ﴿ وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَّغْنِ أَجَلَهُنَّ ﴾ هو زمن العدة ومعنى بلغن أجلهن فاربن اتمام العدة ، قال القرطبي هذا اجماع لم يفهم أحد من الآية غيره ، وهو مبني على قاعدة ما قارب الشيء يعطى حكمه مجوزا قرينه العرف : يقول المسافر بلغنا البلد أو وصلنا اليه إذا دنا منه وشارفه . وقوله ﴿ فَامْسِكُوهُنَّ ﴾

بمعروف أو سرحوهن بمعروف ﴿﴾ معناه فاعزموها أحد الأمرين - إمساك المرأة بالمرجعة أو اطلاق سبيلها - وليكن ما تختارونه من أحد الأمرين بالمعروف الذي شرع لكم في آية الطلاق مرتان ﴿﴾ ولا تمسكوهن ضراراً لاعتدوا ﴿﴾ أي ولا تراجعوهن إرادة مضارتهن وإبدائهن للاعتداء عليهن بتعمد ذلك ، فالضرار بمعنى الضرر وذکر بالصيغة التي تأتي للمشاركة للأشعار بأن ضرره إياها يستلزم ضررها إياه ، فالرجال يضررون أنفسهم بإبداء النساء ، ويؤيد هذا قوله ﴿﴾ ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه ﴿﴾ في الدنيا بسلوك طرق الشر والاعتداء التي لا راحة لضمير صاحبها ، وبجعل المرأة وعصبتها أعداء له يناصبونه وينابونونه ، والعدو القريب أقدر على الإيذاء من العدو البعيد ، وبتغيير الناس منه حتى يوشك أن لا يصاهره أحد ، وظلم نفسه في الآخرة أيضاً بما خالف أمر الله وتعرض لخطئه

ثم قال تعالى ﴿﴾ ولا تتخذوا آيات الله هزوا ﴿﴾ وهذا وعيد بعد وعيد ، وتهديد لمن يتعدى حدود الله في هذه الأحكام أي تهديد ، والسبب فيه حمل المسلمين على احترام صلة الزوجة ، وتوقي ما كانوا عليه في عهد الجاهلية ، فقد كانوا يتخذون النساء لعباً ، ويعيشون بطلاقهن وإمساكن عبثاً ، وفي أسباب النزول : أخرج ابن أبي عمر في مسنده وابن مردويه عن أبي الدرداء قال كان الرجل يطلق ثم يقول لعمت ، ويعتق ثم يقول لعبت ، فأنزل الله (ولا تتخذوا آيات الله هزوا) أي أنزله فيما أنزل من آيات أحكام الطلاق ، لا أنه أنزله على حدة كما تقدم نظيره في نظيره . والمعنى لا تنهأونوا بحدود الله تعالى التي شرعها لكم في آية جرياً على سنن الجاهلية ، فإن هذا التهاون والاعتداء بالحدود بعد هذا البيان والتأكيد من الله تعالى يعد استهزاء بآياته . ومن هنا قال بعض السلف : المستغفر من الذنب وهو مصرّ عليه كالمتهم بربيه . ولا شك أن الذي يخالف أمر الله وينقض هذه المهمود بعد توثيقها طلباً لشهوة من شهواته ، أو استمساكاً جمادة من عاداته ، فهو جدير بأن يعد مستهزئاً بآيات الله غير مدعٍ لها بعد التحذير من انتهاون بحقوق النساء وجعل العايش بأحكام الله فيها مستهزئاً

بآياته — وفي ذلك من الوعيد والترهيب ما فيه — أراد تعالى أن يقرر هذه الاحكام في النفوس بباعث الترغيب فيها بالتذكير بفوائدها ومزاياها ، وبيان المنفعة في هداية الدين التي هي منها ، فقال ﴿ واذكروا نعمة الله عليكم ، وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به ﴾ أي امثلوا ما ذكر آفان من أمر ونهي ، وتذكروا ، فأما نعمة الله تعالى عليكم بالفطرة السليمة في الرابطة الزوجية المعبر عنها بقوله تعالى (٣٠ : ٢١) ومن آياته أن خلق لكم من انفسكم ازواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون) وما أنزله عليكم من آيات لاحكام المكملة للفطرة في الزوجية والحكمة فيها ، حال كونه يعظكم بالجمع بينها (أي الاحكام وحكمتها) فان معرفة الشيء مع حكمته هي التي تحدث العظة والعبرة الباعثة على الامثال . ولا يبعد أن تكون هذه الآيات النفسية هي المرادة بقوله تعالى (ولا تتخذوا آيات الله هزوا)

وقد افسد على الناس تلك المودة والرحمة ، وحجبهم عن الموعظة بالحكمة ، واضعف في نفوس الازواج ذلك السكون والارتياح ، غرور الرجال بالقوة وطغيانهم بالغنى ، وكفران النساء لنعمة الرجال ، وحفظ سيئاتهم ، وتماديهم في الدم لها والتبرم بها ، وما مضت به عادات الجاهلية في بعض المتقدمين وعادات التفرغ في المعاصرات والمعاشرين ، وقارب به الناس بعضهم بعضا ، فأنه سبحانه وتعالى ذكرنا أولا بنعمته علينا في أنفسنا لتزيج عن الفطرة السليمة ما غشها بسوء القدوة واتباع أهوى ، ونشكره له سبحانه بالحفاظ عليها بتمكن صلة الزوجية واحترامها وتوثيقها ، وتأنينا بهذا الدين القويم الذي هدانا إلى ذلك ، وحد لنا كتابه الحدود ووضع الاحكام مبينا حكمها وأسرها ، مؤيدا لها بالوعظ السائق إلى اتباعها ، وما ذكرنا بالكتاب هنا إلا لنجعل امامنا في تقويم الفطرة ، على ما مضت به السنة وعززته الحكمة ، وليكن قد اعرضنا عنه ، فمن نظر في شيء من هذه الاحكام فأنما ينظر فيما كتبه بعض البشر مما هو خلو من حكمة التشريع ، غير مقرون بشيء من الترغيب والترهيب ، فهو لا يثبت للنفوس عظة ولا ذكرى ، ولا يبعث في القلوب هداية ولا تقوى ، على

ان اكثر المسلمين لا ينظر فيها ، ولا يسأل العارفين بها عنها ، الا ان يكون لاجل الاستعانة على حقوق يهضمها ، او صلات يقطعها وعري يفصمها ، فهو يستغني غالباً . ليأمن مؤاخذه الحكماء ، لا ليقيم حدود الاسلام ، وإذا قام فيهم داع يدعو الى الله ، ويذكر المؤمنين بآيات الله ، ربه الرؤساء بسهام الملام ، وأغروا به السياسة . وهاجوا عليه العوام ، خائفين ان يحى ما امانوه من الاجتهاد في فهم الكتاب والسنة ، زاعمين انه يبطل مذهب الأئمة ، على ان انتد كبير هو الذي يحى علم المجتهدين ، لانهم كانوا مذكرين به ومبينين ، لا صادين عنه ولا ناسخين ، وما كل من اهدى يهديهم في التذكير والتبيين ، يلحقهم في الاستنباط والتدوين ، فيايبها العلماء احيوا كتاب الله ، فوالله انه لا حياة لهذه الامة بسواه ، ولذلك عادت بتترك هديه إلى عادات الجاهلية ، وما هو شر منها من اباحة الافرنج المصرية ، اتباعاً للهوى ونزغات البهيمية

هذا وان جمهور المفسرين فسروا نعمة الله هنا بالدين والرسالة ، وجعلوا ما انزل من الكتاب والحكمة تفصيلاً للنعمة المحمديّة . قال الاستاذ الامام (واذكروا نعمة الله عليكم) بارسل هذا الرسول ، وبيان الحدود والحقوق التي تحفظ لكم الهناء في الدنيا ، وتضمن لكم السعادة في الآخرة . وذكّر ان ما بعد هذا تفصيل له . وفسر الحكمة بسر الكتاب ، ثم قال وفي النعمة وجه آخر وهي هذه الرحمة التي جعلها الله بين الرجال والنساء ، رافق بها علينا في قواه (وجعل بينكم مودة ورحمة) وإنا اوردنا هذا الوجه أولاً بالبيان والتفصيل ، لانه هو المختار عندنا ، وذهب بعضهم الى ان النعمة هنا عامة تشمل نعم الدنيا والدين

﴿وانقوا الله﴾ أمر بعد كل ما تقدم من التأكيد والتشديد والتهديد بتقواه بامتثال أمره ونهيه زيادة في العناية بأمر النساء وصلة الزوجية وهو ما تقتضيه البلاغة في هذا المقام ، مقاومة لما ملك النفوس قبل ذلك من عدم البالاة بعقد الزوجية ، اذ كانوا يرونه كعقد الرق والبيع والاجارة في المتاع الخسيس والنفيس بل كانوا يرونه دون ذلك لأن الرجل لم يكن يشتري متاعاً يرمي به في الطريق زهداً فيه ، ولم يكن

يمسك قننه ليعذبه وينتقم منه ، ولكنهم كانوا يطبقون المرأة لادنى سبب ، كالثقل والغضب ، ثم يعودون اليها يفعلون ذلك مرة بعد المرة ، وكانوا يمسكونها للضرار والاهانة كما تقدم آفءاء ، وقد يستبدل الواحد منهم امرأة ، لا آخر بامرأته . فاعتيا هذه المعاملة السوءى والانسيبها لاتكون مقاومته لابتعظيم شأن عقد الزوجية والمباغة في تأكيده بالترغيب والترهيب ، والوعد والوعيد ، اذ لا يسهل على الرجل الذي كان يرى المرأة مثل الامة اودونها ان يساويها بنفسه بمجرد الامر ، ويرى لها عليه مثل ماله عليها ويحظر على نفسه مضارتها وابتداءها ويلتزم معاملتها بالمعروف في حل امساكها عنده وفي حال تسريحها ان اضطر اليه . ولكن هذه العظاات والتشديدات المشتملة على الاقناع وبيان المصلحة هي التي تعمل في نفسه ، وتؤثر بتكرارها في قلبه ، وإن كان كالحجارة في القسوة .

أما ترى الجبل يتسكراه في الصخرة الصماء قد اثرا
نعم إنه قد كان له احسن التأثير في اولئك الخارجين من ظلمات الجاهلية الى نور الاسلام ، وفيمن اتبعهم باحسان ، ثم خلف من بعدهم خلف اعرضوا عن القرآن ، وجعلوا ما فيه من الحكم والاحكام ، حتى صاروا شرا مما كان عليه اهل الجاهلية وسائر الامم من ظلم النساء ، فلم يتقوا الله في ذلك ولا تدبروا قوله بعد ما تقدم

وقوله ﴿ واعلموا ان الله بكل شيء عليم ﴾ وهو ابلغ في موضعه من كل ما تقدم من التأكيد والتشديد في حقوق النساء لان الانسان قد يراعي الاحكام الظاهرة بقدر الامكان بغير إخلاص فيطبق العمل على الحكم على وجه يعلم ان من ورأته ضررا . فهذه الجملة تذكره بأن الله تعالى لا يخفى عليه شيء مما يسره العبد او يعلمه ، فلا يرضيه الا التزام حدوده والعمل بأحكامه ، مع الاخلاص وحسن النية ، حتى يكون ظاهره كباطنه في الخير ، ولا يتم له ذلك الا بمراقبة الله تعالى في عمله ، والعلم اليقين بأنه مطلع عليه فيه : لا يبيت قولا او فعلا ، ولا ينوي خيرا او شرا ، ولا يطوف في ذهنه خاطر ، ولا يخرج في قلبه حاجة ، الا وهو سبحانه عالم بذلك ومطلع عليه

فلا طريق له إلى مرضاة ربه إلا بتطهير قلبه، وإخلاص نيته في معاملة زوجته، وفي سائر المعاملات، قال الأستاذ الإمام رحمه الله تعالى: من حسنت نيته حسن عمله غالباً، بل كان موفقاً دائماً: أقول ومن التوفيق أن يستفيد من خطئه الذي لم يرد به سوءاً، فيعرف كيف يتوقى مثل هذا الخطأ، ويزداد بصيرة في الخير، فليزن المؤمنون أنفسهم بميزان هذه الآية الكريمة وامثالها وهي الموازين القسط، ليعلموا أن منشأ فساد البيوت وشقاء المعيشة هو الاعراض عن هدى الكتاب المبين، وأنه لا سبيل إلى السعادة إلا بالرجوع إليه، وفقنا الله لذلك بمنه وكرمه

(٢٢٢) وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلْيُغْنِ أَجَلُهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ بَيْنَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، ذَلِكَ لَكُمْ أَرْكَى لَكُمْ وَأَطْيَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ

﴿وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلْيُغْنِ أَجَلُهُنَّ﴾ الاجل آخر المدة المضروبة والمراد به انقضاء العدة لا قربها كافي الآية التي قبلها. قال الامام الشافعي رحمه الله تعالى: دل سياق الكلامين على افتراق البلوغين، ذلك ان الامساك بمعروف والتسريح بمعروف في الآية السابقة لا يتأتى بعد انقضاء العدة، لان انقضاءها إمضاء للتسريح، لا محل معه للتخير، وإنما التخير يستمر إلى قرب انقضاءها، والنهي عن العضل في هذه الآية يقتضي ان المراد ببلوغ الاجل انقضاءها إذ لا محل للعضل قبله لبقاء العصمة

﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ﴾ حكم جديد غير الاحكام السابقة هو تحريم العضل أي منع المرأة من الزواج، وقد كان من عادات الجاهلية أن يتحكم الرجال في تزويج النساء إذ لم يكن يزوج المرأة إلا وليها، فقد يزوجها بمن تكره ويمنعها ممن يحب لمحض الهوى. وقال المفسرون ان الرجال المطلقين كانوا يفعلون ذلك: يتحكم

الرجل بمطلقة فيمنعها أن تزوج أئمة وكبراً أن يرى امرأته تحت غيره ، فكان يصد عنها الأزواج بضروب من الصد والمنع ، كما كان يراجعها في آخر العدة لاجل العضل ، وقد أثبت الاسلام الولاية للأقربين وحرم العضل وهو المنع من الزواج ، وأن يزوج الولي المرأة بدون إذنها ، فجمع بين المصلحتين

وقد اختلف المفسرون في الخطاب هنا ، فقيل هو للأزواج أي لا لعضلوا مطلقاً تنكح أيها الأزواج بعد انقضاء العدة ان ينكحن أزواجهن ، واضطر أصحاب هذا القول الى جعل الأزواج بمعنى الرجال الذين سيكونون أزواجاً . وقيل هو للأزواج والاولياء على التوزيع ، وقالوا لا بأس بالتفكيك في الضمائر لظهور المراد وعدم الاشتباه ، وقيل للاولياء واستدلوا بما ورد في سبب نزول الآية في الصحيح . أخرج البخاري وأصحاب السنن وغيرهم بأسانيد شتى من حديث معقل بن يسار قال كان لي أخت فأتاني ابن عمي فأنكحها إياه فكانت عنده ما كانت ثم طلقها فطلقته ولم يراجعها حتى انقضت العدة ففويها وهويته ، ثم خطبها مع الخطاب ، فقلت له يا كعم أكرمتك بها وزوجتكها فطلقتها ثم جئت لخطبها ؟ والله لا ترجع اليك أبداً وكان رجلاً لا بأس به وكانت المرأة تريد أن ترجع اليه فعلم الله حاجته اليها وحاجتها اليه فأنزل الله هذه الآية (قل) ففي نزول فكفوت عن يميني وأنكحتها إياه وفي لفظ فلما سمعها معقل فل سمعاً لولي وطاعة ، ثم دعاه فقل : أزواجك وأكرمك وذلك ان النبي ﷺ دعاه فقل عليه الآية . ومن هنا تعرف خطأ من قال ان اسناد السكاح الى النساء هنا يفيد أنهم من اللواتي يصدقن السكاح ، فان هذا الاسناد يطبق في القديم والحديث على من زوجها وإياها . كانوا يقولون : نكحت فلانة فلانا كما يقولون حتى الان تزوجت فلانة بفلان ، وإنما يكون العاقد وليها . ولم تكن أخت معقل حاولت ان تعقد على زوجها فتمنعها وانما طلبها الزوج منه فتمنع أن ينكحها إياه . فصدق عليه انه منعها أن تنكح زوجها ، ونزلت فيه الآية وفهمها النبي ﷺ والصحابة وغيرهم من العرب كالامام الشافعي بهذا المعنى

وفي الخطاب وجه ثالث رجحه الشيخ شري واختاره الاستاذ الامام هنا وسبق له مثله وهو انه الامة لانها متكافلة في المصالح العامة على حسب الشريعة كأنه

يقول يا أيها الذين آمنوا إذا وقع منكم تطليق للنساء واقضت عندهن وأراد
أزواجهن أو غيرهم أن ينكحوهن وأردن من ذلك فلا تعضلوهن أن ينكحن أي
لا تمنعهن من الزواج . وعلى هذا الوجه يأخذ كل واحد حظه من الخطاب
للمجموع ، وقدم لهذا الخطاب فظائر ومنها خطاب بني اسرائيل في عصر التنزيل
بما كان من آباؤهم في زمن موسى وما بعده مسنداً إليهم . والحكمة في هذا الخطاب
العام هنا أن يعلم المسلمون انه يجب على من علم منهم بوقوع المنكر من اولياء النساء
أو غيرهم ان ينهوه عن ذلك حتى يفي الى امر الله ، وانهم اذا سكتوا على المنكر
ورضوا به يأثمون . والسر في تكافل الامة ان الافراد اذا وكلوا الى انفسهم
فكثيراً ما يروجحون أهواءهم وشهواتهم على الحق والمصلحة ، ثم يقتدي بعضهم
ببعض مع عدم النكير ، فيكثر الشر والمنكر في الامة فهلاك ، في التكافل
والتعاون على ازالة المنكر دفاع عن الامة ، ولكل مكلف حق في ذلك ، لان
البلاء اذا وقع فانه يصيبه سهم منه . قال تعالى (٧٨:٥) لعن الذين كفروا من بني
اسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ٧٩ كانوا
لا يفتأهون عن منكر فلوه لبئس ما كانوا يفعلون)

ثم قال (إذا تراضوا بينهم بالمعروف) أي إذا تراضى مریدو الزوج من
الرجال والنساء ، بأن رضي كل من الرجل والمرأة بالآخر زوجاً . وقوله (بينهم)
يشعر بأن لا نكر في أن يختلط الرجل المرأة إلى نفسها ويتفق معها على الزواج بها
ويحرم حينئذ عضلها أي امتناع الولي أن يزوجها منه إذا كان ذلك التراضي في
الخطبة بالمعروف شرعاً وعادة ، بأن لا يكون هناك محرم ولا شيء يخل بالمرودة
ويلحق العار بالمرأة وأهلها ، وقد استدلل الفقهاء بهذا على أن العضل من غير الكف
غير محرم كأن تريد الشريعة في قومها أن تزوج رجل خسيس يلحقها منه

(١) أقول إنه قد ظهر لي في آيات التشريع في الاسلام وجه آخر هو أن
سلطان الحكم والتميز فيها للامة في جملة ما وقد بسطت هذا في تفسير (٥٩:٤) يا أيها
الذين آمنوا أطيعوا الله) الخ ثم ذكرته في مواضع أخرى حتى القواعد التي
استنبطتها من سورة البقرة

الغضاضة ، ويمس ما تقومها من الشرف والكرامة ، فينبغي أن تصرف عنه بالوعظ
والنصيحة . ويجيز بعض الفقهاء العضل إذا كان المهر دون مهر المثل وقال الاستاذ
الامام إذا أرادت المرأة أن تتزوج بأقل من مهر مثلها ، ولم يكن الحامل على ذلك
فساد الاخلاق المسقط للكرامة أو اتباع الهوى وإرضاء الشهوة بل كان ميلا إلى
رجل مستقيم يرجى منه حسن العشرة وصلاح المعيشة ، إلا أنه يعسر عليه دفع
مهر كثير مع نفقات الزوج الأخرى ، فلا يجوز حينئذ العضل بل يجب تزويجه
(وأقول) ان مسألة مراعاة الكفاة بين الزوجين عرف معروف بين العرب
وغيرهم من الامم ولا سيما الملوك والامراء ، ولا يوجد سبب يحمل الرجال والنساء
على الاخلال به كالمشقة ، فكم من ملك أو أمير تزوج راقصة أو مغنية أو ممثلة
للقصص عاشقه لها وان أدى ذلك إلى ترك الملك أو استحقاقه ، وان من العشق
ما هو مسقط للكرامة والشرف ومنه ما ليس كذلك ، فالأول يعذر جمهور الناس
من ابتلى به دون الثاني ، والفرق بينهما معروف والمدار في مسألة الكفاة على
العرف القومي والوطني لا على تقاليد بيوت شرفاء النسب والجاه وكبريانهم فما
يعدده الجمهور اهانة للمرأة تكون مضرة في الافواء وعاراً على بيتها فهو الذي يبيح
لأوليائها المنع منه ، اذا لم يكن الفضل سبباً لمفسدة شر منه ، فالمسألة من أحكام
المصالح التي تختلف بحسب الزمان والمكان لا تعبدية ولا يجوز إكراه المرأة على الزواج
بمن تكره مطلقاً

ذلك بوعظه من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر (الوعظ النصيح والتذكير
بالحق على الوجه الذي يرق له القلب ويبعث على العمل . أي ذلك الذي
تقدم من الاحكام والحدود المقررة بالحكم والترغيب والترهيب يوعظ به أهل
الايمان بالله والجزاء على الاعمال في الآخرة فان هؤلاء هم الذين يقبلونه ويتعظون
به فتخشع له قلوبهم ، ويتحرون العمل به قبولاً لتأديب ربهم ، وطلباً للانتفاع
به في الدنيا ، ورجاء في مشوبته ورضوانه في الآخرة . وأما الذين لا يؤمنون بما
ذكر حق الايمان كالمعطلين والمقلدين الذين يقولون آمناً بأفواههم لانهم سمعوا
قومهم يقولون ذلك ولم تؤمن قلوبهم لانهم لم يتأقوا أصول الايمان بالبرهان، الذي

يملك من القلب مواقع التأثير ومسامك الوجدان ، فاز وعظهم به عبث لا ينفع ، وقول لا يسمع ، لأنهم يقعون في معاملة النساء أهواءهم ، ويقلدون ما وجدوا عليه آباءهم وعشراءهم .

والآية تدل على أن الأيمان الصحيح يقتضي الممل وقد غفل عن هذا الاكثر من . وقرره الأئمة المحققون ، كحجة الاسلام الغزالي وشيخ الاسلام ابن تيمية والمحقق الشاطبي والاستاذ الامام رحمهم الله تعالى . قل شيخنا هنا : كأنه يقول من كان مؤمناً فلا شك أنه يتعظ بهذا . يشير إلى أن من لم يتعظ ويعمل بها فليس بمؤمن : وتدل على أن احكام الدين حتى العادات منها ينبغي أن تساق إلى الناس مساق الوعظ المحرك للقلب ، لأن تسرد سرداً جافاً كما ترى في كتب الفقه

في ذلكم أزكى لهم وأطهر . الزكاه النماء والبركة في الشيء ، والمشار اليه في (ذاك) هو النهي عن عضل النساء بعبده وشرطه ، والمراد أنه مزيد في تمام متبعيه وصالح حالهم ما بعده مزيد يفضل به وأنه أطهر لأعراضهم وأنسابهم ، واحفظ لشرفهم وأحسابهم ، لأن عضل النساء والتضييق عليهن مدعاة لفسوقهن ، ومفسدة لاخلاقهن ، وسبب لفساد نظام البيوت وشقاء الداراري ، مثل في نفسك حال امرأة كأخت معقل بن يسار تزوجت برجل عرفها وعرفته ، فأحبها وأحبته ، ثم غضب مرة وطلقها ، وبعد انقضاء العدة ندم على ما فعل ، وأحب أن يعود إلى امرأته التي تحب ، واعتادت لانس به والسكون اليه ، فعضلها وليها اتباعاً لهواه ، واعتزازاً بسلطته ، ألا يكون ذلك مضية لولدها ومغواة لها ؟ ومثل أيضاً ولياً يمنع موليته من الزواج بمن تحب وبزوجها بمن تكره اتباعاً لهواه أو عادة قومه ، كما كانت العرب تفعل ، وانظر أترجو أن يصلح حالهما ، ويقبأ حدود الله بينهما ؟ أم يخشى أن يغويها الشيطان بالآخر ويغويه بها ، ويستدرجها في الغواية فلا يقمان إلا عند نهاية حدودها ؟ وهكذا مثل كل مخالفة لهذه الاحكام تجدها مفسدة .

وقد كان الناس لجهلهم بوجوه المصالح الاجتماعية على كمالها ، لا يرون للنساء شيئاً في صلاح حياتهم الاجتماعية وفسادها ، حتى علمهم الوحي ذلك ولكن الناس لا يأخذون من الوحي في كل زمان إلا بقدر استعدادهم ، وان ما جاء به القرآن

٤٠٦ المؤكدات الثلاث لتحريم عضل الرجال للنساء عن الزواج (التفسير ج ٢)

من الاحكام لاصلاح حال البيوت (العائلات) بحسن معاملة النساء لم تعمل به الامة على وجه الكمال ، بل تسبت معظمه في هذا الزمان ، وعادت إلى جهالة الجاهلية . ولهذا الجهل السابق ولتوهم الذين يسيئون معاملة النساء من الرجال انهم يفعلون ما هو مصلحة لهم ومحافظة على شرفهم ، ختم هذه المواعظ والاحكام والحكم بقوله (والله يعلم وانتم لا تعلمون) اي يعلم سبحانه ما لكم في ذلك من الزكاه والطهر وسائر المصالح ودفع المفاسد وانتم لا تعلمون ذلك كله عما صحيحاً خالياً من الاهواء والالوهام ، واعتزاز الرجال بقدرتهم على التحكم في النساء ، ولذلك ذكركم في أثر النهي عن عضل النساء عن الزواج بهذه اثلاث (١) انها موعظة يتعظ بها من يؤمن بالله واليوم الآخر (٢) انها أزر كي لكم واطهر لأعراضكم (٣) ان الله يعلم كل ذلك كغيره وانتم لا تعلمون) وهذه آيات علمه ظاهرة فان البشر من جميع الامم لا من العرب وحدهم يهتدوا إلى هذه الاحكام المنزل في هذه السورة النافعة فاختبارهم الطويل ، بل عززت حكماتها عن نفوس الاكثرين بعد أن نزل الوحي بها فلم يعملوا بها ، وكان يجب على المؤمن الذكي أن يقيمها على وجهها ملاحظاً فوائد لها ، وعلى المؤمن العبي أن يسلم أمر ربه بها تسليماً وان لم تظهر له فائدها في الدنيا اكتفاء بأن الله تعالى يعلم من ذلك ما لا يعلم هو .

وههنا أنه وأذكر القارى لهذا التفسير بأن من أظهر ما تفضل به هداية الوحي ما هو صحيح وحسن من حكمة البشر أن المؤمن بالوحي يتبع هدايته سواء أعلم وجه المنفعة فيها أم لا ، فينتفع بها كل مؤمن ، وأما حكمة البشر فلا ينتفع بها إلا من فهمها واقتنع بصحتها وبأن العمل بها خير له من تركه .

والذين يجولون هذه المزية لهداية الدين من غير أهل يفضلون هداية الحكمة البشرية عليها بأن متبعها يترك الشر لانه شر ضار ، ويفعل الخير لانه خير نافع ، وأن متبع الدين يفعل ما لا يعقل له فائدة . وهذا غلط أو مغالطة ، فان الدين قد جاء بالحكمة مؤيدة بالكتاب كما قال (يتلو عليهم آياته ويعلمهم الكتاب والحكمة) فمن جمع بين الكتاب والحكمة فهو المؤمن الكامل ، ومن عجز عن فهم حكمة الاحكام والآداب فية من عاجي وبليد أو حديث عهد بالاسلام لم يفهمه وقد هدي

إلى الايمان أن يترك الشر ويفعل الخير لأن الذي نهاه عن الاول وأمره بالثاني هو الله ، وهو أعلم منه ومن كل حكماء خلقه

ر من دقائق البلاغة في الآية اختلاف الخطاب بالإشارة فانه لما جعل الوعظ بما ذكر من الاحكام والحكم خاصا بمن يؤمن بالله واليوم الآخر وجه الخطاب به إلى النبي ﷺ بقوله (ذلك يوعظ به) الخ واما كونه اذكي واطهر فقد جعله عاما وخطاب به الناس كافة بقوله (ذلكم) الخ وقد تقدم توجيه الاول واما توجيه الثاني فهو ان كل من عمل بهذه الاحكام فانها تكون زكاه له وبركة في بيته وذريته ، وطهراً لعرضه وشرفه سواء أوعظ بتلك الآيات فانه لا يمانه أم عمل بها لسبب آخر بأن بلغته غفلا من الموعظة غير مسندة إلى الوحي او قلبها بعض العامة ، وكون الخطاب بقوله (ذلك) للنبي ﷺ هو احد الوجوه التي ذكروها فيه . قل البيضاوي في توجيهه انه على طريقة قوله (٦٥ : ١) يا ايها النبي اذ اطلقتم للادلة على ان حقيقة المشار اليه امر لا يكاد يتصوره كل احد : اه وقيل الخطاب للجميع على تأويل القميل وقيل لكل احد ، وقيل لمرد الخطاب والفرق بين الحاضر والمنقضي دون تعيين الخططين ذكر ذلك كله في البيضاوي ، وسأل الفخر الرازي : لم وجد السكاف في قوله تعالى (ذلك) مع انه يخاطب جماعة ؟ واجاب بأن هذا جائز والثنية ايضا جائزة والقرآن نزل باللغتين جميعاً قل تعالى (١٢ : ٣٧) ذلكما هما معني زني) وقال (١٢ : ٣٢) فذلك الذي لم تنفي فيه) الخ ما اورد وهو جواب عنهم . وهم فان الثنية هنا واردة في خطاب الاثنين ، والجمع المؤنث واردة في خطاب النسوة اللاتي قطعن ايديهن فلا يصح شيء مما ذكره في هذا المقام . والمعروف في الاستعمال ولعله مراده ان السكاف المفردة تستعمل في كل خطاب سواء كان مخاطب مفرداً او مثنى او جمعا وهي لغة بعض العرب ، فذا تحول المتكلم عنها وجب ان يكون كلامه على حسب المخاطبين . تقول للرجل « ذلك » بفتح السكاف وبكسره المرفوعة وذلكما الاثنين مطلقاً وذلكم للذكور وذلكن للاناث وهي لغة قریش

(٢٣٣) وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنَسِّمَ الرِّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ، لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارُّ وَالِدَةُ بَوْلِدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَالِدِهِ، وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ، فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا، وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تُنَسِّرُ صَبُوحًا أَوْلَدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذْ سَلَسْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ، وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ

هذا انتقال من أحكام الطلاق إلى أحكام الرضاعة، وكلاهما من أحكام البيوت (العائلات) الهادية إلى كيفية التعامل بين الأزواج من المعاشرة بالمعروف وتربية الأطفال، فمن ثم عطف على ما قبله. والمفسرين في قوله (والوالدات) ثلاثة أقوال (القول الأول) أنه خاص بالمطلقات لوجوه (أحدها) أن الكلام السابق في أحكامهن وهذا من نعمته (ثانيها) إيجاب رزقهن وكسوتهن على الوالد ولو كن أزواجاً لما كان هناك حاجة إلى هذا الإيجاب لأن النفقة على الزوج التي في العصمة واجبة الزوجية لا للرضاع (ثالثها) أن المطلقة عرضة لإهمال العناية بالولد وترك إرضاعه لأنه يحول دون زواجها في الغالب ولما فيه من استغناء بالرجل ولا سيما الذي لم يتيسر له استئجار ظئر^١ تقوم مقام الوالدة. وهذا وجه (رابع) لترجيح هذا القول ظهر لي الآن وهو تعليل الحكم بالنهي عن المضاربة بالولد وإنما تضار بذلك المطلقة دون التي في العصمة فيبين أن المطلقة الحق في إرضاع ولدها كسائر الوالدات وأنه ليس المطلق منعها منه وهو عرضة لهذا المنع

[القول الثاني] أنه خاص بالوالدات مع بقاء الزوجية قال المأخذي في هذا

(١) الظئر بالكسر الناقة تعطف على فضيل غيرها ثم أطاق على المرأة الأجنبية تحضن ولد غيرها وترضعه، وعلى الرجل الحاضن أيضاً، وجمعه أظأرك يحمل وأحمال ويقال للنسار ظئار أيضاً

اقول هو الاولى لان المطابقة لاستحقاق الكسوة وانما تستحق الاجرة ، واقول
ان هذا الترجيح مرجوح لا يلتفت اليه لانه مبني على الاحتجاج بقول الفقهاء على
القرآن وهذا القول أضعف الاقوال

[القول الثالث] انه عام في جميع المطلقات ، وقال كثيرون انه اوفى عملاً
بظاهر اللفظ فهو عام لادليل على تخصيصه ، ويكون الرزق والكسوة أي النفقة
خاصا ببعض افراد الامام وهن اولدات المطلقات . وقال بعضهم ان استئجار
الام الارضاع صحيح ، وعبر عن الاجرة بلرزق والكسوة ، وقيل انه ليس في
الآية ما يدل على أن الرزق والكسوة لاجل لرضاع . وأنت ترى ان هذا
خلاف المتبادر من الآية ، ونحن لانستفيد من جمل الآية عامة ، زيادة عما
نستفيد مجعها خاصة ، الا أنه يجب على غدير المطلقة من إرضاع الولد مطلقاً أو
بشرطاً ، ما يجب على المطلقة بالنس ، وانه من حقوقها أيضاً ، وهذا يؤخذ من
الآية اذا حملت على التخصيص بالطريق الاولى ، عني ان القائنين بانعموم لم
يقولوا بهذا الوجوب مطلقاً كما يأتي ، ولا أذكر عن الاستاذ الامام ترجيحاً أو
اختياراً في هذه المسألة

قوله تعالى ﴿ ولو اللذات يرضعن أولادهن ﴾ أمر جاء بصيغة الخبر للبالغة
في تقريره على نحو ما تقدم في قوله (والمطلقات يتربصن) وزعم بعضهم انه خبر
على بابه أي ان شأن اولدات ذلك ، وأنت ترى انه لا فائدة في الاختيار عن
المواقع المعلوم للناس في مقام بيان الاحكام ، وكأن صاحب هذا القول أراد أن
يقري به قول الفقهاء الذين يرون انه لا يجب على الوالدة إرضاع ولدها إلا اذا
تعينت مرضعاً بأن كان لا يقبل غير ثديها كما يهتد من بعض الاطفال ، أو كان
الوالد عاجزاً عن استئجار ظئر ترضعه ، أو قدر ولم يجد الظئر ، على ان هؤلاء
الفقهاء لم يروا جمل الخبر بمعنى الامر مانعاً من حكمهم هذا ، فقد حملوه على التنب
في حال الاختيار ، قالوا لان لبن الام أنفع للولد من لبن الظئر ، وخاصة اذا لم
يكن ولد الظئر في سنه ، والظاهر أن الامر للوجوب مطلقاً فالاصل انه يجب على

الام إرضاع ولدها واختاره الاستاذ الامام ، يعني إن لم يكن هناك عذر ماقع من مرض ونحوه ، ولا يمنع الوجوب جواز استئابة النظر عنها مع أمن الضرر ، لأن هذا الوجوب للمصلحة لا للتعبد ، فهو كالنفقة على القريب بشرطها ، فإذا انتفى الوالدان على استئجار ظئر ورأيا أنها تقوم مقام الوالدة فلا بأس كما في مسألة الفصال الآتية .

كما يجب على الام إرضاع ولدها يجب لها ذلك بمعنى انه ليس الوالد أن يمنحها سنة . ولأن يمنع الرجل مطلقته من إرضاع ولدها منه إن أبيح له ذلك أقرب من أن يمنح هي عن إرضاعه ، وكان الذي يتبادر إلى فهمي أن المقصود من الجملة أولا وبالذات هو أن من حقوق الوالدات أن يرضعن أولادهن ، وما لمطلقات إلا الوالدات فيجب تمكنهن من إرضاع أولادهن المدة التامة للرضاع وهي كما حددها فيرضعنهم ﴿حولين كاملين﴾ والحول العام والسنة ، وهو في الأصل مصدر حال يحول إذا مضى وإذا تغير وتحول فالعام والحول يطلقان على صيغة وشتوة كاملتين وأما السنة فهي تهتدي من أي يوم عدده من العام الى مثله اهـ ملخصا من المصباح وقد حددت مدة الرضاعة التامة بسنتين كاملتين مراعاة للغطرة بالنسبة إلى ضعف الاطفال في أول البيوت أو البيئات استعدادا للعناية بالتربية ، واللبن هذا الغذاء الموافق لكل طفل في هذه المدة وهذه المدة هي التي تثبت بها حرمة الرضاعة في النكاح ، ومن العجب أن ترى الفقهاء اختلفوا في مدة الرضاعة بعد تحديد الله سبحانه لها فقال بعضهم هي ثلاثون شهرا ، وقال بعضهم ثلاث سنين ، ولكن الجماهير على أن مدتها التامة لا تزيد على حولين كاملين وقد تنقص إذا رأى الوالدان

ذلك لأن قوله تعالى ﴿لمن أراد أن يتم الرضاعة﴾ أجاز لاقتصار على مادون الحولين ولم يحدد أقل المدة ، بل وكاه إلى اجتهاد الوالدين الذي تراعى فيه صحة الطفل ، فمن الاطفال السريع النمو الذي يستغنى عن اللبن بالطعام اللطيف قبل تمام الحولين بمدة أشهر ، ومنهم القمي البطيء النمو الذي لا يستغنى عن ذلك ، وقد استنبطوا من قوله تعالى في سورة الاحقاف (٤٦ : ١٥) وحمله وفصاله ثلاثون

شهرًا) أقل مدة الحمل بناء على أن الحولين أكثر مدة الرضاعة فإن ما يبقى بعد طرح شهر الحولين من ثلاثين شهرًا هو ستة أشهر وهي أقل مدة الحمل . روي هذا عن علي وابن عباس رضي الله عنهما وقالوا لعل الحكمة في تحديد المدتين — أكثر الرضاعة وأقل الحمل — هي انضباطهما دون ما يقابلهما ، وقد يقال اننا نطرح مدة الحمل الغالبة وهي تسعة أشهر من مجموع مدة الحمل والفصال وهي ثلاثون شهرًا ، فالباقى وهو واحد وعشرون شهرًا ينبغي أن يكون أقل مدة الرضاعة ، الظاهر أن معنى قوله (لمن أراد أن يتم الرضاعة) ذلك لمن أراد إتمامها ، ولذلك قلنا إن الأمر موكول إلى اجتهد الوالدين فاللام متعلق بمحذوف ، وقيل إنه متعلق بقوله « يرضعن » أي أنهم يرضعن هذه المدة لمن أراد إتمامها من المولود فلم يعم الآباء ، فيكون الأمر لهم في ذلك خاصة ، وسيأتي ترجيح الأول في قوله « فإن أراد فصلا »

وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف ﴿ المولود له هو الأب ووجه اختيار هذا التعبير على لفظ الوالد والأب هو الأشعار بأن الاولاد لا بانهم ، لهم يدعون واليهم يذهبون ، وأن لامهات أوعية مستودعة لهم كما قال المأمون :

وإنما أمهات الناس أوعية مستودعات وللآباء أبناء

وهذا الذي قاله المأمون لا يصح إلا على العرف الجاهلي ، وهداية الاسلام أن الولد لوالديه يتفاسان تربيته بحسب فطرة كل منهما وحقوق الزوجية التي تقدم بيان حفظ كل منهما فيها ، فالتعبير بالمولود له مقابل التعبير بالوالدات واختير لتنبهه على عنة وجوب النفقة كأنه يقول إن هؤلاء الوالدات قد حملن وولدن لك أيها الرجل ، وهذا الولد الذي يرضعنه ينسب اليك ، ويحفظ سلسلة نسبك من دونهن ، فعليك أن تنفق عليهن ما يكفين حاجات المعاش عن الطعام واللباس ليؤمنن بذلك حق القيام ، فاختيار لفظ « المولود له » هنا على لفظ الأب والوالد هو الذي تقضي به البلاغة قضاء مبرما ، وبه يستفاد مالا يستفاد بهما ، وأين تجد هذه الدقة في غير القرآن العزيز ؟

والمراد بكون هذه النفقة بالمعروف أن تكون كافية لائقة بحال المرأة في قومها وصنفها. لا تلحقها غضاضة في نوعها ولا في كيفية أدائها اليها، وتقدم أن هذا يرجح أن المراد بالوالدات المطلقات منهن، وقد عبر عن النفقة هنا بالرزق والكسوة الواجبين للمرأة بمقتضى الزوجية دون الاجرة حتى لا يتوهم أن كل واحدة تجب لها الاجرة على إرضاع ولدها، لأن الكلام بديء بلفظ «الوالدات» وأما في سورة الطلاق فقد عبر بلفظ لاجرة إذ قال (٦٥:٦) فإن أرضعن لكم فآتوهن أجورهن) لأن الكلام هناك في المطلقات لا يشمل غيره، فلا إيهام في اختيار اللفظ الاخصر. ولو توجه ذهن إلى فهم الآية غير مثقل بأقوال الفقهاء لما فهم غير هذا منها ومن فهمها مجردة غير محمولة على مذهب معين لا يحتاج إلى الكلام في جواز استئجار الام للرضاع مطلقاً وعدمه وهي في النكاح أو العدة، إذ لا يتبادر من الآية أن لام يجب عليها إرضاع ولدها عند عدم المانع الشرعي، ويجب لها ذلك أيضاً كما تقدم أنقاء وأن المطلقات إذا كن والدات يجب أن ينفق عليهن مدة الارضاع لما تقدم، وهن في هذه المدة إما بائنات ولعله لاكثر لندرة طلاق أم الطفل، ولا خلاف في جواز استئجارهن حينئذ وإما معتدات يجب لهن النفقة لعدم خروجهن من عصمة النكاح وقد استشكلوا استحقاق هؤلاء الاجرة على الارضاع، ولا إشكال في وجوب الشيء بسببين، ولا تكرار في نصي الوجوب، لأن كل واحد منهما جاء في موضعه، وله صورة منفردة بها، إذ المعتدة قد تكون والدة وغير والدة، والرضع نسكون بانسبة ومعتدة، وكل منهما مشغولة بمصلحة الرجل المطلق شغلاً يمنعها من زواج يعقنها عن نفقتها، لأن المرضع قلما يرغب فيها وقلما ترغب هي في الزواج، ثم انها لا تستحق ولدها إذا تزوجت

ولما كان المكافون من الرجال يتفاوتون في الاعسار واليسار بالنفقة فمنهم من لا يقدر على اللائق بالمرأة في عرف الناس ومنهم من يقدر على أكثر من ذلك..

عقب تعالى هذا الامر بقوله ﴿لَا تَكْفِ نَفْسٌ إِلَّا رِيسَهَا﴾ فسر بعضهم الوسع بالطاقة وهو غلط لأن الوسع ضد الضيق وهو ما تنقسم له القدرة ولا يبلغ

استقرأها ، وأما الطاقة فهي آخر درجات القدرة فليس بعدها إلا العجز المطلق كأنها آخر طاقة - أي فتلة من الطاقات التي يتألف منها الجبل ، والمعنى ان المطلوب التوسع في النفقة من السعة أي بحيث لا ينتهي إلى الضيق . وقد بسط هذا الأبحار في سورة الطلاق بقوله تعالى في هذا المقام (٧٠٦٥) لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاهها سيجعل الله بعد عسر يسراً)

ولا تضار والدته ولدها ولا مولود له بولده ﴿قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب﴾ «لا تضار» بالضم تبعاً لقوله «لا تكلف نفس» والباقون بالفتح وكلاهما جائز في اللغة ، وهو نهي عن المضارة صريح ، والأول نهي في المعنى خبر في اللفظ ، وقالوا ان الكلام تفصيل لما يفهم من سابقته وتقريب له إلى الفهم . والصواب انه يفيد مع تعليل الأحكام السابقة حكماً جديداً عاماً ، فنزع الرجل المرأة من إرضاع ولدها وهي له أرم ، وبه أرف ، وعليه أحن وأعطف ، أضرار بها بسبب ولدها ، والتضييق عليها في النفقة مع الإرضاع إضرار بها بسبب ولدها ، وامتناعها هي من إرضاعه تعجيزاً للوالد بالتماس الظئر أو تكليفه من النفقة فوق وسعه أضرار به بسبب ولده فالعلة في الأحكام السابقة منع الضرر من الجانبين باعطاء كل ذي حق حقه بالمعروف ، وهو يتناول تحريم كل ما يأتي من أحد الوالدين للضرر بالآخر ، كأن تقصر هي في تربية الولد البدنية او النفسية لتغيظ الرجل ، وكان يمنعه هو من أمه ولو بعد مدة الرضاع او الحضانه ، فالعبارة نهي عام عن المضارة بسبب الولد لا يقيد ولا يخص بوقت دون وقت أو حال دون حال أو شخص دون شخص . وكلمة «تضار» تحتل البناء للفاعل والبناء للمفعول وهي المشاركة وإنما اسندت إلى كل واحد من الوالدين للايدان بأن أضرارها جالاً خربسبب الولد إضرار بنفسه ، ومنه أنه يتضمن ضرر الولد أو يستلزمه ، وكيف تحسن تربية ولد بين أبوين ثم كل واحد منهما ايداء الآخر وضرره به . والنهي عن المضارة في هذا المقام يؤيد القول بأن الكلام في الودات المطاقات كما تقدم أما قوله ﴿وعلى الوارث مثل ذلك﴾ فمعطوف على قوله (وعلى المولود له

رزقهن وكسوتهن بالمعروف) وما بينهما معترض للتعليل أو التفسير لما قبله من كون ذلك بالمعروف ون أنقاد حكما جديدا . وقد اختلفوا في الوارث هل هو وارث المولود له أي الأب لأن الكلام فيه ؟ أو وارث الولد لأنه ولية يجب عليه نفقته ؟ واختلف القائلون بأن المراد وارث الأب هل هو عام أو خاص بعصيته ، أو بالولد نفسه ؟ أي أن نفقة ارضاعه تكون من ماله إن كان له مال والا فهي على عصبته . وقال بعضهم إن المراد بالوارث وارث الصبي من الوالدين أي وإذا مات أحد الوالدين فيجب على الآخر ما كان يجب عليه من ارضاعه والنفقة عليه . وكلّ يحتمله اللفظ ولعل الحكمة في هذا التعبير أن يتناول كل ما يصح تناوله أياه .

فإن أراد فصلا عن تراض منها وتشاور فلا جناح عليها في انفصال الفطام لأنه يفصل الولد عن أمه ويفصلها عنه فيكون مستقلا في غذائه دونها ، والمراد أنه لما كان ما ذكر من تحديد مدة الرضاعة وكون الحق فيها للوالدة ، وكونها تستحق الاجرة عليها إذا كانت مطلقة ، كل ذلك لدفع الضرر وتقرير المصلحة لا للتعب ، كالتوالدين صاحب حق المشترك في الولد والغيرة الصحيحة عليه . أن يقطعا قبل هذه المدة أو بعدها إذا اتفق رأيهما على ذلك بعد التشاور فيه ، بحيث يكونان راضيين غير مضارين به . وأقول إذا كان القرآن يرشدنا إلى المشاورة في أدنى أعمال نربية الولد ولا يبيح لأحد والديه الاستبداد بذلك دون الآخر ، فهل يبيح لرجل واحد أن يستبد في الامة كله ؟ وأمر تربيتها وإقامة العدل فيها أمسر ، ورخصة الامراء أو الملوك دون رخصة الوالدين بالولد وأقص ؟ وقال أبو مسلم يحتمل انفصال معنى آخر وهو إيقاع المفاصلة بين الأم والولد أي بأن ترضى هي بضمه إلى أمه يستأجر له ظمئرا ترضعه ويرضى هو بذلك لا يضار به أحدهما الآخر . وهذه المناسبة مناسبة الحكم بأن الحقوق الواجبات المتعلقة بالولد مشتركة بين والديه ولما الخيار في تقرير ما فيه المصلحة بالتراضى مع انتفاء الضرر ، أو مناسبة جواز فصل الطفل عن أمه برضاها ، ذكر حكم المسترضعات وهن الأظفار اللواتي يرضعن بالإجرة فقال

﴿ وان أردتم أن تسترضعوا أولادكم ﴾ يقال استرضعت المرأة الطفل اذا اتخذتها مريضاً له ويخطفون أحد المفعولين للعلم به فيقولون استرضعت الطفل كما يقولون استنجحت الحاجة من غير ذكر من استنجح، والمعنى ان أردتم أن تسترضعوا

أولادكم المراضع الاجنبيات ﴿ فلا جناح عليكم اذا سلمتم ما آتيتم بالمعروف ﴾ قل قتادة والزهرى أي اذا سلمتم ما آتيتم من ارادة الاسترضاع أي سلم كل واحد من لابيبن ورضي ، بأن كان ذلك عن اتفاق منهما وقصد خير ، وأرادة معروف من الامر ، فخطاب عام للوالدين والوالدات على سبيل التغليب ، كذا في فتح البيان . أو اذا سلمتم ما أردتم إيتاء المراضع من الاجور بالمعروف أي بالوجه الماريف المستحسن . شرعاً وعادة . وقال الاستاذ الامام المراد به . عطاء الاجرة المتعارفة وهي ما يسميه الفقهاء أجر المثل ، وفي هذا الشرط مصلحة الموضع ومصلحة الولد والوالد ، لأن الموضع اذا لم تعامل المعاملة الحسنة المرضية بأخذ أجرها تاماً لا تهتم برعاية الطفل ولا تعنى بارضاعه في المواقيت المطلوبة وبنظافته وسائر شأنه ، وإذا أوديت يتغير لينها فيكون ضاراً بالطفل ، والقول الاول مؤيد وموافق لما علم من كون الام أحق بارضاع ولدها كما تقدم ، والثاني لا يعارضه لأن الخطاب فيه يصح أيضاً أن يكون للأباء والامهات جميعاً ، والسكوت عن المصريح بالراضى والمشاورين الوالدين للعلم به ، وهو يشمل ما اذا كان هناك مانع منع الأم من الارضاع كمرض او حمل وقرأ ابن كثير وحده « آتيتم » مقصورة الالف من أي اليه إحساناً اذا فعله ، وروى شيبان عن عاصم (او تيم) أي آتاكم الله من الخير والمزاد الاجرة ، كذا قاتوا ، والا قرب أن معناه اذا سلمتم المراضع ما يؤتيتم من الولد المعروف ، بأن يتفق الوالدان او احدهما ان يستقل بالولد مع الموضع على ان تأخذ الولد الارضاعه بطريقة معروفة شرعاً وعادة مرضية لهما وها .

ثم ختم الآية بما يبعث على التزام أحكامها والمحافظة عليها فقال ﴿ واتقوا الله واعلموا أن الله بما تعملون بصير ﴾ أي التزموا ما ذكر من الأحكام مع توخي

حكمة كل منها ، واتقوا الله في ذلك فلا تفرطوا في شيء منها ، واعلموا علم اليقين أن الله بصير بما تعلمون في هذا كله وغيره ، فهو يحصى لكم علمكم ويحاز بكم عليه ، فإذا قتم بحقوق الاطفال بالراضى والتشاور واجتناب المضارة جعلهم قرة أعين لكم في الدنيا وسبباً للمثوبة في الآخرة ، وان اتبعتم أهواءكم وعمد الوالد الى مضارة الوالدة به وعمدت هي الى ذلك ، كان الولد بلاء وفتنة لطايف الدنيا ، وكانا بمعاملهما السيئ في أنفسهما وولدهما مستحقين لعذاب الآخرة .

قال الاستاذ الامام : جاء الامر الالهى بارضاع الامهات اولادهن على مقتضى العظرة ، فأفضل اللبن للولد لبن أمه باتفاق الاطباء : أي لانه قد تكون من دمها في أحشائها فلما برز الى الوجود تحول اللبن الذي كان يتغذى منه الرحم الى لبن يتغذى منه في خارجه ، فهو اللبن الذي يلائمه ويناسبه ، وقد قضت الحكمة بأن تكون حالة لبن الأم في التغذية ملائمة لحال الطفل بحسب درجات سنه ، ولذلك كان مما ينبغي أن يراعى في الظئر أن تكون سن ولدها كسن الطفل التي تتخذ مرضعاً له . وقال الاستاذ الامام ان لبن الموضع يؤثر في جسم الطفل وفي اخلاقه وسجاياه ولذلك يحتاط في انتقاء المراضع ويحتمل استرضاع المريضة والفسادة الاخلاق والآداب ، وللمكن لا يخشى من لبن الام وان كان بها علة في بدنها أو في أخلاقها لان ما يأخذه من طبيعتها فانما يأخذه وهو في الرحم فاللبن لا يزيد شيئاً . وهذا الذي قاله هو الاصل وهو لا ينافي أن تمنع الامهات من الارضاع أحياناً لسبب عارض في البدن أو النفس وهذا نادر وأما التدقيق في صحة الموضع وفي أخلاقها فيجب أن يكون مطرداً اذا كانت ظئراً لا أما . قال : اللبن يخرج من دم الموضع ويغضه الولد فيكون دماً له ينمو به اللحم ، وينشأ العظم ، فهو يشرب منها كل شيء من حسن وقبيح وقد لوحظ ان من يرضع من لبن الاثان يغلظ قلبه ، وكذلك لبن كل حيوان يؤثر على حسب حاله ، ولكن حياة الانسان نفسية عقلية أكثر مما هي بدنية ، جسمه مسخر لشعوره وعقله لذلك كان تأثير الانفعالات والصفات النفسية من الموضع في الرضيع أشد من تأثير الصفات البدنية ، وقد لاحظنا أن صوت الموضع قد ظهر في الولد الذي كانت ترضعه فكيف بأثار عقلها وشعورها .

وملكاتها النفسية . وقد نبه الفقهاء على هذا المعنى وحكاية إمام الحرمين فيه معروفة :
أقول ذكر المؤرخون أن أبا محمد عبد الجويني والد إمام الحرمين الشهير
(وسمه عبد الملك) كان ينسخ بالاجرة فاجتمع له من كسب يده شيء اشترى
به جارية موصوفة بالخير والصالح ، وكان يعطعها منه الى أن حملت بإمام الحرمين
وهو مستعر على تربيتها الحسنة وتغذيتها بالحلال ، فلما وضعته أوصاها أن لا تمكن
أحدًا من إرضاعه فاتفق أن دخل عليها يوما وهي متألمة والصغير يبكي وقد أخذته
امرأتهم جيرانهم وشاغلتها بشديها فوضع منها قليلا ، فلما رأى ذلك شق عليه وأخذه
إليه ونكس رأسه ومسح على بطنه وأدخل أصبعه في فيه ولم يزل به حتى قاء جميع
ماشربه ، وهو يقول يسهل على أن يموت ولا يفسد طبعه بشرب لبن غير أمه .
ويحكى عن إمام الحرمين انه كان يلحقه بعض الاحيان فترة في مجلس المناظرة فيقول
هذا من بقايا تلك الرضعة . فانظر الى هذه المبالغة في العناية بتربية الاطفال من
هؤلاء الائمة وقابله بتهاون الناس اليوم في أمر الولدان في رضاعتهم وسائر
شؤونهم ، حتى إن لامهات اللواتي فطرن الله تعالى عن التلذذ بارضاع أولادهن
والغبطة به قد صارنساء الاغنياء منهن برغبته عنه ترفعها وطعمها في السمن وبقاء الجمال ،
أو ابتغاء سرعة الحمل ، وكل هذا مقاومة للفطرة ومفسدة للنسل وقد فطن له من
عرف سنن الفطرة من الامم المرتقية بالعلم والتربية حتى يلفنا أن قبصرة الروسية
ترضع أولادها وتحرم عليهم المراضع

ألسنا نحن المسلمين أولى بهذه الآداب في الرضاع والتربية من غيرنا ؟ ان
كانت الفطرة تقضي به فديننا دين الفطرة ، وان كان العلم يدل عليه فقد علمنا
الله ذلك في كتابه وعلى لسان رسوله ، ولم نعرف ان ديننا أرشد الى ما أرشد اليه
ديننا من ذلك ، وان كانت القدوة هي التي يعمل عليها فقد علمت ما كان من أئمة
علمائنا في ذلك ، فاللهم وفق المسلمين الى الاهتداء بهذا القرآن ، ليتحققوا بحقيقة
الاسلام والايمان

(٢٣٤) وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ
بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ، فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ
عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْتُمْ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ
خَبِيرٌ (٢٣٥) وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا عَرَضْتُمْ بِهِ مِنْ خُطْبَةِ
النِّسَاءِ أَوْ أَكْنُتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ ، عَلِيمَ اللَّهُ أَنْكُمْ تَتَدَكَّرُونَهُنَّ
وَلَكِنْ لَا تُؤْاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا ، وَلَا
تَعْزَمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ ، وَاعْلَمُوا أَنَّ
اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ

لا يزال الكلام في أحكام النساء من حيث هن أزواج يسكن ويسرحن ،
فيراهن أو يبتن ، وفي حقوقهن حينئذ في ولادهن ، وكل هذا قد مر تفسيره
وقد ذكر في هاتين الآيتين أحكام من يموت بعولتهن ماذا يجب عليهن من الحداد
والاعتداد ومو تجوز خطبتهن ومتى يتزوجن ؟

قوله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ ﴾ أي يتوفاهم الله تعالى أي يفرض
أرواحهم ويميتهم قال تعالى في سورة الزمر (٣٩ : ٤٢) اللَّهُ يُتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ
مَوْتِهَا (فإذا حذف الفاعل أسند الفعل إلى المفعول هذا هو المستعمل الفصيح .
﴿ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا ﴾ أي يتركون زوجات والفصيح استعمال لفظ الزوج في كل
من الرجل وامرأته ويجمع في الاستعمال على أزواج قال تعالى في سورة الاحزاب
(٣٣ : ٦) وَأَزْوَاجَهُمْ آمَوَاتُهُمْ (والزوج في الاصل العدد المكون من اثنين وقد اعترف في
سمية كل من الرجل وامرأته « زوجا » ان حقيقة من حيث هو زوج مكون من
شبهتين المتحدتين فصار شيئاً واحداً في الباطن وإن كانا شيئين في الظاهر ، ولذلك وضع
لهما لفظ واحد ليدل على أن تعدد الصورة لا ينافي وحدة المعنى ، أريد أن هذا

اللفظ المشترك يشعر بأن من مقتضى الفطرة أن يتحد الرجل بامرأته والمرأة ببعها بمازج النفوس ووحدة المصلحة حتى يكون كل منهما كأنه عين الآخر .

وقوله تعالى ﴿ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرًا وَعَشْرًا ﴾ خبر لما قبله أي يتربصن بعد وفاتهم هذه المدة . وتقدم الكلام في مثله في تفسير قوله عز وجل « يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ شُحُورٍ » فارجع اليه إن كنت نسيت ما في التعبير من آيات البلاغة والمعنى أن عدة النساء الثلاثي عوت أزواجهن أربعة أشهر وعشر ليال ، لا يتعرضن فيها للتزواج بزينة ولا خروج من المنزل بغير عذر شرعي ، ولا يواعدن الرجال بالزواج ، وقد يتعارض هذا مع قوله تعالى في سورة الطلاق (٦٥: ٤) وأولات الاحمال أجلهن ان يضمن حملهن) فهل يقال إن ما هنا خاص بغير الحوامل ؟ أم ما هنا لك خاص بالمطلقات ؟ الظاهر الثاني لان الكلام هنالك في الطلاق والسورة سورته فهو خاص ، والآية التي نحن بصدد تفسيرها عامة في كل من يتوفى زوجها لان الله تعالى جعل عدتها طويلاً ، وفرض عليها الحدا على الزوج مدة العدة ، مع تحريم السنة الحدا على غير الزوج أكثر من ثلاثة أيام ، إلهام بحق الزوجية وتظلياً لشأنها ، ولكن الجمهور على القول الاول ، وان الحامل التي يموت زوجها اذا وضعت تنقضي عدتها ولو بعد الموت بيوم أو ساعة ، واحتجوا بحديث سبعة الاسلامية عند أبي داود قلها قالت إن النبي ﷺ أفناها بأنها حلت حين وضعت حملها ، وكانت ولدت بعد موت زوجها بنصف شهر ، ويروي عن علي وابن عباس (رضي الله عنهما) أنها تعند بأقصى الاجلين احتياطاً ، بأي الآية كانت عند الله هي المختصة للآخرى كانت عاملة بها ، ولا أحفظ عن الاستاذ الامام جرما بقول من هذه الاقوال ، ولكن الاحتياط الذي قال به الخبر ان لا ينكره مفكر

وقد بثل الاستاذ الامام في الدرس عن الحكة في كون عدة الوفاة أربعة أشهر وعشراً ، فأجاب ان مثل هذا ليس علينا أن نبحث عنه وإنما نبحث عما يشير الكتاب إلى حكمته إشارة ما . ويقول بعض الناس إن ما يحصل من فراق الزوج من الحزن والكآبة عظيم يمتد الى أكثر من مدة ثلاثة قروا . يستن يوماً فبراءة

الرحم إن كانت تعرف بهذه المدة فلا يكون استعراف براءته من الحمل مانعاً من
 الزواج، فبراءة النفس من كآبة الحزن تحتاج إلى مدة أكثر منها، والتعجيل بالزواج
 مما يسمى أهل الزوج ويفضي إلى الخوض في المرأة بالنسبة إلى ما ينبغي أن تكون
 عليه من عدم التفاهت على الزواج، وما يليق بها من الوفاء بالزوج والحزن عليه
 هذا ما حكاه عن بعض الناس جليلناه وزدناه توضيحاً^(١) فكان بياناً لحكمة
 الزيادة في عدة الوفاة على عدة الطلاق في الجملة لا لكونها أربعة أشهر وعشراً .
 وقد سألنا عن هذه الحكمة فأجبنا بجواب ذكر في المنار (ص ٧٥٣٩) واطلع عليه
 الأستاذ الامام فلم يذكره . قلنا بعد بيان حكمة العدة وما يجب من حداد المرأة على
 زوجها مانصه « وذهب أكثر المفسرين إلى أن الحكمة في تحديد عدة الوفاة بهذا
 القدر انه هو الزمن الذي يتم فيه تكوين الجنين ونفخ الروح فيه . ولا بد من مراجعة
 الأطباء في هذا القول قبل تسليمه . والظاهر لنا ان الزيادة لاجل الاحداد ولم يظهر
 لنا شيء قوي في تحديده ، ولكن هناك احتمالات منها انه ربما كان من عرف العرب
 أن لا ينتقد على المرأة إذا تعرضت للزواج بعد أربعة أشهر وعشر من موت
 زوجها فأقرهم الاسلام على ذلك ، لانه من مسائل العرف والآداب التي لا ضرر
 فيها . وقد كان من المعروف عندهم ان المرأة تصبر عن الزوج بلا تكلف أربعة
 أشهر وتتوق اليه بعد ذلك . ويروي أن عمر أمر أن لا يقب المجاهدون عن أزواجهم
 أكثر من أربعة أشهر بعد ان سأل أهل بيته . وإذا صح أن هذا أصل في المسألة تكون
 الزيادة الاحتياطية عشرة أيام والله أعلم بالصواب » اهـ

وسيمر بك قريباً من ذكر بعض عادات العرب في الحداد على الزوج وتشدته ، وما
 أصح الإسلام فيه ما يبطل التعليل الاول ، وظاهر الآية ان هذا التحديد لعدة
 الوفاة يشمل بعمومه الصغيرة والكبيرة ، والحرة والامة ، وذات الحيض واليائسة ،
 ولكن الفقهاء اختلفوا في أفراد من هذا الشمول كما اختلفوا في الحامل : فذهب الجماهير

(١) لفظه الذي قاله : ويقول بعض الناس ان ما يحصل من فراق الزوج فيه
 صعوبة لا تحق ، وبراءة الرحم وان كانت تعرف بالاقراء أو بستين يوماً ولكن زوجها
 طاجلاً مما يسمى أهل الزوج . الخ وقد بينا هذا مراعاة لآمانة النقل

إلى أن عدة الامة نصف عدة الحرة «شهران وخمس نيال» ولم ينقلوا في هذا خلافاً إلا عن الأصم وابن سيرين من فقهاء السلف . ولاصل في هذا هو انقياس على الحد فان الله تعالى يقول في سورة النساء بعد ذكر الزوج بالاماء (٢٥:٤) فاذا أحصن فان أتت بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب) وعلى حديث ابن عمر مرفوعاً عند ابن ماجه والدارقطني والبيهقي «طلاق الامة اثنتان وعدتها حيضتان» والحديث ضعيف في اسناده عمر بن شبيب وعطية العوفي، وقال الدارقطني والبيهقي والصحيح انه موقوف . واختلفوا أيضاً في عدة أم الولد يموت سيدها فقالت طائفة من علماء السلف عدتها أربعة أشهر وعشر ، وقال آخرون تمتد بثلاث حيض وعليه الحنفية . وقال آخرون منهم الامة الثلاثة عدتها حيضة أو شهر إذا لم تكن تحيض

﴿فاذا بلغن أجلهن﴾ أي أتممن عدتهن ﴿فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن بالمعروف﴾ مما كانت محظوراً عليهن في العدة من التزين ، والتعرض للخطاب ، والخروج من المنزل ، وقيد ذلك بالمعروف أي شرعاً وأدباً عرفياً ، لانهن إذا أتت بالمعكر وجب منعهن . واختلفوا في الخطاب هنا فقليل هو الاولياء لان هذا من مقدمات الزواج الذي يتولونه ، وقيل للمسلمين كافة يتولاه منهم من هو قادر عليه من العارفين به وهو المختار كما علم مما سبق له من النظائر

لانقل ان الآية لم تنطق بما يحظر على المرأة في هذه العدة، فنقول - ان نفي الجناح متعلق به ، فان ما علم من الناس بالسنة المتبعة والاخبار الصحيحة في أمر نزل فيه قرآن يتعين حل القرآن عليه . روى الشيخان من حديث حميد بن نافع عن زينب بنت أم سلمة انها أخبرته بهذه الاحاديث الثلاثة قالت دخلت على أم حبيبة حين توفي أبو سفيان (والدها) فعدت أم حبيبة بطيب فيه صفرة خلوق وغيره فدهنت منه جارية ثم مسّت بعارضها ، ثم قالت : والله مالي بالطيب من حاجة غير اني سمعت رسول الله ﷺ يقول على المنبر «لا يحمل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحد على ميت فوق ثلاث إلا على زوج أربعة أشهر وعشراً» قالت زينب وسمعت أمي أم سلمة تقول جاءت امرأة الى رسول الله ﷺ فقالت يا رسول الله ان ابنتي

توفي زوجها وقد اشتكت عنها أفنكحلها؟ فقال رسول الله ﷺ «لا» مرتين أو ثلاثاً - كل ذلك يقول «لا» ثم قال «إنما هي أربعة أشهر وعشر، وقد كانت إحداكن في الجاهلية ترمي بالبعرة على رأس الحول» قال حميد فقلت زينب: ماترمي بالبعرة على رأس الحول؟ فقالت زينب: كانت المرأة إذا توفي عنها زوجها دخلت حفشاً ولبست شراً ثيابها ولم تمس طيباً حتى تمر بها سنة، ثم تؤتى بدابة حمار أو شاة أو طير فتقتض به فقلما تقتض بشيء إلا مات، ثم تخرج فتعطي بعة فترمي بها، ثم تراجع بعد ماشاءت من طيب أو غيره. وروى أحمد والشيخان من حديث أم سلمة أن امرأة توفي زوجها فحشوا على عيناها فأتوا رسول الله ﷺ فاستأذنه في الكحل فمات «لا تكحل»، كانت إحداكن تمكث في أحلاسها أو شر بيتها فإذا كان حول فركاب رمت ببعرة - فلا، حتى تمضي أربعة أشهر وعشر» وفي رواية مطرف وابن الماجشون عن مالك «ترمي ببعرة من بعر الغنم أو الأبل فترمي بها أمامها فيكون ذلك إحلالاً لها»

فأنت ترى من هذه الأحاديث الصحيحة أن العرب على غلوها في الحداد، وكثرة منكراتها في النوح والندب، كانت تعتاد أموراً خرافية فيه، وكانت المرأة تحدد على زوجها شر حداد وقبحه، فتلزم شر أحلاسها في شر جانب من بيتها وهو الحفش سنة كاملة لا تمس طيباً ولا زينة ولا تبدو للناس في مجتمعاتهم، ثم تخرج من ذلك بما علمت. أما الأحلاس فهي جمع حلس (بكسر فسكون وبالتحريك) وهو في الأصل ما يكون على الظهر تحت القتب أو السرج أو البرذعة، ويطلق على الكساء الرقيق وعلى ما يجلس عليه من مسح ونحوه، والحفش بكسر المهملة وإيتم الصغیر المظلم داخل البيت ويسمون مثله في الحجرات الآن «خزنة» والاقتضاض بالدابة بالقاف هو المسح بها قيل كانت تمسح به جلدها وقيل ما هنا لك. قال ابن قتيبة سألت الحجازيين عن الاقتضاض فذكروا أن المعتدة كانت لا تمس ماء ولا تقلم ظفراً ولا تنزيل شعراً، ثم تخرج بعد الحول بأقبح منظر ثم تقتض أي تكسر ما كانت فيه من العدة بطائر تمسح به قبلها فلا يكاد يعيش ما تقتض به، أه والراد أنه يموت من نقعها. وأما عادة مرور السكب ورمي البعرة فظاهر الرواية أن المعتدة كانت في آخر العدة تنتظر مرور

الكلب اترميه بالبعرة وان طال الزمان وبه قال بعضهم، وقيل بل ترمي بها ما عرض من كلب أو غيره، وقالوا ان المعنى في ذلك عندهم أن ما فعلته من التبرص في تلك المشقة والجهد هو عندها بمنزلة البعرة التي رمتها احتقاراً له وتعظيماً لحق زوجها . وقيل هو إشارة إلى رمي العدة والتفلة منها . وقيل بل هو تغاؤل بعدم العود إلى مثلها وتمني أن تموت في كنف من عساه تتزوج به

إذا علمت هذا وأمثاله مما كانت عليه العرب من العادات السخيفة والخرافات الشائنة المهيبة للمرأة، يظهر لك شأن ما جاء به الاسلام من الإصلاح في ذلك، إذ جعل العدة على نحو الثلث مما كانت عليه، ولم يحرم فيها إلا الزينة والطيب، والتعرض لأنظار الخاطبين من مريدي الزواج، دون النظافة والجلوس في كل مكان من البيت مع النساء والمحارم من الرجال . وهذا الذي امر به الاسلام يليق ويحسن في كل شعب وجيل في كل زمن وعصر، لا يشق على بدو ولا حضر، وقد رأيت من سعة الدين وتكريمه للنساء قد كادت تناسي المسلمات ما لم يبعد العهد به من عاداتهن وتخرج بهن من كل قيد، حتى استأذن من استأذن منهن بالكحل بحجة الخيفة على العين من الموة (*) أو الرماد حتى ذكرهن صلوات الله عليهن بذلك .

واستشكل في الحديث المنع من الكحل للتداوي كما هو ظاهر من قولها « خشوا على عينها » مع ما علم من اصول الشريعة التي لا خلاف فيها من انتفاء العسر والخرج، ومن كون الضرورات تبيح المحظورات، وكون الضرر والضرار ممنوعين، ومن الترخيص في الكحل للتداوي بالليل دون النهار — لأن الليل أبعد من مظنة الزينة — في حديث الموطأ عن أم سلمة، وفيه أن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه قال « اجعليه بالليل وامسح به بالنهار » وحديث أبي داود « فتكثرين بالليل وتغاسين بالنهار » وأجيب عن حديث النهي المطلق بأجوبة منها حملة على كحل الزينة كأنه علم بالقرينة أن السؤال كان عنه أو لاجله، ومنها غير ذلك مما لا حاجة لاستيفائه هنا، وينبغي أن نتذكر أن الليل صار كالنهار في أمصارنا أو أشد إظهاراً للزينة

(*) المرء بالتحريك فساد الاجفان من ترك الكحل

هذا ما جاء به الاسلام من الاصلاح في هذه المسألة الاجتماعية ومن اراد الاعتبار فينظر إلى حظ المسلمين اليوم من هديه فيها . المستمعون لا يسيرون اليوم على طريقة واحدة وإنما هم طرائق قدد ، فمن نسايتهم من يغفلون في الحداد ، ويفرقن في النوح والندب والخروج من العادات في كيفية المعيشة بالبيوت حتى يزدن في بعض ذلك على ما كان يكون من نساء الجاهلية ، وليس هن في ذلك حد ولا أجل يتساوين فيها ، ولا يخص الزوج بما خصه به الشرع ، بل ربما حددن على الولد سنة أو سنين ، وربما تركن الحداد على الزوج بعد الاربعين ، يختلف ذلك فيهن باختلاف البلاد والطبقات والبيوت ، فإياكم نساء العصر الجديد الذين يرون ان أنفسهم ارتقت في المدينة والاجتماع الى أفق يستغنون فيه عن هدى الدين : هل تجدون لنا سبيلا الى اصلاح هذه العادات الرديئة في الحداد الذي لا حد له ولا نظام ، ولا قائمة فيه لأحد بل كله غوائل بما يغني من المال في تغيير اللباس والاثاث والرياش والماعون وغير ذلك ، وما يفسد من آداب المعاشرة ويسلب من هناء المعيشة ، وما يفعل في صحة الكثيرين ولا سيما ضعاف المزاج وأهل الامراض ؟ أصلحو لنا بعلومكم وفلسفتكم هذه العادات الرديئة بارحاعا الى ما قرره الشرع من الحداد ثلاثة أيام على القريب ، وأربعة أشهر وعشرا على الزوج ، ويجعل هذا الحداد قاصرا على ترك الزينة والطيب وعدم الخروج من البيت ، أو بما هو خير من ذلك ان أمكن ، والا فاعلموا أن لا اصلاح لنا الا بالاعتصام بهدى الدين الذي تحاربونه كل ساعة باعمالكم وخلالكم ، وعاداتكم ولذاتكم ، وما تحاربون الا أنفسكم وما تشعرون

﴿ والله بما تعملون خبير ﴾ محيط بدقائق عملكم لا يخفى عليه منه شيء فاذا ألزمت النساء لوقوف معكم عند حدوده أصلح احوالكم ، ورفه معيشتكم في الدنيا ، وأحسن جزاءكم في الآخرة ، وان لم تفعلوا أخذكم في الدارين أخذاً ريبلا (٧٢) : ٧٢ ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا)

ومن مباحث اللفظ في الآية أن الفصيح المستعمل في التعبير عن الموت بالتوفي أن يقال توفي فلان بالبناء للمفعول وعليه القراءة المتواترة في الآية « يتوفون »

وقرىء في الشواذ عن علي « يتوفون » بالبناء للفاعل وفسر يستوفون أجابهم .
فان معنى المتوفي أخذ الشيء وقبضه وأخيراً تمام . وكانوا يعدون التعبير عن الميت
بالمتوفي بصيغة اسم الفاعل لئلا يمتنع من قبض لا قابض ، كما روي عن أبي الاسود
الدؤلي انه كان خلف جنازة فقال له رجل من المتوفي ؟ فقال « لله تعالى » . وكان هذا
من أسما بأمس علي كرم الله وجهه إياه يوضع بعض أحكام النحو

ومنها مسألة انطابقة بين المبتدأ وهو « والذين يتوفون » والخبر وهو جملة
« يتربصن » فانها غير جلية على قواعد النحو ، وان كان المعنى جلياً ، وانما أليف
عربياً ، وقد قدر بعضهم لفظ زوجات مضافاً محذوفاً أي : وزوجات الذين يتوفون
منكم يتربصن الخ قال الأستاذ الامام ولا لزوم له أي لانه لا يكون معه فائدة لقوله .
« ويلدرون أزواجاً » مع ما فيه من التكلف ، ويروون عن سيبويه أن الخبر محذوف
تفسيره : فيما يتنى عليكم من حكم الذين يتوفون منكم . ورجح الأستاذ الامام ما قاله
السكاسي ومثله الاخفش وهو أن الرابط بين المبتدأ والخبر في مثل هذا التعبير هو
الضمير العائد الى الأزواج الذي هو من متعلقات المبتدأ فهو راجع الى المبتدأ
كأنه قال « والذين يتوفون منكم ويلدرون أزواجاً يتربصن أزواجهم أربعة أشهر
وعشراً » قال وهو ينطبق على استعمال اللغة . وهناك وجه آخر يرجع اليه وهو
حجة الاخبار عن المبتدأ بما يرجع اليه كقول الشاعر

أعـلي ان مالت بي الريح ميلة الى ابن أبي ذبيان أن يتندما

فتراد الشاعر الاخبار عن تقدم ابن أبي ذبيان ، والاخبار في اللغة لا يرعي بها الا
حجة المعنى وكونه مفهوماً كما تقدم في تفسير « ولكن البر من اتقى »

ولما كان من شأن الراغبين في التزوج من يتوفى زوجها المسارعة الى خطبتها
بين الله للمؤمنين ما يتعلق بذلك من الاحكام والآداب الثلاثة بهم وبكرامة

النساء في مدة العدة فقال ﴿ ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء

أو كنتم في أنفسكم ﴾ فالمراد بالنساء المعتدات لوفاة أزواجهن ، قالوا
ومثلهن المطلقات طلاقاً بائناً ، وأما الرجعيات فلا يجوز التعريض لهن لأنهن لم

يخرجن عن عصمة بعولتهن بالمرة . والتعريض في الاصل إمالة الكلام عن منهجه الى عرض منه وهو الجانب ، وبذلك التصريح ، فهو ان تفهم الخطاب ما تريد بضرب من الاشارة والتلويح يحتمله الكلام على بعد بمعونة القرينة ، وفي الكشف هو ان تذكر شيئاً تدل به على شيء لا تذكره ، كما يقول المحتاج للمحتاج اليه : جئتكم لاسلم عليكم ولا أنظر الى وجهك الكريم : أقول وللناس في كل عصر كنايات في هذا المقام ، وبما سمعته من استعمال عامة زماننا في هذا ذكر الرغبة في الزواج مسندة الى أناس مبهمين نحو ان من الناس من يتعنى لو يكون له كذا او يوفق الى كذا . والخطبة بالكسر من الخطاب او الخطب وهو الشأن العظيم وهي طلب الرجل المرأة للزواج بالوسيلة المعروفة بين الناس ، وأما الخطبة بالضم فهي ما يوعظ به من الكلام . والاكتنا في النفس هو ما يضره مريد الزواج في نفسه ويمر به عليه من الزوج بالمرأة بعد تقضاء العدة . أباح الله تعالى أن يعرض الرجل للمرأة في العدة بأسر الزواج تعريضاً ، وقرن ذلك بما يكون من النية في القلب والعزم المستكن في الضمير كأنه مثله في تعذر الاحتراز منه أو تعسره ، ولم يحرم عليهم أن يقطعوا في هذا الامر بأنفسهم لان الامر ديني بل راعى فيما شرعه لهم ما فطرهم عليه

ولذلك ذكر وجه الرخصة فقال ﴿ علم الله انكم ستذكروهن ﴾ في أنفسكم ، وخطرات قلوبكم ليست في أيديكم ، ويشق عليكم أن تكتموا رغبتكم وتصبروا عن النطق لهن بما في أنفسكم ، فرخص لكم في التعريض دون التصريح ، ففقدوا

عند حد الرخصة ﴿ ولكن لا تواعدوهن سرّاً ﴾ أي في السر فان المواعدة السرية مدرجة الفتنه ، ومظنة الظنة ، والتعريض يكون في الملا لا عار فيه ولا قبيح ، ولا توسل إلى ما لا يحمد ، وذهب جمهور العلماء إلى أن السر هنا كناية عن النكاح أي لا تعقدوا معهن وعدا صريحاً على الزوج بهن ، قل الاستاذ الامام عبر عن النكاح بالسر لانه يكون سرا في الغالب ، وروي عن ابن عباس انه قال المواعدة سرا أن يقول لها : اني عاشق وعاهديني أن لا تتزوجي غيري ونحو هذا : وقيل هي المواعدة على الفاحشة ، والدليل على أن النهي عام يراد به تحريم الكلام الصريح

معها في الخلوة قوله ﴿إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ قيل هو التعريض وقال الاستاذ الامام هو ما يعمد مثله بين الناس المهتدين بالانكبر كالتعريض ، وهذا أقوى من التعريض .

وجملة القول إنه لا يجوز للرجال أن يتحدثوا مع النساء المعتدات عدة الوفاة في أمر الزواج بالسر ويتواعدوا معهن عليه ، وكل ما رخص لهم فيه هو التعريض الذي لا يشكر الناس مثله في حضرتهن ، ولا يعدونه خروجاً عن الادب معهن ، والفائدة منه التمهيد وتنبيه الذهن ، حتى إذا تمت العدة كانت المرأة عالمة بالرأغب أو الراغبين ، فإذا سبق إلى خطبتها المفضل رده إلى أن يجيء الأفضل عندها . وقد أوضح الامر وسلك فيه مسلك الاطناب لان الناس يتساهلون في مثل هذه الامور لما لم من دافع الهوى اليها ، ولذلك صرح بما فهم من سابق القول من جواز القصد إلى العقد بعد تمام العدة فقال

﴿وَلَا تَعْزَمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ﴾ أي على عقدة النكاح على حذف «على» ويقال عزم الشيء وعزم عليه واعتزمه أي عقد ضميره على فعله أو المعنى لا تعتقدوا عقدة النكاح وهو العزم المتصل بالعمل لا ينفصل عنه ﴿حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابَ أَجَلَهُ﴾ أي حتى ينتهي ما كتب وفرض من العدة فالكتاب بمعنى المكتوب أي المفروض أو بمعنى الفرض قال تعالى (٢: ٨٣) كتب عليكم الصيام) وقال (٤: ١٠٣) ان الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً) وما عبر عن الفرضية المحتمة بلفظ الكتاب لان ما يكتب يكون أثبت وأكثر وأحفظ ، وفسر بعضهم الكتاب بالقرآن على أن المراد به العدة أيضاً كأنه قال حتى يتم ما نطق به القرآن من مدة العدة . والحاصل أن التزويج بالمرأة في العدة محرم قطعاً ، ولأجله حرمت خطبتها فيها والعقد باطل باجماع المسلمين .

ثم قال ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾ أي يعلم ما تضرعون فيه قلوبكم من العزم فاحذروا أن تعزموا ما حذر عليكم منه من قول وعمل ، قال الاستاذ الامام هذا التحذير راجع الاحكام التي تقدمت من التعريض وغيره جاء على أسلوب

القرآن وسنته في قرن الاحكام بالموعظة ترغيباً وترهيباً تأكيذاً للحفاظ عليها والالتفات اليها ، ولا يقال ان العلم بما النفس اعم من الخبر بالعمل ، فيستغنى عن هذا بما ختمت به الآية السابقة ، لان لكل كلمة مما ورد في هذا الكلام أثراً مخصوصاً في النفس ، والمقصود واحد . وما دامت الحاجة ماسة إلى شيء فلا يقال ان في الايمان به تكراراً مستغنى عنه وان كثروا تعددوا لولم يبلغ الالوف بلغظه ، فكيف

به إذا تنوع بعموم أو خصوص أو غير ذلك وقوله ﴿واعلموا أن الله غفور رحيم﴾ بعد ما ورد من الوعيد والتشديد في الآيات السابقة يبين ان للانسان مخرجاً بالتوبة إذا هو تعدى شيئاً من الحدود وأراد الرجوع الى الله تعالى فإنه غفور له رحيم لا يعجل بعقوبته ، بل يمهله ليصلح يحسن العمل ، ما أفسد بما سبق من الزلل

(٢٣٦) لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً ، وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْمَوْسِعِ قَدَرَهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ ، مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ (٢٣٧) وَإِنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ قَدْ قَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَتُصَفِّ مَا قَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عَقْدَةُ الزَّكَاحِ ، وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ، وَلَا تَنسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ

قالوا المراد بالجناح المنع هنا هو التبعة من المهر ونحوه ، لا الانمو ولوزر ، وأوردوا هذا وجهاً ضعيفاً وجهوه بأن النبي ﷺ كان كثيراً ما ينهى عن الطلاق فظن الناس أن فيه جناحاً فنفته الآية وهو كما ترى يتبرأ منه السياق ، وقال الاستاذ الامام المراد بنى الجناح نفي المنع وهو مقيد بقيد عدم المسيس وعدم تسمية مهر . والمسيس اسم مصدر لمسه مساً (من باب تعب ونصر) اذا لمسه بيده من غير حائل ، هكذا قيدوه كما في المصباح . ويعبر عن اصابة كل شيء الانسان من خير وشر ونفع وضر . ويكنى به وبالماسية والملاسة كالمباشرة عن الغشيان المعلوم

بين الزوجين . قرأ الجمهور « ما لم تمسوهن » بالفعل الثلاثي ، وقرأ حمزة والكسائي « تمسوهن » بالصيغة الدالة على المشاركة هنا وفي سورة الاحزاب (٣٣) لان كلا منهما يشترك فيه بحسب حاله ، فهذه القراءة بيان للواقع ، وتلك بيان لفعل الرجل الذي يجب به ما يجب من المهر والعدة . وآية الاحزاب التي فيها القراءتان هي (٤٩ : ٣٣) يا ايها الذين آمنوا اذ نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن فإلكنم عليهن من عدة تعتدونها فتموهن وسرحوهن سراحاً جميلاً (٢٠ : ١٩) وأجمعوا على قراءة واحدة في قوله تعالى من سورة مريم حكاية عنها (٢٠ : ١٩) ولم يمسنني بشر) لانه نفي لسبب الولد من قبل الرجال لا معنى للمشاركة فيه . والمراد بفرض الفريضة تسمية المهر ، والآية تدل على ان عقد النكاح يصح بغير مهر ، قالوا ويجب حينئذ مهر المثل . قل الاستاذ الامام والفرض هما يصدق بما يكون بعد العقد كأن يقول : امرتك الفاء مثلاً

يقول الله تعالى ﴿ لا جناح عليكم إن طلقتم النساء ﴾ اي لا يلزمكم شيء من المال تأثمون بتركه في حال طلاقكم للنساء ﴿ ما لم تمسوهن او تفرضواهن فريضة ﴾ اي مدة عدم مسك إياهن وتسمية المهر لهن ، فأو هنا بمعنى الواو او المعنى : إلى أن تفرضوا لهن ، او إلا ان تفرضوا لهن ، اي حينئذ يجب عليكم شيء وهو ما يذكر في الآية التالية لهذه . والمعنى إذا تحقق الشرطان أو القيدان فلا تدفعوا لهن مهراً ﴿ ومنموهن ﴾ اي اعطوهن شيئاً يتمتن به وليكن هذه المتعة على حسب حالكم في الثروة ﴿ على الموسع قدره وعلى المتقتر قدره ﴾ الموسع وصف من أوسع الرجل إذا صار ذا سعة وهي البسطة والغنى ، والمتقتر من أقتر الرجل إذا قل ماله واقتصر ، وقتر على عياله (من باي قعد وضرب) ، وأقتر ضيق عليهم في النفقة . ولعله من الاقتار بانغمس وهو دخان الشواء والطبخ وبخاره ورائحته ، والقتر من النفقة الرقعة من العيش ، ويقال أقتر ايضاً إذا قتر عمداً فعاش عيشة الفقير ، وقرأ حمزة والكسائي وحفص وابن ذكوان « قدره » بفتح الدال والباقون يسكونها وهما لغتان بمعنى ، وقيل المقدر بالمتسكين الطاقة وبالتحريك المقدار والمراد لا يختلف

وهو ان المتعة تختلف باختلاف ثروة الرجل وبسطته ولذلك لم تحدد بل تركت لاجتهاد المكلف لانه اعرف بثروته نفسه ، وقد علم ان الله فرضها عليهم واكدّها

بقوله ﴿متاعا بالمعروف حقا على المحسنين﴾ فأما المعروف فهو ما يتعارف الناس بينهم ويليق بهم بحسب اختلاف اصنافهم واحوال معاشهم وشرفهم ، واما كونه حقا على المحسنين فمعناه انها واجبة حاقة على انها إحسان في التعامل لا عقوبة ، فان الحكمة فيها كما قالوا جبر إباحاش الطلاق ، كأن النعني ان كنتم مؤمنين بالله محسنين في طاعته فعليكم ان تجعلوا هذا المتاع لا تقا مؤديا إلى الغرض منه

قل الاستاذ الامام مبينا الحكمة في شرع هذه المتعة : ان في هذا الطلاق غضاضة وايها مالا للناس أن الزوج مطلقها إلا وقدر ايه منها شيء ، فاذا هو متعها متاعا حسنا تزول هذه الغضاضة ويكون هذا المتاع الحسن بمنزلة الشهادة ببراءتها والاعتراف بأن الطلاق كان من قبله اي لعذر يختص به ، لا من قبلها ، أي لعللة فيها ، لأن الله تعالى امرنا ان نحافظ على الاعراض بقدر الطاقة . فجعل هذا التمتع كالمرهم لجرح القلب لكي يتسامح به لناس فيقال : ان فلانا اعطى فلانة كذا وكذا فلم يطلقها إلا لعذر وهو آسف عليها معترف بفضلها ، لا إنه رأى عيبا فيها او رايه شيء من امرها ، ويقال إن سيدنا الحسن السبط متع إحدى زوجاته بعشرة آلاف درهم وقال « متاع قليل من حبيب مفارق » لهذا وكل الله تعالى الامر في ذلك إلى أرحمة المؤمنين فلم يحدده بل وصفه بالمعروف ، وذكر المطلق عند إيجابه بالاحسان هنا وبالاعتوى في الآية الآتية :

وأقول زيادة في إيضاح الحكمة : من المعروف أن الاقدام على عقد الزوجية يتقدمه تعارف وتواد بين بيت الرجل وبيت المرأة ، ثم تكون الخطبة فالعقد ، فاذا طلق الرجل قبل الدخول فإن الناس يظنون بالمرأة من الظنون مالا يظنون بها اذا طلقت بعد الدخول ، لان العاشرة هي التي تكشف لكل واحد عن طباع الآخر ، فيحمل الطلاق على تنافر الطباع ، وعدم المشاكاة في الاخلاق والعادات ، وهذا وجه لجعل بعض العلماء متعة غير المدخول بها راجية ومتعة غير هامستحبة ،

وإذا كانت التضاضة في الطلاق قبل الدخول على ما ذكرنا فلا جرم أن ذلك التواد الذي ظهرت بوادره قبل الخطبة ويمكن بالعقد يتحول إلى عداء وتباغض ، إلا أن يدفع المطلق ذلك بالتي هي أحسن وهي التمتع اللائقة ، ولا تتحقق هذه الحكمة إلا بجعل مقدار التمتع موكولا إلى اختيار الرجل مع العلم بأنها واجبة على حسب الحال في السعة ، وإن الغرض منها كذا ، فلا يتحقق الامتثال إلا بتجزي إصابته ، ومما روي عن الحسن السبط أيضاً أنه متع بعشرين ألفاً وزقار من عسل ، وكذلك كانوا يفعلون .

هذا هو المتبادر من الآية ولكن من الفقهاء من قال إن التمتع تستحب ولا تجب لأنها جعلت حقاً على المحسنين ، كأن القيام بالواجب لا يوصف بالاحسان ، ويكفي في إثبات الوجوب قوله تعالى « على كل واسع قدره وعلى المقتر قدره » وقوله « حقاً على » وإنما حسن ذكر الاحسان هنا لأن الفروض غير محدود ، والشرع يجب بسط السكف فيه ، فذكر بالاحسان لأجل ذلك ، ولبيان أن التمتع ليست من قبيل الغرامة ، إذ لو كانت غرامة لا اختيار في قدرها كما أنه لا اختيار في أصلها لما تحققت بها الحكمة التي تقدم شرحها ، وآية الأحزاب المتقدمة أمرة بالتمتع أمراً لم يذكر معه لفظ المحسنين ، على أن الله تعالى ذكر الاحسان والمحسنين في مقام الاعمال الراجية كقوله في سورة التوبة (١٩: ٩) ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا الله ورسوله ما على المحسنين من سبيل) والنصح لله ورسوله واجب حتم ، وقوله في هذه السورة أيضاً (١٢٠) ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله — إلى قوله — إن الله لا يضيع أجر المحسنين) وذكر هذا اللفظ كثيراً بعد ذكر الصبر في مواضع اليأس وهو واجب ، وبعد ذكر محاولة إبراهيم ذبح ولده وكان واجباً عليه لولا ما أفاده الله تعالى . وقال تعالى في سورة الزمر عند ذكر الجزاء ٥٨: ٣٩ أو تقول حين ترى العذاب لو أن لي كربة فأكون من المحسنين) وهل يصح أن يقال إن النفس تعذب على ترك النوافل المستحبة فتتمنى الرجة لتؤذيها ؟ ومن تتبع الآيات التي ذكر فيها الاحسان يرى أن منها ما يراد به الأعمال المفروضة

أولاً وبالذات ، ومنها ما يراد به مازاد عن الفرض من العمل الصالح ، ومنها ما يراد به إحسان العمل وإتقانه ، مطلقاً ، ومن صرح بوجوب المنفعة من علماء السلف علي وابن عمر والحسن البصري وسعيد بن جبير وأبو قلابة وزهري وقتادة والضحاك وغيرهم ، واختلفوا أيضاً في مقدارها وقد علمت اختار فيه ، واختلفوا أيضاً هل تشرع لعير هذه المطلقة قبل المسيس والفرض أم لا ؟ وسيأتي ذلك في تفسير « والعطايات متاع بالمعروف »

ثم قال تعالى ﴿ وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم ﴾ الآية الماضية في حكم غير المسوسة إذ لم يفرض لها ، وهذه في حكمها وقد فرض لها المهر ، وهو أن لها نصف المهر المفروض . قال الجلال : فنصف ما فرضتم يجب لهن ويرجع لكم النصف . قال الأستاذ الامام وهذا جرى على أن الذي كان عليه العمل هو سوق المهر كله للمرأة عند العقد ، خلافاً لما استحدثه الناس بعد من تأخير ثلث المهر أي في الغالب ، وقد يؤخرون أكثر من الثلث أو أقل حتى كأن ذلك من سنن الدين ، وما هو إلا عادة من العادات ، والظاهر أن سببها حب الظهور بكثرة المهر والفخر به ، مع اجتناب الارهاق بدفعه كله . وقدر غير الجلال قالوا يجب نصف ما فرضتم — أو — قادفوا نصف

ما فرضتم ، والمعنى ظاهر على كل تقدير ﴿ إلا أن يعفون ﴾ أي النساء المطلقات عن أخذ النصف كله أو بعضه ، وهو حق البالغة الرشيدة ﴿ أو يعفو الذي بيده

عقدة النكاح ﴾ قيل هو الولي مطلقاً وعليه جماعة من المفسرين أو الولي المجبر وهو الأب أو الجد فيعفو له عن النصف الواجب كله أو بعضه ، والشيعة لا تبيح له العفو عن كله وقل كثير منهم أن الذي بيده عقدة النكاح هو الزوج الذي بيده حلما ، قال الأستاذ الامام عبر عنه بهذا للتنبيه على أن الذي ربط المرأة وأمسك العقدة يجب لا يلبق به أن يحلها ويدعها بدون شيء ، بل يستحب له العفو والسماح بكل ما كان قد أعطى وإن كانت الواجب المحتم نصفه ، فذلك تمهيد لقوله

﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبَ لِلتَّقْوَى﴾ والخطاب على هذا خاص بالرجال، وفيه وجه آخر أنه عام للنساء والرجال، أي من عفا فهو المتقي، ويروى عن جبير بن مطعم أنه تزوج بنتا لسعد بن أبي وقاص ثم طلقها قبل الدخول وأعطاه جميع المهر، فسئل عن هذا فقال أما التزوج فلا أنه عرضها عليّ فما رأيت أن أردّه، وأما العفو فأنا أحق بالفضل. هكذا قال من روى القصة بالمعنى، وفي التفسير الكبير إن جبيراً قال: أنا أحق بالعفو، وإذا كان هذا فلهذا دليل على أن الخطاب عام على جميع التغليب، ويرجح اختلاف الاحوال، ففي بعض الاحوال تكون المصلحة في عفو الرجل عن النصف الآخر وفي بعضها تكون في عفو المرأة عن النصف الواجب لها، ذلك لان الطلاق قد يكون من قبله بلا علة منها وقد يكون بالعكس، والذي تراه في عامة كتب التفسير أن المراد بالتقوى هنا تقوى الله تعالى المطلوبة في كل شيء، وذلك أن العفو أكثر ثواباً وأجرأً، وقال الاستاذ الامام ان التقوى في هذا المقام انقاء الريبة وما يترتب على الطلاق من التباغض وتأثر التباغض، ولا يخفى ما في السجاح بالمال، من التأثير في تغيير الحال، ولذلك

قال بعد ذلك ﴿وَلَا تَنسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ ففسروا الفضل بالتفضل والاحسان وجعلوه للترغيب في العفو. وقال الاستاذ الامام المراد به المودة والصلة، أي ينبغي لمن تزوج من بيت ثم طلق أن لا ينسى مودة أهل ذلك البيت وصلتهم، قال فأن هذا مما نحن عليه اليوم من التباغض والضرار؟

على هذا السياق جرى في تفسير الآية وهو مما لا يقف الذهن فيه إلا من كان مطاعاً على وجوه الخلاف في الذي بيده عقدة النكاح، يقول القائلون بأنه الأولي، إنه هو الذي يتولى العقد تبرعاً وعرفاً وقد يتولى العفو عن نصف المهر بالنيابة عن موليته إذا هي طلقت ولا سيما إذا كانت غير مدخول بها، ولا حديث بينها وبين الزوج ولا معاملة، وإن تبرع الزوج بالنصف الآخر من المهر لا يسمى عفواً. وإنما يسمى هبة، وإنه كان من مقتضى السياق أن يقال - لو

أريد الزوج ، إلا ان يعفون أو تعفوا أنتم ، وإن عقدة النكاح لم تبقى في يد الزوج بعد الطلاق ، ويقول الذاهبون إلى أنه الزوج إن الولي بيده عقد النكاح لا عقده التي هي أثر العقد ، وأنه ليس للولي أن يسمح بشيء من مال مواليته لأنهم أهي المالكة المتصرفه من دونه ، وأنت ترى الجواب من كل جانب عما أورده الآخر سهلاً والخطب أسهل ، فالغنى المراد ان الواجب نصف المهر إلا أن يسمح الرجل به كله وسمى سماحه بالنصف الآخر عفواً لأن المعبود أنهم كانوا يسوقون جميع المهر عند العقد كما تقدم ، أو تعفو المرأة بنفسها أو بواسطة وليها عما يجب لها فلا تأخذ منه شيئاً ، فأني الفريقين عفا فعفوه أقرب إلى التقوى . والقائلون بأن الذي بيده عقدة النكاح هو لزوج أكثر كما تشعر به العبارة السابقة ، وروى فيه حديث مرفوع عند ابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي

وقد ختمت الآية بقوله تعالى ﴿إِنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَكُمْ آيَةً فَذَرْهُمْ﴾ جرياً على السنة الإلهية بالتذكير والتحذير بعد تقرير الأحكام ، لتكون مقرونة بالموعظة التي تغذي الإيمان وتبعث على الامثال . وفي التذكير باطلاع الله تعالى واحاطة بصره بما يعامل به الأزواج بعضهم بعضاً ، ترغيب في المحاسنة والنضل ، وترهيب لاهل المحاشنة والجبل

قال الاستاذ الامام رحمه الله تعالى بعد تفسير هذه الآيات مامعناه : من تدبر هذه الآيات وفهم هذه الأحكام يتجلى له نسبة مسلمي هذا العصر الى القرآن ، ومبلغ حظهم من الاسلام ،

قال وأخص المصريين بالذكر فإن الروابط الطبيعية في النكاح والصهر وسائر أنواع القرابة صارت في مصر أرث وأضعف منها في سائر البلاد ، فمن نظر في أحوالهم وتبين ما يجري بين الأزواج من المحاضرات والمنازعات والمضاربات ، وما يكيد بعضهم لبعض ، يخيل اليه أنهم ليسوا من أهل القرآن ، بل يجدهم كلهم لا شريعة لهم ولا دين بل آلتهم أهواؤهم ، وشريعتهم شهواتهم ، وإن حال الماكسة بين التجار في السلع هي أحق وأضبط من حال أزواج ، وأقوى في

في الصلة من روابط الأزواج ، وسرد في الدرس وقائع تؤيد ما ذكره (منها) أن رجلاً هجر زوجته — وهي ابنة عمه وله منها بنت — بغير ذنب غير الطمع في المال فكان كلما كواه في شأنها قل : لتشتري عصمتها مني (ومنها) ما هو أدنى من ذلك وأمر كالذين يتركون نساءهم بغير نفقات حتى قد يضطروهم إلى بيع أعراضهن ، وكالمطلقات المعتدات بالتزويج يزعمن أن حيضهن حبس فتعمر السنين ولا تنقضي عدهن يزعمن ، وما الغرض إلا إلزام المطلق النفقة طول هذه المدة انتقاماً منه ، كالذين يدرسون أزواجهم كالمملكات لا يسكنونهن بمعرفة ولا يسرحونهن باحسان ، أو يقتلن منهم بالبلد ، فأين الله وأين كتاب الله وشرعه من هؤلاء وأين هم منه ؟ انهم ليسوا من كتاب الله في شيء ، ولكن المنسرفين أهواهم يتبعون (١)

(٢٣٨) حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ

قَاتِلِينَ (٢٢٩) فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَاتًا فَإِذَا أُمِمْتُمْ

فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ

كانت الآيات السابقة أحكاماً بعضها في العبادات ، وبعضها في الحدود والمعاملات ، آخرها معاملة الأزواج ، ورأينا من سنة القرآن أن يختم كل حكم أو عدة أحكام بذكر الله تعالى والأمر بتقواه ، والتذكير بعله بحال العبد وبما أعد له من الجزاء على عمله ، وفي هذا ما فيه من نفخ روح الدين في الأعمال وإشراؤها

(١) ان ما ذكره «روح» من الوقائع المستنكرة لا يعد شيئاً بالنسبة إلى ما يقع في هذا العهد وتشره الجرائد من قضايا الأزواج في الأحكام الشرعية والأهلية فان فيها من الاحتيال على الأموال والاتجار بالأعراض ، ما يخشى أن تكون عاقبته فوضى الإباحة والانقراض ، فان منها الديانة ، ومنها تزوج المرأة برجلين أو ثلاثة ، وان منها قتل كل من الزوجين الآخر لاجل العشق أو الارث الخ وكذا قتلها لأولادها ، وقتل أولادها لها .

حقيقة الإخلاص . ولكن هذا التذكير القوي بما يبعث على إقامة تلك الأحكام على وجهها ، قد يغفل المرء عن تدبره ، ويعيب عن الذهن تذكره ، بإنهماك الناس في معاشهم واشتغالهم بما يكافحون من شدائد الدنيا ، أو ما يلد لهم من نعيمها ، ولهذا الضروب من المكاشفات ، والعقوب من التمتع بالذات ، سلطان قاهر على النفس ، وحاكم مسخر للعقل والخس ، يتمكك بالمرء سبيل الهدى ، حتى تتفرق به سبل الهوى ، فمن ثم كان المكلف محتاجا في تأديب الشهوات الحيوانية ، إلى مذكر يذكره بمكاتبه الروحية ، التي هي كمال حقيقة الإنسانية ، وهذا المذكر هو الصلاة فهي التي تخلع الإنسان من تلك الشواغل التي لا بد له منها ، وتوجهه إلى ربه جل وعلا ، فتكثر له مراقبته ، حتى تعمل بذلك همته . وتزكو نفسه ، فتترفع عن البغي والعدوان ، وتتنزه عن ذنابة الفسق والعصيان ، وتحبب إليها العدل والاحسان ، بل ترتقي في معارج الفضل إلى مستوى الامتثال (١) فتكون جديرة بإقامة تلك الحدود ، وزيادة ما يحب الله تعالى من الكرم والجود ، ذلك ان الصلاة تنهى باقامتها على وجهها عن الفحشاء والمنكر ، ولذكر الله فيها أعظم من جميع المؤثرات رأكب ، فاذا كان الإنسان قد خلق لهوعا ، إذا مسه الشر جزوعا ، وإذا مسه الخير منوعا ، فقد استثنى الله تعالى من هذا الحكم الكلي المصلين ، إذا كانوا على الصلاة الحقيقية محافظين . لهذا قال

﴿ حافظوا على الصلوات والصلوة الوسطى وقوموا لله قانتين ﴾ قال بعض المفسرين في وجه اختيار لفظ المحافظة على الحفظ ان الصيغة على أصلها تفيد المشاركة في الحفظ وهي هنا بين العبد وربّه كأنه قيل : حفظ الصلاة يحفظك الله الذي أمرك بها ، كقوله (فاذكروني أذكركم) أو بين المصلي والصلوة نفسها أي احفظوها تحفظكم من الفحشاء والمنكر بشريعة نفوسكم عنهما ، ومن البلاء والحن بتقوية نفوسكم عليهما كما قال (واستمعوا بالصبر والصلوة) وقال الاستاذ الامام قال حافظوا على الصلوات ولم يقل احفظوها ، لان المفاعة تدل على المنازعة والمقاومة ، ولا يظهر قول بعضهم ان المفاعة

(١) يقال امتن عليه امتنانا إذا أنعم عليه إنعاما وأمنته بلغ ممنونه أي أقمى ماعنده

للمشاركة لان الصلاة تحفظه كما يحفظها ، إلا لو كانت العبارة حافظوا الصلوات ، ولكنه قال على الصلوات ، أي اجتهدوا في حفظها والمداومة عليها أهولا يريد الاستاذ بهذا ان الصلاة لا تحفظ مما ذكر ، وإنما يريد أن اللفظ حافظوا لا يدل على هذا المعنى الثابت في نفسه . والذي أفهمه في المفاعلة على الشيء هو فعله المرة بعد المرة ومنه حافظ عليه وواظب عليه وداوم عليه ، إلا إذا كانت «على» للتعليل كما تالله على الأمر ، أي لاجله ، والمفاعلة فيه للمشاركة ولا يصح هنا . وحفظ الصلاة المرة بعد المرة على الاستمرار عبارة عن الاتيان بها كل مرة كاملة الشرائط والاركان العملية ، كاملة الآداب والمعاني القلبية ، والشيء الذي يتعاهد بالحفظ دائما هو الذي لا يلحقه النقص وإلا لم يكن محفوظا دائما . والصلوات هي الخمس المعروفة ببيان من بين للناس منازل اليهم ، ونقلت عنه بالتواتر العملي ، وأجمع عليها المسلمون من جميع الفرق ، ففهم على تفرقهم في كثير من المسائل متفقون على أن جاهد صلاة من الخمس لا يعد مساماً ، على أنهم استنبطوا كونها خمساً منذ كر الأوسطي في الجمع كما في تفسير الرازي . قل لاستاذ الامام : وهو من قبيل الثماس النكتة ، ومن آيات أخرى كقوله تعالى (١٧، ٣٠) فسبححان الله حين تمسون وحين تصبحون ١٨ وله الحمد في السموات والارض وعشياً وحين تظهرون (وسيا أي بيان كل شيء في محله إن شاء الله تعالى . وكأولوا يعبرون عن الصلاة بالتسبيح ، يقولون سبح الغداة مثلاً ، أي صلى الفجر .

والصلاة الوسطى هي إحدى الخمس . والوسطى مؤنث الأوسط ، ويستعمل بمعنى المتوسط بين شيئين أو أشياء لها طرفان متساويان ، وبمعنى الافضل ، وبكل من المعنيين قال قائلون . ولذلك اختلفوا في : أي الصلوات أفضل وأيتها المتوسطة . وللعلماء في ذلك ثمانية عشر قولاً أوردها الشوكاني (في نيل الاوطار) أحصاها رواية ما ذهب اليه الجمهور من كونها صلاة العصر لحديث علي عند أحمد ومسلم وأبي داود صرفوا «شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر» ورواه أحمد والشيخان عنه بلفظ ان النبي ﷺ قال يوم الاحزاب «مألاً الله قبورهم ويوتهم نارا» كما شغلونا عن الصلاة الوسطى حتى غابت الشمس» ولم يذكر العصر ، ولذلك قال بعضهم أنها الظاهر لانه شغل يوم الاحزاب عنها وعن العصر جميعا وهي متوسطة وكانت

تشق عليهم لانها تؤدى في وقت الحر والعمل، وفي رواية عن علي عند عبد الله بن أحمد في مسند أبيه كذا بعدها الفجر فقال رسول الله ﷺ «هي صلاة العصر» ووجه ما رواه أولا توسطها وقوله تعالى في سورة الاسراء (١٥، ٧٨) أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقرأ الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً) فقد أشار في الآية إلى الصلوات وجعل لصلاة الفجر منزلة خاصة بها وهو كون قرأتها مشهوداً، وورد في معناه أنها تشهد ملائكة الليل وملائكة النهار. وفي الحديث التصريح بأن صلاة العصر تشارك صلاة الفجر بهذه المزية. ولا تحاب الاقوال الاخرى في تعيين الصلاة الوسطى أحاديث لا تصل إلى درجة ما ورد في صلاة العصر، فقل هي الفجر وقل هي الظهر كما مر وقل هي المغرب وقل الاختش هي صلاة الجمعة. وقال بعضهم انها غير معروفة وإن الله تعالى أبهم الصلاة الفضلى التي ثوابها أكثر للحفاظ على كل صلاة

قال الاستاذ الامام ولولا أنهم اتفقوا على أنها إحدى الخمس لكان يقبدر إلى فهمي من قوله (والصلاة الوسطى) أن المراد بالصلاة الفعل والوسطى الفضلى، أي حافظوا على أفضل أنواع الصلاة وهي الصلاة التي يحضر فيها القلب وتتوجه بها النفس إلى الله تعالى وتخشع لذكركه وتدبر كلامه لا صلاة المرائين ولا الغافلين

ويقوي هذا قوله بعدها (وقوموا لله قانتين) فهو بيان لمعنى الفضل في الفضلى وتأكيده، اذ قالوا في القنوت معنى المداومة على الضراعة والخشوع، أي قوموا ملتزمين خشية الله تعالى واشتد شعاعه رهيبة وعظمته، ولا تكمل الصلاة وتكون حقيقة ينشأ عنها ما ذكر الله تعالى من فائدتها الا بهذا، وهو يتوقف على التفرغ من كل فكر وعمل يشغل عن حضور القلب في الصلاة، وخشوعه لما فيها من ذكر الله بقدر الطاقة (أقول) انه ليس عندنا نص صريح في الحديث المرفوع يناق في ما ذكره الاستاذ الامام في الصلاة الوسطى فقد قال بعض المحدثين أن لفظ «صلاة العصر» في حديث علي مدرج من تفسير الراوي. قالوا ولولا ذلك لما اختلف الصحابة فيها، ويبدو ذلك ببعض الروايات كرواية مسلم «شغلوا عن الصلاة الوسطى حتى غربت الشمس». يعني صلاة العصر وما قاله في القنوت هو لباب الاقوال الكثيرة التي أوجعها ابن العربي الى عشرة نظمها في قوله.

ولفظ القنوت اعدد معانيه تجد مزيداً على عشر معاني مرضية
دعاء، خشوع، والعبادة، طاعة اقامتها اقرارنا بالعبودية
سكوت صلاة والقيام وطوله كذلك دوام الطاعة الراجح النية

وقد روى أحمد والشيخان وأصحاب السنن ما عدا ابن ماجه من حديث زيد
ابن أرقم قال كنا نتكلم في الصلاة بكلم الرجل منا صاحبه وهو إلى جنبه في الصلاة
حتى نزلت (وقوموا لله قانتين) فأمرنا بالسكوت ونهينا عن الكلام . وذلك ان
القنوت عبارة عن الانصراف عن شؤون الدنيا الى مناجاة الله تعالى والتوجه اليه
لذاته وذكره ، وحديث الناس مناف له فيترجم من القنوت تركه ، ويدل على ذلك
حديث ابن مسعود المتفق عليه قال : كنا نسلم على النبي ﷺ وهو في الصلاة
فيرد علينا ، فلما رجعنا من عند النجاشي سلمنا عليه فلم يرد ، قلنا : أي بعد
الصلاة — يا رسول الله كنا نسلم عليك في الصلاة فبرد علينا فقال « ان في
الصلاة شغلا » وقال سعيد بن المسيب المراد بالقنوت هنا القنوت المعروف في صلاة
الصبح وهو أن صح يرجع انها الصلاة الوسطى

لمحافظة على الصلوات آية الايمان الكبرى ، وقد جعل الشرع الصلاة والزكاة
شرطاً لنصرة الاسلام وأخوة الدين وماله من الحقوق ، قال تعالى في أوائل سورة
التوبة في الكلام على المشركين المعتدين (٩ ، ١١) فان تابوا وأقاموا الصلاة
وآتوا الزكاة فاخوانكم في الدين) والاحاديث في منطوق الآية ومفهومها
كثيرة . منها حديث ابن عمر عند أحمد والبخاري ومسلم ان النبي ﷺ
قال « أمرت ان اقاتل الناس حتى يشهدوا ان لا اله الا الله وان محمداً رسول
الله . ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فاذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم
الا يحق الاسلام وحسابهم على الله عز وجل » والمراد بالناس هنا المشركون أهل
الأوثان لا أهل الكتاب الذين تقبل منهم الجزية ومن في حكمهم كالمجوس ، ذلك
أنهم هم الذين كانوا يقاومون دعوة الاسلام ما لا يقاومها سواهم ، وكان استقرار الدين
من غير دخول مشركي جزيرة العرب في الاسلام ضرباً من الحال ، والكلام هنا
في مكانة الصلاة من الاسلام لافي الدعوة وحمايتها . وروى أحمد ومسلم في صحيحه

وأبو داود والترمذي وابن ماجه من حديث جابر قال قال رسول الله ﷺ « بين الرجل وبين الكفر ترك الصلاة » وروى أحمد وأصحاب السنن الاربعة وابن حبان والحاكم من حديث بريدة قل سمعت رسول الله ﷺ يقول « العهد الذي بيننا وبينكم الصلاة فمن تركها فقد كفر » صححه النسائي والعراقي . وروى أحمد والطبراني في الكبير والوسط من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبي ﷺ أنه ذكر الصلاة يوماً فقال « من حافظ عليها كانت له نوراً وبرهاناً ونجاة يوم القيامة ، ومن لم يحافظ عليها لم تكن له نوراً ولا برهاناً ولا نجاة ، وكان يوم القيامة مع قارون وفرعون وهامان وأبي بن خلف » وفي الآثار ما يشعر بأن الصحابة كانوا متفقين على ذلك فقد روى الترمذي والحاكم وقال صحيح على شرط الشيخين عن عبد الله بن شقيق العقيلي قال : كان أصحاب رسول الله ﷺ لا يرون شيئاً من الأعمال تركه كفر غير الصلاة

أرأيت هذه الآيات العزيزة ، والأحاديث الناطقة بالعزيمة ، قد نال التأويل منها نيله في الزمن الماضي ، وأعرض جماهير المسلمين عنها في الزمن الحاضر ، حتى كثر التاركون العاقلون والمارقون ، وقل عدد المصلين الساهين وندر المصلون المحافظون ، ذلك ان الاسلام عند هؤلاء المسلمين ، الذين يصفون أنفسهم بالمتقدمين ، قد خرج عن كونه عقيدة دينية ، إلى كونه جسمية سياسية ، آية الاستمساك به والمحافظة عليه والدفاع عنه مدح كبراء حكماءه وإن كانوا لا يقيمون حدوده ولا يفتنون أحكامه ، بل رفعوا أنفسهم إلى مرتبة التشريع العام ، واستبدلوا القوانين الوضعية بما نزل الله من الأحكام ، فلا غرو أن يعد الذي يلغو بمدح دولته أو بدم عدو لها من أكبر أنصار الاسلام ، وإن كان لا يعرف حقيقة عقيدته ولا يقيم الصلاة ولا يؤتي الزكاة ، ولا يحفل بغير ذلك مما أنزل الله ، ولا يشترط أن يكون مخلصاً في دفاعه يتحرى به وجه المنفعة العامة لا تتبع طرق المال والجاه ، أرأيت هؤلاء المسلمين سياسة ؟ إن أحدهم لتتلى عليه تلك الآيات والأحاديث فيصر مستكبراً كأن لم يسمعها كأن في أذنيه وقراً ، فمنهم من يصد عنها عدم إيمانه بها وهو الذي قد يصف نفسه أو يصفه أقرانه « بالمتقدم والمتنور » ومنهم من يصدق

به عنها الاتكال على شفاعة الشافعين ، والفروزي بالانتساب إلى الاسلام ، والاعتقاد بأن النسبة إليه كافية في نيل سعادة الآخرة وعدم المؤاخذه فيها على شيء ، ولا سيما الذي يسعى نفسه « محسوباً على أحد الصالحين » وهذا اعتقاد أكثر العامة ، ولهم من مشايخ الطرق وغيرهم ما يمدحهم في غيرهم ، ويستندرجهم في غرورهم ، وما أعظم غرور من يأخذ منهم العهد ، ويحافظ على الورع

نعم إن للاسلام دولة وإن كان هو في نفسه ديناً لا جنسية ، ووظيفة دولته أو حكومته إنما هي نشر دعوته ، وحفظ عقائده وآدابه ، وإقامة فرائضه وسننه ، وتنفيذ أحكامه في دهره فمن ينحصر حكومة الاسلام قائماً ينصرها بمساعدتها على ذلك بالعمل به في نفسه ، ويحمل غيره من حاكم ومحكوم عليه ، لانه هو المقوم والمعزز للأمة ، وإتمام الدولة بالامة . وإن إقام الصلاة وإيتاء الزكاة هما أعظم شعائر الاسلام ، فالصلاة هي الركن لو كبرن اصلاح النفوس ، والزكاة هي لركن لركبن اصلاح الاجتماع ، فإذا هدم ما فلا اسلام في الدولة

ماذا كان من أثر ترك الصلاة واتهموا بالدين في المدن والقرى والمزارع؟ كان من أثره في المدن فشو الفواحش والمنكرات ، فجدد حانات الخمر ومواخير الفجور والرقص وبيوت القمار خاصة بخاصة الناس وعامتهم حتى في ليالي رمضان : ليالي الذكر والقرآن ، وعبد الناس المال ، لا يبالون أجزء من حرام أم من حلال ، وانقبضت لا يدي عن أعمال الخير ، وانبسطت في فعل الشر ، وزال التعاطف والترحم ، وقلت الثقة من أفراد الأمة بعضهم ببعض فلا يكاد يثق المسلم إلا بالاجنبي ، وغير ذلك من فساد الاخلاق ، وقبح العمال في الافراد ، واكبر من ذلك انحلال الروابط المالية بل تنطع أكثرها ، حتى كادت الامة تخرج عن كونها أمة حقيقية متكافلة بالمصالح الاجتماعية والتعاون على الاعمال المشتركة التي تحفظ وحدتها ، وطفق بعض هؤلاء « المتمدنين » الذين قطعوا روابطها بأيديهم ، يفكرون في جعل الرابطة الوطنية لأهل كل قطر بدلاً من الرابطة المالية الجامعة لأهل لاقطار الكثيرة ، فلم يفلحوا واسكن أثر كلامهم أرواً التأثير في مصر ، فالامة الآن في دور الانسلاخ عما كانت به أمة بسيرة سلفها

٤٤٢ مفاسد ترك الصلاة في القرى والمزارع وأثر المحافظة عليها (المنسیر ج ٢)

الصالحين ، فننكبها هؤلاء الذين قال الله فيهم (تخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا) وهذا الانسلاخ هو النبي الذي توعدهم الله تعالى به في الدنيا

وأما أثر ذلك في القرى والمزارع فاستحلال جماهير الملاحين لاهلاك الحرث والنسل عملاً لا قولاً ، وذلك باعتداء بعضهم على زرع البعض بالقلاع قبل ظهور الثمرة وبالنسرة بعدها ، وعلى بهائمهم بالقتل بالسهم أو السلاح ، بل باعتدائهم على أنفسهم بالسلب والنهب والقتل ، حتى أعيا ذلك الحكومة على اهتمامها بأمرهم ، فبلاد الأرياف المصرية لا امن فيها على النفس والمال بتأمين الحكومة لانها صارت كالبوادي التي ليس فيها حكام لا يعتمد أحد على غير نفسه وعصبته في حفظ نفسه وحقيقته ، ولو حافظ هؤلاء وأولئك على الصلوات كما امر الله تعالى لانتهوا عن الفحشاء والمنكر بالوازع لنفسه ، فإن الصلاة كما يقول مختار باشا الغازي كالبوليس (المحتسب) الملازم يمنع من عمل السوء . وأنتى يحافظون عليها ومنهم الذي كفر بالله تقليداً ، ومنهم الذي آمن تقليداً بما وجد عليه آباءه ، وهوان مرضاة الله تعالى بالنجاة من عذابه والفور بنعيم الآخرة عنده ، لا تحصل إلا بواسطة أحد الأولياء الميتين ، وإنما يتوسطون لمن يحتفل بموالدهم ، أو يسب لهم السوائب من البقر وغير البقر ، ويقدم لأضرحتهم الهدايا والنذور ، ومنهم الذي يتعلم كيفية أقوال الصلاة وأعمالها البدنية يؤدونها وهم عن الله ساهون ، يراؤن الناس ويمنعون الماعون ، وهؤلاء هم الذين قال الله تعالى فيهم (١٠٧ : ٤) فويل للمصابين) وإنما يحافظون على الصلاة وهم الذين قال فيهم (٢٣ : ١) قد أفاح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون (الخ) لا يات الحافظ على هذه الصلاة الفضلى يشتهي عن الفحشاء والمنكر ، فلا يرضى لنفسه أن يكون حاساً من أحلاس بيوت القمار ومعاهد اللهو والفسق

الحافظ على هذه الصلاة لا يمنع الماعون ، بل يبذل معونته ورفده لمن يراه مستحقاً لها

الحافظ على هذه الصلاة لا يخلف ولا يلو في حق غيره عليه ، وإن حقاً فرضه على نفسه ، أو التزمه برأ بغيره ، كالأشتراك في الجمعيات الخيرية ، الحافظ على هذه

الصلاة لا يضيع حقوق أهله وعياله ، ولا حقوق أقاربه وجيرانه ، ولا حقوق معاملته وأخواته .

المحافظ على هذه الصلاة يعظم الحق وأهله ، ويحترم الباطل وجنده ، فلا يرضى لنفسه ولا لأئمة بالذل والهوان ، ولا يعتز بأهل البغي والعدوان .
المحافظ على هذه الصلاة لا تجزعه النوائب ، ولا تقل غرار عزمه المصائب ، ولا تبطره النعم ، ولا تقطع رجاءه النعم ، ولا تعيث به الخرافات والاهوام ، ولا تطير به رياح الاماني والاحلام ، فهو الانسان الكامل الذي يؤمن شره ، ويرجى في الناس خيره ، ولو أن فينا طائفة من المصلين الخاشعين ، لا تقنا بهم الحجة على المارقين والمرتابين .

ولكن المحافظ على الصلوات والصلاة الوسطى مع القنوت والخشوع قد صار أندر من الكبريت الاحمر ، ومن عرفه لا يصدق أن للصلاة يدأ في آدابه العالية ، واستقدمته في السر والعلانية ، وكثني ببعض القارئ لما تقدم وقد ملوأمته ، ورموا الكتاب بالفلو فيه (٤٧ : ٢٤) أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها * ٢٥ إن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى الشيطان سول لهم وأملى لهم)

ثم قال تعالى ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ﴾ أي فإن خفتم أن تقوموا لله فيها قانتين مجتمعين فيفتنكم الأعداء بهجومهم عليكم ، أو أن خفتم أي خطر أو ضرر من قيامكم قانتين فصلوا كيفما تيسر لکم راجلين أو راكبين ، فالرجال جمع راجل وهو الماشي والركبان جمع راكب ، قال الاستاذ الامام هذانأ كيدللمحافظة وبيان أن الصلاة لا تسقط بحال ، لان حال الخوف على النفس أو العرض أو المال هو مظنة العذر في الترك ، كما يكون السفر عذراً في ترك الصيام ، وكلا عذرا لكثيرة اترك صلاة الجمعة ، واستبدال صلاة الظهر بها ، والسبب في عدم سقوط الصلاة عن المكلف بحال أنها عمل قلبي ، وإنما فرضت فيها تلك الاعمال الظاهرة لانها مساعدة على العمل القلبي المقصود بالذات ، وهو تذکر سلطان الله تعالى المستولي علينا وعلى العالم كله ، ومن شأن الانسان إذا أراد عملاً قلبياً يجتمع فيه الفكر ، ويصح فيه

توجه النفس وحضور القلب ، أن يستعين على ذلك ببعض ما يناسبه من قول وعمل ولا ريب أن هذه الحياة التي أخذاها الله تعالى للصلاة هي أفضل معين على استحضار سلطانه ، وتذكركم وإحسانه ، فإن قولك «الله أكبر» في فاتحة الصلاة وعند الانتقال فيها من عمل إلى عمل يعطيك من الشعور بكون الله أكبر وأعظم من كل شيء تشغل به نفسك ، وتوجه إليه همك ، ما يفرر روحك ، ويستولي على قلبك وإرادتك ، وفي قراءة الفاتحة من الثناء على الله تعالى وتذكر رحمته وربوبيته ومعاهدته على اختصاصك إياه بالعبادة والاستعانة ، ومن دعائه لأن يهديك صراطه الذي استقام عليه من سبقت لهم منه النعمة من عباده الصالحين ما فيها مما تقدم شرحه في تفسيرها ، وكل ما تقرأه من القرآن بعد الفاتحة له في النفس آثار محدودة تختلف باختلاف سائر القرآن من المعارف العالية ، والحكمة البالغة ، والمعبر العظيمة ، والهداية القوية ، والنمناؤك للركوع والسجود بعد ذلك يقوي في النفس معنى العبودية ، وتذكر عظمة الألوهية ونعم الربوبية ، لما في هذين العامين من علامة الخضوع والخروج عن المألوف ، وما شرع فيهما من تسبيح الله ، وتذكر عظمته وعلوه جل ثناؤه .

فاذا تعذر عليك الاتيان ببعض تلك الاعمال البدنية ، فإن ذلك لا يسقط عنك هذه العبادة القلبية ، التي هي روح الصلاة وغيرها وهي الاقبال على الله تعالى . واستحضار سلطانه مع الإشارة إلى تلك الاعمال بقدر الامكان ، الذي لا يمنع من مدافعة الخوف الطاريء من سبع مفترس ، أو عدو مقاتل ، أو نص محتل ، وكيف يسقط طلب الصلاة القلبية في حال الخوف وهو يساعد على الخروج منه ، أو تخفيف وقعه ، فالأية تعلمنا انه يجب أن لا يذهلنا عن الله تعالى شيء من الأشياء ، ولا يشغلنا عنه شغل ولا خوف في حال من الاحوال ، ولذلك قال (فإن ختم فرجالا أو ركبانا) أي فصلوا مشاة أو راكبين كيفما أنفق وهذا في حالة الملاحقة في القتال أو مقاومة العدو ودفع الصائل أو الفرار من الاسد ، أي ممارسة ذلك بالفعل ، فإن كان الوقت وقت صلاة صلى المكلف واجلا أو راكبا لا يمنع من صلاته المكر والفر ، ولا الطعن والضرب ، ويأتي من أقوال الصلاة بها .

يأتي مع الحضور والذكر ويومئ، بالكوع والسجود بقدر الاستطاعة ، ولا يلتزم التوجه إلى القبلة . وأما صلاة الخوف في غير هذه الحالة كصلاة الجند للعسكر بأزاء العدو جماعة فهي مذكورة في سورة النساء

﴿ فذ أمتهم فاذكروا الله كما علمكم ما لم تكونوا تعلمون ﴾ أي زال خوفكم واطمأننتم فاذكروا الله لانه علمكم كيف تعبدونه وتصلون له في حال الخوف ، فيكون ذلك عوناً لكم على دفعه أي تذكروا نعمه عليكم بهذا التعليم واشكروه له ، هذا اذا قيل إن الكاف للتعليل ، واذا قلنا ان الكاف للبدلية فالمعنى فاذكروه على الطريقة التي علمكم إياها من قبل ، أي فصلوا على السنة المعروفة في الامن باتمام القيام والاستقبال والركوع والسجود

(٢٤٠) وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْخَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ، فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٤١) وَلِلْمُطَلَّقاتِ مَتَاعٌ بِالمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ (٢٤٢) كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ

هذه الآيات تنمعة مافي السورة من أحكام الازواج، وقد جاء الامر بالمحافظة على الصلوات في أثناء هذه الاحكام - والصلاة عماد الدين - للعناية بها فمن حافظ على الصلوات كان جديراً بالوقوف عند حدود الله تعالى والعمل بشريعته ولذلك قال « واستعينوا بالصبر والصلاة » وقد بينا وجه ذلك ، وقد خطر لي وجه آخر هو الذي يطرد في اسلوب القرآن الخاص في مزج مقاصد القرآن بعضها ببعض من عقائد وحكم ومواعظ وأحكام تعبدية ومدنية وغيرها ، وهو نفي السأمة عن القارىء . والسامع من طول النوع الواحد منها ، وتجديد نشاطها وفهمها واعتبارها في الصلاة وغيرها

قوله ﴿والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا﴾ الخ فيه قولان (أحدهما) أن عدة الوفاة كانت في أول الإسلام سنة كاملة مجارة لعادات العرب ولكن مع تخيير المرأة في الاعتماد في بيت الميت فإن اعتدت فيه وجبت نفقتها من تركته وحرم على الورثة إخراجها ، وإن خرجت هي سقط حقها في النفقة ، وقالوا إنه لم يكن للمرأة من ميراث زوجها إلا هذا المتاع والنفقة ، فقوله تعالى ﴿وصية لأزواجهم﴾ معناه فليوصوا وصية لأزواجهم ، أو فليهم وصية لأزواجهم إذ قرأ أبو عمرو وابن عامر وحمزة وحفص عن عاصم «وصية» بالنصب. وقرأها ابن كثير ونافع والكسائي وأبو بكر عن عاصم بالرفع وقوله ﴿متاعا إلى الحول﴾ معناه أن يتمتعوا متاعا أو يتمتعوهن متاعا كأنه قال فليوصوا لهن وصية ول يتمتعوهن متاعا إلى آخر الحول ، وقيل إن التقدير جعل الله ذلك لهن متاعا . وقوله ﴿غير إخراج﴾ معناه غير مخرجات أي يجب ذلك لهن مقيات في دار الميت غير مخرجات فلا يمنعن السكنى . قال الاستاذ الامام : الاحسن ما قاله بعضهم من إن متاعا مصدر بمعنى تمتعا أو معمول له صدر الذي هو وصية ومعنى (غير إخراج) غير مخرجات وهو حال من الأزواج والنكته في العدول عنه هي أن المراد أن يوصي لرجل بعدم إخراج زوجته وأن ينفذ أولياؤه وصيته فلا يخرجونهن من بيوتهن ، ولو قال «غير مخرجات» لكان تحتها عليهن بالبقاء في البيوت ولأفاد عدم جواز إخراجهن لأحد ولو كان وليا كاليها ، وليس هذا بمراد ، فعبارة الآية تفيد المعنى المراد ولا توهم سواء — هذا ما ذهب اليه الجمهور في معنى الآية فهي عندهم توجب أن تكون عدة الوفاة سنة كاملة وأن ينفق على المعتدة من تركه زوجها مقيمة في داره لا يجوز إخراجها منه إلا أن تخرج باختيارها فتنسقط نفقتها قالوا ثم نسخت بجملة العدة أربعة أشهر وعشرا كما في تلك الآية التي تقدمت عليها في الذكر وهي متأخرة عنها في النزول وبجعلها وارثة للزوج بنص القرآن بحرم الوصية للوارث في الحديث . أقول وعليه يكون الإصلاح لتلك العادات الجاهلية في الاعتماد لوفاة الزوج وما يقبعه من الحداد عليه قد حصل بالتدريج

فأقرت مدة العدة أولا ويمكن منع أن تكون بتلك الحالة الرديئة التي تقدم ذكرها ثم نسخت بما تقدم

قال الأستاذ الإمام وهناك وجه آخر يتصل بقول الجمهور وهو أن الآية كانت في فرض الوصية وطلب مع هذا الفرض من ورثة الميت أن لا يخرجن النساء في مدة الحول . وأن الخروج الذي يبرأ به أولياء الميت من الوصية المفروضة التي هي النفقة هو الخروج الذي بعد العدة التي هي أربعة أشهر وعشر ، قال وهو قول ضعيف

والقول الثاني أن هذه الآية لم يذكر فيها التبرص الذي هو الاعتداد كما ذكر في غيرها من آيات العدة السابقة ، وإنما ذكر الوصية والمراد بها أن يستوصي الرجال بالنساء اللواتي يتوفى أزواجهن خيرا بأن لا يخرجوهن من بيوت أزواجهن بعد ما كان من قوة علاقتهن بها إلى مدة سنة كاملة ثم فيها عليهن الفصول الأربعة التي يتذكرن أزواجهن فيها ، وأن يجعل لهن في مدة السنة شيء من المال ينفقنه على أنفسهن إلا إذا خرجن وتعرضن للزواج أو تزوجن بعد العدة المفروضة في الآية السابقة . ولكن لم يعمل أحد من الصحابة ولا من بعدهم بهذا ، ولذلك قال الجمهور أنه منسوخ ، وذهب بعض الصحابة والتابعين إلى أن الأمر بالوصية كان للندب وتهاون الناس به كما تهاونوا في كثير من المندوبات — أي كاستئذان الأولاد الذين لم يبلغوا الحلم عند دخول بيوتهم في الأوقات الثلاثة التي هي مظنة التهاون بالستر قبل صلاة الفجر وحين وضع الثياب من الظهيرة في أيام الحر ومن بعد صلاة العشاء — قل وعلى هذا فلا نسخ لأنهم مجمعون على أنه لا يصار إلى النسخ إذا أمكن الجمع بين النصين

هذا ما جرى عليه الأستاذ الإمام رحمه الله تعالى في تفسير الآية ، وفي كتب التفسير عزيت مخالفة الجمهور إلى كبيرين من فضاء المدرسين وهما مجاهد وأبو مسلم ، أما مجاهد فقد روى عنه ابن جرير أنه يقول نزل في عدة المتوفى عنها زوجها آيتان قوله تعالى « والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا » الآية وقد تقدمت وهذه الآية فيجب حمل الآيتين على

حالتين فإن اختارت الإقامة في دار زوجها المتوفى والنفقة من ماله فعلتها سنة ، إلا فعلتها أربعة أشهر وعشر ، فيكون المدة على قوله أجل محتم وهو الأقل وأجل مخير فيه وهو الأكثر . وأما أبو مسلم فيقول إن معنى الآية من يتوفون منكم ويذرون أزواجاً وقد وصوا وصية لازواجهم بنفقة الحول وسكنى الحول ، فإن خرجن قبل ذلك وخالفن وصية الأزواج بعد أن يقمن المدة التي ضررها الله تعالى لهن فلا حرج فيما فعلن في أنفسهن من معروف أي تكاح صحيح ، لأن إقامتهن بهذه الوصية غير لازمة ، قال والسبب أنهم كانوا في زمان الجاهلية يوصون بالنفقة والسكنى حولاً كاملاً ، وكان يجب على المرأة الاعتداد بالحول فبين الله تعالى في هذه الآية أن ذلك غير واجب على هذا التقدير فالنسخ زائل

أورد الامام الرازي هنا في تفسيره ثم قال « واحتج على قوله بوجوده (أحدها) أن النسخ خلاف الأصل فوجب المصير إلى عدمه بقدر الامكان (والثاني) أن يكون النسخ متأخراً عن المنسوخ في النزول (أي الأصل أن يكون الخ ولعل لفظ الأصل سقط من النسخ أو الطابع) وإذا كان متأخراً عنه في النزول كان الاحسن أن يكون متأخراً عنه في التلاوة أيضاً لأن هذا الترتيب أحسن . فأمّا تقدم النسخ على المنسوخ في التلاوة فهو وإن كان جائزاً في الجملة إلا أنه يعد من سوء الترتيب ونزويه كلام الله تعالى عنه واجب بقدر الامكان . ولما كانت هذه الآية متأخرة عن تلك في التلاوة كان الأولى أن لا يحكم بكونها منسوخة بذلك

(الوجه الثالث) هو أنه ثبت في علم أصول الفقه أنه متى وقع التعارض بين النسخ وبين التخصيص كان التخصيص أولى ، وههنا إن خصصنا هاتين الآيتين بالحالتين على ما هو قول مجاهد اندفع النسخ فكان المصير إلى قول مجاهد أولى من التزام النسخ من غير دليل ، وأما على قول أبي مسلم فالكلام أظهر لأنكم تقولون تقدّر الآية : فعليهم وصية لأزواجهم ، أو تقديرها : فليوصوا وصية : فأنتم تضيفون هذا الحكم إلى الله تعالى وأبو مسلم يقول بل تقدير الآية : والذين يتوفون منكم ولهم وصية لأزواجهم : أو تقديرها : وقد أوصوا وصية لأزواجهم :

فهو يضيف هذا الكلام الى الزوج . واذا كان لا بد من الاضمار فليس اضماركم أولى من اضماره . ثم على تقدير أن يكون الاضمار ما ذكرتم يلزم تطرق النسخ الى الآية وعدد هذا يشهد كل عقل سليم بأن اضمار أبي مسلم أولى من اضماركم وأن التزام هذا النسخ التزام له من غير دليل ، مع ما في هذا القول بهذا النسخ من سوء الترتيب ان الذي يجب تنزيه كلام الله تعالى عنه ، وهذا كلام واضح ، واذا عرفت هذا فنقول هذه الآية من أولها الى آخرها تكون جملة واحدة شرطية فالشرط هو قوله « ولذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً وصية لأزواجهن متاعاً الى الحول غير إخراج » والجزاء هو قوله « فان خرجن فلا جناح عليكم في ما فعلن في أنفسهن

من معروف » فهذا تقدير قول أبي مسلم وهو في غاية الصحة . اهـ
أوردنا كلام الرازي بنصه على اسبابه واطنايداً فيه من تفنيد قول الجمهور بالحجج البينة التي يقتضيه أولوالالباب ، ولعلم القلايدون أن في أشهر مفسري القرون الوسطى من ضعف ذلك القول ورجح عليه كلا من القولين المخالفين له . واعلم أن ما ذكره من جواز كون الناسخ متأخراً عن المنسوخ في التلاوة هو ما قاله الاصوليون واطلاق القول فيه غريب ما حاهم عليه الا تصحيح فهمهم لمثل هاتين الآيتين أو اعتبارهم بتفسير الجمهور لها ، واذا سهل تسليم قولهم بجواز وجود آيتين في سورتين تنسخ إحداهما الاخرى مع وجود الناسخة في السورة المتأخرة في ترتيب القرآن فلا سهل القول بأن آيات متناقضة في سورة واحدة يجعل السابق منها ناسخاً لما بعده ، ويفهم من قوله بوجود تنزيه كلام الله تعالى عن مثل ذلك أنه لا يميزه لأن الواجب في التنزيه يدخل في باب العقائد فهو أبلغ من الواجب في الاحكام العملية ، فكيف يسمى تركه جائزاً ؟ واذا كان غير جائز فهو البرهان القاطع على بطلان قول الجمهور بالنسخ

بعد هذا كله أقول ان قول مجاهد في الآية بعيد جداً وإن فضله الرازي على قول الجمهور ، ويرجح قول أبي مسلم أمران أحدهما في العبارة وهو جمل « الذين »
« التفسير ج ٢ » « ٥٧ » « الجزء الثاني »

يتوفون» فيه على ظاهره وجمهور يحملونه بمعنى الذين تحضرهم الوفاة كأن هذه الوصية لا تجب عند القائل بوجودها الأعلى من يشعر بدنو أجله. وثانيها ما علم من عادة العرب في إلزام المرأة بيت زوجها المتوفى سنة كاملة، فلما جعل الاسلام عدتها أربعة أشهر وعشر كان من مقتضاه أن يخرجها الورثة من البيت بعد مضي العدة فإذا كانت غير راغبة في الزواج يشق عليها ذلك فكان من اللائق المتوقع من الزوج الوفي أن يوصي بعدم اخراجها قبل الحول المعتاد جبر القليها، وأن لا تكلف النفقة على نفسها مادامت في البيت، وقد بين الله تعالى للناس أنه لا حرج على أولياء الميت وورثته فيما تفعله المرأة إذا هي خرجت من بينهم، لأن كفالتهم إياها لا تسقط حينئذ من غير تقصير منهم في اكرامها، وإنما قيد الفعل بالمعروف لأنهم عنها عن المنكر واجب عليهم، فإذا قصرُوا فيه كان عليهم جناح عظيم.

وهذا الوجه الثاني يتفق مع التفسير المختار عن الأستاذ الامام وهو أن الوصية للذنب لا للوجوب. والوجه الاول يمكن التخصي منه بجعل الوصية من الله تعالى لامن المتوفى، والتقدير على الوجه المختار: والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً وصية من الله لأزواجهم أو قاله يوصي وصية لأزواجهم أن يتمتع متاعاً ولا يخرجن من بيوت أزواجهن إلى تمام الحول، فإن خرجن من تلقاء أنفسهن فلا جناح عليكم أيها المخاطبون بالوصية فيهم في ما فعلن من المنكر شرعاً وعادة كأن تعرض للخطاب بعد العدة والتزوج، اذ لا ولاية لكم عليهن فهن حرائر لا تمنعن الامن المنكر الذي يمنع منه كل مكلف. وجعل الوصية من الله تعالى معهود في القرآن كقوله «يوصيكم الله في أولادكم» وقوله «غير بضار وصية من الله» وهذا هو المتبادر من النظم الكريم فهو أظهر من قول أبي مسلم ولا يعارض آية تحديد العدة ولا آية الموارث ولا حديث «لا وصية لوأرث» فيتأتى فيه النسخ، سواء كانت هذه الوصية للذنب أو للوجوب، وما قلنا أنها للذنب إلا لعدم شيوع العمل بها كآية استئذان الولدان في سورة النور ولا يمكن الجزم بأنه لم يجعل بها احد البتة إذ لم يطلع احد من الخلق على جميع معاملات الناس في بيوتهم فتأمل هذا وما قبله أيها المستقل الفهم المعاني من جهالة التقليد، وتذكر قول المثل السائر، كم ترك الاول للآخر

وقد ختم الآية بقوله ﴿والله عزيز حكيم﴾ للتذكير بأن الله العزة والغلبة فيها يريد من تحويل الائم عن عادات ضارة إلى سنن نافعة تقتضيها الحكمة ، كتحويل العرب عن عاداتهم في العدة والحداد بجعل المرأة أسيرة ذليلة مقهورة مدة سنة كاملة إلى ما هو خير من ذلك وهو إكرامها مادامت في بيت زوجها بين أهله ، وعدم الحجر على حريتها إذا أرادت الخروج منه مادامت في حظيرة الشرع وآداب الامة المعروفة ، فهذه الحكمة البالغة توافق مصلحة الافراد والجمعيات في كل زمان ومكان

ثم قال تعالى ﴿وللمطلقات متاع بالمعروف حقا على المتقين﴾ قال الجلال: كرره نعيم المسوسة أيضا إذ الآية السابقة في غيرها . وقد أنكر عليه الاستاذ الامام كعادته القول بالتركرار ، قال كأن ما تقدم خص وما هنا عام . والصواب أن كل آية من الآيات التي وردت في المطلقات وردت في نوع منهن فتقدم حكم من لم تنس وقد فرض لها ، وحكم المدخول بها المفروض لها ، وبقي حكم غيرهما (وفي الذكرة الأخوذ في درسه : وبقي حكم المسوسة سواء فرض لها أم لا) فذكره هنا ، ولم يذكر ذلك بالترتيب ، لأن القرآن ليس كتابا فنياً فيكون لكل مقصد من مقاصده باب خاص به ، وإنما هو كتاب هداية ووعظ ينتقل بالانسان من شأن من شأنه إلى آخره ، ويعود إلى مباحث المقصد الواحد المرة بعد المرة مع التفنن في العبارة ، والتنويع في البيان ، حتى لا يمل تاليه وسامعه من المواظبة على الاهتداء . يوجز أحياناً بما يعجز كل أحد عن الانيان بمثله إذا كان المقام يقتضي الإيجاز ، ويطلب في مقام آخر حيث ينبغي الاطناب ، وهو معجز في إطنابه كإيجازه ، لا لغو فيه ولا حشو ، ولكل مقام فيه مقال ينطبق على الحكمة ، ويعين على التدبر والتذكر

(أقول) ان المطلقات أربع : مطلقة مدخول بها ، قد فرض لها مهر فلها كل المفروض وعندها ثلاثة قروء وفيها قوله تعالى (ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً) الآية وتقدم تفسيرها وفي معناها قوله تعالى في سورة النساء (٤: ٢٠) وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم أحداهن قطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً) ومطلقة غير مدخول بها ولا مفروض لها ، فيجب لها المنة بحسب إيسار المطلق ولا مهر لها ، وفيها قوله

تعالى (لا جناح عليكم إن طلقتم النساء ما لم تمسوهن) الآية . وقد سبق تفسيرها ولا عدة عليها لآية الاحزاب التي ذكرناها في تفسيرها استشهاده . ومطلقة مفروض لها غير مدخول بها فلم ينصف المهر المفروض وفيها قوله (وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن) وتقدم تفسيرها ولا عدة عليها أيضاً ومطلقة مدخول بها غير مفروض لها ، قالوا ولها مهر مثلاً بلا خلاف . وذكر بعضهم أن قوله تعالى في سورة النساء (٢٤ : ٤) فما استمتعتم به منهن فاتوهن أجورهن فريضة) معناه فاعطوهن مهرهن بافترض والتقدير إذا كان غير مسمى . أي والعمد في التقدير مساوياً لها على الأقل ، ولم يأمرنا تعالى بالتمتع عند ذكر نوع من المطلقات الا غير المسوسات مطلقاً كما في آية الاحزاب أو مقيداً بقوله (أو نفرضوا لهن فريضة) كما تقدم في الآية المشار إليها . نعم ختم الله تعالى هذه الاحكام المسرودة هنا بقوله (وللمطهقات مناع) الخ فزعم بعضهم أن المراد المطلقات الموهوبات اللواتي سبق الامر بتمتعهم ، واستدلوا بما رواه ابن جرير عن ابن زيد قال : لما نزلت (وتمسوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعاً بالمعروف حقاً على المحسنين) قال رجل ان أحسنت فعلت ، وإن لم رد ذلك لم أفعل . فأنزل الله هذه الآية . وقسروا المتقين بمتقي الكفر ، وليست هذه الرواية بما يحتاج به ، وقد قدمنا أن ذكر المحسنين هناك لا يدل على التخيير . وقال بعضهم ان هذا حكم عام فتجب المتعة لكل مطلقة . ولا تكرار على هذا مع الآية إلا مرة بتمتع من لم تمس ولم يفرض لها ، لأن هذه الآية مسوقة لحكم هذه المتعة من غير تخصيص ولا تقييد بكونها تختلف باختلاف حال الرجل في اليسار ، وتلك سبقت لبيان نفي الجناح عن طلق من لم يمسه ولم يفرض لها ، وجاء في السياق أنه يجب لها تمتع حسن بحسب وسع المطلق لما تقدم بيانه في تفسيرها . فعلى هذا تكون المتعة مشروعة لكل مطلقة ، وروي هذا عن ابن عباس وابن عمر وعطاء وجابر ابن زيد وسعيد بن جبير وأبي العالية والحسن البصري والشافعي في أحد قوله وأحمد وإسحاق واستدلوا بعموم هذه الآية بقوله تعالى في سورة الاحزاب (٣٣ : ٢٨) يا أيها النبي قل لأزواجك ان كنتن تردن الحياة وزينتها فتمالين أمتعن وأسرحن سراحاً جميلاً) وقد كن مدخولاً بهن مفروضاً لهن المهر .

(البقرة ص ٢) القرآن سننه في بيان الاحكام مع حكمه مقرونة بالذكر والموعظة ٤٥٣

والقاتلون بهذا منهم من يقول إنها واجبة لكل مطلقة ومنهم من يقول واجبة لمن تمس ولم يفرض لها مندوبة غيرها . وحجة من قال ان التمتع خاص بمن لم تمس ولم يفرض لها هي أنه بدل مما يجب غيرها من نصف المهر ان فرض لها ولم تمس أو المهر المسمى أو مهر المثل اذا كانت محسوسة . وحسبنا ان الله تعالى جعل جميع المطلقات حقاً على المتقين ، وقد فسروه بالذين يتقون الشرك ، أو هو حق على كل مؤمن مطلق . لا نثبت أن ما تستحقه من المهر يسمى متاعاً في عرف القرآن فليؤخذ تكون هذه الآية قد ذكرت الدائر الآيات ، كأنه قول لكل مطابقة متاع تمتع به فمنه من متاعها المهر المسمى أو المقدر ومنه من متاعها نصفه ومنه من لها متاع غير محدود لانه على حسب الاستطاعة . وأحوط لا قول وأوسطها قول من جعل المتعة غير المهر وأوجها لمن لا تستحق مهرها ونديها لغيرها

ثم ختم الله تعالى هذه الاحكام بقوله ﴿ كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تعقلون ﴾ أي مضت سنته تعالى بأن يبين لكم آياته في أحكام دينه مثل هذا النحو من البيان ، وهو أن يذكر الحكم وفائدته ويقرنه بذكر الله والموعظة الحسنة التي تعين على العمل به ، ليعلمكم بذلك لكمال العقل فتتجروا الاستفادة من كل عمل فعليكم أن تعقلوا ما تخاطبون به لتكونوا على بصيرة من دينكم ، عارفين بانطباق أحكامه على مصالحكم بما فيها من تزكية نفوسكم وإتأليف بين قلوبكم ، فتكونوا حقيقين باقامتها والحفاظ عليها . قال الاستاذ الامام ليس معنى العقل أن يحمل المعنى في حاشية من خواشي الدماغ ، غير مستقر في الذهن ولا مؤثري النفس ، بل معناه أن يتدبر الشيء ويتأمله حتى تدعن نفسه لما أودع فيه إذعاناً يكون له أثر في العمل ، فمن لم يعقل الكلام بهذا المعنى فهو ميت وإن كان يزعم أنه حي — ميت من عالم العقلاء ، حي بالحياة الحيوانية — وقد فهمنا هذه الاحكام ولكن ما عقلمناها ، ولو عقلمناها لما أهملناها :

وأقول أين هذه الطريقة المثلى في بيان الاحكام من طريقة الكتب المعروفة عندنا بكتب الفقه ، وهي غفل في الغالب من بيان فائدة الاحكام وانطباقها على مصالح البشر في كل زمان ومزجها بالوعظ والتذكير ، وأين أهل التقليد من هدى

القرآن؟ هو يذكر لنا الاحكام بأسلوب يعدنا للعقل، ويجعلنا من أهل البصيرة، وينهانا عن التقليد الأعمى، وهم يأمرونا بأن نخر على كلامهم وكلام أمثالهم صامو عمياناً، ومن حاول منا الاهتداء بالكتاب العزيز وما بينه من السنة المتبعة أقاموا عليه الكبر، وعلله لا يسلم من التبديع والتكفير، يزعمون أنهم بهذا يحافظون على الدين ربما أضاع الدين الا هذا فان بقيت على هذه التقاليد لا يبق على هذا الدين احد فاننا نرى الناس يتسللون منه لو اذوا اذا رجعنا الى العقل الذي هدانا الله تعالى اليه في هذه الآية وأمثالها رجي لنا أن نحبي ديننا فيكون دين العقل هو مرجع الامم أجمعين، وهذا ما وعدنا الله تعالى به ﴿٣٨ : ٨٨﴾ ولتعلمن نبأه بعد حين ﴿٣٩﴾

(٢٤٣) لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (٢٤٤) وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ

لما ذكر تعالى من الاحكام ما ذكر في الآيات السابقة ففي عليه يذكر بعض أخبار الماضين لأجل العظة والاعتبار، بما تتضمنه الوقائع والآثار، كما هي سنة القرآن، في تنويع التذكير والبيان، بل الانتقال هنا انما هو من الاحكام مسرودة مع بيان حكمتها، والتنبيه لغايتها، الى حكم سبقته حكته، وتقدمته فائدته، في ضمن مراقبة مضت زيادة في البصيرة ومبالغة في الحمل على الاعتبار، وهو حكم القتال في سبيل الله، ويتنوه حكم بذل المال في سبيله. الاحكام السابقة تتعلق بالاشخاص في أنفسهم وبيوتهم، وهذان الحكمان في أمر عام يتعلق بالامم من حيث حفظ وجودها، ودوام استقلالها، بدافعة المعتدين عنها، وبذل الروح والمال في حفظ مصالحها، وتوفير منافعها، ولذلك كان الاسلوب أشد ثيراً، وأعظم تذكيراً لأن الإشارة في سياق التذكير بمنافع الشخص ومصلحه في نفسه وفيمن يتصل

يه ، كافيه للذكر والعمل بما يوعظ به لموافقة ذلك لهواه ، فلها من النفس عون لا يعيب ، ووازع لا يعصى ، وأما المصالح العامة فانه لا يفتن لها ولا يرغب فيها الا الاقلون ، فالعناية بالدعوة اليها ، يجب أن تكون بمقدار بعد الجماهير عنها ، فن تم جاءت هذه الآيات ببيان أجلى ، وأسلوب أفعّل وأقوى ، كما ستعلم تفسيرها عن الاستاذ الامام ، لأعن القصاصين وأصحاب الاوهام ،

رووا في قصة — الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت — روايات من الاسرائيليات التي ولع بها المفسرون وكلفوا بتطبيق كتاب الله تعالى عليها ، أشهرها أبمدها عن السياق وهي رواية السدي قال : كانت قرية وقع فيها الطاعون وهرب عامة أهلها والذين بقوامات أكثرهم ، وبقي قوم منهم في المرض والبلاء ، ثم بعد ارتفاع المرض والطاعون رجع جميع الذين هربوا سالمين ، فقال من بقي من المرضى : هؤلاء أحرص منألو صنعنا ما صنعوا النجونا من الامراض والآفات ، ولئن وقع الطاعون ثانياً لنخرجن كما خرجوا : فوقع وعربوا وهم بضعة وثلاثون ألفاً ، فلما خرجوا من ذلك الوادي ناداهم ملك من أسفل ارضي وآخر من اعلاه : أنت موتوا : فهلكوا وبليت أجسامهم ، فمر بهم نبي يقال له حزقيل فلما رآهم وقف عليهم وتفكر فيهم فأوحى الله تعالى اليه « أتريد أريك كيف أحيبهم ؟ » فقال نعم فقبل له ناد : أيتها العظام ان الله يأمرك أن تجتمعي : فجعات العظام يطير بعضها الى بعض حتى تمت العظام . ثم أوحى الله تعالى اليه ناد : أيتها العظام ان الله يأمرك أن تكتمي لحماً ودمافصارت لحاودما ثم ناد : ان الله يأمرك أن تقومي فقامت ، فماصاروا أحياء قاموا وكانوا يقولون سبحانك ربنا وبحمدك لا اله الا أنت ، ثم رجعوا الى قريتهم بعد حياتهم وكانت لغارات أنهم ماتوا في وجوههم ، ثم بقوا الى أن ماتوا بعد ذلك بحسب آجالهم أقول على هذه الرواية اقتصر (الجلال) مع علمه بأن السدي هذا هو محمد بن مروان الكوفي المفسر الكذاب كآل ابن جرير وغيره (وايس هو اسماعيل السدي الناسي الذي وثقه أحمد وضعفه ابن معين) وذكر في عددهم أقوالا أقفلها

أربعة آلاف وأكثرها سبعون ألفاً ، وأنهم عاشوا دهرًا عليهم أثر الموت لا يلبسون ثوباً إلا عدا كالكمف واستمرت في أسياطهم !!!

وهناك رواية أخرى وهي أن ملكاً من ملوك بني إسرائيل استغفر عسكريه للقتال فأبوا لأن الأرض التي دعوا إلى قتالها موبوءة فأماهم الله ثمانية أيام حتى انتفخوا وعجز بنو إسرائيل عن دفنهم فأحياهم الله تعالى وبقي فيهم شيء من ذلك المتن . وفي بعض القصص إن ذلك انتقل إلى ذريتهم وسبق فيهم حتى ينقضوا ، ولما تجدد في العلماء من ينبه الناس لهذه الأكاذيب —

والرواية الثالثة هي أن حزقيال النبي عليه السلام ندب قومه إلى القتل فكفروا وجمنوا فأرسل الله عليهم الموت فكفر فيهم فخرجوا من ديارهم فراراً منه ، فدعا عليهم نبيهم فأرسل الله الموت على الخارجين ، ثم ضحك صدره فدعا الله فأحياهم ، ولكن هذا لم يذكر في نبوة حزقيال من كتب العهد العتيق ، ولا في غيرها

إذا علمت هذا فألق السمع إلى ما نروي به لك عن الاستاذ الامام ، وتذكر ما فيه من حقائق علم الاجتماع في القرآن ، لتعلم أن حقائق هداية كتاب الله يتجلى منها في كل عصر للعارفين بالله ما لم يتجلى لسواهم ، وأنه الكتاب الذي لا تنتهي هدايته ولا تنفد معارفه ، وأن هذه الامة كالطر قد يكون في آخره من الخير والبركة ما لم يكن في أوله كما روي في الحديث الصحيح

قل تعال ﴿ ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم ﴾ الاستفهام هنا للتعجب والمعبرة ، والخطاب لكل من بلغه ، والرؤية بمعنى العلم ، والمعبرة استعملت استعمال المثل فهي توجه إلى من لم ير ولم يعلم ذلك ، والتقدير : ألم ينه علمك أيها الخطاطب

(١) هكذا ذكرت الحديث بالمعنى وأطقت القول بصحته في الطبعة الاولى بدون تخريج اعتماداً على حفظي المبهم وكأني لم أجِد يوماً وقتاً لمراجعته وقد رواه الترمذي من حديث أنس بإفظ « مثل أمي مثل المطر لا يدري أوله خير أم آخره » وقال الحافظ في فتح الباري وهو حديث حسن له طرق قد يرتقيها إلى الصحة . قال وصححه ابن حبان من حديث عمار

إلى حال هؤلاء ، الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت ، فإن حالهم
عجيبة من حقها ألا تجهل ، فانهم في كثير منهم أحقاء بأن يكونوا لهم من الشجاعة
ما يربأ بهم عن الخروج من وطنهم حذراً من الموت
قل شيخنا الأستاذ الامام في هذا المثل ما مثاله : وفي تفسير ابن كثير عن
ابن جرير عن عطاء أن هذا مثل أبي لا قصة واقعة .

أطلق القرآن القول في هؤلاء الذين خرجوا من ديارهم ولم يعين عددهم ولا أمتهم
ولا بلدهم ولو علمنا خيرا في التبيين والتفصيل لنفضل علينا بذلك في كتابه المبين ،
فناخذ القرآن على ما هو عليه لا ندخل فيه شيئاً من الروايات الامرائيلية التي
ذكروها ، وهي صارفة عن العبرة لا مزيد كل فيها ، والتبادر من السياق أن
أوائل القوم قد خرجوا من ديارهم بسائق الخوف من عدو مهاجم لامن قلتهم ،
فقد كانوا ألوف أي كثيرين ، وإنما هو الحذر من الموت الذي يولده الجبن في
أنفس الجبناء فيريهم أن الفرار من القتل هو الوافي من الموت . وما هو إلا سبب
الموت بما يمكن الأعداء من رقب أهلهم ، قل أبو الطيب

يرى الجبناء أن الجبن حزم وتلك خديعة الطبع الثميم

قال الأستاذ الامام في قول (الجلال) أن الاستفهام بها استفهام تعجيب وتشويق :
أي ان الاستفهام الحقيقي ممنوع من الله . ولذلك كان أكثر استفهام القرآن للإنكار
أو للتقرير . ولكن الاستفهام هنا شيء آخر وهو ما يحدث العجب للنبي ﷺ
وبوجوب الشوق له إلى ما يقص عليه ، والمعنى ألم ينته علمك إلى حال هؤلاء الذين خرجوا
من ديارهم الخ والرؤية بمعنى العلم بمنع أن تكون صريحة . ولم يقل ألم تعلم للاشعار بأن
الامر المحكي عنه قد انتهى في الوضوح والتحقيق إلى مرتبة المرئي

أقول : ولا يشترط أن تكون القصة في مثل هذا التعبير واقعة بل يصح مثله في
القصص التمثيلية ، إذ يراد أن من شأن مثابها في وضوحه أن يكون معلوما حتى
كأنه مرئي بالعينين . ومنه ما فيها عليه من الفرق بين العطف بالغاء وبهم ، وقد قالوا
ان العطف في قوله تعالى (وقتلوا) الاستئناف ، لان الجملة المبدوءة بالواو هنا
جديدة لا تشارك ما قبلها في إعرابه ولا في حكمه الذي يعطيه العطف

قال الاستاذ الامام وهذا لا يمنع أن يكون بين الجملة المبدوءة بواو الاستئناف وبين ما قبلها تناسب ورتباط في المعنى غير ارتباط العطف والمشاركة في الاعراب، كما هو الشأن هنا، فإن الآية الاولى مبينة لغائدة القتل في الدفاع عن الحق أو الحقيقة، والثانية آمرة به بعد تقرير حكمته وبيان وجه الحاجة اليه، فلا ارتباط بينهما شديد إلا وأخي، لا يعتبر به التراخي.

خرجوا قارين ﴿١﴾ فقال لهم الله موتوا ﴿٢﴾ أي أمانهم بإمكان العدو منهم، فلا امر التسكين لا أمر التشريع أي قضت سنته في خلقه بأن يموتوا بما أنوه من سبب الموت، وهو تمكين العدو المحارب من أقدانهم بالفرار، ففتك بهم وقتل أكثرهم. ولم يصرح بأنهم ماتوا لأن أمر التسكين عبارة عن مشيئته سبحانه

فلا يمكن تخلفه والاستغناء عن النصريح بقوله بعد ذلك ﴿٣﴾ ثم أحياهم ﴿٤﴾ وإنما يكون الأحياء بعد الموت. والكلام في القوم لا في أفرادهم خصوصية، لأن المراد بيان سنته تعالى في الأمم التي تسبق فلا تدافع العادين عليها، ومعنى حياة الأمم وموتها في عرف الناس جميعهم معروف. فعنى موت أولئك القوم هو أن العدو نكل بهم فأفنى قوتهم، وأزال استقلال أمتهم، حتى صارت لا تعد أمة، بأن تفرق شملها، وذعبت جامعتها، فكان من بقي من أفرادها خاضعين للغالبين ضائعين فيهم، مدغمين في غياهم، لا وجود لهم في أنفسهم، وإنما وجودهم تابع لوجود غيرهم. ومعنى حياتهم هو عود الاستقلال اليهم. ذلك أن من رحمة الله تعالى في البلاء يصيب الناس أنه يكون تأديباً لهم، ومطهرراً لنفوسهم مما عرض لها من دنس الأخلاق الذميمة. أشعر الله أولئك القوم بسوء عاقبة الجبن والخوف والفشل واتخاذ بما أذاقهم من سراتها، فجمعوا كلمتهم، ووثقوا رابطتهم، حتى عادت لهم وحدتهم قوية فاعزوا وكشروا إلى أن خرجوا من ذل العبودية التي كانوا فيها إلى عز الاستقلال، فهذا معنى حياة الأمم وموتها — يموت قوم منهم باحتمال الظلم، وبذل الآخرون حتى كأنهم أموات، إذ لا تصدر عنهم أعمال الأمم الحية، من حفظ سياج الوحدة، وحماية البيضة، بتكافل أفراد الأمة ومنعتهم،

فيعتبر النافقون فيهمضون إلى تدارك ما فات ، والاستعداد لما هو آت ، ويتعلمون من فعل عدوهم بهم كيف يدفعونه عنهم ، قل علي كرم الله وجهه إن بقية السيف هي الباقية ، أي التي يجيها أولئك الميتون : قالموت والاحياء واقعان على القوم في مجموعهم ، على ما عهدنا في أسلوب القرآن إذ خاطب بني اسرائيل في زمن تنزيله . كان من آياتهم الاولين ، بمثل قوم (٢ : ٤٩) أنجبناكم من آل فرعون — وقوله — ٢ : ٥٦ ثم بعثناكم من بعد موتكم) وغير ذلك ، وقلنا ان الحكمة في هذا الخطاب تقرير معنى وحدة الامة وتكافلها ، وتأثير سيرة بعضها في بعض حتى كأنها شخص واحد ، وكل جماعة منها كمضوء منه ، فان انقطع العضو العامل لم يكن ذلك مانعاً من مخاطبة الشخص بما عمله قبل قطعه ، وهذا الاستعمال معهود في سائر الاسكلام العربي يقال : هجمنا على بني فلان حتى أفنيهم أو أنينا عليهم ، ثم أحرموا سرهم وكروا عليه (مثلاً) وإنما كر عليهم من بقي منهم

(أقول) وإطلاق الحياة على الحالة العنوية الشريفة في الاشخاص والامم والموت على ما بناها معهود كقوله تعالى (٨ : ٢٤) يا أيها الذين آمنوا استجبوا لله وللرسول إذ دعاكم لذي بحيمكم) وقوله (٦ : ١٢٢) أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يحْيِي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها) الآية وانظر إلى دقة التعبير في عطف الامر بالموت على الخروج من الديار بالغاء الدالة على اتصال الهلاك بالفرار من العدو ، وإلى عطفه الاخبار باحيائهم بضم الدالة على تراخي ذلك وتأخره ، ولان الامة إذا شعرت بملة البلاء بعد وقوعه بها وذهابه باستقلاطها لا يتيسر لها تدرك ما فات إلا في زمن ضويل ، فما قرره لاستاذ الامم هو ما يعطيه النظم البليغ وتؤيده السنن الحكيمة ، وأما الموت الطبيعي فهو لا يتكرر كما علم من سنة الله ومن كتابه إذ قل (٤٤ : ٥٦) لا يدوقون فيها الموت إلا الموتة الاولى) وقال (٤ : ١١) وأحييتنا اثنتين) ولذلك أول بعضهم الموت هنا بأنه نوع من السكينة والاغاء الشديد لم تفارق به الارواح أبدانها ، وقد قال بعد ما قرره : هذا هو المتبادر فلا نحمل القرآن ما لا يحمل لنطبقه على بعض قصص بني اسرائيل ، والقرآن لم يقل إن أولئك الالوف منهم كما قال في الآيات

الآتية وغيرها ، ولو فرضنا صحة ما قالوه من أنهم هربوا من الطاعون وأن الفائدة في إيراد قصتهم بيان أنه لا مفر من الموت لما كان لنا مندوحة عن تفسير إحيائهم بأن الباقين منهم تناسلوا بعد ذلك وكثروا وكانت الامة بهم حية عزيزة ، ليصح أن تكون الآية تمهيداً لما بعدها مرتبطة به ، والله تعالى لا يأمرنا بالقتال لاجل أن نقتل ثم يحيننا بمعنى أنه يبعث من قتل منا بعد موتهم في هذه الحياة الدنيا

﴿ ان الله لذو فضل على الناس ﴾ كانه بما جعل في موتهم من الحياة إذ جعل المصائب والمعظائم ، محيية لاهمهم والعزائم ، كما جعل الهلع والجبن وغيرهما من الاخلاق التي أفندها الترف والسرف من أسباب ضعف الامة ، وجعل ضعف أمة مغرباً لامة قوية بالوثيان عليها ، ولاعتداء على استقلالها ، وجعل الاعتداء منها لاقوى الحكمة في المعتدى عليه ، وملجأ له إلى استعمال مواهب الله فجأوهبت لاجله ، حتى تحيا الامة حياة عزيزة ، ويظهر فضل الله تعالى فيها

قال الاستاذ الامام المراد افضل هذا الفضل العام وهو أنه تعالى جعل إمامة الناس بما يسلط على الامة من الاعداء ينكحون بها بمثابة هدم البناء القديم المتداعي والضرورة قاضية ببناء فلاجرم تنبعث الهمة إلى هذا البناء الجديد فيكون حياة جديدة للامة ، تفسد الاخلاق لامة ففسده الاعمال ، فيسلط الله على فاسدي الاخلاق النكبات ليتأدب الباقي منهم ، فيجتهدوا في إزالة الفساد وإدالة الصلاح ، ويكون ما هلك من الامة بمثابة المصوب الفاسد المصاب بالغمر بنا يمتره الطيب ليسلم الجسد كله ، ومن لا يقبل هذا التأديب الالهي فان عدل الله في الارض يحقه منها (٢ : ٢٧٠) واللازم من أنصار) فهذا سنة من سنن الاجتماع بينها القرآن وكان الناس في غفلة عنها ولهذا قال

﴿ ولكن أكثر الناس لا يشكرون ﴾ أي لا يقومون بحقوق هذه النعمة ، ولا يستفيدون من بيان هذه السنة ، أي هذا شأن أكثر الناس في غفلتهم وجهلهم بحكمة ربهم ، فلا تكونوا كذلك أيها المؤمنون بل اتبروا بما نزل عليكم وتأدبوا به لتستفيدوا من كل حوادث الكون حتى مما ينزل بكم من البلاء إذا وقع منكم تغريط في بعض الشؤون ،

وعموا أن الجبن عن مدافعة الاعداء ، وتسليم الديار بالهزيمة والفرار ، هو الموت المحفوف بالخزي والعار ، وأن الحياة العزيزة الطيبة هي الحياة المليئة المحفوظة من عدوان المعتدين ، فلا تقصروا في حماية جامعتكم في الملة والدين

﴿وقاتلو في سبيل الله واعلموا ان الله سميع عليم﴾ القتال في سبيل الله هو القتال لاعلاء كلمته ، وتأمين دينه ونشر دعوته ، والدفاع عن حربه كي لا يغلبوا على حقهم ، ولا يصدوا عن إظهار امرهم ، فهو اعم من القتال لاجل الدين ، لانه يشمل مع الدفاع عن الدين وحماية دعوته الدفاع عن الحوزة إذا هم الطامع المهاجم باغتصاب بلادنا والتمتع بخيرات ارضنا ، أو اراد العدو انباغي اذلالنا ، والعدوان على استقلالنا ، ولو لم يكن ذلك لاجل فتنتنا في ديننا ، فهذا الامر مطلق كأنه امر لنا بأن نتحلى بحمية الشجاعة ، ونفسر بل بسراييل القوة والعزة ، لتكون حقوقنا محفوظة ، وحرمتنا مصونة ، لا تؤخذ من جانب ديننا ، ولا نقتال من جهة ديانا ، بل نبقى اعزاء الجانبين ، جديرين بسعادة الدارين ، لا ترى ان من ساق الله لنا العبرة بحالهم ، وذكرونا بسنته في موتهم وحياتهم ، لم يذكر انهم قوتلوا وقتلوا لاجل الدين ، فالقتال لحماية الحقيقة كالاقتال لحماية الحق كله جهاد في سبيل الله ، فتفسير (الجلال) سبيل الله باعلاء دينه تقييد لمطلق وتخصيص لقول عام من غير دليل ، وقد اتفق الفقهاء على أن العدو إذا دخل دار الاسلام ، يكون قتاله فرض عين

ذكرنا الله تعالى بعد هذا الامر بأنه سميع عليم لينبهنا على مراقبته فيما عسى ان نعتذر به عن انفسنا في تقصيرنا عن امتثال هذا الامر في وقته ، واخذ الالهة له قبل الاضطراب اليه ، امرنا ان نعلم انه سميع لا قوال الجبناء في اعتذارهم عن انفسهم : ماذا نعمل ؟ ما في اليد حيلة ، ليس لها من دون الله كاشفة ، ليس لنا من الامر شيء : لو كان لنا من الامر شيء ما قعدنا ههنا . فهذه الالفاظ في هذا المقام منفتح الجنب ، وعلل الخوف والحزن ، فهي عند اهلها تعلات واعدار ، وعند الله تعالى ذنوب واوزار ، وما كان منها حقاً في نفسه فهو من الحق الذي يريد به الباطل — وان نعلم انه عليم بما يأتيه مرضى القلوب وضعفاء لايمان من الحيل

والمراوغة ، والفرار من الاستعداد والمدفعة ، فاذا علمنا هذا وحاسبنا به انفسنا ، عرفنا ان كلا من المعتذر بلسانه ، والمتعلل بفعاله ، مخادع لربه ولنفسه وقومه ، قال الاستاذ الامام بعد نحو مما تقدم ، وكثير من الناس يهزأ بنفسه وهو لا يدري اذ يصدق ما يعتاده من التوهم ، وهذه شمشنة الخذولين الذين ضربت عليهم الذلة وخيم عليهم الشقاء ، تعمل فيهم هذه الوساوس ما لا تعمل الحقائق ، وقد ائذرن الله تعالى أن نكون مثلهم بتذكيرنا بأنه سميع عليم ، لا يخادع ولا يخفى عليه شيء . ونقول ان هذا التذكير كان بالامر بالعلم لا بمجرد القول أو التسليم ، فن علم علماً صحيحاً أن الله سميع لما يقول عليم بما يفعل ، حاسب نفسه وناقشها ، ومن حاسب نفسه وناقشها تجلى له كل أن من تقصيرها ما يحمله على التشمير لتدارك ما فات ، والاستعداد لما هو آت ، فن تراهم مشرراً فاعلم أنه عالم ، ومن تراه مقصراً فاعلم أنه مغرور آثم .

(٢٤٥) مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ

القتال للدفع عن الحق أو لحماية الحقيقة يتوقف على بذل المال لتجهيز المقاتلة ، ولغير ذلك ، لا فصل في الحاجة الى هذا بين البدو والحضر ، فاذا كانت مقاتلة القبائل البدوية لا تكلف رئيسها أن يتولى تجهيزها بل يجهز كل واحد نفسه ، فكل واحد مطالب ببذل المال لتجهيز نفسه وإعانة من يعجز عن ذلك من فقراء قومه ، وأما دول الحضارة فهي تحتاج في الاستعداد للمدافعة والمهاجمة ما لا يحتاج اليه أهل البداية ، وقد كثرت نفقات الدول الحربية اليوم بإرتقاء الفنون العسكرية ، وتوقف الحرب على علوم وفنون وصناعات كثيرة من قصر فيها كان عرضة لسقوط دولته . لهذا قرن الله تعالى الأمر بالقتال ، بالحث على بذل المال ، فالمراد بالبذل هنا ما يمين على القتال ، وما هو بمعناه من كل ما يعنى شأن الدين ، ويصون لامة ويمنعها من عدوان العادين ، ويرفع مكانتها في العالمين .

وقد ذكر حكم هذا الاتفاق في سبيل الله بعبارة تستفز النفوس ، وأسلوب يحفز

الهمم ، وببسط الاكف بانكرم ، فقال ﷺ من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً ؟
فهذه العبارة أبلغ من الامر المجرد ، ومن الامر المقرون ببيان الحكمة ، والتنبيه إلى
الفائدة ، والوجه في اختيار هذا الأسلوب هنا على ما قرره الاستاذ الامام أن الداعية
إلى البذل في المصالح العامة ضعيفة في نفوس الاكثربين ، والرغبة فيه قليلة ، إذ ليس
فيه من التلذذ والارباحية ما في البذل للأفراد ، فاحتيج فيه للمبالغة في التأثير

يدفع الغني إلى بذل شيء من فضل ماله لأفراد من يعيش معهم أمور كثيرة ،
منها إزالة ألم النفس برؤية المعوزين والبائسين ، ومنها اتقاء حسد الغبراء واكتفاء
شر شرارهم والأمن من اعتدائهم ، ومنها التلذذ برؤية يده العليا ، وبما يتوقعه
من ارتفاع المكانة في النفوس ، وتعظيم من يبذل لهم وشكرهم وحبهم ، فان السخي
محبب إلى جميع الناس من يتنفع منهم بسخائه ومن لا يتنفع ، وإذا كان البذل إلى
ذوي القرى أو الجيران حفظ النفس فيه أجلى ، وشفاء ألم النفس به أقوى ، فان ألم جارك
وقريبك ألم لك ، ويتعذر على الانسان أن يكون ناعماً بين أهل البؤس والفساد ،
سعيداً بين الاشقياء ، فكيف هذه حظوظ النفس في البذل للأفراد تسهل عليها امتثال
أمر الله فيه ، وإن لم يكن مثلاً ، وقد يكون فيها من الرياء وحب السمعة
ما ينافي كونها قربة وتعبداً .

وأما البذل الذي يراد هنا — وهو البذل للدفاع عن الدين وإعلاء كلمته —
وحفظ حقوق أهله — فليس فيه شيء من تلك الخطوظ التي تسهل على النفس
مفارقة محبوبها (المال) إلا إذا كان تهرباً جهرياً يتولى جمعه بعض الحكام والأمراء
أو يجمع بأمر الملوك والسلاطين ، ولذلك يتل في الناس من يبذل المال في
المصالح العامة لوجه الله تعالى ، فلهذا كان المقام يقتضي مزيد التأكيد ، والمبالغة
في الترغيب ، وليس في الكلام ما يدرك شأن هذه الآلة في تأثيرها ولا سبب موقعتها .
هذا بعد بيان سنة الله تعالى في موت الامم وحياتها

حسبك أنه تعالى جعل هذا البذل بمثابة الإقرض له وهو الغني عن العالمين
الذي له ملك السموات والأرض وما بينهما ، وإنما يقتضى المحتاج — وأنه عبر عن

طلبه بهذا الضرب من الاستفهام ، المستعمل للاكبار ولاستعظام ، فانه انما يقال من ذا الذي يفعل كذا ؟ في الامر الذي يندرج ان يقدم عليه أحد . يقال من ذا الذي يتناول الى الملاك فلان ؟ أو من ذا الذي يعمل هذا العمل وله كذا ؟ اذا كان عظيماً أو شاقاً يقل من يتصدى له . قال تعالى (٢ ، ٢٥٥) من ذا الذي يشفع عنده الا باذنه ؟) وقال (١٧ ، ٣٣) قل من ذا الذي يعصمكم من الله ؟ الآية . ولا يقل من ذا الذي يشرب هذه السكس المشوجـة . وهجير الصيف متقد ، والسموم تلتفح الوجوه . ؟ وانه لم يكتف بتسميته إقراضاً وبالتعبير عنه بهذا الاستفهام حتى قال ﴿ فيضاعفه لأضعافاً كثيرة ﴾ ذلك أن الإقرض هو أن تعطى انساناً شيئاً من المال على أن يرد اليك مثله ، فالتعبير بالإقراض يقتضي أن الإقرض لا يضيع ، وليس هذا بكاف في الترغيب الذي تقتضيه الحل هنا ، فصرح بأنه لا يرد مثله ، بل أضف أضماؤه من غير تحديد ، وقد قل في مقام آخر (٣٤ ، ٣٩) وبما أنفقتم من شيء فهو يخلفه) . وهو كاف هناك لما علمت من الفصل بين المقامين ، والتفاوت بين الناس في الحالين ، وإنك لتجد الناس على هذا التأكيد في الترغيب كلما يجدون بأموالهم في المصالح العامة (٣٤ ، ١٣) وقليل من عبادي الشكور)

قال الاستاذ الامام معلوم ان الله تعالى غني عن العالمين فلا يحتاج الى شيء لذاته ، ولا هو عائل لجماعة معينين فيقرض لهم ، فلا بد لهذا التعبير بالإقراض من وجه صحيح . أي غير ما يعطيه الاسلوب من الترغيب . فما هذا الوجه ؟ ورد في الحديث أن الفقراء عيال الله على الأغنياء^١ لأن الحاجات التي تعرض لهم يقضيها

(١) هكذا قال الامام وهو يشير الى الحديث المتداول « الفقراء عيال الله وأحب الناس الى الله أن تقهم أعياله » وقد رواه أبو يعلى في مسنده والبخاري في حديث أنس والطبراني في حديث ابن مسعود بلفظ « الخلق كلهم عيال الله فأحبهم الى الله أن تقهم أعياله » كذا في كثر العمال . وقال الجلال في الاحاديث المشهورة رواه البيهقي في الشعب وأبو يعلى في حديث أنس وسنده ضعيف وابن عدي من حديث ابن مسعود . أقول ورواه الخطيب عن ابن عباس بلفظ « فأحب الناس الى الله تعالى من أحسن الى عياله » والديلمي عن أبي هريرة بزيادة « وأبغض الخلق الى الله =

الاغنياء . ومعنى كونهم عيال الله ان ما أصابهم من العاقبة والعوز إنما كان بالجري على سنن الله في أسباب الفقر ، وللفقر أسباب كثيرة منها الضعف والعجز عن الكسب ومنها خفق السعي ، ومنها البطالة والكسل ، ومنها الجهل بالطرق الموصلة ، ومنها ما تسوقه الأقدار من نحو حركات الرياح واضطراب البحار واحتباس الأمطار ، وكساد التجارة ورخص الأسعار ، والاغنياء متمكنون من إزالة بعض هذه الأسباب أو تدارك ضررها وإضمار أثرها ، كإزالة البطالة بأحداث أعمال ومصالح للفقراء ، وإزالة الجهل بالاتفاق على التعلم والتربية - تعليم طرق الكسب والتربية على العمل والاستقامة والصدق . وإذا كان فقر الفقير إنما هو بالجري على سنن الله فإن إزالة سبب فقره أو مساعدته عليه أو فيه إنما يجري على سنن الله تعالى أيضاً كما أن غنى الغني كذلك ، فالانفاق لأحياء سنة الله ومساعدة من ينتسبون إلى الله تعالى على أنهم عياله إذ لا غنى لهم بكسبهم ولا حول لهم ولا قوة ينزل منزلة الاقراض له تعالى ، فالفقراء عيال والله يعولهم بأيدي الاغنياء ، ويعول الاغنياء بتوقيهم لأسباب الغنى

(أقول) هكذا وجه العبارة رحمه الله تعالى بعد أن قال ان الحث على الانفاق في هذه الآية يراد به الانفاق في المصلحة العامة لا مواساة الفقير ، فكانه أراد ان يبين صحة التعبير في نفسه حيثما ورد وان استعمل في مقام آخر كقوله تعالى في سورة التين (٦٤ : ١٧) ان تقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعفه لكم ويغفر لکم) ودخل فيما ذكره بعض المصالح العامة وهو ينطبق على سائرهما ، فان القتال لحماية

من صيق على عياله وتقرير الاستاذ الامام يتفق مع الرواية كما هو ظاهر على أن للفظه أصلاً في هذا المقام وهو ما رواه ابن جرير عن علي كرم الله وجهه : مات غنيان وفقير ان قتل الله تبارك وتعالى لاحد الغنيين ما قدمت لنفسك وما تركت لعيالك ؟ فيقول يا رب خلقتني واياهم سواء ، تكفمت برزق كل دابة وقلت (من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً يضاعفه له) وعلمت انك ترزق عيالي معي بهدي ، فيقول اذهب غلو تعلم ما لك عندي لضحكك كثيراً وابكيت قليلاً الخ

للمدين وتأمين دعوته والدفاع عن الانفس والبلاد هو من سنن الله تعالى في الاجتماع البشري ، فالانفاق فيه يصح ان يسمى اقراضا لله تعالى باعتبار اقامه سنته به على وجه الحق الذي برضيه جل شأنه ، وقد كنت ازيد مثل هذا البحث فيما أكتبه وأسنده اليه في حياته اعتمادا على اجازته مع كونه مما يقتضيه قوله ثم قال: روح الله وروحه مأمثاله: والتعبير عن الانفاق بالاقراض الذي يشعر بحاجة المستقرض الى المقرض عادة جدير بأن يملك قلب المؤمن ويحيط بشعوره ويستغرق وجدانه حتى يسهل عليه الخروج من كل ما يملك ابتغاء مرضاة الله وحياء منه ، فكيف وقد وعد برده مضاعفا أضعافا كثيرة ووعدته الحق ؟ هذا التعبير بمثابة الهز والزلازل لقلوب المؤمنين ، فقلب لا يلبس له ويندفع به إلى البذل قلب لم يحسه الايمان . ولم تصبه نفحة من نفحات الرحمن . قلب خاو من الخير . فأنض بالخبث والتمر أي لطف من عظيم يداني هذا اللطف من الله تعالى بعاده ؟ جبار السموات والارض رب كل شيء ومليكه الغني عن العالمين النعمان لما يريد ، المقلب لقلوب العبيد ، يرشد عباده الذين أنعم عليهم بفضل من المال واختصهم بشيء من النعمة ، إلى مواساة اخوانهم بما فيه سعادة لهم أنفسهم ولئن يعيش معهم ، ويهديهم إلى بذل شيء من فضول أموالهم في المصالح العامة التي فيها صلاح ظلمهم ، وحفظ شرفهم واستقلالهم ، فيبرز هذا الهدي والارشاد في صورة الاستغناء ، دون صيغة الامر والالزام ، ويسمى نفسه مقترضاً يشعر قلب الغني بمعنى الحاجة التي ربما تصيبه يوما من الايام ، ثم هو يعده ، بمضاعفة ذلك العطاء — أي يكون هذا اللطف كله منه بعبد الذي عمره بنعمته ، وفضله على كثير من خلقه ، ثم يجمد قلب هذا العبد وتنقبض يده لا يستحي من ربه ، ولا يتقرب بوعده ، ويقبل مع هذا انه مؤمن به ، وبأن ما أصابه من الخير فهو من عنده ؟ كلا . مثل في نفسك ملكا من ملوك الدنيا يريد أن يجمع إعانة لا تقراء أو لمصلحة من مصالح الدولة ، وقد خاطبك بمثل هذا الخطاب ، في التلطف والاستعطاف ، ومثل في خيالك موقع قوله من قلبك ، وأثر كلامه في يدك أما كون القرض حسناً فالمراد به ما حل محله ووافق المصلحة ، لا ما وضع

موضع الفخفة وقصد به الرياء والسمة ، نعم إن ما أنفق في المصالح العامة حسن وإن أريد به الشهرة ، ولكنه لا يكون دالاً على إيمان المنفق وثقته بربه ، وابتغائه مرضاته . ولا على حبه الخير لذاته ، لارتقاء نفسه ، وعلو همته . بما استفاد من فضائل الدين وحسن التهذيب ، فلا يكون له حظ من نفقته يقر به إلى ربه زلفى ، بل يكون كل جزائه تلك السمة الحسنة « فهجرتني إلى ما هجراته » . ومن الناس من ينفق في المصالح بنية حسنة ولكن بغير بصيرة تربية مواطن النعمة بنفقته ، فيبني مسجداً حيث تكثر المساجد فيكون سبباً في زيادة تفرق الجماعة وذلك مخالف لحكمة الشرع ، أو يبني مدرسة ولا يحسن اختيار المعلمين لها ، أو يفرص لها من النفقة ما لا يكفي لدوامها ، فيسرع إليها الخراب ، أو يصع فيها معلمين فاسدي الاعتقاد أو الآداب ، فيفسدون ولا يصلحون ، فمثل هذا كله لا يقال له قرض حسن ، وإنما يكون الاتفاق قرصاً حسناً مستحقاً لمضاعفة الكثيرة ، إذا وضع موضعه مع البصيرة وحسن النية ، ليكون على الوجه المشروع من إنعام الدين . وحفظ مصالح المسلمين . أو منفعة جميع الأنام ، من الطريق الذي أشرعه الإسلام .

وما هذه المضاعفة إلى أضعاف كثيرة — وسيأتي في آية أخرى بلوغها سبعمائة ضعف والمرد الكثرة — فهي تكون في الدنيا والآخرة . ذلك بأن المنفق لا غلاء كلة الله وتميز الأمانة والمدافعة عن الحق والحقيقة ، يكون مدافعاً عن نفسه ومعرزاً لها وحافظاً لحقوقها ، لأن اعتداء المعتدين على الأمانة إنما يكون بالاعتداء على أفرادها ، فضعف الأمانة وإذلالها وضياع حقوقها لا يتحقق إلا بما يقع على أفرادها وهو منهم ، والبلاء يكون عاماً (٨ : ٢٥) واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة) ثم إن الأمانة التي يبذل أغنياءها المال ، وتقوم بفريضة التعاون على الأعمال ، فيكفل غنيها فقيرها ، ويحمي قويتها ضعيفها ، تتسع دائرة مصالحها ومنافعها ، وتكثر مرافقها وتتوفر سعادتها ، وتدوم على أفرادها النعمة ، ما استقاموا على البذل والتعاون في المصالح العامة ، ثم انهم يكونون بذلك مستحقين لسمعة الآخرة ومضاعفة الثواب فيها

(وأقول) لو سرنا في الارض وسبرنا أحوال الامم الحاضرة ، وعرفنا تاريخ لامم تغارة ، لرأينا كيف ماتت الامم التي قصرت في هذه الفريضة أو استعبدت ، وكيف عزت الامم التي شمرت فيها وسعدت ، وهذه المضاعفة الدنيوية ، تكون لكل أمة أقامت هذه السنة الالهية في حفظ بيضتها ، وإعزاز سلطانها ، سواء أكان المنفقون فيها يبتغون الاجر عند الله تعالى أم لا ، وإنها لمضاعفة كثيرة لا يمكن تحديدها ، فما أجمل الامم الغافلة عنها وعن حال أهلها ، إذ يرون أهلها قد ورثوا الارض وسادوا الشعوب ، فيتمنون لو كانوا مثلهم ، ولا يدرون كيف يكونون كذلك .

ومن العجب أن يكون المسمون اليوم أجمل الامم والشعوب بهذه السنة الالهية وهم يتلون كتاب الله أثناء الليل وطراف النهار ، ولا تتحرك قلوبهم . ولا تنبسط أيديهم عند تلاوة آياته الحاثية على بذل المال في سبيله ، ولا سيما هذه الآية التي لو أنزلت على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من هيبة الله تعالى والحياء منه . عمل بهذه الهداية قوم فسدوا ، وتركها آخرون فشقوا ، فمن كان قد فات الاولين قصد مرضاة الله بأقامة سنته فخرموا ثواب الآخرة ، فقد خسر الآخرون بتركها الساعدين ، وذلك هو الخسران المبين

ومن التفسير المأثور في الآية ما رواه ابن أبي حاتم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه : القرض الحسن المجاهدة والانفاق في سبيل الله ، وهو إجمال لما تقدم تفصيله ، ومن محاسن عبارات المفسرين هنا أن لفظ المضاعفة هنا للمبالغة بما في الصيغة من معنى المبالغة . قرأ أبو عمرو ونافع والسكسائي (فيضاعفه) بالضم بتقدير فهو يضاعفه ، وقرأ عاصم بالنصب لوقوعه في حيز الاستفهام المعروف في قواعد النحو ، وقرأ ابن كثير (فيضعفه) بالرفع والتشديد وابن يعقوب وابن عاصم بالنصب ، والتضعيف يدل على التكثير والتكرار

قال تعالى (والله يقبض ويبسط) وقرأ نافع والسكسائي والبرقي وأبو بكر يسط بالصاد وهي لغة كأن الاصل فيها تفخيم السين لجاورة الطاء أي يقبض الرزق عن بعض الناس فيجهلون طريقه التي هي سنن الله تعالى فيه أو يضعفون

في سلوكهم، ويبسطه لمن يشاء بما يهديهم إلى تلك السنن، ويفتح لهم الأبواب ويسمن لهم الأسباب. ولو شاء أن يعطي فقيراً ويفقر غنياً لفعل، فإن الأمر كله له وسيد القبض والبسط، وهو وضع السنن الهادي إليها، ونوفق لسير عليها، فليس حصه الاغنياء على مواساة الفقراء والافتاق في المنافع العامة أو الخاصة من حاجة به أو عجز منه سبحانه، كلا بل هي هدايته الإنسان إلى طرق الشكر على النعم بما يحفظها ويقضي إلى المزيد فيها، حتى يبلغ كماله الاجتماعي الذي أعده له بحكمته.

وقال بعض المفسرين يقبض بعض الأيدي عن البذل، ويبسط بعضها بمنفلى، قال الأستاذ الإمام وهو لا يتفق مع ما تقدمه من الآية ولا يظهر بعد ما نضجته قوله تعالى ﴿وإليه ترجعون﴾ من الوعد ولوعيد أي لأنه لا بد أن يكون مرتباً على عمل لنا فيه كسب واختيار، لا على ما تصرفه لا قدر، وقد قال بعض العلماء إن هذا التعقيب يدل على أن البذل واجب يعاقب على تركه؛ أقول يريد عقاب الآخرة وأما عقاب الدنيا فهو أظهر لأنه مشاهد لأرباب البصائر الباحثين في شؤون الأمم إذ لا يبحثون في حال أمة عزيزة إلا ويرون بذل أغنيائها المال، لنشر العلوم وتقان الأعمال، وتعاون أفرادها على مصلحتها، هي أسباب عزتها ورفعتها، ولا يبحثون في حال أمة ذليلة مقهورة إلا ويرون أغنياءها ممسكين. وأفرادها غير متعاونين، فعلمتنا بهذا أن قوله تعالى (والله يقبض ويبسط) الخ بيان لطريق المضاعفة ودليل عليه، وتذكير بالله وتبديره لحلقه وبصير الخلق إليه أي فهو يضاعف لهم في الدارين. وقد عهدنا في القرآن ختم آيات الأحكام بهذا هذا وعندني أن هذه الآية أبلغ آياته

قال الأستاذ الإمام الرجوع إلى الله تعالى رجوعان — رجوع في هذا العالم إلى سنته الحكيمة ونظام خليقته الثابت ككون تحصيل الغنى يكون بكذا من عمل العامل وكذا من توفيق الله تعالى وتسخيره، وكون الفقر يكون بكذا وكذا من نحو ذلك. وككون البذل من فضل المال يأتي بكذا وكذا من المنافع الخاصة بالباذل والعامة لقومه الذين يعتز بمرتبتهم ويسعد بسعادتهم، وكون ترك البذل يأتي بكذا وكذا من المفاسد والمضار العامة والخاصة. ولا يستقل الإنسان بعمل

من ذلك تمام الاستقلال بحيث يستغني به عن الرجوع إلى الله تعالى بالحاجة إلى معاونته وتوفيقه وتسخير الأسباب له . أقول ولو فرض أن بعض أعيانه يتم بكسبه وسعيه وجده لما كان راجعاً إلا إلى الله تعالى فيه ، لانه ما عمل ولا وصل إلا بالسير على سنته ، وإنما يكون مستغنياً عن الله تعالى أن قدر أن يغير سنته ونظام خلقه ، وينفذ بعمله من محيط ملكه وسلطانه (٥٥ : ٣٣) أن استطعم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا ، لا تنفذون إلا بسلطان ٣٤ فبأي الآ ربكما تكذبان ؟ قال وأما الرجوع الآخر فهو الرجوع في الدار الآخرة حيث تظهر نتائج الاعمال وآثارها (٨٢ : ١٩) يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله

(٢٤٧) أَلَمْ تَرَى إِلَى الْمَلَأُ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّهِمْ ائْتِنَا بَعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كَتَبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا ؟ قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَاءِنَا ، فَلَمَّا كَتَبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَاوَأُوا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٢٤٨) وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ، قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ ؟ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ، وَاللَّهُ يُؤْتِي مَالَكُمْ مِنْ شَرِّهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ

(تمهيد في نسخة قصص القرآن الى التاريخ والفرق بينهما)

وبيان حال الامم قبل القرآن وبعده

بدأ الاستاذ الامام رحمه الله تعالى تفسير هذه الآيات بمقدمة في قصص القرآن جعلها كالتمهيد لتفسيرها فقال ما مثاله مع ايضاح : تقدم في تفسير (ألم

قر لى الذين خرجوا من ديارهم؟ إن القرآن لم يعين أولئك القوم ولا الزمان ولا المكان اللذين كانوا فيها. (يعني على القول بأنها قصة واقعة لا ضرب مثل كما قال عطاء) ثم ذكر ههنا قصة أخرى عن بني اسرائيل فعين القوم وذكر أنه كان لهم نبي ولم يذكر اسمه ولا الزمان ولا المكان اللذين حدثت فيها القصة ولكنه ذكر بعد ذلك اسم طالوت وجالوت وداود

يظن كثير من الناس الآن - كما ظن كثير من قبلهم - ان القصص التي جاءت في القرآن يجب أن تتفق مع ما جاء في كتب بني اسرائيل المعروفة عند النصرى بالعهد العتيق أو كتب التاريخ القديمة ، وليس القرآن تاريخ ولا قصصاً وإنما هو هداية وموعظة ، فلا يذكر قصة لبيان اربح حدوثها ، ولا لاجل التفسكه بها أو الاحاطة بتفصيلها ، وإنما يذكر ما يذكره لاجل العبرة كما قال (١٢: ١١١) لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الالباب) وبيان سنن الاجتماع كما قال (٣٧: ٣) قد خات من قبلكم سنن فسيروا في لارض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين) وقال (٨٥: ٤٠) سنة الله التي قد خات في عباده) وغير ذلك من الآيات

والحوادث المتقدمة منها ما هو معروف والله تعالى يذكر من هذا وذاك . ثم شاء أن يذكر لاجل العبرة والموعظة ، فيكتفي من القصة بموضع العبرة ومحل الفائدة ، ولا يأتي بها مفصلة بجزئياتها التي لا تزيد في العبرة بل ربما تشغل عنها ، فلا غرو أن يكون في هذه القصص التي يعظنا الله بها ويعلمنا سننه ما لا يعرفه الناس ، لانه لم يرو ولم يدون بالكتاب . وقد اهدى بعض المؤرخين الراقين في هذه الآزمنة الى الاقتداء بهذا ، فصار أهل المنزلة العالية منهم يذكرون من وقائع التاريخ ما يستنبطون منه الاحكام الاجتماعية وهو الامور السلبية ، ولا يحفلون بالجزئيات لا يقع فيها من الخلاف الذي يذهب بالثقة ، ولما في قرأتها من الاسراف في الزمن والاضاعة للعمز بغير فائدة توازيه ، وبهذه الطريقة يمكن ايدع ما عرف من تاريخ العالم في مجلد واحد يوثق به ويستفاد منه ، فلا يكون عرضة للتكذيب والظعن ، كما هو الشأن في المصنفات التي تستقصي الوقائع الجزئية مفصلة تفصيلاً . ان محاولة جعل قصص القرآن ككتب التاريخ بادخال ما يروون فيها على انه

بيان لها هي مخالفة سنته، وصرف للقلوب عن موعظته، وإضاعة لمصده وحكمتها فالواجب أن نفهم ما فيه، ونعمل أفكارنا في استخراج المبرر منه، ونزع نفوسنا عما ذمه وقبحه، ونحملها على التحلي بما استحسنته ومدحه، وإذا ورد في كتب أهل الملل أو المؤرخين ما يخالف بعض هذه القصص فعليها أن تجزم بأن ما أوحاه الله إلى نبيه ونقل إلينا بالتواتر الصحيح هو الحق وخبره هو الصادق، وما خالفه هو الباطل، وناقله مخطيء أو كاذب، فلا نعدده شبهة على القرآن، ولا نكلف أنفسنا الجواب عنه، فإن حال التاريخ قبل الاسلام كانت مشبهة الاعلام، حالكة الظلام، فلا رواية يوثق بها، للمعرفة التامة بسيرة رجال سندها، ولا توثر يعتد به بالأولى، وإنما انتقل العالم بعد نزول القرآن من حال إلى حال، فكان بداية تاريخ جديد للبشر كان يجب عليهم - لو انصفوا - أن يؤرخوا به أجمعين اه

أقول ان الذي يسبق الى الذهن من هذا القول هو أن ما كان من شؤون الامم وسير العالم بعد الاسلام لم ينطمس ولم تذهب الثقة به، ولم ينقطع سند روايته كما كان قبله. وبيان ذلك بالاجمال أن القرآن قد جاء البشر بهداية جديدة كاملة كانوا قد استعدوا للاهتمام بها بالتدريج الذي هو سنة الله تعالى فيهم، فكان من عمل المسلمين في حفظ العلم والتاريخ العناية التامة بالرواية ما يقبل منها وما لا يقبل، ولذلك ألفوا الكتب في تاريخ الرواة لتعرف سيرتهم، ويتبين الصادق والمكاذب منهم، وتعرف الرواية المتصلة والمنقطعة، ويبحثوا في الكتب المؤلفة متى يوثق بمسبقتها إلى مؤلفيها، ويبنوا حقيقة التواتر الذي يقيد اليقين، والفرق بينه وبين ما يشتهر من روايات الآحاد، فهذه العناية لم ينقطع سند انواع العلم التي وجدت في المسلمين، على أن العناية بعلوم الدين أصولها وفروعها كانت أهم، ثم كان شأن من تقي على آثارهم في العلوم والمعارف بعد ضعف حضارتهم على نحو من شأنهم في التصنيف، وإن كان دونهم في ضبط الرواية ونقدها والامانة فيها، فلم يضع شيء من العلوم والفنون ولا من الحوادث والوقائع التي جرت في العالم بعد الاسلام، وما اختلفت الرواة والمصنفون في جزئياته من تاريخ الاسلام وغيره يسهل تصنيفته في جماعته، وأخذ المصنف منه لاجل الاعتبار به، وعرفان سنن الاجتماع منه، جرياً على هدي القرآن فيه

فد وصل الراقون في مدارج العمران اليوم إلى درجة يسهل عليهم فيها من ضبط جزئيات الوقائع ما لم يكن يسهل على من قبلهم ، كاستخدام الكهرباء في نقل الاخبار بان يدونها في الصحف ، وتصور الوقائع والمعاهد بما يسمونه التصوير الشمسي (فوتوغرافيا) وسهولة الانتقال على السكانيين من مكان إلى مكان ، وتأمين الحكام لهم من المخاوف وغير ذلك . وقد اجتمع من هذه الوسائل في الحرب التي كانت في هذين العامين بين دولتي اليابان وروسيا ما لم يجتمع لدولتي التاريخ في غيرها من الحروب ولا غير الحروب من حوادث الزمان ، وقد كان لأثر الجرائد الغربية مكاتبون في مواقع الحرب يتقارون في السبق إلى الوقوف على جزئيات الحوادث وإبصارها إلى جرائدهم ، كما تفعل شركات البرقيات (التلغرافات) في إنباء مشتركين فيها بذلك ، وكنا نرى في رسائل الغربيين من خلاف ذلك ما يتعذر معه العلم بالحقيقة ؛ وكم من رسالة لأشركات برقية والسكاني الجرائد كانت من لمسات المتفق عليها فبين بعد ذلك كذبها ، فهذه آية بينة على أنه لا سبيل إلى الثقة بجزئيات الوقائع التي تحدث في عصرنا ويعنى المؤرخون شدا عناية بضبطها ، إلا ما يبلغ رواته المتفقون عليه مبالغ الثواتر الصحيح وقيل ما هو ، فما بذلك بقا كان في لائم الخالية ؟

وجملة القول ان طريقة القرآن في قصص الذين خلوا هي متبهي الحكمة وما كان لحمد الامي الناشيء في تلك الجاهلية الامية أن يرتقي اليها بفكره ، وقد جهلها الحكماء في عصره وقبل عصره ، ولكنها هداية الله تعالى لعباده أوحاها إلى صفوته منهم ﷺ (٤٣:٧) وما كنا انهم يندى نولا أن هدنا الله نعمائنا وقد ظهرت الآية ووضحت السبيل أن لا ننتفت إلى روايات الغابرين في تلك القصص ولا نمدحها لفتها

١) كتب هذا وأثر سنة ١٣٢٣ هـ الموافق ١٩٠٥ م وقد رقت العلوم والفنون بعد ذلك وازداد ارتقاؤها في أثناء الحرب العالمية الكبرى التي دامت أربع سنين (من سنة ١٩١٤-١٩١٨) وبعدها وأهمها في الواصالات الاخبارية نقل الطائرات للبريد بسرعة عجيبة واستحداث (التلفون) والتلغراف الهوائي (اللاسلكي) بين الاقاصيص وأهل مصر يتكلمون مع أهل أوروبا ثم آلة (المذيع) التي تسمع أهل مصر الخطب السياسية والمحاضرات العلمية والاعاني التي تلقى في أوروبا وأمريكا واليابان والهند وغيرها

للقرآن شبهة نبالي بكشفها كما قال الاستاذ الامام روح الله روحه في مقام الرضوان (فان قيل) ان فصوص المهدبين المتيق والجديد التي يسمى مجموعها (الكتاب المقدس) هي وحي من الله شهد لها القرآن وهي تعارض بعض قصصه (فلنا) أولا ان تلك الكتب ليس لها أسنيد متصلة متواترة . وثانياً ان القرآن إنما أثبت ان الله تعالى أعطى موسى (ع م) التوراة وهي الشريعة وان أتباعه قد حفظوا منها نصيباً ونسوا نصيباً ، وانهم حرفوا النصيب الذي أوتوه ، وأنه أعطى عيسى (ع م) الانجيل وهو وعظ وبشارة وقال في أتباعه مثل ما قل في اليهود (ففسوا حظاً مما ذكروا به) ويجد القاريء تفصيل هذه الحقائق في تفسير سورة آل عمران والمائدة والاعراف بالمقول من تاريخ الفريقين

بعد هذا نقول ان وجه الاتصال بين آيات هذه القصة وما قبلها هو ان الآيات التي قبلها نزلت في شرع القتال لحماية الحمية وإعلاء شأن الحق ، وبذل المال في هذه السبيل سبيل الله لعزة الامم ومنعتها وحياتها الطيبة ، التي تقع من ينحرف عنها من لاقوام في الهلاك والموت ، كما علم من قصة الذين خرجوا من ديارهم فارين من عدوهم على كثرتهم . وهذه القصة - قصة قوم من بني اسرائيل - تؤيد ما قبلها من حاجة الامم إلى دفع هلاك عنها ، فهي تمثل لنا حال قوم لهم نبي يرجعون اليه ، وعندهم شريعة يهتدون بها ، وقد أخرجوا من ديارهم وأبناؤهم بالقهر ، كما خرج أصحاب القصة الاولى بالحزن ، فعلموا ان القتل ضرورة لا بد من ارتكابها مادام العدو في البشر ، وبعد هذا كله جبنوا وضعفوا عن القتل ، فاستحقوا الخزي والنكال ، فهذه القصة المفصلة ، فيها بيان لما في تلك القصة الجملة : ففر أولئك من ديارهم فأتوا بنهاب استقلالهم ، واستيلاء العدو على ديارهم ، فالأية هناك صريحة في أن موتهم هذا مسبب عن خروجهم فارين بحجبتهم ، ولم نصرح بسبب احيائهم الذي تراخت مدته ، ولكن ماجاء بعدها من الامر بالقتال وبذل المال الذي يضاعفه الله تعالى أضاعافاً كثيرة ، قد هدانا إلى سنته في حياة الامم ، وجاءت هذه القصة الاسرائيلية تمثل العبرة فيه ، وتفصل كيفية احتياج الناس اليه ، إذ بينت أن هؤلاء الناس احتاجوا الى مدافعة العادين عليهم ، واسترجاع ديارهم وأبنائهم من

يديهم ، و شتد الثور بالحاجة حتى طلبوا من نبيهم الزعيم الذي يقودهم في ميدان الجلال ، وقاموا بما قاموا به من الاستعداد . ولكن الضعف كان بلغ من نفوسهم مبالغاً لم تنفع معه تلك العدة ، فتولوا وأعرضوا للأسباب التي أشير إليها ، وألم القليل منهم رشدهم واعتبروا فانتصروا

قال تعالى ﴿ أَلَمْ نَرِ إِلَى إِمْلَاءٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى ﴾ تقدم الكلام على هذا الضرب من الاستفهام في تفسير القصة السابقة لهذه - والملا القوم محبة من للشاؤ ولا واحدة له قلبه البيضاء وغيره . وقال غيرهم : الملا الاشراف من الناس وهو اسم لجمعية كالقوم وازرط والجيش ، وجمعه أملاء ، سموا ملا لأنهم عاؤن لعيون رواء والقلوب هيبة ﴿ إِذْ قَالُوا لَنَبِيٍّ لَّهُمْ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نَقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ وهذا النبي لم يسمه القرآن ، وقال الجلال هو شمويل وهذا أقوى أقوال المفسرين . وهو معرب صمويل أو صموئيل ، وقيل انه يوشع ، وهذا من الجهل بالتاريخ فان يوشع هو فتى موسى ، والقصة حدثت في زمن داود والزمن بينهم بعيد ، وبعث الملك

عبارة عن إقامته وتوليته عليهم ﴿ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كَتَبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَنْ لَا تَقَاتِلُوا ﴾ قرأ نافع وحده (عسيتم) بكسر السين وهي لغة غير مشهورة ، والياقون بفتحها وهي اللغة المشهورة . والمعنى هل قادرتم أن تحجموا عن القتال إن كتب عليكم كما أتوقع - أو - أنوقع منكم الجبن عن القتال إن هو كتب عليكم ؟ فعمى المقاربة أو التوقع ﴿ قَالُوا وَمَالَنَا أَنْ لَا نَقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أَخْرَجَنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَانَا ﴾ أي أي دع لنا يدعونا إلى أن لا نقاتل وقد وجد سبب القتال ، وهو إخراجنا من ديارنا بإجلاء العدو إيانا عنها ، وأفردنا عن أولادنا بسببه إياهم واستعباده لهم ؟ ﴿ فَلَمَّا كَتَبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ ﴾ ذلك أن الامم إذا قهرها العدو ونكل بها يفسد بأسها ، ويغلب عليها الجبن والخنعة . فاذا أراد الله تعالى إحياءها بعد موتها ينفخ روح الشجاعة ولاقدام في خيارها وهم الاقلون ، فيعملون ما لا يعمل الاكثر من ، كما علمت من تفسير قوله تعالى (ثم أحييهم) وما هو منك بعيد ، ولم يكن هؤلاء القوم قد استمد منهم للحياة إلا القليل . قال الاستاذ الامام وفي الآية

من الفوائد الاجتماعية أن لا يطمع "نفسه" أخلاقها وتضعف قدرته في المدافعة عند الحاجة إليها وتعزم على القيام بها إذا توفرت شرائطها التي يتخللونها على حد قول الشاعر وإذا ما خلا الجبان بأرض طلب الطعن وحده والنزلا
ثم إذا توفرت الشروط يضعفون ويجهنون ، ويزعمون أنها غير كافية ليعذروا

أنفسهم وما هم بمعذورين ﴿ والله عليم بالظالمين ﴾ الذين يظلمون أنفسهم ومنهم من يترك الجهاد دفاعا عنها وحفظا لحقها ، فهو يحزيمهم وصفهم ، فيكونون في الدنيا أذلاء مستضعفين ، وفي الآخرة أشقياء معذبين

أقول وفي تاريخ أهل الكتاب ما يفيد أن بني اسرائيل كانوا في الزمن الذي بعث فيه صموئيل نبيا منها قد انحرفوا عن شريعة موسى ونسوها ، فعبدوا من دون الله آلهة أخرى ، فضعفت رابطتهم الملية ، وساط الله عليهم الفلستينيون فحاربهم حتى أئخنؤهم فانكسروا ، وسقط منهم ثلاثون ألف مقاتل ، وأخذ تابوت عهد الرب منهم ، وكان بنو اسرائيل يستفتحون (أي يستعصرون ويطلبون الفتح) به على أعدائهم . فلما أخذه أهل فلسطين انكسرت قلوب بني اسرائيل ولم تنهض همتهم لاستردادها وكانوا إلى ذلك العهد لا ملوك لهم ، وإنما كان رؤساؤهم القضاة بالشريعة ، ومنهم الانبياء ومنهم صموئيل كان قاضيا فلما شاخ جعل بنيه قضاة وكان ولده البكر وولده الثاني من قضاة الجور وأكالة الرشوة ، فاجتمع كل شيوخ بني اسرائيل (وهم المعبر عنهم في القرآن بالملأ) وطلبوا من صموئيل أن يختار لهم ملكا يحكم فيهم كسائر الشعوب فحذرهم وأذعرهم ظلم الملوك واستعبادهم للامم ، فألحوا فأطمع الله تعالى أن يختار لهم طالوت ملكا ، واسمه عندهم شاول فذلك قوله تعالى

﴿ وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكا قلوا أنى يكون له الملك

علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال ؟ ﴾ الظاهر أن طالوت تعريب لشاول ، وإن كان بعيدا منه في اللفظ ، وقيل أنه لقب له من النحور ، كملكوت من الملك وأمثالها ، وذلك أنه كان طويلا مشدبا ، ففي سفر صموئيل الاول من العهد العتيق « من كثيفه فما فوق كان أطول من كل الشعب » وفيه « فوقف بين

الشعب فكان أطول من كل الشعب من كثفه فما فوق» واعترض بمنع صرفه
وقال الاستاذ الامام عند ذكر طائوت هو الذي يسمونه (شاوول) وقد سماه الله
طائوت فهو طائوت . أي اننا لا نعبأ به في كتبهم لما قدمنا . وإذا علم القارىء
أن القوم لا يعرفون كتب سفري صموئيل الاول والثاني من هو ؟ ولا في
أي زمن كتبها ، فإنه يسهل عليه أن لا يعتد بدسميتهم ، وأما استنكارهم جملة مدكا فقد
صرحوا به وقالوا : إن منهم من احتقره ، ولكن أخبارهم لا تتصل بأسبابها ، ولا نقرن بعلمها
وقال المفسرون في استنكارهم للملكه وزعمهم أنهم أحق بالملك منه ، أنه كان من أولاد
بنيامين لا من بيت يهوذا ، وهو بيت الملك ، ولا من بيت لاوي وهو بيت النبوة ، وفهم
بعضهم من قوله (ولم يؤت سعة من المال) أنه كان فقيراً وقالوا كان راعياً أو دباغاً
أو سقاء . ولا يصح كلامهم في بيت الملك لأنه لم يكن فيهم ملوك قبله ، ونعيمهم سعة
المال التي توفيه للملك في رأي القارئ لا تدل على أنه كان فقيراً . وإنما العبرة في
العبارة هي ما دللت عليه من طباع الناس وهي أنهم يرون أن الملك لا بد أن يكون
وارثاً للملك ، أو ذا نسب عظيم يسهل على شرفاء الناس وعظمائهم الخضوع له ،
وإذا مال عظيم يدبر به الملك ، والسبب في هذا أنهم قد اعتادوا الخضوع للشرفاء
والاغنياء ، وإن لم يجازوا عليهم بمعارفهم وصفاتهم لذاتية ، فبين الله تعالى فيما حكاه عن
نبيه في أولئك القوم أنهم مخطئون في زعمهم أن استحقاق الملك يكون بالنسب
وسعة المال بقوله

﴿ قال ان الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم ﴾ فمروا
اصطفاه الله تعالى هنا بوحيه لذلك النبي أن يحمل طائوت مدكا عليهم ، ولعله لو كان هذا
هو المراد نقل اصطفاه لكم كما قال (١٢٢: ٢) اصغنى لكم الدين) والتبادر عندي ان
معناه فضله واختاره عليكم بما أودع فيه من الاستعداد القطري للملك ، ولا ينافي
هذا كون اختياره كان بوحى من الله ، لأن هذه الامور هي بيان لاسباب الاختيار
وهي أربعة (١) الاستعداد القطري و(٢) السعة في العلم الذي يكون به التدبير و(٣)
بسطة الجسم المعبر بها عن صحته وكال قواه المستلزم ذلك لصحة الفكر على قاعدة
« العقل السليم في الجسم السليم » ولتشجاعة والقدرة على المدفعة وللهمية والوقار

و(٤) توفيق الله تعالى الأسباب له وهو ما عبر عنه بقوله ﴿وَالله يُوَفِّيْ مَلِكُهُ مِنْ يَشَاءِ﴾ والاستعداد هو الركن الأول في المرتبة فلذلك قدمه ، والعلم بحال الأمة ومواقع قوتها وضعفها، وجودة الفكر في تدبير شؤونها، هو الركن الثاني في المرتبة، فكم من عالم بحال زمانه غير مستعد للسلطة أخذه من هو مستعد لها سر اجا يستضيء برأيه في تأسيس مملكة أو سياستها ، ولم ينهض به رأيه الى أن يكون هو السيد الزعيم فيها . وكال الجسم في قواه وروائه هو الركن الثالث في المرتبة وهو في الناس أكثر من سابقه . وأما المال فليس بركن من أركان تأسيس الملك ، لأن المزايا الثلاث إذا وجدت سهلت على صاحبها الاتيان بالمال . وإنما نعرف في الناس من أسس دولة وهو فقير أي . ولكن استعداده ومعرفة بحال الأمة التي سادها وشجاعته كانت كافية للاستيلاء عليها والاستعانة بأهل العلم بالادارة والشجعان على تمكين سلطته فيها . وقد قدم الاركان الثلاثة على الرابع لأنها تتعلق بمواهب الرجل الذي اختير ملكاً فأنتكر القوم اختياره فهي المقصودة بالجواب . وأما توفيق الله تعالى بتسخير الأسباب التي لا عمل له فيها لسعيه فليس من مواهبه ومزاياه فتقدم في أسباب اختياره ، وإنما تذكرتمة للغة وبياناً للحقيقة ، ولذلك ذكرت قاعدة عامة لا وصفاً له

ولله در الشاعر العربي حيث قال في صفات الجدير بالاختيار لعامة الامم وقادتهاة
 قلـدو، أسركم لله دركمو رجب الذراع بأمر الحرب مضطلما
 لا متروفا أن رخاء العيش ساعده ولا اذا عض مكرره به خشما
 (ومنها) وليس يشغله مل يشمره عنكم ، ولا ولد يبعي له الرفعا
 وأقول ان من الناس من يظن أن معنى إسناد الشيء إلى مشيئة الله تعالى هو أن الله تعالى يفعل بلا سبب ولا جريان على سنة من سنته في نظام خلقه ، وليس كذلك فان كل شيء بمشيئة الله تعالى (١٣: ٨) وكل شيء عنده بمقدار) أي بنظام وتقدير موافق للحكمة ليس فيه جزاف ولا خلل ، فاي تناؤه الملك لمن يشاء بمقتضى سنته إنما يكون بجملة مستعداً للملك في نفسه ، وبتوفيق الأسباب لسعيه في ذلك ، أي هو بالجمع بين أسرين أحدهما في نفس الملك ، والآخر في حال الأمة التي يكون فيها . وفي الاحاديث المشهورة على السنة العامة « كما تكونون يولي عنكم » قال في الدرر المنتثرة

رواه ابن جميع في معجمه من حديث أبي بكرة والبيهقي في الشعب من حديث يونس ابن اسحاق عن أبيه مرفوعاً ثم قال هذا منقطع . وفي كنز العمال أخرجه لدليبي في مسند الفردوس عن أبي بكرة والبيهقي عن أبي اسحاق السبيعي مراسلاً . نعم إذا أراد الله اسعاد أمة جعل ملكها مقويًا لما فيها من الاستعداد للخير حتى يغلب خيرها على شرها فتكون سعيدة ، وإذا أراد إهلاك أمة جعل ملكها مقويًا لدواعي الشر فيها حتى يغلب شرها على خيرها فتكون شقية ذليلة ، فتعدو عليها أمة قوية ، فلا تزال تنقصها من أطرافها ، وتقاتل عليها في أمورها ، أو تاجزها الحرب ، حتى تزيل سلطانها من الأرض ، يريد الله تعالى ذلك فيكون بمقتضى سننه في نظام الاجتماع ، فهو يؤتي الملك من يشاء وينزع من يشاء بعدل وحكمة ، لا بظلم ولا عبث ، ولذلك قال (٢١ : ١٠٥) ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون) وقال (٧ : ١٢٨) إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين) فليفتقروا في هذا المقام — مقام استعمار الأرض والسيادة في الملك — هم الذين يتقون أسباب خراب البلاد وضعف الأمم وهي الظلم في الحكم والجمل وفساد الاخلاق في الدولة والامة ، وما يتبع ذلك من التفرق والنزاع ، التخاذل ، والصالحون في هذا المقام هم الذين يصححون لاستعمار الأرض وسياسة الأمم بحسب استعدادها الاجتماعي

أطأت في بيان معنى مشيئة الله تعالى في إتيان الملك لأنني أرى عامة المسلمين يفهمون من مثل عبارة الآية في إنجازها أن الملك يكون للملوك بقوة إلهية هي وراء الاسباب والسنن التي يجري عليها البشر في أعمالهم الكسبية . وهذا الاعتقاد قدس في الأمم الوثنية ، وفي معناه عبارة في كتب النصرانية ، وبه استعبد الملوك الناس الذين يظنون أن سلطتهم شعبة من السطة الالهية ، وأن محاولة مقاومتهم هي محاولة مقاومة الباري سبحانه وتعالى ، والخروج عن مشيئته

وكان الاستاذ الامام أوجز في الدرس بتفسير قوله تعالى (والله يؤتي الملك من يشاء) إذ جاء في آخره وقد كتبت في مذكري عنه « أي أن له سنة في تهيئة من يشاء للملك » ومثل هذا الاجمال لا يعقله إلا من جمع بين الآيات الكثيرة .

في إرث الارض وفي هلاك الاسم وتكونها ، والآيات الواردة في أن له تعالى في البشر شيئاً لا يتبدل ولا يتحول وقد ذكرنا بعضهم ، ومنها قوله تعالى (١١: ١٣) ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ، بأنفسهم (خالة لائم في صفات أنفسها وهي عقائدها ومعارفها وأخلاقها وعاداتها ، هي الاصل في تغير ما بها من سيادة أو عبودية وثروة أو فقر وقوة أو ضعف ، وهي التي تمكن الظالم من اهلاكا . والغرض من هذا البيان أن نعلم أنه لا يصح لنا الاعتذار بمشيئة الله عن التقصير في إصلاح شؤوننا اتكالا على ملوكنا ، فن مشيئته تعالى لا تتعلق بإبطال سنته تعالى وحكمته في نظام خلقه ، ولا دليل في الكتاب والسنة ولا في العقل ولا في الوجود على أن تصرف الملوك في الائم هو بقوة إلهية خارقة للعادة ، بل شريعة الله تعالى وخليقته شاهدتان بضد ذلك (فاعتبروا يا أولي الابصار)

نم ختم الآية بقوله تعالى ﴿ والله واسع عليم ﴾ على طريقة القرآن في التنبيه على الدليل بمد الحكيم والتذكير بأسمائه الحسنى وآثارها ، أي واسع التصرف والقدرة إذا شاء . سرّاً قنضته حكمته في نظام الخليفة فانه يقيم لا محالة ، عليم بوجود الحكمة فلا يضع سنته في استحقاق الملك عبثاً ، ولا يترك أمر العباد في اجتماعهم سدى ، بل وضع لهم من السنن الحكيمة ما هو منتهى الابداع والالتقان ، وليس في الامكان أبدع مما كان .

هذا وقد جرى المفسرون على أن وجود الرد على منكري جعل طائوت ملكاً أربعة وأحسن عبارة لهم على اختصارها عبارة البيضاوي قال : لما استبعدوا ملكه فقره وسقوط نسبه رد عليهم ذلك (أولاً) بأن العمدة فيه اصطفاء الله تعالى وقد اختاره عليهم وهو أعم بالمصالح منكم و (ثانياً) بأن الشرط فيه وفير العلم لئلا يتمكن من معرفة الامور السياسية وجسامة البدن لئلا يكون أعظم خطراً في القلوب ، وأقوى على مقاومة العدو ومكابدة الحروب ، لا ما ذكرتم وقد زاده الله فيها وقد كان الرجل القامح يمد يده فينال رأسه ، و (ثالثاً) بأنه تعالى مالك الملك على الإطلاق . فله أن يؤتية من يشاء و (رابعاً) بأنه « واسم » الفضل يوسع الفضل على الفقير ويعتبه « عليم » بمن يليق بالملك وغيره . اهـ فجمعوا الاول بمعنى الثالث .

وجعلوا مزية العقل ومزية البدن شيئاً واحداً وهما شيان ، وأجلوا القول في المشيئة حتى إن المتوهم ليتوهم أن ذلك يكون بعناية غيبية ، لا بسنة إلهية ، وجعلوا كونه تعالى وإسماعاً عليهما وجهاً خاصاً . ولا أحفظ عن الاستاذ الامام في الاول شيئاً ورأيت في مشيئة الله تعالى هنا ما تقدم آنفاً ، وقد فسر الواسع بوسع التصرف والقدرة ، وهو يتفق مع قولهم واسع الفضل ، وقال في تفسير « علم » عليهم بوجوه الاختيار ومن يستحق الملك

(٢٤٨) وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ . إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُم إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ (٢٤٩) فلما فصل طالوت بالجنود قال إن الله مبتليكم بنهر ، فمن شرب منه فليس مني ، ومن لم يطعمه فإنه مني ، إلا من اغترف غرفة بيده فشربوا منه إلا قليلاً منهم ، فلما تجاوزوه هو والذين آمنوا معه قالوا لا طاقة لنا اليوم بالجنود ، قال الذين يظنون أنهم ملقوا الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين (٢٥٠) ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا أفرغ علينا صبراً وثبت أقدارنا وانصرنا على القوم الكافرين (٢٥١) فهزموهم باذن الله وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء . ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ، ولكن الله ذو فضل على العالمين (٢٥٢) تلك آيات الله نتبها عليك بالحق وإنك لمن المرسلين

قوله تعالى ﴿وقال لهم نبيهم أن آية ملكه أن يأتكم التابوت﴾ يدل على أن بني إسرائيل لم يقنعوا بما احتج به عليهم نبيهم من استحقاق طالوت الملك بما اختاره الله وأعد له باصطفائه ، وإيثاقه من سعة العلم وبسطة الجسم ما يمكنه من القيام بأعبائه ، حتى جعل لذلك آية تدلهم على العناية به ، وهي عود التابوت إليهم . وهذا التابوت المعروف له صندوق له قصة معروفة في كتب اليهود . في أول الفصل الخامس والعشرين من سفر الخروج ما نصه :

« وكلم الرب موسى قائلا كلم بني إسرائيل أن يأخذوا لي تقدمة . من كل من يحبه قلبه يأخذون تقدمة . وهذه هي التقدمة التي يأخذونها منهم : ذهب فضة ونحاس وأسماجوني وأرجوان وقرمز وبوص وشعر معزى وجلود كباش محمرة وجلود نحس وخشب سنط وزيت للمنارة وأطياب لدهن المسحة وللبخور العطر وحجارة جزع وحجارة ترصيع للرداء والصدرة ، فيصنعون لي مقدسا . لأسكن في وسطهم بحسب جميع ما أنا أريك عن مثال المسكن ومثال جميع آيته ، هكذا تصنعون . فيصنعون تابوتا من خشب السنط طوله ذراعان ونصف ، وعرضه ذراع ونصف ، وارتفاعه ذراع ونصف . وتغشيه بذهب نقي ، من داخل وخارج ، تغشيه ، وتصنع عليه اكليلا من ذهب حوالية . وتسبك له أربع حلقات من ذهب وتجعلها على قوائم الأربع ، على جانبه الواحد حلقتان وعلى جانبه الثاني حلقتان . وتصنع عصوين من خشب السنط وتغشيهما بذهب ، وتدخل العصوين في الحلقات على جانبي التابوت ليحمل التابوت بهما . تبقى العصوان في حلقة التابوت لا تزعان منها . وتضع في التابوت الشهادة التي أعطيتك . وتصنع غطاء من ذهب نقي طوله ذراعان ونصف وعرضه ذراع ونصف . وتصنع كرويين ^(*) من ذهب صنعة خراطة تضعهما على طرفي الغطاء . تصنع كرويا واحدا على الطرف من هنا ، وكرويا آخر على الطرف من هناك ، من الغطاء تصنعون الكرويين على طرفيه . ويكون

(*) المراد بالكروب الملك أي صورته أو تمثاله ، والكرويون عندنا صنف

الكرويان باسطين أجنحتهما إلى فوق مظللين بأجنحتهما على الغطاء ووجهاهما كل واحد إلى الآخر . نحو الغطاء يكون وجها الكرويين . وتجعل الغطاء على التابوت من فوق وفي التابوت تضع الشهادة التي أنا أعطيك » اهـ

هذا ما ورد في صفة الامر بصنع ذلك التابوت الديني وذا كر بعده كيفية صنع المائدة الدينية وأنيبتها والمسكن والمذبح وخيمة العهد ومنازة السراج والشباب المقدسة . ثم فصل في الفصل ٢٧ منه كيف كان صنع هذا التابوت والمائدة والمنازة ومذبح البخور . وهي غرائب يعدها عقلاء هذه العصور ألعيب ، والحكمة فيها والله أعلم أن بني إسرائيل كانوا — وقد استعبدتهم وثنيو المصريين أحقابا — قد ملكت قلوبهم عظيمة تلك الهياكل الوثنية ، وما فيها من الزينة والصنعة التي تدهش الناظر ، وتشغل الخاطر ، فأراد الله تعالى أن يشغل قلوبهم عنها بمحسوسات من جنسها تنسب إليه سبحانه وتعالى وتذكر به ، فالتابوت سمي أولا تابوت الشهادة أي شهادة الله سبحانه ، ثم تابوت الرب وتابوت الله ، كذلك أضيف إلى الله تعالى كل شيء صنع للعبادة . وهذا مما يدل على أن تلك الديانة ليست دائمة ، فلا غرو إذا نسخ الاسلام كل هذا الزخرف والصنعة من المساجد التي يعبد فيها الله تعالى حتى لا يشتغل المصلي عن مناجاة الله بشيء منها ، وما كلفه ذلك الشعب الذي وصفته كتيبه المقدسة بأنه صلب الرقبة أو كما تقول العرب « عريض القفا » على قرب عهده بالوثنية وإحاطة الشعوب الوثنية به من كل جانب لا يليق بحال البشر في طور ارتقائهم ، ذلا يربى الرجل العاقل ، بمثل ما يربى به الطفل وليافهم ، وفي سائر فصول سفر الخروج الثلاثة تفصيل لما قدمه بنو إسرائيل لصنع تلك الدار التي يقدس فيها الله ، والصنع الخيمة والتابوت وغير ذلك ، وغرضنا منها معرفة حقيقة التابوت عندهم فذلك لتجد في بعض كتب التفسير وكتب القصص عندنا أقوالا غريبة عنه منها أنه نزل مع آدم من الجنة ومنشأ تلك الأقوال ما كان ينبذ به الاسرائيليون من القصص بين المسلمين مخادعة لهم ، ليكثر الكذب في تفسيرهم للقرآن فيضلوا به ، ويحسد رؤساء اليهود مجالا واسما للطعن في القرآن يصدون به قومهم عنه

وفي آخر فصول سفر الخروج أن موسى عليه الصلاة والسلام وضع اللوحين
 للذين فيها شهادة الله أي وصاياه لبني إسرائيل في التابوت ، وفي كتبهم الأخرى
 أنه كان بعده عند فناء يشوع أي (يوشع) وأنهم كانوا يستنصرون بهذا التابوت
 فإذا ضعفوا في القتال وجيء به وقدموه ثوب اليهم شجاعتهم ، وينصرهم الله
 تعالى ، أي ينصرهم بتلك الشجاعة التي تتجدد لهم باحضار التابوت لا بالتابوت
 نفسه ، ولذلك غلبوا على التابوت فأخذ منهم عندما ضعف يمينهم وفسدت أخلاقهم ،
 فلم يخن عنهم التابوت شيئاً كما قال الأستاذ الامام رحمه الله تعالى

(أقول) وفي سفر تثنية الاستراع ثن موسى لما كمل كتابة هذه التوراة مصر
 اللاويين حاملي تابوت عهد الرب قائلاً خذوا كتاب توراة هذا وضعوه بجانب
 تابوت عهد الرب ليحكم عليكم (٣١ : ٢٤ - ٣٠)

ثم كانت حرب بين الفلسطينيين وبني إسرائيل على عهد عالي أو عالي الكاهن
 فانتصر الفلسطينيون وأخذوا التابوت من بني إسرائيل بعد أن نكلوا بهم تنكيلاً
 فأت عالي قهرآء وكان صموئيل - الذي يدعى في السكتب العربية شمويل - قاضياً
 لبني إسرائيل من بعده وهو نبيهم الذي طلبوا منه أن يبعث لهم ملكاً ففعل كما
 تقدم ، وجعل رجوع التابوت إليهم آية لملك طالوت الذي أقامه لهم وقالوا في
 سبب اثنين التابوت إن أهل فلسطين ابتلوا بعد أخذ التابوت بالفيران في زرعهم
 والبواسير في أنفسهم ، فنشأوا منه ، وظنوا أن إله إسرائيل انتقم منهم فأعادوه
 على عجلة تجرها بقرتان ، ووضعوا فيه صور فيران وصور بواسير من الذهب
 جعلوا ذلك كفارة لذنبهم

ومن الذنون في التاريخ المقدس عندهم أنه لما أحرق البابليون هيكل سليمان
 فقدت التوراة وتابوت العهد معاً لانهما قد أحرقا فيه

وأما قوله تعالى في التابوت ﴿ فيه سكينه من ربكم وبقية مما ترك آل موسى
 وآل هرون ﴾ فقد كثرت فيه الروايات ومنها ما لا يدل عليه نقل ولا يقبله عقل ،
 على أنها متعارضة لا يمكن الجمع بينها كما ترى في تفسير ابن جرير ، وهو أم التفسير ،

وقد أوردنا ما أوردنا من كتب اليهود ليعلم أن أكثر ما ذكر عن الثابوت وعما فيه من الغرائب لا أصل له في تلك الكتب . وإنما وحي الله تعالى ناطق بأن فيه سَكينة ، والسكينة في اللغة ما تسكن اليه النفس ويضمئن به القلب ، وفي آيات الصندوق سَكينة لا تخفى لما كان له من الشأن الديني عند اقوم ، أو فيه ما يحدث لهم سَكينة وهي الفيران والبواسير الذهب التي تدل على خوف العدو ، أو الألواح أو رضاضتها ، وهي البقية مما ترك آل موسى وآل هارون ، وروي عن عطاء نحو ما قلناه . قال ابن جرير وأولى هذه الأقوال بالحق في معنى السكينة ما قاله عطاء بن أبي رباح

من ثَمها الشيء تسكن اليه النفوس من الآيات . وقوله ﴿ تحمل الملائكة ﴾ يحتمل وجهين (أحدهما) أن المراد بالملائكة صور الكرويين وقد حمل الثابوت أي وضع عليها كما تقول في وصف القصور والتمثيل المصنوعة : فيها فلان على فرس من نحاس ، تريد تمثال الملك وتمثال الفرس (ثانيها) أن البقرتين اللتين حملتا الثابوت من بعض بلاد الفلسطينيين إلى بني إسرائيل كانتا تسيران مسخرتين بالهام الملائكة . وفي كتب القوم أن البقرتين اللتين جرتا عجلة الثابوت لم يكن لهما قائد ولا سائق ، ما يجري بالهام لا كسب فيه للبشر وهو من الخير يستند إلى إلهام الملائكة . روى نحو هذا ابن جرير قال حدثنا الحسن قال أخبرنا عبد الرزاق قال أخبرنا عبد الصمد بن معقل أنه سمع وهب بن منبه يقول وكل بالبقرتين اللتين سارتا

بالثابوت أربعة من الملائكة يسوقونهما الخ وختم الآية بقوله تعالى ﴿ ان في ذلك لآية لكم ان كنتم مؤمنين ﴾ قالوا يحتمل أن يكون هذا ائمة كلام بني إسرائيل لهم أي ن في جحي الثابوت علامة أو حجة لكم تدل على عناية الله بكم ، و اصطفاؤه لكم هذا الملك الذي ينهض بشؤونكم وينسكل بأعدائكم ، فعليكم أن ترضوا بملكه ولا تفرقوا عنه . ويحتمل أن يكون استئناف كلام منه تعالى لهذه الأمة ، معناه ان فيما أوحاه الله تعالى إلى نبيه عليه الصلاة والسلام من هذه القصة آية بينة على نبوته إذ لولا الوحي لما كان يعرفها وهو لا يمي الذي لم يقرأ ولم يتلم شيئا ، ولا كان يعرف ما نطوت عليه من العبرة والفائدة ، ولا سيما ما يعتبر في الملوك من الصفات التي

تؤهلهم للقيام بأعباء السياسة وأعمال الرياسة ، وإنما يكون ذلك آية بيّنة وعبرة
خافعة لمن يؤمن بالله وآياته التي يؤيد بها أنبياءه ورسوله عليهم السلام ، لذلك قيدها
بالشرط الذي حذف جوابه للدلالة الكلام عليه

علم من السياق أن الغرض الأول من طالب القوم نصب الملك عليهم هو أن
يتولى قيادتهم للقتال في سبيل الله ويثأر من أولئك الوثنيين الذين أخرجوهم من
ديارهم وأبنائهم ، فكان المتوقع بعد بيان نصب الملك أن يذكر ما كان من شأنه
في القتال وذلك ما بينه تعالى ذكره بقوله ﴿ فلما فصل طالوت بالجنود قال إن الله

مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس مني ومن لم يطعمه فإنه مني إلا من اغترف غرفة بيده *
فصل بالجنود انفصل بهم من مقامهم وقادهم لقتال أعدائهم ، وأصله : فصل نفسه عنه
مصاحباً لهم ، والجنود جمع جند بالضم وهو العسكر وأصله الأرض الغليظة ذات
الحجارة ثم قيل لكل مجتمع قوي جند . والشرب تناول المذبح بالغتم وابتلاءه ،
وطعم الشيء من غدا . وشرب ذاقه قال الشاعر * وإن شئت لم أطعم نقاحاً ولا يردا *
والغرفة بالفتح المرة من غرف الشيء . إذا رفعه من محله وتناوله وبها قرأ ابن كثير
وأبو عمرو والحجازيون . والغرفة بالضم ما يعترف وبها قرأ ابن عمر وأكوفيون
لما كان بنو اسرائيل من قبل كارهين لملك طالوت عليهم ثم أذعنوا من بعد وكان
أذعان الجميع ورضاهم مما لا يمكن العلم به إلا بالاختبار والابتلاء أراد الله أن يبتي
هذا القائد جنده ليعلم المطيع والعاصي والراضي والساخط ، فيختار المطيع الذي
يرضى بلاؤه في القتال ، وثباته في معامع النزال ، وينفي من يظهر عصيانه ، ويجشى
في الوغى خذلانه ، فإن طاعة الجيش للقائد وثقته به من شروط الظفر ، وحجج القواد
إلى اختبار الجيش من ولي على قوم وهم كارهون ، وكان فيهم من يكرهه ، فإذا وجد في
الجيش من ليس متحداً معه يخشى أن يوضعه أو يخلله يبعونه الفتنة ويسومونه القتل ،
أخبر طالوت جنوده بأن سيمرون على نهر يمتحنهم به بإذن الله ، فمن شرب منه فلا يعد
من شيعته المتحددين معه في أسر القتال إلا أن يكون ما يشربه قليلاً وهو غرفة
تؤخذ باليد ، فإن هذا مما يتسامح فيه ولا يراء مانعاً من الاتحاد به والاعتصام

يحبده ، ومن لم يطعمه أي يذقه بالمرة فانه منه وهو الذي يركن اليه ويوثق به تمام الثقة ، فالأبتلاء سيكون على ثلاث مراتب مرتبة من يشرب فيروى لا يبالي بالامر وحكمه أن يبرأ منه ، ومرتبة من يأخذ بيده غرفة يبل بها ريقه وهو مقبول في الجلة ، ومرتبة من لا يذوقه البتة وهو الولي النصير الذي يوثق بالحاده ، ويعول على جهاده ، قال تعالى ﴿ فشرّبوا منه إلا قليلا منهم ﴾ ذلك أن القوم كانوا قد غلبت بينهم وتزلزل آيمانهم ، واعتادوا العصيان فسهل عليهم عصيانهم ، وشق عليهم مخالفة الشهوة وإن كان فيها هوانهم ، ولم يبق فيهم من أهل الصدق في الآمن والغيرة على الملة والامة إلا نفر قليل (وقليل من عبادي الشكور) والعدد القليل من أهل العزائم ، يفعل ما لا يفعل الكثير من ذوي الآئتم ، كما يعلم من قوله تعالى ﴿ فلما جاوزوه ﴾ والذين آمنوا معه ﴿ أي فلما جاوز النهر طالوت هو والذين آمنوا معه ﴾ قالوا ﴿ أي الجنود وهم أولئك الذين شربوا منه إلا قليلا منهم ﴾ لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده ﴿ الطاقة أدنى درجات القوة كالتقدم في تفسير آية الصيام ، وجالوت هو أشهر أبطال أعدائهم الفلسطينيين وعربه النصاري الذين ترجوا سقر صموئيل الذي قيد القصة « جنيات » ولا اعتداد بتعريبهم والعبارة تشير بأن جنود الفلسطينيين كانوا أكثر من الاسرائيليين أي قال جمهور الجنود ليس لنا أدنى شيء من جنس الطاقة بلقاء جالوت وجنوده ،

﴿ قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين ﴾ وهؤلاء الذين يظنون أنهم ملاقوا الله في الآخرة هم الذين آمنوا وجاوزوا النهر مع طالوت وقد توهم بعض الناس أن الآخرين الذين شربوا من النهر لم يجاوزوه لانه تعالى لم يذكركم وظنوا أن القولين من المؤمنين الذين جاوزوا النهر قال شعاعهم لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده : وقال أقوىهم : كم من فئة قليلة الختم اشتد بعضهم بعزيمة بعض وكان من أمر انتصارهم ما يأتي في الآية التي بعد هذه ، والعبارة لا تدل على أن الذين شربوا من النهر لم يجاوزوه وإنما خص بالذكر الذين لم يشربوا لأنهم لم يتخلفوا عن طالوت لأجل الشرب ، فهم الذين جاوزوه

معه مقترنين وهم الذين يعتد بهم منه ويترأى من المتخلفين العاصين كما علم من قوله في الابتلاء
 سياق الكلام فيمن فصل بهم من الجنود وايتلوا بالنهر وقد قل فيهم أنهم
 شربوا منه إلا قليلا، ثم أعلمنا أن فريقاً منهم وصفهم بالمؤمنين جاوزوا النهر مع طالوت
 فعلمنا أنهم هم الذين أطاعوا ولم يشربوا، ثم أخبرنا بقولين يصلح أحدهما نارضة لا آخر
 ورده (الاول) أسنده إلى ضمير الجماعة المحكي عنهم الذين قل فيهم أنهم شربوا منه إلا
 قليلا منهم، ومثله يصدر ممن خالف القائد وجبن عن قتال، والثاني أسنده إلى الذين
 يظنون أنهم ملاقوا الله وهو ينطبق على الذين أطاعوا القائد واتحدوا معه فلم يمضوا
 ويتفق مع وصف الايمان الذي سبقه، فعلمنا أن الجميع جاوزوا النهر وأن هذين القولين
 كانا بعد مجاوزته، وأن التصريح بمجاوزة المؤمنين منهم ليست لاحصر وإنما هي بيان
 المعية والمصاحبة، فإن القوم افترقوا عند النهر فسبق من لم يشرب واتفق حول القائد
 وجاوزوا النهر معه، وتختلف الآخرون قليلا للشرب والارتفاق بالماء ثم، جاوزوا
 ولحقوا بالآخرين كما علم من محاورتهم معهم بما ظهر به أثر ما في نفس كل فريق
 منهما على لسانه. ومن بديع إيجاز القرآن أن يحذف الشيء ويأتي في السياق بما
 يدل عليه، وأن يذكر القوم بوصف غير ما دل عليه الكلام أو يجعل في مكان
 الضمير لافادة أن هذا الوصف المذكور هو السبب في الفعل أو لوصف الذي سبق الكلام
 لتقريره، كما وصف الذين لم يشربوا بالايمان مرة وباعتقاد لقاء الله تعالى مرة أخرى،
 فأعلمنا أن هذا الايمان والاعتقاد هما سبب طاعة القائد وترك الشرب، وسبب
 الشجاعة والاقدام على لقاء العدو الذي يفوقهم عدداً

هذا ما ظهر لي في بيان هذه العبارة ويؤيده ما رواه ابن جرير عن ابن عباس
 (رضي الله عنهما) قال: لما جاوزوه هو والذين آمنوا معه قال الذين شربوا
 لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده: (قال ابن جرير) وأولى القولين في ذلك
 الصواب ما روي عن ابن عباس وقاله السدي وهو أنه جاوز النهر مع طالوت
 المؤمن الذي لم يشرب من النهر إلا الغرقة، والكافر الذي شرب منه الكثير، ثم
 وقع التمييز بينهم بعد ذلك بروية جالوت ولقائه واختل عنه أهل الشرك والنفاق: الخ

وفيه ذكر قول كل من الفريقين . وروى من يقول بأنه لم يجاور مع طالوت النهر إلا أهل الأيمان بالغفلة ورد عليه قوله .

وفي كتب اليهود أن الابتلاء بترك شرب الماء كان على يد جدعون قبل قصة طالوت، ويوردون ذلك بما لا يليق بالله تعالى ولكنه يوافق ما بنيت عليه حوادث تاريخهم من كونها كلها عجائب وخوارق عادت لا شيء منها مبني على سنن الله تعالى في الاجتماع البشري . ففي الفصل السابع من سفر القضاة ما نصه :

« وقال الرب لجدعون إن الشعب الذي معك كثير عليّ لا أدفع المديانيين بيديهم لئلا يفتخر عليّ إسرائيل فلا يدي خلعستي . والآن ناد في آذان الشعب قائلاً من كان خائفاً ومرتداً فليرجع وينصرف من جبل جاماد ، فرجع من الشعب اثنان وعشرون ألفاً وبقي عشرة آلاف . وقال الرب لجدعون لم يزل الشعب كثير ، انزل بهم إلى الماء فأتقيهم لك هناك ويكون أن الذي أقول لك عنه هذا يذهب معك فهو يذهب معك ، وكل من أقول لك عنه لا يذهب معك فهو لا يذهب . فتنزل بالشعب إلى الماء ، وقال الرب لجدعون كل من يلمغ بلسانه من الماء كما يلمغ الكلب فأرفقه وحده وكذلك كل من جث على ركبته للشرب . كان عدد الذين وأغوا بيدهم إلى فهم ثلاث مئة رجل ، وأما باقي الشعب جميعاً فغشوا على ركبهم للشرب الماء . فقال الرب لجدعون بالثلاث مئة رجل الذين وأغوا أخلصكم وأدفع المديانيين أيديكم . وأما سائر الشعب فليذهبوا كل واحد إلى مكانه » اهـ

وقد علمت أن تقوم خاطوا في تاريخهم . وأن أكثره لا يعرف كتابه ومنه سفر صموئيل الذي فيه قصة طالوت ، وعبارته تدل على أنه كتب بعد حدوث وقاعه ، فإن السكتب يذكر بعض الاشياء ويقول انها لا تزال الى الآن كأن لزم كان كافياً لأن تدرس فيه جميع الرسوم والمعالم التي عهدت عند وقوع تلك الوقائع وهم لا يعرفون كتابه ، وانما ترى المؤرخين في زماننا يغلطون بما يقع في عهدهم غلطاً أبعد من هذا الغلط في اسناد الشيء الى غير فاعله ونفذه أو تأخيره عن زمانه ، وكما فات مؤرخي بني اسرائيل تحرير لوقائع والحوادث بالتدقيق ، فاتهم ما فيها من العبر والحكم ، فأين ما نزلناه في تفسير هذه القصة عنهم مما يجد

في عبارة القرآن من صنوف العبرة؟ فالخلق ما قاله الله تعالى في مسألة النهر وغيرها، ولا يعتبر ما خالفه من أقوال سائر الكتّاب معارضاً له فيحتاج إلى التوفيق أو الجواب كما تقدم في مقدمة تفسير هذه القصة والله أعلم وأحكم.

﴿ولما برزوا﴾ أي لما ظهر طالوت وجنوده بالبراز وهي بالفتح ما استوى من الأرض ﴿لجالوت وجنوده﴾ وهم أعداؤهم الفلسطينيين ﴿قالوا ربنا أفرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين﴾ أي اجعل قلوبهم طالوت المؤمنون إلى الله تعالى يدعونه بأن يفرغ على قلوبهم الصبر، ويثبت أقدامهم في مواقع القتال بثبات قلوبهم واطمئنانها بالآيمان والثقة به، وينصرهم على القوم الكافرين عبدة الأوثان، الذين تعلقت قلوبهم بالآلهام، وهذه الأمور الثلاثة بعضها مرتب على بعض بحسب الأسباب الغالبة، فالصبر سبب ثبات الذي هو سبب من أسباب النصر، وأجدر الناس بالصبر المؤمنون بالله عز وجل الغالب على أمره كما سنوضحه بعد تمام تفسير هذه الآيات.

﴿فبزمواهم باذن الله﴾ أي فاستجاب لهم ربهم بما سألوا ببركة التوجه إليه وتذكريهم ما يؤمنون به من قوته التي لا تغلب فهزمهم أي كسروهم كسرة انتهت بدفعهم من البركة وهرمهم منها بإرادته المنفذة لسنته في نصر المؤمنين الصابرين الثابتين، على الكافرين ﴿وقتل داود جالوت﴾ قلوا إن جالوت جبار الفلسطيني طرب البراز فلم يجرأ أحد من بني إسرائيل على مبارزته حتى أن طالوت جعل لمن يقتله أن يزوجه ابنته ويحكمه في ملكه، ثم برز له داود بن يسي وكان غلاماً يرعى الغنم ولم يقبل أن يلبس درعاً ولا أن يحمل سلاحاً بل حمل مقلاعاً وحجارته، فسخر منه جالوت واحتدى عليه إذ لم يستعد له، وقال هل أنا كعب فتخرج إلي بالمقلاع؟ فرماه داود بمقلاعه فأصاب الحجر رأسه فصرعه فدنا منه فاحتز رأسه وجاء به فألقاه إلى طالوت فعرف داود وكان له الشأن الذي

ورث به ملك إسرائيل كما قال تعالى ﴿وآناه الله الملائك والخشكة وعلمه مما يشاء﴾ فسروا الخشكة هنا بالنبوة والظاهر عذري أن تفسر بالزبور الذي أوحاه الله إليه.

كما قال في آية أخرى (٤ : ١٦٣) وآتيناه داود زبوراً) وبه كان نبياً، وأما تعليمه
مما يشاء فهو صنعة الدروع كما قال تعالى في سورة الانبياء (٢١ : ٨) وعلّمناه صنعة
نبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون ؟

ثم بين تعالى حكمة الاذن بالقتال الذي فررته لآيات فقال ﴿ ولولا دفع الله

الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض ولكن الله ذو فضل على العالمين ﴾
عبراً ندفع « دفع الله » وابقون « دفع الله » أي لولا أن الله تعالى يدفع أهل
الباطل بأهل الحق وأهل الفساد في الأرض بأهل الإصلاح فيها، لقلب أهل الباطل
والإفساد في الأرض وبغوا على الصالحين وأوقعوا بهم ، حتى يكون لهم السلطان
وحدهم ، ففسد الأرض بفسادهم ، فكان من فضل الله على العالمين وإحسانه إلى
الناس أجمعين ، أن أذن لأهل دينة الحق المصلحين في الأرض ، بقتال المفسدين
فيها من المكافرين والباطلة المعتدين ، فأهل الحق حرب لأهل الباطل في كل زمان
والله ناصرهم ما نصرهوا الحق وأرادوا الإصلاح في الأرض . وقد سمي هذا
دفعاً على قراءة الجمهور باعتبار أنه منه سبحانه ، إذ كان سنة من سنته في الاجتماع
البشري ، وسماه دفاعاً على قراءة نافع باعتبار أن كلام أهل الحق المصلحين وأهل
الباطل المفسدين يقاوم الآخر ويقاومه

نم بين أن إبقاء النبي الأمي أمثال هذه القصص من دلائل نبوته فقال

﴿ تلك آيات الله يشرح إلى قصة الذين خرجوا من ديارهم وقصة بني إسرائيل
التي بعدهم ﴾ نلوهما عليك بالحق ﴿ فيه تعريض بأن مايقوله بنو إسرائيل مخالفاً
هذا فهو باطل ﴾ وأنك لمن المرسلين ﴿ إذ لولا لرسالة لما عرفت شيئاً من هذه
القصص وأنت لم تكن في زمنه وقوعها ولا تعلمت شيئاً من التاريخ ولو تعلمته
لجئت بها على النحو الذي عند أهل الكتاب أو غيرهم من القصاصين . وقد قرر
تعالى هذه الحجة على نبوته ﷺ في سورة القصص بعد ذكر قصة موسى في
مدين وذكر نبوته بقوله تعالى (٢٨ : ٤٤) وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى

موسى الامر وما كنت من شاهدين ٤٥ وليكننا انشأنا قروناً فتطول عليهم
العمر ، وما كنت ثوريا في أهل مدين تغلو عليهم آياتنا وليكننا كئنا مرسلين)

﴿ السنن الاجتماعية في القرآن والامم والاستقلال ﴾

أذكر ما يظهر لي من السنن والاحكام الاجتماعية في آيات هذه القصة مفصلة
معدودة لعلها توعى ، وتحفظ فلا تنسى إن شاء الله تعالى

﴿ السنة الاولى ﴾ ان الامم إذا اعتدي على استقلالها ، وأوقع الاعداء بها ،
فهضموا حقوقها ، تنبش مشاعرنا لدفع الضيم وتفكر في سبيله ، فتعلم انها الوحدة
التي عملها الزعيم العادل والقائد الباسل ، فتتوجه إلى طلبه حتى تجده كواقع من بني
اسرائيل بعد تشكيل أهل فلسطين بهم

﴿ الثانية ﴾ ان شعور الامة بوجوب حفظ حقوقها ، وصيانة استقلالها ، إنما
يكون على حقيقته وكاله في خواصها ، فتي كثر هؤلاء الخواص في أمة قائلهم هم الذين
يطنبون الرئيس الذي يملك عليهم ، كما علمت من إسناد طنب الملك إلى اللأ من
بني اسرائيل وهم شيوخهم وأهل الفضل فيهم

﴿ الثالثة ﴾ متى عظم الشعور في نفوس خواص الامة بوجوب حفظ استقلالها ،
ودفع ضيم الاعداء عنها ، فنه لا يلبث أن يسري إلى عامتها ، فيظن الناقص أن
عنده من النعمة والحمة للامة ما عند الكل ، حتى إذا خرجت من طور الفسكو
والشعور ، إلى طور العمل والظهور ، انكشف عجز الادعاء المدعين ، ولم ينفع
إلا صدق الصادقين ، كما علم من قوله تعالى (فلما كتب عليهم القتل تولوا إلا
قبيلا منهم والله عليم بالظالمين)

﴿ الرابعة ﴾ ان من شأن الامم الاختلاف في اختيار الرئيس الذي يكونه
الملك عليها ، واختلاف مدعاة التفرق ، فيجب أن يكون هناك مرجع يقبله الجمهور
من الامة . لذلك لجأ اللأ من بني اسرائيل إلى نبيهم وطلبوا منه أن يختار لهم
رجلا يكون ملكا عليهم . وقد جمل الاسلام المرجح لاختيار إمام المسلمين مبايعة
أولي الامر لمن يختارونه من أنفسهم ، وهم أهل الحل والعقد والمكانة في الامة الذين

هم عون سلطان وقوته باحترام الامة لهم وثقتهم بهم ، ولذلك لم ينصب النبي ﷺ إماماً للمسلمين في أمر الإمامة والحكم ، ولكن استنبط بعض العطاء من الصحابة رضاء النبي ﷺ بإمامة أبي بكر الدنيوية ، بآبائه عنه في الإمامة الدينية ، وهي إمامة الصلاة إذ أمر عند ما اشتد مرضه ، بأن يصلي أبو بكر بالناس مكانه ، ومع هذا قال عمر : نبيعة أبي بكر كانت فلتة وقي الله المسلمين شرها . أي ان الشورى في انتخابه لم تكن تامة ، وإنما كان هو الذي عجل بالبيعة خوفاً من عقبة طول أمد الخلاف مع إجماعهم على عدم دفن النبي ﷺ قبل نصب الخليفة له ، ولكن خلافته وإمامته (رض) لم تثبت بالفعل إلا بمبايعة الامة له

الخامسة (١) ان الناس لا يتفقون على التقليد أو الاتباع فيما يرونه مخافاً لمصلحتهم الاجتماعية ، ولذلك اخلف بنو اسرائيل على نبيهم في جعل طالوت ملكاً عليهم ، واحتجوا على ذلك بما لا ينهض حجة لا في ظن المنكرين . ومن عجيب أمر الناس أن كلاً منهم يحسب أنه يعرف الصواب في السياسة ونظام الاجتماع في الامم والدول ، فلا تعرض مسألة على عامي الا ويبدى فيها رأياً يقيم عليه دليلاً على أن هذا العلم هو أعلى من سائر العلوم التي يعترف الجاهلون بها بجهلهم ، فلا يحكمون فيها كما يحكمون في علم السياسة والاجتماع . وما يعقله الا الافراد من الناس ، ومن فروع هذه القاعدة أن عامة المسلمين لهذا العهد يرون أن الدعوة الى جعل الخلافة موافقة للقواعد الشرعية التي يعتقدونها مخالفة لمصلحتهم ، وكثير منهم يعد للداعي الى ذلك عدواً لهم بل للاسلام نفسه (٢)

السادسة (٣) ان الامم في طور الجهل ترى أن أحق الناس بالملك والإمامة أصحاب الثروة الواسعة (كما علم من قول المنكرين على ملك طالوت في تأييد انكارهم

(١) سبب هذا أن الدولة العثمانية كانت تدعي منصب الخلافة لسلطانها ، وكانت أقوى دول المسلمين فكانوا يعترفون بها ، ويرون أن هذا المنصب كمال قوة لهاتجاه الدول التي تعادي الاسلام وتكيد له وان لم تعمل هي شيئاً لدينهم ولا دنياهم ولم يكن هؤلاء المسلمين زعماء أولو علم وحزم تسمو عنهم وعزهمهم إلى فوق قوة تلك للدولة ولا لاضطرابها إلى خدمة الاسلام

[ولم يؤت سعة من المال] (وأصحاب الانساب الشريفة ، كما علم مما قسره العلماء قوله لم) (ونحن أحق بالملك منه) فهذا الاعتقاد من السنن العامة في الامم الجاهلة خاصة ، فإنها هي التي تخضع لأصحاب العظمة الوهمية ، وهي التي ليست صفة لنفس صاحبها كالمال والانتساب الى بعض العظماء في عرفهم ، سواء كانت عظمتهم بحق أو بغير حق . هذا موضع الخطأ في تعظيم ذي النسب ، ويشدد خطره إذا صار أهل الانساب يستعملون على الناس بأنسابهم دون علومهم وأعمالهم والقرآن لم يصرح بأن ذلك هو وجه قولهم انهم أحق بالملك وفي المسألة نظر لا محل هنا لبسطه ، ولكن نقول بالاجمل ان الانتساب الى أهل الشرف الحقيقي ، وهم أصحاب المعارف الصحيحة والاخلاق الفاضلة ، والنفوس الكريمة العريضة له أثر في النفس عظيم ، فمن سليل الشرفاء جدير بأن يحافظ على كرامة نفسه فلا يذل نفسه بالخيانة ، ثم انه لا بد أن يرث شيئاً من فضائلهم النفسية فيكون استعداداً للخير أعظم في الغالب

وانك لتجد الامم الرقية في العلم والاجتماع تختار ملوكها من سلالة الملوك والامراء وتحافظ على قوانين الوراثة في ذلك ، وما ارتقى عن هذا الا أصحاب الحكومة الجمهورية ، وقد جاء حكم الاسلام في هذه المسألة وسطاً فلم يغفل أمر النسب بالمرة لئلا تنسح دائرة الخلاف بطمع كل قبيلة في الامامة الكبرى ، ولم يجعل الامر في يد معين لما في ذلك من العوائل ، بل جعله في قبيلة عظيمة كثيرة العدد لا تخلو من موأهل الامامة ، وهي محترمة في نفسها كانت محترمة في العصر الاول ، ويرجو أن يدوم احترامها مادام الاسلام الذي أتم الله نعمته على البشر يجعل رسول الله وختم النبيين منها ألا وهي قريش . فمن الحكمة في ذلك أن تظل الرئاسة العليا للامة مرتبطة بتاريخ ماضيها وقوم مؤسسها كارتباط دينها بوطنه في عبادتها الشخصية والاجتماعية وهما الصلاة والحج

﴿ السابعة ﴾ ان الشروط التي تعتبر في اختيار الرجل في الملك هي ما استفدناه من قوله تعالى (ان الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم) الآية كما تقدم

﴿ ثامنة ﴾ هي ما أفاده قوله تعالى (والله يؤتي ملكه من يشاء) كما بيناه معززاً بالشواهد من الكتاب العزيز على أن مشيئته تعالى انما تنفذ بمقتضى سننه العامة في

تغيير أحوال الامم بتغييرهم في أنفسهم ، وفي سلب ملك الظالمين وايراث الارض
للصالحين ، وتوويل هذه الآيات وأمثالها مشاهد في كل زمان وأين المبصرون ؟
(٢١ : ٤٤) أفلا يرون أننا تأتي لارض ننقصها من أطرافها أفهم الغالبون ؟) أولم
يسمعوا دعوة الانبياء بقوله تعالى في سورة اشعراء (٢٦ : ١٥٠ - ١٥٢) فاتقوا
الله وأطيعوا ولا تطيعوا أمر المسرفين * الذين يفسدون في الارض ولا يصحون)
أيضن المسلم الغافل أن مشيئة الله تعالى في قوله (٣ : ٢٦) قل اللهم مالك الملك تؤتي
الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء) هي عبارة
عن مخالفة سنته التي بينتها الآيات التي ذكرها وما في معناها مما لم نذكره ؟ بل
أقول ولا أخشى في الحق لومة لائم : أيظن المسلمون أن تنازع الامم والدول على
ممالكهم وسلبها من أيديهم يخالف عدل الله العام وسنته الحكيمة التي جاء بها القرآن ؟
كلا انه تعالى ما فرط في الكتاب من شيء ، ولكنهم هم الذين فرطوا فذاقوا
جزاء تفریطهم ، فإن تابوا وأصلحوا تاب الله عليهم ، والا فقد مضت سنة الاولين
(التاسعة) * ان طاعة الجنود للقائد في كل ما يأمر به وبه من عنه شرط في
الظفر واستقامة الامر . وقوانين الجندية في هذا لزمان مبنية على طاعة الجيش
لقواده في المنشط والمكروه والمعقول وغير المعقول ، فإذا أمر القائد بتسليم الديار
أو الاموال أو الانفس للاعداء وجب تسليمها في قانون كل دولة ، نعم انهم قرنوا
بهذا الحق للقائد ايجابهم عليه أن يهرم الامور باستشارة أهل الرأي في الفنون العسكرية
وهم الذين يسمونهم أركان الحرب . ولكن هؤلاء ورئيسهم مقيدون بدستور
الدولة العام ، وبموافقة مجلس نواب لامة على مانص الدستور على وجوب موافقتهم
عليه ، ومن خالف ذلك يحاكم ويعاقب

(العاشرة) * ان الفئة القليلة قد تغلب بالصبر والنيات وطاعة القواد ، الفئة
الكثيرة التي أعوزها الصبر والاتحاد ، مع طاعة القواد ، لان نصر الله مع
النصابين — أي جرت سنته بأن يكون النصر ، أثراً للنبات والصبر ، وأن
أهل الجزع والجبن هم أعوان لعدوهم على أنفسهم ، وهذا مشاهد في كل زمان ، وهو
كثير لا مضرد كجاء في الآية الكريمة

﴿الحادية عشرة﴾ ان الايمان بالله تعالى والتصديق بآياته من أعظم أسباب الصبر والثبات في مواقف الجلاء ، فمن الذي يؤمن بأن له إلهاً غالباً على أمره يده بموئته الإلهية ، كما أمده بالقوى الروحية والجسدية ، فإذا خفر بأذنه كان مصلحاً في الارض مستعمراً فيها ، وإذا قبضه إله بانتهاء نجله المسمى كان في رحمته ناعماً فيها ، وهو جدير بأن يستخف يلا هو ال ، وثبت في القتال ثبات الاجيال ، وقد وافقنا كتاب الافرنج في هذه المسألة ، فصرحوا بأن من أسباب ثبات البوير وبلائهم في حربهم للانكيز كونهم أقوى ايماناً وأرسخ عقيدة ، وجميع الامم تشهد بأن الجيش العثماني أثبت جيوش العالم وأصبره وأشجبه ، وقد تمني قد ألماني يعد من أشهر قواد الارض لو أن له مئة ألف من هذا الجيش لملك بها العالم ، ذلك بأنه جيش يؤمن ببقاء الله تعالى ايماناً قوياً يقل في قواده من يسأله فيه (١)

﴿الثانية عشرة﴾ ان التوجه إلى الله تعالى بالدعاء مفيد في القتال كما يدل عليه قوله تعالى (فزموهم باذن الله) إذ عطفها بالقاء على آية الدعاء ، وذلك معقول المعنى فان الدعاء هو آية ذلك الايمان الذي بينا فائدته آنفاً ، ولذلك قال عز وجل في سورة الانفال (٨ : ٤٥) يا أيها الذين آمنوا إذا قُتِلْتُمْ فاموتوا وإذا كروا لله كثيراً لعلكم تفلحون) فراجع تفسيرها في الجزء العاشر

﴿الثالثة عشرة﴾ دفع الله الناس بعضهم ببعض من الدين العامة وهو ما يمبر عنه علماء الحكمة في هذا العصر تنازع البقاء ، ويقولون ان الحرب طبيعية في البشر لانها من فروع سنة تنازع المقام العامة . وأنت ترى أن قوله تعالى (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض) ليس نصاً فيما يكون بالحرب والقتال

(١) كتبت هذا منذ ثلاثين سنة وقد حدث بعد ذلك حزوب كثيرة بين دول أوربة والمسلمين في طرابلس الغرب وورقة في البلقان كان فيها المسلمون على قلة عددهم وعددهم ووزقهم يقتلون أضعاف أضعافهم ، ثم وقعت الحرب العالمية الكبرى فاستخدمت فرنسا وانكلترا فيهما مئات الألوف من مسيحي مستعمراتها حتى قتال الالمان فكانوا أشجع جيوش الملل الاخرى وأثبتها وأصبرها ، والمكن هؤلاء الاسود ليس لهم ملوك ولا أمراء إلا من هم دون الكلاب

خاصة ، بل هو عام لكل نوع من أنواع التنازع بين الناس الذي يقتضي المداخلة والمعالجة . ويظن بعض المتطفلين على علم السنن في الاجتماع البشري أن تنازع البقاء الذي يقولون إنه سنة عامة هو من أثره الماديين في هذا العصر ، وأنه جور وظلم ، هم الواضعون له والحاكمون به ، وأنه مخالف لمهدي الدين ، ولوعرف من يقولون هذا معنى الانسان او لو عرفوا أنفسهم ، او لو فهموا هذه الآية وما في معناها من سورة الحج لما قالوا ما قولوا

(الرابعة عشرة) قوله تعالى (لفسدت الارض) يؤيد السنة التي يعبر عنها علماء الاجتماع بالانتخاب الطبيعي أو بقاء الامثل ، ووجه ذلك جعل هذا من لوازم ما قبله ، فانه تعالى يقول إن ما فطر عليه الناس من مداخلة بعضهم بعضاً عن الحق والمصلحة هو المانع من فساد الارض أي هو سبب بقاء الحق وبقاء الصلاح . ويمرر ذلك قوله تعالى في بيان حكمة الاذن للمسلمين بالقتال في سورة الحج (٢٢ : ٣٩) أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير . الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ، ولينصرن الله من ينصره ، إن الله لقوي عزيز ٤١ الذين إن مكناهم في الارض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأسروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، والله عاقبة الامور) فهذا إرشاد إلى تنازع البقاء والدفاع عن الحق ، وأنه ينتهي ببقاء الامثل ، وحفظ الافضل

ومما يدل على هذه القاعدة من القرآن المجيد قوله تعالى في سورة الرعد (١٣ : ١٧) أنزل من السماء ماء فسالأت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً رابياً ، ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله ، كذلك يضرب الله الحق والباطل ، فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الارض ، كذلك يضرب الله الامثال) فهو يفيد أن سيول الحوادث ونيران التنازع تقذف زبد الباطل الضار في الاجتماع وتدفعه ، وتبقى إبليلز^١ الحق النافع الذي ينمو فيه

(١) الابليلز هو الطين الذي يأتي به النيل في فيضانه وهو خاص أريد به العام

العمران ، وإبريز (١) المصلحة التي يتحلى بها الانسان ، وهناك آيات أخرى في أن الحق يزهق الباطل وسيأتي بيان ذلك ودفع الشبه عنه في تفسيرها إن أمهلنا الزمان ، والله المستعان . اهـ

تم الجزء الثاني وهو منقول من المجلدين السابع والثامن من مجلة المنار للذين طبعوا في سنتي ١٣٢٢ هـ ، ١٣٢٣ هـ ، وقد طبع أول مرة في اثنا عشره وتم طبعه في سنة ١٣٢٥ هـ وقد قرأ الاستاذ الامام مطبع منه على حديثه الى نهاية تفسير الآية ١٢١ كما قرأ تفسير الجزء الاول كله في المنار وأجازه وعلق على النصف الاول ما نشرناه بنصه عند طبعه فكانه كتب كل ما عرّفناه اليه فيه ، وكل ما عداه فهو كله مكتوب بقلمنا من إنشائنا ونقلنا ما فهمناه من دروسه بالمعنى الانفسير آية (٢١٢) كان الناس أمة واحدة) ولا غرو فقد كان [رح] يقول صاحب المنار ترجمان افكاري وقد نشر تفسيرها في جزء المنار الذي صدر في غرة ربيع الآخر سنة ١٣٢٣ هـ . وتقل عليه المرض بعد نشر تفسير الآية ١٢١ فلم يعد يستطاع قراءة شيء وتوفي في ثامن جمادى الاولى منها رحمه الله تعالى

وتتماز هذه الطبعة على الاولى بجودة ورقها وكون طبعها بمنس واحد من الحروف وبقلة الغلط المطبعي ويجعل الآيات وارقامها فيها وفي شواهد التفسير من مصحف الحكومة المصرية وهو اصح المصاحف للطبوعة بما وافقته لمصحف الامام التتدى به في رسمه ، وبأننا زدنا فيه عند طبعه زيادات كثيرة في مسائله ، بعضها تمحيص وتحقيق يقتضيه تفسير الآيات ويطلب منه كمسألة (اليانصيب) من فروع اليسر ، وقد كثرت في عصرنا وكثر السؤال عنها ، وبعضها أحكام زائدة على مفهوم الآيات تستد الحاجة اليها كالفصل الطويل الذي زدناه في تفسير آيات الصيام ، التي كثرت فيها اختلاف الفقهاء وحقق الراجح منها شيخ الاسلام (ابن تيمية)

وتتمت هذه الطبعة في شهر ربيع الاول الانور وصدر في شهر رمضان من سنة ١٣٥٢ هـ وأول سنة ١٩٣٤ م

وفي الحمد في الاولى والاخرة

(١) الابريز الذهب الخالص المصنوع وهو معرب

فهرس أبجدي للجزء الثاني من تفسير المذا

(الطبعة الثانية)

صفحة	صفحة	٢١
٣٩٩	الاجتهاد حياة الدين	٩١ الآباء : اتباعهم دون ما أنزل الله
٣٥٦	« منعه »	٢٣٨ الآخرة لا تطلب وحدها
١٩٧	الاجرة على التعليم والعبادة	٢٩٦ آدم : البشر قبله
١٨٤	أحاديث تعجيل الفطرو تأخير السجود	٣١٧ آل يامر : تعذيبهم
٤٣٩	أحاديث في الصلاة	٣٩٧ آيات الله : اتخاذها هزوا
٣٠٠	أحد والاحزاب . غزوتها	٢٧ آيات الله على نبوة محمد (ص)
٤٣٠ و ٣٨٧	الاحسان للمطلقة	آيات الله في السموات والارض
٤٣١	الاحسان يشمل الفرائض	٥٨ واختلاف الليل والنهار
٢٢٠	الاحصار عن الحج	آيات الله في الفلك (السنن) وإزال المطر
٤٤	الاحكام التعبدية والمعقولة	٥٩ وتصريف الرياح والسحاب
١٤٣	الاحكام التي تحتاج اليها الامة تتوقف	آيات الصيام
١٩١	على النص والتواتر العملي	١٧ الآيات الكونية لانهدي المعاند
٨٤	الاحكام الواجب معرفة دليلها	٢٩٩ آية دخول الجنة
٨٣	أحمد : نهيه عن التقليد	١٣٠ آية (ولكم في القصاص) و بلاغتها
١١٠	الاخبار بالذات عن المعنى	١٣٥ آية الوصية للوالدين غير منسوخة
٢٨٥ و ١٠٨	الاختلاف في الكتاب	٨٢ الائمة الاربعة : إبطالهم التقليد
١٧٦	اختيان النفس	٧٩ أئمة الضلال وأئمة الهدى
٢١٧	الاخلاص في الحج	١٨٨ ابن تيمية : تحقيقه أحكام الصيام
٤٥٩	الاخلاق والامم	١١٦ ابن السبيل
١٤٩	الاخلاق والصيام	٤٩٣ أبو بكر : بيعته
١٩٧	الاذان : الاجرة عليه	٢٠٠ ابوحنيفة : رأيه في حكم الحاكم
٢٦١	ارث الارض	٨٢ « نهيه عن التقليد
٥٩	الارض . استدارتها	٢١٤ الاتقان للاعمال وإحسانها
٦١	الارض انفصالها عن الشمس	إثبات البيت من ظهره والبيوت من ابوابها
٤٠٩	الارضاع وجوبه على الام	٢٠٦
٤٩٥	أركان الحرب	١٩٩ الاثم في اكل الاموال بالباطل
٧٥	الزهر : شيوخه والمولود الخرافات	الاثم : معناه
٣٩٨	الزواج : حالم اليوم	٢٨ الاثير : قيام الروح به

صفحة	صفحة	
٢٢٦	١١٦	الاسارى : فكهم
٤٧٧	٢٢٩ و ١١	أسباب التزول
٤٢٤	٥٦	أسباب التزول لآيات العقائد
٢٢٨	٨٩ و ٦٦	الاسباب والمسببات
٤٩٤	٤٧٨	الاسباب ومشيدة الله
٤٦٥	٢٥٧ و ١٢٢	الاستبداد في المسلمين
٣٧٦	٢١٤	الاستبداد والثروة
٢٤٨	٣٣	الاستعانة بالصبر والصلاة
١٢١	٤٧٨	استعداد الامم
١١٥	١٦٨	الاستعداد لقبول الحق
٤٦٣	٣٩٧	الاستغفار مع الاصرار على المعصية
٣٠٩	٢٥٧ و ١٠٤	الاستقلال في الدين وغيره
٢١٥	٤٦١	استقلال الامة بحمايته
١٩٥	٤٧١ و ٤٥٥	الاسرائيليات والقرآن
٩٥	٢١٣	الاسراف
٤٥٦	٤٨٣	الاسلام : إبطاله الزخرف الديني
٣٠٦	٢٥٧	الاسلام : أخذه بحملته
٤١٧	٢٠٤	الاسلام : تفويضه أمور دنيانا إلينا
٣٠٥ و ٣٠٢ و ٢٥٠	٤٥	الاسلام : جمعه بين خيري الدارين
٣٠٢ و ٢٥٧	٢٥٣ و ٢٤٣ و ٢٣٧	الامراء سياستهم لعوام بالعلماء
٥١	٤٤٠ و ٣٠٣ و ٢٩٩ و ٢٧٣	الاسلام : جنسية
٢٥٨	٤	الاسلام : حال الناس قبله
٤٧٥	٤١٧	الاسلام دين الفطرة
٤٩٢	٣٤٦	الاسلام : صيرورته تقليديا
٤٧٩	٢٦٠	الاسلام : العيب والفرور به
٢٥٦	٢١٦ و ٢٠٩	« قيامه بالدعوة لا بالسيف »
٤٦٨ و ٢٩٨	٣٣٩ و ٣٤٤	الاسلام : كونه يسرا
٤٩٤	٤٩٣	الاسلام والخلافة والمملك فيه
٤٦٨ و ٤٥٧	٤٤٠	الاسلام والعمران
٢٦١ و ١٢٠	٢١٦ و ٢٠٩	أسلوب الحكم

صفحة	صفحة
١٥٠	الامم . سنن الله فيها ٢٩٩ و ٢٦٨
٢٤١	الامم . عزتها ٣٣٨
٣٣١	الامم . نشوءها ٢٩٣
٣٧٠	الامم . هلاكها ٤٧٩ و ٢٦٨
٢٧٢ و ١١١ و ١٠	الامم والاستقلال ٤٩٢
٤٠٣ و ٣٦٤ و ٣٠٤ و ٢٩٠ و	الام . إرضاع ولدها ٤١٦ و ٤٠٩
٤٠٤ و ٣٦٤ و ٢٥٨	أمة الاسلام - كونها وسطا ٣٣٩ و ٤
٣١٨	الامة . خدمتها من الايمان ٢٥٤
١١١	» خلاصتها وقدرتها ٤٩٢
٢٦٥	» معانيها ٢٧٦
٤٩٦	» (أنى) معناها ٣٦٢
٢٦٥	الانبياء - حاجة البشر اليهم ٢٨٢
٢٧٢	الانبياء . ما لا يعرفه البشر الا منهم ٢٠٤
٢٥٢	الانتخاب الطبيعي ٤٩٧
٤٣٩	الانجيل - بياينه المبهم وبشارته بنبينا ١٦٠
٣٦٥	الانذار - اتخذهم الله ٩٥ و ٦٧ و ٩٥
٣٦٦	الانسان مدني ٢٨٢
٣٦٧	الاتفاق في أول الاسلام وبعده ٣٣٦
(ب)	الاتفاق للحرب ورفعة الامة ٤٦٤
١٩٥	الانهار من المطر ٦٢
٩٨	أهل الكتاب - ايمانهم ١١٣ و ١٦
٣٠٠	» جورهم وتقليدهم ١٧
٨١ و ٧٦	» طقوسهم وبدعهم ٣٥٦
٣٠٢	» غير المشركين ٣٤٩
٩٠	» في الجاهلية ١٦
٧٥	الاولياء . مفاسد موالدهم ٧٥
١١٥	الاولاد للآباء ٤١١
٤٦٨ و ٤٦٣	أولو الالباب - مخاطبتهم ١٣٣
١١٠	أولو الامر في الاسلام ٢٩٢

صفحة	صفحة
٤٥	٢٠٧
١٥٨	٢٩٦
٠٤٤	٢٩١ و ٢٧٨
٩٦	»
٤٢٥	٢٨٨
٢٥٧	٣١٧
١٤٧	٢٦٩
٢٩	٤٨٩
٠٢٦٩	٤٩٦
٠٨	١٩٧
٤	٢٥٢
١٨٥	٤٠٥ و ٣٩٠
٨٣ و ٧٦ و ٦٧ و ٢٢ و ١٨ و ٧	التقليد
٤٥٣ و ٢٧٣ و ١١٤ و ١٠٨ و ٩١ و	
١٦	٤٨٢
٧	٢٦٩
٤٩٣	٤٧٣
٤٤٢	٢٨٦ و ٢٧٣ و ٢٥٧ و ١٠١ و ١٧٧
٠٢٧٣ و ٢٢١	٢٦٨
٢٢٩	٧٨
٢١٣	٢٣٠ و ٢١٧
٤٢٣	١١٦
٣٩٩	١٠١ و ٩٦ و ٨٨
٤٠٢ و ٢١١ و ١٣٤ و ١٢٨	٣٩٤
٢٠٣	٢٨
١٩٦	٢٥٤
٢٤٢	٢٨
١٩٦	٢٢٩
٢٢٢	٣٨٧
١٧٤	٧٢
	٢٠٧
	٢٩٦
	٢٩١ و ٢٧٨
	»
	٢٨٨
	٣١٧
	٢٦٩
	٤٨٩
	٤٩٦
	١٩٧
	٢٥٢
	٤٠٥ و ٣٩٠
	التقليد
	٤٨٢
	٢٦٩
	٤٧٣
	٢٨٦ و ٢٧٣ و ٢٥٧ و ١٠١ و ١٧٧
	٢٦٨
	٧٨
	٢٣٠ و ٢١٧
	١١٦
	١٠١ و ٩٦ و ٨٨
	٣٩٤
	٢٨
	٢٥٤
	٢٨
	٢٢٩
	٣٨٧
	٧٢
	البشر هو التقوى
	البشر قبل آدم
	» قبل الرسل
	» كيفية نشوءهم
	البغي منشأ الخلاف
	بالل — تعذيبه
	بنو اسرائيل — الاعتبار بهم
	» مؤرخهم
	البوير — انتصارهم على الانكاز
	يسع العبادة
	يسع النفس برضا الله
	اليوت — فسادها
	(ت — ث)
	تابوت العهد
	التاريخ — الاعتبار به
	» ضبط جزئياته
	التأويل ١٠١ و ١٧٧ و ٢٥٧ و ٢٧٣ و ٢٨٦
	تبدل نعمة الهداية والوحدة
	تبرؤ المتبوعين من اتباعهم وعكسه
	التجارة في الحج
	تحرير الرقيق
	التحليل والتحرير
	تحليل المطلقة . تحريره
	التربية بالعمل
	تربية النفس . غايتها
	تزكية النبي للامة
	الزود للحج والاتكال
	التسريح احسان
	التصوف . حقيقته

صفحة	صفحة
٩٠	١٠٤ الجناز . بدعها
٤٤٠ و ٣٠٣ و ٢٧٣ و ٢٩٩	٤٩٦ جنسية الدين
٢٩٩ و ٢٥٤	٢٥٨ الجنة . آية أممها والعمل لها
٣١٢	٢١٣ الجهاد . آية فرضيته وحكمه
٢١٦ و ٢٠٨	٥١٠ الجهاد في الاسلام دفاع
٤٩٦	٢٦٤ الجيش العثماني
(ح)	٣٥٣ و ٦٥ و ٥٥
٣٦٠	١٥٩ الخائض . أحكامها
٢٨٢	٣٥٣ و ٨٩ و ٧٦ و ٦٩ و ٦٧ التوسل
١٩٩	٦٦ التوكل والاسباب
٦٨	٢٢٩ » والزود للحج
٦٨	٣٩٤ التيسر المستعار
١٨٩	٢١٤ الثروة أساس القوة
٢٦٧	(ج)
٢٢٦ - ٢١٣	الحج . اركانه وزمانه
٢٢٥	٢٦٤ و ٦٣ حجة الوداع
٠٤٢١	٢٠٦ الحداد وما يمنع فيه
١٧٩	٤٢٢ حدود الله
٢١٢	٣٨١ الحديثية - صلاحها
٢٠٥	١٢٣ حديث أتم أعلم بأمور دنياكم
٣٩٥ و ٣٩٢	٤٧٥ حديث العسيلة
١٣٥	٤٩٥ حديث لا وصية لوارث
٤٠٢	٢٦٩ حديث معقل بن يسار
١٣٩	٢٢٧ الحديث الظني لا ينسخ القطعي
٨٥	٢٤٦ الحديث الظني العمل به وشيوته
١٣٦	٣٥٤ و ٢٦١ و ٨٠ الحديث الظني قبوله لا يجعله متواترا
٢١٧	٢٤٤ و ١٩٥ الحرب عدتها العلم والمال
٢١٥ و ٢٠٨	١٢٨ حرب النبي وأصحابه دفاع
٤٠٧	٢٠٠ حرف الخطاب في اسم الإشارة
	تمثيل لمينغ
	تنازع البقاء
	التنازع الديني
	التهلكة . النهي عن أسبابها
	توبة الله على الناس
	التوبة الدعوة إليها
	التوحيد والشرك
	التوراة - بيانها
	التوسل
	التوكل والاسباب
	» والزود للحج
	التيسر المستعار
	الثروة أساس القوة
	(ج)
	الحاذية
	الجاهلية - احرامها
	» حداد النساء عندها
	» طلاقها ورجعتها
	» القصاص عندها
	الحج مبيت الامم
	الحجباء عون لعدوهم واعذارهم
	الحجود بعد الحجة
	الجدال في الحج
	الجرائد - غشها ونصحها
	الجزاء بالاعمال
	الجسد . تغذيته لاحياء الروح
	الجماعة والشؤون العامة
	الجمهور وحكم الحاكم

صفحة	صفحة
٤٢٩	الحزن لا يتنافى الصبر ٤١
٢٢٨	الحساب — سرعته ٢٤٠
٢٩	حفاظ القرآن والجماد ١١٤
٣٤٠	الحق الاقرب اليه والابعد عنه ٩٢
٨٧	» تحمل الشدائد لاجله ٢٩٩
٣٦٥	» شرط غلبته ٣١٤
٣٦٦	» معارضته تظهره ٢٦
٢٢٢-٢١٩	الحق والباطل ١٠٣
٤١٠	الحقنة ما يقطر الصائم منها وما لا يقطره ١٥٤
٧٦	حقوق الزوجين ٣٧٨
٣٨	الحقيقة والشرعة ٧٣
٢٨٤	حكايات المتصوفة الصارة ٧٥
٣٧٥	الحكام استكبارهم عن النصيحة ٢٥٠
٤٦٠-٤٥٨	الحكام الظالمون . افسادهم ٢٤٨ و ٢٥٧
١١٨	الحكام في الجمع والمواسم ٢٥٠
	الحكم — دوراته مع العلة ٣٥٧
	» في الاختلاف بكتاب الله ٢٨٦ .
٣١٧	حكم الاحكام ٣٥٧
٣٧١	حكم الحاكم لا يحل الحرام ١٩٩
٢٦٤	حكمة الاحرام ٢٢٨
٢٥٩ و ٨٧	» اختلاف الالهة ٢٠١
٢٦٠ و ٢٥٦ و ١٠٧	» الزوج بالكتايبات ٣٥٠
٢٩٨ و ٢٨٥ و ٢٧٠	» الدعاء ١٧٠
١٠٨	» الزخرف في اليهودية ٤٨٣
٢٩٠ — ٢٨٣	» سكوت الانبياء عن علوم الدنيا ٢٠٥
٢٥٧	» الصلاة وقائدها ٠٤٤١
٤٨٢	» الصيام ١٤٥
٢٤٦	» عدة الوفاة ٤١٩
٢٤٥	» القصاص ١٣٣
٣٨٨	» قصص القرآن ٢٠٦
	حكمة متعة المطلق ٤١
	» محرمات الاحرام ٢٤٠
	الحكمة في القرآن وتأثيرها في العمل ١١٤
	الحكومة الاسلامية منقودة ٩٢
	الحلال الطيب ٢٩٩
	الحلف على الشر ٣١٤
	الحلاف . ذمه شرعا ٢٦
	الحلق في الحج ١٠٣
	الحمل . مدته ١٥٤
	الحنيفة السمحة والقرآن ٣٧٨
	حياة الشهداء ٧٣
	الحياة الاجتماعية ٧٥
	الحياة الزوجية ٢٥٠
	الحياة معاتها ٢٥٧ و ٢٤٨
	الحيلة لمنع الزكاة ٢٥٠
	» خ
	خباب — تعذيبه بالنار ٣٥٧
	الخبر بمعنى الامر ١٩٩
	خراب العالم : اماراته ودمماته ٢٢٨
	خطوات الشيطان ٢٠١
	الحلاف الديني ٣٥٠
	» الدين عرضه على الكتاب والسنة ١٠٨
	» في الدين والحكام ٠٤٤١
	الخلافة وآراء الناس ١٤٥
	خلافة الجرائد بالوطنية ٤١٩
	» الخصام المنافقين ١٣٣
	خلق المرأة طلاق ام لا ٢٠٦

صفحة	صفحة	
١٤٧	١٤٧	رأفة الصائم
١٩٦	١٩٦	الربا
٣٢٠	٣٢٠	الرجاء
٣٩٨	٣٩٨	الرجال . طغيانهم على النساء
٣٧٨	٣٧٨	الرجل . حقه على امرأته
٣٨٠	٣٨٠	» رياسته على امرأته
٣٧٤	٣٧٤	الرجعة في الطلاق
٤٦٩	٤٦٩	الرجوع الى الله
٤١٠	٤١٠	الرحمة الخاصة بالمؤمنين
٥٧	٥٧	» دلائلها في الخلق
١٦٣	١٦٣	الرخص في الاسلام
٣١٨	٣١٨	الردة وجبوت الاعمال
٢٧٤	٢٧٤	الرزق بغير حساب
٥	٥	الرسول . كونه شهيداً على أمته
٤١٠	٤١٠	الرضاعة . مدتها
١٧٥	١٧٥	الرفق الى النساء ليلة الصوم
٢٢٧	٢٢٧	» في الحج
١٦٦	١٦٦	رفع الصوت بالدعاء
٩٠	٩٠	» » بالعبادة
١١٦	١١٦	الريق تحريره
١٦٢	١٦٢	رمضان . تقيد صيامه بشهوده
١٤٩	١٤٩	» النفقة فيه
١٥٨	١٥٨	» وانزال القرآن
١١	١١	الروايات . جناتها على التفسير
٣٦٢	٣٦٢	الرواية . الجنون بها
٤٧٢	٤٧٢	» والعلوم بعد الاسلام
٣٨	٣٨	الروح . جسمها الاثري
١٤	١٤	روح النبي والدين
٨٩ و ٧٠	٨٩ و ٧٠	الرياسة في الدين من الفحشاء
٢٢٩	٢٢٩	الرياء
٢٢٣	٢١٧ و ١٩٧	السبعة والسبعون للكثرة
١٤٧	١٤٧	الرياح . تصرفها
١٩٦	١٩٦	» ز »
٣٢٠	٣٢٠	زائرات القبور وبدعهن
٣٩٨	٣٩٨	الزكاة والايمان
٣٧٨	٣٧٨	» بطلان الحيلة فيها
٣٨٠	٣٨٠	زلزال المسلمين يوم الاحزاب
٣٧٤	٣٧٤	الزهد
٤٦٩	٤٦٩	الزواج بأقل من مهر المثل
٤١٠	٤١٠	الزواج بين المسلمين وغيرهم
٥٧	٥٧	» تراخي الزوجين فيه
١٦٣	١٦٣	» سنته
٣١٨	٣١٨	الزوجة . اتباع الفطرة فيها
٢٧٤	٢٧٤	» حالها عصر
٥	٥	» رابطتها
٤١٠	٤١٠	» في زماننا
١٧٥	١٧٥	» معناها
٢٢٧	٢٢٧	الزوج والزوجة
١٦٦	١٦٦	الزوجان . تشاورهما في ولدها
٩٠	٩٠	» حقوقهما
١١٦	١١٦	الزوجة . اختيارها
١٦٢	١٦٢	زيارة القبور
١٤٩	١٤٩	زينة الدنيا
١٥٨	١٥٨	» س »
١١	١١	الساعة قيامها بفتة وصفته
٣٦٢	٣٦٢	السؤال (الشحاذة)
٤٧٢	٤٧٢	السباق والرمابة
٣٨	٣٨	سبب النزول معين على فهم القرآن لا
١٤	١٤	شرط
٨٩ و ٧٠	٨٩ و ٧٠	السبعة والسبعون للكثرة
٢٢٩	٢٢٩	السبعة والسبعون للكثرة
٢٢٣	٢٢٣	السبعة والسبعون للكثرة

صفحة	صفحة
٤	٥٧ خلق السموات والارض
٢٧٠ و ٢٥٧	٥٣ الخلود في النار
٢٨٥ و ٢٨٨ و ٢٩٨	٣٢١ النحر والميسر — تحريمهما
٢٨٢ و ٢٨٧	٣٢٥ « كل مسكر
٣٠٤	٣٢٥ « مضارها بالنفس والبدن
٦٣	٣٢٧ « — مضارها في المماشرة
» الخلف فيه (راجع الخلف)	٣٢٨ « — « في المال والدين
٣٠٢	٣٣٧ « — منافعها
٥٢	٩٨ الخنزير — تحريمه
٢٤٦	٢٨٠ الخمر والشر — أيهما سبق
٢١١	٣٠٩ الخمر بمعنى المال
٣٤٠ و ١٦٤	١٧٨ الخيطان الابيض والاسود
٢٤٤	» « د - ذ »
١٤	» « د - ذ »
٢٢	١٥٩ دانيال — كتابه
٦٩	٣٨٠ درجة الرجل على المرأة
٤٨٣	١٦٩ و ١٤٤ الدماء
١٢٩	٢٤٠ و ١٧٠ الدعاء بالحال العمل
٢٤٢	٢٣٧ « بحسنة الدنيا والآخرة
٢٣٥	٢٣٦ « بحظوظ الدنيا
٣٢	٤٩٦ « والحرب
»	٠١٧١ « وحكته
» « د »	٢٩٨ دعاة الوقاق — إندائهم
٤٩٢	٢٦٨ الدعوة - بلوغها وعدمه
٣٩٩	٢١٦ « إلى الدين وطرقها
٢٧١ و ٢٨	٣٠٤ دعوة المسلمين إلى الاسلام
٨٧	» « تضامنهم
٦٦ و ٦٣	٢٧١ و ٢٧٠ الدنيا - ترتيبها للكفار
٣٠٢ و ٢٨٨ و ٢٧٠ و ١٠٣ و ٨٩ و ٨٧	» « الديانة الروحانية المحضة
١٢	٤ القطرية الجامعة

صفحة	صفحة	سبيل الله
٤٨٠ و ٢٦٨ و ٢٦٠	٤٦١ و ٢٥٩	سنة الله في هلاك الامم
٤٦٨	٢٥٩	وسبيل الشيطان
٢٤٠ و ١٧٠	٣٥٣	وعلامه أهلها
٤٦٨ و ٤٥٨	٦٣	السحاب
٤٧١ و ٢٦١ و ٨٩	١٨٥	السحور والفجر
٢٨١	٢٠٣	سر القدر
٤٦٨ و ٢٧٤	٣١١	سرية عبد الله بن جحش
٤٧٤ و ٤٠	٣٦٤	سعادة الدارين
٢٧٥	٤٥	السعي بين الصفا والمروة
٣٧	١٥١	السفر المبيح للقصر
٣١٤ و ٢٩٩ و ٣٩	٤٧٦	سفرا صموئيل . كاتبا
٢٦١	٣	السفاهة والسفاهة
٨٨	٣٣٤	السكر في مصر
١٩٦	٤٨٤	السكنة في الثابت
٢٦١	٢٥٧	السلطين والخلاف
٣٠٢	٢٦١	السلطان والخلافة في الارض
	٣٤٠	السلف . سيرتهم
	٨٢	هدايتهم للعامة ومذهبهم
٤٥	١٩٦	السلم
٨٣	٢٥٦	الدخول فيه
٤٦١	٢٩٧	السنة . اتباعها
٢٩٩	٤٥٥-٤٥٣ و ٢٤٢	سنة القرآن في البيان
٤٩٤	٤٢١ و ٣٠	السنة مبينة للقرآن
٥٥	٢٤٢ و ٢٣٣	لما تركه القرآن
٧٢-٦٥	٦٣	سنة الجاذبية
٣٥٣	٤٩٢ و ٤٦٠	السنة الاجتماعية
٣٤٩	٣٩٨ و ٣٤٥ و ٢٣٨	سنة الفطرة
٢٠٢	٣٠٢	سنة الله . جهل المقلدين بها
٣٤٠	٦٢	في المطر والنبات
٣٤٥	٤٧٨	ومشيئته

« ش »

صفحة	صفحة
٨٥	٤٣
٢٣٩	٧٥
٣٠	٤٩٢
٣١٣	٣٥٣ و ٦٧ و ٥٤
٣	١٠٨
٤٦٢	٢٦١
٤٢	٧٣
١١ و ٤	٤٦٠ و ٩٥ و ٤٧ و ٢٢
٠٤٤٣	٣٦٤
٤٣٦ و ١١٧	٣١٦ — ٣١٥
٣٦	٤١٤
٤٤٣	٤٩٥
٠٤٤١	٩٦ و ٧٣
٤٣٩ و ١٠	٢٥٩ و ٨٧
٤٣٨	٣٩ و ٣٧
٤٤٣	٥
١٦٢	٥
٤٣٧	١٤٨
٤٨٤ و ٤٧٦	٥٠
٣٤٠	٣٧
٢٣٩	٤٠
٧٥ — ٧٢	١٢١
١٨٠	٣٤
١٧٣ و ١٤٥	٤٩٥ و ٤٩٠
٣٠٧	١٧٥
٩٤	١٧٩ و ١٧٦
	٣٠٢
	٣١٦

تشعائر الله

الشعراني . حكايته مع الزمار

شعور الاستقلال

الشفاعة والشفعاء ٥٤ و ٦٧ و ٦٧ و ٣٥٣

شفاق المسلمين والتقليد

الشرعية هادية لسنن الخليقة

» والحقيقة

شكر النعم

الشهوات . جنايتها على أهلها

الشهر الحرام والقتال

الشورى في البيوت

» في الحرب

شيوخ الطريق

الشیطان . خطواته

الشهادة فضليها

شهادة امتناع الامم

﴿ ص - ض ﴾

الصائمون . حالهم

الصابرون . بشارتهم

» . كون الله معهم

» وصفهم

الصبر وانواعه

» حقيقته والاستعانة به

» سبب النصر

» الصحابة . اجتهادهم في فهم القرآن

» الاقتداء بهم

» تعذيب المشركين لهم

ضرار النساء

الضلال والكفر ﴿ تفرقة ﴾

صفحة	العامة والسياسة	صفحة	﴿ ط ﴾
٤٩٣	» . قيادتهم بالدين	٤١٢	الطاقة والوسع
٣٠٢ و ٢٥٦	» . كونهم من الانداد	٤٧٦	طالوت
٧٧	العباد الصالحون لارث الارض	٧٤	الطرق . مقاسدها
٢٦١	العبادات لاقياس فيها	٩٧ و ٨٧	الطعام المحرم بالنص
١٧٩	العبادات والمعاملات	٣٩٩ و ٣٩٧	طلاق الجاهلية
٤٤	عتق الرقاب	٣٨٢	الطلاق البائن والثلاث
١١٦	العدة لبراءة الرحم	٣٩٢	» . الثلاث وحكمته
٣٧٢	عدة الامة وأم الولد	٢٩٨	الطور الاول للبشر . الفطرة
٤٢١	» . المتوفي عنها زوجها	٢٩٤	» . الثاني . هداية الدين
٤١٩	» . المطلقات	٢٩٤	» . الثالث . الخلاف في الدين
٤٥١ و ٣٦٩	عدد السبعة كالمسبيين للمبالغة	٢٩٦	» . الرابع . زوال الخلاف
٢٢٢	العدل والعمران	٣٥٤ و ٢٤٤ و ٩٥ و ٨٦	الطيبات . حلها
٢٦١	العدو . كونه مرييا نافعا		﴿ ظ ﴾
٢٧	العرب . حدادها قبل الاسلام	٤٧٦	الظالمون يترك الجهاد
٤٢٢	العرب عند البعثة	٢٤٨	» . افسادهم
٣١٣ و ٢٨	عرفات . تسميتها وحدودها	٤٩٥	» . سلب الملك منهم
٢٣١	العزائم والتمائم الخرافية	٢٤٩	الظاهر عنوان الباطن
١٩٦	عسى . معنى لفظها	٤١٤	الظئر . شرط استئجارها
٤٧٥	عضل النساء	٤٠٩	» . مضرة ارضاعها
٤٠٥ — ٤٠١	العفو . عن القاتل	٤٩٦	الظن في العقائد
١٢٨	» . في النفقة	٣٩٣	» . الذي يعمل به شرعا
٣٣٦	العقائد والدليل	٢٦٣ و ٢٦٢	ظلم الغنام ومحبي الله فيها
٨٤	عقاب الله	٣٩٠	ظلم الزوجين
٢٦٨ و ٢٦١	العقاب (راجع الجزء)		﴿ ع ﴾
٠٤٣٢ و ٤٢٧	عقدة النكاح		غاشورا
٤٥٣ و ٢٣٩ و ٢٨٢ و ٩١	العقل في الدين	١٥٠	عالم الغيب
٢٠٤	» . ما يحتاج اليه من معرفة الدين		
١٣٣	العقلاء . مخاطبتهم		
٣٠٤	علماء الرسوم . ارشادهم		

صفحة	صفحة	
٣٠٠	١٢٢	علمائونا . جبينهم وجزعهم
١٩٦	٣٣٩ و ٦٤	» . معاداتهم للعلوم
٤٩٥	٣٠٢ و ٢٥٧ و ٢٩	العلماء والامراء
٢٦٣	٢٧٥	» والاستبداد
٤٦٤	٢٦٥	» استتابتهم
	٦٤ و ١٩	» اتباعهم أهواء العامة
	١١٤	» يظلمهم
٢٤٦	٣٩٩	» دعوتهم للإصلاح
٧٠	٥١	» وجوب البيان عليهم
٣١٦	٢٨٧ و ٢٦٥ و ٢٥٦	» والخلاف
٣١٦ و ٢٠٩	٢٥٧	علمائونا والقرآن
٨٨	٢٥٧	علم الله . قديم ومعنى تعليله بالحوادث
٣٢	٤٩٣	» الاجتماع والسياسة
١٥٥	٢٥٨	العالم وكونه يستلزم العمل
٣٧٧	٢٠٣	العلوم وما يتوقف منها على الوحي
٢٢٧	٣٣٩	» والاسلام
٤١٤	٦٣	» الكونية والدين
٢٩١ و ٢٧٨	٣١٦	عمار بن ياسر تعذيبه
٣٩٨	٣٤ و ٢٦١	العمران والاسلام
٢٢٢	٢١٦	العمره والتمتع بها
٤٦٤	٢٢١	عمرة القضاء
٣٠	٣١٩	العمل الصالح من الايمان
٣٣٨	٤٩٢	» ثمرة الشعور
	١١٩	العهود والعقود
		« ق »
٤٨٦		قائد الجيش يمتحنه
٣٣٢	١٢٠	قاعدة أخف الضررين
٣٣٢		» دره المفاصد
١٦٤	٢٦١	قاعدة المشقة تجلب التيسير
٤٦٨	٣١٣	القبض واللبسط
		« غ »
		القدر مفسدة الامم
		غرور من يطلب السعادة والسيادة ولا
		يعمل لها
		الغزو قبل الاسلام

صفحة	صفحة
١٦٥ و ١٠٠ و ١٠٧ و ١٣٠ و ١٦٥	القبلة حكنها وتحويلها الى الكعبة ٢-٣٤
٤٠٧ و ٢٥٥ و	» للام السابقة ٣٢
٢٢٣ و ١٥٨	القبور عبادتها ٧٦ و ٨٩
٢٥٧	القتال احكامه في الاسلام ٢٠٨-٢١٦
٤٣ و ٢٦	» في سبيل الله ٤٦١
٤٥١	» في الشهر الحرام ٣١١ و ٣١٦
٤٦٦	» كونه كرها وخيرا ٣١٣
٢٦٩ و ٨١ و ٦٣	قتل الحر بالعبد ١٢٦
٨١ و ٧٩	» المسلم بالكافر والوالد بالولد ١٢٧
٣٥٧ و ٢٠١ و ٩١ و ١٥٨	المقدور والدعاء ١٧١
٢٤١ و ٢٣٢ و ٢٤١	القرآن آية كونه من الله ١٦٢
٣٤٦ و ٣٥٦ و ٢	» ابتداء نزوله ١٥٨ و ١٦١
١٦١	» ابداءه في السكناية ٢٥٥ و ٢٦١
١٣٠ و ٣٠	و ٣٦٢ و ٣٧١
١٧٩ و ١٦٩ و ١٥٩ و ١٥٨	اتباعه والامتداء به ٦٨ و ٧٢ و ١٧٩
١٦١ و ٤٥٣ و ٣٩٣ و ٢٨٨	» الاجار به ٣٥٦
٣٩٨ و ٣٥٧ و ٢١٢ و ٢٠٩	» أجرة تعليمه ١٩٧
٣٨٢	» أخذه بجملة ٢٥٩
٣٣٨	» إرشاده للعلوم ٦٤ و ٣٣٩
٤٥٥ و ٤٥٣	» أسلوبه ١١ و ١٥ و ٣٣ و ٨٥
٤٧٣ و ٢٠٥	» اصلاح البيوت به ٤٠٦
٤٥٣ و ٤٣٦ و ٢٦٨	» اضاعة الدين بهجره ٣٠٢
٨٤٦ و ٦٣ و ٥٦	» اعفاء حافظه من الجهاد ١١٤
٢٢٩	» إعجازه وجلاله معانيه وجناتيه
١٢٦ و ١٠٠	الجاهلين عليها ١١ و ١٦٠
٢٩٨ و ٢٥٦	» ايجازه ٤٠ و ١٥٩ و ٢١١ و ١٩٥
١٦١ و ١٥٨	و ٢١٢ و ٢٣٦ و ٢٤٠ و ٢٥٥
٩٢	و ٢٦١ و ٣٤٣
١٦١	» انزاله في رمضان ١٥٨ و ١٦١
٣٧٧	» بلاغته ٧ و ١١ و ٥٦ و ٦٩ و ٨٥

صفحة	صفحة
١٥١	القرآن . مخاطبته الامة (راجع وحدة الامة) قصر الصلاة . سفره
٠٤٧٠ و ٢٠٥	» مخاطبته العقل ٩١ و ٢٢٩ قصص القرآن والتاريخ
٤٨٢	» و ٣٣٨ و ٤٤٧ قصة طائوت
٤٥٤	» مخالفته كتب القنوت ٦٨ و ٩٢ و ٤٥٣ قصة الذين خرجوا من ديارهم
٢٢١	» مساواته بين الزوجين ٣٧٥ قضاء المحتصر الحج والعمرة
١٩٩	» موافقته لكل زمان ومكان ١٦٣ قضاء القاضي لا يحل الحرام
٤٥٦	» نزاهته ١٧٦ و ١٧٨ و ٣٦١ القصص التمثيلية
١٦٣	» و ٣٦٤ و ٣٧١ القطبان . الصلاة والصوم فيها
٣٣٠ و ٣٢٤	» نسيخه لما حرم أهل الكتاب القمار
٤٣٨	» وغيرهم ١٠١ القنوت . معانيه
٠٨٩	» نقي التكرار منه ٤٥١ القول على الله بغير علم
٤٩٥	» وجوه الاتصال بين آيه ٣٣ قواد الحرب . طاعتهم
١٤١	» و ٥٦ و ٩٧ و ١٤٣ و ١٧٧ و ٢٠١ القياس الجلي . نسيخه للسنة
٦٥	» و ٢١٥ و ٢١٧ و ٢٩٨ و ٣٠٧ و ٣٤٧ قياس الله على خلقه
٤١٧	» وزن النفس به ٢٥٣ قبصرة روسيا ترضع ولدها
	» وضع كلمه في مواضعها ١٢ و ٦٢
	» و ٦٦ و ١٥٩
٢٧٢	» و كتب الانبياء ١٥٩ الكافرون . سخرتهم من المؤمنين
٦٤	» و كتب الفقهاء ١١٨ و ١٦١ و ٤٥٣ كتابا الله : القرآن والكون
٢٨٤ و ١٠٧	» والمذاهب ٢٥٧ الكتاب الخلاف فيه
٢٥٧ و ١٠٧ و ٨٣	» والمسلمون ٨١ و ١٦٠ و ٤٣٤ - والسنة
٠٣٥٠	» والنحو ٨٥ و ١١٠ و ٢٣٥ الكتابيات . زواجهن
٥٢	» لا ينسخ بالحديث ١٣٥ و ١٣٩ كتب العقائد الجدلية
٤٥٣ و ١١٨	» القراء . مجملهم ١١٤ كتب الفقه
١١٠ و ٧٨ و ٥١	» قرب الله تعالى ١٦٨ كتاب العلم . وعيده
١٠١ و ٥٠	» القرض الحسن ٤٦٦ كتاب البشارة بالنبي
٧٤	» القروء في الحيض ٣٧٠ الكرامات والمعاصي
٨٣	» قریش . حجها في الجاهلية ٢٠٦ و ٢٣٤ الكرخى . أصوله
٠٢٣٠	» القصاص في الحرمات ٢١٢ الكسب في الحج
٤٠٣	» القتلى ١٢٣ الكفاءة في الزواج

صفحة	صفحة
٢١٣	الكفار . حرمانهم من تكليم الله ١٠٤ المال . بذله للحرب
١١٨ و ١١٤ و ٥٢	الكفر . تعريفه ٩٤ و ٢٧٠ و ٢٧١ » » آية الايمان ١١٨ و ١١٤ و ٥٢
٢٥٢ و	» والضلال (تفرقة بينهما) ٩٤
١١٧ و ١١٥	» يستلزم خلود النار ٥٣
١٣٥	كفر النعم . مضرتة في العمران ٢١ و ٤٧
٢١٥	الكلام . دلالاته على الضمير ٢٤٧ . » وانفوة
٨٣	الكلي . كذب روايته ٢٠٢ و ٣٠٧ مالك . نهيه عن التقليد
٢٥٥ و ٢٥٣ و ٧٨ و ٥٢	كلمات الله تكوين وتكليف ٩ و ٦٤ المؤمن علامته ٥٢ و ٧٨ و ٢٥٣ و ٢٥٥
٣٥٤ و	الكواكب ٥٨
٢٧٤ و ٢٧٢	الكون كتاب الابداع الالهى ٦٤ » المتني والكاذر
٢٩٩ و ٣٩ و ٣٤	المؤمنون . ابتلاؤهم ٣٤ و ٣٩ و ٢٩٩
٣٠٥ و	(ل)
٢٥٦	اللذة . ترجيحها على العقل ٢٠٤ » اتفاقهم واتحادهم
٢٨٢ و ٢٧٩	اللعن من الله وغيره ٥٠ - ٥٣ » امة واحدة
٤٠ و ٣٧ و ٣٤	اللغو في الايمان ٣٦٧ » الاولون واعدائهم ٣٤ و ٣٧ و ٤٠
٢٥٣	لم ولما . معناها ٣٠٦ » بيع انفسهم لله
٢٥٥	اللواء (الجريدة) تحريم المقصاص ١٢٤ . » تنعمهم بالدنيا
١٧٠	اللوح المحفوظ ١٦١ » قصدهم بالدعاء
٢٦٥	ليلة الصيام ١٧٥ » كون الله معهم
٧٠	» القدر ١٦١ » يسترشدون ولا يقلدون
٤٨٩	الليل والنهار : آيات الله في اختلافهما ٥٨ المؤمنون : غلظهم
٨٧ - ٧٨	و ١٧٨ المتبوعون والاتباع في الآخرة ٧٨ - ٨٧
٤٢٩	المنفعة المظنقة
٤٢٤	» م المتفرنجون : تحديهم بالاصلاح
١١٤	الماء . كونه حياة للارض وما فيها ومادته المتفحبة : بخلم
٩٣	وكونه آية الوحدة والرحمة ٦٠ - ٦٣ المثل المعروف بالتمثيل
٢٣٣	» ما » السؤال بها ٣٠٨ مجامع الجاهلية في المواسم
المادة الاولى للخلق	٢٦٧ و ٢٦٠ المجتهدون : عرض أقوالهم على الكتاب
المال . إحياءه للام	٤٦٨
» اكله بالباطل	١٩٤ . المجوس ليسوا مشركين
٣٤٩	

صفحة	صفحة	محاكية النفس
٩٧	٥٢ و ٤٦٢	المحامون : نصيحة لهم
٤٤٠	» ٢٠٠	محرمات الاحرام : سرها
٢٦٩ و ١١٤	» ٢٢٨	المحرم لذاته ولعارض
٤٩٥	» ٩٧ و ٨٧	المدارة والنفاق
٤٦٨	» ٧٧	المذاهب والدين والشيخ
٣٠٠	» ١٠٧ و ٧٦	» وضررها
٣٧٦	» ٢٦٠ و ٢٥٨	مذهب السلف في المتشابهات
٨٩	» ٢٦٣	المذبح لغير الله
٣٠٥	» ١٩٨	مراقبة الله تعالى
٧٨-٧٢	» ١٤٦	المراة : تحريم ماها على المطلق
٤٤١	» ٣٨٧	» تزويجها بمن تريد
١٦٠ و ٨٢	» ٤٠٣	» حقها على زوجها
٣٣٩ و	» ٣٧٩	المرضع : تأثيرها في الرضيع
٣٥٥ و ١١٣	» ٢١٤	المرض الميسر للرخصة
٢٦٠	» ١٥١	المريد مع شيخه
٧٢	» ٧٣	المزلفة والمبيت فيها
١٠٣	» ٢٣٣	المسافر والمريض مخيران في الفطر
١٦٠ و ٨١ - ٠٧٦	» ١٥٤	المساكين
٣٤٦ و ٢٣٦ و ٢٠١	» ١١٦	المساواة بين الشعوب
اليوم ١٣ و ١٢٢ و ٢٠١ و ٢٥٦	» ٢٣٣	مساواة النساء للرجال
٢٦٠ و ٣٣٩ و ٣٤١ و ٣٩٨ و ٤٣٤	» ٣٧٥	المستبدون : تكريمهم على الحق
٤٩	» ٣٥٠	المسجد الحرام : القتال فيه
٢١٥	» ٢١٠	» » اطلاقه على مكة
٣٥٧ و ٣٤٦	» ٢١٣	المسلمون : ابتلاؤهم
٠٢٣١	» ٢٦٠	» اتباعهم سنن من قبلهم
٤٧٩ و ٤٩٤	» ٣٥٦	» اتحادهم
٤٦٣ و ٣٣٧	» ٢٥٦	» ازالة الحكام لبايهم
٣٤٥	» ١٢٢	» اعتقادهم وأعمالهم
٢٤٨	» ٣٧٩	» أمة حربية
٢٠١	» ١٢٢ و ٤	

صفحة	صفحة
١٦١ و ٩٠ و ٧٩	المصريون . حالهم الزوجية ٤٣٤
٤٥٣ و ٩١ و ٦٩	» هل ينقضون ٣٣٤
١١٦	المصلحون . ايذاؤهم ٢٥١
٤٣	المصلون ٣٦ و ٣٧ و ١١٧ و ٤٤٢
٠١١٠	المضارة بالولد ٤١٣
٤٨٥	مضاعة الصدقة ٤٦٤ و ٤٦٧
٤٧٨	المضطر إلى أكل المحرم ١٩٩
٠٤٩٢	المطر . كيفية ازاله ٦٠
٤٧٧	المطلقة . زوجها أحق بها ٣٧٤
٣٥٧	» قبل الدخول بها ٤٣٢
٢٣٣	» معاملتها ٣٨٧ و ٣٩٦
٠٥٢	المطلقات أربع أقسام ٤٥١
٣٢٠	» النهي عن مواعدتهن ٤٦٢
٤٢٨	المعتدة . تحريم الزوج بها ٤٢٧
٧٤ و ١٩	معرفة الله . استمدادها ٦٤
٤٥٨	المعلوم من الدين بالضرورة ٨٤
٩٧	المعيشة الحسنة ٢٢٧ و ٢٥٠
٩٣ و ٨٨	المفتي . جعل قوله حجة ٨٣
٣٤٠ - ٣٢٤	المفسدون . كراهمهم للناصحين ٢٥١
	المفسد عمدا ٢٤٩ والمفسد والمصلح ٣٤٤
	المفسرون . خطوهم ٨٨١
	» ن »
٢٧٦	الناس قبل بعث الانبياء وبعده ٣٠٤
٢٩٨ و ٢٥١	» اعداء العلم والعقل ٩٢ و ١٧
٦٢	» اغترارهم بالشهوتين ١٦
٢٩٤	» لاخلاق لهم ٢٣٧
١٤	» مثلهم في القرآن ٩٣
٣١٧	» والائمة ١١٥ و ٦٩
٢٠٤	» والايان والوعظ ٢٦٤ و ١١١
	» كونه كالعقل للناس ٤٠٤ و

صفحة	صفحة
٩٦	نبيينا . آية نبوته ٤٨٥ و ٤٩١
٤٠٤ و ٢٤٩	» بشارة الانبياء به ١٠١ و ٥٠
٢٩٠ و ٤٨١ و ٦٦	» كونه من ولد اسماعيل ١٨ و ٢٤
٣١٣ و ١١٣ و ٧٦	» معرفة أهل الكتاب له ٢٠
٦٦ و ٦٢ و ٥٨ و ٤١	» وظيفته ٢٧
٢٦٥ و ٢٦١ و ٥٩ و ٥٨	» وعظ الله له عبرة لنا ١٨
٢٠١	» واليهود ١٦ و ١٠٠
٠٤٦	» النجاة بالآيمان والتقوى ٢٧٣
٢٦٨ و	» النجوى . تحكيمه في القرآن ٢٣٥
٠٢٥٢	» النساء . بدعهم في المقابر ٩٠
٢٤٢ و ٢٠٩	» ظلم الرجال لهم ٣٨١ و ٤٠٥
٣٣٦	» في الجاهلية ٣٩٦ و ٤٠٠ و ٤٢٢
٤١٣	» والرجال (المساواة بينهما) ٣٧٥
٣٠٧ و ١١٥	» المكتنيات عن رغبتهم ٣٧١
٣٠٩	» كونهم حرثا ٣٦٢
٣٣٨	» في نظر أوربا والاسلام ٣٧٦
٣٩٣	» كونهم لباسا ١٧٦
٣٥٥ - ٣٤٦	» ما يجب في تعليمهم ٣٩٧
٦٢	» فساد عضلهم وظلمهم ٤٠٤
١٩٧	» النسخ في الشرائع وشرعنا ١٤ و ٣٩
	» آيات الصيام ١٧٤
	» نسخ السابق لللاحق ٤٤٨
	» السنة بالقياس ١٤١
	» القرآن بالسنة ١٣٨ و ١٤٠
	» القطعي بالظني ١٣٩ و ١٤٠
	» المطلق بالمقيد وعكسه ١٣٧
	» الوصية للزوجة ٤٤٨
	» نشوء الأئم وتكونها ٢٩١
	» النصارى .: صيامهم ٩٦ و ١٤٤
	» عند البعثة ١٠١
	» وادي محسر ٢٣٣
	» تنصيح . الاستكبار عنها ٢٤٩ و ٤٠٤
	» النصر . أسبابه ٦٦ و ٤٨١ و ٢٩٠
	» نصر الله المسلمين ٧٦ و ١١٣ و ٣١٣
	» النظام الالهي ٤١ و ٥٨ و ٦٢ و ٦٦
	» النظام الشمسي ٥٨ و ٥٩ و ٢٦١ و ٢٦٥
	» النظر في السكون لمعرفة اسرارها ٢٠١
	» النعم . فائدة شكرها ومضرة كفرها ٠٤٦
	» النفس بيعها لله ٢٥٢
	» تزكيتها ٢٠٩ و ٢٤٢
	» النفقة في أول الاسلام ٣٣٦
	» بقدر السعة ٤١٣
	» واحق الناس بها ١١٥ و ٣٠٧
	» الواجبة على الاعيان ٣٠٩
	» في المصالح ٣٣٨
	» النكاح له اطلاقان ٣٩٣
	» نكاح المشركات ٣٤٦ - ٣٥٥
	» النيل . كونه من المطر ٦٢
	» النية في العبادة ١٩٧
	» الهجرة ٣٢٠
	» هداية الخواص والعقل والدين ٢٨٩
	» الهداية والاستعداد ٢٦٨
	» الهدى والضلالة ١٠٥
	» الهدى في الخيخ ٢١٦ - ٢٢٣
	» الهلال والاستملال ٢٠١ - ٢٠٧
	» وادي محسر ٢٣٣

فهرس الجزء الثاني من التفسير

ق

صفحة	صفحة
٤٤١	الوطنية رابطتها ورابطة الدين
٢٠٤	وظيفة الانبياء
٤٠٤	الوعظ والمتنع به
٢٢٤	الوعيد . قائده وعدم تخلفه
٠١١٩	الوفاء بالعهد
١٩٧	الوقف . أخذ الاجرة منه على التعليم الديني
٢٣٣	الوقوف بعرفات
٢٠٠	وكلاء الدعاوى والحقوق
١٠٨	الولي في النكاح
	« و »
	الواسع العليم
	الواسطة بين الله والناس ٥٥ و ٥٧ و ٦٦
	والد والولد في القصاص ١٢٧
	الوالدان . الوصية لهما ١٣٥ و ١٣٧
	الوالدان المرضعات ٤٠٨
	واو الاستئناف ٤٥٧
	الوحدانية . دلائلها في الخلق ٥٧ - ٦٥
	وحدة الأمة وتكافلها ١٢٧ و ١٣٥ و ١٩٤
	و ٢١١ و ٢٨١ و ٤٠٢
	« الايمان »
	الوحي واستعداد النبي له ٠٢٨٠
	الوحي لنبينا بغير القرآن ٠١٤
	وحي الشياطين ١٣٩
	الورثة في الملك ٠٨٧
	الوسط من الاشياء ٤٩٤
	الوصية . الخنف فيها ٠٠٤
	للزوجة بالتمتع والسكن ١٤٢
	لوالدين والاقربين ٤٤٥
	وصية اليتيم ٠١٣٥
	الوطنية ٣٤٦ و ٣٤٤
	٢٤٦ هامش ٣٠٤
	« ي »
	اليانصيب صفته وحكمه ٣٢٩
	اليتامي ١١٦ و ٣٤٦ - ٣٥٠
	اليتاييع ٦٢
	اليهود أحكام الحيض عندها ٠٣٥٨
	تفرقهم ٢٦٠
	ذم كتبهم لهم ٤٨٣
	صيامهم ١٤٤
	طعن أحبارهم في النبي ١٦
	غلط تواريخهم ٤٨٩
	مع نبينا (ص) ١٠٥ و ١٠٠ و ١٦

فهرس تصويب الخطأ المطبعي في الجزء الثاني من التفسير

ص	س	خطأ	صواب
٢	٩	إيمانكم	إيمانكم
٢١	٤	فأستبقوا	فأستبقوا
٥١	١٠	بيانة	بيان
٥٨	١	سنتين	سني
		ص	س
		خطأ	صواب
		١	كافل
		٢٠	وخيره
		٧٠	والجن والانس والجن
		٩١	تقلدوه
		١٠٤	بد
			لا بد

ر فهرس تصويب الخطأ المطبعي في الجزء الثاني من التفسير

ص	س	خطأ	صواب	ص	س	خطأ	صواب
١٠٧	٢٣	صراطي	هذا صراطي	٣٢٧	٧	في الخصام والخصام	صواب
١١٤	١٤	مدعي	مدعي	٣٢٨	٥	لهذه كهذه	صواب
١٢١	٩	خمسة	خمسا	»	٩	أحد القرى إحدى القرى	صواب
»	١٥	قن	قان	٣٢٩	١٧	إذا المبيع إذا كان المبيع	صواب
١٢٢	١٣	الخمس	الخمسة	٣٤٤	١٤	شهرة شهوة	صواب
١٦٨	١	قاصرة	مقصورة	٣٥١	٩	هذه مثل هذه	صواب
١٧٢	٧	ورضاؤه	ورضاه	٣٦٩	١٧	درجة درجة	صواب
١٧٧	١١	مس كل	مس كل	»	١٠	تلك حدود تلك حدود	صواب
١٩٠	٩	بن المنذر	بن المنذر	٣٨١	٩	الحرج الجناح	صواب
١٩٢	٢٥	مفطر	مفطرا	٣٨٨	٦	إذا إذا	صواب
١٩٧	١	يقرأها	يقرأها	٤٠٨	٧	أنه أن الله	صواب
٢٠٨	٥	بالتقال	بالتقال	»	٢٣	للنساء للنساء	صواب
٢١٢	٧	لاحتدام	لاحتدم	٤١٤	٩	أراد أراد	صواب
٢٢١	٣	إزاء	إزار	»	٩	عليها عليها	صواب
»	٧	حملها	حملها	٤١٦	٢	تعملون تعملون	صواب
٢٣٢	٢٣	ما لم يلزمه	ما لم يلزمه	٤١٧	٢	عبد الجويني الجويني	صواب
٢٣٩	١٩ و ١٣	أعلا	أعلى	»	٤	يعطعها يعطعها	صواب
»	١٦	من إرادة	من أن إرادة	»	١٣	عن على	صواب
٢٤٤	٥	مرضات	مرضات	٤٢٤	١٦	قاصرا مقصورا	صواب
٢٤٥	٢	متقن	متق	٤٢٨	٢	بما النفس بما في النفس	صواب
٢٥٤	٢٤	أقصدنا	أقصدنا	»	١١	عن الموسع على الموسع	صواب
٢٧١	٢٢	العرف	السرف	٤٤٣	٥	ولا تقل ولا تقل	صواب
٢٧٢	١٩	المذهن	المذعن	٤٤٥	١٠	أزواجا أزواجا	صواب
٢٩٠	٢٥	صبغة ومن	صبغة الله ومن	٤٦٠	١٥	الأخلاق أخلاق	صواب
»	»	عابدين	عابدون	٤٨٢	٥	المعرف له	صواب
٣٠٧	٢	واين السيل	واين السيل	٤٨٨	٢٣	صواب بالصواب	صواب
٣١٣	٢٢	دون محادلتهم	دون محادلتهم	٤٩٠	١٧	يجرأ يجرو	صواب
٣٢٦	٢١	يعيق	يعوق				